مصر والشرق الأدنى القديم

(٧)

الحضارة العربية القديمة

الأستاذ الدكتور
محمد بيومي مهران
استاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والاسلامية
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير ـ الأزاريطة
الاسكندرية



الحضارة العربية القديمة

مصر والشرق الأدنى القديم

(٧)

الحضارة العربية القديمة

الأستاذ الدكتور
محمد بيومي مهران

استاذ تاريخ مصر والشرق الادنى القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والاسلامية
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير ـ الأزاريطة
الاسكندرية



والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
مولانا وسيدنا محمــد وآله الكرام

«اللهم صلى على محمد وعلى آل محمــد ، كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على ابراهيم وآل ابراهيم، فى العالمين انك حميد مجيد»

إهـداء

الى الراحـــلة الـــكريمة

الى من كانت نعم الزوجة الصالحة

الى ام ابراهيم والحسين وأمـــل

أهـــدى هـــذه الدراسة

تقديم

اذا كان التاريخ العربى فى عصور ما قبل الاسلام قد تعرض لكثير من الاهمال والخلط ، فضلا عن التشويه المتعمد أو غير المتعمد ، فان تاريخ المرأة العربية ، انما ناله أكبر نصيب من هذا الاهمال ، وذلك التشويه ، حتى أنك لا تقرأ فى هذا التاريخ الا كل ما يسىء الى العرب بعامة ، والمرأة بخاصة ، حتى ذهب البعض الى أنها انما كانت تعامل معاملة الحيوانات الدنيا ، بل وزعم آخرون انها انما كانت قد عرفت نظام «تعدد الأزواج» (Polyandry) [1] .

ويبدو أن هذا لم يكن فى نظرهم كافيا للاقلال من شأن المرأة العربية، ومن ثم فقد ذهبوا الى أنها انما كانت تعامل وكأنها متاع ، وأن القوم انما كانوا يحرمونها أى نصيب من ارث زوجها المتوفى أو من ارث أبيها ، أو أى واحد من أنسبائها ، بل انها هى نفسها انما كانت تورث كجزء من تركة المتوفى[2] ، الى آخر تلك القائمة من الاتهامات التى لا تنتهى ، أو بالأحرى لا يريد لها المتحذلقون — والكارهون للعرب — أن تنتهى .

فهل هذه هى الصورة الحقيقية لمكانة المرأة عند العرب القدامى ؟ .

ان الاجابة على هذا السؤال ، انما هى من موضوعات هذه الدراسة ، وان كنا نود — قبل أن نناقش موضوع مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة — أن نلفت النظر الى عدة نقاط ، منها (أولا) أن مركز المرأة

---

(١) مولانا محمد على : حياة محمد ورسالته ، بيروت ١٩٦٧ ص ٢٧ ، وكذا

(٢) مولانا محمد على : المرجع السابق ، ص ٢٨ .

مرتبط بمركز الرجل نفسه ؛ تهون اذا هان الرجل ؛ وتعز ان عز الرجل . فما هى آخر الأمر ، الا الأم والبنت ، والأخت والزوجة ، وما الرجل بالنسبة اليها : الا الأب والابن ؛ والأخ والزوج .

ومنها (ثانيا) أن بلاد العرب ان كانت قد اهتزت مكانتها فى العصور القريبة من الاسلام ، فهى لم تكن كذلك منذ عصور ما قبل التاريخ ؛ وطوال العصور التاريخية ، ذلك أنه مما لاريب فيه أنها جزء من منطقة الشرق الأدنى القديم ، تلك المنطقة التى انبثقت منها الحضارة الانسانية: وانبعثت أضواؤها التى أشعتها على العالم فنعم بها دهرا ، ولايزال حتى اليوم ينعم بثمارها ، فى هذه البقعة من الأرض ألقيت الحبة الأولى . فأينعت وأثمرت أطيب الثمرات ؛ ووجهت الفكر الانسانى وتسامت به ؛ وحلقت حتى أدركت قوة الخالق — جل وعلا — فمجدته بعد أن عرفته ، وآمنت أنه لا اله الا هو ، لا شريك له ، ثم بشرت به الناس كافة .

وكانت بلاد العرب — كجزء من هذه المنطقة العريقة فى الحضارة — لا تختلف عن غيرها ، قامت بها دول ، ونشأت فيها حضارات ، أسهمت بنصيبها فيما قدمه هذا الشرق الخالد للانسانية من آياد بيضاء ، ثم هى كذلك أراد الله — ولا راد لمشيئته — أن يجعل منها واحدة من مواطن الهداية ومبعث النور ، فأنزل على أرضها رسالات ، واصطفى من بينها بعض أنبيائه ومرسليه ، فكان هود فى الأحقاف ، وكان صالح فى ثمود ؛ وكان شعيب فى مدين ، وكان موسى الذى نادى ربه بجـانب الطـور الأيمن ، على تخوم الجزيرة العربية ، ثم كان من قبل ، ابراهيم الذى بنى البيت . واسماعيل الذى رعاه وورثه أولاده من بعده ، وهكذا كانت بلاد العرب مهبط الوحى منذ القدم ، ولها عهد قديم برسالات السماء التى تتابعت فيها على مر العصور ، حتى كان خـاتم النبيين ، مولانا وسيدنا محمد رسول الله ﷺ .

ومنها (ثالثا) لعل الذين يتفننون فى الاساءة الى تاريخ العرب القديم، انما يتذكرون قول رسول الاسلام — ﷺ — « ان الله اختار خلقه ،

«اختار منهم آدم ، ثم اختار بنى آدم ، فاختار منهم العرب،ثم اختارنى من العرب ، فلم أزل خيارا فى خيار ، ألا من أحب العرب فبحبى أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم»(٣) •

ثم أليس المأثور من شعراء الجاهلية وأخبار الاولين يفيض بصفات النبل التى كان العربى يفخر بها ويحرص عليها ، لأنه يراهـا عنوان الشرف والكمال ، كما كان العربى يمتاز بصفات العقل والشجاعة والنجدة والمروءة وحب الحرية وتعشق الشرف والسؤدد ، فضلا عن قوة الحجة والفصاحة والبيان والاستدلال والاستنتاج ، الى غير ذلك من المؤهلات الخلقية والعقلية العظيمة التى جعلتهم أقدر الناس على حمل الرسالة العالمية للبشرية كافة •

فهل هذا يتفق ، وما كتبه عنهم أصحابنا الأخباريون ، فضـلا عن كتابات اليهود والنصارى ؟

ومنها (رابعا) أن هؤلاء المتحذلقين الذين يعتمدون على ما جاء فى كتاب الله الكريم من أن المرأة انما كانت توأد صغيرة ، ينسـون — أو يتناسون — أن القرآن الكريم انما أشار كذلك الى أن المرأة انما كانت ملكة جليـلة ، «وأوتيت كل شىء ولها عـرش عظيم»(٤) ، وأنها حينما تعرضت لامتحان أمام النبوة — كما تعرض له الملوك والجبابرة فى عصور خلت ، وعصور من بعد قد أتت — انما تصرفت بحكمة عجز عنها بعض الرجـال •

ومن هنا رأينا المرأة العربية — أو قل ملكة سبأ — وقد رأت نفسها بعيدة عن أية ريبة فى أنها أمام نبى الله الكريم ، سليمان عليه السلام ،

---

(٣) رواه الطبرانى عن ابن عمر ، وروى الترمذى مثله ، وقـال حديث حسن ، كما وردت أحاديث مشابهة أو مقاربة ، تبين فضل العرب الذين اختار الله منهم نبيه ، ففى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ «بعثت فى خير قرون بنى آدم فقرنا قرنا حتى كنت من القرن الذى كنت منه» •

(٤) سورة النمل : آية ٢٣ •

وليس كما كانت تظن ـ بادىء ذى بدء ـ أنها أمام ملك يطمع فى دولتها؛ أو يبغى الاستيلاء عليها ، ثم يجعل من أعزة قومها أذلة ؛ وكذلك يفعل الطامعون المستعمرون : تصرفت سيدة سبأ ، تصرفا تفخر به المرأة العربية على طول العصور ، أو قل تصرفا عجز عنه ملك العراق مع الخليل عليه السلام ، أو فرعون مصر مع الكليم عليه السلام ، كما عجز عنه من بعد جبابرة قريش وطواغيت ثقيف وغيرهم من بعض رجالات العرب مع المصطفى ـ ﷺ ـ •

ولعل من الأفضل أن نقول انما هى رحمة الله التى أرادت لقوم سبأ الهداية والرشاد : على يد امرأة منهم عظيمة ، وملكة تسوس أمورهم بحكمة ورشاد ؛ ومن ثم فقد أنهت سيدة سبأ الأمر كله ؛ بأن «قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»(٥) •

والرأى عندى : أن المرأة العربية عندما قدر لها أن تجلس على العرش ـ وكذا عندما كتب عليها الوأد ـ لم تكن تقدم لنا صورة عن نفسها ، بقدر ما كانت تقدم لنا صورا عن العصر الذى عاشت فيه الملكة والموؤدة : والامر كذلك حتى اليوم ؛ فالبنت فى مجتمعاتنا الحالية أو المجتمعات السابقة ؛ انما هى صورة لوضع أسرتها الاجتماعى ـ وربما كان الأصح أن نقول لوضع المجتمع كله ـ فالتى تنشأ فى بيئة مثقفة : انما تكون كذلك ؛ والتى تنشأ فى بيئة جاهلة ، لا تقدم لنا الا صورة عن هذه البيئة ، وهكذا كانت المرأة العربية عشية ظهور الاسلام ، وفى العصر السابق له : صورة من مجتمع الجاهلية وقت ذاك •

ومع ذلك ، فلم تكن صورة المرأة العربية فى عصور ما قبل الاسلام

---

(٥) سورة النمل : آية ٤٤ ، وانظر القصة كلها : تفسير الطبرى ١٤٣/١٩ ـ ١٧٠ ، تفسير القرطبى ١٧٦/١٣ ـ ٢١٣ ، تفسير البيضاوى ١٧٣/٢ ـ ١٧٨ ، تفسير روح المعانى ١٨٢/١٩ ـ ٢١٠ ، تفسير ابى السعود ١٢٧/٤ ـ ١٣٤ ، تفسير ابن كثير ٣٦٠/٣ ـ ٣٦٦ ، تفسير الكشاف ١٤٢/٣ ـ ١٥١ ، تيسير العلى القدير ٣٣٣/٣ ـ ٢٤٠ ، فى ظلال القرآن ٢٦٣/١٩ ـ ٢٦٤٣١ •

قاتمة تماما ، كما خيل للبعض ، وكما أراد الاخباريون أن يصوروه لنا ، صحيح أن المرأة العربية كانت تتعرض للوأد احيانا ، ولكنه صحيح كذلك أنها كانت فى بعض الأحايين ملكة ، كما كانت كاهنة كذلك ، وصحيح أنها كانت لا تورث أحيانا ، ولكنه صحيح كذلك ، أنها كانت فى بعض الأحايين تملك من المال ما يمكنها من أن تستأجر الرجال أنفسهم للعمل عندها .

وصحيح أنها كانت تعضل أحيانا . ولكنه صحيح كذلك أن العصمة انما كانت بيدها فى أحايين أخرى ؛ وصحيح أن الرجل انما كان قادرا على أن يأتى لها بعلات متى شاء ، ولكنه صحيح كذلك أنها كانت تستطيع أن ترفض الزواج منه — بادىء ذى بدء — وصحيح أن السبى كان نصيبها فى غالب الأحايين ، ان هزم قومها ، ولم يستطع رجالها الدفاع عنها ، ولكنه صحيح كذلك أنها كانت فى أحايين أخرى قادرة على أن تدافع عن نفسها ، بل وأن تتولى قيادة الرجال أنفسهم فى ميادين القتال .

وعلى أى حال ، فان مكانة المرأة العربية لم تكن بأقل منها عند غير العرب ، بل ربما كانت هى أعظم مكانة من غيرها — اذا استثنينا المرأة المصرية — ومن ثم فان الاسلام لم يرفع من قدر المرأة العربية فحسب ، وانما رفع من شأن نساء العالمين . وربما كان الأصح ان نقول رفع من مكانة الانسان — رجلا كان أو امرأة — فى أية بقعة من بقاع الدنيا ، دانت به ، واهتدت بهديه ، وعملت بقرآنه ، وأتبعت سنة نبيه ﷺ .

وليت الذين يهونون من شأن المرأة العربية قبل الاسلام ، يقدمون لنا صورة عن مكانة المرأة عند غير العرب — عند الفرس والروم، فضلا عن اليونان واليهود — بل عند الأمم السامية نفسها . وعندئذ سوف يعلمون أن مكانة المرأة فى الحضارة العربية القديمة ، انما تفوق مكانتها فى الحضارات القديمة الأخرى ، فيما عدا الحضارة المصرية القديمة التى خولت المرأة مركزا شرعيا تعترف به الدولة والأمة سواء بسواء .

وليس هناك من سبيل الى شك فى أن بلاد العرب انما تحتل مكانة

ممتازة بين مناطق الشرق الادنى القديم ؛ ذلك لان الحقائق التاريخية انما تقول : ان بلاد العرب ، انما هى الموطن الاصلى للساميين — سكان هذه المنطقة من العالم — وأنهم انما خرجوا منها فى فترات مختلفة ، فيما بين الالف الرابعة والثانية قبل الميلاد ، الى مصر وسورية والعراق ، ثم هى أيضا موطن العربية — اللغة السامية الام — وهى ، دونما ريب ، لا تختلف كثيرا عن غيرها من بلاد تلك المنطقة العريقة فى الحضارة ، قامت بها دول ، ونشأت فيها حضارات ، لهـا من السمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية ، ما لغيرها من دول المنطقة ، وأسهمت بنصيبها فيما قدمه هذا الشرق العربى للانسانية من أياد بيضاء ، ومن ثم فقد تأثرت بلاد العرب بحضارة تلك المنطقة وأثرت فيها ، وارتبطت بها بعلاقات ، سادها الود أحيانا ؛ والنفور أحيانا أخرى •

وهكذا كان لبلاد العـرب علاقات — سياسية وحضـارية ، بمصر والشام وبلاد الرافدين ؛ فضلا عن الحبشة واليونان والرومان والفرس، ومن ثم فتاريخها جزء من تاريخ وحضارة الشرق الادنى القـديم ، تعرضت للضغط الخارجى يوم تعرض هذا الشرق لهذا الضغط أو ذاك ، ونعمت بخيراتها يوم أن كان أمر هذا الشرق فى أيدى أبنائه ، ولاقت ما لاقى هذا الشرق ، يوم أن كانت قوى أجنبية تتحكم فى مصائره ، وتجنى ثمراته ، ومن ثم فليس عجبا أن كان التاريخ العـربى القديم وحضارته متأثرا بتاريخ الشرق الادنى القديم وحضارته ومؤثرا فيه •

هذا ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الديانة العربية القديمة انما هى جد هامة فى تاريخ ديانات الشرق الادنى القديم ، فضلا عن أهمية دراستها لا بالنسبة لدراسة التاريخ العربى القديم ، بل بالنسبة الى الدين الاسلامى الحنيف كذلك ، ذلك أننا نستطيع عن طريق هذه الدراسة أن نتعرف — الى حد ما — على عقلية هؤلاء القوم الذى نزل الوحى بين ظهرانيهم ؛ فضلا عن معرفة تفكيرهم ونظرتهم الى الخالق — جل وعلا — والى الكون ، والى غير ذلك من معتقدات دينية ، كان القوم يؤمنون بها بدرجة أو بأخرى ، ومن ثم نستطيع أن نتفهم رسالة

الاسلام تعظيم . والدور الذى قام به هؤلاء القوم : فهما صحيحا ، وصدق الفاروق عمر ، رضوان الله عليه . حيث يقول : «انما تنقض عرى الاسلام عروة عروة ، اذا نشأ فى الاسلام من لا يعرف الجاهلية»[6] .

هذا فضلا عن أننا قد لا نبالغ كثيرا ، ان قلنا ان دراسة الدين العربى القديم ، قد يعيننا الى حد كبير ، على فهم أمور جاءت فى توراة يهود ، وأناجيل النصارى ، ذلك لأن بعضا من العرب قد اعتنق اليهودية أو النصرانية ؛ ولأن العرب — فى موطن العروبة الأول — كانت على صلات بتلك الأرضين التى أنزلت فيها التوراة من قبل ، والانجيل من بعد ؛ فضلا عن تلك الصلة المباشرة بين تلك الديانات وبين من يسكنون مصر والشام والعراق من عرب ، هاجروا من موطن العروبة الأول الى تلك البقاع فى فترات تتفاوت فيما بين الألف الرابعة والثانية قبل الميلاد .

ثم أن الدين العربى القديم انما يمثل حلقة من حلقات الاديان التى انتشرت فى المنطقة ، وبخاصة فى الشام والعراق ، وسوف نرى — من خلال هذه الدراسة — أن هناك معبودات عبدت فى بلاد العرب ، وهى فى أصولها الأولى منقولة اما من بلاد الرافدين ، او من ديانات الكنعانيين والاراميين والأموريين وغيرهم . بل ان هذه الدراسة سوف تثبت — كما سنرى — أن هناك صلة بين «يهوه» معبود بنى اسرائيل وبين الديانة العربية القديمة[7] ، فضلا عن ان هناك ما يشير الى تاثيرات عربية فى الديانة المصرية القديمة . ذلك أن هناك من الأدلة — كما سوف نرى — ما يشير الى أن المعبود المصرى «حور» انما كانت أصوله الاولى من بلاد العرب ، بل ان هناك فريقا من العلماء انما يذهب الى أن المعبود

---

(٦) تفسير المنار ٢٢/١ (القاهرة ١٩٧٢) .

(٧) انظر : ديتلف نلسن وآخرون : التاريخ العربى القديم — ترجمة فؤاد حسنين — القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٢٣ — ٢٤٠ ، وكذا
D. S. Margoliouth, Relations between Arabs and Israelities Prior to The Rise of Islam, London, 1924, p. 12, 23-25.

المصرى «مين» انما هو كذلك من بلاد العرب[٨] .

وهكذا يبدو واضحا مدى تأثير الديانة العربية فى غيرها ، وتأثرها بغيرها ، فضلا عن قوة تأثيرها فى المؤمنين بها ، حتى أن هناك فريقا من الباحثين انما يرجعون بأسباب وأد البنات الى عوامل دينية فى الدرجة الاولى ـ الى جانب العوامل الاقتصادية والدينية ، كاظهار الشكر لله تعالى على نعمه ، ويذكرون أن ذلك انما كان أثرا من تقاليد وشعائر دينية معروفة ، بغية التقرب الى الآلهة[٩] .

غير أن هناك من يفسر هذا السبب الدينى تفسيرا مختلفا ، ويذهب إلى أن وأد البنات ، دون الذكور ، انما يرجع الى اعتقاد القوم أن البنات رجس من خلق الشيطان ـ أى من خلق الله غير آلهتهم ـ فتخلصوا منهن ، وعلى أية حال ، فهذا نوع من الوأد يختلف عن الوأد الذى سببه الفقر ، وأنه كان مقصورا على البنات دون البنين[١٠] .

ويذهب الامام القرطبى فى تفسيره للآيات الكريمة «ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ، واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم» ، يذهب الى أنها نزلت فى «خزاعة» ، فانهم زعموا

---

(٨) أنظر : محمد بيومى مهران ـ الحضارة المصرية القديمة ـ الاسكندرية ١٩٨٤ ، أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ، كتاب الحيوان للدميرى ٤٣٢/١ ، ٩١/٢ ، وكذا
S.A.B. Mercer, Hours, Royal God of Egypt, Massachisetts, 1942, p, 88-90.
وكذا H. Gauthier, in BIFAO, II, 1901, p. 99, 142, 198, 299, I0, 1912, p. 106-107.
وكذا L. Meyrowitz, The Divine Kingship in Gband and Ancient Egypt, London, 1960, p. 84.

(٩) أنظر : محمد بيومى مهران : الديانة العربية القديمة ـ الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٨ ، على الهاشمى ، المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

(١٠) على عبد الواحد وافى : الاسرة والمجتمع ـ القاهرة ١٩٤٥ ص ١١٩ ـ ١٢٣ ، أحمد محمد الحوفى : المرأة فى الشعر الجاهلى ـ القاهرة ١٩٥٤ ص ٢٣٦ .

أن الملائكة بنات الله ، ومن ثم فقد كانوا يقولون : الحقوا البنات بالبنات، فنسب سبب الوأد عند القوم الى عقيدتهم هذه(١١) •

وبعد : فهذه دراسة موجزة عن الحضارة العربية القديمة ، وخاصة فى جوانبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية ، واننى لكبير الامل فى الله تعالى أن يكون فيها بعض النفـــع ، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين •

«وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب» •

دكتور

محمد بيومى مهران

استاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والاسلامية
كليـة الآداب ـ جامعة الاسكندرية

---

(١١) سورة النحل آية ٥٦ ـ ٥٧ وانظر تفسير القرطبى ص ٣٧٣٢ (القاهرة ١٩٧٠) تفسير الخازن ١١٩/٣ •

الباب الأول

الحيـــاة الاجتمـــاعية

الفصل الأول

الاســـرة

أولا : الزواج :

كان العلماء فى القرن المضى يعتقدون أن النظام الاجتماعى فى بلاد العــرب ، انما كان يقــوم على أن القبيــلة هى الوحــدة السياسية والاجتماعية[1] ؛ غير أن الأبحاث انما تتجه الآن الى أن الأسرة هى الوحدة الأساسية فى نظام البدو الاجتماعى والسلطة العليا فيها للأب ، وان لم نعدم آثارا من سلطة الأم (Matriarchy) وأن الأبناء حين يتزوجون انما يبقون — فى غالب الأحايين — مع الأسرة ، الأمر الذى أدى بطبيعة الحال الى أن يتسع بيت الأب[2] .

وفوق الأسرة كانت القبيلة ، وهى مجموعة أسر أو عشائر تربطها أواصر النسب ، ومن ثم فان أبناء العشيرة الواحدة انما ينظرون بعضهم الى بعض كأبناء دم واحد ، فاذا أضفنا الى ذلك المصالح المشتركة لتبين لنا كيف كانت القبيلة تعيش معا وتهاجر معا ؛ فالحاجة الى الامان تخلق شعــورا قويا بالتماسك ، ولعل هــذا من أهم الملامح المميزة للمجتمع البدوى ، هذا فضلا عن أنه بسبب هذا التماسك انما تستنكر القبيــلة بأسرها أى اعتداء يقع على فرد منها ، وتشارك جميعا فى واجب الثأر[3] .

---

(١) W.R. Smith, Kinship and Marriage in Early Arabia, London. 1907, p. 1.

(٢) سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ص ٥٥ ، محمد جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والامم السامية ص ١٠ وكذا W.R. Smith, Religion of the Semites, p. 38. وكذا P.K. Hitti, History of the Arabs, p. 26.

(٣) موسكاتى : المرجع السابق ص ٥٦ ، فيليب حتى : تاريخ العرب ٣٣/١ .

١ ـ اختيار الزوجة :

وعلى أي حال ، فلقد كان العربى كثير الاهتمام باختيار زوجته من دوات الحسب والنسب ، ايمانا منه بأن الزوجة سكنه ومتاعه وقسيمته فى انتاج أولاده ؛ يرثون منها كما يرثون منه ، ويتطبعون على كثير مما تطبعهم عليه ، وتأخذهم به منذ الحداثة ، ولذلك تخير الزوجة جهده ، وقد كانت الزوجة المثلى تمتاز بصفات تحببها الى الرجل ، منها المجد وحسن الأحدوثة ، والاشتهار بمكارم الأخلاق ، سواء اقترن بها ثراء ، أم لم يقترن ، يدل على ذلك أن «قيس بن زهير» سيد عبس ، طلب من «النمر بن قاسط» من ربيعة ، أن يختار له زوجة ، أذلها الفقر وأدبها الغنى(٤) .

ويوصى «أكثم بن صيفى» قومه بقوله :«لا يكفيكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فان المناكح الكريمة مدرجة الشرف»(٥) ، وأمتن أبو الاسود الدؤلى على بنيه بقوله : «أحسنت اليكم كبارا وصغارا ، وقبل أن تولدوا ، قالوا : كيف أحسنت الينا قبل أن نولد ، قال : اخترت لكم من النساء من لا تسبون بهن»(٦) .

وكان العربى ــ كما كان المصرى(٧) واليهودى ــ يفضل المرأة الولود ، ومن هنا كان ايثارهم للشابة البكر ، اذ كانوا يفرحون بكثرة الأولاد ــ ولاسيما الذكور ــ ويعتزون بهم ويكاثرون ، وهم طالما خايلوا بكثرة عددهم(٨) ، وعيروا بقلته ، لأن حياتهم القبلية انما كانت تعتمد على العصبية والنصرة فى الحروب ، وفى كثرة العدد عزة ومنعة ، وفى

---

(٤) أحمد محمد الحوفى : المرأة فى الشعر الجاهلى ص ١١٨ ، العقد الفريد ٢١١/٣ .

(٥) مجمع الامثال ٢١٨/٢ ، محاضرات الادباء ١١٧/٢ .

(٦) كنز العمال ٢٨٨/٨ ، محاضرات الادباء ١١٧/٢ .

(٧) أنظر نصائح الحكيم المصرى «آنى» ، فى
A. Erman, The Literature of the Ancient Egyptians, 1927.

(٨) وهكذا كان المصريون : يقول آنى : طوبى للرجل اذا أصبح كثير الاهل وأصبح يرتجى من أجل أبنائه (عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ٣٥٢/١) .

قلته ضعف واستهانة . لذلك كانت القبيلة تهنأ وتقيم العرس لـثلاث : غلام يولد ، أو شاعر ينبغ ؛ أو فرس تنتج[٩] .

وتأبى أنوثة المرأة الا أن تستعلن فى تفضيلها المرأة الولود ، وتجيب «هند بنت الخس الايادية»[١٠] رجلا سألها عن أفضل النساء ، فتقـول «خير النساء التى فى بطنها غلام ، تحمل على وركها غلام ، يمشى وراءها غـلام»[١١] .

وكان القوم غير ميالين الى الزواج من المرأة الثيب ، ويروى عن عمر رضى الله عنه فيما بعد «أنكحوا الجوارى الأبكار ، فانهن أطيب أفواها وأنتق أرحاما»[١٢] ، بل ان النبى ــ ﷺ انما كان يحث على اختيـار البكر[١٣] ، كما كان القوم غير ميالين كذلك الى اختيار المتمارضة والغنية التى تمن بمالها على زوجها ، وغير المتصونة ؛ ومن ثم فقد رأينا رجـلا ينصح ولده بقوله : «يا بنى لا تتخذهـا حنانة ولا أنانة ولا منانة ولا عشبة الدار ولا كية القفا»[١٤] .

على أن الثيب ، ان كانت تشتهر بعراقة أو بجمال ، أو خلق كريم ومال ، أو تجتذب الرجال بحبالة ما ، فانها قد تتزوج مرات ، ونقرأ فى «المحبر» عن عدد من النساء تزوجن أكثر من ثلاثة رجال ، ومنهن مارية

---

(٩) احمد الحوفى : المرجع السابق ص ١٢١ ، العمدة لابن رشيق ٣٧/١ .

(١٠) هند بنت الخس (أو الخص أو الخسف) واحدة من حكيمات العرب ، عاشت قبل الاسلام بحوالى ثلاثة قرون ، اذا صح انها اجتمعت فى سوق عكاظ بالقلمس الكنانى ، وأن القلمس ــ وهو سرير بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ــ هو أول من أطلق عليه هذا اللقب ، وهـو لقب كان يطلق على كل من قام بنسء الشهور فى الجاهلية (انظر : مجلة العرب ، الرياض يونية ١٩٦٧ ص ٧٩٤ ــ ٧٩٦ ، جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٨٩ ، أعلام النساء ٢٣١/٥ ــ ٢٣٤) .

(١١) الامالى ٢٥٧/٢ ، ذيل الامالى ١٠٨/٣ ، مجلة العرب،يونية ١٩٦٧ ص ٨٠١ ، قارن : أعلام النساء ٢٣٢/٥ .

(١٢) كنز العمال ٢٨٨/٨ ، قارن : جمهرة الامثال لابى هلال ص٧٦

(١٣) انظر : فتح البارى ١٠٤/٩ ، السنن الكبرى للبيهقى ٨٠/٧ ، كنز العمال ٢٨٥/٨ ، الحوفى : المرجع السابق ص ١٢١ .

(١٤) الامالى ٢٥٦/٢ ، المحاسن والاضداد ص ١٦٩ .

بنت الجعيد من بنى عبد القيس ، وقد تزوجت من عشرة رجال ، وتزوجت أم خارجة (عمـرة بنت سعد البجلية) من ثمـانية رجال — وان رأى المفضل الضبى أنها تزوجت خمس مرات فحسب — وتزوجت عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل ، من ستة رجال ، وتزوجت هند بنت عتبة — وكذا دخنتوس بنت لقيط — من ثلاثة رجال[١٥] .

هذا وقد كان العربى — وكذا اليهودى —[١٦] انما يفضل أن تكون زوجه من نفس قبيلته ، فقوة التقاليد والرغبة فى نقاء الجنس ، وهما أمران لهما أهمية كبيرة فى الحياة القبلية — تجعلان من اتخاذ الزوجات الأجنبيات أمرا بغيضا[١٧] ، هذا فضلا عن اعتقاد البعض منهم أن بنات العم أصبر على ريب الزمان ، ومن هؤلاء بنو عبس ، وقـد سئلوا أى النساء وجدتم أصبر ؟ ، قالوا : بنات العم[١٨] .

على أن هناك من كان يفضل الاغتراب ، اعتقادا منهم بأن ولد الرجل من قرابته انما يجىء ضاويا نحيفا ، ومن ثم فقد جاء فى أمثالهم : النزائع لا القرائب ، واغتربوا ولا تضووا . أى انكحوا فى الأباعد حتى لا يولد لكم ضاو[١٩] .

ويبدو أن ما ذهب اليه الأسلاف من العرب انما هو صحيح تماما ، ذلك لأن الوراثة — فيما يرى كثير من الباحثين — لها دور كبير فى حياة الانسان ، بل ان الانسان نفسه ما هـو الا نتـاج أبوين ، يرث منهما الكثير من صفاته الجسدية — فضلا عما يرثه من بعض صفات أجداده —

---

(١٥) محمـد بن حبيب : كتاب المحبر ص ٤٣٥ — ٤٣٧ ، وانظر : تهذيب الكامل ١١٧/٢ ، الاصابة ٦٠/٨ ، ١٣٣ .

(١٦) انظـر كتابنا «اسرائيل» ص ٢١٤ — ٢١٧ (عن قصة زواج اسحاق ويعقوب من عشيرتيهما فى ارام النهرين) .

(١٧) موسكاتى : المرجع السابق ص ٥٥ .

(١٨) عيون الاخبار ١٩٧/١ ، الحوفى : المرجع السابق ص ١٢٧ .

(١٩) مجمع الامثال ٢٧٠/٢ ، لسان العرب ٢٢٥/١٩ ، المعـانى الكبير لابن قتيبة ٥٠٢/١ ، البيان والتبيين للجاحظ ٦٨/٣ .

سواء أكان ذلك عن طريق الأب أو الأم[٢٠] .

على أن لاغتراب العرب بواعث أخرى ، فالمصاهرة بين قبيلتين تصلهما برباط من المودة والتحالف ، أو تزيد ما بينهما من محبة وتآلف ، والزواج من قبيلة أخرى دليل على الفتوة والرجولة وحسن الأحدوثة ، ثم أن نشأة الفتى بين قريباته قد تصرفه عن جمالهن وجاذبيتهن ؛ لأنه ألف أن يراهن،ولكن بعد الغريبات عنه يضفي عليهن سحرا وجاذبية[٢١].

ومع ذلك كله ، فشأن المرأة انما كانت تفضل أن تتزوج فتى من عشيرتها ، ايثارا لقربها من آلها ، ورغبة فى أن تقيم بوطنها ، وتهيبا من معاشرة من لا تعرف ، وربما — فيما يرى فلهاوزن — أن النساء كن يجتمين بعشيرتهن حتى ومن متزوجات فى عشيرة أخرى[٢٢] ؛ ولعل مما يدل على ايثار المرأة العربية للزوج القريب ، قول ابنة أوس بن حارثة الطائى الكبرى ، لأبيها حينما عرض عليها الزواج من الحارث بن عوف : لا تفعل . «لأنى ... لست بابنة عمه فيرعى رحمى . وليس بجارك فيستحى منك»[٢٣] ، ثم نصيحة أخت لأختها الصغرى بألا تقبل مثل هذا الزواج ، لأن «شر الغريبة يعلن ، وخيرها يدفن ، تزوجى فى قومك»[٢٤] ، ثم هناك قول الخنساء لأبيها ؛ وقد أراد أن يزوجها من دريد بن الصمة «أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح ؛ وناكحة شيخ بنى جشم»[٢٥] .

٢ ـ الزواج من الاجانب :

كانت الفتاة العربية — وكذا قومها — انما يرون أن الزوج يجب أن

---

(٢٠) الحوفى : المرجع السابق ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ، الحيوان ١٤٨/١ وكذا انظر :
E. Moore, The Science of Livings. Heredity, The Stream of Life, p.545F.

(٢١) أحمد الحوفى : المرجع السابق ص ١٢٩ .

(٢٢) J. Wellhausen, The Women in Ayyam el-Arab. p. 60.

(٢٣) الاغانى ١٤٢/٩ ، أعلام النساء ١٣١/١ .

(٢٤) مجمع الامثال ١٢٤/١ .

(٢٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١٢٢/١ ، الاغانى ١١/٩ ، أعلام النساء ٣٠٨/١ .

يكون عربيا ؛ ذلك لأن العرب قوم ذو حمية وأنفـة ؛ واعتداد بالنفس والجنس ؛ يرون أنفسوم أرقى الأمم وأصفاها ؛ فليس شعب بكفء أن يصهر اليهم : حتى ان كان ذلك الزوج ملكا عظيما ، وهكذا تروى المراجع العربية أن «كسرى أبرويز» (٥٩٠ — ٦٢٨م) أراد أن يزوج أولاده . فأشار «زيد بن عدى» — وكان عدوا للنعمان — أن فى بنـات النعمان ملك الحيرة (٥٨٠ — ٦٠٢م) وبنات أهله أكثر من عشرين فتاة يصلحن لما يريد كسرى ، وهكذا ذهب زيد الى النعمان يطلب النساء لأبناء ملك فارس ؛ فكان الجواب «أما فى بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا» ؛ فكان ذلك سببا فى غضب كسرى .

ومن ثم فقد قرر استدعاء النعمان للقضاء عليه ؛ فهرب النعمان الى طىء أصهاره ، أملا فى حمايتهم له ؛ ولكن القوم رفضوا حمايته خوفا من العاهل الفارسى : مما اضطره الى أن يودع أهـله وماله عند « هانىء بن مسعود الشيبانى» ، ثم توجه الى كسرى ، حيث أرسل مخفورا الى «خانقين» أو «ساباط» حيث بقى هناك حتى مات بالطاعون على رواية . وطرح بين أرجل الفيلة فداسته حتى مات على رواية أخرى[٢٦] .

وهكذا دفع النعمان حياته — فضلا عن عرشه[٢٧] — ثمنا لصـون كرامة المرأة العربية من أن تكون تحت فارسى ، حتى وان كان ملكا ، ثم سرعان ما تطورت الأحداث ، حين رفض «هـانىء بن مسعود» ارسال ما استودعه النعمان الى كسرى ، الى موقعة «ذى قـار» المشهورة .

---

(٢٦) تاريخ الطبرى ٢٠١/٢ — ٢٠٦ ، ابن الاثير ٤٨٢/١ — ٤٨٨ ، تاريخ اليعقـوبى ٢١٤/١ — ٢١٥ ، مروج الذهب ٧٦/٢ — ٧٨ ، تاريخ ابن خـلدون ٢٦٥/٢ — ٢٦٧ ، ابن قتيبة : المعـارف ص ٢٨٤ ، الشعر والشعراء ١٥٠/١ — ١٥٦ ، المقدسى ٢٠٥/٣ — ٢٠٦ ، ياقوت ٢٩٣/٤ — ٢٩٤ ، لويس شيخـو : شعراء النصرانية ص ٤٩١ ، ديوان الاعشى ص ١٢٨ ، لسان العرب ٣٠٨/٧ ، أيام العرب فى الجاهلية ص ١٨ — ٢٤ ، جورجى زيدان : العرب قبل الاسلام ص ٢٢٠ .

(٢٧) تاريخ الطبرى ٢٠٦/١ ، ٢١٣ ، تاريخ ابن الاثير ٤٨٨/١ ، ٤٩١ ، المحبر ص ٣٦٠ ، شعـراء النصرانية ١٣٥/١ ، ١٣٧ ، حمـزة الاصفهانى : تاريخ سنى ملوك الارض والانبياء ص ٧٤ .

والتى أبلى العرب فيها بلاء حسنا ، فكتب لهم — ولأول مرة — نصرا مؤزرا على الفرس(٢٨) .

ويبدو أن كثيرا من الشعوب القديمة ، انما كانت تشارك العرب وجهة نظرهم بالنسبة الى زواج المرأة من غير أبناء جنسها ، فالمصريون الذين كانوا يعتقدون أنهم وحدهم المتمدينون ، لأنهم من نوع ممتاز ، تحرسهم عناية خاصة ، كما أنهم وحدهم الشعب الذى يستطيع أن يحمل عن جدارة اسم «رومى» ، أما الأجانب فلا ، ومن ثم فقد كانوا يسمون أنفسهم «الناس» أو «الرجال الحقيقيين» ، تمييزا لهم عن غيرهم من جيرانهم الأقربين من الليبيين والافريقيين والاسيويين الذين كانوا يطلقون على رؤسائهم لقب «وغد» ، هذا فضلا عن عما كانوا يعتقدونه فى بلادهم من امتياز ومكانة ليست لغيرها من البلاد(٢٩) .

ومن ثم فقد رأينا أن القوم لا يزوجون بناتهم من الأغراب ، حتى أن الفرعون «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ — ١٣٦٧ ق.م) — رغم ترحيبه بمصاهرة ملوك الشرق وأمرائه — انما كان ضنينا عليهم بأميرات بيته ، ولعله كان يرى أن دماء الفراعنة ليست من عامة الدم ، وانما هى دماء عزيزة مقدسة ، وأن بناته اللائى يجرى فى عروقهن الدم المقدس أرفع

---

(٢٨) تاريخ اليعقوبى ٢٢٥/١ ، تاريخ الطبرى ٢٠٦/٢ ـ ٢١٢ ، المعارف ص ٢٦٠ ، الشعر والشعراء ٣٧٥/١ ، مروج الذهب ٧٨/٢ ، ابن الاثير ٤٨٢/٢ ـ ٤٩٠ ، ياقوت ٢٩٣/٤ ـ ٢٩٤ ، أيام العرب فى الجاهلية ص ٢٥ ـ ٣٩ ، الاغانى ١٢٧/٢ ، أبو الفداء ١٠١/١ ، الامالى ١٦٩/١ـ ١٧١ ، البكرى ١٠٤٢/٣ ـ ١٠٥٣ ، العمدة ١٦٩/٢ ـ ٢١٨ ، التنبيه والاشراف ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ ، تاريخ ابن خلدون ٢٦٨/٢ ، ٢٧١ ، جواد على ٢٩٤/٣ ، الميدانى ٢١٦/٢ ، المحبر ص ٣٦٠ ـ ٣٦١ ، وكذا
R.A. Nicholson. A Literary History of the Arabs, Cambridge, 1962. p.70
وكذا Caussin de Perceval, Essai sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, I, p. 184.

(٢٩) A. Gardiner, Egyptian Grammar. p. 461.
وكذا A. Gardiner. Egypt of the Pharaohs, p. 37.
وكذا J. Wilson. The Culture of Ancient Egypt, p. 112.
وكذا A. Gardiner. in JEA, I, p. 30.
وعن كلمة «رومى» ومعناها «جنتلمان» (انظر : هيرودوت ١٤٣/٢ ، وكذا
A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 37).

من أن تحتويهن مضجع الملوك من غير آل فرعون . ونقرأ فى رسائل العمارنة عن الملك «كادشمان أنليل» الذى سأل «أمنحتب» أن يزوجه من أميرة مصرية ؛ فرفض الفرعون هذا الملتمس باحتقار وتعال ، بحجة أنه «لم يسبق أن زوجت أميرة مصرية الى أى انسان» ؛ وحين يعيد الملك البابلى سؤله ، لم يكن نصيبه هذه المرة بأفضل من الأولى ، ومن ثم نراه يطلب من الفرعون أية امرأة ، ولم يشترط سوى أن تكون مصرية فحسب(٣٠) .

ومن هذا يتضح أنه كان يرضى بأية امرأة مصرية ، مادام فرعون لم يشأ أن يزوجه من ابنته المصرية ، وهو يلتمس هذه المرأة حتى يموه على شعبه بأنه تزوج من امرأة مصرية ، ولعله شرف كان يصبو الى تحقيقه(٣١) .

والأمر كذلك بالنسبة الى بنى اسرائيل ، الذين كانوا يظنون — فيما تروى توراتهم — أنهم شعب مقدس اختاره الرب ليكون شعبه المختار دون بقية شعوب الأرض(٣٢) ، ومن ثم فقد خاطبهم فى سفر الخروج «واتخذكم لى شعبا وأكون لكم الها»(٣٣) ؛ وهكذا نظر الاسرائيليون الى أنفسهم على أنهم الشعب الذى اصطفاه الله وفضله على العالمين ؛ وأن من عداهم من الشعوب أقل منهم مكانة فى سلم الانسانية(٣٤)، وانطلاقا من هذا الزعم فانهم انما كانوا يحرمون زواج بناتهم من الكنعانيين أو غيرهم .

ونقرأ فى التوراة وفى اصحاح كامل من سفر التكوين — عن ابنة يعقوب «دينة» والتى شغف بها حبا «شكيم بن حمور الحوى» ونال منها وطره،

---

(٣٠) احمد بدوى : فى موكب الشمس ٥٧٨/٢ ، وكذا
S. Mercer, The Tell el-Amarna Tablets, I, p. 13, 63.

(٣١) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ١٨٥/٢ ؛ ثم قارن ٢١١/٥ ، وانظر : كتابنا «اسرائيل» ص ٢١١ .

(٣٢) خروج ١٩ : ٦ ، تثنية ١٠ : ١٥ .

(٣٣) خروج ٦ : ٧ .

(٣٤) محمد بيومى مهران — دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم — الجزء الثانى — اسرائيل ص ١٠٩ — ١١٣ (التوراة والتفرقة العنصرية) .

ثم عرض على أبيها أن يزوجها له ، فقبل الأب . واشترط الأخوان - شمعون ولاوى - أن يختتن قوم شكيم قبل الزواج ؛ ثم سرعان ما يوتيل الأخوان الفرصة ويجندلان بسيوفهما ذكور كل تلك المدينة ويسبيان نساءها وأطفالها ، ويستوليان على غنم القوم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل[٣٥] .

وقد يظن البعض أن ولدى يعقوب قد فعلا ببنى شكيم ما فعلا ، انتقاما للعرض المستباح ، ولكن الحقيقة غير ذلك تماما ، لأنهما فعلا ذلك يمانا منهما بعدم كفاءة ابن الرئيس الحورى للزواج من اختهما ، ذلك لأن التوراة لا تحرم مثل هذا الزواج ، غير أن الرجل لا يستطيع أن يطلق الفتاة بعد ذلك . تقول التوراة : «اذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة فامسكها واضطجع معها فوجدا ، يعطى الرجل الذى اضطجع معها لأبى الفتاة خمسين من الفضة ، وتكون هى له زوجة من أجل أنه قد اذلها ، لا يقدر أن يطلقها كل أيامه»[٣٦] .

هذا وقد كان اليونانيون لا يزوجون شعبا آخر ، لأنهم أطلقوا على غيرهم من الشعوب كلمة «بربر» ونظروا اليهم على أنهم دونهم والأمر كذلك بالنسبة الى الرومان ؛ حتى أن الامبراطور «فالنتيان» قد سن قانونا يقضى بالاعدام على كل رومانية تتزوج بغير رومانى[٣٧] .

على أن هذا كله لا يمنع من وجود زيجات تمت بين هذه الشعوب . وطبقا لرواية التوراة ؛ فقد تزوج سليمان عليه السلام (٩٦٠ - ٩٢٢ ق.م) من ابنة فرعون[٣٨] - والذى ربما كان «سى أمون»[٣٩] أو

(٣٥) تكوين ٣٤ : ٣١ .
(٣٦) تثنية ٢٢ : ٢٨ - ٢٩ .
(٣٧) على عبد الواحد وافى : الاسرة والمجتمع ، القاهرة ١٩٤٥ ص ٣٣ - ٣٥ ؛ أحمد محمد الحوفى : المرأة فى الشعر الجاهلى ص ١٣٩ .
(٣٨) ملوك أول ١١ : ١ ، وانظر : مقالنا « العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة» ص ٣٧٥ .
(٣٩) عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ص ٣٨٩ وكذا
JNES, 22, 1963, p. 1 F.

«بسوسنس الثانى»[٤٠] بل ربما كان «شيشنق الاول» فيما يرى بعض الباحثين[٤١] — وان لم تكن هناك أية اشارة من الجانب المصرى تؤكد هذا الزواج[٤٢] .

هذا وقد تزوج «هيرودوس» ملك اليهودية من ابنة «الحارث الرابع» ملك الانباط (٩ ق٠م — ٤٠م) ، وان تجرأ بعد حين من الدهر فطلقها ليتزوج من راقصة كانت السبب الرئيسى فى مقتل يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) ، مما كان سببا فى حروب طاحنة بين الفريقين انتهت بانتصار الحارث فى «جلعاد»[٤٣] .

٣ — حرية المرأة العربية فى اختيار الزوج :

كانت المرأة البدوية فى الجاهلية تتمتع بحظ وافر من الحرية ، ربما لم تعرفه اختها الحضرية[٤٤] ، ومع أنها كانت تعيش فى بيئة تقر تعدد الزوجات ، وتخضع لنظام يجعل الرجل «بعلا» أى سيدا لها ، فقد كان مركز المرأة العربية قبل الاسلام عظيما ، ومن ثم فقد استمتعت بحق الحرية فى اختيار زوجها ، فلم تكن تقسر على زوج لا ترتضيه ، أو تزوج بغير مشورة ، بل انها انما كانت فى بعض الاحايين تزوج نفسها بنفسها ، كما كانت تستطيع هجر زوجها والعودة الى أهلها ، اذا لم يحسن هذا الزوج معاملتها[٤٥] .

---

(٤٠) A. Lods, Israel, From its Beginnings to the Middle of the Eight Century, p. 368.
وكذا F. Petrie, A History of Egypt, p. 66.
(٤١) W. Oesterley, Egypt and Israel, in The Legacy of Egypt, Oxford, 1947, p. 225.
(٤٢) J. H. Breasted, A History of Egypt, p. 529.
وكذا A. Gardiner, op. cit., p. 359.
(٤٣) متى ١٤ : ٣ — ١١ ، تاريخ يوسفيوس ص ٢١٣ — ٢١٤ ، فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين الجزء الاول ص ٤٢٠، ٤٢٢، جواد على ٤٣/٣ — ٤٤ وكذا
Josephus, Antiquities of the Jews, 18, V, I.
(٤٤) سعد زغلول : فى تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٣١١ وكذا
وكذا P. K. Hitti, op. cit., p. 29.
(٤٥) R.A. Nicholson, op. cit., p. 47.

وهكذا رأينا «ماوية بنت عفزر» تتزوج ممن أرادت ، اذ وازنت بين خاطبيها الثلاثة — النابغة الذبياني وحاتم الطائي ورجل من النبيت — (أو هم زيد الخيل وأوس بن حارثة وحاتم الطائي) ، ثم اختارت حاتما من بينهم[٤٦] ؛ وقد فعلت ذلك امرأة من «هذيل» عندما خطبها «تأبط شرا» ، فقيل لها «لا تنكحيه فانه وشيك أن يقتل» ؛ فرفضته[٤٧] .

وهناك «الرباب السدوسية» : فقد خطبها «خداش بن حابس التميمي» فرفض أهلها ؛ فاضرب عنها زمنا ، ثم أقبل ذات ليلة راكبا فانتهى الى محلتهم وهو يتغنى بشعر عرفت منه الرباب بأن الرجل مايزال على حبها ؛ فأرسلت اليه أن قد عرفت حاجتك فاغد على أبي خاطبا ، ورجعت الى أمها فقالت : «يا أمه هل أنكح الا من أهوى ، والتحف الا من أرضى» ، قالت : لا فما ذاك ؟ قالت : فانكحيني خداشا ، فأخبرت الام أباها ، فلما أصبحوا غدا عليهم خداش ؛ فسلم وقال : العود احمد ، والمرء يرشد ، والورد يحمد ، فأرسلها مثلا . وتزوج من الرباب[٤٨] .

وهناك الخنساء بنت عمرو بن الحارث بن الشريد — الشاعرة الشهيرة — وقد خطبها «دريد بن الصمة» — فارس هوازن وسيد بني جشم — فذهب اليها أبوها يستشيرها لانها — على حد قوله — «لها من نفسها ما ليس لغيرها» ؛ فرفضت[٤٩] — كما رأينا آنفا — .

وهناك «خود بنت مطرود البجلية» فقد خطبها سبعة أخوة من بني عامر من الأزد ، فدخل عليها أبوها يسألها رأيها ، فأخذت رأي أختها التي أشارت برفضهم جميعا ؛ «لأن شر الغريبة يعلن وخيرها يدفن» ؛ وأن تتزوج من قومها ؛ غير أن «خود» قد رفضت مشورة اختها ، وطلبت من أبيها أن يزوجها من واحد منهم ، هو «مبروك» ، فأنكحها أبوها من أرادت

---

(٤٦) الاغاني ١٠٤/١١ ، ١٠٠/١٦ ، الشعر والشعراء ١٦٧/١ ، جواد علي ٨١٥/٩ — ٨١٦ ، قارن : أعلام النساء ١٣/٥ — ١٧ .
(٤٧) الاغاني ٢١٧/١٨ ، شرح الحماسة للتبريزي ٢٦/٢ .
(٤٨) مجمع الامثال ٤٤٠/١ ، أعلام النساء ٣٧٦/١ — ٣٧٧ .
(٤٩) الامالي ١٦١/٢ ، اعلام النساء ٣٠٨/١ — ٣١٠ ، الاغاني ١١/٩ ، ١٣٨/١٣ .

على مائة ناقة ورعاتها(٥٠) .

ويروى «عمر بن معد يكرب» أنه بينما كان فى غارة على بنى مالك ، سمع جارية — وهى تجلس مع صواحب لها — تقول لوليدة من ولائدها : ادعى لى فلانا ، فلما جاء قالت له : نفسى تحدثنى أن خيلا تغير على الحى ، فكيف أنت ان زوجتك نفسى ؟ قال : أفعل واصنع ، وجعل يصف نفسه ويفرط ، فقالت له : انصرف حتى أرى رأيى ، وأقبلت على صواحبها وقالت : ما عنده خير ، ثم استدعت آخر ، ففعل كما فعل الأول ، فقالت لوليدتها : ادعى لى «ربيعة من مكدم» فقالت له مثل قولها للرجلين ؛ فأجابها : ان أعجز العجز وصف الرجل نفسه ، ولكنى ان لقيت أعذرت . وحسب المرء غناء أن يعذر ، فقالت له : «قد زوجتك نفسى ، فاحضر غدا مجلس الحى ليعلموا ذلك»(٥١)

وهناك «بهيسة بنت أوس بن حارثة الطائى» ، وقد جاءها «الحارث بن عوف المرى» خاطبا — بعد أن اعتذرت اختيها — فقبلت برضى واقتناع ، لأنها — على حد قولها — «والله الجميلة وجها ، الصانعة يدا ، الرفيقة خلقا ، الحسيبة أبا ، فان طلقنى ، فلا أخلف الله عليه بخير» ، فخرج أبوها ، وقال : للحارث : قد زوجتك يا حارث بهيسة بنت أوس ، قال : قد قبلت»(٥٢) .

وكانت «هند بنت عتبة بن ربيعة» — أم معاوية بن أبى سفيان — بعد طلاقها من الفاكه بن المغيرة ، تهوى مسافر ابن أبى عمرو وكان هو يهواها ، غير أنه كان معسرا ، فأشارت عليه أن يفد الى بعض الملوك لعله يصيب مالا فيتزوجها ، وفى أثناء غياب مسافر ، تقدم لخطبتها أبو سفيان وسهيل بن عمرو ، وخيرها أبوها — وكانت امرأة قد ملكت نفسها — أى الرجلين تختاره بعلا لها ، فاختارت أبا سفيان ، فزوجها

---

(٥٠) مجمع الامثال ١٢٤/١ ، أعلام النساء ٢٩٧/٢ — ٢٩٩ .
(٥١) الاغانى ١٣٢/١٥ ، الحوفى المرجع السابق ص ١٣٦ .
(٥٢) الاغانى ١٤٢/٩ . أعلام النساء ١٢٩/١ — ١٣٢ .

أبوها منه[٥٣] ، وكذلك استشار «علقمة بن خصفة الطائى» ابنته ، لما تقدم اليه الحارث بن سليل الاسدى خاطبا ، اذ قال علقمة لأم الفتاة : أريدى ابنتك على نفسها ، فاستشارتها[٥٤] .

وهناك زواج مولانا وسيدنا رسول الله — ﷺ — قبل البعثة من أم المؤمنين خديجة ، رضوان الله عليها ، وقد كانت يومئذ أوسط نساء قريش نسبا ، وأعظمهن شرفا ، وأكثرهن مالا ، كل قومها كان حريصا على خطبتها ، لو يقدر على ذلك ، وقد تم هذا الزواج — كما تجمع كتب السيرة — برغبة من السيدة الجليلة ، واقتناع كامل بالمصطفى — ﷺ — ومن ثم فقد بعثت اليه — على عادة العرب فى الوضوح والصراحة وعدم الالتواء — من يقول له : انى قد رغبت فيك لقرابتك وشرفك فى قومك . وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ، ثم عرضت عليه الزواج ، وهى نفسها التى ردت من قبل أعظم قريش شرفا ونسبا[٥٥] .

على أن أم الفتاة انما كانت ذات رأى فى تزويج ابنتها ، يستشيرها الأب ، وتشير عليه ، وتهتدى البنت برأيها ، هكذا فعلت زوجة أوس بن حارثة ، وكذلك فعلت زوجة علقمة[٥٦] — كما رأينا من قبل — ويظهر أن

---

(٥٣) الامالى ١٠٤/١ ، المحبر ص ٤٣٧ ، أعلام النساء ٢٣٩/٥ — ٢٤٢ .

(٥٤) عيون الاخبار ٤٧/٤ ، نهاية الارب ٢١/٣ ، مجمع الامثال ١٠٧/١ ، المحاسن والاضداد ص ١٨٣ ، جمهرة الامثال ١٨٣/١ ، الحوفى: المرجع السابق ص ١٤٧ .

(٥٥) تاريخ الطبرى ٢٨٠/٢ — ٢٨٢ ، تاريخ اليعقوبى ١٥/٢ — ١٦ ، ابن هشام ٣٧/١ — ٣٨ ، ابن سعد ٨٢/١ ، أعلام النساء ٢٧٥/١ — ٢٧٦ ، ابن كثير ٢٩٣/٢ — ٢٩٥ ، المقدسى ١٣٨/٤ — ١٣٩ ، ابن الاثير ٣٩/٢ — ٤٠ ، مولانا محمد على : المرجع السابق ص ٧١ ، ايتين دينية : محمد رسول الله ص ٩٠ — ٩٤ ، البلاذرى : أنساب الاشراف ٩٧/١ — ٩٩ ، محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ١٣٧ ، عماد الدين خليل : دراسة فى السيرة ص ٤٤ (بيروت ١٩٧٤) ابن الجوزى : الوفا بأحوال المصطفى ١٤٤/١ — ١٤٥ ، تاريخ ابن خلدون ٥/٢ .

(٥٦) الاغانى ١٤٢/٩ ، مجمع الامثال ١١٠/١ ، جمهرة الامثال ١٨٣/١ .

المرأة أحيانا تغلب زوجها على أمره ، فقد خطب الى رجل فأبى ، ورضيت زوجته ، ومازالت به حتى زوج ابنته كارها ، وقال : أنكحنـا الفـرا فسنرى[٥٧] .

على أن هذا كله ، لا يمنعنا من القول بأن ولى أمر الفتاة ، انما كان صاحب حق لا ينازع فى اجبارها على الزواج بمن يريده أو يوافق عليه. لأن يكون بعلا لها ، وليس لها مخالفته ، هذا فضلا عن أن ابن العم انما كان مقدما على غيره فى زواج ابنة عمه ، وقد تجبر البنت على الزواج به ان رغبت عنه ، وقد لا يتركها تتزوج من غيره الا بارضائه أو رضاه[٥٨] .

٤ ـ المهر والصـداق :

ان الزواج المألوف المتعارف عليه عند غالبية الجاهليين ، انما هو نكاح الناس اليوم ، وهو أن يخطب الرجل الى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ـ أى يعين صداقها ويسمى مقداره ثم يعقد عليها ـ وكانت قريش وكثير من قبائل العرب على هذا المذهب فى النكاح[٥٩] ، على أن المهر فى الاصل انما هو العوض الذى يدفع لأهل المرأة ، أما الصداق فالعوض الذى يدفعه الرجل للزوجة[٦٠] .

وكان الاصل فى المهر عند الجاهليين دفعه للمرأة ، غير أن ولى أمرها هو الذى يأخذه لينفق منه على ما يشترى لتأخذه المرأة معها الى بيت الزوجية ، وقد يأخذ ولى أمرها المهـر لنفسه ، ولا يعطيها منه شيئ . لاعتقاده أن ذلك حق يعود اليه[٦١] ، ومن ثم فقد نهى الاسلام عن ذلك، يقول سبحانه وتعالى «وآتوا النساء صداقتهن نحلة فان طبن لكم عن

---

(٥٧) مجمع الامثال ٢٦٣/٢ ، الحوفى : المرجع السابق ص ١٤٧ .
(٥٨) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ٥٢٧/٥ ، ٥٣٠ ، عمدة القارىء ١٩٩/٤ .
(٥٩) جواد على ٥٣٠/٥ ، نهـاية الارب ١٢٠/٣ ، شرح العينى ١٢١/٢٠ ، بلوغ الارب ٣/٢ .
(٦٠) أحمد الحوفى : المرجع السابق ص ١٥١ .
(٦١) جواد على ٥٣١/٥ .

شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا»[٦٢] .

ومن هنا كانت «النافجة» في اللغة . هي البنت لأنها تعظم مال أبيها بمهرها ، ومن ثم فقد كان القوم يهنئون من ولدت له بنت بقولهم : «هنيئا لك النافجة» أو «بارك الله لك في النافجة» لانه كان يأخذ مهرها فيضمه الى ماله فينتفج[٦٣]،هذا وقد عير العرب — في بعض الاحايين — عن الزواج بالشراء ، يقول « جهم » في امرأة من بني فقعس باع ابلا له ومهرها وتزوجها ثم وجدها عجوزا فطلقها :

فبانت ولم أغبن غداة اشتريتها وبعت تلاد المال بالثمن البخس[٦٤]

ويقول عامر بن الظرب لصعصعة بن معاوية حين خطب ابنته : «انك أتيتني تشتري مني كبدي»[٦٥] .

هذا وقد يسمى المهر أحيانا «الحلوان» وهو أن يزوج الرجل ابنته أو اخته أو امرأة ما بمهر مسمى ، على أن يجعل له من المهر شيء مسمى ، وان لم يكن ذلك شائعا بين القوم ، ومن هنا رأينا امرأة عربية تفخر بأن زوجها لم يأخذ من بناته «حلوانا» ، لان الحلوان انما كان مما تعير به العرب[٦٦] .

وهكذا يبدو واضحا أن العرب في الجاهلية لم يكونوا على عرف واحد بالنسبة الى حق الانتفاع بالمهر ، فمنهم من كان يعطيه كله للمرأة،ومنهم

---

(٦٢) سورة النساء : آية ٤ ، وانظر : الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٧/٣ — ١٠ (طبعة ثالثة ١٩٧٤) ، تفسير روح المعاني ١٩٨/٤ — ٢٠٠ ، التفسير الكبير للفخر الرازي ١٧٩/٩ — ١٨٢ (طبعة طهران) ، تفسير الكشاف ٤٦٩/١ — ٤٧١ ، في ظلال القرآن ٢٠٩/٢ — ٢١٠ (بيروت ١٩٦١) تفسير الطبرسي ١٢/٤ — ١٦ ، تفسير الطبري ٥٥٢/٧ — ٥٦٠ (دار المعارف بمصر) .

(٦٣) مجمع الامثال ٣٢٧/٢ ، اللسان ٣٨٢/٢ ، ٦٥٠/١١ ، جواد علي ٥٣٢/٥ ، الحوفي : المرجع السابق ص ١٥١ .

(٦٤) نفس المرجع السابق ص ١٥١ ، العقد الفريد ٢١٠/٣ .

(٦٥) الحوفي : المرجع السابق ص ١٩١ .

(٦٦) اللسان ١٩٣/١٤ ، الامالي ٢٧٦/٢ ، المخصص ٢٥/٤ ، جواد علي ٥٣٢/٥ ، الحوفي : المرجع السابق ص ١٥١ .

من كان يعطيه كله ويزيد عليه اكراما لابنته ، ومنهم من كان يأكله كله أو بعضا منه(٦٧) .

وعلى أى حال ، فلم يكن للمهر عند العرب الجاهليين حد معلوم : وانما كان الامر يتوقف — فى غالب الاحايين — على قدرة الرجل المالية، وعلى مكانة أسرة العروس ، وقد بلغ أحيانا مائة من الابل ، أو خمسين ومائة ، وربما زاد عن ذلك أو قل(٦٨) ، فلقد مهر عبد المطلب — جد النبى ﷺ — فاطمة بنت عمرو مائة ناقة ومائة رطل من الذهب ، ومهر الحارث بن سليل الاسدى الزباء بنت علقمة بن خصفة الطائى مائة وخمسين من الابل وألف درهم ، وزوج مطرود البجلى ابنته «خودة» على مائة ناقة ومعها رعاتها(٦٩) — كما رأينا من قبل — .

وهناك ما يشير الى أن أهل كندة انما كانوا يغالون فى مهور بناتهم، حتى أنهم كانوا لا يزوجون بأقل من مائة من الابل ، وربما مهرت الواحدة ألفا . ويروى أن الملك الكندى «عمرو بن حجر» المعروف بالمقصور(٧٠)، قد مهر زوجه أم اياس أو أم اناس بنت عوف بن ملحم الشيبانى(٧١)،

---

(٦٧) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام — الجزء الخامس — بيروت ١٩٧٠ ص ٥٣٢ .

(٦٨) الاغانى ٧٨/٨ ، ١٨٥ ، مجمع الامثال ١١٠/١ ، ١٢٤ .

(٦٩) الحوفى : المرجع السابق ص ١٥٣ ، انسان العيون ٥٠/١ ، الميدانى ١١٠/١ ، الاغانى ١٣١ ، بلوغ الارب ٣٣/٢ ، قارن : جمهرة الامثال ١٨٣/١ .

(٧٠) سمى المقصور ، ربما لانه قصر على ملك والده ، أو لان ربيعه قد اضطرته الى ذلك ، بل ان هناك من يرى انه لم يتلقب بلقب «ملك» وانما اكتفى بلقب «سيد كندة» ، وان اليمامة كانت من نصيب أخيه معاوية المعروف بالجون (انظر : تاريخ ابن الاثير ٥١٢/١ ، الاغانى ٨٢/١٥ ، ٦٢/١٨ ، المحبر ص ٣٦٩ ، المفضليات ص ٤٢٩ ، حمزة الاصفهانى : المرجع السابق ص ٩٢ ، تاريخ الطبرى ٨٩/٢) .

(٧١) جواد على ٣٢٦/٣ ، كتاب المعانى الكبير لابن قتيبة ٥٤١/١ وما بعدها ، الاغانى ٦٢/٨ ، ثم قارن : الاغانى ٨٣/١٥ ، وانظر : G. Olinder, The Kings of Kindah, of the Family of Akil al Mirar. Lund, 1927, p. 48.

عقارا فى كنده ، ومنحها حاجات قومها لا ترد لأحد منهم حاجة[٧٢]،ومن . ثم فقد روى عن النبى – ﷺ – قوله : «اللهم اذهب ملك غسان ، وضع مهور كندة»[٧٣] .

هذا وقد أمهر مولانا وسيدنا رسول الله – ﷺ – السيدة خديجة عشرين بكرة[٧٤] ، وقيل خمسمائة درهم[٧٥] ، وقيل اثنتى عشرة أوقية ذهبا[٧٦] ، والرأى عند «السهيلى» أنه لا تناقض بين رواية البكرات والدراهم ، فمن الجائز أن تكون البكرات عوضا عن الصداق المذكور ، أو أن أبا طالب أصدقها من ماله نقدا ، وزاد عليه النبى – ﷺ – تلك البكرات[٧٧] .

وعلى أى حال ، فلقد ورد النهى فى الحديث النبوى الشريف عن الغلو فى صدقات النساء[٧٨] ، يقول ﷺ : «لا تغالوا بالنساء فانما هن سقيا الله»[٧٩] ، كما ورد عنه ، ﷺ ، «أن خير النساء أيسرهن صداقا»[٨٠] ، ونهى الفاروق – رضى الله عنه وأرضاه – عن المغالات فى المهر ، بقوله : «لا تغالوا فى صدقات النساء ، فانه لو كان تقوى الله أو مكرمة فى الدنيا ، كان نبيكم ﷺ أولاكم بذلك . ما أصدق نساءه ولا بناته أكثر من أثنى عشرة أوقية»[٨١] .

---

(٧٢) العقد الفريد ١٩١/٣ ، الحوفى : المرجع السابق ص ١٥٣ .
(٧٣) الجاحظ : البيان والتبيين ٢٨/٢ .
(٧٤) سيرة ابن هشام ٢٠٦/١ ، أعلام النساء ، ايتين دينيه : المرجع السابق ص ١٥٣ .
(٧٥) انسان العيون ١٥٤/٤ ، الحوفى : المرجع السابق ص ١٥٣ .
(٧٦) انظر : ابن سعد ١١٥/٨ ، بلوغ الارب للعطار ص ٢٨ – ٢٩ ، فتح المبدى ١٧٩/٢ ، انسان العيون ١٥٤/١ .
(٧٧) انسان العيون ١٥٤/١ ، الحوفى : المرجع السابق ص ١٥٣ .
(٧٨) اللسان ١٩٦/١٠ .
(٧٩) البيان والتبيين ٢٧/٢ .
(٨٠) سنن أبى داود ٢١٠/١ ، تيسير الوصول ٢٨٣/٢ .
(٨١) ابن سعد ١١٥/٨ ، تيسير الوصول ٢٨٣/٢ ، الحوفى : المرجع السابق ص ١٥٥ .

٥ ـ انواع الزواج :

كان الزواج المألوف بين العرب القدامى هو زواج هذا اليوم ، أى الزواج القائم على الخطبة والمهر ، وعلى الايجـاب والقبول ، وهـو ما يسمى بزواج البعولة(٨٢) ، ومن ثم فقد وجدت عندهم كلمة «نكاح»، وفسرت على أنه يقصد بها «الزواج» ، حيث يقدم للمرأة مهرا من الابل والمال ، وهذا ــ ولا ريب ــ أقرب الى الطبيعة الانسانية ، وأكثر تأييدا لنظام الاسرة ، والرفع من شأن المرأة(٨٣) .

وكان العرب يخطبون المرأة الى أبيها أو أخيها أو عمها أو بعض بنى عمها ، وكان يخطب الكفء الى الكفء ، فان كان أحدهما أشف من الاخر فى الحسب ، أرغب له المهر ، واذا كان هجينا خطب الى هجين ، فزوجه هجينة مثله(٨٤) ، فاذا كان يوم العقد اجتمع القوم ونحرت لهم الذبائح، وخطب خطباء من آل الزوجين ، كما حدث فى يوم عقد النبى ــ ﷺ ــ على السيدة خديجة ، فقد خطب عمه أبو طالب ــ أو حمزة ــ معـددا بعض مناقب قريش ، ومنوها بمناقب ابن أخيـه محمد بن عبد الله ، حيث قال :(٨٥)

«الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه ، وجعلنا سادة العرب ، ثم ان ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان فى المال قل ، فان المال ظل زائل ، وعرض حائل وعارية مستردة، وقد خطب اليكم كريمتكم «خديجة» ، ولها فيه مثل ذلك ، وقد بذل لها من الصداق ما عاجـله وآجله عشرون بكـرة ، وانى يا معشر قريش

---

(٨٢) جواد على ٥٣٣/٥ ، انسان العيون ٤٥/١ .

(٨٣) عيون الاخبار ١٨/٤ ـ ٦٩ (كتاب النساء) ، نهـاية الارب للنويرى ١٢٠/٣ ، المعارف ص ٢٩٦ ، المدائنى ٩٣/١ ، عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى للدولة العربية ٥٣/١ .

(٨٤) محمد بن حبيب : كتاب المحبر ص ٣١٠ .

(٨٥) انسان العيون ١٥٤/١ ، اعلام النساء ٢٧٦/١ ، تاريخ الطبرى ٢٨١/٢ ، دراسة فى السيرة ص ٤٤ .

أشهدكم على ذلك»[٨٦] ، ثم رد عليه عمها «عمرو بن أسد» — أو ابن عمها ورقة بن نوفل — معددا مناقب قريش ، ومفاخر بيت عبد المطلب، ومشهدا الحاضرين على قبول هذا الزواج[٨٧] .

وهكذا تم الزواج — وكعادة العرب ، وكل شعوب الدنيا — احتفلت به خديجة ، فأمرت الشابات الرشيقات من جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف أمام المدعوين الذين سروا لهذا الرباط بين عائلتين كريمتين شريفتين[٨٨] .

فاذا كان هذا هو الشائع بين العرب الشماليين : فان هناك فى الوثائق المعينية ، ما يشير الى أن ملوك معين انما كانوا يصدرون أوامرهم بالموافقة على عقود الزواج على نحو ما تفعل الحكومات الآن من اصدار وثائق عقود الزواج ، ولكننا لا نملك أية وثيقة تثبت أن المرأة كانت تكره على الزواج بمن لا تريد ، بل انها انما كانت كالرجل تماما لها حق اختيار الزوج[٨٩] .

وأما أنواع النكاح عند العرب — غير نكاح البعولة أو نكاح الناس اليوم ، والذى كان بمهر ، فضلا عن ايجاب وقبول — فأهمها :

أ) نكاح الضيزن :

(نكاح المقت) ، وهو أن المرأة حين يموت زوجها كان أكبر أبنائه أولى بها من غيره ومنها بنفسها ، فيلقى ثوبه عليها ويرث نكاحها ، ومن ثم فهو حر فيها ، ان شاء نكحها وان شاء عضلها فمنعها من غيره ، ولم

---

(٨٦) ايتين دينية وسليمان ابراهيم : محمد رسول الله — القاهرة ١٩٥٨ ص ٩٣ ، قارن الجوزى : الوفاء بأحوال المصطفى ، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٤٥ .

(٨٧) انسان العيون ١٥٤/١ ، الحوفى : المرجع السابق ص ١٤٩ .

(٨٨) ايتيين دينيه : المرجع السابق ص ٩٣ ، انسان العيون ١٥٤/١، بلوغ الارب فى مآثر العرب للعطار ص ٢٩ ، ٣٣ ، اعلام النساء ١٠٩/٥ ، وانظر الحوفى : المرجع السابق ص ١٥٩ — ١٥٠ .

(٨٩) جواد على ٥٣٢/٥ وانظر :
A. Grohmann, Arabien, Munchen. 1963. p. 132.

يزوجهـا حتى تموت ، فيرث ما لها ، الا أن تفتدى نفسهـا منه بفدية ترضيه ؛ أو يتزوجها بعض اخوته بمهر جديد[٩٠] ٠

وقد تناوب ثلاثة من «بنى قيس بن ثعلبة» امرأة أبيهم ، فعيرهم ذلك «أوس ابن حجر التميمى»[٩١] ، ومع ذلك فقد بقى هذا الامر عند بعض الجاهليين ، حتى جاء الاسـلام ونزل الوحى بتحريمه ، يقـول سبحانه وتعالى «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف، انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا»[٩٢] ، وهكذا فرق الاسلام بين كثير من الرجال ونساء آبائهم ، ومنهم منصور بن زبان الفزارى ومليكة بنت خارجة المرية ، ومنهم كذلك تميم بن أبى مقبل ودهماء امرأة أبيه[٩٣] ٠

ولعل من الأهمية بمكان الاشارة الى أن هذا النوع من الزواج انما كان معروفا عند العبرانيين الذين كان البعض منهم يتزوج امرأة أبيـه ، واستمروا كذلك حتى السبى البابلى فى عام ٥٨٦ ق٠م ، والامر كـذلك بالنسبة الى الرومان والسريان[٩٤] ٠

ب) نكاح المتعـة :

ولعله يختلف عن الزواج العادى فى أنه يخلو من الخطبة والصداق فى أغلب الاحايين ، وأنه كان الى أجل ، وقد عرف هذا النوع قبيل ظهور

---

(٩٠) المحبر ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ، نهاية الارب ٥٣/٢ ، عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ١٥٦ ، عبد العزيز سالم : عصر ما قبل الاسلام ص ٦١١ ، جواد على ٥٣٤/٥ ، وانظر : السنن الكبرى ١٦١/٧ ، ، النهاية فى غريب الحديث لابن الاثير ١٠٤/١ ، سنن أبى داود ٢٣٠/٢ ٠

(٩١) بلوغ الارب ٥٢/٢ ، تاج العروس ٢٦٤/٩ ، وانظر : المحبر ص ٣٢٥ ٠

(٩٢) سورة النساء : آية ٢٢٠، وانظر : تفسير الطبرى ١٣٢/٨ ـ ١٤٠ (دار المعارف) ، تفسير الجواهر ٢٥/٣ ، ٢٩ ـ ٣٠ ، فى ظـلال القرآن ٢٧١/٤ ، ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ، تفسير الطبرسى ٥٩/٥ ـ ٦٢ ، التفسير الكبـير للفخر الرازى ١٧/٩ ـ ٢٣ ، تفسير الكشاف ٤٩٢/١ ـ ٩٣٤ ٠

(٩٣) المحبر ص ٣٢٦ ، اعلام النساء ١٠٧/٥ ، وانظر أمثلة أخرى فى : تفسير الطبرى ١٣٣/٨ ٠

(٩٤) W. R. Smith, Kinship and Marriage in Early Arabia, p. 90.

الاسلام[٩٥] ، ويرى البعض أن القرآن الكريم يشير اليه فى قوله تعالى: «فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم من بعد الفريضة ان الله كان عليما حكيما»[٩٦] ، وعلى أى حال، فالفقهاء فيه آراء معروفة ، وأن النبى — ﷺ — قد أباحه فى بعض غزواته ، ثم حرم بعد ذلك[٩٧] .

وكان هذا الزواج يفسخ عقده اذا ما انتهى الاجل ، وعلى المرأة أن تعتد — كما فى غيره من أنواع الزواج الاخرى — قبل أن تقترن بزوج آخر ، وينسب أولاد المتعة الى أمهاتهم فى الغالب ، بسبب اتصالهم المباشر بالأم ، وبسبب ارتحال الأب فى غالب الاحايين ، فتنقطع الصلات بينهم وبين الأب ، وان كان هذا لا يمنع من انتساب الابناء الى الأب ، ومن حقهم فى الارث[٩٨] .

جـ) زواج البـــدل :

وهو أن يقول الرجل للرجـل انزل لى عن امرأتك ، وأنزل لك عن امرأتى ، فهو زواج بطريق المبادلة بغير مهر[٩٩] .

د) زواج الشغـــار :

وهو زواج فردى كالزواج العام ، الا أنه لا مهر فيه ، كأن يزوج

---

(٩٥) جواد على ٥٣٦/٥ .

(٩٦) سورة النساء : آية ٢٤ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٥١/٨–١٨٢، تفسير الكشاف ٤٩٧/١–٤٩٨ ، تفسير روح المعانى ٤/٣–٧ ، تفسير الجواهر ٢٥/٣ ، ٣١–٣٢ ، تفسير الطبرسى ٦٧/٥–٧٣ ، تفسير الفخــر الرازى ٤٨/٩–٥٤ ، فى ظلال القرآن ٧٦/٥ ، ٦٩–٢٠ .

(٩٧) انظر : تفسير روح المعــانى ٥/٣–٧ ، تفسير مجمع البيان ٣٢/٣ ، تفسير المنار ١٣/٥ ، عمدة القارىء ٢٠٨/١٨ ، ١١١/٢٠ ، فتح البارى ١٠٢/٩ ، ١٤٤–١٤٩ ، ١٨٢ ، ٣٦٩/٨ ، صحيح مسلم ١٣٠/٦٨، المبسوط للسرخسى ١٥٢/٥ ، ٦١/٦ ، السنن الكبرى ٢٠٠/٧ ، النهــاية ٨١/٤ ، تفسير الكشاف ٣٦٠/١ ، اللسان ٣٢٩/٨ ، جواد على ٥٣٧/٥ .

(٩٨) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٦١١، جواد على ٥٣٧/٥.

(٩٩) بلوغ الارب ٥/٢ ، عمدة القارىء ١٢٢/٢٠ ، جــواد على ٥٣٧/٥ .

الرجل ابنته أو أخته على أن يزوجه الاخر ابنته أو أخته[١٠٠] ، وذهب البعض الى أنه لا يكون الا فى القرائب ، كأن تزوج الرجل وليتك على أن يزوجك وليته ؛ ولا يكون بينهما مهر[١٠١] ، وقد نهى النبى ﷺ عن هذا النوع من الزواج ، حيث «لا شغار فى الاسلام»[١٠٢] .

ولعل زواج الشغار هذا ، انما هو قريب من زواج البدل ، حيث أن كلا منهما لا مهر فيه ، ويذهب بعض الفقهاء الى بطلانه وان صححه الحنفية ، وان قالوا ببطلان التسمية ، وأوجبوا مهر المثل[١٠٣] .

هـ) زواج الاستبضاع :

وهو زواج غريب ، يذهب الاخباريون فيه الى أن الرجل كان يقول لامرأته اذا طهرت من طمثها : ارسلى الى فلان فاستبضعى منه ؛ لتحملى منه ، ويعتزلها زوجها ، ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى استبضعت منه ، وكانوا يستهدفون فى ذلك نجابة الولد . لأنهم انما كانوا يطلبون ذلك من رؤسائهم وأكابرهم فى الشجاعة والكرم[١٠٤] .

ورغم أن كثيرا من الشعوب ـ كاليونان والهنود والرومان ـ[١٠٥] قد مارست هذا النوع الشاذ من الزواج ، فانه انما كان شاذا ونادرا عند العرب يتنافى مع خلقهم وما جلبوا عليه من غيرة وحمية ؛ ونخوة

(١٠٠) بلوغ الارب ٥/٢ ، سنن ابى داود ٢٢٧/٢ ، عمدة القارىء ١٠٨/٢٠ (حديث رقم ٤٨) ، جواد على ٥٣٨/٥ .

(١٠١) جواد على ٥٣٨/٥ .

(١٠٢) صحيح مسلم ١٣٩/٤ ، المبسوط ١٠٥/٥ ، ارشاد السارى ١٤١/٦ ، جواد على ٥٣٨/٥ .

(١٠٣) فتح البارى ١٤٠/٩ ، المبسوط ١٠٥/٥ ، جواد على ٥٣٨/٥ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٠٠ .

(١٠٤) صحيح البخارى ١٦٢/٣ ، بلوغ الارب ٤/٢ ، شرح العينى ٢٤٦/١٧ ، ١٢١/٢٠ ، اللسان ٣٦١/٩ ، جواد على ٣٨/٥ ـ ٥٣٩ ، عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ٥٤ وكذا

(١٠٥) الحوفى : المرجع السابق ص ١٩٧ ـ ١٩٨ ، وانظر : الامومة عند العرب ص ٢٥ ـ ٣٦ ، المرأة فى التاريخ والشرائع ص ٧٣ .

واعتداد بالنفس وفخار بعفة الزوجة ، فلا يلجأ اليه الا رجل عاجز عن مباشرة زوجته ، أو فسل ساقط المروءة[١٠٦] ، ويذهب «ولكن» الى أن هذه العادة التى كان يمارسها بعض العرب ، انما تختلف عما كان عند غيرهم ، ذلك أنه كان يحق للمرأة أن يستمتع بها غير زوجها اذا لم تنجب منه أولادا[١٠٧] .

هذا ويذهب بعض الاخباريين الى أن بعضا من أصحاب الجوارى ، انما كانوا يكلفون جواريهم الاتصال برجل معين من أهل الشدة والقوة والنجابة ليلدن منه ولدا ، ان شاء استخدمه وان شاء باعه ، ومن ثم فهى تجارة يقصد بها الربح فحسب[١٠٨] .

و) نكاح الظعينـــة :

ذلك أن الرجل كان اذا سبى امرأة ، فله أن يتزوجها ان شاء ،.وليس لها أن تأبى عليه ذلك ، لانها فى سبائه ، وعندئذ فان هذا الزواج يكون بغير خطبة أو مهر[١٠٩] .

ز) نكاح الامــــاء :

ذلك أن العربى كان من حقه أن يتزوج من أمته ، فـــان أنجب منها أبناء كان من حقه أن يعتقهم ويلحقهم بنسبه : ومن حقه ألا يفعل ذلك، ويظلوا عبيدا[١١٠] .

وهناك نوع من الزواج أشار اليه «سترابو» (٦٦ ق٠م ــ ٢٤م) ذهب فيه الى أن الاخوة كانوا يتزوجون من امرأة واحدة تكون مشتركة بينهم ، ولكن الرئاسة انما تكون للأخ الاكبر ، وأن الواحد منهم ان أراد

(١٠٦) الحوفى : المرجع السابق ص ١٩٨ ٠

(١٠٧) ولكن : الامومة عند العرب ، ترجمة بندلى صليبا الجوزى ص ٢٥ ، الحوفى : المرجع السابق ص ١٩٨ ٠

(١٠٨) جواد على ٥/٥٣٩ ، اللسان ٣٦١/٩ ، تاج العروس ٢٧٩/٥٠

(١٠٩) جواد على ٥٤٦/٥ ٠

(١١٠) عبد العزيز سالم : دراسات فى تاريخ العرب ــ الجزء الاول ــ عصر ما قبل الاسلام ، الاسكندرية ١٩٦٨ ص ١١٦ ٠

الاتصال بالزوجة وضع عصاه على باب الخيمة ؛ فلا يدخلها أحد غيره ، أما فى الليل فتكون المرأة من نصيب الاخ الاكبر ، بل وذهب «سترابو» فى الخيال – أو قل التفكير الشاذ – بعيدا ، حتى قال ان القوم انما كانوا يباشرون الامهات كذلك ؛ ومع ذلك فانه يقول أنهم كانوا يعاقبون الزانى بالموت ، والزانى – فى عرفهم – هو ذلك الشخص الغريب الذى يعاشر امرأة من أصل غريب[111] .

هذا ويذهب بعض الباحثين الى أن ذلك الزواج الذى أشار اليه «سترابو» – والمعروف عند علماء الاجتماع (Fraternal Polyandry) – انما هو مرحلة وسط بين «تعدد الازواج» (Polyandry) البدائى[112] ، وبين زواج البعولة – وهو اختصاص المرأة برجل واحد – وربما أراد «سترابو» بزواج الاخوة ، زواج الاخ بزوجة أخيه بعد وفاته[113] ، وهو المعروف (Le Virate Marriage) والذى نشأ عن زواج ال (Polyandry) وقد عرفه العرب والعبريون والحبش وغيرهم[114] .

هذا وكان العبريون عندما يتوفى الواحد منهم دون أن ينجب ، فانما على أخيه أن يتزوج من أرملته ، فاذا ما أنجبت له ولدا كان هذا الولد من نصيب أخيه المتوفى[115] ؛ ونقرأ فى التوراة «أن يهوذا قد أخذ زوجة لعير بكره اسمها ثامار ، وكان عير بكر يهوذا شريرا فى عينى الرب فأماته الرب ، فقال يهوذا لاونان ادخل على امرأة أخيك وتزوج بها وأقم نسلا

(١١١) J. Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, 8, p. 467.
وكذا Strabo, XVI. 4.

(١١٢) هناك من يذهب الى أن تعدد الرجال للمرأة الواحدة انما كان شائعا فى العصور القديمة وهو رأى فيه كثير من المبالغة غير المقبولة (انظر : M. Lenau, Studies in Ancient History, p. 276.)

(١١٣) وربما أراد ما عرفه العرب من دخول الرهط دون العشيرة على المرأة غير الحرة كلهم يصيبها ، فاذا ولدت نسبت وليدها الى أيهم شاءت (أنظر : الحوفى : المرجع السابق ص ١١٩) .

(١١٤) جواد على ٥٤١/٥ ، النظم الاجتماعية والسياسية ص ١٦ ، وكذا J. Hastings, op. cit., p. 467.

(١١٥) جواد على ٥٤١/٥ ، وكذا E. B., 13, p. 979

أخيك»[116] .

بل ان زواج أرملة المتوفى انما كان واجبا ، فاذا لم يفعل ذلك أخو المتوفى شكته أرملة أخيه الى شيوخ بنى اسرائيل ، فاذا أصر على موقفه خلعت نعله من رجله أمامهم ، وبصقت فى وجهه قائلة : «هكذا يفعل بالرجل الذى لا يبنى بيت أخيه» فيسمى «مخلوع النعل» ؛ وتصبح أرملة أخيه حرة تتزوج من تشاء ، فكأن خلع النعل طلاق[117] .

ويذهب الباحثون مذاهب شتى فى أصل هذا الزواج ، وفى الظروف التى أدت اليه[118] ؛ ويرى «جيمس فريزر» أنه صفحة من صفحات اشتراك الاخوة فى زوج واحدة ، فضلا عن اشتراكهم فى تزوج الاخوات، وهو متمم لما أسماه Sororate[119] وهو — على أى حال — يسبب مشكلة خطيرة فى تعيين أبوة الابناء ، ومن ثم فهم — فى غالب الاحايين — ينتسبون الى الامهات ، كما أنه فى نفس الوقت زواج داخلى بين أفراد العشيرة الواحدة ؛ فضلا عن ارتهانه بارتحال أهل المرأة وانتقالهم من مكان الى آخر[120] .

على أن الراى كله انما يعتمد على رواية «سترابو» ؛ وهى ليست مؤكدة ، على أى حال ، فمن المعروف أنه لم يذهب الى اليمن الا على أيام حملة «اليوس جالليوس» فى عام ٢٤ ق.م[121] ، التى كان مورخا لها

---

(١١٦) تكوين ٣٨ : ٦ — ٧ .

(١١٧) الحوفى : المرجع السابق ص ٢٠٥ — ٢٠٦ ، المرأة فى التاريخ والتشريع ص ٤٨ ؛ النظم الاجتماعية ص ٦٥ .

(١١٨) جواد على ٥٤١/٥ ، وكذا
Westermark, History of Human Marriage, 111, 1921.
وكذا M. Lenan, op. cit., p. 276.

(١١٩) J. Frazer, Folklore of the Old Testament, II, p. 317.
وانظر : الترجمة العربية «الفلكلور فى العهد القديم» (جزءان) ؛ القاهرة ١٩٧٢/١٩٧٣م ، وكذا EB, 21, p. 21.

(١٢٠) جواد على ٥٤٢/٥ .

(١٢١) انظر : عن حملة اليوس جالليوس : محمد بيومى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة ص ٤١٦ — ٤١٩ وكذا :
A. Sprenger, The Campaign of Aelius Gallus, JRAS, 1873.

ــ وربما شارك فيها كجندى ــ وأن الفترة التى قضتها الحملة فى اليمن ليست بكافية ليتعرف الرجل على القوم ونظمهم الاجتماعية ، أضف الى ذلك أن قصة وضع العصا على باب الخيمة ، تزعزع الثقة فى الرواية كلها، فما كان اليمنيون وقت ذاك يسكنون الخيام ، وانما كانوا أصحاب حضارة عريقة بنت القصور والسدود والمعابد ، وسبقت أيام الحملة فيها دول عظيمة ــ معين وقتبان وحضرموت وسبأ وغيرها(١٢٢) ــ ولهذا كله فأغلب الظن أن معلومات «سترابو» غير صحيحة ، أو على الاقل أن قصته هذه انما تصور حالة شاذة سمع بها ــ أو حتى رآها ــ فخيل اليه أن الامر كذلك عند القوم •

غير أن بعض علماء الاجتماع المحدثين قد صدقوا فرية «سترابو» هذه ، ومن ثم فقد عللوا تعدد الازواج للزوج الواحدة بقلة النساء عن الرجال بسبب وأد البنات ، وفاتهم أن الوأد انمــا كان فى فترة معينة ــ وفى قبائل معينة ليس بينها القبائل اليمنية على أى حال ــ(١٢٣) ثم أن هذا النوع من الزواج ــ ان كان ما زعمــه سترابو صحيحــا ــ ليس مقصورا على العرب وحدهم،وانما شاع بين أقوام لم تعرف وأد البنات•

وأيا ما كان الامر ، فلقد أشار «اميانوس مرسيلينوس» (٣٣٠ ــ ٤٠١م) الى زواج عند العرب ، نرى فيه العروس تزف الى بعلها ومعها حربة وخيمة ، وأنها كانت تستطيع العودة الى أهلها متى أرادت،ولسنا ندرى مدى صحة ذلك ؛ وان ذهب «برتون» الى أن هذا الزواج من نوع متقدم ، وأن وجود المرأة بين أهلها ومعها أولادها انما يجعل الابنــاء أقرب الى الخال منهم الى العم ، مما جعل للخال مكانة كبيرة بين أطفال الساميين(١٢٤) •

---

(١٢٢) قــدمنا دراسة تاريخية مفصلة عن هــذه الدول فى كتابنا «دراسات فى تاريخ العرب القــديم» ، الرياض ١٩٧٧ (أصدرته جــامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، تحت رقم (١) من المكتبة التاريخية)•

(١٢٣) محمد بن حبيب : المحبر ص ١٧٩ ، ١٨١ •

(١٢٤) جواد على ٥٤٢/٥ وكذا

J. Hastings, op. cit., p. 467.

٦ ـ المحـــرمات :

حرم العرب القدامى على أنفسهم أنواعا من الاقارب ، طبقا لقاعدة عامة ، هى مراعاة علاقة الاصل بالفرع ، فلا يجوز نكاح الأب لابنته ، ولا الجد لحفيدته ، ولا يجوز للأم أن تتزوج ولدها ، ولا للجـدة أن تتزوج حفيدها ، ولا للأخ أن يتزوج أختـه ، مراعاة لعـلاقة الاصل بالفرع ، وهكذا حرم القوم نكاح الامهات والبنات والاخوات والعمات والخالات[1] .

هذا وقد حرم القوم زواج الرجل من ابنة أخيه أو أخته : أما ولد الاخوين أو ولد الاختين أو ولد الاخ والاخت ، فان الزواج بينهم انما كان مباحا[2] ، وعلى أى حال ، فقد كانوا يحرمون كل نكاح يقـع بين المحارم بصفة عامة ، ويذهب ابن عباس وغيره الى أنهم كانوا يحرمون ما حرم الله تعالى ، الا امرأة الاب والجمع بين الاختين[3] ، ومع ذلك فقد كانا هذين النوعين من الزواج قبيحين عند العرب ، أما الاول فقد اعتبروه ــ كما رأينا ــ من فعول الضيزن ، وأما الثانى فلم يكن شائعا بينهم ، وان لم يكن حراما .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى عدة نقاط بشأن المحرمات من النساء عند العرب : منها (أولا) أن التحريم عندهم لم يكن مقصورا على الابناء الحقيقيين ، وانما شمل كذلك حالات التبنى : ومن ثم فلا يجوز للمتبنى أن يتزوج زوج المتبنى أو ابنته ، ثم جاء الاسلام وأبطل

---

(١) أبو الفداء ٩٩/١ ، الملل والنحل ٣٣١/٣ ، بلوغ الارب للعطار ص ٣١ ، جواد على ٥٢٨/٥ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٠١ ، تفسير الطبرى ١٤٠/٨ .

(٢) جواد على ٥٢٩/٥ .

(٣) تفسير روح المعـــانى ٢٦١/٤ ، تفسير الطبرى ١٣٢/٨ ــ ١٥٠ (دار المعارف) ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٠١ .

ذلك كله[٤]، يقول الله سبحانه وتعالى «ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله، فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم»[٥] ويقول «فلما قضى زيدا منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا»[٦] .

ومنها (ثانيا) أن العرب بتحريمهم زواج الأخت انما قد سموا على كثير من الشعوب القديمة — كالمصريين والفرس وسكان بلاد الرافدين، فضلا عن العبريين والبطالمة واليونان والفينيقيين وبعض شعوب الصقلبة[٧] — وان كانت هناك زيجات تمت بين الاخوة على أيام دولة الانباط، فهناك من عهد مالك الثانى (٤٠ — ٧٠ أو ٧٥م) الذى خلف أباه «الحارس الرابع» على عرش البتراء[٨]، عملات فضية وبرونزية عليها صورته وصورة زوجته التى وصفت بأنها «شقيقة الملك»، مما يشير الى أن بعض الملكات كن زوجات شقيقات للملوك الحاكمين، وهناك كذلك كتابة أثرية على تمثال للملك عبادة (٦٢ — ٦٠ أو ٦٢ — ٤٧ ق٠ م) تشير الى أن احدى زوجات الحارث انما كانت أخته كذلك[٩] .

وربما كان ذلك تقليدا للفراعنة — وربما البطالمة — وقد كان الاولون يعتقدون أن خط العرش انما ينتقل عن طريق المرأة؛ ومن ثم فقد كانت نظرية تولى العرش عند آل فرعون انما تجعل هذا الحق وقفا على من كانت أمه من نسل ملكى — وكذلك يجب أن يكون أبوه — وهكذا فرغم أنه كان من حق الفراعين أن يتزوجوا بأكثر من واحدة يختارونها من جميع الطبقات، غير أن الزوجة التى تمثل أنقى الفروع، والتى يحق لها أن تحمل بذرة اله الشمس رع؛ يجب أن تكون أما من صلب العائلة

---

(٤) أنظر : محمد رشيد رضا : حقوق النساء فى الاسلام ص ٩٢-١٠٢
(٥) سورة الاحزاب : آية ٥ ٠
(٦) سورة الاحزاب : آية ٣٧ ٠
(٧) ول ديورانت : قصة الحضارة ٧٣/١ ٠
(٨) جواد على ٤٦/٣ ، وكذا
J. Hastings, op. cit., 9, p. 121. وكذا EI, 3, p. 801,
(٩) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٢٣، جواد على ٣٤/٣ وكذا
A. Kammerer, Petra et la Nabatene, p. 254.

الملكية نفسها ، وكان هذا هو السبب فى زواج الاخ بأخته : التى لجـأ اليها بعض الفراعين ، لغرض تأكيد صفاء الالوهية ، ولغرض آخـر هو التقليل من عدد المتطلعين الى العرش[١٠] .

على أى حال ، فان التوراة انما تبيح زواج الاخت من أب ، ومن ذلك أنها تزعم أن ابراهيم الخليل عليه السلام قد تزوج من اخته «سارة»[١١] تقول التوراة — على لسان ابراهيم — «بالحقيقة هى أختى ابنة أبى ، غير أنها ليست ابنة أمى فصارت لى زوجة»[١٢]

وهى كذلك عندما تتحدث عن قصة «أمنون بن داود» ، وحبه لأخته غير الشقيقة «ثامار» ، فانها تذهب الى أن الفتـاة كانت عذراء ، وأن أمنون عندما أراد أن يقضى منها وطره بغير زواج ، ترفض الفتاة وتقول له «كلم الملك لأنه لا يمنعنى منك» ، وبدهى أن المـلك (داود هنـا) لا يمنعها منه حلالا ، وليس حراما ، ومن ثم فالتوراة هنا تجيز مـرة ثانية زواج الاخت بأخيها غير الشقيق[١٣] .

ومنها (ثالثا) أن العرب — رغم اباحتهم الجمع بين الاختين — فانهم انما كانوا يبغضون هذا النوع من الزواج — كما بغضوا زواج امرأة الأب — ثم حرمه الاسلام[١٤] حيث يعدد القرآن الكريم المحرمات من

---

(١٠) J.A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 96-97.

(١١) اختلفت الآراء فى قرابة سارة للخليل عليه السلام ، فهى أخت غير شقيقة على رأى التوراة ، وهى ابنة أخيه هارون على رأى آخر، وهى ابنة عم على رأى ثالث (وهذا ما نرجحه ونميل الى الاخذ به) وهى ابنة ملك حـاران على رأى رابع ، وهى أمـيرة بدوية على رأى خـامس (تكوين ٢٠ : ١٢ ، تاريخ الطبرى ٢٤٤/١، ابن الاثير ١٠٠/١ ، ابن كثير ١٥٠/١ ، أبو الفداء ١٣/١ ، منيس عبد النور : ابراهيم السائح الروحى ص ٨ ، ١٧ ، حبيب سعيد : ابراهيم فى اليهـودية والمسيحية والاسـلام ص ٨٢) .

(١٢) تكوين ٢٠ : ١٢ وانظر كتابنـا «اسرائيل» ص ٦٩ — ٧١ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(١٣) صموئيل ثان : ١٣ : ٣٩ ، وانظر كتابنا «اسرائيل» ص ٨٣— ٨٤ (التوراة والانبياء) .

(١٤) الملل والنحل ٢٣١/٣ ، المحبر ص ٣٢٧ ، انسان العيـون

النساء ، ومنها «وأن تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف ، ان الله كان غفورا رحيما»[١٥] .

على أن الجمع بين الاختين لم يكن مقصورا على العرب دون سواهم من شعوب الشرق الادنى القديم ، وانما شاركهم فيه آخرون . فالاسرائيليون — مثلا — قد مارسوا هذا النوع من الزواج ، ومن ذلك يعقوب — أبو الأباء كما يسمونه ، والذى حملوا اسمه — انما قد جمع بين أختين — ليئة وراحيل ابنتى خاله لابان — ثم تزوج بعد ذلك من جاريتيهما — زلفة وبلهة — كذلك ، ثم ينجب من زوجاته الأربعة أبناءه الاثنى عشر ، وكذا بنته دينة[١٦] .

ومنها (رابعا) أن العرب القدامى انما كانوا يحرمون معظم ما جاء تحريمه فى القرآن الكريم ، وذلك فى قوله تعالى «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف ان الله كان غفورا رحيما»[١٧] .

وهكذا زاد الاسلام تحريم امرأة الأب ، والجمع بين الاختين ، وبين المحارم مطلقا ، فقد نهى سيدنا ومولانا رسول الله — ﷺ — أن تنكح المرأة على عمتها أو العمة على بنت أخيها ، والمرأة على خالتها ، أو الخالة

= ٤٣/١ ، روح المعانى ٣٦١/٤ ، معجم الادباء ١٣٣/١٤ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٠٣ .

(١٥) سورة النساء : آية ٢٣ .

(١٦) تكوين ٢٩ : ١—٣٥ ، ٣٠ : ١—١٣ ، ٣٥ : ٢٢—٢٦ ، وانظر كتابنا «اسرائيل» ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(١٧) سورة النساء : آية ٢٣ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٤١/٨—١٥٠ (دار المعارف) ، تفسير مجمع البيان ٦٢/٥ — ٦٧ ، تفسير روح المعانى ٢٤٩/٤ — ٢٦١ ، التفسير الكبير للفخر الرازى ٢٤/١٠—٣٧ ، تفسير الجواهر ٢٥/٣—٣٥ ، تفسير الكشاف ٤٩٣/١ — ٣٩٦ ، فى ظلال القرآن ٢٨٧/٤ — ٢٩٣ .

على بنت أختها ، لا تنكح الصغـرى على الكبرى ، ولا الـكبرى على الصغرى[١٨] .

ومنها (خامسا) ليس هناك مختلق أو شعوبى أو أى كاره للعرب : جرؤ على أن يزعم أن العربى انما كان يتزوج أمه ، غير رواية «سترابو» المهلهلة ، والتى تحيط بها سهام الريب من كل جانب ـ وقـد سبق لنا مناقشتها ـ رغم أن هذا النوع الشاذ من الزواج قـد فعلته شعوب أخرى قديمة[١٩] .

ومنها (سادسا) أن القصة ألتى دارت حول زواج «لقيط بن زرارة التميمى» بابنته «دخنتوس» ، انما هى جد مشكوك فيها ، وأن دخنتوس انما كانت زوجا لعمرو بن عدس[٢٠] ، وقت أن قال أبوها عند موته يوم شعب جبلة ، وكان بنو عامر يضربونه ، هذين البيتين :

يا ليت شـعرى اليوم دخنتوس   اذ أتاهـا الخـبر المرمـوس
أتحـلق القـرون أم تميـس   لا بل تميس انهـا عـروس[٢١]

٧ ـ تعـدد الزوجـات :

أ) التعدد عن غير العرب :

من العجيب أن رجال الدين المسيحى فى العصور الوسطى زعموا أن تعدد الزوجات انما هو نظام ابتدعه محمد ﷺ ، ونسوا ـ أو تناسوا ـ أن التعدد نظام اجتماعى يسبق الاسلام بآلاف السنين ، وأن الشعوب جميعا قد مارسته ـ أو تكاد ـ وأنهم ان كانوا يجهـلون التاريخ أو

---

(١٨) الحوفى : المرجع السابق ص ٢٠٣ ، حجة الله البالغة ٩٧/٢ .
(١٩) أنظر : الحوفى : المرجع السابق ص ٢٠٣ ٢٠٤ ، شعار الخضر فى الاحكام الشرعية للاسرائيليين ص ١٣ .
(٢٠) يذهب ابن حبيب الى أن «دخنتوس» ، انما تزوجت عمـرو بن عمرو بن عدس ، ثم عمير بن معبد بن زرارة ، ثم مسلم بن عبيـد بن يربوع بن ثعلبة بن للدول بن حنيفة (أنظر : المحبر ص ٤٣٦) .
(٢١) انظر : جواد على ٥٤٥/٥ ، الاغانى ٣٨/١٠ ، بلـوغ الارب ٢٣٥/٢ ، ثم قارن : تاج العروس ١٤٦/٤ (دخنتوس) ، أعـلام النساء ٣٤٦/١ ـ ٣٤٧ .

بتجاهلونه ، فهل كانوا يجهلون كتابهم المقدس ؟ أم أنه الكذب والافتراء على سيد الاولين والآخرين ، مولانا وسيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ .

واذا ما عدنا الى الوراء الى الالف الثالثة قبل الميلاد ـ أو الالف الرابعة قبل الاسلام ـ لوجدنا أن المصريين انما كانوا يتبعــون نظام تعدد الزوجات ، ولا نريد أن نوغل كثيرا فى التاريخ ، ولا أن نقدم كثيرا من الامثلة ، ويكفى أن نذكر «خوفو» ـ صاحب الهرم الاكبر ـ والذى تزوج أكثر من واحدة ، وولد له أبناء من كل منهن ، حتى انقسمت أسرته الى ثلاثة فروع(٢٢) ، وأن نذكر «تتى الاول» مؤسس الاسرة السادسة ، وقد كانت له زوجتان ، الواحدة «خوية» والاخرى «ايبوة»(٢٣) .

وهناك أمنحتب الثالث ـ من الاسرة الثامنة عشرة ـ وقد فاق كل أقرانه من الفراعين ، حيث كان قصره يضم ـ الى جانب زوجته الاثيرة تى ـ كثيرا من الزوجات من بابل وميتانى وأشور ، فضلا عن عشرات الفتيات اللاتى كن يرسلن كل عام من ملوك الشرق وأمرائه(٢٤) .

وهناك رعمسيس الثانى ـ أشهر الفراعين المصريين ـ والذى كان تحت نساء كثيرات : منهن نفرتارى واست نفرت (آسيا) وابنة خاتوسيل ملك الحيثيين ، حتى أن الرجل قد رزق بعدد من الابناء يفوق ـ كمــا نعلم ـ ما رزق به أى فرعون آخــر ، ومايزال المؤرخون مختلفين فى عددهم بسبب ظهور أسماء جديدة من آن لآخر ، وان كنــا نعرف من بينهم حتى الآن أسماء ٥٩ بنتا ، أما عدد الذكور فكان ٧٩ ولدا ، وان

---

(٢٢) أحمد فخرى : مصر الفرعونية ص ١١٥ ـ ١١٨ ؛ عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١١٢ ـ ١١٤ ، وكذا
G. Reisner, in Mycerinus, p. 241 F.

(٢٣) PM, III, p. 84, 129.
وكذا A. Gardiner, op. cit., p. 93.

(٢٤) كريستيان نوبلكور : توت عنخ أمون ص ١٢١ وكذا
J. Breasted, ARE. II, p. 347.
وكذا A. Gardiner op. cit., p. 207.
وكذا R. Engelbach, ASAE. XL, p. 659-63

كان بعض المؤرخين انما يؤكد أنهم يزيدون على مائة ولد[٢٥]، وهناك رعمسيس الثالث — من الاسرة العشرين — والذى دبرت احدى نسائه مؤامرة لقتله، حتى تحتفظ بالعرش لولدها، دون غيره من أبناء علاتها، وان انكشفت المؤامرة، وقبض على المتآمرين[٢٦].

واذا ما عدنا الى اليهود : وتصفحنا التوراة — التى يعرف ما فيها جيدا رجال الدين المسيحى، الذين ألصقوا بالاسلام تهمة ابتكار تعدد الزوجات لوجدنا أنها تحدثنا عن التعدد منذ عصر الآباء الاول، فابراهيم الخليل — عليه السلام — يجمع بين هاجر وسارة، وبين قطورة وحجورة[٢٧] — ويعقوب — عليه السلام — يجمع بين ليئة وراعيل، وزلفة وبلهة[٢٨]. مما يدل على أن الاسرة الاسرائيلية انما كانت تقوم على تعدد الزوجات، كما كانت تساوى بينهن فى الحقوق والواجبات، وان كان عددهن يتفاوت قلة وكثرة حسب ثروة الزوج ومكانته، وان كان علماء «التلمود»[٢٩] قد حددوا للرجل العادى أربع زوجات فقط، وللملك

---

(٢٥) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ص ٢٣٠، وكذا
F. Petrie, History of Egypt, III. p. 35 F, 82 F.
وكذا H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte, III, p. 15-17, 34 F, 102-103.
وكذا PM, I, p. 45.

(٢٦) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٣٥٠ — ٣٨٠، جون ويلسون : الحضارة المصرية ص ٤٢٦ — ٤٢٨، أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٩٠٣ — ٩١٠، سير الن جاردنر : مصر الفراعنة ص ٣١٩—٣٢١
وكذا J. Breasted, ARE, IV, 416 F.
وكذا A. de Buck, JEA, 23, 1937, p. 162 F.
وكذا JEA, XLII, p. 8-9.

(٢٧) تكوين ١١ : ٢٩—٣١، ١٦ : ١—١٣، ٢٥ : ١—٣، وانظر : تاريخ الطبرى ١/١٦٠، ٢٤٤، ٣٠٩—٣١١، أبو الفداء ١/١٣، ابن سعد ١/٢١، ابن الاثير ١/١٠٠، ابن كثير ١/١٥٠، ف.ب. ماير : حياة ابراهيم ص ١٣٦، ٢٣٦، منيس عبد النور، ابراهيم السائح الروحى ص ٨، ١٧، حبيب سعيد، المرجع السابق ص ٩٧.

(٢٨) تكوين ٢٩ : ١—٣٥، ٣٠ : ١—١٣، ٣٥ : ٢٢—٢٦، وانظر كتابنا : «اسرائيل» ص ٢٠٥.

(٢٩) انظر عن «التلمود» مقالنا بمجلة الاسطول، العدد ٧٠، الاسكندرية ١٩٧٢.

ثمانى عشرة زوجة ، وان كان قانون الملوك انما يمنعهم من المبالغة فى اقتناء الزوجات ، تقول التوراة ، «ولا يكثر له نساء لئلا يزيغ قلبه»[٣٠].

غير أن بعض الاسرائيليين قد استغلوا هذا الحق فبالغوا فيه ، حتى «كان لجدعون سبعون ولدا خارجون من صلبه لانه كانت له نساء كثيرات»[٣١] ، وطبقا لرواية التوراة ، فقد تزوج داود — عليه السلام — نساء كثيرات ، عدا الاماء السرارى[٣٢] ، واقترن «رحبعام بثمانى عشرة امرأة وستين سرية ولدن له ثمانية وعشرون ولدا وستين بنتا»[٣٣]، وتزوج «ابيا» أربع عشرة امرأة وخلف اثنين وعشرين ابنا وست عشرة بنتا[٣٤] ، وفاق سليمان كل أقرانه ، فقد «كانت له سبع مائة من النساء السيدات ، وثلاث مائة من السرارى»[٣٥] .

وهكذا يبدو لنا بوضوح أن مبدأ تعدد الزوجات — كما يقول جوستاف لوبون — كان شائعا كثيرا لدى بنى اسرائيل على الدوام ، وما كان القانون المدنى أو الشرعى ليعارضه[٣٦] ، سواء أكان ذلك للانبياء أو غير الانبياء ، وسواء أكان ذلك فى عصر الآباء الاول ، أو عصر الملكية ، حتى حدده الربانيون بأربعة ، وان أطلقه القراءون .

وهكذا — كما يقول نيوفلد — أن التلمود والتوراة معا قد أباحا تعدد الزوجات على اطلاقه ، وان كان بعض الربانيين ينصحون بالتصد فى عدد الزوجات ، وأن قوانين البابليين[٣٧] وجيرانهم من الامم التى

(٣٠) تثنية ١٧ : ١٧ ، فؤاد حسنين : اسرائيل عبر التاريخ ١/٩٩ .
(٣١) قضاة ٨ : ٣١ .
(٣٢) صموئيل أول ٢٨ : ٢٧ ، ٢٥ : ٣٩ ، ٤٣ ، صموئيل ثان ٣:٣، ٤ ، ٥ : ١٣ .
(٣٣) أخبار الايام الثانى ١١ : ٢١ .
(٣٤) أخبار الايام الثانى ١٣ : ٢١ .
(٣٥) سفر الملوك الاول ١١ : ٣ ، وانظر : كتابنا «اسرائيل» ص ٨٤ — ٨٥ ، وكذا مقالنا «الحرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة» ص ٣٦٩ .
(٣٦) اليهود فى تاريخ الحضارات الاولى ص ٥٠ .
(٣٧) انظر أثر القوانين البابلية والمصرية وغيرها فى تشريعات اليهود (كتابنا اسرائيل ص ١٣٨ — ١٥٩) .

اختلط بها بنو اسرائيل كانوا جميعا على مثل هذه الشريعة[٣٨] .

وكانت تعاليم «زرادشت» ــ من القرن السادس ق.م ــ تبيح تعدد الزوجات واتخاذ الحظايا والخليلات ، ومن ثم فقد عدد الفرس نساءهم ، ولم يكن عندهم قانون يمنع التعدد أو يحدده ، وربما كان ذلك رغبة فى انجاب الذكور ، الذين تحتاج اليهم الامم المحاربة أمثالهم[٣٩].

وجاءت المسيحية ، فلم تتوسع فى التشريع الاجتماعى لانها نشأت فى بيئة مكتظة بالشرائع . ومن ثم فقد ذكرت شيئا عن الزواج فى ناحيته العبادية أو فى ناحيته التى تتصل بالعالم الاخر ، دون عالم الحياة الدنيا، ولم يرد فى كتابها نص صريح بتحريم تعدد الزوجات ، وانما ورد فى كلام بولس رسولها الكبير ، استحسان الاكتفاء بزوجة واحدة لرجل الدين المنقطع عن مآرب دنياه ، ذهابا الى الرضى بأهون الشرين ، وقياسا على أن ترك الزواج لمن استطاعه خير من الزواج[٤٠] ، يقول بولس «حسن للرجل ألا يمس امرأة ، ولكن لسبب الزنا ، ليكن لكل واحد امرأته ، وليكن لكل واحدة رجلها ، ليوف الرجل المرأة حقها الواجب ، وكذلك المرأة»[٤١] ، ويقول «أقول لغير المتزوجين وللأرامل انه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا ، ولكن ان لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا، لأن الزواج أصلح من التحرق»[٤٢] .

غير أن بعضا من المسيحيين انما قد تحايلوا على الشريعة وعددوا الزوجات كالامبراطور قسطنطين (٣٠٦ ــ ٣٣٧م) وولده ، بل ان الامبراطور «فالنتيان» انما قد سن ــ فى منتصف القرن الرابع

---

(٣٨) العقاد : المرأة فى القرآن ص ١١٣ ، وانظر :
E. Neufeld, Ancient Marriage Laws.

(٣٩) ول ديورانت : قصة الحضارة الفارسية ص ٥٨ ، مركز المرأة فى الاسلام ص ٤٤ ، حضارة العرب ص ٤٨٣ ، الحوفى : المرجع السابق ص ١٨٩ .

(٤٠) العقاد : المرجع السابق ص ١١٤ ــ ١١٥ .

(٤١) رسالة بولس الرسول الاولى الى اهل كورنثوس ٧ : ١ ــ ٣ .

(٤٢) نفس المرجع السابق ٧ : ٨ ــ ٩ .

الميلادى — قانونا يبيح التعدد ، الامر الذى مارسه كثير من الاباطرة ، حتى أيام «جستنيان» (٥٢٧ — ٥٦٥م) الذى حرم التعدد[٤٣] .

وقد تزوج المنذر بن الحارث الغسانى (٥٦٩ أو ٥٧٠ — ٥٨١ أو ٥٨٢م) نساء كثيرات : على الرغم من أنه — كأبيه الحارث الاكبر — كان من حماة الكنيسة المونوفيزية[٤٤] ، كما تزوج النعمان الاول ملك الحيرة (٣٩٠ — ٤١٨م) من نساء كثيرات ، حتى بعد تنصره ، الذى يشك البعض فيه ، وان كان قد انقلب فى أخريات حياته سائحا زاهدا[٤٥] ، ويبدو أن الكنيسة لم تكن تهتم بذلك ، مادام هؤلاء الامراء غير متزوجين كنسيا بغير واحدة[٤٦] .

وبقى التعدد مباحا فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى الى القرن السادس عشر ، ويقول «وستر مارك» أن «ديارمات» ملك ايرلندة كانت له زوجتان وسريتان ، وتعددت زوجات الملوك الميروفنجيين غير مرة فى القرون الوسطى ، وكان لـ «شارلمان» زوجتان وكثير من السرارى ، ويظهر من قوانينه أن تعدد الزوجات لم يكن مجهولا بين رجال الدين أنفسهم ، وبعد ذلك بزمن كان «فيلب أوف هيس» و «فردريك وليام الثانى البروسى» ، يبرمان عقد الزواج مع اثنتين بموافقة القساوسة اللوثريين ، وأقر «مارتن لوثر» نفسه ، تصرف الاول منهما ، كما أقره «ملانكتون» .

وكان «لوثر» يتكلم فى شتى المناسبات عن تعدد الزوجات بغير اعتراض ، فانه لم يحرم بأمر من الله ، كما أنه على كل حال أفضل من الطلاق ، وبعد صلح وستفاليا فى عام ١٦٥٠م ، وبعد أن تبين النقص فى

---

(٤٣) مركز المرأة فى الاسلام ص ٤٢ ، المرأة فى الشعر الجاهلى ص ١٩٠
(٤٤) نولدكه : امراء غسان ص ٢٠ـ٢٢ ، وكذا
R. Bell, The Origin of Islam. p. 21-23.
(٤٥) تاريخ الطبرى ٢/٦٧ـ٦٨ ، تاريخ اليعقوبى ١/٢٠٩ وكذا
P.K. Hitti, op. cit., p. 82-3.
R. Nicholson, op. cit, p. 41 وكذا
ثم قارن جورجى زيدان : المرجع السابق ص ٢٢٣ .
(٤٦) أمراء غسان ص ٣١ ، الحوفى : المرجع السابق ص ١٩٠ .

عدد السكان من جراء حروب الثلاثين سنة المشهورة، أصدر مجلس الفرنكيين بنورمبرج قرارا يجيز للرجل أن يجمع بين زوجتين ، وفى عام ١٥٣١ م كان اللامعمدانيون قد نادوا صراحة فى مونستر بأن المسيحى الحق يجب أن تكون له عدة زوجات ، وأن المورميين انما يعتبرون تعدد الزوجات نظام الهى مقدس(٤٧) .

ب) التعدد عند العرب :

لم يكن العرب بعيدين عن التعدد ، فقد كان الواحد منهم لا يكتفى بالزوجة الواحدة . وانما يتزوج بأكبر عـدد ممكن من النساء ، بقصد انجاب عدد كبير من المقاتلة لجماعته التى ينتسب اليها(٤٨) ، أو بقصد اعالة هؤلاء النسوة ، أو لغرض سياسى ، اذا كان رئيسا بين قومه ، بأن يصهر الى عدد كبير من القبائل ، حتى يرتبط معها برابطة المصاهرة(٤٩) ، وهكذا كان العربى ــ والبدوى بالذات ــ متعدد الزوجـات من حيث المبدأ ، ولكن الاعتبارات الاقتصادية تحد من هذا التعدد فى الواقع ، اذ ليس من اليسير اعالة أسرة كبيرة فى الصحراء ، وانما تسهل مواجهة الحياة فيها كلما خف عبء المرء ، والتشريع البدوى الذى يتعلق بالاسرة يبيح تعدد الزوجات ، ولكن دون أن يشمله برعاية خاصة ، بل هـو فى بعض الاحايين يقيده بقيود(٥٠) .

ومع ذلك فقد وجد من العرب من يعددون الزوجات ، حتى ان الامام الطبرى يروى فى تفسيره «أن الرجل من قريش كان يتزوج العشر من النساء ، والاكثر والاقل ، ويروى أن الرجل منهم كان يتزوج الخمس والست والعشر، فيقول آخر : ما يمنعنى أن أتزوج كما تزوج فلان»(٥١) ، وهكذا جاء الاسلام ، وكان من رجال ثقيف من عنده عشر نسوة ، ومنهم

---

(٤٧) عباس العقاد : المرجع السابق ص ١١٥ ــ ١١٦ .
(٤٨) ماجد : المرجع السابق ص ٥٤ ، الحيوان ١٠٨/١ وكذا
Perron, Femmes Arabes avant et depuis l'Islamisme, p. 31.
وكذا T. Betram, Les Arabes, p. 21.
(٤٩) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٦١٠ .
(٥٠) موسكاتى : المرجع السابق ص ٥٥ .
(٥١) تفسير الطبرى ٥٣٤/٧ــ٥٣٥ (دار المعارف بمصر) .

مسعود بن مقبب ، ومسعود بن عمرو . وعروة بن مسعود ، وسفيان بن عبد الله : وغيلان بن سلمة ، وأبو عقيل مسعود بن عامر(٥٢) .

وعندما نزل قوله تعالى : «وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتمى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا»(٥٣) ، اضطر من كان متزوجا بأكثر من أربع الى تطليق الزائد ، والاكتفاء بالحد الشرعى الذى قرره الاسلام ، وهو أربع نساء ، ومن ثم فقد نزل كل من غيلان وسفيان وأبو عقيل عن ست وأمسك أربعا ، ومات عروة مسلما ، ولم يكن أمر بالنزول عن بعض نسائه(٥٤) ، هذا وقد كان عند «الحارث بن قيس» ثمانى نسوة ، وعند «نوفل بن معاوية» خمس ، فخيرهما رسول الله — ﷺ — فى أربع(٥٥) .

ويذهب الاخباريون الى أن الشاعر «لبيد بن ربيعة» نكح خمسمائة امرأة من نساء بنى عامر ، وأن «المغيرة بن شعبة» قد تزوج مابين سبعين وثلاثا وتسعين امرأة(٥٦) : وتلك مبالغة ، ما فى ذلك من ريب ، وعلى أى حال ، فلقد ألف «أبو الحسن المدائنى» كتابا فيمن جمع أكثر من أربع(٥٧) ، ومنهم عبد المطلب بن هاشم ، وأبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية : وكل منهم كان عنده ست نسوة(٥٨) .

---

(٥٢) المحبر ص ٣٥٧ ، فى ظلال القرآن ٢٤٠/٤ ، مجمع الامثال ٣٥/١ .

(٥٣) سورة النساء : آية ٣ ، وانظر : تفسير الطبرى ٥٣١/٧-٥٥٤ ، الكشاف ٤٦٦/١-٤٦٩ ، التفسير الكبير للفخر الرازى ١٧٠/٩-١٧٨ ، فى ظلال القرآن ٢٤٠/٤-٢٥٢ : تفسير الطبرسى ١١/٤-١٧ ، تفسير الجواهر ٨/٣-١٢ ، تفسير روح المعانى ١٨٩/٤-١٩٧ .

(٥٤) مجمع الامثال ٣٥/١ ، زاد المعاد ٧/٤ ، تفسير القرطبى ١٧/٥ ، نيل الاوطار للشوكانى ١٦٠/٥ ، المحبر ص ٣٥٧ .

(٥٥) عيون المسائل ص ٥٦ ، تفسير القرطبى ١٧/٥ .

(٥٦) ماجد : المرجع السابق ص ٥٤ ، الاغانى ١٣٧/١٤ ، كنز العمال ٢٨٨/٨ .

(٥٧) معجم الادباء ١٣٣/١٤ ، الفهرست ص ١٠٢ ، الحوفى:المرجع السابق ص ١٩١ .

(٥٨) ابن هشام ١١٩/١ ، الاصابة ١٣٩/٨ .

وهكذا يبدو واضحا أن الاسلام لم ينشىء تعدد الزوجات ، ولم يوجبه ، ولم يستحسنه ، ولكنه أباحه ، وفضل عليه الاكتفاء بالزوجة الواحدة ؛ وفضله على تعطيل الزواج فى مقصده الطبيعى والشرعى ، بقبول العقم والتعرض للغواية وفرض العزوبة ــ وهى تجمع بين العقم والعزوبة معا ــ على كثير من النساء عند اختلال النسبة العددية بين الجنسين .

ويزيد الاستاذ العقاد على ذلك أنه حفظ للمرأة حريتها التى يتشدق بها نقاد الشريعة الاسلامية فى أمر الزواج ، لان اباحة تعدد الزوجات لا يحرم المرأة حريتها ، ولا يكرهها على قبول من لا ترتضيه زوجا لها، ولكن تحريم التعدد يكرهها على حالة واحدة لا تملك غيرها ، حين تلجئها الضرورة الى الاختيار بين الزواج بصاحب زوجة ، وبين عزوبة لا يعولها أحد . وقد يعجزها أن تعول نفسها ، واشترط القرآن الكريم العدل بين الزوجات فى حالة التعدد على أن لا يزيد عددهن عن أربع ، ثم ذكر الرجال بصعوبة العدل عسى أن يتريثوا قبل الاقدام على الحرج(٥٩) ، يقول تعالى «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم»(٦٠) .

ثانيا ــ الطــــلاق :

عرف العرب القــدامى الطــلاق ــ كما عرفوا الزواج ــ وهو من المصطلحات القديمة عندهم ، ويعنى تنازل الرجل عن كل حقوقه التى كانت على زوجه ومفارقته لها(٦١) ؛ وكان الواحد منهم يقول لزوجه اذا أراد طلاقها «حبلك على غاربك» أو «أنت مخلى كهذا البعير» أو «الحقى

---

(٥٩) عباس العقاد : المرجع السابق ص ١١٨ ــ ١١٩ .

(٦٠) سورة النساء : آية ١٢٩ ، وانظر : تفسير الطبرى ٢٨٤/٩ ــ ٢٩٢ ، تفسير الكشاف ٥٧٢/١ ــ ٥٧٣ ، فى ظلال القرآن ٢٤٥/٥ ــ ٢٤٧ ، تفسير مجمع البيان للطبرسى ٢٥١/٥ــ٢٥٢ ، تفسير الجواهر ٩٠/٣ــ٩١ ، تفسير روح المعانى ١٦٢/٥ــ١٧٣ ، وانظر : رشيد رضا : المرجع السابق ص ٦٥ ــ ٨٢ .

(٦١) تاج العروس ٤١١/١ ، اللسان ٦٤٤/١ ، وكذا
EI, IV, p. 636.
وكذا
W.R. Smith, op. cit., p. 112.

بأهلك» أو «اذهبى فلا أنده سربك» أو «اخترت الظبا على البقر» أو «فارقتك» أو «سرحتك» ؛ وما شاكل ذلك من عبارات[٦٢] .

وأما أسباب الطلاق فكثيرة ، منها التطاول على عشيرة الزوج — كما فى حالة طلاق حسان بن ثابت لزوجه عمرة بن الصامت التى عيرته بأخواله وفخرت عليه بالأوس[٦٣] ؛ وكحالة طلاق دريد بن الصمة لأم معبد التى عاتبته على جزعه على أخيه عبد الله ، وصغرت من شأنه[٦٤] ، ومنها أن للرجل قد لا يأنس الى امرأته ولا يجد فيها الخلال الذى يريد ، كما فعل الاعشى لما تزوج من امرأة عنترة ، فلم يرضها ولم يستحسن خلقها فطلقها[٦٥] .

ومنها أن الرجل قد يتوسم فى المرأة التى خطبها شبابا وجمالا ، فاذا هى عجوز شمطاء ، فلا يجد بدا من تسريحها ؛ حدث هذا «لجهم» اذ خطب من «فقعس» امرأة ؛ باع من أجلها ابلا له ؛ فلما دخل بها وجدها عجوزا مولية فطلقها[٦٦] .

وبدهى أن الطلاق انما كان بيد الرجل ؛ حله وعقده ؛ غير أن بعض النساء استطعن أن يطلقن أزواجهن برضى الرجال أنفسهم . ومن ذلك نبيه بن الحجاج السهمى الذى طلبت زوجتاه أن يطلقهما حين افتقر[٦٧] ؛ وكما حدث لعمرو بن عدس عندما أصبح شيخا هرما ، فرأى زوجته دختنوس تتأفف منه يوما ما ، فقال لها : أيسرك أن أفارقك ؟ قالت : نعم ؛ فطلقها[٦٨] .

وهكذا نرى أن المرأة انما كان من حقها أن تطلب الطلاق وأن تجاب

---

(٦٢) مجمع الامثال ١٧٩/١ ، ٢٥٣ ، ٤٠٨ ، عمدة القارىء ٢٠/ ٢٣٨ ، تاج العروس ٤١١/١ ، ١١٩/١٠ ، اللسان ٦٤٤/١ ، جواد على ٥٤٨/٥ — ٥٤٩ .
(٦٣) الاغانى ١٤/٣ ، أعلام النساء ٣٥٢/٣ — ٣٥٥ .
(٦٤) الاغانى ٥/٩ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .
(٦٥) ديوان الاعشى ص ١٨٣ ، شعراء النصرانية ص ٣٦٣ .
(٦٦) عيون الاخبار ٤٧/٤ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٠٩ .
(٦٧) الاغانى ٦٠/١٦ ، قارن : البيان والتبيين ١٩٩/١ .
(٦٨) مجمع الامثال ١٦٤/١ ،تاج العروس ١٤٧/٤ ،الاغانى ٣٨/١٠ .

الى غلبها ، بل ان من حقها أن تشترط أن تكون العصمة فى يدها ، وهكذا كانت هناك نسوة من العــرب يشترطن على أزواجهن أن يكون أمرهن بيدهن ، ان شئن أقمن . وان شئن تركن معاشرتهم وأوقعن الطلاق،وذلك لشرفهن وقدرهن(٦٩) ، وهــذا حق لم تظفر به امــرأة فى الامم التى عاصرت العرب •

وأما طريقة الطلاق عند أهل الوبر ، فهو تحويل اتجاه الخباء ، فان كان بابه قبل المشرق حولته المرأة قبل المغرب . وان كان بابه قبل اليمن حولته قبل الشام ، فاذا رأى الرجل ذلك ، علم أنها قد طلقته فلم يأتها، ولعل السبب فى هذا المظهر أن الخباء كان عند الساميين ملكا للمرأة ، وهو عند أهل المدر كالبيت عند أهل الحضر ، وأما الحضريات فكانت لهن طريقة أخرى فى الاعلام بالتطليق ، ذلك أنهن لا يعالجن للزوج طعــامه اذا أصبح(٧٠) •

ولعل من أبرز النسـوة اللاتى لهن حق الطــلاق — فيما يروى ابن حبيب فى المحــبر — سلمى بنت عمــرو بن زيد من بنى النجــار من الخزرج — وهى أم عبد المطلب بن هاشم — كانت لا تتزوج الا وأمرها بيدها ، فان كرهت من زوجها شيئا تركته . ومنهن فاطمة بنت الخرشب الانمارية — وهى أم الكملة من بنى عبس — وأم خارجة عمــرة بنت سعد من بجيلة . وقد أكثرت من الولد فى العرب ، وبها يضرب المثــل «أسرع من نكاح أم خارجة» ، وأم ماوية بنت الجعيد بن صبرة ، وقد أكثرت أيضا من الولد فى العرب ، وماوية بنت عفزر ؛ وعاتكة بنت مرة بن هلال — وهى أم هــاشم وعبد شمس والمطلب بنى عبــد منافــ والسوا بنت الاعبس من عنزة ثم من هوازن(٧١) •

---

(٦٩) المحبر ص ٣٩٨ـ٣٩٩ ، جواد على ٥/٥٥٤ ٠

(٧٠) الاغانى ١٦/١٠٢ ، ١٧/٢٩١ ، ذيل الامالى ص ١٥٣ ،مجمع الامثال ١/٣١٨ ، النظم الاجتماعية والسياسية ص ٨٧ ، جواد على ٥/ ٥٥٤ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢١٣ ٠

(٧١) المحبر ص ٣٩٨ـ٣٩٩ ، اعلام النساء ١/٢٦٤ ، ٣/١٤٩ـ٢٥١، ٤/٤٨ـ٥٠ ، ٥/١٣ـ٢٠ ، الاغانى ١٣/١١٩ ، ١٦/٩٩ ، مجمع الامثال ١/٣١٨ ، ذيل الامالى ص ١٥٣ ، أخبار النساء ص ٥٤ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢١٤ ، جواد على ٥٥٤،٥ ٠

على أن المرأة العربية انما كانت ثقة فى تصرفها بعصمتها . لا تطلق زوجها حماقة وهوى ، وانما كانت تحرص على رباط الزوجية ، لا تفصمه الا اذا لم تجد بدا من فصمه ، يدل على ذلك أن هـؤلاء اللاتى كانت العصمة بأيديهن لم يتلاعبن بها ، ويدل على ذلك أن رجلا من آل أبى طالب غضب على امرأته يوما فقال لها : أمرك بيدك . فقالت : أما والله لقد كان فى يدك عشرين سنة فحفظته وأحسنت صحبته ، فلا أضيعه اذا كان فى يدى ساعة من نهار ، وقد رددت عليك حقك ، فأعجبه قـولها وأحسن صحبتها(٧٢) .

وجاء الاسلام فأبقى على حق المرأة فى الطلاق اذا اشترطته على الزوج ، كما أباح لها أن تختلع وتطلب التفـريق لعيب فى الزوج ، أو لامتناعه عن الانفاق ، أو لسوء عشرته ، أو لغيبته الطويلة ، وأباح للتى زوجت صغيرة أن تفسخ العقد أو تمضيه عند بلوغها(٧٣) .

وهناك أنواع مختلفة من الطلاق : منها (أولا) الطلاق الشائع ، وهو طلاق المرأة ثلاثا على التفرقة ، وينسب أهل الاخبار سنه الى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، فكان الرجل يقول لامرأته : أنت طـالق واحدة ، فهو أحق الناس بها ، فان طلقها اثنين فكذلك ، فان طلقها ثلاثا ، فلا سبيل له عليها ، وتصبح طالقا طلاقا بائنا(٧٤) .

ويروى ابن عباس أن الرجل فى الجاهلية كان يطلق امراته تطليقة . ثم هو أحق بها ، فان طلقها اثنتين فهو أحق بها أيضا ، فان طلقها ثلاثا فلا سبيل له اليها(٧٥) ، فاذا صح ما روى عن ابن عباس ــ وهذا مانميل

---

(٧٢) المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٢١٥ ، بلاغات النساء لابن طيفور ص ١٣٢ .

(٧٣) الحوفى : المرجع السابق ص ٢١٥ ، وانظر : عيون المســائل ص ٧٧ ، ١٦٩ ، ٢٠٥ .

(٧٤) المحبر ص ٣٠٩ ، بلوغ الارب ٤٩/٢ ، الملك والنحل ٢٤٣/٣ ، جواد على ٥٤٩/٥ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٠٩ ، على الهاشمى : المرجع السابق ص ١٧٢ .

(٧٥) الحوفى : المرجع السابق ص ٢١٠ ، ياقوت ١٣٨/٨ (القاهرة ١٩٠٦م) .

اليه ونرجحه — فليس صحيحا ما ذهب اليه «ابن زيد» من أن الرجل كان يطلق امرأته مائة ثم اذا أراد أن يراجعها كان له ذلك[٧٦] ، وماذكره الرازى «من أن الرجل كان يطلق امرأته ألفا ثم يراجعها بعد كل مرة»[٧٧] ، وحتى ان كان ذلك كذلك ؛ فهو الامر الشاذ النادر .

وعلى أى حال : فان الجاهليين انما كان الواحد منهم يرجع الى زوجه بعد الطلاق الثالث ان تزوجت بعد ذلك من رجل غريب[٧٨] ، ومن ثم فقد عرف الطلاق البائن بانه الذى لا يملك الزوج فيه استرجاع زوجته الا بعقد جديد ، غير أن ذلك انما كان فى الاسلام — وليس فى الجاهلية — اذ يذهب الدكتور الحوفى الى أن الاسلام قد وافق العرب كلهم أو أكثرهم فى أن جعل الطلقات ثلاثا ؛ ثم زاد أمورا منها أن الزوجة لا تحل لزوجها بعد الطلقة الثالثة الا اذا تزوجت غيره ؛ ثم ان العرب كانوا يطلقون ثلاثا دفعة واحدة . ولما جاء الاسلام اختلف الفقهاء فى حكم هذا الجمع ، فذهب جمهور الفقهاء الى وقوع الطلاق اثنتين أو ثلاث دفعة واحدة ، وذهب بعض المجتهدين والمحققين الى وقوعه واحدة[٧٩] . ويروى عن ابن عباس أن الطلاق كان فى عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة . فقال عمر : ان الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة ، فلو أمضينا عليهم . فأمضاه عليهم[٨٠] .

هذا وينظر الاسلام الى الرجل الذى يتزوج المطلقة ثلاثا ليحلها لزوجها القديم (المحلل) نظرة غير كريمة ، فيقال له «التيس المستعار»

---

(٧٦) تفسير الطبرى ٥٤١/٤ ، السنن الكبرى ٣٣٢/٧ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢١٠ .

(٧٧) تفسير الفخر الرازى ٣٧٣/٢، الحوفى : المرجع السابق ص٢١٠ .

(٧٨) جواد على ٥٤٩/٥ — ٥٥٠ .

(٧٩) الحوفى : المرجع السابق ص ٢١١ ، وانظر : تفسير القرطبى ١٣٠/٣ عيون المسائل ص ١٤٥ — ١٦٠ ، وانظر : تفصيلات أخرى فى :

(٨٠) تفسير القرطبى ١٣٠/٣ ، السنن الكبرى للبيهقى ٣٣٦/٧ .

تفسير الطبرى ٥٣٨/٤ — ٦٠٠ (دار المعارف) ، تفسير الكشاف ٢٧٢/١ — ٢٧٦ (بيروت — دار الكتاب العربى) .

و «المجحش» ؛ وهو رجل مذموم عند العرب الجاهليين ، ومحـرم فى الاسلام ، وقد جاء فى الحديث «لعن الله المحلل والمحلل له»[٨١] .

ومن أنواع الطلاق (ثانيا) : الظهار : كأن يقـول الرجل لامرأته «أنت على كظهر أمى أو كبطنهـا أو كفخذها أو كفرجهـا» أو «كظهر أختى وعمتى» أو ما شابه ذلك[٨٢] ، فيقع بذلك «الظهار» ، أى تحريم المرأة على زوجها تحريما مؤبدا ، بدليل قوله ﷺ : لخولة بنت ثعـلبة زوجة أوس بن الصامت ، حين فزعت اليه لما ظاهر منها زوجها : «حرمت عليه»[٨٣] ، ثم أنزل الله سبحانه وتعالى حكم الاسلام فى قـوله تعالى «قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير ، الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ان أمهاتهم الا اللائى ولدنهم انهم ليقولون منكرا من القـول وزورا وان الله لعفو غفور ، والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبـل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم»[٨٤] .

هـذا وكان الجاهليون يعـدون الظهار من أشـد أنواع الطلاق

---

(٨١) النهاية ٢٨٨/١ ، عمدة القارىء ٢٣٦/٢٠ ، حياة الحيـوان ١٦٦/١ ، جواد على ٥٥٠/٥ .

(٨٢) عمدة القارىء ٢٨٠/٢٠ المبسوط للسرخسى ٢٢٣/٦ ، تفسير الطبرى ١٢١/٢١ ، الاصابة ٨٥/١ ، المفردات ص ٢٢٠ ، أحكام القرآن للجصاص ٤١٧/٣ ، جواد على ٥٥٠/٥ .

(٨٣) تفسير الطبرى ٧/٢٨ ، تفسير القرطبى ٢٧٠/٢٨ ، تفسير ابن كثير ٣٢٠/٤ ، ابن سعد ٢٧٦/٨ ، أعلام النسا ٣٢٦/١-٣٢٨ ، جواد على ٥٥١/٥ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢١٢ .

(٨٤) سورة المجادلة : آية ١-٤ ، وانظر : تفسير أبى السعود ٦٩٢/٤-٦٩٤ ، تفسير الطبرى ٣/٢٨-٧ ، تفسير روح المعانى ٢٨-١٠ ، الكشاف ٤٨٤/٤-٤٨٩ ، أحكام القرآن للجصاص ٤١٧/٢-٤٢٧ ، الـدر المنثور ١٧٩/٦-١٨٣ ، تفسير الطبرى ٢/٢٨-٩ ، تفسير الفخر الرازى ٢٤٩/٢٩-٢٦٢ ، تفسير النسفى ١٦١/٥-١٦٣ ، تفسير القـرآن الكريم المسمى بالسراج المنير للخطيب الشربينى ٢١٩/٤-٢٢٤ .

تحريما(٨٥) ، وان ذهب البعض الى أن القوم فى الجاهلية(٨٦) انما كانوا يجيزون للمظاهر أن يتزوج زوجته ثانيا(٨٧) ، غير أن جواب الرسول ، ﷺ لخوله «حرمت عليه» — وكذا قوله ﷺ لزوجها : لا تدن منها ولا تدخل عليها حتى آذن لك (٨٨) — يناقض هذا الاتجاه ، وعلى أى حال ، ربما كان الاكثر يحرمون الظهار ، والاقل لا يحرمونه(٨٩) ، وأنه كان من أيمان الجاهلية يقسمون به حين يتخاصمون مع نسائهم أو أقربائهم(٩٠).

وقد أبطل الاسلام الظهار وحرمه ، ونفى الخالق أن يكون لرجل قلبان فى جوفه ، وقاس لهم على هذا المستحيل ، أن يزعم الرجل أن زوجته محرمة عليه كأمه(٩١) ، يقول الله تعالى «ما جعل الله لرجل من

---

(٨٥) تفسير النيسابورى ٧/٢٨ ، جواد على ٥٥١/٦ .

(٨٦) الجاهلية : لفظ استعمل فى الاسلام للزمن الذى كان قبل البعثة النبوية الشريفة (انظر : السيوطى : المزهر فى علوم اللغة ، القاهرة ١٩٤٢) وقد ذهب البعض الى أن المراد بلفظة الجاهلية انما هو الجهل والجهالة ،نقيض العلم والمعرفة ، أو الجهل بالقراءة والكتابة ، وذهب فريق آخر الى أنها بمعنى الجهل بالله ورسوله وبشرائع الدين وباتباع الوثنية والتعبد لغير الله (انظر : ابراهيم أنيس : دلالة الالفاظ ص ١٨٣ — ١٨٨ ، عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ص ٥٣ ، محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم ص ١٣٩ — ١٤١ ، نهاية الارب ١٥/١ ، تفسير الطبرى ٢٢٠/٧—٢٢٦ ، تفسير روح المعانى ٩/٢٢ ، جواد على ٣٨/١
وكذا EI, I, p. 999
وكذا S. M. Zwemer. Arabia, The Craddle of Islam, p. 158.
وذهب فريق ثالث الى انها بمعنى «السفه» الذى هو ضد الحلم،وفى الحديث الشريف «اذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل» ، وفى قوله ﷺ لابى ذر — وقد عير رجلا بأمه — «انك امرؤ فيك جاهلية» ، أى فيك روح الجاهلية ، فهى اذن بمعنى الحمية والمفاخرة والانفة (انظر : تفسير روح المعانى ٨/٢٢—٩ ، مجموعة الحديث ص ٢٦٧—٢٦٨ ، مجموعة فتاوى ابن تيمية ١٧٤/١١ ، نهاية الارب ١٦/١ ، أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٦٩—٧٠ ، ابن هشام ٢٢٠/٢—٢٢٤ ، تفسير البيضاوى ٢٤٥/٢،تفسير الطبرى ١١١/١٨—١٢٥ ، ٣٢/١٩—٣٥ ، ٥/٢٢ وكذا EI, I, p. 999.
وكذا R. Nicholson, op. cit., p. 30.

(٨٧) تفسير الطبرى ٦/٢٨—٧ ، تفسير النيسابورى ٨٢/٢١،المبسوط ٢٢٤/٦ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢١٢ .

(٨٨) اعلام النساء ٣٢٦/١ .

(٨٩) الحوفى : المرجع السابق ص ٣١٢ .

(٩٠) زاد المعاد ٨١/٤ ، جواد على ٥٥١/٥ .

(٩١) الحوفى : المرجع السابق ص ٢١٣ .

قلبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل))[٩٢] ، ثم أوجب الاسلام بعد ذلك الكفارة عقوبة على من ظاهر من امرأته[٩٣] .

ومن أنواع الطلاق (ثالث) الايلاء : وهو القسم على ترك المرأة مدة ــ شهورا أو سنة أو سنتين ــ ايذاء لها فلا يقربها[٩٤] ، ثم جاء الاسلام نجعل للتربص مدة لا تزيد على أربعة أشهر ، ثم يطلق ان شاء أو يفىء فى يمينه[٩٥] ، يقول سبحانه وتعالى ((للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فان فاءوا فان الله غفور رحيم ، وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم))[٩٦] ، فمن آلى بأقل من ذلك فليس بايلاء حكمى[٩٧] .

ومن أنواع الطلاق (رابعا) الخلع : وهو أن تفتدى المرأة من زوجها بمالها وتختلع منه اذا أساء عشرتها[٩٨] ، ومن ذلك أن ((عامر بن الظرب)) زوج ابنته ابن أخيه ، وبعد أشهر جاءته مشجوجة ، فقال لابن أخيه : يا بنى ارفع عصاك عن بكرتك ، فان كانت نفرت من غير أن تنفر فذاك الداء الذى ليس له دواء ، وان لم يكن بينكما وفاق ففراق الخلع أحسن من الطلاق ولن تترك مالك وأهلك ، ورد عليه صداقها وخلعها ، وكذا خلع ((دعج بن عبد الله)) زوجة رجل من أياد منه ، ثم تزوجها[٩٩] .

---

(٩٢) سورة الاحزاب : آية ٤ .

(٩٣) عمدة القارىء ٢٨١/٢٠ ، مسند ابن حنبل ٣٧/٤ ، ٤١٠/٦ ، تاج العروس ٢٧٣/٣ ، اللسان ٢٠١/٦ ، جواد على ٥٥١/٥ .

(٩٤) بلوغ الارب ٥٠/٢ ، اللسان ٤٣/١٨ ، تفسير ابن كثير ٢٦٨/١ ، تفسير القرطبى ١٠٣/٣ ، عمدة القارىء ٢٨٠/٢٠ ، السنن الكبرى ٧/ ٣٨١ ، ٣٨٢ ، تفسير الطبرى ٤٥٦/٧ــ٤٦٥ ، .

(٩٥) أحكام القرآن للجصاص ٣٥٧/١ ، المغنى لابن قدامة ٥٠٢/٨ ، جواد على ٥٥١/٥ــ٥٥٢ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢١٣ .

(٩٦) سورة البقرة : آية ٢٢٦ــ٢٢٧ ، وانظر : تفسير الطبرى ٤/ ٤٥٦ــ٤٩٩ ، تفسير الكشاف ٢٦٨/١ــ٢٧١ ، وعن آراء الصحابة والتابعين فى الايلاء : انظر : نصب الراية ٢٤١/٣ــ٢٤٣ ، المحلى لابن حزم ١٠/ ٤٢ــ٤٩ ، سنن البيهقى ٣٧٦/٧ــ٣٨٢ ، فتح البارى ٣٧٥/٩ــ٣٧٩ .

(٩٧) تفسير القرطبى ١٠٢/٣ ، تفسير الكشاف ٢٦٩/١ .

(٩٨) الحوفى : المرجع السابق ص ٢١١ .

(٩٩) عيون الاخبار ٧٦/٤ ، فتح البارى ٣٤٦/٩ ، عمدة القارىء
=

وجاء الاسلام وأقر الخلع مراعاة لمصلحة المرأة ، فقد تبغض زوجها وتتأذى بعشرته ويأبى هو أن يخلصها حرصا عليها ، أو نكاية لها ، أو أسفا على ما أنفق من ماله في زواجها[100] . يقول سبحانه وتعالى «ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فان خفتم ألا يقيما حدود الله ، فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله ، فأولئك هم الظالمون»[101] .

على أن الاسلام حذر الزوجة أن تختلع أوتطلب الطلاق من غير حاجة أو خضوع للهوى ، لقوله تعالى «الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله» ، ولقوله ﷺ «أيما امرأة اختلعت من زوجها من غير ما بأس به لم ترح رائحة الجنة» و «أيما امرأة سألت زوجها طلاقا من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة» و «المختلعات هن المنافقات» و «ان المختلعات المنتزعات هن المنافقات»[102] .

ولعل قريبا من طلاق الخلع هذا ما تدفعه زوج الأب المتوفى الى ابنه الذى يتزوجها بعد وفاة أبيه من مال مقابل فراقه لها،وتطليقه اياها[103].

وهناك كذلك العضل ، وهو أن ينكح الرجل المرأة الشريفة . فلعلها لا توافقه فيفارقها ، على ألا تتزوج ، فيأتي بالشهود ويكتب ذلك عليها،

=

٢٠/٢٠/٢٦٠ ، اللسان ٤٢٩/٩ ، تاج العروس ٣٢١/٥ ، جواد على ٥٥٢/٥ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢١١ ، وانظر : الكشاف ٢٧٤/١ ، تفسير الطبرى ٥٥٢/٤ـ٥٥٧ ، ابن سعد ٥٨/٥ـ٥٩ ، الاصابة ١٥٢/٦، البخارى ٣٤٩/٩ـ٣٥٢ .

(١٠٠) الحوفى : المرجع السابق ص ٢١١ ، وانظر : تفسير القرطبى ١٣٧/٣ .

(١٠١) سورة البقرة : آية ٢٢٩ وانظر : تفسير الطبرى ٥٤٩/٤ ـ ٥٨٥ ؛ تفسير الكشاف ٢٧٣/١ـ٢٧٥ .

(١٠٢) تيسير الوصول ٣٣٨/١ ، سنن الترمذى ٢١٧/٢ ، مسند ابن حنبل ٤١٤/٢ ، ٢٧٧/٥ ، الحلية ٣٧٥/٨ـ٣٧٦ ، السنن الكبرى ٣١٦/٧ ، تاريخ بغداد ٣٥٨/٣ ، تفسير الطبرى ٥٦٨/٤ـ٥٧١ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢١٢ .

(١٠٣) جواد على ٥٥٢/٥ وكذا

W. R. Smith, op. cit., p. 92.

فاذا خطبها خاطب ، فاذا أعطته وأرضته أذن لها ، والا عضلها(١٠٤) .

وقد حرم العضل فى الاسلام ، يقول سبحانه وتعالى : «واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف»(١٠٥) ، ويقول «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة مبينة»(١٠٦) .

بقى أن نشير الى أن الامم القديمة قد عرفت الطلاق كذلك ، لانه نظام طبيعى لا مفر منه أحيانا ، صحيح أنه من الافضل أن يقتصر الانسان على زوجة واحدة لا يبدلها ، ومن هنا كان قول الرسول ﷺ «أبغض الحلال الى الله الطلاق»(١٠٧) ، ولكنه صحيح كذلك أن الزواج قد يكون غير موفق ، ومن هنا قد يصبح الطلاق علاجا لمثل هذا الزواج، ولهذا فقد لجأ بعض المسيحيين اليه ، وذهب بعض مفكريهم الى ضرورة سن القوانين التى تخول للرجل أن يفصم هذه الزيجة التى لا مندوحة من تغييرها ، مراعاة لصالحه وصالح المجتمع(١٠٨) .

وعلى أى حال ، فقد عرف العبرانيون الطلاق ، واشترطوا أن يعطى الرجل امرأته المطلقة وثيقة تسريح ، ثم لها بعد ذلك أن تتزوج من غيره، ولكنها لا تعود الى زوجها الاول اذا طلقت من زوجها الثانى أو توفى

---

(١٠٤) سنن أبى داود ٢/٢٣٠ ، تفسير المنار ٤/٤٥٤ ، تاج العروس ٨/٢١ ، المفردات ص ٣٤٣ ، تفسير الطبرى ٥/١٨-٢٢ ، فتح البارى ٨/١٤٣ . سنن البيهقى ٧/١٣٨ ، الاصابة ٩/١٦٠ .

(١٠٥) سورة البقرة : آية ٢٣٢ ، وانظر : تفسير الطبرى ٥/١٧-٢٧ (دار المعارف) ، الكشاف ١/٢٧٦-٢٧٨ .

(١٠٦) سورة النساء : آية ١٩ ، وانظر : تفسير الطبرى ٨/١٠٣ - ١٢٢ ، تفسير ابن كثير ٢/٢٨١-٢٨٢ ، الدر المنثور للسيوطى ٢/١٣١ - ١٣٢ ، الكشاف ١/٢٩٠ ، تفسير الطبرسى ٤/٥٣-٥٧ ، تفسير الالوسى ٤/٢٤١-٢٤٣ ، فى ظلال القرآن ٤/٢٧١ ، ٢٨٢-٢٨٧ ، تفسير الجواهر ٣/٢٧ ، تفسير الفخر الرازى ١٠/١٠-١٢ ، فتح البارى ٨/١٨٤ ، سنن أبى داود ١/٣١١ ، سنن البيهقى ٧/١٣٨ .

(١٠٧) نفس المرجع السابق ٧/٣٢٢ .

(١٠٨) الحوفى : المرجع السابق ص ٢١٦ ، وكذا
W. M. Callichan, The Psychology of Marriage, p. 240.

عنها ذلك الزوج[١٠٩] ؛ تقول التوراة «اذا أخذ الرجل امرأة وتزوج بها . فان لم تجد نعمة فى عينيه لانه وجد فيها عيب شيء وكتب لها كتاب طلاق ودفعه الى يدها وأطلقها من بيته ، ومتى خرجت من بيته وصارت لرجل آخر ، فان أبغضها الرجل الاخير وكتب لها كتاب طلاق ودفعه الى يدها وأطلقها من بيته أو اذا مات الرجل الاخير الذى اتخذها زوجة ، لا يقدر زوجها الاول أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعــد أن تنجست»[١١٠] وهناك اشارة أخرى الى الطلاق فى التوراة حيث تقول «اذا طلق رجل امرأته فانطلقت من عنــده ، وصارت لرجل آخــر ، فهل يرجع اليها بعد ؟»[١١١] .

وهكذا يبدو بوضوح من نصوص التوراة أن العبرانيين قد عرفوا الطلاق ، وأن قوانينهم انما خولت للرجل حق طلاق زوجته ، ولكنها لم تخول المرأة هذا الحق،أو حتى طلبه،وان أباح لها القراءون ذلك فيما بعد، على أن قبولها للطلاق لم يكن شرطا لوقوعه[١١٢] .

واستمر الامر كذلك الى ما بعد ظهور المسيحية : اذ روى انجيــل متى من أن المسيح عليه السلام سئل عن الطلاق فاستنكره لقسوته ، وقال : «ان من طلق امرأته لغير الزنى جعلها تزنى» ودفع بالزوجة الى اقتراف الرذيلة[١١٣] ، «وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق . وأما أنا فأقول لكم ان من طلق امرأته الا لعلة الزنى يجعلهــا تزنى ، ومن يتزوج مطلقة فانه يزنى»[١١٤] .

وعلى أى حال ، فلقد أباحت الكنائس الطلاق فى ظروف خاصة ، ســـواء فى ذلك الكنيســـة الرومية أو المــذهب الارثوذكسى والمذهب البروتستانتى[١١٥] ، والكاثوليك يحرمون الطلاق ، لكنهم يفسخون العقد

---

(١٠٩) العقاد : المرجع السابق ص ١٣٧ .
(١١٠) تثنية ٢٤ : ١ـ٤ .
(١١١) ارمياء ٣ : ١ .
(١١٢) الحوفى : المرجع السابق ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، الاحكام الشرعية للاسرائيليين ص ٩٧ ، مركز المراة فى الاسلام ص ٧٣ .
(١١٣) العقاد : المرجع السابق ص ١٢٨ .
(١١٤) متى ٥ : ٣٠ـ٣١ ، وانظر : متى ١٩ : ١٣ـ١٢ .
(١١٥) الاسرة والمجتمع ص ١٢٧ .

لأسباب كزنا المرأة ، ويعدون هذا انفصالا لا طلاقا : لا يتزوج أحد الزوجين بعده[116] .

هذا وقد عرفت بلاد الرافدين الطلاق كذلك ، ولدينا اشارات كثيرة عنه فى التشريعات الميزوبوتامية ، منها تشريع «أشنونا»[117] وقد نص على أن من طلق زوجته ذات الاولاد وتزوج غيرها ، عليه أن يفارق دارها وما فيها هو ومن أراد أن يتبعه من أهل داره[118] ، ومنها ما جاء فى تشريع «ايسين» من عهد الملك «لبت عشتار» (حوالى ١٨٧٥ — ١٨٦٥ ق٠م)[119] من أن من هجر زوجته وبنى بغيرها وجب عليه أن يستمر فى الانفاق عليها مادامت باقية فى داره[120] .

ومنها ما جاء فى قانون حامورابى (١٧٢٨ — ١٧٨٦ ق٠م) الشهير[121] ، حين أكدت هذه التشريعات البابلية أن من حق الزوجة أن تسترد بائنتها (شريقتو ، وتقوم مقام الدوطة عند بعض الشعوب المعاصرة) ، حين طلاقها ، ما لم تكن ناشزا ، وأضافت الى بائنة المطلقة ذات الاولاد نصف أملاك زوجها لتستغله فى تربية أبنائها حتى يبلغوا أشدهم ، ثم تجتزىء منه نصيبا تستعين به على زواج جديد أن استحبت فراقهم ، وأضافت الى بائنة المطلقة العاقر تعويضا يبلغ «مينا» من الفضة بالنسبة للطبقات العليا ، وثلث مينا بالنسبة لأهل الطبقات العادية،

---

(١١٦) المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٢٠٧ .

(١١٧) اكتشف فيما بين عامى ١٩٤٥ ، ١٩٤٧م فى تل ابو حرمل بالقرب من بغداد ، وينسب «البرخت جوتزه» هذا التشريع الى ملك دعاه «بيلالاما» ، وقد قام بترجمته فى

(Albrecht Goetze, in Ancient Near Eastern Textes, 1966, p. 161-163).

(١١٨) عبد انعزيز صالح : الشرق الادنى القديم ٤٤٨/١ .

(١١٩) أنظر عن القانون :

F. Steele, The Code of Libit Ishtar, AJA. L II, 1948, p. 425 F.

S. N. Kramer, in ANET, p. 159 F.

(١٢٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٥٠ .

(١٢١) أحدث ترجمة لقانون حمورابى هى ترجمة

(Theophile J. meek, The Gode of Hammurabi, in ANET, p. 163-180).

(وهناك ترجمة عربية للقانون فى كتاب استاذنا الدكتور نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ٥٣/٦ـ٨١ ، الاسكندرية ١٩٦٧)٠

ويبدو أنه لم يكن من الضرورى أن يلتزم كل مطلق ومطلقة بهذه المبادىء، اذ كان الامر يتوقف على ظروف الطلاق ومدى التراضى بين المطلقين ومقدار ثرائهما(١٢٢) .

ولعل من الأهمية بمكان الاشارة الى عدة أمور تتصل بالطلاق، منها (أولا) العدة : وهى تلك الفترة التى يسمح فيها للمرأة بأن تتزوج بعد طلاقها – وكذا بعد وفاة زوجها – استبراء للرحم ومحافظة على النسب وقد كانت معلومة فى الجاهلية لا يكادون يتركونها(١٢٣) .

هذا ورغم أن الامر جد واضح فى حالة الوفاة ؛ الا أنه غامض بالنسبة الى الطلاق ومن ثم فقد ذهب البعض الى أن المطلقة انما كانت تعتد فى الجاهلية ، وذهب آخرون الى أنها لم تكن تعتد ، وأن بعض النساء قد ولدن من أزواجهن الاولين ؛ وهن فى عصمة الاخرين . وأن المولود انما كان ينسب الى الرجل الاخير ؛ حتى ان كانت المرأة تعرف أن حملها من زوجها الاول ، ومن ثم فان عدة الطلاق انما جاءت فى الاسلام فحسب(١٢٤) .

أما عدة الوفاة ، فقد كانت فى الجاهلية حولا كاملا ؛ تمضيه المرأة فى «حفش» (بيت صغير) ، فتلبس شر ثيابها ، وتمنع من أن تمس طيبا أو كحلا أو ماء ، ولا تقلم ظفرا ولا تزيل شعرا ؛ حتى يمر العام فتخرج فى أقبح منظر . ثم يؤتى لها بدابة – حمارا أو شاة أو طائرا – فتفتض به (أى تمسح به جلدها) ، ثم تعطى بعرة فترمى بها ، ثم تراجع بعد ماشاءت من طيب أو غيره(١٢٥) .

---

(١٢٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٦١ .

(١٢٣) بلوغ الارب ٢/٥٠ ، تفسير القرطبى ٣/١٢٦ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٢٠ .

(١٢٤) المحبر ص ٣٣٨ – ٣٤٠ ، تفسير القرطبى ٣/١٩٤ ، اللسان ٤/٢٧٥ ، تاج العروس ٢/٤١٧ ، جواد على ٥/٥٥٦ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٢٠ – ٢٢١ وكذا Shorter Ency., of Islam p. 157.

(١٢٥) انظر : مسند الامام أحمد ٦/٢٩١–٢٩٢ ، ٣٢٥–٣٢٦، سنن البيهقى ٧/٤٣٩ ، صحيح مسلم ١/٤٣٣–٤٣٥ ، سنن الترمذى ٢/٢٢٠ ، النسائى ٢/١١٤–١١٥ ، تفسير الطبرى ٥/٨٠–٨٦ ، نسب قريش للمصعب الزبيرى ص ١٨٣ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٢١ ، جواد على ٥/٥٥٧ .

هذا وقد أبطل الاسلام ذلك كله ، وجعل عـدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا[١٢٦] يقول سبحـانه وتعالى «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ، فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعـلن فى أنفسهن بالمعـروف والله بما تعملون خبير[١٢٧] ، وهكذا كانت عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا ، الا أن تكون حاملا ، فعدتها أن تضع ما فى بطنها[١٢٨] .

ومنها (ثانيا) أن العرب فى الجاهلية لم يكونوا يؤدون نفقة للمطلقة ــ بعكس شرائع العراق القديم ، كما رأينا ــ ولم يكونوا يجعـلون لها شيئا للسكن ولا للنفقة فى الطلاق البائن[١٢٩] ، ومنها (ثالثا) أنهم كانوا ينسبون الولد للأب ، وعرفهم فى ذلك «الولد للفراش» ويروى أن أول من حكم بذلك فى الجاهلية انما كان «أكثم بن صيف» حكيم العرب ، ثم جاء الاسلام بتقريره ، اذ ورد فى الحـديث النبوى الشريف «الولد للفراش وللعاهر الحجر»[١٣٠] .

هذا وقد عرف العرب الاستلحاق كذلك ، وهو أن يعترف رجل بأبوته الحقيقية لولد ، ويدعيه ابنا له ، فيلحق هذا الابن به ، وذلك لان لبعض الجاهليين اماء بغايا ، وكان سادتهن يلمون بهن ، فاذا جاءت احـداهن بولد ، ربما ادعاه السيد والزانى ، ولما كان للأمة فراش كالحرة ، فقد استلحق الولد بالسيد ، غير أن السيد قد يموت ولا يستلحق الصبى ، وهنا فالامر للورثة ان شاءوا استلحقوه ، فلحـق بالسيد ، وان كانت الاخرى بقى كما هو ، وأما ميراثه فموضع خلاف بين العلماء[١٣١] .

---

(١٢٦) تفسير الطبرى ٥/٨١ـ٨٢ ، مسند الامام احمد ٦/٣٦٩ ــ ٣٧٠ ، ٤٢٠ ، ٤٣٨ ، السنن الكبرى ٧/٤٣٤ـ٤٣٨ ، المحلى لابن حـزم ١٠/٢٨٠ ، سنن الدارمى ٢/١٦٨ ، سنن الترمذى ٢/٢٢٤ـ٢٢٥ .

(١٢٧) سورة البقرة : آية ٢٣٤ وانظر : تفسير الطبرى ٥/٧٧ـ٩٤ (دار المعارف ، تحقيق محمود محمد شاكر) تفسير الكشاف ١/٢٨١ـ٢٨٢ .

(١٢٨) تفسير الطبرى ٥/٧٩ـ٨٠ .

(١٢٩) صحيح مسلم ٤/١٩٥ (باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها) ، جواد على ٥/٥٥٨ .

(١٣٠) ارشاد السارى : ١٠/١١ ، زاد المسلم ٤/١٣٢ ، جواد على ٥/٥٥٨ صبح الاعشى ١/٤٣٥ ، اللسـان ١٠/١١ ، المفـردات للراغب الاصبهانى ص ٢١٤ .

(١٣١) اللسان ٦/٢٩٠ ، ١٠/٣٢٨ ، جواد على ٥/٥٥٨ .

ثالثا ـ الميراث :

يذهب المؤرخون المسلمون الى أن العرب القدامى انما كانوا ينظرون الى المرأة وكأنها متاع ، وكانوا يحرمونها أيما نصيب من ارث زوجها المتوفى ، أو أى نسيب من أنسبائها ، بل انها هى نفسها كانت تورث كجزء لا يتجزأ من تركة المتوفى (١) ، لان العرف الشائع عندهم أن النساء ــ وكذا الصغار من الغلمان ــ لا يرثون ، ومن ثم فالارث انما هو مقصور على «من طاعن بالرمح وذاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة»(٢) .

ومضى الامر كذلك حتى مات «أوس بن ثابت» ــ على عهد رسول الله ﷺ ــ وترك ابنتين وابنا صغيرا ، فجاء ابنا عمه فأخذا ميراثه كله، ولم يتركا لامرأته وأولاده شيئا ، فطلبت امرأته منهما أن يتزوجا البنتين (أو الاربعة على بعض الروايات) فأبيا ، ومن ثم فقد ذهبت الى النبى تشكو مما فعله ابنا عم زوجها المتوفى ، ومن سوء حالها وعدم تمكنها من اعالة أولادها ، فنزل الوحى بقوله تعالى : «للرجال نصيب مما ترك الولدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الولدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا»(٣) ثم نزلت بعد ذلك آية «ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما»(٤) ، ثم نزلت آية الميراث «يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل

---

(١) مولانا محمد على : المرجع السابق ص ٢٨ .

(٢) تفسير الطبرى ٥٩٩/٧ ، تفسير الكشاف ٣٧٦/١ ، المحبر ص ٣٢٤ ، تفسير الطبرسى ٢٦/٤ ، تفسير الجواهر ٩٠/٩ ، تفسير روح المعانى ٢١٠/٤ ، جواد على ٥٦٢/٥ـ٥٦٣ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٣٦٣ ، مولانا محمد على : المرجع السابق ص ٢٨ .

(٣) سورة النساء : آية ٧ ، وانظر : تفسير الطبرى ٥٩٧/٦ـ٥٩٩ ، تفسير الكشاف ٤٧٦/١ـ٤٧٧ ، تفسير روح المعانى ٢١٠/٤ـ٢١١ ، تفسير الجواهر ١٥/٣ـ١٦ ، تفسير الفخر الرازى ١٠٤/٩ـ١٩٥ ، تفسير الطبرسى ٢٥/٤ـ٢٦ ، فى ظلال القرآن ٢٥٣/٤ـ٢٥٦ .

(٤) سورة النساء : آية ١٢٧ ،وانظر : تفسير الطبرى ٢٥٣/٩ـ٢٦٧، الطبرسى ٢٤٤/٦ـ٢٤٧ ، تفسير الجواهر ٩٠/٩ ، تفسير روح المعانى ١٥٩/٥ـ١٦٢ ، الكشاف ٥٦٩/١ـ٤٧٠ .

حظ الانثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فان كان له أخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما»[٥] .

على أن الامر ربما لم يكن كما صوره أصحابنا المؤرخون المسلمون، وأن العرب فى الجاهلية كانوا يورثون البنات ، ولكنهم كانوا يفضلون الذكور الكبار والمقاتلين على الذكور الصغار وعلى الاناث ، وهناك الكثير من الادلة على توريث البنات ، منها (أولا) ما يرويه ابن حبيب ــ وكذا ابن حزم ــ من أن ذا المجاسد ــ وهو عامر بن جشم بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر ــ قد ورث ماله لولده فى الجاهلية للذكر مثل حظ الانثيين ، فوافق حكم الاسلام[٦] ، يقول تعالى : «يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين»[٧] .

ومنها (ثانيا) ما جاء فى قصة أم كحة الانصارية ــ الآنفة الذكر ــ وطبقا لرواية الواقدى ، فانها قالت للنبى ، ﷺ : «لقد مات بعلى فانتقل الميراث الى أخيه ، وبقيت بناته بدون مال ، ولكن أنى للبنات أن يتزوجن اذا لم يكن لديهن مال» : فهذه الزوجة تشكو الى النبى ــ ﷺ ــ أن عم بناتها (أو أبناء عم أبيهما) قد استأثر بمال زوجها ، وتقرر حقيقة كانت شائعة ، هى أن البنات الثريات مرغوبات ، وتعجب من أن يقبل أحد على بناتها وهن لا مال لهن وتصرخ من استئثار الرجل بتركة أخيه ، ومعنى هذا أنها كانت تتوقع ، كما يتوقع غيرها ، من هذا العم أن يترك لبنات

---

(٥) سورة النساء : آية ١١ وانظر : تفسير مجمع البيان ٣٢/٤ــ٣٨، الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ١٧/٣ ، تفسير الطبرى ٣٠/٨ــ٥١، تفسير الرازى ٢٠٣/٩ــ٢١٨ ، تفسير الكشاف ٤٧٩/١ــ٤٨٤ ، فى ظلال القرآن ٢٥٨/٤ــ٢٦٤ تفسير روح المعانى ٢١٦/٤ــ٢٢٩ .

(٦) المحبر ص ٢٣٦ــ٢٣٧، جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٢٩٠ .

(٧) سورة النساء : آية ١١ .

أخيه نصيبا من تركة أبيهن[٨] ، ومنها (ثالثا) أن ضباعة بنت عـامر قد ورثت من زوجها مالا كثيرا ورجعت به الى قومها[٩] .

ومنها (رابعا) أن جابر بن عبد الله الانصارى له ابنة عم عمياء ــ ودميمة كذلك ــ وكانت قد ورثت عن أبيها مالا ، فكان جـابر يرغب عن نكاحها ، ولا ينكحها رهبة أن يذهب الزوج بمالها ، فجعل جابر يسأل رسول الله ، ﷺ ، أترث الجارية اذا كانت قبيحة عمياء ، فجعل النبى ــ ﷺ ــ يقول : نعم[١٠] ، ولاشك أن هـذه قد ورثت فى الجاهلية ، بدليل أن جـابرا رغب عن أن يتزوجها وعضلهـا ، وفى سؤاله : أترث الجارية القبيحة العمياء ،دليل على أن مبعث استنكاره أنهـا مئوفة لا أنها أنثى[١١] .

ولعل سؤال البداهة الآن : اذا لم تكن المرأة الجاهلية ذات نصيب ــ وان كان قليلا ــ فى الميراث ، فمن أين حصلت النساء على ما ملكن ؟ حتى كان منهن ثريات مشهورات الثروة ، ومن أين حصلن على المـال الذى كان يزين لبعض الرجال أن يعضلوهن حتى يفتدين أنفسهن ، أو حتى يمتن فيرث الرجال ما خلفن ؟[١٢] .

لاشك أنهن لم يحصلن على ذلك بحد السيف ، أو بكثرة الغـزو والسلب والنهب ؟ ومن ثم فانه ربما كان عن طريق الهبة أو الوصية أو العطاء ، وربما عن طريق الميراث ، وفى كلا الحالين الاخيرين ، فالامـر ــ فيما نظن ــ لا يتفق وما ذهب اليه المؤرخون المسلمون ، لان التى تنال مالاً عن طريق الهبة أو الوصية أو العطاء ، أجدر بأن تنـال ذلك بالمشاركة فى التركة ، على أى وجه من وجوه المشاركة ؟.

---

(٨) المغازى ص ١٤٧ ، المراة فى الشعر الجاهلى ص ٢٩٠ .
(٩) أشعار النساء للمرزبانى ص ٢٤ .
(١٠) تفسير الطبرى ٢٥٧/٩ (دار المعارف) .
(١١) الحوفى : المرجع السابق ص ٢٦٦ .
(١٢) نفس المرجع السابق ص ٢٦٤ .

وهكذا رأينا القرآن الكريم يقول : ((وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم انه كان حوبا كبيرا))(١٣) ، والنص القرآنى الكريم واضح فى أن اليتامى انما كان لهم مال قبل أن تنزل السورة ، وأن بعض الاوصياء انما كانوا يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلون له مكانه الردىء ، فنهاهم الله عن ذلك ، وعن خلط أموالهم بماله حتى لا يأكلوه ، هذا فضلا عن أن القرآن الكريم انما ينص على أن اناث اليتامى انما كان لهن مال ، حيث يقول سبحانه وتعالى: ((وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع))(١٤) ، والمراد كما قالت السيد عائشة رضى الله عنها ، فى حديث لها مع ابن اختها عروة بن الزبير ، هى اليتيمة تكون فى حجر وليها، فيرغب فى جمالها ومالها ، ويريد أن يتزوجها بأدنى من سنة صداق نسائها،فنهوا عن ذلك أن ينكحوهن الا أن يقسطوا فيكملوا لهن الصداق، ثم أمروا أن ينكحوا سواهن من النساء ، ان لم يكملوا الصداق(١٥) ، أو هى اليتيمة تكون عند الرجل : وهى ذات مال ، فلعله ينكحها وهى لا تعجبه ، ثم يضربها ويسىء صحبتها ، فوعظ فى تلك(١٦) .

واننى لأميل الى أن المرأة فى الجاهلية انما كانت ترث نصيبا من تركة أهلها — وان لم يكن كبيرا — وأنها — كالمرأة المصرية —(١٧) لها حق الملكية ، وحق البيع والشراء ، وأن المرأة الحضرية أكثر أملاكا وأعظم حرية فى تصريف شئونها المالية .

---

(١٣) سورة النساء : آية ٢ ، وانظر : تفسير الكشاف ٤٦٣/١ـ٤٦٦، تفسير الفخر الرازى ١٦٦/٣ـ١٦٩ ، تفسير الطبرى ٥٢٤/٧ـ٥٣٠؛تفسير الطبرسى ١٠/٤ـ١١ ، تفسير الجواهر ٩/٣ـ١٠ ، فى ظلال القرآن ٢٣٧/٤ـ٢٤٠ ، تفسير روح المعانى ١٨٥/٤ـ١٨٩ .

(١٤) سورة النساء : آية ٣ ، وانظر : تفسير الطبرى ٥٣١/٧ـ٥٤٨، تفسير الجواهر ١٠/٣ـ١١ ، تفسير الطبرسى ١٢/٤ـ١٧ ، تفسير روح المعانى ١٨٩/٤ـ١٩٧ ، فى ظلال القرآن ٢٤٠/٤ـ٢٤٧،التفسير الكبير للفخر الرازى ١٧٠/٣ـ١٧٨ ، تفسير الكشاف ٣٦٦/١ـ٤٦٨ .

(١٥) تفسير الطبرى ٥٣١/٧ـ٥٣٣ ، صحيح البخارى ٩٤/٥ـ٩٥ ، ٩١/٩ ، صحيح مسلم ٣٩٨/٢ـ٣٩٩ ، السنن الكبرى للبيهقى ١٤١/٧ ـ ١٤٢ ، سنن أبى داود ٢٠٥/١ .

(١٦) تفسير الطبرى : ٥٣٣/٧ (دار المعارف) .

ومن ذلك السيدة خديجة — رضى الله عنها — ذات الثراء الواسع . والحسب النبيل ، وقد كانت من أصحاب القوافل التجارية فى رحلتى الشتاء والصيف ، تستأجر الرجال من مالها ، وتضاربهم بشىء تدفعه لهم ، وقد اختارت رسول الله — ﷺ — قبل البعثة ، ليكون فى احدى الرحلات أمينا لتجارتها الى الشام ، برفقة خادمها ميسرة ؛ لما كانت قد عرفته عن محمد «من صدق حديثة وعظم أمانته وكرم أخلاقه» ، على أن تمنحه فى مقابل ذلك ضعف ما كانت تمنح عادة ، وعاد عليها نشاطه التجارى الأمين بربح وفير[18] .

وهناك «أسماء بنت مخرمة بن جندل» — أم عبد الله بن أبى ربيعة — وكانت عطارة يأتيها العطر من اليمن ، وتبيعه فى المدينة الى أجل مسمى ، وقد عاشت هذه المرأة الى أيام الفاروق عمر بن الخطاب (١٣ — ٢٣ هـ — ٦٣٤ — ٦٤٤م) ، وربما بعدها[19] ؛ وهناك «منشم» وكانت عطارة — كذلك — تبيع العطر بمكة . وكان القوم اذا قصدوا الحرب غمسوا أيديهم فى طيبها وتحالفوا عليه بأن يستميتوا فى تلك الحرب ، ولا يولوا أو يقتلوا ، فكانوا اذا دخلوا بطيب تلك المرأة يقول الناس : «قد دقوا بينهم عطر منشم»فلما كثر هذا القول صار مثلا[20] .

هذا وقد حدثت «قيلة أم بنى أنمار» أو بنى النجار : أنها جاءت الى النبى — ﷺ وهو فى المروة فى احدى عمره — تتوكأ على عصا حتى جلست اليه ، فقالت يا رسول الله : انى امرأة أبيع وأشترى ، فربما أردت أن أشترى السلعة فأعطى بها أقل مما أريد أن آخذها به ؛ ثم زدت ثم زدت حتى آخذها به ؛ ثم نقصت حتى أبيعها بالذى أريد أن

(١٧) أنظر : J. Wilson, The Culture of Acutnie Egypt, p. 203.

(١٨) أسد الغابة ١٦/١ ،تاريخ الطبرى ٢٨٠/٢—٢٨١ ، ابن الجوزى ١٤٤/١ ، ابن هشام ٢٧/١—٣٨ ، تاريخ اليعقوبى ٤٠/٢ ، ابن سعد ٨٢/١—٨٣٤ ، البلاذرى : انساب ٩٧/١—٩٨ ، ايتين دينيه : المرجع السابق ص ٨٥—٨٦ ، مولانا محمد على : المرجع السابق ص ٦١ .

(١٩) الاصابة ١٠/٨ ، أعلام النساء ٥٢/١ ، الاغانى ٦٤/٢ ، الطبقات الكبير ٢٢٠/٨ .

(٢٠) أعلام النساء ١١١/٥—١١٢ ، مجمع الامثال ٣٤٨/١ .

أبيعها به ،وربما أردت أن أبيع السلعة فاستمت بها أكثر مما أردت أن أبيعها به ، فقال لها رسول الله ، ﷺ ، لا تفعلى هكذا يا قيله ، ولـكن اذا أردت أن تشترى شيئا فأعطى به الذى تريدين أن تأخذيه به أعطيت أو منعت ، واذا أردت أن تبيعى شيئا فاستأمى الذى تريدين أن تبيعيه به أعطيت أو منعت[٢١] .

وهكذا كانت المرأة العربية تبيع وتشترى ، فاذا ما تذكرنا أن ممارسة التجارة باب واسع من أبواب التصرف المالى ، حتى أنها قد خولت المرأة أن تخالف أباها فى بعض الامور ، ومن ذلك ما يروى عن «سفانة بنت حاتم الطائى»[٢٢] ــ وكانت من أجود العرب ، الى جانب فصاحة وبلاغة، وحسن وجمال ــ أن أباها كان يعطيها الصرمة من الابل ، فتهبها الناس، فقال لها أبوها : «يا بنية ان الكريمين اذا اجتمعا فى المال ، أتلفاه ، فاما أن أعطى وتمسكى ، واما أن أمسك وتعطى ، فانه لا يبقى على هذا شيء، فقالت : والله لا أمسك أبدا ، وقال أبوها : وأنا والله لا أمسك أبدا ، قالت : فلا نتجاور ، فقاسمها ماله وتباينا»[٢٣] .

على أن أمر الملكية الفردية بالنسبة للمرأة العربية انما هو حق جد قديم ، فهناك نص نبطى ، أرخ بالعام الخامس والاربعين من عهد الملك الحارث الرابع (٩ ق٠م ــ ٤٠م) ، ويتحدث عن قبر شاده رجل يدعى «غانم» وزوجه «أرسكسه» ، وكان لغانم هذا ثلث القبر ، بينما لزوجه الثلثـان .

وقد استنتج أستاذنا الدكتور عبد العزيز صالح من النص النبطى حقيقتين ، أولاهما ; ما نم عنه من أن المقبرة كانت مقبرة أسرية ، أعدت بملحقاتها لدفن الرجل والمرأة ، أى الزوج والزوجة ، وتوسيد من قدر

---

(٢١) الطبقات الكبرى ٢٢٨/٨ ، أعلام النساء ٢٢٥/٤ـ٢٢٦ .

(٢٢) أنظر قصتها مع النبى ﷺ : تاريخ الطبرى ١١١/٣ـ١١٥ ، أعلام النساء ١٩٦/٢ـ١٩٧ .

(٢٣) الاغانى ٩٣/١٦ ، أعلام النساء ١٩٦/٢ ، ذيل الامالى ص٣٣ .

له أن يدفن معهما من الاخوة ، ثم من يعقبهما من الابناء والحفدة ، في مواضع متمايزة منها •

وثانيهما : وهو الابلغ دلالة ، تأكيد المتن على تمتع الانثى (الزوجة) بأهلية التملك الفردى ، حتى وان كان ضمن عقار مشترك ، دون فرض لاية الزوج بالضرورة عليه ، ودون اختلاط نصيبها منه بنصيبه ، بل ومع افراز نصيبها بمقـداره ومحتواه ، ثم التوصية بأيلولة القبر بعد الزوجين الى الوارثين من الابناء والحفدة دون تفرقة بين ذكورهم وبين اناثهم ، وذلك بما ينم عن نوع ضمني من التساوى فى داخل الاسرة •

هذا فضلا عن أن النص لا يخلو من دلالة هـامة ، هى أن نصيب الزوجة «أرسكسه» قد زاد على نصيب زوجها بمثل مقداره ، فحـازت الانثى ثلثى ملكية المقبرة ، واقتصر نصيب الرجل (الزوج) على الثلث• على أن النص لم يحـدد مصدر ملكية الزوجـة لنصيبها المضاعف،وان كانت قد اشترته بمالها الخاص ، أم آثرها به زوجهـا ، ولعل الفرض الاول هـو الارجح ، بمعنى أن أفضليتها فى التملك ترتبت على بنوتها لشخص ثرى عظيم هو خيام الاستراتيجى ، أو «خيمو أسرتجا» كما قال النص ، تحريفا عن لقب «استراتيجوس» الاغريقى الاصل . وهو لقب عسكرى وادارى حمله رؤساء الاحياء النبطية(٢٤) •

هذا وقد أيدت بضعة نصوص نبطية أخرى قديمة ، ما توفر للانثى (المقتدرة) من ارادة مالية ، وملكية خاصة سمحت لها بما كانت تسمح به للرجال من تحديد أسماء المنتفعين بمقبرتها ، واباحة دفن الغير فيها، ان شاءت ، على شريطة الحصول على اذن منها ، أو منعه ، واستعداء معبودات قومها على من يفسدون ارادتها ، والتهديد بتحميلهم غرامات مالية ، تراوحت بين المائة وبين ثلاثة آلاف من العملات السلعية الذهبية،

---

(٢٤) عبد العزيز صالح : المراة فى النصوص والاثار العربية القديمة الكويت ١٩٨٥ ص ١٥ ــ ١٧ •

التي كان من المفروض أن تؤدى الى المعابد ؛ والى اسم الملك (فى الخزانة أو فى المعبد) ، ولعل ذلك كان ، فى أغلب الظن ، صدى لارادة الانثى وخصوصية ملكيتها لعقارات أخرى دنيوية •

ومن الامثلة على ذلك : نص يشير الى قبر عملته «كمكم بنت وائلة بنت حرم» وابنتها «كلية» لنفسيهما وذريتهما ، ولا يخلو اشهار أسماء الأم والجدة والحفيدة جميعا ، الى جانب اسم الاب هنا ، من مدلول ، وكان ذلك فى العـام التاسع من عهد الحـارث الرابع (العـام الاول الميلادى)[٢٥] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى ما ترتب للانثى ، الى جانب الذكر ، من حقوق مدنية فى التملك ، وكافة التصرفات العينية وقبـول الوصية وأمثالها بالنسبة للمقابر ، جرت أمثله لها كذلك على الممتلـكات العقارية الدنيوية ، من أرض ومزارع ومساكن ، فى المجتمع النبطى ، وفى بعض المجتمعات العربية الأخرى المعاصرة له •

ورجح هذا القول نص لحيانى من العلا ، أشهر ملكية مزرعة لأخوات ثلاث (لبة وخفشة وغرثة) ملكية توريث تنتقل منهن الى أعقابهن ، كما ورد فى نص من تيماء ما يفيد أن رجلا يدعى ذئب بن حجـاج اشترى بعيرا أسود من سيدة تدعى «ذات هنأن» فنفق عنده ، فقضى حـاكم تيماء المدعو «كلع» (أو كلاع بمعنى الشديد) بأن تعوضه المرأة بحمار ، وربما كانت بهذا تمتهن التجارة ، أو على الاقـل تمتلك بعض الدواب والانعام[٢٦] •

رابعـا ـ المـرأة والـوأد :

أ) كراهية العرب للبنـات :

كان العرب ــ كغيرهم من الامم ــ يفضلون الذكور على الاناث ؛ ومن ثم فاذا ولدت المرأة ولدا هنأها أفراد القبيلة وذبحوا الذبائح ،

---

(٢٥) نفس المرجع السابق • ص ٢٤ •
(٢٦) نفس المرجع السابق ص ٢٩ ــ ٣٠ •

ولذلك كان يقال «بالرفاه والبنين» لا البنات[1] . وكان الاب — فى أغلب الاحايين — يسمى باسم ابنه ، ومن هنا كانت «التكنية» بـ «أبى»[2] ؛ وعلى العكس من ذلك كان العرب — وبخاصة البدو — ينفرون من نسل الاناث خوف العار ، أو أن يسبين فى الحروب أو خشية الاملاق[3] .

وهكذا رغب كثير من العرب عن البنات ، وذاعت بغضتهم واشتهروا بها ، فقد قيل لاعرابى : ما ولدك ؟ قال : قليل خبيث ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لا عدد أقل من الواحد ، ولا أخبث من بنت[4] ، وهكذا كانوا اذا هنئوا بها قالوا : آمنكم الله عارها ، وكفاكم مؤنتها ، وصاهرتم القبر[5] .

ويصور القرآن الكريم كراهية العرب للبنات فى قوله تعالى « واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون»[6] ، وهكذا يصور القرآن الكريم حال الرجل فى الجاهلية اذا بشروه بولادة بنت له ، فيحزن ويسود وجهه من الحزن ويخلى بنفسه ، ويفكر فى الاحتفاظ بهذه البنت مع احتمال المذلة والهوان فى ذلك أو دفنها حية[7] .

هذا وقد تكون ولادة البنت — فى بعض الاحايين — سببا فى هروب الرجل من البيت ، يحدثنا الاصمعى أن امرأة ولدت بنتا سمتها «الذلفاء»، فكان ذلك سببا فى أن يترك والدها البيت . فقالت المرأة :

---

(١) الميدانى ٦٦/١ ، عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ٥٤ ، A. J. Jaussin and R. Savignac, op. cit., p. 14 F.

(٢) نهاية الارب ١٩٦/٣ .

(٣) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ٥٤—٥٥ ، نهاية الارب لنويرى ١٣٦/٣ .

(٤) نزهة الابصار والاسماع ص ٤٤ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٣٠ .

(٥) محاضرات الادباء ٢٠٤/١ ، المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٢٣٠ .

(٦) سورة النحل : آية ٥٨—٥٩ ، وانظر : تفسير روح المعانى ١٤/ ١٦٠—١٦٨ ، تفسير الكشاف ٤١٤/٢ ، تفسير ابن كثير ٢٠٠/٤—٢٠٢ ، فى ظلال القرآن ٢١٧٤/١٤ ، ١١٧٨—٢١٧٩ ، تفسير القرطبى ١١٦/١٠ — ١١٨ ، تفسير الطبرى ٨٤/١٤ (طبعة بيروت ١٩٧٢) .

(٧) عبد العزيز سالم : دراسات فى تاريخ العرب ٦١٣/١ .

ما لأبى الذلفاء لا يأتينــــا يظــل فى البيت الذى يلينا
يحـــرد أن لا نلـــد البنينــا وانمـــا نأخـــد ما يعطينـــا

على أن هناك من ينسب هذه الابيات الى امرأة أبى حمزة الضبى . الذى هجر زوجته ولجأ الى خيمة جيرانه يبيت فيها ، فرارا من زوجته التى ولدت له بنتا، وقد جاءت الابيات كالآتى :

ما لأبى حمـــزة لا يأتينــا يظـــل فى البيت الذى يلينا
غضبـــان أن لا نلد البنينــا تالله مـــا ذاك فى أيدينـــــا
وانمـــا نأخـــذ ما يعطينــا ونحـــن كالأرض لزارعينـــا

ننبت ما قـــد زرعوه فينـــا

فما أن سمع الرجل ذلك ، حتى ثاب رشده ، وولج الخباء . فقبــل رأس زوجته ، وقبل ابنته . وقال : ظلمتكما ورب الكعبة[٨]

على أن بغض البنات لم يكن مقصورا على الجاهليين ، وانما كانت هناك قلة بين المسلمين تبغض البنات . على تنديد القرآن والحـــديث ببغضة أسلافهم للبنـــات ، ومن ثم فليس من الانصـــاف أن يوصم الجاهليون وحدهم بهذه الوصمة ، بل ان الامر مايزال موجودا الى حد ما فى بعض قرى بعض البلدان العربية حتى الان .

وعلى أى حال ، فهناك رواية تذهب الى أن عمـــرو بن العاص رأى معاوية بن أبى سفيان ومعـــه ابنته عائشة . فقال : من هـــذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذه تفاحة البيت ، فقال عمرو : انبذها عنك ، فانهن يلدن الاعداء ، ويقربن البعداء ، ويورثن الضغائن ، قال : لا تقـــل كذا يا عمـــرو : فوالله ما مرض المرضى ، ولا ندب الموتى ، ولا أعـــان على الاحزان ، الا هن ، فقال عمرو ، ما أراك الا حببتهن الى))[٩] ، ولست

---

(٨) بلوغ الارب ٣/٥١ ، الجاحظ : البيان والتبيين ١/١٠٤،٤/٧٤ (تحقيق عبد السلام هارون) ، جواد على ٥/٩٤ ، الحوفى : المرجـــع ص ٢٣٠ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٦١٤ .

(٩) أعلام النساء ٣/١٩١ ، الحوفى : المرجـــع السابق ص ٢٣١ ، اللطائف والظرائف للثعالبى ص ٦٨ ، نزهة الابصار والاسماع ص ٤٤ .

أدرى : أكان عمرو يجهل هذا كله ؟ على أى حال . فلقد وصل البعض ببغضهم للبنات — طبقا لروايات الاخباريين — أن يؤثر «عقيل بن علقمة» أن تموت البنت على أن تحيا وتتزوج ، وان عظم الزوج وكثر المهر[10].

على أن بعض الجاهليين انما أخذوا يبالغون فى بغضهم للبنات عند ولادتهن الى حد الوأد ، ويروى أن الرجل اذا ما ولدت له بنت فأراد أن يستحييها ، ألبسها جبة من صوف أو شعـر ترعى له الابل والغنم فى البادية ، وان أراد قتلها تركها حتى اذا كانت سداسية فيقول لأمها : طيبيها وزينيها حتى أذهب بها أحمائها ، وقد حفر لها بئرا فى الصحراء ، فيبلغ بها البئر ، فيقول لها أنظرى فيها ، ثم يدفعها من خلفها . ويهيل عليها التراب ، حتى تستوى البئر بالارض ، ويروى عن ابن عباس أنه قال : كانت الحامل اذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة ، فاذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة وردت التراب عليها ، واذا ولدت ولدا حبسته ، ومنه قول الراجز :

سميتها اذ ولـدت تمـوت والقبر صهـر ضامن زميت[11]

هذا فضلا عن أن بعضهم انما كان يعتقد أن البنات رجس من خلق الشيطان ، أى من خلق الله غير آلهتهم ، فتخلصوا منهن[12] .

ب) أسباب الـوأد :

لعل سؤال البداهة الآن : لم حـاول العرب وأد بناتهم ؟ وما هى الاسباب التى دفعتهم الى ارتكاب هذه الجريمة النكراء ؟ .

يقدم لنا الباحثون عدة أسباب دفعت العرب الى أود البنات . منها (أولا) مخافة الفقر أن ينزل بهم ، فيضيق وجدهم عن الانفـاق على

---

(١٠) زهرة الاداب ١٧٤/٢ (تحقيق زكى مبارك) ، ثم انظر:معجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٠١ ، شرح الحماسة للتبريزى ٢٠٩/١ ، ٢٣/٣، ٨٦،طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٦١،الحوفى : المرجع السابق ص٢٣١.

(١١) بلوغ الارب ٤٣/٢ ، تفسير ٦٧٠/١ ، تفسير القرطبى ١٩/ ٢٣٣ ، تفسير الطبرسى ٤٤٤/١٠ ، تفسير الخـازن ١١٩/٣ ، ٣٥٦/٤ ، تفسير الكشاف ٣١٥/٣ ، جواد على ٨٩/٥-٩٠ .

(١٢) على عبد الواحـد وافى : الاسرة والمجتمع ص ١١٩-١٢٣ ، الحوفى : المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٢٣٦ .

الذكور وعلى الاناث معا ؛ اذ أن هناك فى هذه البيئة الفقيرة ــ وان كانت ولودا ــ سنين عجافا ، تنزل بالناس فتكون قاسية على أكثرهم ، ولاسيما الفقراء منهم ، فيأكلون العلهز ــ وهو الوبر بالدم ــ من شدة الجوع . ومن ثم فهذا الفقر وهذه الفاقة ، وذلك الاملاق ، كل ذلك كان من وراء وأد البنات ، حذر الوقوع فى الغواية ، فتلحق السبة بأهل البنت ، فضلا عن عشيرتها وقبيلتها[١٣] ، وهكذا فان الوأد رغم أنه عادة وحشية ومنكرة ، الا أن المجاعات الكثيرة دفعت البعض الى وأد بناتهن[١٤] .

على أنه ليس هناك من دليل مؤكد على ماذهب اليه البعض من الاتفاق كان يتم على نحو واضح عند عقد النكاح على وأد ما قد تضعه المرأة فى حياتها الزوجية الجديدة من اناث ، وعلى أن ذلك انما كان يجب أن يتم على يد الأم نفسها ، وبحضور جميع أعضاء الاسرة الاناث[١٥] .

وأيا ما كان الامر ، فلاشك أن العرب ان كانوا قد اضطروا الى استكمال حاجتهم بالاغارة على القبائل المجاورة ، فانهم قد اضطروا فى نفس الوقت الى الوأد خشية الاملاق[١٦] ، ويشير القرآن الكريم الى هذا السبب من أسباب الوأد فى قوله تعالى «ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا»[١٧] ، وفى قوله تعالى : «ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم»[١٨]، ونرى هنا ــ كما يقول صاحب تفسير روح المعانى ــ أن الله قدم رزق الابناء على الآباء فى مقام توقع الفقر ؛ والخشية منه فى المستقبل ؛ وقدم رزق الآباء على الابناء فى مقام الفقر الواقع الحادث ؛ فالاولون هم الاغنياء،

---

(١٣) ابن الاثير ٢٨٨/١ ، تفسير القرطبى ٢٣٢/١٩ ، جواد على ٨٨/٥ــ٨٩ .
(١٤) الحوفى : المرجع السابق ص ٢٣٤ .
(١٥) مولانا محمد على : المرجع السابق : ص ٢٩ ــ ٣٠ .
(١٦) دائرة المعارف الاسلامية ٢٧٦/٦ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٣٣ .
(١٧) سورة الاسراء : آية ٣١ .
(١٨) سورة الانعام آية ١٥١ ، وانظر : تفسير الطبرى ٢١٧/١٢ ــ ٢٢٠ (دار المعارف ــ القاهرة ١٩٥٧) .

والاخرون هم الفقراء[١٩] .

غير أن الوأد لم يكن مقصورا على الفقراء دون الاغنياء ، فهناك ما يشير الى أن «مهلهل بن ربيعة» أمر زوجته حين ولدت بنتا أن تقتلها، فأمرت خادما لها أن تغيبها عندها ، ثم بدا له فأمرها باحسان تربيتها ، فكبرت حتى تزوجت[٢٠] .

ومنها (ثانيا) شعور العربى فى الجاهلية بالغيرة والخوف من العار، الذى تجلبه البنت اذا كبرت وتعرضت للسبى ، بخاصة فى هذه البيئة التى لا تخبو فيها نار الحروب والغارات ، والسبى — بطبيعة الحال — من آثارها ، والعربى غير على النساء ، والسبى معرة فى عرفهم[٢١] .

وكانت المرأة — كما كان الرجل — تكره السبى ، لأن فيه اذلالا لها وتغريبا ، وحرمانا من القبيلة ، وقسرا على معيشة لا ترتضيها ، ومن هنا فان الواحدة منهن كانت اذا هزم قومها تبرز مكشوفة سافرة ليحسبها الغالبون أمة فيخلوها ، وهى تعلم أنهم يقصدون الحرائر ويريدونهن ، واذا وقعت الواقعة وفجعت المرأة بالسبى سخطت على قومها الذين تركوها تؤسر ، وعيرتهم ضعفهم وجبنهم[٢٢] حتى أن «حسنية بنت جابر العجلى» أبت أن تعود الى زوجها — وهو ابن عمها كذلك — لانه فر منها وتركها تسبى[٢٣] .

وهكذا رأينا بعض الباحثين فى علم الاجتماع يرون أن الخوف من ذل وقوع النساء فى السبى فى الغارات والحروب كان من أسباب وأد

---

(١٩) تفسير روح المعانى ٥٤/٨ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٣٣ .
(٢٠) الاغانى ١٧٥/٩ ، المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٢٣٣—٢٣٤ .
(٢١) تفسير النيسابورى ٧٧/١٤ ، ٣٣/١٥ ، الكشاف ٥٢٦/٢ ، تفسير القرطبى ١١٧/١٠ ، الاعتصام ١٨١/٢ ، روح المعانى ٣٢/٨ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق : ص ٦١٦ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٣٤ .
(٢٢) نفس المرجع السابق ص ٣٧٧—٣٧٨ ، النقائض ص ٢٤٢ ، شرح الحماسة للمرزوقى ٢٣٨/١ .
(٢٣) اشعار النساء للمرزبانى ص ٥٧ .

البنات عند العرب[٢٤] .

ومنها (ثالثا) خوف العرب من أن تتزوج البنت من غير الاكفاء ، ويروون فى ذلك حديثا لقيس بن عاصم سيد أهل الوبر ، حيث جاء الى مولانا وسيدنا رسول الله ، ﷺ ، فقال له ، كنت أخاف سوء الاحدوثة والفضيحة فى البنات ، فما ولدت لى بنت قط ، الا وأدتها ، وقد أمره النبى — ﷺ — أن يعتق عن كل مؤودة رقبة ، فقال له أبو بكر — رضى الله عنه — فما الذى حملك على ذلك وأنت أكثر العرب مالا ، قال : مخافة أن ينكحهن مثلك ، فتبسم رسول الله — ﷺ — وقال : هذا سيد أهل الوبر[٢٥] .

ومنها (رابعا) أن العرب كانوا يتشاءمون من البنت الزرقاء أو الشيماء أو البرشاء[٢٦] أو الكسحاء ، فكانوا يئدون من البنات من كانت على هذه الصفة ، ويمسكون من لم يكن على هذه الصفة ، ويرون أن والد «سودة بنت زهرة» الكاهنة ، أرسل بها الى الحجون لوأدها للصفة المذكورة ، ثم تركها ، فأصبحت كاهنة شهيرة[٢٧] ، واذا صح هذا فلعل سببه أن اليأس من تزويجهن كان مشفوعا بالتشاؤم منهن ، وربما كان السببان معا ، مشفوعين الى الفقر أو مخافة الفقر[٢٨] .

ومنها (خامسا) أن هناك من الباحثين من يرجع الوأد الى أمور تتصل بصحة الطفل ، كأن يولد ضعيفا أو مشوها ، أو أن يصاب بمرض لا يرجى منه الشفاء ، بحيث يصبح عالة على أهله[٢٩] .

---

(٢٤) سعد زغلول : المرجع السابق ص ٣٠٩ .
(٢٥) محاضرات الادباء ٢٠٥/١ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٣٤-٢٣٥ ، الاغانى ١٤٣/١٢ .
(٢٦) الشيماء : السوداء التى فى بدنها بقع تخالف سائره ، والبرشاء البرصاء ، اى التى بها نكت صفراء تخالف بقية لونها .
(٢٧) جواد على ٨٩/٥ ، السيرة الحلبية ٥٣/١ (المكتبة التجارية) .
(٢٨) نهاية الارب ٤٣/٣ ، انسان العيون ٥٠/١ ، الروض الانف ٤٨/١ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٣٦ .
(٢٩) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٦١٧ .

ومنها (سادسا) أن هناك من يرى أن سبب الوأد ، انما كان دينيا ، كاظهار الشكر لله على نعمه ، ويذكرون أن ذلك كان أثرا من آثار تقاليد وشعائر دينية كانت معروفة ، بغية التقرب الى الآلهة[٣٠] ، غير أن هناك من يفسر هذا السبب الديني تفسيرا مختلفا ، فالدكتور على عبد الواحد وافى ، انما يذهب الى أن وأد البنات دون الذكور ، انما يرجع الى اعتقاد القوم أن البنات رجس من خلق الشيطان ، أى من خلق الله غير آلهتهم، فتخلصوا منهم — كما أشرنا من قبل — وهذا النوع من الوأد انما يختلف عن الــوأد الذى سببه الفقر ، وأنه كان مقصــورا على البنات دون البنــين[٣١]

ويذهب الامام القرطبى فى تفسيره للآيات الكريمة «ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ، واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم»[٣٢] الى أنها نزلت فى «خزاعة» فانهم زعمــوا أن الملائكة بنات الله ، ومن ثم فقد كانوا يقولون : الحقوا البنات بالبنات ، فنسب سبب الوأد عند القوم الى عقيدتهم هذه[٣٣] .

ويرى «الدكتور جواد على» أن الوأد بسبب دافع دينى : يحمــل الجاهليين على قتل الاولاد ، ليس بالامر الغريب ، وربما كان من بقايا الشعائر الدينية القديمة ، كتقديم الضحايا البشرية للآلهة لخير المجتمع وسلامته ، ذلك لان ارضــاء الآلهة انما هــو من الشعائر الدينيــة القديمة المعروفة ، ومن ثم فان الوأد والقتــــل ، انمــا كان من بقايا تلك الشعائر ، على أن الغريب من الامر أن الوأد انما يكون بالدفن ، بينما العادة فى الضحايا التى تقدم الى الآلهة انما تكون بالذبح أو الطعن

---

(٣٠) نفس المرجع السابق ص ٦١٧ ، وانظر : على الهاشمى : المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٣١) عبد الواحد وافى : المرجع السابق ص ١١٩—١٢٣ ، مجــلة الرسالة فى ٣ مارس ١٩٤١م ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٣٦ .

(٣٢) سورة النحل : آية ٥٦ — ٥٧ .

(٣٣) تفسير القرطبى ١١٦/١٠ ، تفسير الخازن ١١٩/٣ ، جــواد على ٩٧/٥ .

أو غيره ، مما يجعل الدم يسيل من الضحية ، ذلك لان الدم بالذات ، انما هو الغاية من كل أضحية ، والجزء المهم من الضحايا التى تقـدم الى الآلهة[٣٤] ، وعلى أى حال ، فالوأد لا يعدو أن يكون نوعا من القتل ، وأن ذبح الاولاد وتقديمهم قرابين الى الآلهة ، انما كان عبادة معروفة عند أمم أخرى ، كانت تمارسها لترضى بذلك الآلهة ، وتجيب مطالبها[٣٥] •

والرأى عندى أن هذه الاسباب مجتمعة ، انما كانت سببا فى أن يئد بعض العرب بناتهم ، صحيح أن العوامل الاقتصادية انما كانت أقوى العوامل ، ولكنه صحيح كذلك أن الحمية وخوف الآباء من وقوع بناتهم سبايا فى قبضة الغالبين ، فضلا عن العامل الدينى ، والخوف من مستقبل مظلم لتلك الفتاة المشوهة ، بأن تعيش فى بيت أبيها من غير زوج ، أو أن تتزوج من غير الاكفاء ، انما كانت عوامل أخرى ، دفعت الى وأد البنات ، وهكذا تجمعت العوامل الاقتصادية والاجتماعية والدينية بعضهـا الى جانب بعض فى أن تجعل بعض القوم يرتكبون تلك الجريمة الوحشية فى حق أقرب الناس اليهم ، وأولاهم بالرحمة والعناية ، فضلا عن تنشئتهم تنشئة صالحة •

ج) واد الذكـــور :

لعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن الوأد — فيما يرى بعض الباحثين — لم يكن مقصورا على البنات دون البنين ، بدليل قوله تعالى «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحـكمون ، وكذلك زين لكثـير من المشركين قتل أولادهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ، وقالوا هذه أنعام وحرث حجـر لا يطعمها الا من نشـاء

(٣٤) جواد على ٥/٩٧ـ٩٨ •
(٣٥) جواد على ٥/٩٨ وكذا •

J. Hastings, ERE, I, p. 669.
R. Smith, op-cit, p. 370. وكذا

بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون ، وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم ، قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين))[٣٦] .

ذلك أن أهل المدر والحرث انما كانوا يقسمون ما حرثوا ــ فضلا عن الانعام ــ قسمين ، الواحد لآلهتهم ، والآخر لله ، فما دخل فى حق الله من حق آلهتهم (وبخاصة عم أنس ــ عميأنس)[٣٧] ردوه عليهم ، وما دخل فى حق أصنامهم من حق الله الذى سموه له تركوه لهم[٣٨]،فوبخهم الله على زعمهم هذا ، فضلا عن سوء عملهم ، ثم شبه لضلالهم ضلالا آخر ، هو أن شركاءهم من الشياطين أو سدنة الاصنام زينوا لهم قتل أولادهم بالوأد أو بالنحر للآلهة[٣٩] ، كما فى حادث نذر عبد المطلب .

وهناك دليل آخر ، من سورة الانعام كذلك ، يشير الى أن القتل لم يكن مقصورا على البنات ، يقول سبحانه وتعالى ((قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم

---

(٣٦) سورة الانعام : آية ١٣٦ ــ ١٤٠ وانظر : تفسير الطبرى ١٢/ ١٣٠ــ١٥٥ (دار المعارف ــ القاهرة ١٩٥٧) ، تفسير روح المعانى ٣١/٨ــ ٤٠ ، تفسير المنار ١٢١/٨ــ١٣٠ ، تفسير ابن كثير ١٠٦/٣ وما بعدها ، تفسير الكشاف ٦٤/٢ وما بعدها .

(٣٧) صنم لخولان ، كان القوم يقدمون له نصيبه فى كل عام من الحرث والانعام (انظر : الاغانى ١٢٤/٣٠ ، خزانة الادب ٢٤٥/٣،تاريخ ابن خلدون ١٦٠/٢) .

(٣٨) الاصنام ص ٤٤ ، البداية والنهاية ١٩١/١ ، ياقوت ١٥٨/٤ــ ١٥٩ ، ابن هشام ٨٩/١ ، تفسير الطبرى ١٣٠/١٢ ــ ١٣٥ ، المحبر ص ٣٣١ــ٣٣٢ .

(٣٩) تفسير الطبرى ١٣٥/١٢ ــ ١٣٩ ، الحوفى : المرجع السابق ص ١٣٧ .

من املاق نحن نرزقهم واياكم»[٤٠] ، فان ظاهر لفظ الآية الكريمة هنا ، وكذا في قوله تعالى «ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا»[٤١] ، انما هو النهى عن جميع أنواع قتل الاولاد — ذكورا كانوا أو اناثا — مخافة الفقر والفاقة[٤٢] ، وان ذهبت أراء أخرى الى أن المراد من كلمة «أولادكم» انما كان البنات ، وليس البنين ، وأن المقصود بذلك انما هو الوأد[٤٣] .

وعلى أى حال ، فرغم أننا لا نعرف حادثا هم فيه الوالد بقتل ولده الذكر على أيام الجاهليين ، غير حادث عبد المطلب ، الا أننا نعرف تماما أن بعض مجتمعات الشرق الادنى قد عرفت نظام الضحايا البشرية التى كانت تقدم — من الذكور والاناث — على مذابح الآلهة ، وعند دفن الملوك ، وتدلنا حفائر «أور» السومرية على قدم تلك العادة ، اذ كان الملوك ومعهم حاشيتهم ووزرائهم ، ولايبدو من هيئة جثمانهم أنهم قد ماتوا على الرغم منهم ، فليس منهم من وجدت جثته وفيها أثر الذبح أو الخنق أو القتل أو الضرب العنيف .

ويعتقد «سير ليونارد وولى» أنهم كانوا يتجرعون باختيارهم عقارا ساما يخدرهم ويميتهم ، لايمانهم بالانتقال مع الملوك الارباب الى حالة فى السماء كحالتهم فى الحياة الارضية ، وقد وجدت على بعض أختام الطين صور آدميين يلبسون قناعا يشبه رأس الحيوان ، والمظنون أن هذا الزى كان مقدمة للذبح الرمزى ، واجراء الشعائر مجرى التمثيل المقدس فى الاحتفالات العامة ، ولاسيما الاحتفال بعيد رأس السنة[٤٤] .

---

(٤٠) سورة الانعام : آية ١٥١ ، وانظر : تفسير الطبرى ٢١٧/١٢–٢٢٠ .

(٤١) سورة الاسراء : آية ٣١ ، وانظر : تفسير الطبرى ٥٧/١٥ .

(٤٢) بلوغ الارب ٤٤/٣ ،تفسير القرطبى ٧(٩١) ،جواد على ٩٥/٥ .

(٤٣) بلوغ الارب ٤٤/٣ ، تفسير الطبرى ١٣٧/١٢ ، جواد على ٩٥/٥ .

(٤٤) عباس العقاد : ابراهيم ابو الانبياء ص ١٧٢ ، وانظر :
L. Woolley, Excavations at ur, 1963, Ur of the Chaldees. وكذا
Hooke, Origins of Early Semitic Ritual.

هذا وقد عرف الفينيقيون والكنعانيون عادة التضحية البشرية كذلك، حتى كانت التضحية بالطفل البكر عرفا جاريا لدى الكنعانيين فى العصر العتيق ، وفى حفريات «جازر» دليل قاطع فى هذا الصدد ، فقد وجدت بها عظام أطفال فى حالة بلاء بين بين مودعة فى أسس المنازل ، واحتفظ الفينيقيون بهذه العادة الى العصور المبكرة من المسيحية ، حتى روى فيلون (حوالى ٦١ — ١٤١م) أنه كان من عاداتهم فى حالات الاخطار العامة أن يضحوا بأعز أبنائهم لابعاد الكوارث عن أنفسهم[٤٥] .

والامر كذلك بالنسبة الى مؤاب ، اذ نعلم — من الحجر المؤابى الموجود الان بمتحف اللوفر[٤٦] ، وكذلك من التوراة[٤٧] — أن «ميشع» ملك مؤاب قد قام بحملة ظافرة نجح فيها فى توسيع حكمه على مدى خط العرض من الطرف الشمالى من البحر الميت ؛ واخضاع المستعمرات الاسرائيلية والمدن الخاضعة لاسرائيل فى الهضبة الخصبة شمال عرنون[٤٨] ، ثم نهب المعبد الاسرائيلى فى «بنو» ووهب سبعة آلاف من سكانها الى الآلهة «عشتار — كيموش» ؛ مما اضطر ملك اسرائيل «يهورام» (٨٤٩ — ٨٤٢ ق٠م) الى طلب العون من يهوذا وآدوم ، ثم القيام بهجوم على مؤاب من الجنوب[٤٩] ، الامر الذى دفع الملك المؤابى «ميشع» الى أن يضحى بولده البكر لالهه «كيموش» ، حتى ينقذه من هذه القوات المتحالفة[٥٠] .

هذا وقد تبين من مخلفات المدافن فى أم النار فى «أبو ظبى» أنها تضم العديد من الهياكل العظمية المتكدسة فى المدفن المشترك ، ويدل وجود

---

(٤٥) ج٠ كونتنو : الحضارة الفينيقية ص ١٤٥ ٠

(٤٦) أنظر W. Keller, The Bible As History, p. 230-234.
وكذا J. Finegan Light From the Ancient Past, p. 188-89.
S A. Cook, CAH, III, p. 372.

(٤٧) ملوك ثان ٣ : ٩ — ٢٧ ٠

(٤٨) M. Noth, The History of Israel, p. 244-45.

(٤٩) انظر : كتابنا «اسرائيل» ص ٤٩٨ — ٥٥٠ ، وكذا
S. A., Cook, in CAH, III, p. 372.

(٥٠) ملوك ثان : ٣ : ٢٧ ٠

الهياكل العظمية خارج الجدران الخارجية على ظاهرة التضحية البشرية التى تواكب مراسم الدفن ، حيث توضع جثث الاشخاص الذين يضحى بهم مع بعض ، فى خارج المبنى الذى يضم جثة المتوفى(٥١) .

وهنا — فيما أرى — تظهر الاهمية العظمى لقصة الذبيح اسماعيل عليه السلام ، ذلك أن خليل الرحمن — ﷺ — بينما كان يزور ولده اسماعيل فى ذلك المكان الموحش المقفر من صحراء مكة ، رأى — فيما يرى النائم — أنه يذبح ولده هذا .

ولما كانت أنبياء الله تنام أعينهم ، ولا تنام قلوبهم ، فان «رؤيا الانبياء وحى»(٥٢) ولهذا صمم الخليل على تنفيذ أمر ربه ، ولم يثنه عن عزمه أن اسماعيل وحيده ، وأنه قد رزق به وهو شيخ كبير ، على رأس ست وثمانين سنة من عمره ، وبعد أن ظل يرجوه أعواما ، رغم ذلك كله، فان الخليل قد عقد العزم على انجاز ما أمر به ، بايمان المؤمنين ، واستسلام المسلمين لله وحده ، مما يدل على منتهى الطاعة والامتثال لله . وهذا هو الاسلام بعينه ، اذ أن الاسلام هو الطاعة والامتثال لأمر الله فى الاولين والاخرين(٥٣) .

على أن الخليل عليه السلام . انما أراد أن يعرض الامر كله على ولده ، ليكون أطيب لقلبه ، وأهون عليه من أن يأخذه قسرا ويذبحه قهرا(٥٤) ، يقول سبحانه وتعالى «فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ، ان هذا لهو

---

(٥١) K. Thorvildson. Kuml, 1962. p. 217-18.

(٥٢) انظر : تفسير ابن كثير ٩/٤ ، تفسير القرطبى ١٠٢/١٥ البداية والنهاية ١٥٧/١ ، تفسير البيضاوى ٢٩٧/٢ ، ثم قارن : تفسير روح المعانى ١٢٨/٢٣ .

(٥٣) أنظر : تفسير الطبرى ٥١٠/٢ — ٥١١، ٧٤/٣ (دار المعارف) .

(٥٤) أنظر : تفسير القرطبى ١٠١/١٥ — ١٠٤ ، تفسير الطبرى ٧٨/١٥—٨٩ ، تفسير البيضاوى ٢٩٧/٢ .

البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على ابراهيم ، كذلك نجزى المحسنين ، انه من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين»(٥٥) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن الذبيح اسماعيل ــ عليه السلام ــ انما كتب عليه ضريبة الفداء ، وهى فى مفترق الطرق بين الهمجية التى كانت لا تتورع عن الذبائح ، وبين الانسانية المهذبة التى لا تأبى الفداء بالحياة ، ولكنها تتورع عن ذبح الانسان(٥٦) .

ولما كان الانبياء هم الاسوة الحسنة التى يحتذى حذوها كافة الناس وخاصتهم ، فان الله جلت قدرته أراد أن يجعل من خليله قدوة حسنة . ومثلا أعلى لأرفع صور الايمان وأجلها فى تاريخ الانسانية ، وفى الوقت نفسه . أعطى الانسانية نفسها مثلا حيا فى ابراهيم وولده اسماعيل . تمهيدا لمنع هذه العادة البربرية ، فيأمره بذبح ولده ، ثم يفتديه بكبش عظيم .

ومن هنا كان ارتباط هذه الحادثة ارتباطا وثيقا بظاهرة التضحية البشرية التى كانت تمارس فى بعض مجتمعات الشرق الادنى القديم ، والحث على استبدال ذلك التقليد ، بالتضحية الحيوانية(٥٧) .

ومن عجب أن ذرية ابراهيم من اسحاق ــ عليهما السلام ــ لم يكونوا على مستوى الدعوة . صحيح أن هناك من ذرية اسماعيل من هم

---

(٥٥) سورة الصافات : آية ١٠٢ــ١١٢ ، وانظر : تفسير الطبرسى ٧١/١٥ــ٧٩ ، تفسير روح المعانى ١٢٧/٢٣ــ١٢٣ ، الكشاف ٥٣/٤ــ٥٩ ، فى ظلال القرآن ٦٢/٧ــ٦٧ ، تفسير النسفى ٢٧٢/٤ــ٢٧٥ ، تفسير الفخر الرازى ١٥٢/٢٦ــ١٥٨ ، الجواهر فى تفسير القرآن الكريم (للشيخ طنطاوى جوهــرى) ١٩/١٨ــ٢٢ ، تفسير الطبرى ٤٨/٢٣ــ٥٨ (طبعة بولاق ١٣٢٨هـ) ، تفسير النيسابورى ٦٦/٣ــ٧٢ (نسخة على هامش الطبرى) ، الدر المنثور ٢٧٩/٥ــ٢٨٥ ، أحكام القرآن للجصاص ٢٧٧/٣ــ٣٧٨ ، تفسير الكاشف لمحمد جواد مغنية ٣٤٨/٦ــ٣٥٢ (بيروت ١٩٧٠) تفسير أبى السعود ٥٤٣/٤ــ٥٤٧ تفسير القرآن الكريم للخطيب الشربينى ٣٨٤/٣ــ٣٨٨ .

(٥٦) عباس العقاد : الاسلام دعوة عالمية ص ٢١٨ــ٢١٩ .

(٥٧) رشيد الناضورى : الفكر الدينى ص ١٧٤ .

بذبح ولده ، ولكن صحيح كذلك أنه حادث فرد ، وأن الامر لم يتجاوز نطق الهم الى مجال التنفيذ ، غير أن الاصح أن ذرية اسحاق بقيت فيهم عادة التضحية البشرية الى ما بعد أيام الكليم ونزول التوراة ، ومن هنا رأيناها في سفر الخروج انما تحرم على بنى اسرائيل أن يعطوا أبكار أبنائهم قربانا الى الآلهة(٥٨) ، والامر كذلك لما جاء فى سفر اللاويين ، حيث ينص على عقوبة الرجم لمن يقدم ولده قربانا لاله العمونيين — ملوك — حيث كان الاسرائيليون يقدمون له ذبائح بشرية ؛ ولاسيما من الاطفال(٥٩) .

ومع ذلك فقد ظل أمراء بنى اسرائيل يقدمون أبناءهم لتحرق على المذابح ، كما فعل يفتاح الجلعدى ، حين نذر للرب : «ان دفعت بنى عمون ليدى ، فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى للقائى عند رجوعى بالسلامة من عند بنى عمون ، يكون للرب وأصعده محرقة»(٦٠) ، وهكذا ما أن يعود يفتاح من معركته ضد العمونيين منتصرا ، حتى تكون ابنته الوحيدة هى أول من يهب للقائه ، ومن ثم فقد اضطر أن يفى بنذره ، ويذبح ابنته قربانا للرب بعد شهرين من قدومه(٦١) .

وهكذا بقى الاسرائيليون — وحتى عصر القضاة — يمارسون التضحية البشرية ، تقليدا لجيرانهم من الكنعانيين والمؤابيين وغيرهم ، رغم أنها ليست من شريعة موسى عليه السلام ، ورغم أنهم نهوا عنها مرارا ، بل بقى الامر كذلك على أيام الملكية ، وحتى عصر «ارمياء النبى» (٦٢٧ — ٧٧ ق.م) الذى نعى عليهم ، أنهم «بنوا مرتفعات ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار» ، وحتى عصر أشعياء الثانى ، الذى يقول لهم : «يا بنى الساحرة ، نسل الفاسق والزانية .. المتوقدون الى الاصنام تحت كل شجرة خضراء ، القاتلون الاولاد فى الاودية ، تحت شقوق المعاقل»(٦٢) .

---

(٥٨) خروج ٢٢ : ٩ .
(٥٩) سفر اللاويين ١٨ : ٢١ ، ٢٠ : ٢ .
(٦٠) قاموس الكتاب المقدس ٧٢١/٢ .
(٦١) قضاة ١١ : ٣٠ — ٣١ .
(٦٢) قضاة ١١ : ٣٤ — ٤٠ .

احيـــاء الموؤدات :

ليس صحيحا ما ذهب اليه البعض من أن الوأد كان فى بلاد العرب امارة من امارات النبل(٦٣) ، بل ان هناك ما يشير الى أن سيدين — على الاقل — من ذوى القلوب الرحيمة ، انما قد تأثرا الى حد كبير من تلك العادة الوحشية — عادة وأد البنات — وسعيا لابطالها ، وقد حمل لواء هذه الدعوة — فيما يرى الاخباريون — «صعصعة بن ناجية» و «زيد بن عمرو بن نقيل» ، فانقذا من ظلمات الحفائر كثيرا من البنات ، بدفع تعويض لأهلهن ، وأخذهن لتربيتهن •

وقد أطلق البعض على صعصعة — سيد تميم وجد الفرزدق الشاعر المشهور — لقب «محيى الموؤدات» ، ذلك أنه مر يوما برجل من قومه بنى تميم يحفر بئرا ، وامرأته تبكى ، فلما علم منها أن زوجها يريد أن يئد ابنتهما بسبب الفقر ، قال له : «فانى أشتريها منك بناقتين يتبعهما أولادهما تعيشون بألبانهما ، ولا تئد الصبية» ؛ فرضى الرجل ، فأعطاه الناقتين وجملا فحلا ، وقال فى نفسه : ان هذه لمكرمة ما سبقنى اليهـا أحد من العرب . فجعل على نفسه ألا يسمع بموؤدة الا فداها ، فجاء الاسلام وعنده ثلاثون موؤدة(٦٤) •

ويذهب الاخباريون الى أنه قد فدى اثنين وتسعـين موؤدة على رواية ، وستا وتسعين على رواية أخرى ، ومائة وأربعا على رواية ثالثة ، ومائتين وثمانين على رواية رابعة ، وثلاثمائة على رواية خامسة ، وثلاثمائة وستين على رواية سادسة ، وأربعمائة على رواية سابعة(٦٥) •

وأيا كان الصواب فى هذه الاعداد ، فان الرجل قد عمل الى حد كبير

---

(٦٣) مولانا محمد على : المرجع السابق ص ٢٩ •

(٦٤) تفسير القرطبى ١٠/١١٧ ، الاصابة ٢/١٧٩ ، المستطرف ٢/ ٧٧ ، الاغانى ١٩/٣ـ٥ ، الاشتقاق ١/١٤٧ ، معجم الشعراء للمرزبانى ٢/٤٨٦ ، جواد على ٥/٩٦ •

(٦٥) الامالى ٢/٢٨٤ ، الاغانى ١٩/٢ـ٣ ، تيسير الوصول الى جامع الاصول من حديث الرسول ٣/١١٣ ، المحبر ص ١٤١ ، النقائض ص ٢٦٤ ، جواد على ٥/٩٦ •

على تخفيف الوأد فى بنى تميم ، بل لم يدع تميما تئد وهـو يقدر على ذلك ، اذ كان من عادته أن يمنع الوأد ما دام يستطيع أن يفدى الموؤدة، وأنه كثيرا ما سأل قومه فى ترك الوأد ، وقد خايل الفرزدق باحياء جده للوئيدات فى عدة قصائد ، منها قوله :

وجدى الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد(٦٦)

وأما ثانى الرجلين ، فقد كان «زيد بن عمرو بن نفيل القرشى» ، وكان يستحى الموؤدات ، فاذا أبصر برجل يهم بوأد ابنته ، قال له : لا تقتلها ، أنا أكفيك مئونتها ، ويأخذها ، وينفق عليها حتى تكبر ، ثم يقول لأبيها : ان تشئت دفعتها اليك ، وان شئت كفيتك مئونتها ، وقد ذهب البعض الى أنه أحيا ستا وتسعين موؤدة(٦٧) .

ولعل سائلا يتساءل : متى بدأ الوأد فى بلاد العرب ؟ وهل مارسه العرب جميعا ؟ أم انه اقتصر على فريق دون آخر ؟

تذهب بعض الروايات الى أن الوأد انما بدأ على أيام «النعمان بن المنذر» ، ملك الحيرة ، وذلك أن بنى تميم قد منعوا النعمان الاتاوة التى كانت مفروضة عليهم ، فحاربهم وسبى نساءهم . فرحل « قيس بن عاصم» الى النعمان لرد السبايا ، فآثرن العودة جميعا ، الا ابنة قيس — أو أخته ريم على رواية ، وابنة أخته على رواية أخرى — فقد آثرت سابيها «عمرو بن المشرج» ، فانصرف قيس ، فوأد كل بنت ، وجعل ذلك سنة ، واقتدت به العرب فى ذلك ، فكان كل سيد تولد له بنت يئدها خوفا من الفضيحة(٦٨) .

---

(٦٦) الاغانى ١٩/٢ــ٤ ، آمالى المرتضى ٢٨٤/٢ ، تاج العروس ٥٢٠/٢ ، مادة وأد ، ديوان الفرزدق ص ٤٧٧ ، تيسير الوصول ١١٣/٣، جواد على ٩٦/٥ــ٩٦ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٤٠ .

(٦٧) بلوغ الارب ٤٥/٣ ، السيرة الحلبية ٤٣/١ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٤٠ .

(٦٨) الاغانى ١٤٣/١٢ــ١٤٤،الكامل للمبرد ٢٨٨/١،مجمع الامثال ٣٨٩/١ ، شرح نهج البلاغة ٢٤٢/٣ ، اعلام النساء ٤١٣/١ــ٤١٣ ، نهاية الارب ١٠٧/٣ ، جواد على ٩٠/٥ .

فاذا كان ذلك كذلك ، فان الوأد انما يرجع الى أيام النعمان بن المنذر (٥٨٠ — ٦٠٢ م) ، وأن أول من قام به انما هو «قيس بن عاصم» وهو رجل — كما يجمع أصحاب هذه الرواية — قد أدرك الاسلام وأسلم ، ومن ثم فليس من المعقول أن ينشأ الوأد قبيل الاسلام بسنوات ، ثم يشيع فى بعض قبائل العرب فى زمن وجيز ، ثم ليس بمعقول أن يحاكى العرب قيس بن عاصم ويشايعوه فى عمله ، لان حادثته فردية ولا ينشأ عنها عمل جماعى ، وكان حريا بالعرب أن يعيروه ، لا أن يحاكوه(٦٩) .

هذا فضلا عن أن هناك رواية أخرى ، انما تنسب بداية الوأد الى قبيلة ربيعة ، فتذهب الى أن بنتا لأمير ربيعة ، قد وقعت فى أسر قبيلة أغارت عليهم ، فلما وضعت الحرب أوزارها . وعقد الصلح بين القبيلتين المتنازعتين ، رفضت ابنة أمير ربيعة أن تعود الى أهلها ، وفضلت أن تبقى عند آسرها ، فغضب أبوها واستن هذه السنة التى قلده العرب فيها — سنة وأد البنات(٧٠) .

والرواية — كما هو واضح — لا تختلف عن الاولى : الا فى أسماء القبائل والاشخاص ، فالاولى تنسب الوأد الى قيس بن عصم سيد بنى تميم ، بينما تنسبه الثانية الى أمير ربيعة .

على أن هناك رواية ثالثة ، تذهب بعيدا فى أعماق التاريخ ، يذهب أصحابها الى أن «لقمان بن عاد» — والذى لا نعرف عنه أو عن عصره شيئا مؤكدا على الاطلاق — قد خانته نساؤه فقتلهن جميعا ، وبينما هو كذلك اذا به وجها لوجه أمام ابنته «صحر» — التى عدها البعض واحدة من حكيمات العرب — فوثب عليها فقتلها ، لانها كغيرها من النساء ، فضربت العرب المثل بقتل صحر(٧١) .

---

(٦٩) احمد الحوفى : المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٢٣٥ .
(٧٠) تفسير الخازن ١٩/٣ج ، بلوغ الارب ٤٢/٣-٤٣ ، جواد على ٩٠/٥ .
(٧١) اعلام النساء ٣٢٣/٢ ، الحيوان للجاحظ ٢١/١ ، احمد الحوفى : المرجع السابق ص ٢٣٥ .

هذا وهناك فريق آخر من الاخباريين يذهب الى أن الوأد انما كان فى بعض القبائل التى تغلبت الاعرابية على حياتها ، ومنها كندة وقيس وهذيل وأسد وبكر بن وائل ، وان كانت تميم أشدهم فى هذا .

وانى لأظن — وليس كل الظن اثما — أن الوأد انما كان فى قبـائل معينة من العرب دون غيرها ، وذلك لاسباب ، منها (أولا) ما يذهب اليه «ابن حبيب» من أن الطلس — وهم سائر أهل اليمن وأهل حضرموت وعك وعجيب واياد بن نزار — كانوا لا يئدون بناتهم[72] .

ومنها (ثانيا) ذلك المركز الممتاز الذى وصلت اليه المرأة العربية ، حتى أصبحت ملكة ، سواء أكان ذلك فى شمال بلاد العرب أو فى جنوبها.

ومنها (ثالثا) تلك المكانة الممتازة التى كانت تحتلها البنت عند أبيها — على الاقل عند بعض القبائل — ومن ذلك ما نقرأه فى «الامالى» عن حب «الزبير بن عبد المطلب» لابنته أم الحكم[73] ، والامر كذلك بالنسبة الى «معن ابن أوس» ، وقد كان له ثلاث بنات يؤثرهن ويعتز بهـن ، ولا يحب أن يكون له بهن رجـال ، لان فى الاناث من هـو أصلح من الذكور ، ولأنهن وفيات لآبائهن ، يمرضنهم اذا مرضوا ، ويعـدنهم اذا سئموا ، وينحن عليهم اذا ماتوا .

رأيت رجالا يكرهـون بناتهم وفيهن لا تكذب نساء صوالح
وفيهن والايام يعثرن بالفتى عوائد لا يمللنه ونوائح[74]

وهناك قول عامر بن الظرب لصعصعة بن معاوية ، وقد جاء يخطب ابنته «عميرة» : «يا صعصعة ، انك أتيتنى تشترى منى كبدى ، وأرحم ولدى عندى»[75] .

---

(٧٢) أبو جعفـــر محمد بن حبيب : كتاب المحبر ص ١٧٩ ، ١٨١ (حيدر أباد الدكن ١٩٤٢) .
(٧٣) الامالى ١٧/٢٠ .
(٧٤) الاغانى ١٥٧/١٠ ، محـاضرات الادباء ٢٠٤/١ ، الطـائف والظرائف ص ٦٧ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٢٢ .
(٧٥) مجمع الامثال ٢٨٦/١ ، العقد الفريد ٢١٠/٣ .

ومنها (رابعا) أن العرب عرفوا — كغيرهم من الامم — نظام تعدد الزوجات ، فلو كان الوأد عاما ، لقلت االنساء عن الرجال بطبيعة الحال، ولما كان هناك هذا التعدد المشهور ، بل ربما كان يجب أن يكون هنـــاك ذلك النظام الشاذ ، وهو «تعدد الازواج للزوجة الواحدة» (Polyandry) الامر الذى شاع عند «صواحبات الرايات» ، وهو فى الواقع نوع من البغاء ، وليس زواجا ، بحال من الاحوال[٧٦] •

ومنها (خامسا) أن الوأد لو كان عاما لتباهى به الشعراء ، ولهجوا أولئك الذين لا يئدون بناتهم ، لان الوأد — يصبح اذن — فضيلة وتركه رذيلة[٧٧] •

ومنها (سادسا) أن الوأد لو كان عاما ، فمن أين جاءت الموؤدات من البنات ، فضلا عن الوائدين من الرجـــال ، وسنة الله فى خلقـــه كانت — وما تزال وستظل حتى يغير الله الارض غير الارض — أن النـــاس يأتون الى هذه الدنيا عن طريق واحد ، هو اجتماع رجل بامرأة ، وصدق الله العظيم ، حيث يقول : «فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب»[٧٨] ، فاذا كان الوأد عاما بين العرب ، فالنتيجة المنطقية لذلك أن النساء سوف ينقرضن جيلا بعد جيل ، وهنا فعلى العرب اما أن يأتوا بنساء من أمم أخرى — وهذا ما لم يقل به أحد، فضلا عن استحالته — واما أن يقل عددهم دهـــرا بعد دهـــر ، حتى ينقرضوا ، وهذا ما يكذبه الواقع والتاريخ •

والرأى عندى ، أن الوأد كما وجد عند العرب ، وجد عند غيرهم ، وأنه كان مقصورا على قبائل معينة ، بل وأفرادا معينين من هذه القبائل، وربما لعب الفقر الدور الاساسى فى وجوده عندهم بدرجة تفوق غيرهم

---

(٧٦) J. Hastings, Encylopaedia of Religion and Ethics, 8, p. 467-468.

وكذا Strabo, XVI, 4.

(٧٧) أحمد الحوفى : المرجع السابق ص ٢٣٨ •

(٧٨) سورة الطارق : آية ٥—٧ •

الى حد كبير ؛ بل ان هذا الفقر انما كان — فى بعض الاحايين — سببا فى القضـاء على أسر بعينها ، ذلك أن القريشيين — مثلا — انما كانوا — احساسا منهم بشرف نسبهم ورفعة حسبهم — يتجنبون فى غالب الاحايين ألوان الخساسة فى طلب الرزق ، ومن ثم فقد كانوا اذا استعصى على أحدهم الارتزاق من طريق شريفة آثر الموت جـوعا ، على الحياة من طريق خسيسة ، وفى هذا المعنى يروى أبو الحسين أحمد بن فارس : أن أحدهم اذا جاع جرى هو وعياله الى موضع معروف ، فضرب عليه وعلى عياله خباء حتى يموتوا ومازال أمرهم على ذلك حتى كان عمرو بن عبد مناف سيد زمانه ، وكان له ابن يقال له : أسد ، وكان لأسد هذا ترب من بنى مخزوم يحبه ويلعب معه ، وذات يوم قال له : نحن غدا نعتفد(٧٩)، قال أبو الحسين ; فدخل أسد على أمه يبكى وذكر لها ما قاله تربه من بنى مخزوم ، فأرسلت أم أسد الى أولئك بشحم ودقيق عاشوا به أياما، ثم ان ترب أسد أتاه مرة أخرى ، فقال له مثل ما كان قد قال ، وفعل أسد كما فعل . فاشتد ذلك على عمرو بن عبد مناف . فقام خطيبا فى قريش ، وكان فيهم سيدا مطاعا ، فقال : أنكم أحدثتم حدثا تقلون فيه وتكثر العرب ، وأنتم أهل حرم الله جل وعز ، وأنتم أشرف ولد آدم ، والناس لكم تبع ، ويكاد هذا الاعتفاد أن يأتى عليكم ، فقالوا له : نحن لك تبع : فقال : ابتدئوا بهذا الرجل فأغنوه عن الاعتفاد ففعلوا ، ثم انه نحر البدن وذبح الكبائش والمعز ، ثم هشم الثريد وأطعم الناس ، ومن أجل ذلك سمى هاشما ، وهو جد سيدنا محمد ﷺ ، وفيه يقول الشاعر :

عمرو العلا هشم الثريد   قـوم بمكة مسنتين عجاف(٨٠)

---

(٧٩) الاعتفاد : هو أن يغلق الرجل بابه على نفسه ، فلا يسأل أحدا حتى يموت ٠

(٨٠) أحمد حسن الباقورى : مع القرآن ص ٣٠٦ـ٣٠٧ ـ ثم قارن تفسير القرطبى ٢٠٥/٣٠ ، تفسير الطبرسى ٥٤٦/١٠ تاريخ الطبرى ٢/ ٢٥٠ـ٢٥٢ ، ابن هشام ١٤٥/١ـ١٤٦ ، أنساب الاشراف ٥٨/١ ، المقدسى ١٢٨/٤ـ١٢٩ ، الاشتقاق ١٣/١ ، أمالى القالى ٢٤١/١ ، امالى المرتضى ١٧٨/١ـ١٧٩ ، محاضرات الابرار لابن العربى ١٩٠/٢ ٠

خامسا : المــرأة والحجــاب :

يذهب كثير من المستشرقين الى أن الحجاب نظام اسلامى ، لم يكن معروفا عند الجاهليين[1] ــ أو حتى عند غيرهم من الامم ــ حتى كادت كلمة المرأة المحجبة عندهم أن تكون مرادفة للمرأة المسلمة ، أو المــرأة التركية التى حسبوها زمنا مثالا للاسلام،لانهم رأوها فى دار الخلافة[2] .

وفى الواقــع أن هؤلاء البــاحثين لو رجعوا الى كتبهم المقــدسة ــ التوراة والانجيل ــ لوجدوا أن الامر غــير ذلك تماما ، ففى قصة زواج اسحاق عليه السلام من «رفقة بنت بتوئيل» ــ كما جــاءت فى التوراة ــ[3] نرى اليعازر الدمشقى عندما أتى برفقة من «فدان أرام» وأصبحت ذات مساء على مقربة من تخوم خيام ابراهيم ، «رفعت عينها فرأت اسحاق فنزلت عن الجمل ، وقالت للعبد من هذا الرجل الماضى فى الحقل للقائنا ، فقال العبد : هو سيدى ، فأخذت البرقع وتغطت»[4] .

وهناك قصة أخرى ــ فى التوراة كذلك ــ جاء فيها ذكر الحجاب ، اذ يروى سفر التكوين أن «ثامار» قد تزوجت من «عير» بكر يهوذا ، ثمات عنها ، فأعقبته أخوه «أونان» عليها ، فلما مات هو كذلك ، كان على «ثامار» أن تمكث فى بيت «يهوذا» حتى يكبر ولده الطفل «شيله» ليتزوج منها بعد أخويه ، وفى أثناء ذلك ماتت «شوع» امــرأة يهوذا ، وأراد زوجها أن يذهب الى «تمنة» ، «فأخبرت ثامار وقيل لها هوذا حمــوك صاعد الى تمنة ليجز غنمه ، فخلعت عنها ثيــاب ترملها وتغطت ببرقع وتلففت»[5] .

ونقرأ فى نشيد الانشاد ــ الذى تنسبه التوراة الى سليمــان عليه

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ٢٦٦/٦ ،العقاد : المرأة فى القرآن ص٨٧ .
(٢) العقاد : المرجع السابق ص ٨٧ .
(٣) تكوين ٢٤ : ١ـ٦٦ ، وانظر مناف القصة بالتفصيل فى كتــابنا «اسرائيل» ص ٢١٤ـ٢١٦ .
(٤) تكوين ٢٤ : ٦٤ ــ ٦٥ .
(٥) تكوين ٣٨ : ٦ ــ ١٥ .

السلام — على لسان امرأة قولها : «أخبرني يا من تحبه نفسي ، أين ترعى ، أين تربض عند الظهيرة ، لماذا أنا أكون كمقنعة عند قطعان أصحابك»[٦] .

وهناك سفر أشعياء نص يتحدث كذلك عن البراقع ، جاء فيه : «وقال الرب : من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الاعناق ، وغامزات بعيونهن وخاطرات في مشيهن ، ويخشخشن بأرجلهن ، يصلع السيد هامة بنات صهيون ، ويعرى الرب عورتهن ، ينزع السيد في ذلك اليوم زينة الخلاخل والضفائر والاهلة والحلق والاساور والبراقع ..»[٧] .

واذا ما تركنا التوراة الى «الانجيل» لرأينا بولس الرسول يمنع المرأة من الصلاة وهي عارية الرأس «كل امرأة تصلي أو تتنبأ ورأسها غير مغطى فتشين رأسها» ، «والمرأة التي لا تتغطى فليقص شعرها ، وان كان قبيحا بالمرأة أن تقص أو تحلق فلتتغط» و «هل يليق بالمرأة أن تصلي الى الله وهي غير مغطاة»[٨] ، بل ان «بولس الرسول» انما يجعل النقاب شرفا للمرأة ، ومن ثم فهو يقول «أليست الطبيعة نفسها تعلمكم أن الرجل ان كان يرخي شعره فهو عيب له ، وأما المرأة ان كانت ترخي شعرها فهو مجد لها ، لان الشعر قد أعطي لها عوض براقع»[٩] .

واذا ما تركنا كتب اليهود والنصارى المقدسة الى شعوب العالم القديم ، لرأينا أن الحجاب انما كان معروفا منذ أقدم العصور في بابل وآشور وفارس والروم والهند[١٠] ، بل ان النساء الروميات انما كن

---

(٦) نشيد الانشاد ١ : ٧ .
(٧) اشعياء ٣ : ١٦ — ٢٤ ..
(٨) رسالة بولس الرسول الاولى الى اهل كورنثوس ١١ : ١—١٣ .
(٩) نفس المرجع السابق ١١ : ١٤ : ١٥ .
(١٠) محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ١/٨٨ ، ولعل من الجدير بالاشارة أن التشريعات الاشورية من القرن الثاني عشر قبل الميلاد قد فرضت خروج حرائر النساء محجبات من الرأس الى القدم ، بينما أعفت الكاهنات اللائي وهبن أنفسهن للمعابد من ارتداء الحجاب ، كما حرمت الحجاب على الاماء وبنات الهوى تمام التحريم ، بحيث اذا =

مغاليات فى الحجاب فى العهد الاول للجمهورية ، حتى أن القابلة كانت لا تخرج من دارهـا الا مخفورة ، ووجهها ملثم ، وعليهـا رداء طويل يلامس كعبيها ، وفوقه عباءة لا تبـدى شيئا من قوامها[11] ، وهناك ما يشير الى أنهم انما كانوا يحـرمون على المرأة الظهور بالزينـة فى الطرقات قبل الميلاد بمائتى سنة ، ومن ذلك «قانون أوبيا» Dex Oppia الذى يحرم على المرأة المغالاة فى الزينة حتى فى البيوت[12] .

هذا وقد عرف الفرس الحجاب كذلك ، كما عد كشف المرأة أو الرجل شيء من جسده غير الوجه ، مظهرا منافيا للاحتشام والادب ، وكانت النساء تغطين أجسامهن من قمة الرأس الى أخمص القدم ، وفى أعقاب حكم دارا الاول (٥٢٢ ــ ٤٨٦ ق٠م) كان احتجاب نساء الطبقة الراقية عن المجتمعات نظاما ضروريا مراعى ، فصرن لا يجسرن على الخروج الا فى هوادج تغطيها الستائر ، وحظر عليهن أن يخالطن الرجال فى مجمتع عام أو خاص ، بل لقد منعت الزوجات من رؤية أدنى الرجـال اليهن قرابة ، حتى الآباء والاخوة[13] .

وهـكذا غلا المترفون من الاقـدمين فى حال الحجاب والتسريح ، فحجبوا المرأة ضنا بها ، وسرحوها هوانا عليهم لامرها ، وأوشك اعزازها أن يكون شرا عليها من هوانها ، فاذا عزت عندهم غدت طير حبيس فى قفص مصنوع من معـدن نفيس أو خسيس ، واذا هـانت سرحوها ليبتذلوها فى خدمة كخدمة الدابة المسخرة ، حريتها الموهومة ضرورة من ضرورات التسخير والاستعباد[14] .

=

ضبطن محجبات ومتشبهات بالحرائر ، جردن من ثيابهن وضربن بالعصى وصب القار على رؤسهن ، واوجبت على المواطنين القبض على الجوارى المحجبات (فى غير صحبة سادتهن) ، وتوعدت من يخـالف ذلك بجـلده وثقب اذنيه والسخرة فى اعمال الملك شهرا (عبد العزيز صالح : المرأة فى النصوص والاثار العربية القديمة ــ الكويت ١٩٨٥ ص ١١١ ــ ١١٢) ٠

(١١) الحوفى : المرجع السابق ص ٢٩٩ ،فريد وجدى : المرأة المسلمة ص ١٢٣ ٠

(١٢) عباس العقاد : المراة فى القرآن ص ٨٩ ٠

(١٣) ول ديورانت : قصة الحضارة الفارسية ص ١٩ ، ٦٠ ٠

(١٤) العقاد : المراة فى القرآن ص ٨٩ ــ ٩٠ ٠

ولم تكن المرأة العربية فى الجاهلية تعيش فى عالم غير عالم الناس ، ومن ثم فقد وجدناها عند العرب — كما وجدنا عند غير العرب — من النساء من كن سافرات ، ومن كن متحجبات ، وليس فى هذا تناقض أو شذوذ ، لان المجتمعات كثيرا ما تتباين عاداتها ، وتتغاير نظمها فى البيئة الواحدة ، والعصر الواحد(١٥) .

وأما أدلة الحجاب فى التاريخ العربى القديم فكثيرة ، منها (أولا) أن النساء الثموديات يصورن أحيانا بشعور طويلة ، وأحيانا يحملن فوق رؤسهن سلالا ، وقد ارتدين أثوابا طويلة ، تنزل حتى العرقوب ، ومن أسمائهن نعرف أنهن كن يرتدين خمارا «رطت» فوق الرأس ، كما يبدو ذلك واضحا فى النقوش البارزة التى تزين قصر العاصمة الاشورية نينوى(١٦) .

ومنها (ثانيا) أن حرب الفجار الثانية ، انما كان سببها عبث فتية من قريش وكنانة بامرأة من بنى عامر بن صعصعة ؛ وكانت وضيئة حسنة رأوها بسوق عكاظ ، فأرادوا منها أن تكشف لهم عن برقعها ، فثارت ، ونادت : يا آل عامر ، ونادى الشباب قومهم ، فالتحموا فى قتال بسبب ذلك ، وانتهى الحادث بتوسط حرب بن أمية والحارث بن أمية ، باحتمال دماء القوم(١٧) .

ومنها (ثالثا) ما يروى فى سبب اعتلاق عبد الله بن علقمة — أحد بنى عامر بن عبد مناة بن كنانة — بصاحبته «حبيشة بنت حبيش العامرية» ، من أنه ذهب مع أمه لزيارة آل حبيشة ، فأجلسه أهلها فى متحدث لهم ، وكانت حبيشة قد زينت لأمر كان فى الحى ، وعلى وجهها

(١٥) أحمد الحوفى : المرجع السابق ص ٢٩٧ .
(١٦) خالد الدسوقى : المرجع السابق ص ٢٨٩ وكذا .
Van den Branden, Les Textes Thamoudeens de Phiby, p. 268.
(١٧) الاغانى ٧٤/١٩ ، العمدة ٢١٩/٢ (تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد) ، السيرة الحلبية ١٤١/١ ، تاريخ الخميس ٢٥٥/١ ، ابن الاثير ٣٥٩/١ .

«سب» أخضر فضربه الهواء فانكشف وجهها ويداها،فهام بها عبدالله[18].

ومنها (رابعا) أن هندا بنت صعصعة انما كانت تفاخر بقولها : «من جاءت من نساء العرب بأربعة ، كأربعة يحل لى أن أضع خمارى معهم فلها صرمى : أبى صعصعة ، وأخى غالب ، وخالى الاقــرع ، وزوجى الزبرقان بن بدر» ؛ وهى ذات الخمار ، لانها دخلت على هؤلاء الاربعة ، فألقت خمارها ، فقالوا لها : ما هــذا ، ولم تكونى متبرجــة ، قالت : داخلتنى خيلاء حين رأيتكم ، فأى امرأة من العرب وضعت خمــارا عند مثلكم فلها صرمتى»[19] .

ومنها (خامسا) أن هناك فى أمثال العرب ما يؤيد معرفتهم للحجاب، ومن ذلك قولهم «ان العوان لا تعلم الخمرة» ، أى لا تحتاج الى تعلم الاختمار ، يضرب مثلا للرجل المجرب[20] .

ومنها (سادسا) أن الشعر العربى ملىء بالاشارات الى الحجاب[21] وهكذا رأينا «أم عمرو بنت وقدان» تحرض قومها على الثأر،والا فعليهم ان يدعوا السلاح ويتكحلوا ويتنقبوا كالنساء :

ان أنــتم لــم تطلبــوا بأخيــكم فذروا الســلاح ووحشوا بالابرق
وخــذوا المكاحل والمجاسد والبسوا نقب النساء فبئس رهط المرهق[22]

وهكذا كان الحجاب معروفا عند العرب ــ وعند غير العرب ــ فى عصور ما قبل الاسلام ، يستعمله قوم ويتركه آخرون ، بل تستعمــله نساء وتتركه أخريات من بين نساء القوم أنفسهم ، وهكذا جاء الاسلام

---

(18) أعلام النساء ٢٠٥/١ــ٢٠٨،الحوفى : المرجع السابق ص٢٩٧.
(19) الحوفى : المرجع السابق ص ٢٩٧ ، النقائض ص ٢٦٤ .
(20) مجمع الامثال ١٧/١ ، جمهرة الامثال ٦١/٢ ، الحــوفى : المرجع السابق .
(21) انظر الاغانى ١٥٩/١٩ ، ٩/٢١ ، خزانة الادب ٣٩٥/٢ ، شرح الحماسة للتبريزى ٥٥/٤ ، النقائض ص ٨٦ .
(22) شرح الحماسة للتبريزى ٥٥/٤ ، الحــوفى : المرجع السابق ص ٢٩٨ .

والحجاب فى كل مكان ، بدرجة أو بأخرى ، فصنع ما صنعه بكل تقليد وجده ، لا ضرر ولا ضرار ، ومن ثم فقد أصلح منه ما يفيد ويعقل ؛ لم يجعله كما كان عنوانا لاتهام المرأة ، أو عنوانا لاستحواذ الرجل على ودائعه الخفية ؛ بل جعله أدبا خلقيا يستحب من الرجل ومن المرأة ، ولا يفرق فيه بين الواجب على كل منهما ، الا لما بين الجنسين من فارق فى الزينة واللباس والتصرف(٢٣) .

ومن ثم فالمؤمنون مطالبون بأن ((يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم))(٢٤) ، والمؤمنات مطالبات بأن ((يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن))(٢٥) .

وهناك توجيه ربانى آخر لأزواج النبى ونساء المؤمنين : يقول سبحانه وتعالى : ((يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين))(٢٦) .

---

(٢٣) العقاد : المرأة فى القرآن ص ٩٠ .

(٢٤) سورة النور : آية ٣٠ ، وانظر : تفسير مجمع البيان ٢٣/٥ ـ ٣٤ ، تفسير روح المعانى ١٣٨/١٨ ـ ١٤٠ ، تفسير أبى السعود ٨٣/٤ ، تفسير الطبرى ٩١/١٨ـ٩٢ ، الدر المنثور ٤٠/٥ ، الكشاف ٢٢٩/٣ ، وانظر : أبو الاعلى المودودى : تفسير سورة النور ، ص ١٣٧ـ١٥٣ (طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٥٩م) ابن تيمية : تفسير سورة النور ، تحقيق صلاح عزام ، (دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٢) .

(٢٥) سورة النور : آية ٣١ ، وانظر : الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٤١/٥ ٤٤ ، تفسير الطبرى ٩٢/١٨ـ٩٨ ، تفسير الكشاف ٣/ ٢٢٩ـ٢٣٣ ، تفسير أبى السعود ٨٣/٤ـ٨٤ ، تفسير الطبرسى ٣٣/٥ـ٣٨، تفسير روح المعانى ١٤٠/١٨ـ١٤٨ ، وانظر : أبو الاعلى المودودى : تفسير سورة النور ص ١٥٣ ـ ١٧٨ (ترجمة محمد عاصم الحداد) .

(٢٦) سورة الاحزاب : آية ٥٩ .

هذا وقد اختلف فى الادناء الذى أمرن به ، فذهب رأى الى أن المراد أن يغطين رؤسهن ووجوههن ، ومن ثم فالمقصود من الآية الكريمة ستر الوجه واخفائه ، سواء أكان بضرب الخمار أو بلبس النقاب ، أو بطريقة أخرى غيره ، وذهب رأى آخر الى أن المراد أن يشددن خمرا على جباههن ، بينما اتجه رأى ثالث الى أن ادناء الجلباب أن تتقنع المرأة وتشد جبينها ، على أن رأيا رابعا انما يذهب الى أن المطلوب انما هو ستر الرؤوس والاعناق والنحور ، وأخيرا فان هناك رأيا خامسا انما يذهب الى أن المطلوب من النساء أن يقنعن على الحواجب(٢٧) .

وهكذا حرم على المرأة المسلمة أن تكشف عن مواضع زينتها أمام اجنبى ليس من المحارم ، الا ما اقتضت الضرورة أن يظهر ، ومن ذلك الوجه والكف ــ فيما يرى البعض ــ لان فى اخفائهما تضيقا وحرجا(٢٨) .

وعلى أى حال : فليس المراد بالحجاب فى الاسلام ــ كما يقول الاستاذ العقاد ــ اخفاء النساء وحبسهن وراء جدران البيوت وتحريم الخروج عليهن لمزاولة الشئون التى تباح لهن ، ولم يكن الحجاب ــ كما ورد فى جميع الآيات الكريمة ــ مانعا فى حياة النبى ، ﷺ ، من أن تخرج المرأة مع الرجال الى ميادين القتال ــ كما رأينا من قبل ــ ولا أن تشهد الصلاة العامة فى المسجد ، ولا أن تزاول التجارة ومرافق العيش المحللة للرجال والنساء على السواء ، ومهما يكن من عمل تزاوله المرأة فى مصالحها اللازمة ، فلا عائق له من الحجاب الذى أوجبه القرآن

---

(٢٧) انظر : الحوفى : المرجع السابق ص ٣٠٠ ، وكذا : تفسير الطبرى ٢٢/٢٩-٣٣ ، تفسير النيسابورى ٢٢/٣٢ ، تفسير البيضاوى ٤/ ١٦٨ ، تفسير الفخر الرازى ٦/٥٩ ، أحكام القرآن للجصاص ٣/٤٥٧ ــ ٤٥٨ ، سنن أبى داود (باب فى المحرمة تغطى وجهها) ، موطأ مالك (باب تخمير المحرم وجهه) ، أبو الاعلى المودودى : تفسير سورة النور ص ١٥٧-١٦٠ ، أبو الاعلى المودودى : الحجاب : ص ٣٠٠ ــ ٣٠٣ ، الطبقات الكبير ٨/١٢٧ .

(٢٨) الحوفى : المرجع السابق ص ٣٠٠ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٨/٩٤ ، تفسير النيسابورى ١٨/٧٦ ، تفسير البيضاوى ص ٤٧٦ ، تفسير الجلالين ص ٢٩٥ .

الكريم ، ولا غضاضة عليها فيه : لانه يطلب من الرجل فيما يناسبه ، كما يطلب منها فيما يناسبها[٢٩] .

ومن ثم فلا حجاب فى الاسلام بمعنى الحبس والحجر والمهانة ، ولا عائق فيه لحرية المرأة حيث تجب الحرية وتقضى المصلحة ، وانما هو الحجاب مانع الغواية والتبرج والفضول : وحافظ الحرمات وآداب العفة والحياء ، وما من ديانة ولا شريعة يحمد منها أن تغضى عنه ، ولا تفرض له أدبا يهذبه ويكف أذاه[٣٠] .

سادسا : مكانة المرأة العربية :

أ) الاشتراك فى الاحلاف :

لقد بلغت مكانة المرأة عند العرب درجة تسمح لها أن تشارك فى الاحلاف التى تعقد بينهم ، ومن ذلك «حلف الاحابيش»[٣١] الذى عقده «عبد مناف بن قصى» مع خزاعة : وبنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة . وقد اشتركت فيه «عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان» ، زوجة عبد مناف — بل هى — طبقا لرواية اليعقوبى — التى جرى الحلف على يديها[٣٢] .

وهناك «حلف المطيبين» الذى اشتركت فيه واحدة من بنات عبدالمطلب حفيد عبد مناف ، وذلك أن قريشا لما رأت عبد المطلب قد حاز الفخر . طلبت أن يحالف بعضها بعضا ليعزوا — وكان أول من طلب ذلك بنو

---

(٢٩) عباس العقاد : المراة فى القرآن ص ٩٢ . وانظر : ابو الاعلى المودودى : الحجاب ، ص ٣١٢–٣٢٧ ، صحيح البخارى ، صحيح مسلم ، الموطأ ، سنن أبى داود والترمذى ، فتح البارى ، تاريخ الطبرى ٧٣/٣–٧٨ ، اعلام النساء ٢٥٦/٢–٢٥٧ ، ١٧١/٣–١٧٥ ، ابن هشام ٢٨٩/٢ – ٢٩٢ ، الواقدى ٣٦٨/١–٣٧٣ ، الاغانى ١٦٤/٤ .

(٣٠) عباس العقاد : المراة فى القرآن ص ٩٣ .

(٣١) أنظر عن الاحابيش : تاج العروس ١٣٠/٤ ، ٢٠٠/٩ ، تاريخ الطبرى ٥٠١/٢ ، تاريخ اليعقوبى ٢٤١/١ ، اللسان ٢٧٨/٦ ، نسب قريش ص ٣٨٩ ، ابن الاثير ١٤٩/٢ ، المعارف ص ٣٠٢–٣٠٣ ، المحبر ص ٢٤٦ ، ٢٦٧ ، البلاذرى ٥٢/١ ، ٧٦ ، جواد على ٣٠/٤ – ٣٦ .

(٣٢) تاريخ اليعقوبى ٢٤١/١ ، ابن هشام ١٩٥/٣ .

عبد الدار — فلما رأى ذلك بنو عبد مناف اجتمعوا — خلا بنى عبد شمس — وانضم اليهم بنو أسد وزهرة وبنو تميم وبنو الحارث بن فهر، نسموا «المطيبين» وذلك لان «أم حكيم بنت عبد المطلب» — وربما أختها عاتكة — قد أخرجت طيبا فى جفنة ووضعته على حجر، فتطيب به المشتركون فى الحلف(٣٣) .

وهناك «حلف الفضول» الذى عقد بين قبائل من قريش — فضلا عن قبائل أخرى مجاورة — وقد اتفق الجميع على ألا يتروا بمكة ظلما،سواء أكان من أهلها أم من سائر الناس ؛ ويروى المؤرخون أن قبائل من قريش تداعت الى حلف فاجتمع فى دار «عبد الله بن جدعان» بنو هشم وبنو عبد المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تميم ، وتعاهدوا على ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ، ولا حر ولا عبد ، والا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم ، وعمدوا الى ماء من زمزم فجعلوه فى جفنة وبعثوا به الى البيت الحرام ، فغسلت به أركانه وشربوه ، ومن عجب أن الامويين وكل بنى عبد شمس قد أبوا على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف ، وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لقد شهدت فى دار عبد الله ابن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعى به فى الاسلام لأجبت» : هذا وفخار الاشتراك فى هذا الحلف — كما فى حلف المطيبين — متنازع بين عاتكة بنت عبد المطلب جد النبى — ﷺ — ، وأختها أم حكيم توأم عبد الله والد المصطفى . ﷺ(٣٤) .

ب) المجيرات :

هذا وقد بلغت المرأة العربية كذلك مكانة جعلتها من «المجيرات» ،

---

(٣٣) تاريخ اليعقوبى ٢٤٨/١ ، ابن هشام ١٤٣/١ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٤٢٣ .

(٣٤) ابن كثير ٢٩١/٢–٢٩٣ ، ابن الاثير ٤١/٢–٤٢ ، السيرة الحلبية ١٥٧/١ ، الروض الانف ٩١/١ ، تاريخ اليعقوبى ١٧/٢ – ١٨ ، ابن هشام ١٤٢/١–١٤٥ (طبعة مكتبة الجمهورية بمصر) ، المحبر ص ٢٩٤ ، مروج الذهب ٢٧٠/٢–٢٧١ ، المقدسى ١٣٦/٤–١٣٧ ، ابن سعد ٨٢/١ ، دراسة فى السيرة ص ٤١–٤٢ ، حياة محمد لهيكل ص ١٣٥ ، عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ص ٨٣ .

ومن ثم فقد رأينا نساء يجرن كالرجال تماما ، فيقبل جوارهن ، ويحمين الرجال ، ويصان حماهن ، ومن ذلك «البسوس» خالة جساس بن مرة الشيبانى ، وقد كانت سببا فى «حرب البسوس» التى دامت أربعين عاما ، والتى نشأت بسبب قتل كليب بن ربيعة ؛ للسراب ناقة سعد الذى أجارته «البسوس بنت منقذ التميمية» ، فثار لها ابن اختها جساس وقتل كليبا ، فقامت الحرب المشهورة[٣٥] .

وهناك «فكيهة بنت قتادة بن مشنو» من بنى عوار وهم بطن من بنى مالك ابن ضبيعة — التى أجارت السليك بن عمرو ، حين استجار بها من بكر بن وائل ، فمنعته وحمته منهم[٣٦] ، وهناك «جماعة بنت عوف بن محلم الشيبانى» وقد أجارت «مروان بن زنباع العبسى»[٣٧] .

وهناك «ريطة بنت جذل الظعان» التى أجارت «دريد بن الصمة» حينما وقع أسيرا عند قومها ، ولكنه أخفى نفسه ولم يعلم به أحد ، حتى جاءت «ريطة» — مع نسوة من قومها — لترى الاسير المحبوس ، فما أن وقع نظرها عليه ، حتى صرخت وقالت : هلكم وأهلكتم ، ماذا جر علينا قومنا ؟ هذا والله الذى أعطى «ربيعة» رمحه يوم الظعينة ، ثم ألقت عليه ثوبها ، وقالت : يا آل فراس : أنا جارة له منكم ، هذا صاحبنا يوم الوادى . واختلف القوم فى «دريد» ، فقال بعضهم : لا ينبغى لدريد أن نكفر نعمته على صاحبنا ، وقال آخرون : والله لا يخرج من أيدينا الا برضاء «المخرق» الذى أسره ، ولكنهم — بتأثير ريطة — أطلقوه ، فكسته وجهزته ، ولحق بقومه ، فلم يزل كافا عن غزو بنى فراس حتى هلك[٣٨] .

---

(٣٥) ابن الاثير ٥٢٣/١ـ٥٣٩ ، أعلام النساء ١١١/١ـ١١٢ ، بلوغ الارب ١٤٩/٢ـ١٥٧ ، أيام العرب فى الجاهلية ص ١٤٢ـ١٦٨ ، الميدانى ٣٧٤/١ـ٣٧٦ ، المعارف ص ٢٦١ ، الاغانى ١٤٠/٤ـ١٥٢ ، ياقوت ١١٢/١ـ١١٣ ، تاريخ الجاهلية ص ٩٨ـ١٠٣ ، العقد الفريد ٣(٩٥ ، التنبيه والاشراف ص ١٧٤ .

(٣٦) أعلام النساء ١٧٩/٤ـ١٨٠ ، المحبر ص ٤٣٣ـ٤٣٤ .

(٣٧) محمد بن حبيب : المحبر ص ٤٣٣ .

(٣٨) أعلام النساء ٤٠٨/١ـ٤٠٩ ، الامالى ٢٧١/٢ ، الاغانى ١٣١/١ .

هذا ، وهناك ما يشير الى أن اجارة النساء للرجال لم تكن مقصورة على النساء الشريفات ، فضلا عن المتكئات على نسب أو عصبية قبلية ــ بل ربما كانت من حق كل امرأة أن يلجأ اليها مهلوف ، فهذه «أم غيلان الدوسية» ــ التي كانت تمشط النساء ــ قد أجـارت ناسا من قريش خرجوا الى دوس على رواية ، وضرار بن الخطاب الفهري على رواية أخرى ، فأمضى قومها اجارتها ، على ما بهم من حنق وظمأ الى الثأر ، منذ أن قتل هشام بن المغيرة ، أبا أزيهر الدوسي[٣٩] .

جـ) مكانة الام عند العرب :

شغلت الام عند العـرب مكانة ممتازة ، حتى رأينـا بعض الملوك ينسبون الى أمهاتهم ، فهاهـو «المنذر الثالث» (٥٢١ ــ ٥٥٤م) ملك الحيرة ــ والمعروف عند الاخباريين بالمنذر بن ماء السماء ، وماء السماء هو لقب أمه «مارية بنت عوف ابن جشم بن هلال بن ربيعة» ، من بنى النمر بن قاسط ــ وقد سميت «ماء السماء» لجمالها وحسنها[٤٠] .

وهناك «عمرو بن هند» (٥٥٤ ــ ٥٦٩م) ، نسبة الى أمه «هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار» : وقـد كان عمرو هذا ــ طبقا لرواية الاخباريين ــ جبارا عاتيا ، لا يبتسم ولا يضحك ، ومن ثم فقد كانت العرب تهابه وتخشاه : حتى سموه «مضرط الحجارة» ؛ كناية عن قوة ملكه . وشدة بأسه ، وحتى سموه «المحرق» ، ربما لانه حرق بنى تميم ، وربما لانه حرق نخل اليمامة[٤١] ، ومن ثم فهو ليس ضعيفا ، وبالتالى فان نسبته الى أمه لم تكن للسخرية ، أو حتى للاشـارة الى

---

(٣٩) المحبر ص ٤٣٤ـ٤٣٥ ، الاصابة ٢٦٥/٨ ، ثم قارن : المحاسن والاضداد ص ٥٦ .

(٤٠) تاريخ الطبرى ١٠٤/٢ (دار المعـارف ، القاهرة ١٩٦٨) ، حمزة الاصفهانى ، المرجع السابق ص ٧٠ .

(٤١) حمزة الاصفهانى : المرجع السابق ص ٧٢ ، المعارف ص٢٨٣ ، تاريخ ابن خلدون ٢٦٥/٢ ، تاريخ الطبرى ١٠٤/٢ ، المقدسى ٢٠٣/٣ ، المحبر : ص ٣٥٩ ، الميدانى ١٤٣/٢ ، أيام العرب فى الجاهلية ص ١٠٠ـ ١٠٦ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

الاستهانة بقدره ، والامر كذلك بالنسبة الى المنذر بن ماء السماء ، الذى خاض عدة حروب ناجحة ضد الحارث الغساني ، حتى قتل يوم حليمة .

هـذا وقد انتسب بعض الافراد الى أمهـاتهم كذلك ، ومن ذلك «الحارث بن ثعلبة بن جفنة» وقد نسب الى أمه «مارية ذات القرطين» من جفنة ، أو «مارية بنت ظالم» من كندة[٤٢] ، كما نسب «عنترة بن الاخرس» ، من طيء ، الى أمه «عكبرة»[٤٣] بل ان هناك أفرادا نسبوا الى أمهاتهم — وهن من سبايا العرب — كخفاف بن ندبة ، والاشهب بن ثور[٤٤] .

وهناك «ربيعة بن عبد يا ليل الثقفى» الذى نسب الى أمه «قلابة»: وكانت تلقب بالذيبة ، من ثم فقد قيل «ربيعة بن الذيبة» ، وكان ثابت بن عمرو ، من بنى النجار ، يكنى بابن خنساء ، كما كان «سواد بن وهب» من قضاعة ، يكنى بأنه «سواد بن غزية»[٤٥] وهكذا ، يروى أن «محمد بن حبيب» صاحب «كتاب المحبر» ، قد ألف كتابا فيمن نسب الى أمه من الشعراء ، ذكر فيه ٣٩ شاعرا ، كان من بينهم ٣٦ شاعرا جاهليا[٤٦] .

وليت الامر ، اقتصر على ذلك ؛ بل اننا انما نجد قبائل بأسرهـا تنسب الى أمهاتها ، كما فعـل الاسرائيليون من قبل ، ومن ثم فهناك الكثير من الشواهد القديمة التى تذكر سلالات من بنى اسرائيل نسبت الى الأم ، هذا فضلا عن أن الأم الاسرائيلية انما ظلت قرونا تحتفظ بنسبة بنيها اليها[٤٧] .

---

(٤٢) مروج الذهب ٢٠٧/١ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٧٧ .

(٤٣) الحوفى : المرجـع السابق ص ٧٧ ، شرح ديوان الحمـاسة للمرزوقى ٢٢٠/١ .

(٤٤) الاغانى ١٥٣/٨ ، المعارف ص ١٤٢ .

(٤٥) الحوفى : المرجع السابق ص ٦٨ ، وانظر : ابن سعد ٧٠/٣ ، ٧٢ ، دار المعارف ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

(٤٦) الحوفى : المرجع السابق ص ٦٨ .

(٤٧) A. Lods, Israel, From its Beginnings to the Middle of the Eight Century, p. 192.

والامر كذلك بالنسبة الى العرب ، حيث نجد كثيرا من القبائل التى تنسب الى أمهاتها ، ومن ذلك الاوس والخزرج ، أبناء «حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة»(٤٨) والذى ينتهى نسبه الى «يعرب بن قحطان» ، ولكن القوم لا يدعون أنفسهم أبنـاء «حارثة» ، وانما أبناء «قيلة» نسبة الى أمهم «قيلة بنت الارقم بن عمرو بن جفنة»(٤٩) .

وهناك «باهلة» قبيلة من قيس عيلان ، سموا باسم أمهم «باهلة بنت ضب بن سعد العشيرة ، «خنوف» نسبوا الى أمهم كذلك ، و «بجيلة» حى من اليمن ، وهم ولد امرأة اسمها «بجيلة» ، و «بنو العدوية» من تميم نسبوا الى أمهم ، و «بنو طهية» من تميم أيضا ، نسبوا الى أمهم، ونسب «بنو مرة بن صعصعة» ، الى أمهم ، فعرفوا «ببنى سلول»(٥٠) .

هذا وكانت الام العربية ذات تأثير كبير فى أبنائها ، حتى أن هناك بعضا من مشاهير العرب ، انما غيروا دياناتهم بتأثير من أمهاتهم ، ومن ذلك مايذهب اليه بعض الباحثين من أن امرأ القيس ـ الشاعر المشهور ـ انما كان نصرانيا(٥١) ، بتأثير من أمه فاطمة أخت المهلهل بن ربيعة، التى

---

(٤٨) ابن الاثير ٦٥٥/١ ، وفاء الوفاء ١٢٤/١ ، اللسان ١٨/٤ ، تاج العروس ١٠٣/٤ ، العقد الفريد ١٦/٣ ، ١٥٩ ، ابن هشام ٣٤٧/٢، نهاية الارب للقلقشندى ص ٥٤٢ـ٥٥٣ ، ٩٣ـ٩٤ ، دائرة المعارف الاسلامية ١٥٠/٣ ، الاشتقاق ٤٣٥/٢ـ٤٣٧ ، ياقوت ٤٠٣/٣ ، ٨٥/٥ ، جمهـرة انساب العرب ص ٣٣٢ ، المعارف ص ٤٩ ، المقدسى ١٢٠/٤ـ١٢١ .

(٤٩) اللسان ٥٨٠/١١ ، جمهرة أنساب العرب ص ٣٣٢ ، المعارف ص ٤٩ ، ياقوت ٨٥/٥ ، وفاء الوفاء ١٢٤/١ ، نهاية الارب ص ٤٠٤ ، التنبيه والاشراف ص ١٧٤ ، جواد على ١٣٣/٤ .

(٥٠) الحوفى : المرجع السابق ص ٦٧ ، وانظر : الاغانى ١٢/١ ، المعارف ص ٢٦ ، ٢٩ ، منتخبات من أخبار اليمن ص ٥ ، شرح الحماسة للتبريزى ١٩٣/٢، الشعر والشعراء ٢٤٨/٢ .

(٥١) هناك آراء أخرى يذهب بعضها الى أنه كان وثنيا ، ويذهب البعض الاخر الى انه قد اعتنق المزدكية (انظر : رئيف خـورى : امـرؤ القيس ص ٣٧ـ٣٨ ، ايليا حاوى : امرؤ القيس ص ٢٧ـ٢٨) .

كانت تعتنق النصرانية[٥٢] ؛ هذا ويذهب «الاب لويس شيخو» الى أن «عمرا بن هند» انما كان كذلك نصرانيا — كما أشرنا من قبل — معتمدا فى ذلك على أن أمه «هند» كانت قد اعتنقت النصرانية ، ثم جذبت ولدها الى اعتناقها كذلك[٥٣] .

د) مكانة الزوجة عند العرب :

كانت الزوجة العربية تحتل مكانة هامة عند زوجها ، اذ كان الرجل ينظر الى زوجه على أنها شريك فى الحياة ، جدير بالرعاية والحب والاعزاز ، ومن هنا رأينا بعض الشعراء يتغزلون فى زوجاتهم — كما فعل زهير بن أبى سلمى ، حيث يبدأ معلقته المشهورة بالغزل فى زوجته «أم أوفى» .

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم[٥٤]

وكما فعل امرؤ القيس حيث تغزل فى زوجته «أم جندب» :

خليلى مرا بنا على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب[٥٥]

والامر كذلك بالنسبة الى حسان بن ثابت الذى تغزل فى زوجته «الشعثاء»[٥٦] .

وكان الزوج غالبا ما يبدى حبه وتقديره لزوجته ؛ بأن يناديها بألقاب التكريم ، أو باسمها مجردا ، اشعارا بالالفة وقرب النفس الى النفس ، وربما ناداها باسمها مصغرا تدليلا وايناسا ، أو قد يناديها باسم ابنها

---

(٥٢) لويس شيخو : شعراء النصرانية ٣٨/١ـ٣٩ ، محمد صالح سمك : أمير الشعراء فى العصر القديم ص ١١٢ ـ ١١٤ ، ايليا حاوى : امرؤ القيس ص ٢٤ ـ ٣٣ .
(٥٣) لويس شيخو : المرجع السابق ص ٩١ ، جرجى زيدان : المرجع السابق ص ٢٢٣ .
(٥٤) الحوفى : المرجع السابق ص ١٥٩ ،شرح القصائد العشر ص١٠٣
(٥٥) ديوان امرىء القيس ص ٣١ ، قارن : ايليا حاوى : امرؤ القيس ص ٣٩ ـ ٤١ .
(٥٦) الاصابة ١٢٠/٨ ، الحوفى : المرجع السابق ص ١٥٩ .

اعزازا لها ومسرة[٥٧] .

وكان من سمات الرجولة عندهم أن يحسن الرجل عشرة زوجته ، ومن ثم فقد خايل بعضهم ــ كذى الاصبع العدوانى ــ بأنه لا يسىء عشرتها ، كما أنه على الرغم من شهرة التميمات بالذل وصعوبة المراس، كن حظيات عند أزواجهن ، ينعمن بدماثة أخلاقهم[٥٨] .

وبدهى أن الرجال ليسوا جميعا على نسق واحد فى معاملة الزوجات، ومن ثم فاننا لن نستطيع القول أن العرب انما كانوا جميعا يحسنون معاملة النساء ، لان هذا كان ــ ومايزال وسيظل ــ مغايرا للطبيعة البشرية ؛ غير أن هذا لا يمنعنا من القول أن بعضا من كبار رجالات العرب انما كانوا يسمعون مشورة زوجاتهم ، وقد رأينا من قبل قصصا لنساء مع أزواجهن ، تشير الى أن الرجل انما كان ينظر الى مشورة امرأته بعين الاعتبار ، ومن ذلك قصة «بهيسة بنت أوس» مع زوجها «الحارث بن عوف» وكيف كانت مشورتها سببا فى الصلح بين عبس وذبيان ، ذلك أن الحارث بعد أن زفت اليه «بهيسة» أراد أن يهم بها ، فقالت له : «لقد ذكرت لى من الشرف ما لا أراه فيك» ، قال : فكيف يكون ؟ فقالت : أتفرغ لنكاح النساء ، والعرب تتقاتل ، أخرج الى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ، ثم أرجع الى أهلك ، فلن تفوتك» .

وهكذا كتب للحارث،بفضل مشورة امرأته ــ وكذا لهرم بن سنان ــ نجحا بعيد المدى فى اصلاح ما بين المتقاتلين ، وحمل الرجلان العظيمان ــ الحارث وهرم ــ دياتهم ، وكانت ثلاثة آلاف بعير ، فى ثلاث سنين، فانصرفا بأجمل الذكر ، وشاد بهما زهير بن أبى سلمى ، ثم رجع الحارث الى «بهيسة» ، فدخل بها ، فولدت له بنين وبنات[٥٩] .

---

(٥٧) انظر امثلة : شعراء النصرانية ١٣٣/١ ، الاغانى ١٤٤/١٢، ٢١٣/١٨ ، شرح الحماسة للتبريزى ١٠٠/٤ ، جمهرة أشعار العرب ص ٢١٤ ، الحوفى : المرجع السابق ص ١٦٠ ــ ١٦١ .

(٥٨) الحوفى : المرجع السابق ص ١٦٥ ، الاغانى ٩٧/٣، ٥١/١٠ .

(٥٩) أعلام النساء ١٣٢/١ ، الاغانى ١٤٢/٩ ، المستطرف ٢٢٢/٢ .

هذا وقد كانت المرأة ربما تخالف زوجها فى أهم الامور وأخطرها ، بل وقد تثير القوم ضده ، ولا ينالها منه مكروه — ربما تقديرا لظروفها، وربما حبا لها — ذلك أن أبا سفيان بن حرب ، قدم عشية فتح مكة ، بعد أن أسلم ، فصاح فى الناس : «يا معشر قريش : ألا انى قد أسلمت فأسلموا ، فان محمدا قد أتاكم بما لا قبل لكم به» ، فأخذت زوجته «هند بنت عتبة» رأسه وقالت : «بئس طليعة القوم أنت ، والله ماخدشت خدشا ، يا أهل مكة : عليكم الحميت الدسم فاقتلوه» ؛ فما كان من أبى سفيان الا أن قال — بعد أن تخلص من مخلب زوجته — « ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فانه قد جاءكم بما لا قبل لكم به»(٦٠) .

هـ) مكانة البنت عند العرب :

رغم ما اشتهر عن العرب من وأد البنات ، فان البنت انما كانت — فى أغلب الاحايين — حبيبة الى قلب الرجل — كما كانت الام والزوجة — ومن ثم فقد رأينا كثيرا من الآباء يحبون بناتهم ويعزونهن ويحدبون عليهن ، ومن ذلك ما يروى عن عتبة من أنه قال لابن أخيه عثمان بن عنبسة ، وقد خطب اليه ابنته ، «مرحبا يا ابن لم ألده ، أقرب قريب خطب الى أحب حبيب ... قد زوجتكها ، وهى ألوط بقلبى ، فأكرمها يعذب على لسانى ذكرك ، ولا تهنها فيصغر عندى قدرك»(٦١) ، ومن ذلك قول «عامر بن الظرب» لصعصعة بن معاوية ، لما خطب اليه ابنته «عميرة» : «انك أتيتنى تشترى منى كبدى ، وأرحم ولدى عندى ، والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح أب بعد أب»(٦٢) .

هذا وقد بلغت مكانة البنت عند أبيها أن يستشيرها فى زواجها — كما رأينا من قبل — بل ويستشيرها فى أموره الخاصة — كما فعل لقيط بن

---

(٦٠) ايتين دينيه : المرجع السابق ص ٣٠٢ ، دراسة فى السيرة ص ٢٤٦ ، أعلام النساء ٦٤٦/٥ .

(٦١) الحوفى : المرجع السابق ص ٢٢٣ ، محاضرات الادباء ١٢٣/٢ .

(٦٢) العقد الفريد ٤١٠/٣ ، مجمع الامثال ٢٨٦/١ .

زرارة مع ابنة داختنوس ، وكما كانت تفعل عمرة مع أبيها عامر بن الظرب ، عندما كانت تقرع له العصا ، اذا سها فى الحكم[٦٣] .

هذا وهناك ما يشير الى أن المرأة العربية وصلت مكانتها عند أهلها، أن تتدخل فى الصلح بين أبيها وجدها ، ذلك أن «الجمانة بنت قيس بن زهير العبسى» — وكانت ذات رأى ثاقب ولسان مبين — قالت لابيها لما تنازع مع عمه «الربيع بن زياد العبسى» فى درع لقيس اغتصبها الربيع : «دعنى أناظر جدى ، فان صلح الامر بينكما ، والا كنت من وراء رأيك» ، فاذن لها أبوها بذلك ، ونجحت «الجمانة» فى التوفيق بين أبيها وجدها ، وان عاد الشقاق بينهما لأمور أخرى[٦٤] .

وليس أدل على مكانة المرأة عند أبيها من أن تقدم على اجارة الرجال، فيجيز أبوها اجارتها ، من ذلك «جماعة بنت عوف الشيبانى» ، التى أجارت «مروان بن زنباع العبسى» — كما أشرنا من قبل — فأجاز أبوها اجارتها[٦٥] ، وكذلك فعلت فكيهة بنت قتاد مع السليك[٦٦] ، الامر الذى تحدثنا عنه آنفا .

وقد بقى ذلك الامر الى الاسلام ، لان فيه تكريما للبنت ، واعزازا لها ، من ذلك أن «أبا العاص بن الربيع» — ابن هالة بنت خويلد ، أخت خديجة رضى الله عنها — كان قد تزوج قبل البعثة النبوية الشريفة من السيدة زينب — بنت رسول الله ﷺ — ولما جاء الاسلام ثبت أبوالعاص على شركه ، ثم أسر فى غزوة بدر ، وبعثت زينب بقلادة كانت خديجة قد أدخلتها بها على أبى العاص ، فلما رآها رسول الله — ﷺ — رق قلبه ، وقال : «ان رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى

---

(٦٣) الاغانى ٣/٥ ، ابن الاثير ٢١٢/١ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٢٧ .
(٦٤) اعلام النساء ١٦٩/١ ، بلاغات النساء لابن طيفور ص ١٢٥ ، الاغانى ٢٨/١٦ ، شعراء النصرانية ص ٩٢١ .
(٦٥) اخبار النساء لابن القيم ص ٦٥ ، المحبر لابن حبيب ص٤٣٢ ، الحوفى : المرجع السابق ص ٢٢٧–٢٢٨ .
(٦٦) الاغانى ١٣٧/١٨ ، المحبر ص ٤٣٣–٤٣٤ .

لها فافعلوا» ، وهكذا أطلق سراح أبى العاص بوعد منه أن يرد زينب الى رسول الله — ﷺ — لان الاسلام قد فرق بينهما ، وقــد أنفذ أبو العاص وعده ، وعادت زينب — رضى الله عنها — الى المدينة •

وبقى أبو العاص بمكة فترة ، ثم خرج تاجرا الى الشام بمال له ، وأموال رجال من قريش أبضعوها معه ، غير أن سرية لقيته ابان عودته فأصابت ما معه ، وان فر هو ، واستطاع تحت جنح الظلام أن يدخل المدينة ، وأن يستجير بزينب التى أجارته فى طلب ماله ، فلما خرج رسول الله — ﷺ — الى صلاة الصبح ، فكبر وكبر الناس معه ، صرخت زينب من صفة النساء : «أيها الناس انى قد أجرت أبا العاص بن الربيع» ، فلما سلم رسول الله ، ﷺ ، من الصلاة ، أقبل على الناس ، فقــال : «أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟ قالوا نعم ، قال : أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء كان حتى سمعت منه ما سمعتم ، انه يجير على المسلمين أدناهم» ثم انصرف رسول الله ﷺ ، فدخل على ابنته ، فقال : «أى بنية أكرمى مثواه ، ولا يخلص اليك ، فانك لا تحلين له ، مادام مشركا»•

ورجع أبو العاص الى مكة ، فأدى الى كل ذى حق حقه ، ثم أسلم ورجع الى النبى ، ﷺ ، مسلما مهاجرا ، فى المحرم من الســنة السابعة للهجرة ، فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بذلك النكاح الاول على رأى ، وبنكاح جديد على رأى آخر (٦٧) •

وهناك قصة أخرى — على أيام المصطفى ﷺ ، كذلك — أجــارت فيها ابنة عمه «أم هانىء بنت أبى طالب» رجلين من أحمائها ، فأجارهما النبى ، ﷺ (٦٨) •

---

(٦٧) تاريخ الطبرى ٢/٤٦٧-٤٧٢ (دار المعارف — القاهرة١٩٦٨) ، ٣/٢١ (دار المعارف) ، الاصابة ٨/٩٢ ، شرح نهج البــلاغة ٣/٣٤٠ ، ابن هشام ٢/٢٩٧ ، ٣٠٤ ، اعلام النساء ٢/١٠٧-١٦٠ •

(٦٨) سيرة ابن هشام ٤/٣٠،احمد الحوفى : المرجع السابق ص٢٢٨•

و) مكانة الاخت عند العـرب :

كانت الاخت عزيزة على أخيها ، يحبها ويدافع عنها ، ويشاركها ماله، ومن ذلك ما حدثتنا عنه «الخنساء» قائلة : زوجنى أبى رجـلا مبذرا ، فأذهب ماله ، فأتيت الى صخر فقسم ماله شطرين ، فأعطانى خيرهما ، ثم ضيع زوجى ماله مرة أخرى ، فقسم ماله شطرين ، فأعطانى خيرهما، فلما كانت المرة الثالثة ، قالت امرأته :أما ترضى أن تعطيها النصف حتى تعطيها الخيار : قال :

والله لا أمنحهـا شرارهـا وهى حصـان قـد كفتنى عارها
وان هلـكت خـرقت خمارهـا واتخـذ من شعرهـا صدارهـا

ولعـل من أوضح الامثلة أن يستتبع اعـزاز الرجل لأخته اعزازه لأبنائها ، حتى أنهم انما كانوا يعدونه واحدا من العشيرة ، ويروى أن النبى — ﷺ — دعا الانصار يوما فقال : هل فيكم أحـد من غيركم ؟ قالوا : لا ، الا ابن أخت لنا ، فقال رسول الله — ﷺ — «ابن أخت القوم منهم»(٦٩) .

ولعل هذا كله انما دفع بالعربيات أن يعتبرن الاخ أعز على المـرأة من الزوج ، حتى أن «الزهراء بنت وائل» لم تطـق أن ينتقص زوجها «لبيد بن عنبـة الغسانى» من قدر أخيها «كليب» ، فقـالت له فى عزة وغضب : «لا أعلم فى العرب ذا لبدة أشد من كليب» ، فهاج لبيد ولطمها، فقالت : أنا أكرم منك ، وذهبت مغضبة الى أخيها(٧٠) .

على أن الامر ليس كذلك فى كل الاحوال ، فلقد رأينا «حمنـة بنت جحش» قد نعى اليها أخوها عبد الله بن جحش ، فاسترجعت واستغفرت

---

(٦٩) الحوفى : المرجع السابق ص ٢٥٠ ، الاصابة ٦٨/٨ ، المحاسن والاضـداد ص ١٤٣ .
(٧٠) احمد الحوفى : المرجع السابق ص ١٥٣ ، اخبار بكر وتغلب ص ١٥ .

له ، ثم نعى اليها خالها حمزة بن عبد المطلب ، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى اليها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت ، فقــال رسول الله ﷺ : «ان زوج المرأة منها لبمكان» ، لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها ، وصياحها على زوجها(٧١) .

(٧١) تاريخ الطبرى ٥٣٢/٢ ، السيرة الحلبية ٥٤٥/٢ .

الفصل الثانى

المجتمع العربى القديم

١ ـ مكانة العــرب :

من الامور العجيبة أن المؤرخين الاسلاميين ، انما كانوا ينظرون الى العصور القريبة من الاسلام ، أو بالاحرى الى عصر ما قبل الاسلام ، على أنه عصر همجية وافلاس حضارى ، وتدهور أخلاقى ، وانحطاط فى مجال السياسة والاقتصاد والدين ، فالعــرب القدامى فى نظر الرواة والمؤرخين الاسلاميين ، أمة جاهلة ظالمة ، ليس فيها وزن للاخلاق ، ولا تقدير للقيم ، تثيرهم الشهوات والنزعات الحيوانية ، فاذا الاعراض مباحة ، واذا الحمية مفقودة ، حتى يصل الامر بالرجل منهم أن يرسل زوجته الى فتى من فتيانهم لتحمل منه وتنجب فتى على غرار هذا الفتى، ثم يقودهم السعار والجشع ليغير بعضهم على بعض ، ويفترس القوى منهم الضعيف ، ثم تشن الحروب الحاصدة بين القبائل فلا تبقى ولا تذر، ويقتل الرجل أولاده خشية الفقر ، ويئد بناته خوفا من العار .

وهكذا شوه هؤلاء المؤرخون تاريخ عصر ما قبل الاسلام فى قسوة ظاهرة ، ربما كان السبب فى ذلك دوافع عنصرية ، رأى أصحابها أن الحط من شأن العــرب ، يرفع من شأن أقــوامهم ، ويشفى من حقد أنفسهم ، وهكذا امتلأت كتب التاريخ بقبائح العصر الجاهلى[1] ، دون أن يذكروا شيئا عن محاسنهم ، وكأن الله تعالى ، قد حرم العرب ، دون سواهم من العالمين ، من أية خلة طيبة أو صفة كريمة .

وربما كان السبب كذلك هو الرغبة فى تمجيد الاسلام ورفع شأنه ،

---

(١) انظر عن معنى الجـاهلية والعصر الجاهلى (محمد بيـومى مهران : تاريخ العرب القديم ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ١٩ ـ ٢٢) .

ولكن أصحاب هذا الاتجاه - وهم حسنوا النية دون شك - قد أخطأوا الطريق ، وأتاحوا للمغرضين من المستشرقين وغيرهم من أعداء العروبة والاسلام ، فرصة الطعن فى الاسلام ، واتهامه بما هو براء منه ، ناسين أن هذا الدين العظيم انما جاء ليحطم البداوة والاتجاهات الفردية ، وليقضى على العصبية المذمومة ، وليحل محلها رابطة الدين والعقيدة ، وناسين كذلك أنه اذا ثبت سفاهة العنصر العربى وسجلت على العرب الغفلة والبلاهة والسفاهة ، فقد حطوا من شأن الاسلام كله ، وأدركتهم الغفلة عن حكمة اختيار الله تعالى لأمة العرب لتكون خير أمة أخرجت للناس ، وغاب عنهم تشريف العالم كله باصطفاء سيد الانبياء والمرسلين، ورحمة الله للعالمين ، سيدنا ومولانا محمد ﷺ ، من هؤلاء العرب .

وناسين كذلك أن العــرب قبل الاسلام بقرون وقــرون كانت لهم حضارة ربما لا تقل ، فى بعض النواحى ، عن حضارة معاصريهم من الامم ، فضلا عن أن الهجرات التى تدفقت من بلاد العرب فى موجات متتابعة تشق طريقها الى الاراضى الخصبة فى مصر والشام والعراق ، انما كانت تحمل معها حضارة عربية متميزة ، وعلى سبيل المثال ، وليس الحصر ، تلك الموجة التى خرجت من بلاد العرب فى بداية الالف الثالثة قبل الميلاد : والتى استطاع أصحابها على أيام العاهل الاكدى «سرجون الاول» (٢٣٧٠ – ٢٣١٥ ق٠م) من أن يقيموا دولة اتسعت فتوحاتها حتى وصلت الى آسيا الصغرى ، وبدهى أنهم لن يستطيعوا أن يفرضوا أنفسهم على شعب ذى حضارة كالسومريين ، الا اذا كانوا قد وصلوا الى درجة من التقدم تجعلهم يعرفون كيف يستفيدون من غيرهم،وتصبح لهم السيطرة على البلاد ، وأن تظل لغتهم الاصلية وكثير من مظــاهر ثقافتهم ، ملازمة لهم قرونا طويلة(٢) .

وأخيرا فان ظهور الاسلام ــ وهو الدين العالمى ــ فى مهد العرب،

---

(٢) انظر : (محمد بيومى مهران : العــرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة ــ الرياض ١٩٧٦ ص ٢٩٧ ــ ٤٣٧) .

انما هو دليل على ما لأهل شبه الجزيرة العربية من عراقة ، وقدرة على حمل الرسالة الخاتمة ، ومتابعة نشرها فى أرجاء الدنيا قاطبة .

وهنا لعل الذين يكيلون التهم جزافا للعرب ، وتاريخهم فيما قبل الاسلام ، يتذكرون أن الاسلام فى حقيقته ، ليس دعوة سماوية جاءت للعرب خاصة ، وانما هو دعوة للناس عامة(٣) ، وأن اختيار العرب لحمل هذه الدعوة العالمية للناس جميعا لم يكن عبثا ، وانما كان لأن القوم الذين يحملون الدعوة العالمية ، لابد وأن تتوفر فيهم صفات تناسب هذه المهمة الضخمة فى الصبر والتحمل والمخاطرة والشجاعة ، واحترام العهود والنجدة والمروءة ، وحب الحرية وتعشق الشرف والسؤدد ، والتمرس على التنقل وتعود الهجرات وعدم التبرم بحياة التقشف ورقة العيش ، والتطلع الى النهوض اذا يسرت سبله ، الى غير ذلك من المؤهلات الخلقية العظيمة(٤) .

والعربى فى هذه الناحية فارس الحلبة : لا يبارى فى هذه الصفات التى تتطلبها الحياة المستقبلية ، فمثلا فى احترام العهود والوفاء،مارأيناه فى حادث الهجرة الشريفة (عام ٦٢٢م) من أن «عبد الله بن أرقط» الذى اختاره سيدنا رسول الله ، ﷺ ، وصاحبه الصديق ، رضوان الله عليه، دليلا لهما فى رحلتهما من مكة المكرمة الى المدينة المنورة ، انما كان مشركا، فأمناه ودفعا اليه براحلتيهما ، وواعداه غار «ثور»(٥) بعد ثلاث ليال ، ووفى عبد الله ، وصحب النبى ، ﷺ ، وصاحبه حتى أبلغهما مأمنهما فى المدينة ، وفى نفس الوقت كان عبد الله على علم بما أعلنته قريش من

---

(٣) انظر عن عالمية الدعوة المحمدية : سورة النساء : آية ٧٩،سورة الاعراف : آية ١٥٨ ، سورة ابراهيم : آية ١ ، ٥٢ ، سورة الانبياء : آية ١٠٧ ، سورة الحج : آية ٤٩ ، سورة الفرقان : آية ١ ، سورة الاحزاب : آية ٤٠ ، سورة سبأ : آية ٢٨ ، سورة ص : آية ٨٧ .

(٤) عطية صقر : الدين العالمى ومنهج الدعوة اليه ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

(٥) غار ثور : حدده البعض خطأ بأنه أسفل مكة ، والواقع انه جنوب المسجد الحرام فى اتجاه اليمن ، ولكن الطريق اليه من المسفلة ثم من ريع كدى ، وهما أسفل مكة ، ويمكن الوصول اليه اليوم من أجياد ، حيث شق هناك «ريع بخش» .

جائزة كبيرة لمن يدلهم على النبى ، ﷺ ، وهى أكبر بكثير من الاجر الذى تقاضاه ، مما يحفزه على ابلاغ القوم بسر النبى ، ﷺ ، ولكن قيمة الوفاء التى توارثها العرب أسمى من ذلك بكثير ، فآثر الرجل،وهو مايزال مشركا ، الوفاء مع المال القليل ، على غدر يفتح له أبواب المال الكثير . ولهذا الخلق وأمثاله اصطفى الله هذه الامة العربية واجتباها نيكون النبى الخاتم منها(٦) .

هذا وتحدثنا الاخبار أن القرشيين كانوا ـ حفاظا على شرف نسبهم ورفعة حسبهم ـ يتجنبون ألوان الخساسة فى طلب الرزق ، فكانوا اذا استعصى على أحدهم الارتزاق من طرق شريفة ، آثر الموت جوعا على انحياة من طريق خسيسة ، وفى هذا المعنى يروى «أبو الحسين أحمد بن فارس» أن أحدهم كان اذا جاع جرى هو وعياله الى موضع معروف فضرب عليه وعلى عياله خباء حتى يموتوا ، ومازال أمرهم على ذلك حتى كان «عمرو بن عبد مناف» (وهو هاشم ـ الجد الثانى للنبىﷺ) سيد زمانه ، وكان له ابن يقال له «أسد» (وهو أبو فاطمة بنت أسد أم الامام على كرم الله وجهه) وكان لأسد هذا ترب من بنى مخزوم يحبه ويلعب معه ، وذات يوم قال له تربه : نحن غدا نعتفد(٧) ، وقال أبو الحسين فدخل أسد على أمه يبكى ، وذكر ما قاله تربه من بنى مخزوم ، فأرسلت أم أسد الى أولئك بشحم ودقيق عاشوا به أياما .

ثم ان ترب أسد أتاه مرة أخرى ، فقال له مثل ما كان قد قال ، وفعل أسد كما فعل ، فاشتد ذلك على «عمرو بن عبد مناف» فقام خطيبا فى قريش ـ وكان فيهم سيدا مطاعا ـ فقال : انكم أحدثتم حدسا تقلون فيه وتكثر العرب ، وأنتم أهل حرم الله ، جل وعز ، وأنتم أشرف ولد

---

(٦) ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ٣٠٨/٢ ـ ٣٠٩ ، تاريخ الطبرى ٣٧٨/٢ ـ ٣٧٩ ، ابن كثير : السيرة النبوية ص ١٤٨ ، الغزالى : فقه السيرة ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

(٧) الاعتفاد : هو ان يغلق الرجل بابه على نفسه ، فلا يسال أحدا حتى يموت جوعا ، وليس يعرف الناس صورة تسامى هذه الصورة أو تدانيها فى استرخاص الحياة ايثارا للترفع عن الدنايا من أجل الحرص على الحياة .

آدم ؛ والناس لكم تبع ، ويكاد هذا الاعتقاد أن يأتى عليكم . فقالوا له : نحن لك تبع ، فقال ، ابتدئوا بهذا الرجل فأغنوه عن الاعتقاد ــ يعنى أبا ترب أسد ــ ففعلوا ، ثم انه نحر البدن وذبح الكبائش والمعز ، ثم هشم الثريد وأطعم الناس،ومن أجل ذلك سمى «هاشما»[٨] وهو جد النبى ، ﷺ ، وفيه يقول الشاعر :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه قوم بمكة مسنتين عجاف[٩]

ومن ناحية أخرى ، فلقد أثبت التاريخ ما كان عليه أعظم الدول ــ قبل بعثة المصطفى ، ﷺ ، من أخلاق صبغها الترف بصبغته الرخوة الناعمة ؛ وأنس أهلها الى الذل والعبودية ، بعبادة ملوكها وتقديس عظمائها،وتسلطت عليهم الافكار والميول التى خلفها متنبؤهم وفلاسفتهم .

والمأثور من شعراء الجاهلية وأخبار الاولين : يفيض بصفات النبل التى كان يفخر بها العربى ويحرص عليها ، لانه يراها عنوان الشرف والكمال ؛ وعلى هذا الوجه يمكن أن نفهم قول سيدنا رسول الله ، ﷺ ، فيما يروى الطبرانى عن ابن عمر ، «ان الله اختار خلقه ، فاختار منهم آدم ، ثم اختار بنى آدم فاختار منهم العرب ، ثم اختارنى من العرب، فلم أزل خيارا فى خيار ، ألا من أحب العرب فبحبى أحبهم ؛ ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم»[١٠] .

---

(٨) انظر تفسيرات أخرى لتسمية جد النبى «عمرو بن عبد مناف» باسم «هاشم» (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤١٠ـ٤١١، وانظر : ابن هشام : سيرة النبى ١٣٥/١ ــ ١٣٦ ، تاريخ الطبرى ٢٥١/٢ـ ٢٥٢ ، البلاذرى : أنساب الاشراف ٥٨/١ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٤٣/١ـ٤٦ ، المقدسى : البدء والتاريخ ١٢٨/٤ـ١٢٩ ، ابن دريد : الاشتقاق ١٣/١) .

(٩) أحمد حسن الباقورى : مع القرآن ــ القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٠٦ ــ ٣٠٧ .

(١٠) رواه ايضا الترمذى مثله ، وقال حديث حسن ، كما وردت احاديث مشابهة أو مقاربة تبين فضل العرب الذين اختار الله منهم نبيه ﷺ ، وانظر مستدرك الصحيحين للحاكم ٧٣/٤ حيث روى بسنده عن عبد الله بن عمر قال : بينما نحن جلوس بفناء رسول الله ، ﷺ ، اذ مرت امرأة ، فقال رجل من القوم : هذه ابنة محمد ، ﷺ ، فقال أبو سفيان : ان مثل محمد فى بنى هاشم مثل الريحانة فى التبن ، فانطلقت المرأة فأخبرت النبى ﷺ ، فخرج النبى ﷺ ، يعرف الغضب فى وجهه ، فقال :
=

وروى الترمذى عن سلمان الفارسى أن رسو لالله ،ﷺ قـال : لا تبغضنى يا سلمان فتفارق دينك ، قلت يا رسول الله ، كيف أبغضك وبك هدانى الله ، قال : تبغض العرب فتبغضنى» ، وروى الطبرانى عن الامام على قال ، قال رسول الله ، ﷺ «لا يبغض العرب الا منافق » ، وقال ﷺ «أحبوا العرب لثلاث : لأنى عربى ، والقرآن عربى ، وكلام أهل الجنة فى الجنة عربى» ، وقال ﷺ «لن يقوم الاســـلام الا على سواعد العرب» ، ومن هنا كان العرب مادة الاسلام •

وهكذا فان الله تعالى لما اختار محمدا ، ﷺ ، لأكمل رسالاته وختامها من العـــرب عامة ، ومن قريش خـــاصة ، ومن بنى هاشم على الاخص ، اختار كذلك «العربية» لـكتابه الحكيم ، لانها أكمل اللغـــات وأغناها ، واختار أيضا لرسوله ، ﷺ ، أصدق الامم وأكرمها معدنا ، وأجمعها للصفات التي تكفل نجاح هذه الدعوة ، وتقوى بها على حمل هذه الامانة، فكانت بذلك خير أمة أخرجت للناس وصدق سيدنا رسول الله ، ﷺ ، فيما يروى البخارى ومسلم وأحمد والدرامى ، عن أبى هريرة «الناس معادن ، فخيارهم فى الجاهلية ، خيارهم فى الاسلام ، اذا فقهوا»[(١١)] ، وقد دعت الصحابة الى الاسلام بسيرتها وأخلاقها وتصرفاتها ، فتعرفت الامم الى الرسالة المحمدية ، بما رأت من ســـيرة الصحابة ، أكثر مما سمعته الآذان من بيانهم •

=

ما بال أقوال تبلغنى عن أقوام ، ان الله تبارك وتعالى خلق السماوات فاختار العليا ، فاسكنها من شاء من خلقه ، ثم خلق الخلق فاختار من الخلق بنى آدم ، واختار من بنى آدم العرب ، واختار من العرب مضرا ، واختار من مضر قريشا ، واختار من قريش بنى هاشم ، واختارنى من بنى هاشم ، فأنا من بنى هاشم ، من خيرر الى خيار ، فمن أحب العرب فبحبى أحبهم ، ومن أبغض العـــرب فببغضى أبغضهم (الســيد مرتضى الحسينى الفيروز أبادى : فضائل الخمسة من الصحاح الستة وغيرها من الكتب المعتبرة عند أهل السنة والجماعة ـ بيروت ١٩٧٣ ـ ص ٦ ـ ٧) ، وانظر : أبو نعيم الاصبهانى : دلائل النبوة ـ مكة المكرمة ١٩٧٧ ص٢٥ـ٢٦

(١١) انظر روايات مختلفة للحديث الشريف فى : صحيح البخـارى ٩٥/٦ (دار الحديث) ، صحيح مسلم ٧٨/١٦ـ٧٩ (بيروت ١٩٨١) ، مسند الامام أحمد ٢٦٠/٢ ، ٣٨٣/٣ ، فضائل الصحـــابة ٨٣١/٢ـ٨٣٢ (مكة المكرمة ١٩٨٣) ، سنن الدرامى ٧٣/١ •

هذا والعربى يمتاز بصفات العقل ، وتوقد القريحة . وقـوة الحجة والفصاحة والبيان ، والاستنتاج والاستدلال ، وهى أمور لابد منها لنشر الدين العالمى الذى يتطلب شرحا وتفصيلا ، وتفسيرا وجدلا ونقاشا ، وقد كان سيدنا رسول الله ، ﷺ ، يشعر بأن فى قومه عقليات جبارة ، وقوة فكرية نادرة ، وكان يدعو الله أن يهدى هذه العقليات الى الاسلام، ليعتمد عليها ، بعون الله ، فى نشر دعوته ، ومن ذلك دعاؤه «اللهم أعز الاسلام بأحب الرجلين اليك،عمر بن الخطاب أو أبى جهل بن هشام»(١٢) .

ثم هناك نزول الوحى على النبى ، ﷺ ، باللسان العربى ، لما له من قدرة على التعبير عن الرسالة العامة ، ذلك لان اللغة العربية ـ كما يقول المستشرق اربرى ـ عبقرية التركيب ، صلدة البناء ، ورقيقة الاحساس فى نفس الوقت ، بل انه ليس من أدب غربى يستطيع ، بحال من الاحوال، أن يعدل العربية فى ميادين النحو والبلاغة وتدوين المعجم ، وكل فروع الدراسة اللغوية ، هذا فضلا عن أن اللغة العربية ـ كما يقـول محب الدين الخطيب ـ امتازت بانها أرقى على الاطلاق من كل لغة أخرى للبشر فى طورهم البدوى ، وكل رقى لأية لغة أخرى ، غير العربية ، انما هو من أثر الحضارة واتساعها الحادث فى الصناعات والعمران والفنون والثروة ، والعرب ، لما استفحل ملكهم وصارت لهم جيوش واصطلاحات عسكرية وادارية وفلسفية وعلمية وصناعية ، بعد الاسـلام ، أبى علماؤهم أن يقحموا على معاجمهم وأصـل لغتهم هـذه الاصطلاحات الطارئة ، فألفوا كتبا مستقلة لهذه الاصطلاحات ، وبقيت معاجم اللغة تمثل أصل اللغة بشواهدها من شعر العرب وحكمهم وأمثالهم فى أيام بدواتهم ، فهى برهان حسى قائم أمام الانظار على ما امتازت به العربية بين جميع اللغات التى نطق بها البشر .

ولما كانت اللغة هى المقياس للكمال العقلى ، اذا كملت ، ودليـل النضوج الفكرى ، اذا نضجت ، فقد صار من الحق أن نقول : ان العقلية

(١٢) أنظر روايات مختلفة للدعاء الشريف (سـيرة ابن هشام ١/ ١٢ ، السيرة الحلبية ١٤/٢ ، ابن كثير : السـيرة النبوية ٣٤/٢ـ٣٥ ، أبو شهبة : السيرة النبوية ٣٦٧/١ .

العربية التى عبرت عن نفسها بتلك اللغة الناضجة ، انما كانت قد بلغت حدا أعلى من النضوج العقــلى والكمال الفكرى ، والطــاقة البشرية المستعدة للنمو ، والقيام بمهمة انسانية كبرى ، وعلى هذا الوجة يمكن أن نفهم : لماذا كانت معجزة الاسلام الكبرى هى القرآن الكريم ، فاذا كانت معجزة موسى عليه الســـلام ، من نوع السحــر الذى برع فيه المصريون ، فمن نفس المنطق ، وعلى نفس الدرب ، كان القرآن الكريم معجزة سيدنا ومولانا محمد رسول الله ، ﷺ ، يوم طالع الرسول العرب وهم ماهم بيانا وفصاحة ، يستوى فى ذلك رجالهم ونسـؤهم ، وما أمر أسواق العرب التى كانوا يعرضون فيها بضاعة الكلام ، وصناعة الشعر والخطابة ، بخاف على متادب[١٣] .

ثم أليس فى بلاد العرب ، وفى مكة بالذات ، بيت الله الحرام ، أول بيت وضـــع للناس فى الارض[١٤] ، بناه جدا العرب ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ليكون رمزا للحقيقة الكبرى فى الوجود ، حقيقة التوحيد، توحيد التوجه الى الله تعالى ، وقد خلد القرآن الكريم بناء الكعبة البيت الحرام فى قــوله تعالى «ان أول بيت وضع للنــاس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا»[١٥] .

ولعل مما يلفت النظر كلمة «الناس» فى الآية الكريمة ، فانها تدل على أن الحج الى البيت الحرام فى البلد الحرام انما كان على الناس

---

(١٣) ابراهيم الابيارى : تاريخ القرآن ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٤٤ـ٤٥ .

(١٤) هناك رواية تنسب للامام على ، كرم الله وجهـــه فى الجنة ، مؤداها أن رجلا ساله : أهو أول بيت ، فقال : لا ، قد كان قبــله بيوت ، ولكنه أول بيت وضع للناس كافة ، مباركا ، فيه الهدى والرحمة والبركة، وأول من بناه ابراهيم (تفسير الكشاف ٤٤٦/١ ، تفسير الطبرى ٦٩/٣ ، ١٩/٧ ، قارن ٢٠/٧ ، ٢٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٩/٢) .

(١٥) سورة آل عمران : اية ٩٦ ـ ٩٧ ، وانظر : تفسير المنار ٣/٤ـ١٠ ، فى ظلال القرآن ٤٣٤/١ـ٤٣٦ ، صفوة التفاسير ٢١٨/١ـ٢١٩ ، تفسير الكشاف ٢٩٦/١ـ٢٩٧ ، تفسير القرطبى ١٣٧٩ـ١٣٩٦ ، تفســير النسفى ١٧٠/١ـ١٧١ ، تفسير ابن كثير ٥٧٢/١ـ٥٧٨ ، تفسير الطبرى ١٩/٧ـ٥٢ .

كافة ، كما تدل كلمة «العالمين» على أن البيت الحرام فى مكة المكرمة ، انما هو هداية للبشرية جمعاء .

ثم نرى ابراهيم يتضرع الى ربه ، بأن يجعل الله أفئدة من الناس تهوى الى ذريته ، فى جوار هذا البيت الحرام[16] «ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون»[18] .

ثم يخص الخليل عليه السلام ذريته من بنى اسماعيل ، جيران الحرم ، بدعوتين كريمتين ، توجه بهما الى ربه ، الواحدة «رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات»[19] ، والاخرى «ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم»[20] .

وقد استجاب الله لابراهيم ، فجعل البيت مثابة للناس وأمنا ، ثم انبعث فى ذريته سيدنا ومولانا محمد رسول الله ، ﷺ . وكانت «قريش» وهى القبيلة التى ولد فيها سيدنا ومولانا محمد رسول الله ، ﷺ ، وانبعث منها محمد ، ﷺ ، وكان اختيار هذا النبى ، على سنة

---

(١٦) محمد الصادق عرجون : محمد ﷺ من نبعته الى بعثته ـ القاهرة ١٩٦٩ ص ١٧ .

(١٧) يروى ابن عباس وغيره أن الله سبحانه وتعالى ، لو قال «أفئدة الناس» ولم يقل «أفئدة من الناس» لازدحم عليهم الفرس والروم والناس كلهم ، ولحجت اليهود والنصارى والمجوس ، ولكنه قال «من الناس» فاختص به المسلمون (تفسير ابن كثير ١٤٢/٤ ، تفسير روح المعانى ٢٣٨/١٣ـ٢٣٩ ،تفسير البيضاوى ٥٢٣/١ ، تفسير الطبرى ٢٣٣/١٣ـ٢٣٤ تفسير الفخر الرازى ١٣٧/١٩ ، تفسير القرطبى ٣٧٣/٩ ، تفسير النسفى ٢٦٤/٢) .

(١٨) سورة ابراهيم : آية ٣٧ .

(١٩) سورة البقرة : آية ١٢٦ ، وانظر : تفسير المنار ٣٨٣/١ـ٣٨٦، تفسير ابن كثير ٢٥٧/١ـ٢٦١ ، تفسير الطبرى ٤٤/٣ـ٥٦ ، تفسير الكشاف ١٨٦/١ ، تفسير القرطبى ص ٥٠٢ ــ ٥٠٥ .

(٢٠) سورة البقرة : آية ١٢٩ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٢٧٤/١ ــ ٢٧٥ ، تفسير المنار ٣٨٨/١ـ٣٨٩ ، تفسير القرطبى ص ٥١٦ـ٥١٧ ، تفسير الطبرى ٨٢/٣ـ٨٨ ، تفسير الكشاف ١٨٦/١ـ١٨٩ .

الله فى اصطفائه رسله وأنبياءه ؛ من أكرم البيوت وأشرف الظهور ، وأطهر البطون ، وأبعدها عن الدنايا ، وألصقها بمكارم الاخلاق[21] ؛ على ما يقول الله تعالى «ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم»[22] ؛ وعلى ما يقول جل شأنه «الله أعلم حيث يجعل رسالته»[23] .

وقد بين رسول الله ، ﷺ ، هذا المعنى الشريف بقوله الشريف «ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم ، فانا خيار من خيار من خيار»[24] .

وروى الامام السيوطى فى «الخصائص الكبرى» : اخرج ابن سعد

---

(٢١) احمد حسن الباقورى : مع القرآن ص ٣٠٩ — ٣١٠ .

(٢٢) سورة آل عمران : اية ٣٣—٣٤ ، وانظر : تفسير الطبرى ٣٢٦/٦—٣٢٨ ، تفسير روح المعانى ١٣٠/٣—١٣٢ ، تفسير الكشاف ١/ ٣٥٤—٣٥٥ ، تفسير الطبرسى ٦١/٣—٦٢ ، تفسير ابن كثير ٥٣٧/١ .

(٢٣) سورة الانعام : اية ١٢٤ ، وانظر : تفسير الطبرى ٩٥/١٢—٩٦ ، تفسير المنار ٣٢/٨—٣٥ ، تفسير الكشاف ٤٨/٢—٤٩ ، تفسير ابى السعود ٢٨٠/٢ ، تفسير روح المعانى ٢١/٨—٢٣ ، تفسير الفخر الرازى ١٧٥/١٣—١٧٦ ، تفسير الطبرسى ١٨٥/٧—١٨٨ ، تفسير القرطبى ص ٢٥١٥ — ٢٥١٦ ، صفوة التفاسير ٤١٦/١ ، فى ظلال القرآن ١٢٠٢/٣ — ١٢٠٣ ، تفسير النسفى ٢٣/٢ ، تفسير البحر المحيط ٢١٦/٤—٢١٧ .

(٢٤) صحيح مسلم ، ورواه الترمذى ٢٩٢/٤ ، القسطلانى : المواهب الدينية ١٣/١ ، ابن كثير : السيرة النبوية ١٩١/١ ، عبد الحليم محمود : دلائل النبوة ومعجزات الرسول ص ٦٨ ، ابو شهبة : السيرة النبوية ١٨٩/١ ، أحمد حسن الباقورى : مع القرآن ص ٣١ ، ٣٠٧ ، عطية صقر : الدين العالمى ص ١٤٠ ، ورواه المحب الطبرى فى «ذخائر العقبى ومناقب ذوى القربى» (ص ١٠) عن واثلة بن الاسقع قال قال رسول الله ، ﷺ ، «ان الله اصطفى من ولد آدم ابراهيم واتخذه خليلا ، واصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل ، ثم اصطفى من ولد اسماعيل نزارا ، ثم اصطفى من ولد نزار مضرا ، ثم اصطفى من مضر كنانة ، ثم اصطفى من كنانة قريشا ، ثم اصطفى من قريش بنى هاشم ، ثم اصطفى من بنى هاشم عبد المطلب ، ثم اصطفانى من عبد المطلب» ثم قال : اخرجه بهذا السياق أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمى ، وأخرجه مسلم والترمذى وأبو حاتم مختصرا (انظر : الفيروز أبادى : فضائل الخمسة ص ٧) .

من طريق الثعلبى عن ابن عباس أن النبى ، ﷺ ، قال : خير العرب مضر ، وخير مضر بنو عبد مناف ، وخير بنى عبد مناف بنو هاشم ، وخير بنى هاشم بنو عبد المطلب ، والله ما افترق فرقتان منذ خلق الله آدم ، الا كنت فى خيرهما» .

وأخرج البيهقى والطبرانى وأبو نعيم عن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : ان الله خلق الخلق فاختار من الخلق بنى آدم ، واختار من بنى آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشا ، واختار من قريش بنى هاشم ، واختارنى من بنى هاشم ، فأنا من خيار الى خيار» .

وأخرج البيهقى عن محمد بن على أن رسول الله ، ﷺ قال : ان الله اختار فاختار العرب ، ثم اختار منهم كنانة ، ثم اختار منهم قريشا ، ثم اختار منهم بنى هاشم ، ثم اختارنى من بنى هاشم» .

وأخرج الامام أحمد وابن أبى عاصم والبيهقى والطبرانى والحاكم وابن عساكر والسيوطى والمحب الطبرى عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ ، قال لى جبريل : قلبت الارض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد ، ولم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم» ، وفى رواية للقاضى عياض فى الشفاء ، قال رسول الله ، ﷺ : أتانى جبريل عليه السلام فقال : قلبت مشارق الارض ومغاربها ، فلم أر رجلا أفضل من محمد ، ولم أرى بنى أب أفضل من بنى هاشم»[٢٥] .

وكان بنو هاشم ، فيما يبدو ، يعرفون مكانتهم وشرفهم على قريش كلها ، وأن رسول الله ، ﷺ ، أفضل قريش ، وفى هذا يقول أبو طالب بن عبد المطلب ، عم النبى ﷺ ، ووالد الامام على ، كرم الله وجهه فى الجنة ، ورضى الله عنه :

---

(٢٥) السيوطى : الخصائص الكبرى ١/٣٧ـ٣٨ (دار الكتب العلمية بيروت) ، الامام احمد بن حنبل : فضائل الصحابة ٢/٦٢٨ـ٦٢٩ (مكة المكرمة ١٩٨٣) ، المحب الطبرى : ذخائر العقبى ص ١٤ ، البيهقى : دلائل النبوة ١/١٢٠ـ١٢١ (القاهرة ١٩٦٩) ، مجمع الزوائد ٨/٢١٧ ، أبو نعيم الاصبهانى : دلائل النبوة ص ٢٥ ـ ٢٦ .

اذا اجتمعت يوما قريش لمفخر فعبد مناف سرهـا وصميمهـا
فان حصرت أشراف عبد منافها ففى هـاشم أشرافها وقديمهـا
وان فخـرت يوما فـان محمـدا هو المصطفى من سرها وكريمها

وفى الواقع فلقد كان بنو هـاشم ، رهط النبى ﷺ ، ـ فى ميزان المجتمع العربى ـ سادته وقادته وأشرافه وكانوا ـ فى ميزان القيم ـ أجود الناس كفا ، وأوفاهم ذمة ، وأنداهم عطـاء ، وأكثرهم فى سبيل الخير بلاء ، وأحماهم للذمار ، وأحفظهم للجار ، وبكلمة واحدة : هم فى قومهم وزمانهم ضمير أولئك القوم وذلك الزمان .

وهكذا كان بنو هاشم ـ كما يقول الامام ابن تيمية ـ[٢٦] أفضل قريش ، وقريش أفضل العرب ، والعرب أفضل بني آدم ، كمـا صح ذلك عن النبى ﷺ ، كما رأينا فى الاحاديث الشريفة السابقة ، ومن ثم فقد كانت العرب تنفس على قريش مكانتها ، وقريش تنفس على بنى قصى ، وبنو قصى ينفسون على بنى عبد مناف ، وبنو أمية ينفسون على بنى هاشم ، رياستهم للعرب ، وكونهم فى المكانة العليا من سدانة البيت والقيام عليه .

وهكذا كان منبت النبى ، ﷺ ، فى أسرة لها شأنها ، بعض ما أعده الله لرسالته من نجاح ، فالمجتمع العربى الاول كان يقوم على العصبيات القبلية الحادة ، العصبيات التى تفنى القبيلة كلهـا دفاعا عن كرامتها الخاصة وكرامة من يمت اليها ، وقد ظل الاسلام حينا من الدهر يعيش فى حمى هذه التقاليد المرعية ، حتى استغنى بنفسه ، كما تستغنى الشجرة عما يحملها بعدما تغلظ وتستوى[٢٧] ، وهكذا صان الله رسوله ، ﷺ ، بعمه أبى طالب ، لان قريشا كانت تنظر اليه ، نظرتها الى زعيم جليل ، الكل يهابه ويحترمه ويجله ، فكان فيها فى مكان أبيه عبد المطلب من قبل، كان شريف قومه وسيدهم ، مطاعا فيهم ، نبيلا كريما ، لا يتجاسرون

---

(٢٦) ابن تيمية : رأس الحسين ، رضى الله عنه ـ القـاهرة ١٩٧٧ ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

(٢٧) محمد الغزالى : فقه السيرة ـ القاهرة ١٩٧٦ ص ٥٨ .

على مفاجأته بشىء يكرهه فى أمر رسول الله ، ﷺ ، لما يعلمون من محبته اياه[٢٨] ؛ ولعل هذا كله يبين لنا الحكمة فى اختيار الرسل من أواسط قومهم،ومن الجبهة القوية فيهم ، حتى يكونوا لهم سندا وعضدا، وبدهى أن هذا كله انما يشير بوضوح الى سيادة البيت الهاشمى على العرب ، فضلا عن قريش •

وكان لوط عليه السلام يتمنى شيئا من هذه التقاليد ، ومن السيادة الهاشمية ، عندما أحس الخطر على الاضياف النازلين به ، ولم يجد عشيرة تدفع ؛ أو أهلا تهيجهم الحمية ، فقال لقومه «فاتقوا الله ولا

(٢٨) كانت أعراف العرب تمنع الاعتداء على النبى ، ﷺ ، وهو حفيد عبد المطلب ، سيد قريش ، والزعيم المهاب فى الجزيرة العربية قاطبة ، فان حدث ذلك ، وما أقله ، فسيهب بنو هاشم ، وعلى رأسهم عمه أبو طالب ، الذى ورث مكانة أبيه عبد المطلب فى زعامة قريش ، وصاحب المكانة السامية ، والحرمة المصونة فى قريش ، والعرب جمعاء، للذود عنه ونصرته ، وقد حدث أن كان أبو طالب ذات يوم فى سقيفة له، فاقبل عليه سيدنا رسول الله ، ﷺ ، حزينا آسفا ، فلما تحراه الامر علم منه أن قريشا أغرت به سفيها من سفهائها ، فالقى عليه وثا ودما ، وهو ساجد فى الكعبة ينادى ربه وخالقه ، فنهض من فوره ، حاملا سيفه بيمينه، متابطا ذراع النبى ، ﷺ ، بيسراه ، حتى اذا ما وقف على المتآمرين ، ورءاهم يتململون حين بصروا به مقبلا ، صاح فيهم : «والذى يؤمن به محمد ، لئن قام أحد منكم لاعاجلنه بسيفى هذا» ، وراح يمسح الدم والروث عن سيدنا ومولانا رسول الله ، ﷺ ، ثم يقذف به على وجوههم جميعا ، وجوه أشراف قريش الذين تحولوا أمام البطل الهاشمى العظيم الى جرذان •

ومن المعروف أن «حمزة» ــ أسد الله وأسد رسوله ــ انما أسلم بسبب حادث كهذا ، حين علم أن أبا جهل آذى رسول الله ، ﷺ ، وسبه ، فذهب اليه فى مجلسه عند الكعبة ، حتى قام على رأسه ، فرفع قوسه وشجه به شجة منكرة ، وهو يقول متحديا : «أتشتم محمدا ، وأنا على دينه ، أقول ما يقول ، فرد على ذلك ، ان استطعت» ، فلما أراد فتيان بنى مخزوم نصرته على حمزة ، عم النبى ، منعهم ، لانه كان يعلم أن نصرته ستكلفه وتكلف قومه غاليا ، فانسحب من امام أسد الله ورسوله ، راضيا بالذل والهوان بين قومه بنى مخزوم وحشد رجالات قريش ، خوفا من حمزة ، وأملا فى تهدئته ، وغشى القوم دوار ، ما كانوا يفيقون منه ، حتى كان السهم قد نفذ ، فلقد أسلم حمزة ، وعرفت قريش أن النبى قد ازداد به عزة ومنعة ، فلن يلبث حمزة ، الفارس الهاشمى ، أن يدخل المعترك بينه وبين المشركين ، فارسا لا يشق له غبار ، وأسدا لا يغلب ، أعز قريش وأشدها شكيمة •

تخزونى فى ضيفى،أليس منكم رجل رشيد» ، ثم قالوا «لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد»[٢٩] ، الامر الذى توفر لسيدنا رسول الله ، ﷺ ، حتى ذهب العلامة «أبو زهرة» الى القول بأنه لم يمنع قريشا من قتل الرسول ، ﷺ — بعد حماية الله تعالى له — الا أسرته ، وشرف هذه الاسرة ، ومكانتها عند العرب ، وخوف قريش من أن يبادر بنو هاشم بالثأر ، ودفع العار ، حتى تمكن الرسول ، ﷺ ، من أن يخـرج بدعوة الحق من الفجر الذى يشق الظلام ، الى الصبح المشرق المنير ، بل الى الضحى الذى يملأ الوجود ضياء[٣٠] .

٢ — أقسام المجتمع العربى :

لعل من الاهمية بمكان — وقبل الحديث عن أقسام المجتمع العربى وطبقاته — الاشارة الى أن هناك مقومات ثلاثة أساسية تجمع العرب بعضهم الى بعض هى :

أولا : وحدة اللغة : فالعرب جميعا فى كل أنحاء شبه الجزيرة العربية يتكلمون لغة واحدة ، هى اللغة العربية ، وان اختلفت لهجاتها من مكان الى آخر[٣١] .

ثانيا : وحدة الجنس : فالعرب جميعا من الجنس السامى ، بل ان

---

(٢٩) سورة هود : آية ٧٨ ، ٨٠ .

(٣٠) محمد أبو زهرة : خاتم النبيين — الجزء الاول — القاهرة ١٩٧٩ ص ٨٣ .

(٣١) ليس هناك من ريب فى أن هذا الاختلاف انما قل كثيرا فى العصر القريب من الاسلام ، ولكنه كان اختلافا عميق الجذور فى العصور الموغلة فى القدم ، يوم كان العرب فى شبه الجزيرة العربية يتحدثون السبئية والمعينية والحضرمية والثمودية والنبطية واللحيانية وغيرها ، هذا فضلا عن أن عربية الجنوبية انما كانت تختلف عن عربية الشمال ، عربية القرآن الكريم ، حتى ذهب الامر بعلماء العربية فى الاسلام الى اخراج الحميرية واللهجات العربية الاخرى من العربية ، التى جعلوها مقصورة على العربية التى نزل بها القرآن الكريم ، وحتى قال بعضهم : «ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا (محمد بن سلام الجمحى : طبقات فحول الشعراء ص ٤ وما بعدها ،
IGance Goldziher, History of Classical Arabic Literatue, 1966, p. 2).

معظم الباحثين يكادون يتفقون الان : على أن الوطن الاصلى للساميين، انما هو شبه الجزيرة العربية ، على خلاف فى المكان الذى كان الوطن الاول للساميين[٣٢] ففريق يراه فى أواسط شبه الجزيرة العربية ؛ ولاسيما نجد ، وفريق آخر يراه فى العروض ؛ ولاسيما البحرين ؛ والسواحل المقابلة لها ، على أن فريقا ثالثا يراه فى الاقسام الجنوبية من الجزيرة العربية ، حيث يعتبر هذا الفريق أن اليمن هى مهد العرب ، ومهد الساميين جميعا ، منها انطلقت الموجات السامية الى سائر أنحاء المنطقة السامية ، قبل الاسلام بأمد طويل ؛ وفى الاسلام أيضا[٣٣] .

ثالثا : شبه الوحدة الدينية . ذلك لان العرب ، فى معظمهم ، انما كانوا يدينون بالوثنية[٣٤] .

وأيا ما كان الامر ، فلقد اعتاد الباحثون أن يقسموا المجتمع العربى الى بدو وحضر : أهل مدر . وأهل وبر ، فأما أهل المدر ، فهم الحواضر وسكان القرى ، وكانوا يعيشون من الزرع والنخل والماشية والضرب فى الارض للتجارة ، وأما أهل الوبر ، فهم قطان الصحارى يعيشون من ألبان الابل ولحومها ، منتجعين منابت الكلأ ، مرتادين لمواقع القطر ، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب ، وأمكنهم المرعى ، ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه ، فلا يزالون فى حل وترحال[٣٥] .

---

(٣٢) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن موطن الساميين (محمد بيومى مهران : الساميون والآراء التى دارت حول موطنهم الاصلى ـ الرياض ١٩٧٤ ص ٢٤٥ ـ ٢٧١) .

(٣٣) J. Hastings, A Dictionary of The Bible, Edinburgh, 1936, p. 74.

وكذا A. Sprenger, Das Leben und die lehre des Mohammad, Berlin, 1861, p. 241.

وكذا W. Warrell, A Study of Races in Ancient Near East, 1927, p. 7, 45, 94.

وكذا J. Montgomery, Arabia and The Bible, Philadelphia, 1934, p. 126.

وكذا J H.B. Philby, The Background of Islam Alexandria, 1947, p. 9.

(٣٤) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ـ الجزء الاول ـ القاهرة ١٩٦٤ ص ٦٤ .

(٣٥) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الجزء

ولعل من الافضل هنا أن نتبع تقسيم الدكتور الخطراوى فى تقسيمهم الى ثلاثة أقسام : مجتمع رعوى ومجتمع زراعى ومجتمع تجارى :

١ ــ المجتمع الرعوى ويمثله سكان البادية الذين تقوم حياتهم على الرعى ، وانتجاع الكلأ ، والذين لا يرتبطون بالارض الا بمقدار ماتوفره لهم من ماء وعشب ، وهم الاكثرية الكاثرة ــ وبخاصة فى شمــال بلاد العرب ــ كبكر وتغلب وعبس وذبيان وغيرهم •

٢ ــ المجتمع الزراعى : ويمثله سكان جنوب شبه الجزيرة العربية، والذى اشتهر بالزراعة ، وبسدوده الكثيرة ، وأشهرها «سد مأرب»[٣٦]، فضلا عن سكان الواحات والمناطق الوفيرة المياه فى وسط وشمال بلاد العرب مثل «يثرب»[٣٧] و «الطائف»[٣٨] ، ذلك لانه من البدهى أن شبه الجزيرة العربية ليست كلها صحارى قاحلة ، أو وديانا جافة ، ولا شك

= الرابع ــ بيروت ١٩٧٠ ص ٢٧١ ، ابن العبرى : مختصر الدول ص ١٥٨ــ ١٥٩ •

(٣٦) انظر عن : سد مارب وغيره من السدود فى بلاد العرب الفصل الخاص بالزراعة من هذه الدراسة •

(٣٧) انظر عن المدينة المنورة (يثرب) : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ــ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٤٣٩ ــ ٤٨٢ •

(٣٨) يختلف أهل الطائف عن أهل مكة وعن الاعراب ، من حيث ميلهم الى الزراعة والاشتغال بها ، وعنايتهم بغرس الاشجار المثمرة التى كانوا دائمى السعى لتحسين انواعها ، وجلب أنواع جديدة منها ، كما كان لهم خبرة ومهارة بالامور العسكرية ، الامر الذى كان واضحا ابان محاصرة النبى ، ﷺ ، لمدينتهم وتحصنهم بسورها ، هذا الى جانب ميــل الى الحرف اليدوية كالدباغة والنجارة والحدادة ، وهى أمور مستهجنـة فى نظر العربى •
ولعل هذا هو السبب فى أن البعض يتشكك فى عروبة الانباط ، لانهم خالفوا سواد العرب فى احترافهم مهنا يزدريها العربى الصميم ، والبدوى خاصة ، ويحتقر من يشتغل بها كالزراعة والصناعات اليدوية ، وان كانت بعض المراجع تصف الانباط بانهم قوم يكرهون الزراعة ويزدرونها ، كما كانوا يانفون من السكنى فى بيوت مستقرة ، وهم رعاة يربون الاغنـام وغيرها من الماشية ، كما كانوا لا يامنون جانب الاجانب بينهم ، حتى لا يقعوا تحت سيطرتهم ، ومن ثم كانوا اذا ما وجدوا غريبا بينهم قتلوه (انظر التفصيلات : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٨٣ــ ٤٨٧ ، ٤٩٦ــ٥٠٣) •

أن المجتمع الزراعى أرقى حضاريا من المجتمع الرعوى ، كما أنه مستقر، مرتبط بالأرض ، يدافع عنها ، ويموت من أجلها .

٣ ـ المجتمع التجارى : وتمثله مكة المكرمة ، وهو أرقى حضارياً من المجتمع الزراعى ، فضلا عن الرعوى .

وليس هناك من ريب فى أن هذه المجتمعات قد اختلفت فى مقوماتها الحضارية ، فضلا عن اتجاهاتها الخاصة ، ومن أمثلة ذلك قلة الحروب والاشعار فى المجتمع التجارى ، وكثرتها فى المجتمع الرعوى ، ومنها كذلك أن كلمة «مال» مثلا ، انما تعنى فى المجتمع الرعوى الابل والشاة وغيرها من المواشى ، وفى المجتمع الزراعى تعنى الزراعة والنخيل ، وكثيرا ما تتحدث كتب السيرة النبوية الشريفة عن سيدنا ومولانا محمد رسول الله ، ﷺ ، أنه كان فى مال لبنى فلان ، أى أنه كان بحائط نخيلهم ، وفى المجتمع التجارى تعنى عروض التجارة أو الذهب أو الورق ، فمثلا قال سيدنا رسول الله ، ﷺ ، عندما سمع بعير قريش قبل موقعة بدر الكبرى : «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا اليها ، لعل الله ينفلكموها» ، وهذا يعنى أن فيها عروض تجارتهم .

ثم هناك ما رافق البداوة من فقر وقساوة ، وغلظ فى المعاش ، ومن ضيق أفق فى المدارك ، وقصر نظر فى شئون العالم الخارجى ، وفى فهم الحياة ، مما أدى الى أن ينظر العربى الى الاعرابى (أى أن ينظر الحضرى الى البدوى) نظرة استهجان وازدراء ، وأن ينظر الى نفسه نظرة فيها علو واستعلاء ، وانطلاقا من هذا فان الاعرابى ان قيل له : ياعربى ، فرح بذلك وهش له ، وأما العربى ، فاذا قيل له : يا أعرابى ، غضب وثار ، وذلك لما بين الحياتين من فروق وتضاد[٣٩] .

هذا وقد جبلت البادية أبناءها على أن يكونوا غرباء عن العالم الحضرى ، وعن عقلية أهل القرى والمدن ، متغطرسين مغرورين ، على فقرهم وفقر من يحيط بهم ، فخورين بأنفسهم الى حد الزهو والاعجاب،

---

(٣٩) جواد على ٢٩٢/٤ ، اللسان ٥٨٦/١ .

والخروج عن الحد ، حتى أن البدوى كان ينادى أهل الحضر بأسمائهم الاولى ، مجردة دون أية صفة أو كنية ، كما هى عادة العرب مع بعضهم أثناء الحديث ، كما أنهم كانوا اذا تعاملوا مع غيرهم ظهر الحذر عليهم، خشية الغدر بهم . ولهذا قال الحضر : أعرابى جلف ، أى جاف[٤٠] .

وكان العرب اذا تحدثوا عن شخص فيه عنجهية وخشونة ، قالوا عنه : فيه أعرابية ، كالذى ذكروه عن «عيينة بن حصين الفزارى» شيخ غطفان ، من أنه كان أحمق مطاعا : دخل على النبى ، ﷺ ، من غير اذن، وأساء الادب ، فصبر النبى ، ﷺ ، على جفوته وأعرابيته[٤١] .

والاعرابى لا ينسى الاساءة أبدا ، بل يظل يذكرها دائما حتى يأخذ بثأره ، حتى أنه روى أن أعرابيا قيل له : «أيسرك أن تدخل الجنة ، ولا تسىء الى من أساء اليك ، فقال : بل يسرنى أن أدرك الثأر ، وأدخل النار»[٤٢] .

والاعراب أهل منة : اذا فعلوا معروفا بقوا يتحدثون عنه ، ويمنون بصنعه على من قدموه له . وهم يريدون منه صنع أضعاف ما صنعوه له، وهم خشنون اذا تكلموا رفعوا أصواتهم . وقد وبخهم القرآن الكريم وأنبهم على فعلهم هذا ، خاصة اذا كان ذلك مع سيدنا رسول الله ، ﷺ .

---

(٤٠) جواد على ٢٩٢/٤ ، تاج العروس ٦٠/٦ .

(٤١) يقول الامام السهيلى فى الروض الانف ان «عيينة بن حصين» اسمه «حذيفة» ، وسمى «عيينة» لشتر كان بعينه ، وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ «الاحمق المطاع » لانه كان من الجرارين تتبعه عشرة آلاف قناة ، وهو الذى قال فيه النبى ﷺ «ان شر الناس من ودعه الناس اتقاء شره» ، وفى رواية أنه ، ﷺ قال «انى اداريه ، لانى اخشى أن يفسد على خلقا كثيرا» ، وفى هذا بيان معنى الشر الذى اتقى منه ، وكان قد دخل على النبى ﷺ بغير اذن ، فلما قال له : اين الاذن ، قال : ما استأذنت على مضرى قبلك ، وقال : ماهذه الحميراء معك يا محمد ، فقال : هى عائشة بنت أبى بكر ، فقال : طلقها وانزل لك عن أم البنين ، وغير ذلك من امور كثيرة تدل على جفائه وشره ، وكان قد أسلم ثم ارتد ، وآمن بطليحة حين تنبأ ، واخذ اسيرا ، فاتى به أبو بكر أسيرا ، فمن عليه وبقى على جفوته وعنجهيته ولوثة أعرابيته حتى مات .

(٤٢) القلقشندى : نهاية الارب فى معرفة انساب العرب ٦٧/٦ (القاهرة ١٩٥٩) .

قال تعالى «يا أيها الذين امنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم»(٤٣) .

وكان من خشونة الاعراب وبدواتهم أن أحدهم اذا جاء الرسول، ﷺ ، فوجده فى حجرته نادى : يا محمد يا محمد ، روى أن وفد «بنى تميم» — وكانوا أعرابا جفاة — قدموا على رسول الله ، ﷺ ، فى عام الوفود (العام التاسع الهجرى) فنادوا من وراء حجرات أزواج النبى ، ﷺ ، المطلة على المسجد النبوى الشريف — وهو راقد وقت الظهيرة — وقالوا : أخرج الينا يا محمد ، فان مدحنا زين ، وذمنا شين ، فاستيقظ النبى ، ﷺ ، وخرج اليهم ، فنزلت الآيتان «ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم» ، وقال الامام البيضاوى : ان الذى ناداه «عيينة بن حصين» و «الاقرع بن حابس» ، وفدا على رسول الله، ﷺ ، فى سبعين رجلا ، من بنى تميم وقت الظهيرة وهو راقد ، فقالا : يا محمد أخرج الينا(٤٤) .

٣ — طبقات المجتمع العربى :

كانت الاسرة هى الوحدة الاساسية فى المجتمع العربى ، وخاصة

---

(٤٣) سورة الحجرات : آية ٢—٣ ، وروى البخارى فى صحيحه أنها نزلت فى الشيخان أبى بكر الصديق وعمر الفاروق ، وعن ابن عباس أنها نزلت فى «ثابت بن قيس بن شماس» وكان فى أذنه وقر ، وكان جهورى الصوت ، وكان اذا كلمهم رفع صوته ، وربما كان يكلم النبى ﷺ ، فيتأذى بصوته ، وقال بعض المفسرين نزلت فى بعض الاعراب الجفاة الذين كانوا ينادون رسول الله ﷺ باسمه ، ولا يعرفون توقير الرسول الكريم (أنظر: صحيح البخارى ١٧١/٦—١٧٢ ، مسند الامام أحمد ١٣٧/٣ ، فى ظلال القرآن ٣٣٣٩/٦ ،تفسير ابن كثير ٣١٥/٤—٣١٨ ، تفسير النسفى ١٦٦/٤، صفوة التفاسير ٢٣٢/٣ ، تفسير القرطبى ص ٦١٢٣—٦١٢٨ .

(٤٤) تفسير البيضاوى ٣٦٧/٣ ، تفسير النسفى ١٦٧/٤ ، صفوة التفاسير ٢٣٣/٣ ، تفسير ابن كثير ٣١٩/٤—٣٢٠ ، تفسير القرطبى ص ٦١٢٩—٦١٣١ ، فى ظلال القرآن ٣٣٣٩/٦—٣٣٤٠ ، مسند الامام أحمد ٤٨٨/٣ .

عند البدو ، وفوق الاسرة كانت القبيلة ، ذلك أن طبقات المجتمع العربى فى النسب انما هى :

١ ـ الشعب : وهو النسب الابعد : مثل عدنان وقحطان .

٢ ـ القبيلة : وهى الفرع من فروع الشعب ، مثل ربيعة ومضر .

٣ ـ العمارة : وهى القسم من القبيلة ، مثل قريش وكنانة .

٤ ـ البطن : وهم فريق من العمارة مثل بنى عبد مناف ، وبنى مخزوم ، ومثل بنى هاشم وبنى أمية .

٥ ـ الفخذ : وهم فريق من البطن .

٦ ـ الفصيلة وهم فريق من الفخذ . مثل بنى أبى طالب وبنى العباس(١) .

وجعل ابن الكلبى مرتبة الفخذ والفصيلة ، هى مرتبة العشيرة ، وهم رهط الرجل ، ومنهم من زاد بعد العشيرة الاسرة ، ثم العترة(٢) .

هذا وقد قسم النويرى النظام القبلى عند العرب الى عشر طبقات : الجذم ، وهو الاصل ، وهو قحطان وعدنان ، وهى الطبقة الاولى ، ثم الجماهير : وهى الطبقة الثانية ، ثم الطبقة الثالثة : الشعوب ، فالطبقة الرابعة : القبيلة : وهى التى دون الشعب تجمع العمائر ، ثم الطبقة الخامسة : العمائر : وهى التى دون القبائل ، وتجمع البطون ، ثم الطبقة السادسة : البطون ، وهى التى تجمع الافخاذ ، والطبقة السابعة :

---

(١) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والامم السامية ـ القاهرة ١٩٤٩ ص ٩ ، محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الاسلام ـ القاهرة ١٩٥٢ ص ١٧٣ ، جواد على ٣١٦/٤ـ٣٢٠ .

(٢) رتب بعض الباحثين طبقات المجتمع العربى فى النسب كالتالى : جذم ثم جمهور ، ثم شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم عشيرة ، ثم فصيلة ، ثم رهط ، ثم أسرة ، ثم ذرية ، وزاد غيرهم فى اثنائها ثلاثة هى : بيت وحى وجماع ، وذهب بعض علماء اللغة الى أن «الجذم» الاصل فى كل شىء ، فيقال : جذم القوم اهلهم وعشيرتهم ، ومنه قول حاطب بن ابى بلتعة «لم يكن رجل من قريش الا له جذم بمكة» (اللسان ٢٣٥/١٨ ، تاج العروس ٢٢٢/٨ ، نهاية الارب للنويرى ٢٦٢/٣ـ٢٦٣ ، الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ٧٤ ، جواد على ٣١٨/٤ـ٣١٩) .

الافخاذ : وهى أصغر من البطن ، والفخذ تجمع العشائر ، ثم الطبقة الثامنة : العشائر ، واحدها عشيرة . وهم الذين يتعاقلون الى أربعة آباء، ثم الطبقة التاسعة : الفصائل ، واحدها فصيلة ؛ وهم أهل بيت الرجل وخلصته ، ثم الطبقة العاشرة : الرهط : وهم الرجل وأسرته(٣) •

هذا ويرى بعض الباحثين أن هذا التقسيم الذى يشمل على البطن والفخذ والفصيل مأخوذ من وصف الناقة التى هى معاش العرب ؛ ويرى آخرون أنه مأخوذ من وصف المرأة أو الام التى هى أصل القبيلة ، وهم يدللون على ذلك بأن النظام الاموى ـ الذى يعترف بالسيادة فى الاسرة للزوجة أو للمرأة ـ كان فاشيا عند العرب ، بدليل اتخاذ كثير من القبائل أسماء جداتها كاسماء لها ، مثل خندف وطابخة وجـديلة ومدركة ومرة وغـيرها(٤) •

هذا وكانت القبيلة من حيث النسب أيضا تتكون من صرحاء وحلفاء وموالى وشركاء يستلحقون بالنسب • فأما الصريح : فهو المحض من كل شىء والخـالص النسب ، ويقال جاء بنو فلان صريحـة ، اذا لم يخالطهم غيرهم • والنسب اذن نسب آباء ، وهو نسب الصرحاء الخلص من العرب المنحدرين من صلب جد القبلية ، على حد تعبير أهل النسب؛ ثم نسب حلف وجوار ، أى نسب استلحاق ، والغالب أن يتحول نسب الاستلحاق الى نسب صريح ، حين تطول اقامة الدخيل بين من دخـل بينهم ؛ فينسى أصله ، ويأخذ أحفاده نسب من دخل جـدهم فيهم ، ويشمل ذلك نسب القبائل أيضا،ونجد فى كتب أهل الاخبار أمثلة كثيرة على تحول الانساب ، حيث نجدها تنص على دخول نسب فلان فى نسب بنى فلان ، ونسب قبيلة فى نسب قبيلة أخرى(٥) •

---

(٣) النويرى : نهاية الارب فى فنون الادب ٢٧٧/٢ ، ٢٨٤ ـ ٢٨٥ (القاهرة ١٩٤٣) •

(٤) سعد زغلول عبد الحميد : فى تاريخ العرب قبل الاسلام ـ بيروت ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ •

(٥) جواد على ٣٥٦/٤ ، اللسان ٥٠٩/٢ ، بلوغ الارب ١٩١/٣ ـ ١٩٢ •

وأما من الناحية الاجتماعية : فكانت القبيلة تتكون من طبقات ثلاث هى :

١ ـ طبقة الاحرار الصرحاء : وهم أعلى طبقات القبيلة من ناحية التنظيم الاجتماعى ، لهم كل الحقوق ، وعليهم أشرف الواجبات فى حمايتها والذود عنها ، ومن بينهم يختار شيخ القبيلة •

٢ ـ طبقة الموالى : وتلى هذه الطبقة طبقة الاحرار الصرحاء فى المنزلة الاجتماعية ، وعليهم من الواجبات ما على الاحرار ، وان لم تكن لهم كل الحقوق ، هذا وقد تكونت طبقة الموالى هؤلاء من تكاثر أعداد القبيلة ، تكاثرا كبيرا ، ووصولها الى درجة عالية من القوة والمنعة ، حتى أصبح فى امكانها أن ترغم غيرها من القبائل الضعيفة على الخضوع لها ، كما كانت تسمح لأبناء القبائل الاخرى الخارجين على قبائلهم ، لسبب أو لآخر ، بالانضمام اليها ، الامر الذى عرف عند العرب بمنع الذمار أو حمى الجار(٦) ، فقد كان العرب ، كما يقول ابن عبد ربه ـ تمتدح بالذب عن الجار ، فيقولون «منيع الجار ، حامى الذمار» ، حتى كان فيهم من يحمى الجراد ، اذا نزل فى جواره ، فسمى «مجير الجراد» ، وقال مروان بن أبى حفصة يمدح «معن بن زائدة» ويصف مفاخر بنى شيبان ، ومنعهم لمن استجار بهم :

هم قوم ان قالوا أصابوا وان دعوا   أجابوا ، وان أعطوا أطابوا وأجزلوا
هم يمنعون الجار حتى كأنما   لجارهم بين السماكين منزل(٧)

هذا ويدخل فى «طبقة الموالى» تلك القبائل الضعيفة ، التى ترتبط بحلف مع القبائل القوية ، تحتمى بها من القبائل الاخرى ، ذلك لانه لم يكن فى مقدور القبائل الصغيرة ، وكذا العشائر الصغيرة ، المحافظة على

---

(٦) احمد الشامى : فى تاريخ العرب والاسلام ـ القاهرة ١٩٨٢ ص ٤٤ ـ ٤٥ •

(٧) ابن عبد ربه : العقد الفريد ـ تحقيق مفيد محمد قميحة ـ الجزء الاول ـ بيروت ١٩٨٣ ص ١٢١ ـ ١٢٢ (والسماكين نجمين فى السماء) •

نفسها من غير حليف قوى يشد أزرها ؛ اذا هاجمتها قبيلة أخرى ، أو أرادت الاخذ بالثأر منها ؛ ومن ثم فقا كانت معظم القبائل داخلة فى هذه الاحلاف ، الا عددا قليلا من القبائل القوية الكثيرة العدد ، وكانت تتفاخر بنفسها ، لانها لا تعتمد على حليف يدافع عنها ، بل كانت تأخذ بثأرها وتنال حقها بالسيف . ويشترك المتحالفون فى الغالب فى المواطن ، وقد تنزل القبائل على حلفائها ، وتكون الهيمنة فى هذه القبائل الكبيرة .

هذا ومن المعروف أن الحلف ، اذا دام أمدا ، وبقيت هذه الرابطة التى جمعت شمل القبائل متينة ، فان هذه الرابطة تنتهى الى نسب يشعر معه افراد الحلف أنهم من أسرة واحدة تسلسلت من جد واحد ، وقد يحدث ما يفسد هذه الرابطة ، أو ما يدعو الى انفصال بعض قبائل الحلف ، فتنضم القبائل المنفصلة الى أحلاف أخرى ، وهكذا نجد دائما فى الجزيرة العربية أحلافا تتكون ، وأخرى قديمة تنحل أو تضعف[٨] .

وكان من طبقة الموالى أيضا ، هؤلاء الذين تكتب لهم الحرية بعد العبودية . كأن يشترى رجل مملوكا ، ثم يعتقه . أو يشترط عليه عملا ، فان أتمه به وأتمه ، اعتقت رقبته ، ويصير مولى لمعتقه ، ان شاء أو يختار غير سيده مولى له ، أو يشترط فى عقد البيع أن العبد يكاتب على نفسه بثمنه . فاذا سعى وأداه عتق ؛ أو أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه اليه منجما ، فاذا أداه صار حرا ، أو أن يعلن المالك عتق مملوكه على شرط يشترطه ، كأن يقول له : أنت حر بعد موتى ؛ فلا يرثه أهله[٩] .

وعلى أية حال : فالموالى مهما كانوا ، عربا أم عجما ، كانوا أقل شأنا فى مجتمعهم من الاحرار ، فقد نظر اليهم على أنهم دون العرب الاحرار فى المكانة ، ومن ثم فقلما زوج الاحرار بناتهم للموالى حتى ضرب بهم المثل فى القلة والذلة ، ولاسيما اذا كان الواحد منهم «مولى موالى» فقيل «مولى الموالى» ، وبقيت العرب حتى فى الاسلام — دين المساواة —

---

(٨) جواد على ٣٧٣/٤ ، الاغانى ١١٨/١٢ ، ١٢٣-١٢٤ .
(٩) اللسان ٧٠٠/١ ، ٢٤٣/١٠ ، تارج العروس ٣٠٥/١ ، ٢٠٠/٣ ، جواد على ٣٦٦/٤ - ٣٦٧ .

تأنف من تزويج بناتها الى الموالى بسبب شرط «الكفاءة» الذى كان سنة من سنن العرب قبل الاسلام فى الزواج . كفاءة النسب والمنزلة والحرفة، واذا تزوج مولى بنتا عربية ، عيرت القبيلة به ، وقد هجا «أبو بجير» الشاعر قبيلة «عبد القيس» لتزويجهم بناتهم للموالى ، وقد ذهب البعض الى قاعدة : الكفاءة فى النسب والدين والصنعة والحرية : فلا تزوج عربية بأعجمى ، ولا قرشية بغير قرشى ، ولا هاشمية بغير هاشمى ، ولا عفيفة بفاجر ، و «ان قريشا بعضهم أكفاء لبعض ، بطن ببطن ، والعرب بعضهم أكفاء لبعض ، قبيلة بقبيلة ، والموالى بعضهم أكفاء لبعض ، رجل برجل»[١٠] .

والتاريخ يحدثنا أن التكافؤ فى الزواج عرف كان العرب ، ومايزالون، يحافظون عليه الى يوم الناس هذا ، وهم يزدرون من شأن الخارج على هذا التكافؤ ، وقد يرفضون تزويج رجل ثرى مكتنز المال ، من امرأة فقيرة شريفة الاصل ، اذا كان هذا الرجل من أصل ذابل ، كأن يكون أبوه أو جده صانعا أو خضارا ، لان الاصل فى نظر العرب فوق المال ، والشريفة يجب ألا تزوج الا من شريف مثلها ، مراعاة منهم لمبدأ نقاوة الاصل ، وانجاب الاولاد النجباء ، ومن هذا المبدأ امتنع العرب من تزويج بناتهم من الاعاجم ، حتى لو كان ذلك الاعجمى ملكا ، كما حدث مع النعمان بن المنذر ، وكسرى ملك الفرس كما أشرنا من قبل .

والقصة تتلخص فى أن «زيد بن عدى» انما كان يحقد على الملك «النعمان بن المنذر» ملك الحيرة (٥٨٠ — ٦٠٢م) ، وأنه كان يتحين الفرص للانتقام منه ، وقد جاءت الفرصة فى طلب ملك الفرس «كسرى أبرويز» (٥٩٠ — ٦٢٨م) زوجات لاولاده ، ومن ثم فقد أشار عليه «زيد» بأن يطلبهن من النعمان ففى بناته وبنات عمه وأهله ، أكثر من عشرين امرأة يصلحن لمصاهرة كسرى ملك فارس ومولى النعمان وكان

---

(١٠) أبو اسحاق الشيرازى : كتاب التنبيه فى الفقه على ما ذهب الامام الشافعى ص ٩٥ ، العبادى : الاسلام والمشكلة العنصرية ص ٥٨ ، ٦٦ ، ٦٧ ، الثعالبى : ثمار القلوب ص ٦٩٠ ، تاريخ اليعقوبى ١٠٠/٢ ، جواد على ٣٦٩/٤ .

زيد يعلم أن النعمان انما يضن ببناته وبنات أهله على كسرى ، بل ان جوابه على كسرى انما كان «أما فى بقر السواد وفارس ما يكفيه (أى كسرى) حتى يطلب ما عندنا» ، وكان ذلك سببا فى غضب كسرى ، وفى استدعاء النعمان الى فارس بغية القضاء عليه ، ومن ثم فقد هرب النعمان الى أصهاره فى «طىء» أملا فى حمايتهم لم ؛ ولكن القوم رفضوا حمايته ، مما دفعه الى أن يودع أهله وماله عند «هانىء بن مسعود الشيبانى» ، وأن يتوجه الى كسرى ، حيث أرسل مخفورا الى «خانقين» أو «ساباط» ، وبقى هناك حتى مات بالطاعون على رواية ، وطرح بين أرجل الفيلة فداسته حتى مات ، على رواية أخرى ، وهكذا ضحى الملك النعمان بحياته وعرشه فى سبيل الحفاظ على مبدأ التكفؤ فى الزواج ، وعدم زواج عربية بأعجمى ، حتى وان كان هذا الاعجمى هو «كسرى» (شاهنشاه ايران وأنيران) أى «ملك ملوك ايران وغير ايران»[11] .

٣ ــ طبقة الرقيق : وهى الطبقة الاخيرة فى التنظيم الاجتماعى ؛ وكانت كل قبيلة تضم عددا من الرقيق يختلف باختلاف مركز القبيلة الاجتماعى والاقتصادى ، وكان عددهم من الرقيق الابيض أو الاسود ، يزداد فى مكة عن غيرها ؛ ذلك لان القوم فى البلد الحرام ، انما كانت لهم تجارة واسعة ، فضلا عن زراعات ومراعى ؛ ومن ثم فقد كانوا يحتاجون أكثر من غيرهم الى الايدى العاملة ، خاصة وأن طبقة الاشراف منهم قد ترفعوا عن ممارسة العمل بأنفسهم ، نظرا لما نالوه من حظ وافر فى الثروة ، وما أصابوه من حياة الترف المختلفة ، من شراب وسمر

---

(١١) تاريخ الطبرى ٢٠١/٢ــ٢٠٦ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٤٨٢/١ــ٤٨٨ ، تاريخ ابن خلدون ٢٦٥/٢ــ٢٦٧ ، تاريخ اليعقوبى ٢١٤/١ــ٢١٥ ، المسعودى : مروج الذهب ٧٦/٢ــ٧٧ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٢٨٤ ، الشعر والشعراء ١٥٠/١ ــ ١٥٦ ، المقدسى : البدء والتاريخ ٢٠٥/٣ ــ ٢٠٦ ، معجم ياقوت ٢٩٣/٤ ــ ٢٩٤ ، جواد على ٥٤٣/٤ ، اللسان ٣٠٨/٦ ، محمد أحمد جاد المولى وآخرون : أيام العرب فى الجاهلية ص ١٨ــ٢٤ ، لويس شيخو : شعراء النصرانية ص ٤٩١ ، دائرة معارف وجدى ٢٤/٧ ، ديوان الاعشى ص ١٢٨ ، محمد الخضرى : تاريخ الامم الاسلامية ٣٢/١ ، جرجى زيدان : العرب قبل الاسلام ص ٢٢٠ .

وغناء ، ولهذا فقد أقبل أثرياء مكة على جلب الرقيق بأنواعه ، أبيض وأسود ، عبيد واماء ، للقيام بالخدمة الشخصية ، وحراسة القوافل ، فضلا عن استخدامهم كجنود فى حالة الحرب •

بقيت الاشارة الى أن طبقة الاحرار الصرحاء ، انما كانوا يلحقون أبناءهم من الاماء ـ ومعظمهن من الرقيق الابيض المشترى من أسواق فارس وبيزنطة ــ بهذه الطبقة من الرقيق ، والتى حرمت من كل الحقوق الاجتماعية ، وفى نفس الوقت ، وضع على كاهلها كل الالتزامات والخدمات[١٣] •

وكان القوم يدعون هذا النوع الاخير من الرقيق «الهجين» والهجين : ولد العربى من غير العربية ، قيل له ذلك لان الغالب على ألوان العرب الأدمة ، ويقال للزواج الذى يقع بين عربى وأعجمية : «مهاجنة» ، وقد عابته العرب ، وعدت الهجين دون العربى الصريح ، لوجود دم أعجمى فيه : والاعاجم مهما كانوا عليه من منزلة ، فهم ــ فى نظر العرب ــ دون العرب[١٣] •

٤ ـ من أعراف العرب :

كان للعرب ، والاعراب بصفة خاصة ، أعراف أوجبت الطبيعة عليهم طاعتها والعمل بها ، ومن ذلك :

١ ـ الثـــأر :

لاريب فى أن عادة الاخذ بالثأر هذه ــ رغم قبحها ــ فـان البيئة البدوية هى التى أملتها على القوم ، ذلك لانه ليس فى البادية من يحول بين قتل الناس بعضهم بعضا ، الا الاخذ بالثأر ، وقيام أهل القتيل والعصبية بالاخذ بدمه ، ولولا الخوف من الاخذ بالثأر لعم القتل الحياة ، وهكذا كانت القاعدة عند العرب أن الدم لا يغسل الا بالدم ، وأن تعويض الدم بمال يرضى عنه آل القتيل منقصة وذلة لا يقبل بها الا

---

(١٢) أحمد الشامى : المرجع السابق ص ٤٦ـ٤٧ •
(١٣) اللسان ٤٣١/١٣ ، جواد على ٣٩٠/٤ •

ضعاف النفوس ، وأما أهل البيوت والعصبية فلا يقبلون الا بالقصاص، وبأخذ الثأر ، وبقتل رجل كفء يكافىء المقتول فى المنزلة والدرجة والمكانة.

والاصل فى القتل القصاص ، ومن ثم فان أهل المقتول انما يطالبون «بالقود» ، وهو قتل النفس بالنفس فان لم يتم «القود» ، أو لم يحدث التراضى على الدية ، أو اذا فر القاتل ، فلابد من الاخذ بالثأر ، ولا يستقر لأهل القتيل قرار ، الا بعد أخذ الثأر ، وعندئذ تبكيه النساء[1].

ولعل من الجدير بالاشارة أن القوم كانوا لا يقربون نساءهم ، ولا يحتسون الخمور ؛ ولا يتناولون طعاما شهيا فيه لحوم وطيور ، وربما لا يغسلون رؤوسهم ووجوههم ولا يتطيبون ، الا بعد أن يدركوا ثأرهم، وفى قصة امرىء القيس ، الملك الضليل ، وطلبه ثأر أبيه «حجر بن الحارث» ملك كنده ، دليل على ذلك .

يروى الاخباريون أن «حجرا» عندما أحس أنه مقتول ، كتب وصيته ثم دفعها الى رجل أمره أن ينطلق الى أكبر أولاده ، فان بكى وجزع فليذهب الى غيره ، وهكذا حتى يصل الى أصغرهم ، وهو امرؤ القيس، فان لم يجزع دفع اليه الوصية ، وتستطرد الرواية الى أن الرجل انما وجد امرأ القيس فى «دمون» بأرض اليمن ،يلعب النرد ويشرب الخمر مع بعض رفاقه ، فلما دفع اليه الرسالة لم يجزع ، وانما سأل الرجل عن أمر أبيه كله ، فلما أخبره بما حدث ، انتوى الثأر قائلا : « الخمر والنساء على حرام ، حتى أقتل من بنى أسد مائة ، وأطلق مائة ، ثم قال قولته المشهورة : «ضيعنى صغيرا ، وحملنى دمه كبيرا ، لا صحو اليوم، ولا سكر غد ، اليوم خمر ، وغدا أمر»[2] .

وهكذا جد امرؤ القيس فى طلب ثأر أبيه ، ومن ثم فقد نزل على بكر

---

(١) جواد على ٣٩٨/٤ ـ ٣٩٩ .

(٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٥١٥/١ـ٥١٦ ، القلقشندى : نهاية الارب ٣٦/٣ ، معجم ياقوت ٧/٣ ، الاغانى ٨٥/٩ـ٨٦ ، محمد جاد المولى وآخرون : ايام العرب فى الجاهلية ص ١١٥ ـ ١١٦ ، البكرى : معجم ما استعجم ٥٥٧/٢ ، الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ٨٥ .

وتغلب : وسألهم النصر على أسد ، قاتلى أبيه ، وحين أجابه القوم الى سؤله ، بث العيون على بنى أسد ، فعلم أنهم قد لجأوا الى بنى كنانة ، فبدأ هجومه على بنى كنانة — وهو يظنهم بنى أسد — الا أن القوم سرعان ما أخبروه أن بنى أسد قد ساروا بالامس ، فأسرع اليهم حتى اذا ما أدركهم أنزل بهم هزيمة قاسية ، أدرك بها ثأره ، ومن ثم فقد أبت بكر وتغلب أن تستمر فى القتال بعد ذلك[٣] ، وان استمر هو فى طريقه متجاوزا كل الحدود[٤] •

على أن الثأر لم يكن فى كل الاحيين ثأر شخصى ، وانما قد يكون ثأرا جماعيا ، وذلك حين تغير قبيلة على قبيلة أخرى . وهنا يصبح الثأر — بجانب العصبية — من أهم وسائل الحفاظ على كيان القبيلة،عن طريق مقابلة العدوان بعدوان مثله بغية ردع المعتدين ، ومن ثم يصبح الثأر فى هذه الحالة واجبا من أهم واجبات شيخ القبيلة وفرسانها ، ومن أمثلة ذلك موقف قريش بعد هزيمتهم النكراء فى غزوة بدر (١٧ رمضان ٢ هـ = ١٧ مارس ٦٢٤م) ، ونذر أبى سفيان بن حرب : ألا يمس رأسه ماء من جنابه حتى يغزو محمد ﷺ ، ثم سرعان ما أجمعت قريش أمرها على الثأر لقتلاها الذين جندلهم المسلمون على ساحة بدر ، فتغسل عار تلك الهزيمة بغزوة تشنها على المسلمين ، ومن ثم فقد رصدت كل أموال قافلة أبى سفيان التى كانت سببا فى غزوة بدر على حرب النبى ﷺ وأصحابه ، أو على الاقل ، فيما يرى البعض ، رصدت أرباح تلك العير ، والتى قدرها البعض بخمسين ألف دينار •

وشاركت النساء الرجال فى الحرص على الاخذ بالثأر ، ومن ثم فقد رأينا آكلة الاكباد « هند بنت عتبة » — زوج أبى سفيان وأم ولده معاوية — ترفض أن تبكى قتلاها ، وتقول : «لا والله ، حتى أثأر من

---

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٧٤ — ٢٧٥ ، ابن الاثير : الكامل ١/٥١٦—٥١٧ ، أيام العرب فى الجاهلية ص ١١٦—١٢٠ ، نهاية الارب للقلقشندى ٣/٢٥ ، ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٢/٥٢ ، ٥٨ ، تاريخ اليعقوبى ١/٢١٧—٢٢٩ ، ايليا حاوى : امرؤ القيس ص ١٧ — ٢١ •

(٤) انظر : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص٦١٨—٦٢٥

محمد وأصحابه ، والدهن على حرام حتى نغزوا محمدا ، والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبي لبكيت ، ولكن لا يذهب ، الا أن أرى ثأرى بعيني من قتلة الاحبة ، ومكثت لا تقرب الدهن ، ولا تقرب فراش أبى سفيان ، وتحرض الناس ، حتى كانت وقعة أحد (١٥ شوال ٣ هـ = يناير ٦٢٥م)[٥] .

٢ ـ العصبيـــة :

العصبية أساس النظام القبلى ، وتكون للأهل والعشيرة ، وسائر متفرعات الشعب أو الجذم أو القبيلة أو العشيرة ، ومن شروطها أن يدعو الرجل الى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم ـ ظالمين كانوا أو مظلومين ـ وليس له أن يتساءل : أهو ظالم أم مظلوم ؟ وهى ضرورية للقبائل لانها لا تستطيع أن تدافع عن نفسها ، الا اذا كانت ذات عصبية ونسب ، وبذلك تشتد شوكتها ، ويخشى جانبها ، ومن ثم لا يقع العدوان عليها ، هذا وتقوم العصبية على النسب ، ومن ثم فهى تختلف باختلاف درجات تقارب الانساب ، كما تشمل العصبية الصرحاء والموالى والجيران[٦] .

وهكذا كانت العصبية سببا فى تضامن أبناء القبيلة ، أشد ما يكون التضامن ، فاذا ما ارتكب أحدهم جرما تحملته القبيلة كلها ، وهى تدرأ عنه وتحميه ، ومن ثم كانت القاعدة عندهم «أنصر أخاك ظالما أو مظلوما» وفى الشعر العربى ما يدل على هذه القاعدة ، ومن ذلك قول الشاعر :

اذا أنا لم أنصر أخى وهو ظالم   على القوم لم أنصر أخى حين يظلم

ومن ذلك أيضا :

---

(٥) سيرة ابن هشام ٣١/٣ ، ٤٤ ، السيرة الحلبية ٤٧٩/٢ ، ابن كثير : السيرة النبوية ٥٤٠/١ ، ١٩/٢ ـ ٢١ ، تاريخ الطبرى ٤٤٩/٢ ـ ٥٠١ ، الكامل لابن الاثير ١٣٢/٢ ، ١٤٨ـ١٤٩ ، محمد الصادق عرجون : محمد رسول الله ﷺ ٥٤٦/٣ (دمشق ١٩٨٥) .

(٦) جواد على ٣٩٢/٤ـ٣٩٣ ، لسان العرب ١٠٦/١ ، ثم أنظر دراسته عن العصبية (ابن خلدون ـ المقدمة ـ بيروت ١٩٨١ ص ١٢٧ـ١٦٠)

قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم   طــاروا اليه زرافات ووحـــدانا
لا يسألون أخاهم حـــين يندبهم   فى النائبات على ما قال برهـــانا

وهذا كله يعنى أن الرجل اذا ما سمع نداء العصبية أن يهب حـــاملا سيفه أو رمحه أو حتى بغير سلاح لنصرة أخاه ، دون أن يسأله عن أى شىء ، لانه ليس من العصبية أن تسأل أخاك عما وقع ، بل عليك تلبية ندائه وتقديم العون له ، معتديا كان أو معتدى عليه ، هـــذا وكان من أعراف العرب أن المسئولية الجنائية انما تقع طبقا لدرجة العصبية ، ومن ثم فقد كان أقرب الناس الى الجانى هو أول من يتناوله الاخذ بالثأر . ثم الابعد فالابعد ، وهكذا[7] .

ولعل من الأهمية بمكان الاشارة الى أن جرثومة العصبية ، العصبية للدم ، وأقرب دم الى أى انسان هو دم أسرته ، وعلى رأسها الابوان، والاخوة والاخوات ، ثم الابعد فالابعد ، حتى تصل الى العصبية للقبيلة، ومن ثم فان شدة العصبية وقوتها أنما تتبع قرب الدم والنسب وبعدهما، وأما آخر مراحل العصبية فهى العصبية للقبيلة ثم للحلف ، أو النسب الاكبر ، حين تكتل القبائل وتخاصها على هيئة كتل قبلية .

هذا ويروى «هيرودوت» (٤٨٤ — ٤٣٠ ق٠م) أن القبيلة قد تلجأ فى تقوية عصبيتها الى «المؤاخاة» بين رجل من نفس القبيلة وآخر من غيرها ، وذلك بأن يتقاسم الاخير طعاما مع ابن القبيلة ، أو يمص قطرات من جرح يحدثه فى جسده ، وهكذا يصبح هـــذا الشخص الغريب عن القبيلة ابنا متبنى لهذه القبيلة ، ولنا أن نتصور أن مثل هذا الشخص يكون مرغوبا فى تبنيه ، بسبب غزوة له أو بأس يتصف به[8] .

٣ ـ الوفــــــاء :

والمراد هنـــا الوفاء لأهل العصبية ، ليس لأحـــد من أبناء القبيلة

---

(٧) جواد على ٢٩٣/٤ ، اللسان ٦٠٦/١ ، المرزوقى : شرح الحماسة ٢٧/١ وما بعدها ٠

(٨) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٦٩ ، وكذا
Herodotus, III, 8.

مخالفتها ، لانه واحد ، وهم جماعة ، ان أصابه ضيم فلابد لجماعته من مواساته والانتصار له ، مهما كانت أسباب الفرقة ، وأيا كانت درجتها ، لان ما يصيب جماعته سيصيبه ، وما سيصيبه سيؤثر فى جماعته حتما ، فيجعلها الى جانبه ، وفى هذا يقول «دريد بن الصمة» :

وهل أنا الا من غزية أن غوت غويت وان ترشد غزية أرشد

ويقول شاعر آخر :

ألا اننى منهم وعرضى عرضهم كذى الانف يحمى أنفه أن يصلما[٩]

٤ ـ الانفة والاعتزاز بالنفس :

كان العربى ، ومايزال ، معتزا بنفسه ، يأبى أن يخضع لغيره، ويثور أشد الثورة ، اذا ما انتهكت حرمته أو أسىء الى شخصه ، ويحدثنا التاريخ أن «أذينة» ملك «تدمر»[١٠] ، كان له ثأر عند الروم ، منذ أن قتل قائدهم «روفينوس» أباه «أذينة الاول» ، وعدم موافقة الامبراطور «فاليران» (٢٥٣ ـ ٢٦٠م) على أن يأخذ له بثأر أبيه من «روفينوس» ، ومن ثم فما أن علم «أذينة» بهزيمة الروم فى عام ٢٦٠م ، وأسر الفرس الامبراطور «فاليران» حتى أسرع بالاتصال بالفرس ، مقدما لهم الهدايا، وعارضا عليهم صداقته ، الا أن الامبراطور الفارسى الذى كان يشعر وقت ذاك أنه أصبح ملك الشرق والغرب جميعا ، احتقر ملك تدمر، وأمر بالقاء الهدايا فى النهر ، وتوعد «أذينة» بسوء المصير ، جزاء وفاقا على مخاطبة ملك الملوك (شاهنشاه ايران وانيران ، أى ملك ملوك ايران وغير ايران) ، وهو لا يعدو أن يكون شيخا لمدينة صغيرة فى بيداء قاحلة ، لا أهمية لها ، ولا نفع منها[١١] .

---

(٩) جواد على ٤٠٢/٤ ، الاصمعيات ص ١١٢ ، ٢٨٦ ، المرزوقى : شرح الحماسة ٨١٥/٢ .

(١٠) انظر عن : دولة تدمر (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٣٣ ـ ٥٦٠) .

(١١) ارثر كريستنس : ايران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة يحيى الخشاب ـ القاهرة ١٩٥٧ ص ٢١٠ ، وكذا
E. Gibbon, The Decline and Fall of The Roman Empire, London, 1950, p. 236.

وكان هذا التصرف الاحمق من ملك الفرس ، سببا فى أن يجمع أذينه القبائل بظاهر تدمر ، فضــلا عن الفرسان والقواسة ، وأن يضم الى هؤلاء وأولئك بقايا جيش «فاليران» ؛ وأن يخرج بكل هذه الجموع الى «المدائن» للانتقام من «سابور» ملك فارس الذى أهان كرامته ، ولانقاذ «فاليران» من الاسر ؛ وهناك على ضفاف الفرات تدور رحى الحرب بين أذينة والفرس ، وتنتهى المعركة الضارية بهزيمة منكرة للفرس ، يصل مداها الى أن يترك «سابور» حريمه وأمواله غنيمة فى أيدى التدمريين وبالتالى ينتقم أذينه لكرامته أشد الانتقام(١٢) .

وهناك قصة أخرى ، ترجع الى أيام ملك الحيرة «عمــرو بن هند» (٥٥٤ — ٥٦٩م) ، وكان يسمى «مضرط الحجارة» كناية عن قوة ملكه وشدة بأسه ، كما كان جبارا عاتيا ، لا يبتسم ولا يضحك ، شديد الغرور لدرجة جعلته يعتقد أنه ليس هناك من بين أمراء العرب من يستنكف أن بخدمه ، أو يأبى أن يسعى الى مرضاته ، أيا كانت الوسيلة ، وقد كان هذا الزعم الكذوب سببا فى أن يجندله «عمرو بن كلثوم» من أصحاب المعلقات بسيفه ، وفى داره فى رواية تقول :

أن عمرا بن هند قال لجلسائه ذات يوم : هل تعرفون أحدا من العرب من أهل مملكتى يأنف أن تخدم أمه أمى ، فقالوا : ما نعرفه الا أن يكون «عمرو بن كلثوم» التغلبى ، فان أمه «ليلى» بنت «مهلهل بن ربيعة» وعمها «كليب بن وائل» ، وزوجها «كلثوم» ، وولدها «عمرو» ، وهكذا أمر «عمرو بن هند» أن يطلب من عمرو بن كلثوم أن يحضر الى قصره ، ومعه أمه «ليلى» ، ثم أمر أمه «هند» أن تصرف الخدم بعد الفراغ من الطعام ، ثم تطلب من «ليلى» أن تناولها الشىء بعد الشىء ، وتفعل هند ما أمر به ولدها الملك ، غير أن «ليــلى» سرعان ما ترفض ذلك فى اباء

---

(١٢) آرثر كريستنسن : المرجع السابق ص ٢١٠،٨٠ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٣٧ ، وكذا .

Malalas, XXIII, 5, 2.

E. W. Wright, op-cit, p. 118-120. وكذا

وشمم ، قائلة : لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها ، ثم تصيح : واذلاه يا آل تغلب ، فما كان من عمـرو بن كلثوم ، الا أن أمسك بسيف الملك وأطاح به رأسه ، وهكذا جنى عمرو بن هند ثمرة غروره ، وقتل عمرو بن كلثوم ، ملك الحيرة ، دفاعا عن كرامته وكرامة أمه ، حتى قبـل أن يعرف شيئا عن سبب استغاثتها ، ان صحت الرواية(١٣) •

٥ ـ الخـلع :

الخليع : هو الذى تغضب عليه قبيلته ـ وربمـا أسرته ـ وتحرمه عطفها وحمايتها وعصبيتها ، وذلك حين يأتى عملا ينافى شرفه وشرف قبيلته ، ثم يستمر فى غيه ، لا يسمع نصح أهله أو عشيرته ، ومن ثم يسقط عنه أهله وقبيلته كل واجب يترتب عليهم أو عليها ، اذا عمل عملا يستوجب خلعه ، كما تسقط عن القبائل التى قد تتعرض للخليع بشر ، كل تبعة تقع عليها من جراء الاعتداء عليه ، لخلع أهله له ، وبالتالى عدم مطالبتهم بثأره •

على أن الخلع يجب أن يتم علانية ، كأن يعلن الاب فى المواضع العامة أو فى المواسم أنه خلع ابنه فـلان ، وكان موسم الحـج ، ومواسم الاسواق ، كسوق عكاظ ، من المواسم المناسبة لاعلان الخلع(١٤) •

٦ ـ التبنى :

من العجيب ، أنه رغم ما هو مشهور من الاعتزاز بالعفة فى المجتمع العربى ، والاعتزاز بالنسب ، فانه كانت توجد الى جانب هذا الاعتزاز ، ظواهر أخرى مناقضة فى المجتمع ، فى غير البيوت المعدودة ذات النسب المشهور ، كان يوجد فى المجتمع أبناء لا يعرف لهم آباء ، وكان الرجل يعجبه أحد هؤلاء فيتبناه ، يدعوه ابنه ، ويلحقه بنسبه ، فيتوارث واياه توارث النسب •

---

(١٣) ابن الاثير : الكامل ١/٥٤٧ـ٥٤٩ ، الاغانى ٩/١٧٥ ، ١١/ ٥٣ ، ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١٥٧ ـ ١٥٩ ، الامالى ١/١٩٢ ، القلقشندى : بلوغ الارب ٢/١٤٢ ،لويس شيخو : شعراء النصرانية ١/٢٠٠ •

(١٤) جواد على ٤/٤١٠ـ٤١١ ، الاغانى ٨/٥٢ •

وكان هناك أبناء لهم آباء معرفون . ولكن كان الرجل يعجب بأحد هؤلاء فيأخذه لنفسه ، ويتبناه ويلحقه بنسبه ، فيعرف بين الناس باسم الرجل الذى تبناه ، ويدخل فى أسرته ، وكان يقع هذا خاصة فى السبى، حين يؤخذ الاطفال والفتيات فى الحروب والغارات ، فمن شاء أن يلحق بنسبه واحدا من هؤلاء ، دعاه ابنه ، وأطلق عليه اسمه ، وعرف به ، وصارت له حقوق البنوة وواجباتها(١٥) .

ومن هؤلاء «حب رسول الله ، ﷺ» ، وأشهر مواليه «زيد بن حارثة بن شراحبيل الكلبى» ، وأمه «سعدى بنت ثعلبة» من بنى معن من طىء عربى صميم ، أصابه سباء فى الجاهلية ، حين خرجت به أمه تزور قومها، فأغارت عليهم خيل «بنى القين بن جسر» فأخذوا زيدا فقدموا به سوق عكاظ (أو سوق حباشة) فاشتراه «حكيم بن حزام» ثم وهبه لعمته خديجة ، زوج النبى ﷺ ، فوهبته للنبى ، ﷺ ، بمكة قبل النبوة ، وهو ابن ثمان سنين . ثم أخذ أهله يبحثون عنه حتى عرفوا مكانه ، فقدم أبوه وعمه مكة ، ودخلا على النبى ، ﷺ ، فقالا : يا ابن عبد المطلب ، يا ابن هاشم ، يا ابن سيد قومه ، جئناك فى ابننا عندك ، فامنن علينا ، وأحسن الينا فى فدائه ، فقال من هو ، قالوا زيد بن حارثة ، فقال رسول الله ، ﷺ . فهلا غير ذلك ، قالوا ما هو ، قال : أدعوه وخيروه ، فان اختاركم فهو لكم ، وان اختارنى فوالله ما أنا بالذى اختار على من اختارنى أحد ، قالا : زدتنا على النصف وأحسنت ، فدعاه رسول الله ، ﷺ ، فقال : هل تعرف هؤلاء ، قال نعم : هذا أبى وهذا عمى ، قال : فأنا من قد عرفت ورأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما ، قال : ما أريدهما ، وما أنا بالذى أختار عليك أحد ، أنت منى مكان الاب والعم، فقالا : ويحك يا زيد ، اتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وأهل بيتك ، قال نعم ، قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا ، فلما رأى رسول الله ، ﷺ ، ذلك ، أخرجه الى الحجر فقال : يا من حضر ، اشهدوا أن زيدا ابنى ، يرثنى وأرثه ، فلما رأى

---

(١٥) فى ظلال القرآن ٥/٢٨٢٥ .

ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما وانصرفا ، وكانوا يقولون عنه : زيد بن محمد ، وكان أول من آمن به من الموالى[16] .

وروى الامام البخارى فى صحيحه بسنده عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ، ﷺ ، ما كنا ندعوه الا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن «ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله»[17] ، وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى من طرق عن موسى بن عقبة به،وقد كانوا يعاملونهم (أى الموالى) معاملة الابناء من كل وجه فى الخلوة بالمحارم وغير ذلك[18] .

روى الامام مسلم فى صحيحه عن عائشة أن سالما مولى أبى حذيفة كان مع أبى حذيفة وأهله فى بنيهم . فأتت (تعنى سهلة بنت سهيل زوج أبى حذيفة) النبى ﷺ ، فقالت ان سالما بلغ ما يبلغ الرجال ، وعقل ما عقلوا ، وانه يدخل علينا ، وانى أظن أن فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئا ، فقال لها النبى ﷺ أرضعيه تحرمى عليه ، ويذهب الذى فى نفس أبى حذيفة ، فرجعت فقالت : انى قد أرضعته ، فذهب الذى فى نفس أبى حذيفة[19] .

ولما جاء الاسلام ، وشرع ينظم علاقات الاسرة على الاساس الطبيعى لها ، ويحكم روابطها ، ويجعلها صريحة لا خلط فيها ولا تشويه، أبطل عادة التبنى هذه ، ورد علاقات النسب الى أسبابها الحقيقية ، علاقات الدم والبنوة الواقعية ، قال تعالى «وما جعل أدعياءكم أبناءكم

---

(١٦) سيرة ابن هشام ١/١٥٤-١٥٥ ، ابن الاثير : اسد الغابة ١/٢٨١-٢٨٤ (دار الشعب ـ القاهرة ١٩٧٠) ، ابن حجر العسقلانى : الاصابة فى تمييز الصحابة ١/٥٦٣-٥٦٤ (دار احياء التراث العربى بيروت) ، ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الاصحاب ١/٥٤٤ ـ ٥٤٩ (نسخة على هامش الاصابة) ، تاريخ الطبرى ٢/٣١٦-٣١٧ ، تفسير النسفى ٣/٢٩٣ ، السيرة الحلبية ١/٤٣٨-٤٤٠ (القاهرة ١٩٦٤) .

(١٧) صحيح البخارى ٦/١٤٥-١٤٦ (دار الحديث ـ القاهرة) وانظر : تفسير ابن كثير ٣/٧٤٣ (بيروت ١٩٨٦) ، تحفة الاحوذى ٩/٧٢،

(١٨) تفسير ابن كثير ٣/٧٤٣ .

(١٩) صحيح مسلم ١٠/٣١-٣٣ (بيروت ١٩٨١) ، وانظر سنن ابى داود ٣/٢٢٣ ، سنن النسائى ٦/١٠٤ ، مسند الامام أحمد ٦/١٧٤ .

ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم ؛ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم، وكان الله غفورا رحيما»[٢٠] .

والكلام ، كما يقول صاحب الظلال ، لا يغير واقعا ؛ ولا ينشىء علاقات الدم والبنوة الواقعية ، قال تعالى «وما جعل أدعياءكم أبناءكم وعلاقة المشاعر الطبيعية من كون الولد بضعة حية من جسم والده الحى[٢١] .

غير أن نظام التبنى كانت له آثار واقعية فى حياة الجماعة العربية ، ولم يكن ابطال هذه الآثار الواقعية فى حياة المجتمع ليمضى بالسهولة التى يمضى بها ابطال تقليد التبنى ذاته ؛ فالتقاليد الاجتماعية أعمق أثرا فى النفوس ، ولابد من سوابق عملية مضادة ، ولابد أن تستقبل هذه السوابق أول أمرها بالاستنكار ، وأن تكون شديدة الوقع على الكثيرين.

ثم شاء الله تعالى أن يحمل نبيه ، ﷺ — فيما يحمل من أعباء الرسالة — مؤنة ازالة آثار نظام التبنى ، فيتزوج من مطلقة متبناه «زيد بن حارثة» ويواجه المجتمع بهذا العمل ، الذى لا يستطيع أحد أن يواجه المجتمع به ؛ على الرغم من ابطال عادة التبنى فى ذاتها ، وسنرى من موقف النبى ، ﷺ . من هذه التجربة ، أنه ما كان سواه قادرا على احتمال هذا العبء الجسيم ، ومواجهة المجتمع بمثل هذه الخارقة لمألوفه العميق ، وسنرى كذلك أن التعقيب على الحادث كان تعقيبا طويلا لربط النفوس بالله ، ولبيان علاقة المسلمين بالله وعلاقتهم بنبيهم ، ووظيفة النبى بينهم ، كل ذلك لتيسير الامر على النفوس وتطييب القلوب لتقبل أمر الله تعالى فى هذا التنظيم بالرضى والتسليم ، ونرى فى القرآن الكريم سبق الحديث عن الحادث تقرير قاعدة أن الامر لله ورسوله ؛ وانه ما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا ، أن يكون لهم

---

(٢٠) سورة الاحزاب : آية ٤-٥
(٢١) فى ظلال القرآن ٢٨٢٥/٥ .

الخيرة من أمرهم ، مما يوحى كذلك بصعوبة هذا الامر الشاق المخالف لمألوف العرب وتقاليدهم العنيفة[٢٢] .

وهكذا كان زواج النبى ، ﷺ ، من السيدة «زينب بنت جحش»[٢٣] (فى ذى القعدة عام ٥ هـ) امتحانا قاسيا للنبى ، ﷺ ، أمره الله لابطال تقليد شائع عند العرب ، وأقدم عليه النبى ﷺ - وهو شديد الحرج ، ذلك أن تقاليد العرب فى الجاهلية كانت تقضى فى أمور الاسرة بأمور ، منها

---

(٢٢) فى ظلال القرآن ٥/٢٨٦٤ ـ ٢٨٦٥ ، ٢٨٦٨ .

(٢٣) السيدة زينب بنت جحش : هى أم المؤمنين زينب بنت جحش الاسدية ، أمها السيدة اميمة بنت عبد المطلب بن هاشم عمة النبى ﷺ ، تزوجها النبى ﷺ ، فى سنة خمس من الهجرة . على قول قتادة ، وسنة ثلاث من الهجرة على قول أبى عبيدة ، ونزلت بسببها آية الحجاب ، كان اسمها «برة» فلما تزوجها النبى ، ﷺ ، سماها «زينب» ، وقد عاشت حتى توفيت فى عام ٢٠ هـ ، عام فتح مصر ، او عام ٢١هـ ، عـــام فتح الاسكندرية ، فى عهد الفاروق عمر ، رضى الله عنه وارضاه ، وهو الذى صلى عليها ، وكانت قد بلغت الخمسين من عمرها ، وكانت اول أزواج النبى ، ﷺ ، موتا بعده ، روى الامام مسلم فى صحيحه بسنده عن عائشة ام المؤمنين قالت : قال رسول الله ، ﷺ : أسرعكن لحاقا بى اطولكن يدا ، قالت : فكن يتطاولن ايتهن أطول يدا ، قالت : فكانت اطولنا يدا زينب ، لانها كانت تعمل بيدها وتصدق» ، ويقول الامام النووى : وفى هـــذا الحديث معجزة باهرة لرسول الله ، ﷺ ، ومنقبة ظاهرة لزينب .

وروى عن السيدة عائشة أنها قالت : يرحم الله زينب بنت جحش ، لقد نالت فى هذه الدنيا الشرف الذى لا يبلغه شرف ، ان الله تعالى زوجها نبيه ، ﷺ ، فى الدنيا ، ونطق به القـــرآن ، وهى زوجته فى الجنة ، وقالت عائشة أيضا : كانت زينب بنت جحش تساميني فى المنزلة عنـــد رسول الله ، ﷺ ، وما رأيت امرأة قط خيرا فى الدين من زينب ، واتقى لله ، واصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة .

وروى ان الفاروق عمر أرسل اليها اثنى عشر الف درهم ، كما فرض لنساء النبى ﷺ ، فاخذتها وفرقتها فى ذوى قرابتها وأيتامها ، ثم قالت : اللهم لا يدركنى عطاء لعمر بن الخطاب بعد هذا» ، وروى ابن الاثير فى «أسد الغابة» عن أبى هريرة ، أن رسول الله ، ﷺ ، قال لنسائه عـــام حجة الوداع : هذه ثم ظهور الحصر ، قال : فكن كلهن يحججن الا سودة وزينب بنت جحش ، فانهما كانتا يقولان : والله لا تحركنا دابة بعـد اذ سمعنا من رسول الله ، ﷺ (انظر : صحيح مسلم ٨/١٦ـ٩ ، مسند الامام احمد ٢/٤٦ ، ابن حجر العسقلانى : الاصابة ٤/٣١٣ـ٣١٤، ابن عبد البر: الاستيعاب ٤/٣١٣ـ٣١٦ ، ابن الاثير : أسد الغابة ٧/١٢٥ـ١٢٧) .

أن المرأة القرشية لايمكن أن تتزوج من مولى من الموالي،مهما شئت منزلته وثروته ، وتعتبر مثل هذا الزواج خروجا على العرف والتقاليد التى تحترم فروق الطبقات . ومنها أنه اذا حدث أن تزوج المولى بامرأة من قريش وطلقها ، فان منزلتها تهون بتهاون زوجها ، فلا يتزوجها بعد ذلك شريف أو عظيم ، ومنها أن زوجة الابن المتبنى كانت تحرم على الوالد بالتبنى ، كما تحرم زوجة الابن من الصلب .

وجاء الاسلام ، وشاءت ارادة الله تعالى — ولا راد لمشيئته — أن يغير تقاليد هذا المجتمع وعاداته السيئة ، فيحطم فروق الطبقات أولا ، ويلغى التبنى ثانيا ، فضلا عن الغاء تحريم مطلقة الابن بالتبنى ، حرمة مطلقة الابن من النسب ، وهكذا كان زواج «زيد بن حارثة» من «زينب بنت جحش» بأمر الله ورسوله لحكمه عالية ، هى تحطيم الفوارق الطبقية الموروثة فى الجماعة المسلمة من رواسب الجاهلية ؛ ورد الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى ، وزيد كان مولى ؛ والموالى فى نظام الجاهلية طبقة دنيا ، فلا يمكن أن يتزوج زيد المولى امرأة كزينب القرشية — الهاشمية أما — ذات الشرف والسيادة، فاراد الله ورسوله تحقيق المساواة الكاملة بتزويج زيد مولى محمد من شريفة قرشية هاشمية الأم ؛ هى زينب بنت عمة محمد نفسه ، وبذلك تسقط الفوارق عمليا ، وكانت هذه الفوارق من العنف والعمق بحيث لا يقوى على تحطيمها ، الا فعل واقعى من رسول الله ، ﷺ ، تتخذ منه الجماعة المسلمة أسوة ؛ وتسير البشرية كلها على هداه فى هذا الطريق[٢٤] .

وهكذا أمر سيدنا رسول الله ، ﷺ ؛ بزواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش ، فكرهت زينب ذلك ، ورفض أخوها عبد الله هذا الزواج ، اعتزازا بما لأسرة زينب من مكانة ، فهى من ذؤابة قريش ، وما «زيد» انه كان عبدا ، ولو أن الرسول ﷺ ، أكرمه فيما بعد وألحقه بنسبه فصار يدعى «زيد بن محمد» لما رفض أن يعود الى أهله ، وفضل البقاء

---

(٢٤) فى ظلال القرآن ٥/٢٨٦٥ .

مع النبى ﷺ ، الا أن زينب لم تجد بدا من الانصياع لأمر النبى ، ﷺ ، فرضيت ، وفى نفسها غضاضة ، وقبل أخوها وهو يؤدى حق الطاعة فحسب بعد نزول آية الاحزاب ، يقول الله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله ، فقد ضل ضلالا مبينا»(٢٥) .

وروى ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية الكريمة عن ابن عباس قال : ان رسول الله ، ﷺ ، انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة ، رضى الله عنه ، فدخل على زينب بنت جحش الاسدية ، رضى الله عنها ، فخطبها ، فقالت : لست بناكحته . فقال رسول الله ﷺ «بلى فانكحيه» ، قالت : يا رسول الله أؤامر فى نفسى ، فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ، ﷺ «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا» الآية . قالت : قد رضيته لى يا رسول الله منكحا ؟ قال رسول الله، ﷺ : نعم . قالت : اذا لا أعصى رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسى»(٢٦).

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن على بن زيد بن جدعان : قال : سألنى على بن الحسين ، رضى الله عنهما (يعنى الامام على زين العابدين بن مولانا الامام الحسين) ما يقوله الحسن (أى الحسن البصرى) فى قوله تعالى «وتخفى فى نفسك ما الله مبديه» فذكرت له . فقال : لا ، ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد ، رضى الله عنه ، ليشكو اليه ، قال : اتق الله وأمسك عليك زوجك» فقال : قد أخبرتك أنى مزوجكها . وتخفى فى نفسك ما الله مبديه(٢٧) .

ويقول ابن حجر العسقلانى فى «فتح البارى بشرح البخارى» : كان رسول الله ﷺ ، أراد أن يزوجها من زيد بن حارثة مولاه ، فكرهت ذلك، ثم انها رضيت بما صنع الله فزوجها اياه ، ثم أعلم الله عز وجل نبيه

---

(٢٥) سورة الاحزاب : آية ٣٦ .
(٢٦) تفسير ابن كثير ٧٧٨/٣ .
(٢٧) تفسير ابن كثير ٧٨١/٣ ـ ٧٨٢ (بيروت ١٩٨٦) .

ﷺ ، بعد ، أنها من أزواجه : فكان يستحى أن يأمره بطلاقها ، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا : تزوج امرأة ابنه ، وكان قد تبنى زيدا ، لكن رسول الله ، ﷺ ، كان القدوة فى كل ما أمر الله به ، وما ألقى عليه أن يبلغه للناس ، فلا يخشى ما يقول الناس فى تزوجه من زوج مولاه زيد ، فخشيت الناس ليست شيئا فى جانب خشية الله ، بتنفيذ أمره ، وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبنى والادعاء ، وفى ذلك قوله تعالى «فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا»(٢٨) ، ويقول الله تعالى فى آية التحريم «وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم» ؛ ليحترز من الابن الدعى ، فان ذلك كان كثيرا ، وقوله تعالى «وكان أمر الله مفعولا» ، أى وكان هذا الامر الذى وقع قد قدره الله تعالى وحتمه ، وهو كائن لامحالة ، كانت زينب ، رضى الله عنها ، فى علم الله ستصير من أزواج النبى ، ﷺ(٢٩) .

وروى الامام مسلم فى صحيحه بسنده عن ثابت عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد ، فاذكرها على ، قال فانطلق زيد حتى أتاها ، وهى تخمر عجينها ، قال فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما استطيع أن أنظر اليها ، أن رسول الله ﷺ ، ذكرها ، فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى ، فقلت يا زينب أرسل رسول الله ﷺ يذكرك ، قالت ، ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربى ، فقامت الى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ ، فدخل عليها بغير اذن»(٣٠) ، وهكذا تم زواج السيدة زينب من رسول الله ﷺ ، بأمر الله سبحانه وتعالى ، فكان الله هو الذى تولى تزويجها منه ، ﷺ ، بمعنى أنه أوحى اليه أن يدخل عليها بلاولى ولاعقد ولا مهر ولاشهود من البشر .

(٢٨) سورة الاحزاب : آية ٣٧ .
(٢٩) تفسير ابن كثير ٧٨٣/٣ .
(٣٠) صحيح مسلم ٢٢٧/٩ـ٢٢٨ ، وانظر : مسند الامام احمد ١٩٥/٣ ، ثم قارن : تفسير النسفى ٣٠٤/٣ .

هذا وقد روى البخارى بسنده عن أنس قال : ان زينب بنت جحش، رضى الله عنها ، كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ ، فتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله تعالى من فــوق سبع سموات» ، وفى رواية ، وكانت (أى زينب) تفخر على نساء النبى ، ﷺ تقول : ان الله أنكحنى فى السماء»[٣١] .

وفى تفسير الطبرى أن الله تعالى زوج زينب للنبى ﷺ ، وبعث فى ذلك جبريل ، وكانت تفخر على نساء النبى ﷺ ، وتقول : «أنا أكرمكن وليا ، وأكرمكن سفيرا» ، وروى ابن جرير عن الشعبى قال : كانت زينب تقول للنبى ﷺ «انى لأدل عليك بثلاث ، ما من نسائك تدل بهن : ان جدى وجدك واحد ، تعنى عبد المطلب ، فانه أبو والد النبى ﷺ ، وأبو أمها أميمة بنت عبد المطلب وانى أنكحنيك الله عز وجل من السماء ، وأن السفير جبريل عليه السلام[٣٢] .

وهــكذا تلقى المسلمون عن نبيهم ، ﷺ ، من هــذا الزواج حكما اسلاميا ، أجمعت عليه الأمة بأسرها ، بسبب هــذا التطبيق النبــوى الشريف ، وهو : أن التبنى مرفوض فى الاسلام ، وأن محمدا ، ﷺ ، ليس أبا زيد ، وليس أبا لأحد من المسلمين ، ولكنه رسول الله ، وخاتم النبيين ، وصدق الله العظيم ، حيث يقول «ما كان محمدا أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين»[٣٣] ، وهذا الحكم مخالف للمعمول به عند المنتسبين للاديان الاخرى .

(٣١) صحيح البخارى ١٥٢/٩ ــ ١٥٣ .
(٣٢) تفسير ابن كثير ٧٨٢/٣ــ٧٨٣ .
(٣٣) سورة الاحزاب : آية ٤٠ .

الفصل الثالث

من أيام العـــرب فى الجـــاهلية

١ ـ قيمتها التاريخيـــة :

عرفت الحروب والمناوشات التى وقعت بين القبائل العربية : سواء أكانت بين القبائل بعضها مع بعض ، أو بين ملوك اليمن والقبائل ، أو بين الفرس والعرب،أو بين الملوك العرب والقبائل عرفت باسم «الايام» و «أيام العرب» وهى فى الواقع تكون الجزء الاكبر من علم الاخباريين بتأريخ الجاهلية ، ومادتها : القصص الذى تناقله الناس عمن شهدوها وحفظوه فى صدورهم ، الى أن كان التدوين فدون ، وهى مادة محبوبة عند العرب فى جاهليتهم واسلامهم ، ومن ثم فقد كانت ــ بجانب الشعر الجاهلى ــ من أهم المجالس[1] ، كما كان فيها مآثر الجاهلية ، ومكارم الاخـــلاق •

روى ابن عبد ربه فى «العقد الفريد» أنه : قيل لبعض أصحاب رسول الله ، ﷺ ، ما كنتم تتحدثون به اذا خلوتم فى مجالسكم ؟ قال : كنا نتناشد الشعر ، ونتحدث بأخبار جاهليتنا» •

وقال بعضهم : وددت أن لنا مع اسلامنا ، كرم أخـــلاق آبائنا فى الجاهلية ، ألا ترى أن «عنترة الفوارس» جاهلى لا دين له ، و «الحسن بن هانىء» اسلامى له دين ، فمنع عنتره كرمه ، ما لم يمنع الحســـن ابن هانىء دينه ، فقال عنترة فى ذلك :

وأغض طرفى ان بدت لى جارتى ... حتى يوارى جارتى مأواها

وقال الحسن بن هانىء ، مع اسلامه :

---

(١) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ٣٤١/٥ •

كان الشـــباب مطية الجهـــل ومحسـن الضحكت والهزل
والباعثى والناس قـد رقدوا حتى أتت حليـلة البعـل[٢]

ومادة أيام العرب عربية خالصة ، يتخللها شعر قيل فى تلك الايام . فى الفخر والحماسة ، وفى هجاء الخصم والانتقاص منه ، وهذا الشعر الذى حفظ لنا أخبار تلك الأيام ، ومن ثم فقد اعتمد المؤرخون على هذه المادة العربية الصرفـة فى تدوين تاريخ الجـاهلية ، وتتبع التطورات الاجتماعية والسياسية التى حدثت قبيل الاسلام[٣] .

على أن قيمة هذه المادة التاريخية انما تضعف كثيرا ، بسبب عـدم تنسيقها وتبويبها . طبقا لترتيب الوقائع وتسلسلها التاريخى ، كما أنه من الصعوبة بمكان استخراج مستند منها يمكن الاعتماد عليه فى تصنيف هذه الايام ، وتنظيمها على أساس تاريخى — مع أنها مادة المؤرخ فى التأريخ لجزيرة العـرب قبل الاسلام ؛ ودراسـة التطور السـياسى والاجتماعى فيها — وذلك لقلة معارفنا — فى أغلب الاحايين — عن أحوال من أسهم فيها ، وأجج نارها ؛ ومن قال فيها شعرا . هذا فضلا عن أن الاهواء الشخصية انما كان لها دور فى تسجيل هذه الايام ، فهناك الكثير ممن سجلوا هذه الايام ، انما كانوا بعيدين عن الحيدة التاريخية ؛ ومن هنا فقد كان الواحد منهم يشايع قومه ؛ فينسب اليهم الغلبة والتفوق . وفى نفس الوقت انما يعمل جاهدا على الغض من قدر خصومهم ؛ ثم يحاول أن يثبت ذلك كله بكلام منثور ، وآخر منظوم ، ليثبت صحـة ما يقول ، ومن ثم فقد وجب علينا ألا نصدق كل ما نقرأه من أيام العرب؛ حتى وان نسب الى خيرة من نثق بعلمهم من الرواة[٤] .

وأخيرا فان أيام العرب هذه انما تظهر لنا مميزات الروح العربية

---

(٢) ابن عبد ربه الاندلسى : العقـد الفريد — تحقيق عبد المجيد الترحينى — الجزء السادس — بيروت ١٩٨٣ ص ٣ .
(٣) انظر عن : الشعر الجاهلى كمصدر تاريخى (محمـد بيومى مهران — تاريخ العرب القديم — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٤٦ — ٥٢) .
(٤) جـواد على ٣٤١/٥ — ٣٤٣ وانظر : صبح الاعشى ٣٩٣/١ ، الفهرست ص ٨٥ العمدة ٢٠٠/٢ — ٢٠١ .

فى الجاهلية من عصبية وحمية ، نهضت بعقلية البدوى الى الفضيلة تارة، وهبطت به الى الرذيلة تارة أخرى ، وانكشفت فيها بواطن الخلق العربى ، فاذا بصاحبه مطبوع على الشعور الفردى ، عنيد صعب المراس ، تسوغ له أنفته وكبرياؤه القتال دفاعا عن قبيلته ، سواء أكانت ظالمة أو مظلومة ، باغية أم مبغى عليها ، ولهذا فهو يعمد الى مناوأة القبائل الاخرى ، قريبة كانت أم بعيدة ، الا أنه يأبى الانقياد الى النظام ، ولا يمتثل للاوامر العسكرية ، وانما يفضل تلك الحرب التى تعتمد على المناوشات والغارات الفجائية ، على مجابهة العدو فى معارك فاصلة(٥) .

٢ ـ أسبابها :

من البدهى أنه كان لأيام العرب هذه أسباب كثيرة ، منها عسف حكام القبائل القوية فى القبائل الضعيفة الخاضعة لهم . بسبب الاتاوة التى كانوا يلحون فى جبايتها ، دونما نظر لظروف تلك القبائل ، ومنها انحباس المطر وانقطاع الغيث ، ومن ثم تضطر بعض القبائل الى الهجرة الى مكان آخر فيه ماء (بئر أو ماء جار أو عين دائمة) والاستيلاء عليها عنوة أو قهرا ، ومنها الاخذ بالثأر ، ومنها محاولة القبائل المغلوبة التخلص من القبائل الغالبة أو القوية ، وذلك عند ظهور شخصية قوية فيها ؛ ومنها أن القبائل الضاربة على أطراف الحضارة شديدة الطمع فى الحضر، لما عندهم من رزق وافر ، ومن ماء ، ومن وسائل عيش رغيدة ، فتغزوهم ؛ ولهذا كان الحضر يعملون على تعزيز أنفسهم ، وذلك ببناء الحصون والآطام،ومراقبة الغزاة ، وشراء سلاح لا يتوفر عند الاعراب، من سيوف ماضية صلبة حادة ، ومن اتخاذ حرس من الرقيق والمرتزقة، هذا فضلا عن شراء سادات القبائل الضاربة حولهم بالمال والهدايا ، لمنع أعرابهم من التحرش بهم ، ولمنع الاعراب الغرباء من القرب منهم أو غزوهم .

ومنها أثر العلاقات الشخصية بين سادات القبائل ، من زواج

---

(٥) P. K. Hitti, History of The Arabs, London, 1960, p. 90.

وطلاق ، ومن حسد وتنافس ، ومن كلمة نابية قد تثير حربا بين شخصين، ومن عمل سفيه قد يثير غزوا بين حيين ، الى غير ذلك من عوامل معقولة مفهومة ، وأخرى تافهة سخيفة ، تجد لها مع ذلك مكانة فى القـلوب ، فتثير غزوا وتسبب نكبة لقـوم ضعاف فقراء ، لا ذنب لهم الا أنهم من قوم غضب عليهم آخرون .

وأيا ما كان الامر ، فلقد كان الغزو نتيجة ظروف طبيعية واقتصادية واجتماعية ، ألمت بالاعراب : وأجبرتهم على ركوب هذا المركب الصعب ـ كارهين أم راغبين ـ فليس للاعرابى من وسيلة للحفاظ على حيـاته وماله ، سوى الغزو ، فلقد حرمته ظروف البلاد القاسية من خيرات هذه الدنيا ، ومن طيبات ما تنبت الارض ، حرمته من وجود حكومة تحميه وتدافع عنه ، وحرمته حتى من وسائل الدفاع عن النفس ، ضد الطبيعة القاسية ، والحيوانات المتوحشة ، فلم يكن أمامه ـ والحـال هذه ـ الا أن يعلم نفسه الصبر ، وأن يصبر محـاربا غازيا لا يبالى بالنصر أو الهزيمة ؛ ان خسر جولة ، حاول تعويضها فى جولة أخرى ، لانه ان يئس واستسلم ، أكله جار له يطمع فى ماله ، وان كان قليـلا ، ومن ثم فلابد أن يستعد لغزو آخر(٦) .

٣ ـ أنواعهـــا :

انقسمت أيام العرب الى أنواع مختلفة ، من حيث القبائل المتقاتلة، فمنها ما وقع بين قبائل قحطانية ، وذلك مثل يوم البردان ويوم الكلاب الاول وعين أباغ ويوم حليمة ويوم اليحاميم وأيام الاوس والخزرج . على أن هناك نوعا آخر ، وقع بين القحطانيين والعدنانيين ، وذلك مثل يوم البيضاء ويوم طخفة ، ويوم أوارة الاول والثانى ، ويوم السلان ويوم خزاز ويوم حجر ويوم الـكلاب الثانى ويوم فيف الريح ويوم ظهر الدهناء .

وهناك نوع ثالث ، وقع بين القبائل العدنانية نفسها ، كالتى وقعت بين قبائل ربيعة بعضها ضد بعض ، وتلك التى وقعت بين ربيعة وتميم،

---

(٦) جواد على ٣٣٤/٥ ـ ٣٣٦ .

وتلك التى وقعت بين قبائل قيس فيما بينها ، وما وقع بين قيس وكنانة، وما وقع بين قيس وتميم ، وأخيرا هناك أيام وقعت بين العرب والفرس، كيوم الصفقة ويوم ذى قار •

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن الايام التى وقعت بين القبائل العدنانية أكثر بكثير من تلك التى وقعت بين القبائل القحطانية ، وذلك لأسباب من أهمها أن القبائل العدنانية انما كانت أكثر بداوة من القحطانية ، ومن المعروف أن من طبع البداوة الفردية والخصومة والتنازع والتحاسد ، بسبب ضيق العيش ، وقلة الماء ، وتحول القبائل من مكان الى آخر ، وراء الماء والكلأ ، ومن ثم فقد قل اجتماع العدنانيين تحت رئيس واحد ، بل انهم انما كانوا يفضلون الخضوع لرئيس بعيد عنهم ، على الخضوع لرئيس منهم ، ومن ثم فقد خضعوا للملوك المنازرة أو الغساسنة أو لكندة أو التبابعة ، ونفروا من الخضوع لرئيس عدنانى، لعقدة التنافس بين ذوى القربى •

هذا وقد اشتهرت القبائل العدنانية بشدة المراس ، وبالشجاعة وحب القتال ، وفى الواقع أن هذه القبائل العدنانية ، لو قدر لها أن تتحد تحت زعامة رجل واحد ، لكانت قوة لا تغلب ، أو من الصعب أن تغلب ، ـ الامر الذى لم يحدث الا فى الاسلام ـ ولعل هذه الفرقة انما كانت السبب فى خضوع العدنانيين مرات ومرات لحكم القحطانيين ، وطبقا لرواية الاخباريين ، فقد كان القحطانيون يعينون على العدنانيين حكاما وأمراء ، بل ان هناك من يذهب الى أن ذلك انما كان يحدث بطلب من العدنانيين[7] •

وهنالك رواية تذهب الى أن سفهاء بكر قد غلبوا على عقلائها ، وأن القوى منهم قد أكل الضعيف ، فنظر العقلاء فى أمرهم ، ثم استقر الرأى عندهم على أن يملكوا عليهم ملكا ، يأخذ للضعيف من القوى ، فنهاهم العرب وعلموا أن هذا لا يستقيم بأن يكون الملك منهم ، لانه

---

(٧) جواد على ٣٤٤/٥ ـ ٣٤٥ •

يطيعه قوم ويخالفه آخرون ، ومن ثم فقد صاروا الى بعض تبابعة اليمن ، وكانوا للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين ، وطلبوا منهم أن يملكوا عليهم ملكا ، فكان ذلك الملك هو « حجر بن عمرو آكل المرار »[٨] ، وهكذا قامت دولة كندة[٩] .

٣ ـ من أشهر أيام العرب :

أولا ـ بين القبائل القحطانية :

وهى الايام التى حدثت فى معظمها بين المناذرة والغساسنة[١٠] ، وبين الاوس والخزرج[١١] ، هذا وقد تميزت الحروب بين المناذرة والغساسنة بأن الجيوش العربية انما كانت تحارب بعضها البعض الاخر ، بينما كان الروم يحاربون الفرس ، وهكذا كان العربى يقتل أخاه العربى ، ابتغاء مرضاة الفرس أو الروم ، أو حبا فى المغامرة ، وفى أحسن الفروض ، ايفاء بما وعد به الملك الغسانى أو اللخمى ، أصدقاءه الروم أو الفرس ، ان كان الوفاء بالوعد يبيح قتل الاخ لاخيه ، ارضاء لصديق أو سيد .

وأما الايام التى كانت بين الاوس والخزرج ، فقد بدأت بعد غلبة القوم على يهود يثرب (المدينة المنورة) فى أخريات القرن الخامس الميلادى ، فيما يرى سديو ، ومن ثم فقد أصبح للحيين العربيين كيان سياسى فى يثرب ، يفوق ما كان لليهود فيها ، ومن أسف أن القوم

(٨) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ١/٥١١ ـ ٥١٢ ، الهمدانى : الاكليل ١/١٤٥ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ٦/٧٨ .

(٩) انظر عن دولة كندة (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٩٩ ـ ٦٢٥) .

(١٠) يذهب المؤرخون العرب الى ان المناذرة والغساسنة انما هم عرب جنوبيون (قحطانيون) ، غير أن بعض العلماء المحدثين يرجحون أنهم من عرب الشمال ، لاسباب منها أن لغة المناذرة ، وكذا الغساسنة ، انما هى لغة عدنانية ، أكثر منها قحطانية ، بل انها لا تمت الى الحميرية الجنوبية بصلة ، ومنها ان اسماءهم تشبه فى مجموعها اسماء عرب الشمال ، وكذا العادات والدين ، والتى هى أكثر انطباقا على ديانة وعادات عرب الشمال (محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الاسلام ص ٩٦) .

(١١) أنظر عن : الاوس والخزرج (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٥٥ ـ ٤٨٢) .

ما لبثوا أن أصيبوا بلعنة الصراع القبلى ، وتحولت المشاحنات التى كانت بينهم وبين يهـود ، الى مشاحنات بينهم وبين بعضهم البعض الاخر . أدت الى قيام الحرب بين الحيين العربيين ، لعبت فيها العوامل السياسية والتنافس على الزعامة فى يثرب دورا كبيرا ، هذا فضلا عن العوامل الاقتصادية التى تتلخص فى رغبة كل من الفريقين فى الاستيلاء على ما عند يهود ، ثم حدث أن احتل الاوس بقاعا أخصب وأغنى من تلك التى احتلها الخزرج ، فى الوقت الذى كان الخـزرج يتمتعون فيه بمركز الصدارة ، لان نصرة العرب على يهود انما جاءت على يد رجل من الخزرج : هو مالك العجلان .

وهكذا كان الخزرج ينفثون على الاوس مكانتهم الاقتصادية ، بينما كان الاوس ينفثون على الخزرج مكانتهم السياسية ، حدث هذا فى وقت كانت فيه سياسة يهود مع القبائل العربية ، انما تقوم على الايقاع بينها ، واثارة الاحقاد بين المتخاصمين منهم ، كلما جنحوا الى السلم ونسيان الاحقاد ، وتعاهدوا على الصلح والامان ، ومن ثم فقد عملت يهود على اذكاء روح التحاسد والتباغض التى بدأت تظهر فى سماء العلاقات بين الحيين العربيين الشقيقين ، حتى يشعلوا نارا ، ان لم تقض على الاوس والخزرج معا ، فعلى الاقل تشغل كل فريق بالاخر ، وتنتهز يهود الفرصة استعدادا لجولة قادمة ، أو على الاقل الحفاظ على ما هى عليه .

هذا وقد حققت يهود نجحا بعيد المدى فيما تسعى اليه من اثارة الفتن بين الاوس والخزرج ، ودقت طبول الحرب بين الحيين العربيين ، تناوب فيها الفريقان النصر والهزيمة ، وكان أهمها ما عرف بحرب سمير ، وحرب كعب بن عمرو المازنى(١٢) ، وحرب حاطب بن قيس(١٣) ، فضلا عن يوم السرارة(١٤) ويوم فـارع(١٥) ، ويوم الربيـع(١٦) ويـوم

(١٢) ابن الاثير ٦٦٠/١ ــ ٦٦٢ ، السمهودى : وفاء الوفا ١٥٢/١ ، محمد جاد المولى وآخرون : ايام العرب فى الجاهلية ص ٦٩ــ٧١ .
(١٣) ابن الاثير ٦٦٧/١ ــ ٦٧٢ .
(١٤) ابن الاثير ٦٦٢ ــ ٦٦٥ .
(١٥) ابن الاثير ٦٦٨/١ ــ ٦٧١ .
(١٦) ابنا لاثير ٦٧٢/١ ــ ٦٧٣ .

البقيع[١٧] ويوم الفجار الاول والثانى[١٨] وحرب الحصين بين الاسلت[١٩] ، ثم حرب بعاث ، وكان أولها حرب سمير ، وآخرها حرب بعاث ، قبل الهجرة النبوية الشريفة بسنوات خمس[٢٠] (حوالى عام ٦١٧ م) .

وعلى أية حال ، فان أشهر أيام القحطانيين بصفة عامة ، انما هى :

١ - يوم البردان :

يروى الاخباريون عن هذا اليوم ، أن «حجر بن عمرو آكل المرار» ملك كندة ، قد سار بقبائل ربيعة لغزو البحرين ، فعلم بذلك «زياد بن الهبولة» من سليح بن حلوان ، فأغار على «غمر كندة» وقتل من وجد من الرجال ، واستولى على الاموال ، وسبى النساء ، ومن بينهم «هند» زوج حجر نفسه ، وما أن يعلم «حجر» بهذا الامر ، حتى يسرع فيدرك «زياد» عند «البردان» فينزل على ماء يقال له «الحفير» ، على مقربة من عين أباغ بين الفرات والشام ، ويرسل رجالا يأتوه بخبر زياد ، وهنا يعلم عن طريق رجل يقال له «سدوس» ، أن «هندا» راضية بما حدث ، وأنها قد أجابت زيادا عن موقف زوجها حجر : «انه والله لن يدع طلبك حتى تعاين القصور الحمر ، يعنى قصور الشام ، وكأننى به فى فوارس من بنى شيبان ، يذمرهم ويذمرونه ، وهو نديد الكلب ، تزبد شفتاه كأنه بعير أكل مرارا ، فالنجاء النجاء ، فان وراءك طلبا حثيثا ، وجمعا كثيفا ، وكيدا متينا ، ورأيا صليبا» .

وما أن ينتهى «سدوس» من روايته ، حتى يعبث حجر بالمرار ، ويأكل منها غضبا وأسفا ، ولا يشعر أنه يأكل من شدة الغضب فسمى

---

(١٧) ابن الاثير ٦٧٣/١ - ٦٧٥ .
(١٨) ابن الاثير ٦٧٦/١ - ٦٨٠ .
(١٩) ابن الاثير ٦٦٥/١ - ٦٦٦ .
(٢٠) ابن الاثير ٦٥٥/١ - ٦٨٤ ، الاغانى ١٩/٣ - ٤٢ ، وفاء الوفا ١٥٢/١ ، ١٥٥ ، اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٦٨ .

يومئذ «بآكل المرار»(٢١) ، ثم سرعان ما تقوم معركة حامية الوطيس بين الفريقين ، ينال فيها «زياد» هزيمة منكرة ، ثم يقع فى أسر سدوس ، وتنجح بكر فى استرداد ما سلبه زياد من غنائم وسبى ، ثم يأخذ حجر هندا فيربطها فى فرسين ؛ ثم يركضهما ، فشقاها نصفين على رواية،وأنه قد أحرقها على رواية أخرى ، ثم عاد الى الحيرة وقال فيها :

ان من غره النساء بشيء ... بعد هند لجاهل مغرور
حلو العين والحديث ومر ... كل شيء أجن منها الضمير
كل انثى وان بدا لك منها ... أية الحب حبها خيتعور(٢٢)

على أن رواية على هذا النحو ؛ انما تعترضها عقاب كثيرة ، منها (أولا) أن هناك من يرى أن من هاجم ديار «حجر» انما هو «الحارث بن الاهيم الغسانى» على رواية ، والحارث بن جبلة على رواية أخرى ، ودون ذكر لاسم الذى أغار على «غمر كندة» على رواية ثالثة ، وهو الحارث بن منذلة الضجعى من بنى سليح ، على رواية رابعة ، وهو عمرو بن الهولة الغسانى ، على رواية خامسة(٢٣) ، ومنها (ثانيا) أن الاسيرة — فى رواية أخرى — ليست هندا ، وانما هى قينة من أحب قيان حجر الى نفسه(٢٤) .

---

(٢١) انظر تفسيرات اخرى عن تسمية «آكل المرار» (سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ص ٢٣٢ ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ٧٤/١ ، اللسان ١٧١/٤ وكذا
Cuassin de Perceval, Essai sur L'Histoire des Arabes avant L' Islamisme II, Paris, 1847, p. 267.
وكذا P. K. Hitti, op-cit, p. 85.

(٢٢) ابن الاثير ٥٠٦/١ — ٥١١ ، ابن دريد : الاشتقاق ٢٢/١ ، الاغانى ٨٢/١٥ ، الجاحظ : البيان والتبيين ٣٢٨/٣ ، تاج العروس ٣٠٠/٢ ، القاموس المحيط ٢٧٧/١ ، ايام العرب فى الجاهلية ص٤٢-٤٥ .

(٢٣) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ٨٦ ، جواد على ٣٢٢/٣- ٣٢٣ ، منتخبات ص ٩٧ ، الاغانى ٦٣/١٣ ، وكذا
G. Olinder, The Kings of Kindah, of The Family of Akil al-Mirir, Lund, 1927, p. 44-45.

(٢٤) جواد على ٣٢٢/٣ ، منتخبات ص ٩٧ .

ومنها (ثالثا) أن ابن الاثير[٢٥] ، سرعان ما يدرك الخطأ فى الرواية، لان ملوك بنى سليح انما كانوا بأطراف الشام عمالا للروم ، ثم خلفهم الغساسنة فى مكانتهم هذه ، وأما الحيرة فكانت ملكا للخميين ، ومن ثم فان عودة حجر الى الحيرة بعد انتصاره على زياد لا تتفق والحقـائق التاريخية ، صحيح أن الفرس على أيام «قباذ» (٤٤٨ — ٥٣١م) قد استعملوا ملوك كندة على الحيرة ، ولكنه صحيح كذلك أن ذلك انما حدث بعد وفاة «آكل المرار» ، وعلى أيام حفيده «الحارث» ، ثم أن «زياد بن الهبولة» هذا ، انما كان يعيش قبل «آكل المرار» بفترة طويلة ، ومن ثم فانه يفترض أن «زيادا» انما كان رئيسا لقوم ، أو متغلبا على بعض أطراف الشام ، أضف الى ذلك كله أن هناك من يرى أن الذى غزا «آكل المرار» انما كان «غالب بن هبولة» ، وأنه لم يشر أبدا الى عودة «آكل المرار» الى الحيرة[٢٦] .

٢ — يوم الكلاب الاول :

تشير روايات الاخباريين الى أن «الحارث بن عمرو المقصور»[٢٧]، حفيد آكل المرار ، انما كان أقوى ملوك كندة قاطبة ، وأشدهم بأسـا وأعظمهم شخصية ، وأكثرهم طموحا ، وقد ساعدته الظروف فأصبح أعداؤه من بنى بكر وتغلب — بعد حرب البسوس التى دامت أربعـين عاما — فى حالة ضعف شديد ، ومن ثم فقد نجح الحارث فى أن يعيد سلطانه على قبائل ربيعة فى نجد ، وعلى بنى أسد وبنى كنانة وبنى بكر، ثم سرعان ما كتب له نجحا بعيد المدى فى توسيع مملكة كندة ، حتى أنه استطاع آخر الامر أن يضم اليه ملك آل لخم ، وأن يجلس على عرشهم

---

(٢٥) ابن الاثير ١/٥١٠ — ٥١١ .

(٢٦) محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٦٠٦ — ٦٠٧ .

(٢٧) اختلف المؤرخون فى فترة حكم الحارث بن عمرو المقصـور ، فذهب رأى الى أنها فى الفترة (٤٩٥—٥٢٨م) وذهب رأى آخر الى أنها فى الفترة (٤٩٥—٥٢٤م) ، وذهب رأى ثالث الى أنهـا فى الفترة (٤٩٠ — ٥٢٨م) (انظر : عبد العزيز سالم : عصر ما قبل الاسلام ص ٤١١ ، وكذا
G. Olinder, op-cit, p. 54-56.
وكذا Caussin de Perceval, op-cit. II, p. 286.

فى الحيرة نفسها[٢٧] ، فيما بين ٥٢٥م ، ٥٢٩م[٢٨] .

وهكذا اتسع ملك الحارث وعظم شأنه : وجعل أولاده ملوكا على القبائل ، فكان «حجر» على بنى أسد وغطفان : وكان «شرحبيل» على بكر بن وائل بأسرها ؛ وعلى عدد من القبائل الاخرى ، وكان «معد يكرب» على قيس بن عيلان وطوائف من غيرهم ، وكان «سلمة» على بنى تغلب والنمر بن قاسط ، وعلى بنى سعد زيد مناة من تميم[٢٩] .

على أن ملك الحارث لم يستمر طويلا فى العراق ، فقد طرده من هناك «المنذر الثالث» (٥٠٦ أو ٥٠٨ — ٥٥٤م) ثم سرعان ما تتبع الحارث الكندى وأهله ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، وعلى رأسهم الحارث نفسه[٣٠] ، ويبدو أن المنذر اللخمى لم يرضه كل ذلك ، ولم يقنع بما آل اليه أمر بنى الحارث الكندى بعد موت أبيهم ، فقد تفرقت كلمتهم ؛ ومشت الرجل بينهم ، وتفاقم أمرهم حتى جمع كل واحد منهم لصاحبه الجموع ، وزحف اليه بالجيوش ، وكان المنذر من وراء ذلك ، حتى أنه وجه الى «سلمة» بهدايا ؛ ثم دس الى «شرحبيل» من قال له «ان سلمة أكبر منك وهذه الهدايا تأتيه من المنذر» ؛ ومازال المنذر يغرى كل واحد منهما بمحاربة الاخر ، حتى نشبت الحرب بينهما ، فى يوم عرف بين العرب

---

(٢٨) اختلف المؤرخون فى مقر الحكم الذى اختاره الحارث الكندى فى العراق ، فذهب رأى الى أنه فى الحيرة ، وذهب رأى آخر الى أنه فى الانبار ، ونقع على مبعدة ٤٠ ميلا الى الشمال الغربى من بغداد ، على أن هناك فريقا ثالث يرى أن الرجل كان سيارة فى أرض العرب (ابن الاثير ٥١٢/١ ، الاغانى ٦٢/٨ ، البكرى ١٩٧/١ ، حمزة الاصفهانى : تاريخ سنى ملوك الارض والانبياء ص ٧٢ ، ٩٣ ، وكذا .

G. Rothstein, Die Dynastie der Lackmiden, in al Aira, Berlin, 1899, p. 88.

وكذا P. K. Hitti, op-cit, p. 79, 82.

(٢٩) ابن الاثير ٥١٣/١ــ٥١٤ ، المفضل الضبى : المفضليات ص٤٢٧ــ٤٢٨ ، تاريخ اليعقوبى ٢١٧/١ ، تاريخ ابن خلدون ٢٧٤/٢ ، ابن حبيب المحبر ص ٣٦٩ ــ ٣٧٠ ، الاغانى ٨٢/٩ ، حمزة الاصفهانى : المرجع السابق ص ٩٢ ، أيام العرب فى الجاهلية ٤٦ ، ١١٢ ، وكذا .

EI, II, p. 1018.

وكذا G. Olinder, op-cit, p. 82.

(٣٠) انظر : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص٦١٥ــ٦١٦

باسم «يوم الكلاب الاول» ، وهو ماء بين الفرات والكوفة ؛ أعلن فيه كل من الاخوين عن جائزة مقدارها مائة من الابل ، لمن يأتيه برأس أخيه؛ وكان يوما عصيبا اشتدت فيه الحرب حتى آخر النهار ، وانتهى بقتل «شرحبيل» .

وتذهب الرواية الى أن «ذا السنينة التغلبي» تبع شرحبيل،فالتفت اليه شرحبيل فضربه على ركبته فأطن رجله ، وكان ذو السنينة أخا أبى حنش لأمه ، فقال لاخيه : قتلنى الرجل ، وهلك ذو السنينة فقال أبو حنش لشرحبيل : قتلنى الله ان لم أقتلك ، وحمل عليه فأدركه ، فقال يا أبا حنش : اللبن اللبن ، يعنى الدية ، فقال : قد هرقت لبنا كثيرا ، فقال يا أبا حنش ، أملكا بسوقة ، فقال : ان أخى ملكى ، فطعنه فألقاه عن فرسه ، ونزل اليه فأخذ رأسه ، وبعث به الى سلمة ، مع ابن عم له، فأتاه به وألقاه بين يديه ، فقال سلمة : لو كنت ألقيته أرفق من هذا ، وعرفت الندامة فى وجه سلمة ، والجزع عليه ، فهرب أبو حنش منه(٣١).

٣ ـ يوم عين اباغ :

وكانت بين ملك غسان «الحارث بن جبلة» (٥٢٨ ـ ٥٦٠م) والمعروف بالاعرج ، وبين ملك الحيرة اللخمى «المنذر بن امرىء القيس» (٥٠٦ أو ٥٠٨ ـ ٥٥٤م) والمعروف بالمنذر الثالث ، وبذى القرنين بسبب ضفيرتين كانتا له ، وبابن ماء السماء (وهو لقب أمه) عند «عين أباغ» بذات الحيار ، حيث قامت معركة رهيبة عام ٥٥٤م ، انتهت بقتل المنذر نفسه، فضلا عن ابن للحارث يدعى «جبلة» دفنه أبوه فى قلعة «عين عوداجة» على مقربة من «قنسرين» ، وربما كانت «عذبة» الحالية على مقربة من الطريق الرومانى ، على أن «نولدكة» انما يذهب الى أن الموقعة قد حدثت على مقربة من «الحيار» ، ربما اعتمادا على رواية عربية تجعل

(٣١) ابن الاثير ٥٤٩/١ـ٥٥٢ ، البكرى ١١٣٢/٤ ، ياقوت الحموى ٤٧٢/٤ـ٤٧٣ ، نهاية الارب ٤٠٦/١ ، صحيح الاخبار ٤٤/١ـ٤٥ ، العقد الفريد ٧٨/٦ ، ٢٢٢/٥ ، تاريخ اليعقوبى ٢١٧/١ـ٢٢٥ ، تاريخ ابن خلدون ٢٧٤/٢ ، أيام العرب فى الجاهلية ص ٤٧ـ٤٨ ، بلوغ الارب ٧٢/٢ ، جرجى زيدان : العرب قبل الاسلام ـ بيروت ١٩٦٨ ص٢٢٧ـ٢٢٧

موت المنذر فى هذا المكان قريبا من قنسرين[٣٢] .

ويروى ابن الاثير فى الكامل أن المنذر نزل «عين أباغ» وأرسل الى الحارث يقول «اما أن تعطينى الفدية فأنصرف عنك بجنودى ، واما أن تأذن بحرب» ، فأرسل اليه الحارث : أنظرنا ننظر فى أمرنا ، فجمع عساكره وسار نحو المنذر ، وأرسل اليه يقول : انا شيخان فلا نهلك جنودى وجنودك ، ولكن يخرج رجل من ولدى ويخرج رجل من ولدك ؛ فمن قتل خرج عوضه آخر ، واذا فنى أولادنا خرجت أنا اليك ، فمن قتل صاحبه ذهب بالملك ، فتعاهدا على ذلك ، فعمد المنذر الى رجل من شجعان أصحابه فأمره أن يخرج فيقف بين الصفين ويظهر أنه ابن المنذر، فلما خرج أخرج اليه الحارث ابنه أبا كرب ، فلما رآه رجع الى أبيه وقال : ان هذا ليس بابن المنذر ، انما هو عبده أو بعض شجعان أصحابه، فقال : يا بنى أجزعت من الموت ؟ وما كان الشيخ ليغدر ، فعاد اليه وقاتله فقتله الفارس وألقى رأسه بين يدى المنذر ؛ وعاد فأمر الحارث ابنا له آخر بقتاله والطلب بثأر أخيه . فخرج اليه ؛ فلما واقفه رجع الى أبيه وقال : يا أبت هذا والله عبد المنذر ، فقال يا بنى ما كان الشيخ ليغدر . فعاد اليه فشد عليه فقتله .

فلما رأى ذلك «شمر بن عمرو الحنفى» وكانت أمه غسانية ، وهو مع المنذر . قال : أيها الملك ان الغدر ليس من شيم الملوك ولا الكرام؛ وقد غدرت بابن عمك دفعتين ، فغضب المنذر وأمر باخراجه ؛ فلحق بمعسكر الحارث فأخبره ، فقال له : سل حاجتك ، فقال له : حلتك وخلتك ؛ فلما كان الغد عبى الحارث أصحابه وحرضهم ؛ وكان فى أربعين

---

(٣٢) تيودور نولدكه : امراء غسان من آل جفنة ، ترجمة قسطنطين رزيق وبندلى جوزى ـ بيروت ١٩٣٣ ص ١٨ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٤٨ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٢١٨ ، ثم قارن : أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ٨٤/١ ، وانظر :

P. K. Hitti, op-cit, p. 85.

وكذا A Musil, Palmyrena, New York, 1928, p. 144.

وكذا J. B. Bury, A History of The Eastern Roman Empire..., London, 1912, p. 92.

ألفا واصطفوا للقتال ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فقتل المنذر وهزمت جيوشه ، فأمر الحارث بابنيه القتيلين ، فحملا على بعير بمنزله العدلين ، وجعل المنذر فوقهما فودا ، وقال «يالعلاوة دون العدلين» فذهب مثلا ، وسار الى الحيرة فأنهبها وأحرقها ودفن ابنيه بها ، وبنى الغريين عليهما فى قول بعضهما ، وفى ذلك يقول الشاعر :

كم تركنا بالعين عين أباغ   من ملوك وسوقة أكفاء
أمطرتهم سحائب الموت تترى   ان فى الموت راحة الاشقياء
ليس من مات فاستراح بميت   انما الميت ميت الأحياء(٢٣)

٤ ـ يوم حليمة :

يذهب الاخباريون الى أن هذا اليوم انما كان بين المنذر بن المنذر بن ماء السماء ، وبين الحارث الاعرج الغسانى ، انتقاما لمقتل المنذر بن ماء السماء ، وأن المنذر قد كتب للحارث يقول «قد أعددت لك الكهول على الفحول» فأجابه الحارث : قد أعددت لك المرد على الجرد ، فسار المنذر حتى نزل بمرج حليمة ، فتركه من به من غساء للاسود ، وانما سمى «مرج حليمة» بحليمة بنت الحارث الغسانى ، ودارت الحرب بين الفريقين وانتهت بنصر مؤزر للغسسنة ، وهزيمة منكرة للمناذرة ، وقتل المنذر نفسه •

على أن رواية أخرى ، تذهب الى أن الحارث الغسانى خطب الى المنذر اللخمى ابنته ، حتى يحل السلام محل الحرب ، بين لخم وغسان ، فزوجه المنذر ابنته «هندا» ، وكانت لا تريد الرجال ، فصنعت بجلدها شبها بالبرص وقالت لأبيها : أنا على هذه الحالة وتهدينى لملك غسان ؟ فندم على تزويجها فأمسكها ، ثم ان الحارث أرسل يطلبها فمنعها أبوها ، واعتل عليه(٣٤) ، وهكذا قامت الحرب بينهما •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك خلافا بين الرواة فى

---

(٢٣) ابن الاثير ١/٥٤١ـ٥٤٢ ، ثم قارن العقد الفريد ٦/١٠٩ـ١١١ (بيروت ١٩٨٣) •
(٣٤) ابن الاثير ١/٥٤٢ـ٥٤٤ •

مدة الايام وتقديم بعضها على بعض ؛ كما اختلفوا فى المقتول من ملوك المناذرة ، بل ان هناك من يجعل اليومين (يوم عين أباغ ويوم حليمة) يوما واحدا ، ويذهب ابن الاثير الى أن القتيل انما هو المنذر بن مـاء السماء ، وأن الحادثة واحدة ، ومن ثم فقد رأينا «نولدكه» لا يفرق بين المواضع والمعـارك التى دارت فى «الحيار» و «ذات الحيار» و «يوم الحيارين» التى ترددت فى كتب التاريخ والشعر العربى ، كما يرى أنها جميعا تشير الى معركة واحدة ، لقى المنذر فيها حتفه(٣٥) .

وأما تسمية هذا اليوم باسم «يوم حليمة» ، فذلك لان حليمة بنت الحارث الغسانى انما كانت ـ طبقا للرواية العربية ـ تحرض الرجال على القتال ، أو لان أباها قد أعلن أنه سيزوجها لمن يقتل المنذر ، أو لانها كانت قد أقبلت على مائة من المحـاربين تطيب أجسـامهم ، وتلبسهم الاكفان والدروع ، وأيا ما كان الامر ، فهناك ما يشير الى شهرة هـذا اليوم من بين أيام العرب فى الجاهلية ، فقد جاء ذكره فى شعر «النابغة الذبيانى» ، كما جاء فى الامثال «ما يوم حليمة بسر» ، وان كان «نولدكة» يذهب الى أن اسم «حليمة» هذا، انما هو اسم مكان، وليس اسم امرأة، هى ابنة الحارث الغسانى ، طبقا لرواية الاخباريين(٣٦) .

٥ ـ يوم سمـــير :

كان يوم سمير ، طبقا لرواية الاخباريين ، كأغلب أيام العرب، لسبب غير خطير ، ذلك أن رجلا من بنى ذبيان ، يقال له «كعب الثعلبى» ؛ نزل ضيفا على «مالك بن العجلان» ، ثم خرج الى سوق بنى قينقاع ، فرأى رجلا من «غطفان» معه فرس ، وهو يقول «ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب» فقال كعب : مالك بن العجلان ، فسمعه «سمير» الاوسى، فشتمه ثم قتله بعد مدة فى حديث طويل .

---

(٣٥) ابن الاثير ٥٤١/١ ، نولدكه : المرجع السابق ص ١٩ ـ ٢٠ ، البكرى ٤٦٥/٢ ، صحيح الاخبار ١٣/٤ ـ ١٤ .

(٣٦) ابن الاثير ٥٤٢/١ ـ ٥٤٧ ، نولدكه : المرجع السابق ص ١٩ ـ ٢٠ ، ديوان النابغة ص ٣٧ معجم الحموى ٢٩٦/١ ـ ٢٩٧ ، صحيح الاخبـار ١٣/٤ ـ ١٤ .

وخاف الحيان أن تنشب الحرب ، وقبل الاوس أن يدفعوا للخزرج دية الحليف ، وهى نصف دية النسيب ، غير أن الخـزرج أبو الا دية الصريح ، ولج الامر بينهم حتى أتى الى المحاربة ، فاجتمعوا واقتتلوا قتالا شديدا ، على مقربة من «قباء» ، ثم انصرفوا منتصفين ، ثم التقوا مرة ثانية عند «اطم» لبنى قينقاع فانتصر الاوس •

وانتهى الامر بين الحيين الى أن يحتكموا الى «المنـذر بن حرام» الخزرجى ، جـد حسان بن ثابت ، الذى حكم بأن تدفـع الاوس دية الصريح ، وانتهت الحرب ، وان افترق القوم ، وقد شبت البغضاء فى نفوسهم ، وتمكنت العداوة بينهم(٣٧) •

٦ ـ يوم بعـــاث :

وكان هذا اليوم آخر الحروب بين الاوس والخزرج ، وقبـل هجرة المصطفى ، ﷺ ، بخمس سنوات ، وتروى المصادر العربية أن الحروب السابقة بين الاوس والخزرج ، انما كانت فى غالبيتها للخزرج ، ومن ثم فقد رأى الاوس محالفة بنى قريظة من يهـود يثرب ، فأرسلت اليهم الخزرج : «لئن فعلتم فأذنوا بحرب» فتفرقوا وأرسلوا الى الخـزرج «انا لا نحالفكم ولا ندخل بينكم» •

ومع ذلك فقد استمر كل من الاوس والخزرج يستميل يهود اليه ، فضلا عن قبائل عربية أخرى ، وقام اليهود بأخطر الادوار فى اشعال نار الحرب بين الحيين العربيين ، بغية تفتيت وحدتهم ، وأمـلا فى أن يكتب لهم نجاح فى القضاء على الوحدة العربية فى يثرب ، وبالتالى عودة السيادة لهم فى المدينة من جديد •

---

(٣٧) ابن الاثير ٦٥٨/١ـ٦٦٢ ، الاغانى ١٦١/٢ـ١٦٤ ، المفضل الضبى : المفضليات ص ١٣٥ ، بن دريد : الاشتقاق ٢٦٦/١ ، المقدسى : كتاب البدء والتاريخ ١٣٠/٣ ، جرجى زيدان : المرجع السابق ٦٦١ـ ٦٣٢ ، محمد جاد المولى وآخرون : أيام العرب فى الجاهلية ص ٦٢ـ٦٨ ، أحمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول ـ القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٣٣ ، ابن رستة : الاعلاق النفيسة ص ٦٤ ، السمهودى : وفاء الوفاء ١٥٢/١ ، ثم قارن : عمر فروج : تاريخ الجاهلية ـ بيروت ١٩٦٤ ص ١٢٣ ـ ١٢٤ •

وهكذا جدد بنو قريظة والنضير تحالفهم مع الاوس ، ثم ضموا اليهم قبائل أخرى من يهود ، واستعدوا للحرب ، وخشى الخزرج أن تنزل بهم هزيمة ، فراسلوا حلفاءهم من بنى أشجع وبنى جهينة،وأرسل الاوس الى حلفائهم من بنى مزينة ليستعدوا لمناصرتهم ضد الخزرج .

وأخيرا نشبت الحرب بين الفريقين عند «بعـاث» ـ حصن بنى قريظة ـ وانهزم الاوس فى اليوم الاول ، غير أن « عمرا بن النعمان » قائد الخزرج ، سرعان ما قتل ، وانتهز الاوس الفرصة فمالوا على الخزرج ميلة رجل واحد ، يقتلون رجالهم ، ويحرقون منازلهم ونخيلهم، بعد أن كانت يهود قد نهبت ما استطاعت من أموالهم ، ولم ينقذ الخزرج من الكارثة ، الا خشية الاوس من أن يستعيد اليهود مركزهم السابق فى يثرب ، فيضطروا الى مواجهتهم منفردين بعد القضاء على الخزرج ، وفعلا فلقد بدأت نيات يهود واضحة فى تحطيم الخزرج واذلالهم ، خاصة وأنهم أصحاب اليد الطولى فى القضاء على نفوذ اليهود فى المدينة ، ومن ثم فقد فضلت الاوس الاكتفاء بالقضاء على روح التسلط فى الخزرج ، وصاح واحد منهم : «يا معشر الاوس ، أحسنوا ولاتهلكوا اخوانكم ، فجوارهم خير من جوار الثعالب» .

ويروى أن السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، قالت عن هذا اليوم «كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ ، وقد افترق ملؤهم وقتل سرواتهم وجرحوا ، قدمه الله لرسوله ، ﷺ ، فى دخولهم الاسلام» ، ذلك لان يوم بعاث قد أضعف بطون يثرب كلها، وأوجد فيها ميلا الى الاتحاد ، كما أضعف كذلك روح العداوة والحقد فى بطون يثرب ، حتى أخذ الناس ينصرفون لاعمالهم ويتذوقون لذة الراحة وهناءة العيش وصفاء البال ، وكانوا كلما هم أحدهم أن يصب زيتا حارا على نار المداوة الكامنة فى القلوب ليزيد ضرامها ، ويعظم من أوارها ، سعى كثير من الزعماء وذوى النفوذ من الطرفين ، لكف يده حتى لاتسل السيوف من أغمادها ، وجاء الاسلام واتفقت الكلمة ، واجتمع الاوس والخزرج على نصرة الاسلام وأهله ، وكفى الله المؤمنين شر القتال ،

وأصبح القوم بنعمة الله اخوانا[٣٨] .

ثانيا ـ بين القحطانيين والعدنانيين :

١ ـ يوم أوارة الاول :

أشرنا من قبل الى يوم «الـكلاب الاول» الذى حـدث بين ولدى الحارث الكندى : شرحبيل وسلمة ، وأنه انتهى بقتل شرحبيل ، ويذهب الرواة الى أن «سلمة بن الحارث الكندى» سرعان ما أخرجه بنو تغلب من بينهم فلجأ الى بنى بكر بن وائل ، ثم انضم بنو تغلب الى المنـذر اللخمى ، الذى بذل كل الجهد لطرد سلمة من ديار بنى بكر ، وانضوائهم تحت لوائه ، الا أن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، ومن ثم فقد صمم على غزوهم ، بل وذبحهم ، اذا ظفر بهم ، على «قمة جبل أوارة» : حتى يبلغ دمهم سفح الجبل ، وهكذا كان «يوم أوارة الأول» حيث اقتتل الفريقان قتالا شديدا ، وانتهت المعركة بهزيمة بكر ، وأسر «يزيد بن شرحبيل الكندى» فأمر المنـذر بقتله ، مع جمع كبـير من بكر ، وأمر بالنساء أن يحرقن بالنار[٣٩] .

٢ ـ يوم أوارة الثانى :

كان «عمرو بن المنذر اللخمى» (عمرو بن هند ٥٥٤ ـ ٥٦٩م) قد ترك ولده «أسعد» عند «زرارة بن عدس التميمى» ، فلما ترعرع مرت به ناقة سمينة ، فعبث بها فى ضرعها ، فشد عليه ربها «سويد» أحد بنى

---

(٣٨) ابن هشام ١٨٣/٢ ، تاريخ ابن خلدون ٢٨٩/٢ـ٢٩٠ ، ابن الاثير ٦٨٠/١ـ٦٨٤ ، وفاء الوفا ١٥٢/١ـ١٥٥ ، الاغانى ١٩/٣ـ٤٢ ، خلاصة الوفا ص ١٧٧ ـ ١٧٨ ، البكرى ٢٥٩/١ـ٢٦٠ ، ياقوت ٤٥١/١ ، اللسان ١٨/٦ ، الميدانى ٢/١ ، شرح ديوان حسان بن ثابت ص ٢٧٨ ، صحيح البخارى ١٠٨/٥ ، محمد أحمد جاد المولى وآخرون : المرجـع السابق ص ٧٣ـ٨٤ ، اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٦٢ ـ ٧٠ ، ابراهيم العياشى : المدينة بين الماضى والحاضر ص ٤١ـ٤٣ ، تاج العروس ٦٠٤/١ ، محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٨٢ ـ ٤٨٢ ، أحمد ابراهيم الشريف المرجع السابق ص ٣٣٦ ، وكذا
P. K. Hitti, op-cit, p. 89.

(٣٩) ابن الاثير ٥٥٢/١ـ٥٥٤ ، محمد أحمد جاد المولى وآخرون : ايام العرب فى الجاهلية ص ٩٩ .

عبد الله بن دارم التميمى فقتله ، وهرب فلحق بمكة فحالف قريشا : وكان عمرو بن المنذر قد غزا ؛ ومعه زرارة فأخفق ، فلما كان حيال جبلى طىء قال له زرارة : أى ملك اذا غزا لم يرجع ولم يصب ، فمل على طىء فانك بحيالها ، فمال اليهم فأسر وقتل وغنم ، فكانت فى صدور طىء على زرارة ، فلما قتل «سويد» أسعد ، وزرارة يومئذ عند عمرو ، حرض عمرو بن ملقط الطائى عمرا على زرارة ، فهرب زرارة الى قومه ولم يلبث أن مرض ، فلما حضرته الوفاة قال لابنه : يا حاجب ضم اليك غلمتى فى بنى نهشل ، وقال لابن أخيه عمرو بن عمرو : عليك بعمرو بن ملقط ، فانه حرض على الملك ، فقال له : يا عماه لقد أسندت الى أبعدهما شقة ، وأشدهما شوكة ، فلما مات زرارة تهيأ عمرو بن عمرو فى جمع وغزا طيئا •

وما أن علم «عمرو بن المنذر» بموت زرارة ، حتى غزا «دارم» ، وكان قد حلف ليقتلن منهم مائة ، فسار يطلبهم حتى بلغ أوارة ، وقد نذروا به فتفرقوا ، فأقام مكانه وبث سراياه فيهم ؛ فأتوا بتسعة وتسعين رجلا ، سوى من قتلوه فى غاراتهم ، فقتلهم ، فجاء رجل من البراجم شاعر ليمدحه فأخذه ليقتله ليتم مائة ، ثم قال : ان الشقى وافد البراجم : فذهبت مثلا •

على أن هناك رواية أخرى تذهب الى أنه نذر أن يحرقهم فلذلك سمى «محرقا»(٤٠) ، فأحرق منهم تسعة وتسعين رجلا ، واجتاز رجل من البراجم فشم قتار اللحم ، فظن أن الملك يتخذ طعاما فقصده ، فقال : من أنت ؟ فقال : أبيت اللعن ، أنا وافد البراجم ، فقال : ان الشقى وافد البراجم ، ثم أمر به فقذف فى النار ، فقال جرير للفرزدق :

أين الذين بنار عمرو أحرقوا   أم أين أسعد فيكم المسترضع

---

(٤٠) تذهب بعض الروايات الى أنه كان يسمى «المحرق» لانه حرق بنى تميم ، أو حرق نخل اليمامة ، وكان عاتيا جبارا (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٥٨) •

وصارت تميم بعد ذلك يعيرون بحب الاكل لطمع البرجمى فى الاكل[41].

٣ ـ يوم خـــزاز :

وهو اليوم الذى انتصرت فيه القبائل العدنانية على القحطانية ، وعدوه من أيامهم الكبرى قبل الاسلام ، ويذهب الرواة الى أن سطوة القحطانيين على نزار كانت شديدة ، حتى أن الرجل من أهل اليمن كان يأتى ومعه كاتب وطنفسة (مخدة) يقعد عليها ، فيأخذ من أموال «نزار» ما يشاء ، وكان أول يوم امتنعت معد عن الملوك ، ملوك حمير ، وكانت نزار لم تكثر بعد ، ومن ثم فقـد بعث «كليب بن وائل التغلبى» الى ربيعة فجمعهم ، واجتمعت عليه معد ، فجعل على مقدمته السفاح التغلبى «سلمة بن خالد» ، وأمرهم أن يوقدوا على «خزاز» (وهو جبل بطفخة ما بين البصرة الى مكة أو هو المهجم من أسفل وادى سردد) وقال له : «ان غشيك العدو فاوقد نارين» .

وسرعـان ما علمت «مذحج» باجتماع ربيعة ومسيرهـا ، فأقبلوا بجموعهم ، واستنفروا من يليهم من قبائل اليمن ، وساروا اليهم ، فلما سمع أهل تهامة بمسير مذحج انضموا الى ربيعة ، ووصلت مذحج الى «خزاز» ليلا ، فرفع السفاح نارين ، فلما رأى كليب النارين أقبل اليهم بالجمـوع فصبحهم فالتقوا بخزاز فاقتتلوا قتالا شديدا أكثروا فيه القتل ، فانهزمت مذحج وانفضت جموعها .

ومن ثم فقد نظرت معد الى كليب نظرة تجلة واحترام ، وجعلت له قسم الملك وتاجه وطاعته ، لانه وحدهم وأنقذهم من تعسف اليمن بهم ، ومن ثم فقد داخل «كليب بن ربيعة» زهو شديد ، وسرعان ما نعى على قومه ، وصار يتعسف فى احماء الحمى ، فلا يرعى حماه أحد ، ولا يصاد فيه ، ولا ترد ابل مع ابله ، ولا توقد نار مع ناره ، وبقى كذلك حتى قتله «جساس بن مرة» فتوالت الحروب بين بكر وتغلب .

هذا وقد اختلف الرواة فى التأريخ لهذا اليوم ، بل وفى قائد معد فيه ،

---

(٤١) ابن الاثير ١/٥٥٣ـ٥٥٥ (بيروت ١٩٦٥) .

وذلك بسبب العصبيات القبلية ، ويروى صاحب العقد الفريد : أن جماعة من وجوه أهل البصرة ، كانوا يتجالسون يوم الجمعة ويتفاخرون ، بل ويتنازعون على الرياسة يوم خزاز ، فتحاكموا الى «عمر بن العلا» ، وكانوا فى مجلسه ، فقال : ما شهدها عامر بن صعصعة ، ولا دارم بن مالك ، ولا جشم بن بكر (وهم ممن ذكروا كرؤساء ليوم خزاز) اليوم أقدم من ذلك ، ولقد سألت عنه ، فما وجدت أحدا من القوم يعلم من رئيسهم ومن الملك» ، وهو على أية حال انما يرجع الى أواخر القرن الخامس الميلادى ، على رأى ، وفى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ، على رأى آخر(٤٢) .

ثالثا : بين القبائل العدنانية

وتكون هذه الايام الجزء الاكبر من أيام العرب ، وهى أهمها وأغناها بالشعر والامثال والقصص ، وكان لبكر وتغلب وتميم أثر خطير فيها ، وأشهرها : حرب البسوس وحرب داحس والغبراء ، وحرب الفجار .

١ ـ حرب البسوس :

وحرب البسوس هذه ليست فى الواقع حربا واحدة ، وانما هى عدة حروب ، وفى أوقات مختلفة ، الى أن انتهت بتدخل ملك الحيرة «المنذر بن ماء السماء» بين الفريقين المتحاربين ، وهما قبيلتا بكر وتغلب المرتبطتان بصلة القرابة ، وقد حدثت فى أواخر القرن الخامس الميلادى فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، وكانت القبيلتان ، فيما يرى البعض ، تدينان بالنصرانية،وتحسبان أن وائلا جدهما الاعلى(٤٣) .

وكان سبب حرب البسوس هذه أن رجلا يدعى «سعد بن شميس» الجرمى ، نزل عند «البسوس بنت منقذ» التميمية ، خالة «جساس بن مرة» ، وكان للجرمى ناقة اسمها «سراب» ترعى مع نوق جساس ، وهى

---

(٤٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٦/٩٧ـ٩٨ ، نهاية الارب ١٥/ ٤٢٠ ، المحبر ص ٢٤٩ ، صبح الاعشى ١/٣٩١ ، جواد على ٥/٣٤٧ ـ ٣٤٩ ؛ ابن الاثير ١/٥٢٠ـ٥٢٢ .

(٤٣) P. K. Hitti, History of The Arabs, London, 1960, p. 89.

التى ضربت العرب بها المثل ، فقالوا : أشأم من سراب ، وأشأم من البسوس •

ويذهب الرواة الى أن «كليب بن وائل» التغلبى قد خرج يوما يتعهد الابل ومراعيها ، وكانت ابله وابل جساس مختلطة ، فنظر كليب الى سراب فأنكرها ، فقال له جساس ، وهو معه ، هذه ناقة جارنا الجرمى، فقال كليب : لا تعد هذه الناقة الى هذا الحى ؛ فقال جساس : لا ترعى ابلى مرعى الا وهذه معها ، فقال كليب : لئن عادت لأضعن سهمى فى ضرعها ؛ فقال جساس : لئن وضعت سهمك فى ضرعها لأضعن سنان رمحى فى لبتك ، ثم تفرقا ، وقال كليب لامرأته (وهى أخت جساس) : أترين فى العرب رجلا مانعا منى جاره ؟ قالت : لا أعلمه الا جساسا ، فحدثها الحديث ، وكان بعد ذلك اذا أراد الخروج الى الحمى منعته ، وناشدته الله أن لايقطع رحمه،وكانت تنهى أخاها جساسا أن يسرح ابله•

ثم أن كليبا خرج الى الحمى ؛ فما أن رأى ناقة الجرمى حتى رمى ضرعها فأنفذه ، فولت ولها عجيج حتى بركت بفناء صاحبها ، فلما رأى ما بها صرخ بالذل ، وما أن رأت البسوس ما بناقة جارها حتى وضعت يدها على رأسها وصاحت : واذلاه ، وجساس يراها ويسمع ، فخرج اليها وقال : لا تراعى ، وسكن الجرمى ، ثم قال : سأقتل جملا أعظم من هذه الناقة ، سأقتل غلالا (فحل ابل كليب) وانما أراد جساس بمقالته كليبا ، وانتهز فرصة خروجه وحده فركب وراءه فلما أدركه قال : يا كليب الرمح وراءك ، فقال : ان كنت صادقا فأقبل الى من أمامى ، ولم يلتفت اليه،فطعنه فأرداه عن فرسه ، فقال : ياجساس : أغثنى بشربة من ماء فلم يأته بشىء ، وقضى كليب نحبه •

وانصرف جساس على فرسه يركضه ، وقد بدأت ركبتاه ، فلما نظر أبوه «مرة» الى ذلك قال : لقد أتاكم جساس بداهية ، ما رأيته قط بادى الركبتين الى اليوم ، فلما وقف على أبيه قال : مالك يا جساس ؟ قال : طعنت طعنة يجتمع بنو وائل غدا لها رقصا ، قال ومن طعنت ؟ لأمك

الثكل ، قال قتلت كليبا ، قال : أفعلت ، قال نعـم ، قال : بئس والله ما جئت به قومك ، ثم دعا قومه لنصرته فأجابوه .

وظهر أمر كليب فذهب اليه قومه فدفنوه ، وأقاموا على قبره قبة رفيعة تكريما له ، شأن الجاهليين فى ذلك الزمن من اقامة القباب على قبور الكبار ، وشقت النساء الجيوب ، وخمشت الوجوه ، وخرج الابكار وذوات الخدور ، وقمن للمأتم ، وقامت أخت كليب الى «جليلة» زوج كليب وأخت جساس ، وقالت : أخرجى عن مأتمنا فأنت أخت قاتلنا ، وشقيقة واترنا ، فخرجت تجر عطافها ، فلقيها أبوها فقال لها : ماوراءك يا جليلة ، فقالت : ثكل العدد ، وحزن الابد ، وفقد خليل ، وقتل أخ عن قليل ، وبين هذين غرس الاحقاد ، وتفتت الاكباد ، فقال لها : أويكف ذلك كرم الصفح واغلاء الديات ، فقالت : أمنية مخدوع ورب الكعبة ، أبالبدن تدع لك تغلب دم ربها ؟

ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب : رحلة المعتدى ، وفراق الشامت ، ويل غدا لآل مرة من الكرة بعد الكرة ، فبلغ قولها جليلة فقالت : وكيف تشمت الحرة بهتك سترها ، وترقب وترها ، أسعد الله أختى ، ألا قالت: نفرة الحياة ، وخوف الاعداء .

وما أن علـم «مهلهل بن ربيعـة» (واسمه عـدى ، وقيل امرؤ القيس)[٤٤] ، أخو كليب ، وخال امرؤ القيس بن حجر الكندى ، الملك الضليل ، بقتل أخيه وسيد قومه ، كليب ، حتى أخذ العهد على نفسه بأن يترك النساء والغزل والقمار والشراب حتى يثأر لقتل أخيه ، ثم جـز شعره ، وقصر ثوبه ، وجمع اليه قومه ، وأرسل رجالا منهم الى بنى شيبان ، فأتوا «مرة بن ذهل بن شيبان» وهو فى نادى قومه فقالوا له : انكم أتيتم عظيما بقتلكم كليبا بناقة ، وقطعتم الرحم ، وانتهكتم الحرمة ، وانا نعرض عليكم خلالا أربعة لكم فيها مخرج ، ولنا فيها مقنع : اما

---

(٤٤) لقب «مهلهلا» لانه اول من هلهل الشعر ، وقصد القصـائد ، واول من كذب فى شعره (ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٥٢٩/١ ـ بيروت ١٩٦٥) .

أن تحيي لنا كليبا ، أو تدفع الينا قاتله جساسا فنقتله به ، أو همــاما (أخا جساس) فانه كفؤ له ، أو تمكننا من نفسك ؛ فان فيك وفاء لدمه .

فقال لهم : أما احيائي كليبا فلست قادرا عليه ، وأما دفعي جساسا اليكم ، فانه غــلام طعن طعنة علي عجــل ، وركب فرسه ، فلا أدري أي بلاد قصد . وأما همام فانه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة ، كلهم فرسان قومهم ، فلن يسلموه بجريرة غيره ، وأما أنا فما هو ألا أن تجول الخيل جولة ، فأكون أول قتيل ، فما أتعجل الموت ، ولكن لكم عنــدي خصلتان ، أما أحدهما : فهؤلاء أبنائي الباقون ، فخــذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم ، وأما الاخرى : فاني أدفع اليكم ألف ناقة ســود الحدق ، حمر الوبر ، فغضب القوم وقالوا : قد أسأت ببذل هؤلاء ، وتسومنا اللبن بدم كليب ، ونشبت الحرب بينهم ، واعتزلت قبائل بكر الحرب وكرهوا مساعدة بني شيبان على القتال ، وأعظموا قتــل كليب، فتحولت «لجيم» ويشكر ، وكف الحارث بن عباد عن نصرهم ومعه أهل بيتــه .

وهكذا قامت الحرب بين الفريقين ، وراجت سوق العداء والغــزو والثارات : تستفزهما أقوال الشعراء الحماسية ، وكان من أشهر الايام بينها «أي بكر وتغلب» خمسة أيام مشاهير : أولها : يوم عنيزة وتكافأوا فيه ، والثاني يوم واردات ، وكان لتغلب على بكر ، والثالث يوم الحنو . وكان لبكر على تغلب ، والرابع يوم القصيبات ، وكان لتغلب على بكر ، والخامس يوم قضة ، وهو يوم «تحلاق اللمم» لان بكرا حلقوا رؤوسهم ليعرف بعضهم بعضا . وهو آخر أيامهم ، وكان لبكر ، وفيه أسر «مهلهل بن ربيعــة» .

وأما «جساس» مسعر هذه الحرب ، وسبب تلك الفتنة التي كادت أن تبيد الحيين ، بكر وتغلب ، فهناك روايتان في كيفية قتله ، الواحدة : أن مرة طلب من ولده جساس أن يلحق بأخواله بالشام فامتنع ، فألح عليه أبوه ، فسيره سرا في خمسة نفر ، وبلغ الخبر الى مهلهل فنــدب «أبا نويرة» ومعه ثلاثون رجلا من شجعان أصحابه ، فلحقوا به وقتلوه.

والثانية : أن جليلة زوج كليب عندما عادت الى أهلها بعد قتل زوجها ، كانت حاملا فولدت غلاما دعته «هجرسا» ورباه جساس ، وكان لا يعرف أبا غيره ، فزوجه ابنته ، فوقع بين هجرس وبين رجل من بكر كلام ، فقال له البكرى : ما أنت بمنته حتى نلحقك بأبيك ، فأمسك عنه ودخل الى أمه وزوجه كئيبا حزينا ، ولما علم جساس بذلك قال : ثائر ورب الكعبة ، ثم أحضر الهجرس وقال له : انما أنت ولدى ، وأنت منى بالمكان الذى تعلم ، وزوجتك ابنتى ، وقد كانت الحرب فى أبيك زمانا طويلا ، وقد اصطلحنا وتحاجزنا ، وقد رأيت أن تدخل ما دخل فيه الناس من الصلح ، وأن تنطلق معى حتى نأخذ عليك مثل ما أخذ علينا ، فقال الهجرس : أنا فاعل : فحمله جساس على فرسه فركبه ولبس لامته وقال : مثلى لا يأتى أهله بغير سلاحه ، فخرجا حتى أتيا جماعة من قومهما ، فقص عليهم جساس القصة ، وأعلمهم أن الهجرس يدخل فى الذى دخل فيه جماعتهم : وقد حضر ليعقد ما عقدتم ، فلما قربوا الدم وقاموا الى العقد : أخذ الهجرس بوسط رمحه ، ثم قال : وفرسى وأذنيه ، ورمحى ونصليه ، وسيفى وغراريه ، لا يترك الرجل قاتل أبيه، وهو ينظر اليه ، ثم طعن جساسا فقتله ، ولحق بقومه ، وكان آخر قتيل فى بكر ، ويذهب ابن الاثير أن الرواية الاولى أكثر رجحانا .

وعلى أية حال ، فما أن قتل جساس ، حتى أرسل أبوه مرة الى المهلهل يقول : انك قد أدركت ثأرك ، وقتلت جساسا ، فاكفف عن الحرب، ودع اللجاج والاسراف ، وأصلح ذات البين ، فهو أصلح للحيين ، وأنكأ لعدوهم ، فلم يجب الى ذلك ، واستمرت الحرب حتى قام «قيس بن شراحبيل بن مرة» بالصلح بين بكر وتغلب ، بعد أن ترك مهلهل ديار قومه اشفاقا عليهم من استمرار الحرب ، ومضى الى اليمن ، ونزل فى «جنب» وهى حى من مذحج ، على أن رواية أخرى تذهب الى أن الذى أنهى الحرب انما هو «المنذر الثالث» ملك الحيرة ، حوالى عام ٥٢٥م(٤٥) .

---

(٤٥) ابن الاثير ٥٣٣/١-٥٣٩ ، جواد على ٣٥٥/٥-٣٥٧ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ٧٠/٦-٧٧ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٦٠٥-٦٠٦، الشعر والشعراء ١٦٦/١ ، الاغانى ١٣٩/٤-١٤١ ، لويس شيخو : شعراء

٢ ـ حرب داحس والغبراء :

دارت هذه الحرب بين قبيلة عبس وأختها ذبيان فى أواسط الجزيرة، وكان للقبيلتين ، فيما يزعم الرواة ، جد واحد تقليدى هو «غطفان» ؛ وأما سبب هذه الحرب فهو أن ذبيان أساءت الى بنى عبس فى أثنـاء سباق بين جواد لقيس بن زهير ، سيد عبس ، يدعى «داحس» ، وفرس لحذيفة بن بدر بن فزارة سيد ذبيان تدعى «الغبراء» ، وكانت مسافة الرهان قدر مائة وعشرين غلوة (أى رمية سهم) ، أما جائزة السبق فكانت مائة بعير ؛ وضمرت الخيل من أجل السباق وأعد الامناء لارسالها وعهد بالتحكيم فى السبق الى عقال بن مروان بن الحكم .

وكان سبب الخلاف بين المتراهنين ما دبره «حذيفة بن بدر» من اعتراض «داحس» الذى كان مقدرا له الفوز ، اذ أقام رجلا من بنى أسد فى الطريق وأمره أن يلقى داحسا فى وادى «ذات الارصاد» ، ان مر به سابقا ، فيرمى به الى أسفل الوادى ، وانتهى الخلاف بالحرب بين القبيلتين ، فى عـدد من الايام ، منهـا « يوم الغدق » الذى أسر فيه حذيفة ، ثم أطلق سراحه بعد أن أهدر دم ولده بدر بدم مالك أخى قيس، ومنها «يوم جفر الهباءة» أو «يوم البوار» ، الذى قتل فيه حذيفة ، مع أربعمائة رجل من فزارة وأسد وغطفان ، وكان الفوز فيه لقبيلة عبس التى خسرت عشرين رجلا .

وتوقفت الحرب آخر الامر ، والتى شارك فيها «عنترة بن شداد» (حوالى ٥٢٥ ــ ٥٦١ م) بفرسـه «الأدهم» ، شاعرا ومحاربا لايشق له غبار ، عند مطلع الاسلام ، بسعى من «الحارث بن عـوف المرى» و «هرم بن سنان» وكانت عبس قد تشردت اثر يوم الهباءة ، ما بين هجر حيث الكنديين ، واليمامة حيث بنى حنيفة ، ثم نجد حيث بنى عامر، حتى قلت رحالهم وهلكت ماشيتهم الى أن فضلوا الموت ، مع اخوانهم

= النصرانية ص ١٥١ ، ١٦٠ ، ٢٤٦ ، ٢٧٠ ، نهاية الارب ١٥/٣٩٦ـ٣٩٩،
وكذا Encyclopaedia of Islam, I, p. 674.
وكذا P. K. Hitti, op-cit, p. 89-90.

من ذبيان - على الحياة مع غيرهم ، ممن كانوا يسيئون اليهم ، ولايرون لهم حرمة[٤٦] .

٣ - حرب الفجـــار :

ولعل أشهر الحروب التى كانت بين قيس وكنانة تلك التى عرفت باسم «أيام الفجار» أو «حرب الفجار» ، وذلك لان المحاربين فيها انما قد استحلوا المحارم مما اعتبر فجورا ، فلقد كانت العادة فى الجاهلية عدم القتال فى الاشهر الحرم[٤٧] لقدسيتها ومكانتها ، فهى أشهر حرم يستريح فيها المقاتلون ، أفرادا وجماعات ، ويصبح الناس فيها آمنين على أنفسهم وأموالهم ، ويذهبون الى الاسواق للامتيار ، والى الكعبات للحج الى الاصنام ، وان كان الحج الى البيت الحـــرام هو المقصود فى الاسس - فغير القوم وبدلوا ، ومع ذلك فقد قامت فى الاشهر الحرم عدة حروب[٤٨] ، عرفت بحرب الفجار ، أهمها :

١) حرب الفجار الاول :

وكانت لاسباب شخصية ، قال ابن اسحاق : كان الفجار الأول بين قريش ومن معها من كنانة كلها ، وبين قيس عيلان ، وسببه أن رجلا من كنانة كان عليه دين لرجل من بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن ،

---

(٤٦) سعد زغلول عبد الحميد : فى تاريخ العرب قبل الاسلام - بيروت ١٩٧٥ ص ٣١٦-٣١٧ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٥٦٦/١ - ٥٨٣ ، جواد على ٣٦٠/٥-٣٦١ ، وكذا
P. K. Hitti, op-cit, p. 90.

(٤٧) الاشهر الحرم هى: ذو القعدة وذو الحجة والمحـــرم ورجب (انظر : محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/ ١٩٨ - ١٩٩ - الرياض ١٩٨٠) .

(٤٨) يذهب ابن عبد ربه الى أن الفجـــار الاول كان بين كنـــانة وهوازن ، وأهاجه بدر بن معشر ، وأن الفجـــار الثانى كان بين قريش وهوازن وأهاجه فتية من قريش بسبب رغبتهم فى رؤية امرأة وضيئـــة من بنى عـــامر بن صعصعة بسوق عكاظ ، وكان الفجـــار الثالث بين كنانة وهوازن وأهاجه رجل من بنى كنانة وكان عليه دين لرجل من بنى نصر بن معاوية ، والفجار الرابع كان بين قيس وكنانة كلها وهوازن ، وأهاجها البراض بقتله عروة الرجال (ابن عبد ربه : العقد الفريد ١٠١/٦ - ١٠٣، وانظر جواد على ٣٨٠/٥ - ٣٨١) .

فأعدم الكنانى ، فوافق النصرى سوق عكاظ بقرد ، وقال : من يبيعنى مثل هذا بمالى على فلان الكنانى ، فعل ذلك تعييرا للكنانى وقومه ، فمر به رجل من كنانة فضرب القرد بالسيف فقتله أنفة ، مما قال النصرى ، فصرخ النصرى فى قيس ، وصرخ الكنانى فى كنانة ، فاجتمع الناس وتحاوروا حتى كاد يكون بينهم القتال ثم اصطلحوا .

على أن هناك رواية أخرى تذهب الى أن فتية من قريش قعدوا الى امرأة من بنى عامر ، وهى وضيئة عليها برقع ، فقالوا لها ، اسفرى للنظر الى وجهك ، فلم تفعل ، فقام غلام منهم فشك ذيل درعها الى ظهرها ولم تشعر ، فلما قامت انكشف دبرها ، فضحكوا وقالوا : منعتنا النظر الى وجهك ، فقد نظرنا الى دبرك ، فصاحت المرأة ، يا بنى عامر فضحت ، فأتاها الناس واشتجروا حتى كاد يكون قتال ، ثم رأوا أن الامر يسير فاصطلحوا[٤٩] .

وهناك رواية ثالثة يذهب فيها أبو عبيدة الى أن «بدر بن معشر» أحد بنى غفار جعل له مجلس بسوق عكاظ ، وكان حدثا منيعا فى نفسه ، فقام فى المجلس ، وقام على رأسه قائم ، وأنشد يقول :

نحن بنــو مدركة بن خندف ... من يطعنوا فى عينه لم يطرف
ومن يكــونوا قومه يغطرف ... كأنهم لجــة بحــر مسدف

قال : ومد رجله ، وقال : أنا أعز العرب ، فمن زعم أنه أعز منى فليضربها ، فضربها الاحيمر بن مازن ، أحد بنى دهمــان بن نصر بن معاوية ، فأندرها من الركبة ، وقال : خذها اليك أيها المخندف .

ثم تحــاور الحيان حتى كاد أن يكون بينهما الدماء ، ثم تراجعوا ورأوا أن الخطب يسير[٥٠] .

ب) حرب الفجار الثانى :

وكانت بين قريش وهوازن بعد عام الفيل بعشرين عاما ، فيما يرى

---

(٤٩) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٥٨٨/١ ـ ٥٨٩ .
(٥٠) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١٠١/٦ .

ابن الاثير : وبعد موت عبد المطلب : جد النبي ﷺ . باثنى عشر عاما، أو هي : فيما يرى ابن عبد ربه ، قبل مبعث النبي ، ﷺ ، بست وعشرين سنة ، وقد شهدها النبي ، ﷺ ، وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه، وقال ، ﷺ : كنت أنبل على أعمامي يوم الفجار . وأنا ابن أربع عشرة سنة ، يعني أناولهم النبل(٥١) .

وكانت الفجار الثانية بسبب الاعتداء على لطيمة الملك «النعمان بن المنذر» (٥٨٠ — ٦٠٢م) ملك الحيرة التي كان قد سيرها في حراسة «عروة الرحال» زعيم هوازن ، فتعرض لها «البراض بن قيس» وكان فاتكا خليعا في حماية حرب بن أمية القرشي ، في نواحي «فدك» ، فقتل عروة . واستولى على اللطيمة . وأبت هوازن أن تقتل بعروة البراض ، لان عروة سيد هوازن ، والبراض خليع من بني كنانة ، أرادوا أن يقتلوا به سيدا من قريش .

وهكذا دارت الحرب بين هوازن وبين قريش وكنانة وحلفائهم من «الاحابيش»(٥٢) . ومن بني أسد ، في موضع «نخلة» . فاقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم . وجن عليهم الليل فكفوا ، وكان سيدنا رسول الله ﷺ ، معهم ويرفض «الزهري» أن يكون النبي ، ﷺ ، مع قريش وقت الهزيمة ، والا لما انهزموا ، ويرى ابن الاثير أن هذه العلة لا يعتد بها ، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ ينهزمون ويقتلون بعد الرسالة،

---

(٥١) ابن الاثير ٥٨٩/١ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ١٠٣/١ .

(٥٢) الاحابيش : اختلف المؤرخون في الاحابيش هؤلاء ، ففريق يرى انهم جند مرتزقة استاجرتها قريش لتدافع عنها عند الحاجة لانصراف أهلها للتجارة ، وفريق يرى أنهم بنو الحارث وبنو الهون من كنانة وبنو المصطلق من خزاعة ، تحبشوا ، أي تجمعوا ، فسموا الاحابش ، وان ذلك كان عند جبل بأسفل مكة يسمى «حبيش» أو «حبشي» فاشتق اسمهم منه ، وانهم قد تحالفوا على أنهم مع قريش يدا واحدة، ماسجا ليل، ووضح نهار ، ومارسا حبيش مكانه ، غير أن «لامانس» يرى أنهم من أصل حبشي أو من السودان ، وأيا ما كان الصواب في ذلك ، وسواء أكانوا عربا أو من الاحباش أو من الارقاء الذين كانوا في خدمة قريش ، فقد كانوا قوة لقريش يدافعون عنها ، اذا أغار عليهم المغير ، كما كانوا يقومون بحماية قوافلها التجارية التي كانت أشبه بالحملات تكون بآلاف الابل .

وقـال السهيلى : وشهد رسـول الله ﷺ بعض تلك الايام (آى أيام الفجار) أخرجه أعمامه معهم ، وكن اذا حضر غلبت كنانة ، واذا لم يحضر هزمت •

وعلى أية حـال ، فلقد دارت الحرب سجـالا ، يوم شمطة ويوم العبلاء لهوازن ، ويوم عكاظ لكنانة وقريش ، الى أن انتهى الامر بالصلح ودفع الديات،وكانت هذه الحرب فى أواخر القرن السادس الميلادى(٥٣)•

رابعا : بين العـرب والفـرس

(١) يوم ذى قار :

أشرنا من قبل فى حديثنا عن «العصبية العربية» ، الى أن العـرب ما كانوا يزوجون بناتهم لغير العربى ، مهما كان قدره وماله وثقافته ، حتى أن ملك الحيرة «النعمان بن المنذر» (٥٨٠ — ٦٠٢م) رفض أن يزوج بناته أو بنات اخوته من أبناء «كسرى أبرويز» (٥٩٠ — ٦٢٨م) ملك ملوك عصره ، وصاحب الامر فى عرش الحيرة ، ورأينا كيف دفع «النعمان»حياته ثمنا لهذا الاباء والانفة من أن تكون عربية تحت أعجمى•

وكان النعمان قد أودع أهله وماله عند «هانىء بن مسعود الشيبانى» قبل أن يتوجه الى كسرى ، فلما قتل النعمان ولى «كسرى أبرويز» على عرش الحيرة «اياس بن قبيصة» (٦٠٢ — ٦١١م) ، ثم أمره أن يجمع ما خلفه النعمان ، وأن يرسله اليه ، ومن ثم فقـد بعث «اياس» الى «هانىء بن مسعود» أن يرسل اليه ما استودعه النعمان اياه ، فأبى هانىء ذلك ، وغضب كسرى ، وهنا أشار اليه أحد أعداء بنى شيبان وسائر بكر بن وائل ، أن ينتظر ريثما ينزل القوم « ذى قار » (وهو ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة) ، فيبعث اليهم من يأخذهم بالقوة ، وهـكذا ما أن يحين الحـين ، حتى يرسل اليهم كسرى من يخـبرهم

---

(٥٣) ابن هشام : سير النبى ﷺ ١/١١٣-١١٤ ، السير الحلبية ١/٢٠٧ ، ابن كثير : السيرة النبوية ١/٢٥٥-٢٥٧ ، محمد الصادق عرجون : محمد رسول الله ١/١٨٢-١٨٤،ابن الاثير ١/٥٩٠ - ٥٩٤ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ١/١٠٣ - ١٠٩ ، سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ص ٣١٦ - ٣١٨ •

بين ثلاث أحلاهن مر : الاستسلام ، أو الرحيل عن الديار ، أو الحرب، وكان رد العرب أن السيف هو الحكم ، وهكذا وقعت الواقعة ، وأبلى العرب بلاء حسنا ، وكتب لهم — ولأول مرة — نصرا مؤزرا على الفرس(٥٤) .

هذا ويختلف المؤرخون فى زمن واقعة ذى قار هذه ، فذهب فريق الى انها انما كانت يوم مولد سيدنا ومولانا محمد رسول الله ، ﷺ(٥٥)، ومن ثم فهناك رواية تذهب الى أنه ، ﷺ ، قال : «هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم ، وبى نصروا» ، على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب الى أنها انما كانت سنة أربعين لمولد الحبيب المصطفى ، ﷺ .

---

(٥٤) تاريخ الطبرى ٢٠٦/٢ — ٢١٢ ، ابن الاثير ٤٨٢/١ — ٤٩٠ ، ابن قتيبة : المعرف ص ٢٦٠ ، الشعر والشعراء ١١٥/١ ، ياقوت الحموى ٢٩٣/٤ — ٢٩٤ ، الميدانى ٢١٦/٢ ، المسعودى : مروج الذهب ٨٧/٢ ، القلقشندى : صبح الاعشى ٢/١—٣ ، ابن دريد : الاشتقاق ص ٢٠٨ ، الاغانى ١٢٧/٢ ، تاريخ اليعقوبى ٢٢٤/١ ، أيام العرب فى الجاهلية ص ٢٥ — ٣٩ ، العمدة لابن رشيق ، ١٦٦/٢ ، ٢١٨ ، لويس شيخو : شعراء النصرانية ص ١٣٧ ، الامالى ١٦٩/١ — ١٧١ ، البكرى ١٠٤٢/٢—١٠٤٢، تاريخ ابن خلدون ٢٦٧/٢ — ٢٦٨ ، حمزة الاصفهانى : المرجع السابق ص ٩١ ، أبو الفداء ١٠١/١ ، جواد على ٢٩٣/٢ — ٣٩٤ ، سعد زغلول المرجع السابق ص ٢٣٠ — ٢٣١ ، محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٩٤ — ٥٩٧ .

(٥٥) تذهب الروايات العربية الى أن المولد النبوى الشريف انما كان فى عام الفيل ، غير أن هذا العام غير معروف على وجه اليقين (عام ٥٥٢ أو ٥٦٣ ، ٥٧٠ أو ٥٧١م) ومن ثم فقد اعتمد العلماء على تاريخين محققين من سيرة النبى ﷺ ، وهما تاريخ الهجرة فى عام ٦٢٢م ، وتاريخ الانتقال الى الرفيق الاعلى فى عام ٦٣٢م ، ومع ذلك لم يصلوا الى نتيجة مؤكدة ، وعلى أية حال ، فهناك من يرى أنه فى ٢٧ أغسطس أو ٢٩ أغسطس عام ٥٧٠م ، وأما محمود باشا الفلكى فقد رآه فى يوم ٩ ربيع الاول الموافق ٢٠ ابريل ٥٧١م ، وعلى أية حال ، فيكاد يجمع المؤرخون على أنه كان فى يوم الاثنين من الاسبوع الثانى من شهر ربيع الاول من عام الفيل ، والموافق العام الثالث والخمسين قبل الهجرة (٥٧١م) وأما الانتقال الى الرفيق الاعلى فقد كان فى يوم ١٢ أو ١٣ من ربيع الاول عام ١١ هـ (٧ أو ٨ يونيو عام ٦٣٢م) بعد أن بلغ ٦٣ عاما قمريا بالكامل (أى أكثر من ٦١ عاما شمسيا) ، وأما البعثة الشريفة فكانت فى عام ٦١٠ أو ٦١١م (أنظر تاريخ الطبرى ١٥٥/٢—١٥٧ ، ابن الاثير ٤٥٨/١ — ٤٥٩ ، ابن كثير : ٢٥٩/١—٢٦٢ ، ياقوت ٢٩٣/٤—٢٩٤ ، الفلكى : التقويم

وهناك وجه ثالث للنظر يذهب الى أنها انما كانت فى العالم الثالث من مبعث المصطفى ، ﷺ ، على أن وجها رابعا للنظر يذهب الى أنها كانت بعد الهجرة النبوية الشريفة من مكة المكرمة الى المدينة المنورة ، على أن فريقا خامسا انما يرى أنها كانت بعد موقعة بدر الكبرى مباشرة، وربما بعدها بأشهر معدودات(٥٦) .

ومن ثم فإذا كان صحيحا ما ذهبنا اليه فى هذه الدراسة وغيرها من أن موند مولانا وسيدنا وجدنا رسول الله ، ﷺ ، انما كان فى عـام ٥٧١م ، وأن الهجـرة الشريفة كانت فى عـام ٦٢٢م ، فان أصحـابنا الاخباريين انما يضعون معركة ذى قـار ، فيما بين الاعـوام ٥٧١م ، ٦١١م ، ٦١٣م ، ٦٢٤م(٥٧) .

هذا ويذهب «روتشتاين» الى أن موقعة ذى قار ، انما كانت حوالى عام ٦٠٤م ، بينما الرأى عند «تيودور نولدكة» أنها انما كانت فيما بين عامى ٦٠٤ ، ٦١١م(٥٨) ، ويميل «نيكلسون» الى أنها انما كانت فى العام الاخير (أى عام ٦١١م)(٥٩) ، وأما «كوسان ده برسيفال» فالرأى عنده أنها وقعت فى يناير عام ٦١١م(٦٠) ، وهو ما تميل اليه وترجحه الغالبية

=

العربى قبل الاسـلام ص ٣٨ ، محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم ص ٢٢ ، المحبر ص ٨ـ٩ ، محمد بيومى مهران : تاريخ العـرب القديم ص ٤١٥ ـ ٤١٦) .

(٥٦) تاريخ اليعقوبى ٢١٥/١ ، تاريخ ابن خلدون ٢٦٨/٢ ، ٢٧١، تاريخ الطبرى ٢٠٧/٢ ، الـكامل لابن الاثير ٤٨٢/١ـ٤٨٣ ، ياقـوت ٢٩٣/٤ـ٢٩٤ ، أبو الفداء ١٠١/١ ، المسعودى : مروج الذهب ٣٠٦/١ـ٣٠٧ ، ٧٨/٢ ، التنبيه والاشراف ص ٢٠٧ـ٢٠٨ ، نهاية الارب للقلقشندى ص ٤٥٧ ، البكرى ١٠٤٣/٣ ، ابن حبيب : المحبر ص ٣٦٠ ، جـرجى زيدان : المرجع السابق ص ٢٢٢ ، جواد على ٢٩٤/٣ ، سعد زغـلول : المرجع السابق ص ٢٣١ .

(٥٧) محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٩٥ .

(٥٨) G. Rothstien Die Dynastie der Lakhmiden, in al-Hira, Berlin, 1899, p. 123.

(٥٩) R. A. Nicholson, A Literary History of The Arabs, Cambridge, 1962, p. 70.

(٦٠) لاحظ أن «كوسان ده برسيفال» وكذا «جوستاف لوبون» انما يؤرخون للمولد النبوى الشريف بيوم ٢٧ ، أو ٢٩ أغسطس عـام ٥٧٠ م

=

العظمى من المؤرخين[٦١] .

ويميل أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم الى أن الموقعة قد حدثت حوالى عام ٦٠٩م ، أو بعد ذلك بأشهر ، معتمدا فى ذلك على أن المصادر تكاد تجمع على أن مبدأ النبوة انما حدث على رأس أربع سنين من ملك «اياس بن قبيصة» ، وروى قوم أن النبى ، ﷺ ، قد بعث وهو فى الاربعين من عمره الشريف ، ولما كان من المعروف أن الرسول ، ﷺ ، قد انتقل الى الرفيق الاعلى فى ١٢ ربيع الاول عام ١١ هـ (٨ يونية ٦٣٢م) وهو فى الثالثة والستين على أرجح الآراء ، فان بعثته تكون قد حدثت فى سنة ٦٠٩م ، وهو ابن أربعين سنة ، وتكون وقعة ذى قار قد حدثت سنة ٦١٠م[٦٢] .

٢ ـ يوم الصفقة :

وكان سببه أن «باذان» نائب «كسرى أبرويز» فى اليمن ، أرسل اليه حملا من اليمن ، فأغارت عليه تميم وانتهبوه ، وسلبوا رسل كسرى وأساورته ، فقدموا على «هوذة بن على الحنفى» صاحب اليمامة مسلوبين ، فأحسن اليهم وكساهم ، وكان «هوذة» من قبل ، اذا أرسل كسرى لطيمة تباع باليمن يجهز رسله ويخفرهم ويحسن جوارهم،وكان كسرى يشتهى أن يراه ليجازيه على فعله ، وفعلا أجاب هوذة دعوة كسرى الذى أكرمه وأحسن اليه ، وجعل يحادثه لينظر عقله ، فرأى ما سره ، فأمر له بمال كثير ، وتوجه بتاج من تيجانه وأقطعه أموالا فى « هجر » .

وكان هوذة نصرانيا ، فأمره كسرى أن يغزو هو ، و «المكعبر» مع

= (جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ١٢٩ ، وكذا
Cauussni de Perceval, Essai sur L'Histoire des Arabes avant L,Islamisme, I, Paris, 1847, p. 283).

(٦١) Caussnni de Perceval, op-cit, p. 184.

(٦٢) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٧١ ـ ٣٧٢ ، حمزة الاصفهانى : المرجع السابق ص ٩٨ ، ابن الاثير : أسد الغابة ٥٣/١ ، سيرة ابن هشام ٢٤٩/١ ، أنساب الاشراف ص ٥٧٩ .

عساكر كسرى ، بنى تميم ، فساروا الى هجرونزلوا بالمشقر . وخاف المكعبر وهوذة أن يدخلا بلاد تميم ، لانها لا تحتملها العجم ، وأهلها بها ممتنعون ، فبعثا رجالا من تميم يدعونهم الى الميرة ، وكانت شديدة ، فأقبلوا على كل صعب وذلول ، فجعل المكعبر يدخلهم الحصن خمسة خمسة وعشرة عشرة ، وأقل وأكثرهم ، يدخلهم من باب على أنه يخرجهم من آخر ، فكل من دخل ضرب عنقه ، فلما طال عليهم ذلك ورأوا أن الناس يدخلون ولا يخرجون ، بعثوا رجالا يستعلمون الخبر ، فشد رجل من عبس السلسلة فقطعها وخرج من كان بالباب ، فأمر المكعبر بغلق الباب وقتل كل من بالمدينة ، وكان يوم «المفصح» فاستوهب هوذة منه مائة رجل ، فكساهم وأطلقهم يوم الفصح ، فصار يوم المشقر مثلا ، وهو يوم الصفقة لا صفاق الباب ، وهو اغلاقه ، وكان يوم الصفقة هذا ، وقد بعث النبى ، ﷺ ، وهو بمكة بعد لم يهاجر(٦٣) .

---

(٦٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٦٢٠/١ـ٦٢١ (بيروت ١٩٦٥).

الباب الثاني

الحياة السياسية والاقتصادية

الفصل الثانى

الحيـــاة السياسية

لاريب فى أن العرب قبل الاسلام انما عرفـوا أنواعا مختلفة من الحكم،لعل من أهمها : النظام الملكى والنظام القبلى ؛ ثم حكومات المدن، ومكة المكرمة بوجه خاص :

اولا : النظـــام الملكى :

ويتمثل هذا النظام فى حكومات دول جنوب شبه الجزيرة العربية ، مثل معين وقتبان وحضرموت وسبأ وأوسان ؛ هذا فضلا عن حكومات دول شمال وشمال غرب شبه الجزيرة العربية مثل اللحيانيين والتدمريين؛ ثم المناذرة والغساسنة ، ثم حكومة مملكة كندة فى شمــال شرق شبه الجزيرة العربية .

ومن المعروف أن النظـام الملكى له صـــلة كبيرة بحياة الاستقرار والاستيطان ؛ ذلك لانه انما يظهر وينمو فى المجتمعات المستقرة ، فى القرى والمدن . فضلا عن المواضع الغنية بالماء ، أما البوادى والارضين القفرة والفقيرة فى الماء ، فلا تظهر فيها الا حـكومة رياسات ، رياسة قبيلة أو أحلاف ، وذلك لعدم توفر مقومات المعيشة والتجمع الكبير فيها، ومن ثم فقد قامت الملكيات فى مواضع الحضر ، حيث التربة الصالحة لحياة التجمع والاستقرار ، وبالتالى وجود الحضر الذين يقبلون بالطاعة لحكم حاكم ؛ ومال يجبى من الناس يستعين به الحاكم فى الانفاق على الجيش واذارات الدولة المختلفة .

وهناك ما يشير الى أن هذا النوع من الحكم الملكى انما بدأ فى أول الامر . دينيا ، ثم أصبح دنيويا ، وخاصة فى العربية الجنوبية ؛ نرى ذلك على سبيل المثال ، واضحا فى دولتى قتبان وسبأ ؛ حيث تبدأ الدولة

فيهما بعصر «المكاربة» ، ثم عصر «الملوك» ؛ ففى دولة قتبان : نرى أهم ملوك الفترة الاولى من تاريخ قتبان،وهو «يدع أب ذيبان» بن «شهر» — والذى حكم فى الفترة (٧٥٠ — ٧٣٥ ق٠م) على أى فلبى[١] ، وفى نهاية القرن الخامس قبل الميلاد على رأى أولبرايت —[٢] وكان ، فى رأى الكثيرين ، أول من حمل لقب «ملك» بجانب لقب «مكرب»[٣] ، ولعل فى هذا ما يشير الى أنه كان فى بادىء الامر كاهنا ، ثم حمل لقب ملك ، ثم اللقبين معا ، وان اقتصر فى الفترة الاخيرة من حكمه على لقب «ملك» ، على أساس أنه اللقب الرسمى لحكام قتبان[٤] .

وفى دولة سبأ ينظر المؤرخون الى عهد «كرب ايل وتار» على أنه من العهود الحاسمة فى تاريخ سبأ ، ذلك لانه بمثابة خاتمة لعهود المكاربة، وفاتحة لعهود سبأ ، أو بمعنى آخر ، الانتقال من حكومة دينية الى حكومة مدنية ، حيث بدأ السبئيون يخلعون لقب «مكرب» — والذى ربما كان يعنى أمير كاهن ، أو الكاهن الاكبر ، وربما الملك الكاهن ، مما يشير الى الاساس أل «ثيوقراطى» الذى قامت عليه الدولة ، ذلك لان كل هذه الالقاب انما تعطى أصحابها صفة دينية فى حكم بلادهم ، أو على الاقل ، اشارة الى القداسة التى يرتكزون اليها فى ممارسة هذا الحكم ، سواء أكان ذلك من الناحية الدينية أو المدنية[٥] .

وعلى أية حال ، فان هذا الحاكم «كرب ايل وتار» انما قد حكم فى الفترة «٦٢٠ — ٦٠٠ ق٠م» ، وأنه قد غير لقبه من «مكرب» الى «ملك» حوالى عام ٦١٠ قبل الميلاد ، فيما يرى «فلبى»[٦] ، وان تأخر البعض

---

(١) J. B. Philly, The Background of Islam, Alexandria, 1947, p. 60, 143.

(٢) W. F. Albright, in BASOR. 119, 1950, p. 5.

(٣) حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم — الاسكندرية ١٩٧١ ص ١٣٢٠

(٤) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ١٩١/٢—١٩٢ وكذا Le Museon, 3-4, 1964, p. 432.

(٥) سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ص ١٩٢ ، وكذا وكذا I. Shahid, op-cit, p. 7-8.

(٦) J. B. Philly, op-cit, p. 40, 141.

بتاريخه الى نهاية القرن الخامس قبل الميلاد[٧] ، وأيا ما كان الامر ، ففى عهد «كرب ايل وتار» بدأت دولة سبأ تتحول الى حكومة دنيوية أو مدنية ، وأصبح رئيسها يحمل لقب «ملك» •

هذا وليس فى نصوص المسند ما يساعدنا على معرفة تحول حكام سبأ من الحكم الدينى الى المدنى ، ومن ثم فربما كان ذلك بتأثير المظاهر الخارجية للدول المعاصرة ، والتى كانت تسبغ على حكامها لقب «ملك»، وليس لقب «مكرب» ، وهى دول ذات جاه وسلطان كبير ، فأراد حكام سبأ التشبه بهم ، ومحاكاتهم فى المظهر ، وربما كانت هناك أسباب أخرى، لا ندرى عنها شيئا ، وعلى أية حال ، فان هذا التغيير انما تم برضى الحكام وموافقتهم ، كما أن المكرب لم يكن رجل دين ، يتولى امامة الناس فى آداء طقوسهم الدينية للارباب فى معابدها ، بل ان هناك من الباحثين من حاول أن يشبه لقب «المكرب» بلقب «الخليفة» عند المسلمين ، فرغم أنه كان يعد «أمير المؤمنين» ورئيس المسلمين ولكنه لم يكن — خاصة بعد عهد الخلفاء الراشدين — أعلم المسلمين بأمور الدين، ولا أفقههم بأحكامه •

ومع ذلك ، فقد أدى تغيير لقب الحاكم من مكرب الى ملك ، أن انقطعت صلته بالمعبد ، وان ظل حاميا للدين والمعبد ، لما للمعبد من صلة وثيقة بالدولة ، ولما للاثنين من مصالح مشتركة ، وسرعان ما أصبح رئيس المعبد رئيس ادارة المعبد وأملاكه الواسعة ، فضلا عن جباية الضرائب الدينية ، وانصرف الملك الى ادارة شئون الدولة بكل مرافقها المختلفة[٨] •

هذا وقد تميز النظام الملكى بالحكم الوراثى عادة ، حيث ينتقل السلطان من الآباء الى الابناء ، يتولاه الابن الاكبر غالبا ، فاذا حكم

(٧) H. Von Wissmann and M. Hofner, Beitrage.
Zur Historischen Geographie des Vorislamischen Sudarabien
Wiesbaden, 1953, p. 9, 22, 25, 142.

(٨) جواد على ١٩٠/٥ ، وكذا
A. Grohmann, op-cit, p. 122.

هذا وتوفى انتقل السلطان الى ابنه وهكذا . وبالتالى يحرم منه اخوته الاخرون ، الا اذا نص الاب الملك على غير ذلك ، وأوصى الاخ الملك لأخيه أو اخوته من بعده ، أو كان الملك المتوفى عقيما لا عقب له ، ففى مثل هذه الحالة ينتقل الحكم الى أقرب الناس اليه ، بحسب وراثة الدم، أو بحسب رأى الاسرة المالكة .

على أن نظام الوراثة هذا ، لا يمنع من أن ينتزع الحكم شخص من غير الاسرة المالكة ، لكفاية فيه ، وفى تاريخ الحكم فى العربية الجنوبية أمثلة كثيرة على ذلك ، وقد يصبح هذا الملك الجديد مؤسس أسرة حاكمة ينتقل الحكم فيها من الآباء الى الابناء ، وقد يقتصر الحكم عليه ، على أن هذا لا يعنى أن المزاود (المجالس الاستشارية) أو طبقة قادة الجيش أو سادة القبائل،كان لهم رأى فى تعيين الملوك،والامر كذلك بالنسبة الى تنحيتهم عن عروشهم ، ذلك لان قيام شخص — حتى ان كان من الاسرة المالكة — باغتصاب العرش من صاحبه ، فان ذلك شيئا آخر ، يعتمد على القوة والخروج عن الطاعة ، وهما بالطبع من الامور المخـالفة فى كل عصر ومكان[٩] .

وفى رواية للهمدانى فى الاكليل عن طريقة تعيين الملوك فى حمير ، نفهم منها أن الملكية انما كنت وراثية وتنتقل من الاب الى الابن ، الا فى الحالات الطارئة ، كموت الملك العقيم دون أن يوصى لأحد من بعده ، أو موته فجأة وأولاده صغار ، وعندئذ يكون من حق السادات فى الدولة، الذين جعل الهمدانى عدة مجلسهم ثمانين قيلاً ، أن يختاروا أكفأ الناس للملك[١٠] .

وأيا ما كان الامر ، فهناك ما يشير الى أن بعض دول الجنوب العربى، ربما عرفت نوعا غامضا من تأليه الملوك الذى ساد كثيرا من دول العالم

(٩) جواد على ١٩٤/٥ — ١٩٦ ، وكذا
J. Ryckmans, L'institution Monarchique en Arabic Meridionale avant L'Islam, Louvain, 1951, p. 39, 41.
وكذا A. Grahman, Arabien, Munchen, 1963, p. 128.
(١٠) الهمدانى : الاكليل ١١٤/٢ .

القديم — كمصر مثلا —[11] ذلك أن أشهر ملوك «أوسان»[12] الملك «يصدق ال شرح عت» بن «ود» (ودم) ، وقد دعا هذا اللقب بعض العلماء الى القول بوجود فكرة تأليه الملوك فى أوسان ، وأن الرجل انما كان يعتقد أنه من نسل الاله «ود»[13] — الاله القومى لأوسان ومعين — ومن ثم فقد اعتمد مؤرخو الاديان على هذه الحالة كدليل على قيــام مملكة للاله فى بلاد العرب الجنوبية ، وقد خصص الاوسانيون معبدهم الرئيسى فى وادى نعمان للاله «ود»[14] .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن الملوك فى العربية الجنوبية والغربية لم يكونوا حكاما مستبدين لهم سلطــان مطلق ، وحــق الهى فى ادارة الدولة ، وانما كانوا ملوكا يستشيرون الاقيال والاذواء وسادات القبائل وكبار رجال الدين فيما يريدون عمله ، واتخاذ قرار بشأنه ، وهو نظام تقدمى فيه شىء من الرأى والمشورة وحكم الشعب ، بالقياس الى حكم الملوك المطلق فى العراق القديم ومصر وايران ، ولعل السبب فى ذلك أن العرب من الشعوب التى تميل الى الاخذ بالرأى واستشارة ذوى الرأى والخبرة والسن ، فقد كان القوم فى العربية الجنوبية يأخذون برأى سادة القبائل — كما كان الامر عند عرب الشمال — وأما الملوك فقد كان لهم مستشارون ، فضلا عن المجالس الاستشارية الرسمية (المزاود) ، وقد عرفت هذه المجالس فى دولة معين باسم «مزودن معــين» (مزود معين) ، كما كان للسبئيين مجالسهم الخاصة التى تنظر فى المسائل التى يحتاج الملوك فيها الى رأى عقلاء الامة[15] .

---

(١١) أنظر عن «الملكية الالهية» فى مصر الفرعونية (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ـ الاسكندرية ١٩٨٤ ص ٩٩ـ١٢٨) .

(١٢) انظر عن «دولة أوسان» (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٣٢٩ ـ ٣٣١) .

(١٣) فؤاد حسين : التاريخ العربى القديم ص ١٩٩، ٢٩٨ـ٢٩٩ ، وكذ D. S. Margoliouth, op-cit, p. 9.

وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op-cit, p. 58.

(١٤) H. Van Wissmann and M. Hofner, op-cit, p. 58.

(١٥) جواد على ٢١٣/٥ ، ٢٢٧ ، ٢٤١ ، وكذا A. Grohmann, op-cit, p. 128.

غير أن وجود هذه المجالس الاستشارية لا يعنى أبدا أن نظام الحكم فى العربية الجنوبية انما كان نظاما نيابيا ، كما هو الحال فى المجالس النيابية فى العصر الحاضر ، يجتمع الناس لانتخاب ممثليهم . وانما كانت عضوية هذه المجالس لكبار رجال الدين أو سادات القبائل أو كبار الموظفين أو ملاك الاراضي ، وهم — فى عرف تلك الايام — الصفوة المختارة ، عندهم العقل والرأى ، وعلى هذا النحو من التمثيل تكونت مجالس المزاود ، أى مجالس الامة أو الشعب ، ومع ذلك فان وجود هذه المجالس وتعددها فى العربية الجنوبية — رغم أن أعضاءها من أصحاب الارض والجاه ، وأن للملوك نفوذ عليهم — انما يدل على أن الحكم فى العربية الجنوبية انما كان قريبا من الحكم الديمقراطى ، وأن سلطات الملوك انما كانت مقيدة ببعض القيود ، فلم يكن الملك يصدر أمرا فى الامور الخطيرة ، الا بعد أخذ رأى المجالس المختصة واستشارتها وأخذ موافقتها . وهو أمر ، لاشك فى أنه خير من الحكم المطلق الذى ساد كثيرا من دول العالم القديم[١٦] .

غير أن الامور سرعان ما تتغير منذ القرن الثالث الميلادى ، فيختفى ذكر «المزاود» ، ويبدأ الملوك يأخذون بمبدأ « حكم الفرد » ، ربما تقليدا لملوك اليونان وقياصرة روما ، وربما لان ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت ، عندما اتسع سلطانهم على أرضين واسعة ، وكونوا لهم جيشا كثير العدد ، قضوا على أصحاب الرأى فى المجالس ، حتى زالت المعارضة ، وصار الامر بأيديهم . وقد ساعد على ذلك تدفق الاعراب من الحجاز ونجد وسواحل الخليج الى العربية الجنوبية ، فاستغلهم الملوك للقضاء على نفوذ الاقيال والاذواء وذوى الاقطاع والنفوذ ، وبالتدريج أصبح لهؤلاء الاعراب نفوذ ، غدا بعد حين من الدهر قوة اعترف الملوك بها وضمنوها لقبهم الرسمى ، ومن ثم فقد أصبح لقب ملك سبأ هو «ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت وأعرابها فى التهائم والنجود» .

---

(١٦) جواد على ٢٢٧/٥ ، ٢٤٣ .

وعلى أية حال ، ففى قتبان ، رغم أن الملك انما كان وحده هو الذى يملك حق اصدار القوانين ونشرها ، ثم الامر بتنفيذها . فان «مجلس الشعب أو الامة» ، ويدعى «المزود» ويتكون من رؤساء المدن والقبائل والشعاب . هو الذى يقترح القوانين ويضــع مسودات اللوائح ، ثم يعرضها على الملك لاقرارها والامر بتنفيذها .

ولعلنا نستطيع أن نستنتج من ذلك كله ، أن قتبان قد عرفت نظاما يتكون من مجالس تمثل الشعب تمثيلا نيابيا ، فقد كان يوجد مجــلس قبلى — الى جانب الجالس على العرش — كما كانت هذه المجالس تمثل القبائل المختلفة فى الهيئات التشريعية المتعددة ، كما كانت إدارة البلاد بيدها ، وربما كان المجلس يعقد جلساته مرتين فى العام . وفى عاصمة الدولة ، وبدعوة من الملك ، ثم تصدر القوانين بعد ذلك باسم الملك . ويبدو أن هذه المجالس كانت تجتمع عندما يظهر فى الجو أسباب سياسية تتصل بسياسة البلاد الخارجية . أو عند الرغبة فى ادخال تغيير شامل على النظام الاقتصادى للدولة .

هذا وهناك نوع آخر من المجالس . هو «المجــلس الاستشارى» ويتكون من الملك ومن الاشراف أصحاب الاملاك (مزود أو مسود) . ومن طائفتين أخريين لا يمكن تحديدهما على وجه اليقين ، وقد يمثلان أصحاب الاملاك أو الموظفين ، ولهذا المجلس الاستشارى حــق اصدار القوانين باسم الملك ، فضــلا عن العمــل بالقوانين القــديمة وتنظيم استخدامها ، كما كان من حقه أن يحل محل مجلس القبائل ، وأن يصدر أوامر العفو — كليا أو جزئيا — عن المحكوم عليهم .

ولعل هذا كله انما يدل على أن الملك والمجلس الاستشارى ومجلس القبائل انما تكون جميعها الحــكومة ، وأنه ليست هناك هيئة خــاصة بالتشريع ، وأخرى للادارة ، وثالثة للقضاء ، مستقلة بعضها عن بعض — على الاقل فيما يتصل بالامور المالية للدولة — أما فيما يتعلق بمعرفة الفترة التى كان هذا النظام مستعملا فيها ، أو الحالات العديدة التى كان

يطبق فيها ، فهذا ما لا نعرفه ، ولا نستطيع الحكم عليه من النصوص التى تحت أيدينا[١٧] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن قصة ملكة سبأ — كما جاءت فى القرآن الكريم —[١٨] انما تدل على أن الملكة انما كانت تلجأ الى استشارة «الملأ» من قومها ، حين يحزبها الامر ، وتحتاج فيه الى الرأى والمشورة ، ولنقرأ هذه الآيات الكريمة « قالت يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم ، انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلو على وأتونى مسلمين ، قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ، قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين»[١٩] •

والآيات الكريمة تشير بوضوح الى أن ملكة سبأ عندما تلقت رسالة سليمان ، عليه السلام ، انما أسرعت الى طلب الرأى والمشورة من الملأ فى هذه الازمة التى أتتها من حيث لا تحتسب ، وفى نفس الوقت انما هى تعلن للملأ بوضوح أنها لن تقطع فى الامر ، الا بعد هذه المشورة ، وبرضاهم وموافقتهم •

وأما فى «دولة لحيان» ، فهناك فى النصوص اللحيانية ما يشير الى وجود مجلس للشورى عرف باسم «هجبل» (جبل أو الجبل) ، وقد

---

(١٧) نيكولوس رودكناكيس : التاريخ العربى القديم ص ١٣٢ـ١٣٦، جواد على ١٩٢/٢ـ١٩٣ ، محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ ، وكذا
H. Van Wissmann and M. Hofner, op-cit, p. 37.

(١٨) انظر عن القصة : سورة النمل : آية ٢٠ـ٤٤ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٤٣/١٩ـ١٧٠ ، تفسير روح المعانى ١٨٢/١٩ـ٢١٠ ، تفسير الطبرسى ٢٠٨/١٩ـ٢٣٠ ، تفسير البيضاوى ١٧٣/٢ـ١٧٨ ، فى ظلال القرآن ٢٦٣١/٥ـ٢٦٤٣ ، تفسير الكشاف ١٥١/٣ ، تفسير القرطبى ١٣/ ١٧٦ـ٢١٣ ، تفسير أبى السعود ١٢٧/٤ـ١٣٤ ، صفوة التفاسير ٤٠٦/٢ـ ٤١٠ ، حاشية زاده على البيضاوى ٤٩٠/٣ـ٣٩٤ ، تفسير النسفى ٣/ ٢٠٧ـ٢١٥ ، تفسير ابن كثير ٥٧٤/٣ـ٥٨٦ ، الدر المنثور ١٠٥/٥ـ١١٢٠

(١٩) سورة النمل : آية ٢٩ ـ ٣٣

وصف المجلس «بالعالى الشأن» فى احدى الكتابات تعظيما له وتقديرا[٢٠]، وقد كان الملوك ياخذون كثيرا برأى هذا المجلس، وان كان هذا لايسمح لنا بالقول — كما ذهب بعض الباحثين —[٢١] الى احتمال وجود أحزاب سياسية فى مملكة لحيان ، الامر الذى لا نملك عليه أى دليل حتى الآن ، على الاقل •

وأما المناذرة والغساسنة : فليس هناك ما يشير الى وجود أية مجالس استشارية عندهم ، ربما لانهم كانوا حكاما مستبدين ، وربما لان القرار فى الامور الخطيرة ، ربما كان بيد الفرس أو الروم ، أكثر منه بيد المناذرة والغساسنة : وأما التدمريون فهناك ما يشير الى أنه كان لمدينة «تدمر» مجلس على غرار مجلس الشيوخ فى رومـا ، يتكون من سادات المدينة من أصحاب الجاه والسلطان ، له سلطة تشريعية ، وله رئيس وكاتب[٢٢] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه منذ بداية القرن الثانى قبل الميلاد ، بدأت اشارات واضحة تدل على ظهور منصب سياسى جديد . هو منصب «ولى العهد» ، بجانب منصب «الملك» : أو بعبارة أخرى ظهور نظام «الحكم المشترك»[٢٣] ، وهكذا وجدنا نصوصا تتحدث عن «عليهان نهفان» مع ولده «شعر أوتر» ، مما يدل على أنهما حكما حكما مشترك ، بل ان هناك نصوصا تتحدث عن ملك ومعه اسم ابنين أو ثلاثة من أبنائه يشاركونه فى اللقب وفى الحكم ، بل ان ملكا ورد اسمه ومعه حفدته يحملون لقب الملك •

---

(٢٠) A. J. Jaussen and R. Savignac, Mission Archeologique en Arabie, II, Paris, 1911, p. 371.
W. Caskel, Lihyan und Lihyanish, Kalon, p. 109, No. 71, 77, 87, 91

(٢١) A. J. Jaussen and R. Savignac, op-cit, p. 371.
وكذا A. Grohmann, op-cit, p. 50.
وكذا W. Caskel, op-cit, p. 40, 42.

(٢٢) جواد على ٥/٢٣٣–٢٣٤ •

(٢٣) انظر عن : قضية الاشتراك فى الحكم فى مصر الفرعونية (محمد بيومى مهران : اخناتون ص ١٣٦ — ١٤٩ ، مصر ٣/٩٨ — ١١٠ (الاسكندرية ١٩٨٨) •

على أن هناك ظاهرة أخرى أخطر من تلك (أي الاشتراك فى الحكم)، وأعنى بها تناحر الاسر وتقاتلها على الجاه والحكم والسلطان ، فهنـاك مثلا التنافس بين أسرتين من قبيلة همدان ، احداهما من « حـاشد » والاخرى من «بكيل» ، وقد حمل كل من زعيمى الاسرتين اللقب الرسمى لملوك سبأ ، فقد حكم «علهان نهفان» وابنه «شعر أوتر» ، وهمـا من حاشد ، وفى نفس الوقت حكم «فرع ينهب» وولده ، وهما من «بكيل»، وتلقب كل منهم بالقاب ملوك سبأ ، بل ان هناك نصا (CIH, 398) يتحدث عن «شعر أوتر» كملك لسبأ وذى ريدان ، وفى الوقت نفسه يتحدث عن «الشرح يحصب» وأخيه «يأزل بين» بصفتهما ملكى سبأ وذى ريدان ، وهذا يعنى ببساطة أن الملوك الثلاثة انما كانوا يحملون فى آن واحد لقب «ملك سبأ وذى ريدان»(٢٤) .

وعلى أية حال ، فلقد كان الملوك فى العربية الجنوبية يعلنون للناس عن تتويجهم حين يتولون السلطة فى بلادهم ، فضلا عن الاحتفال بهذا التتويج ، ودعوة رجال من حكومات وقبائل أخرى للمشاركة فى هـذا الاحتفال ؛ هذا وقد كان ملوك حضرموت يحتفلون بتتويجهم فى حصن «أنود» ، فهناك كتابة عرفت باسم (فلبى ٨٢) ، ترجع الى أيام الملك «العزيلط» ملك حضرموت . دونها شريفان من «حمير» بعث بهما ملك سبأ وذى ريدان ، للمشاركة فى الاحتفال بتتويج ملك حضرموت فى حصن أنود ، وأخرى دونها الملك الحضرمى نفسه ؛ وفيها يقول «العزيلط ملك حضرموت ، ابن عم ذخر ، سار الى حصن أنود ليتلقب بلقبه ..»(٢٥) .

وفى الواقع أننا نستطيع أن نستنتج من هذه النصوص عدة نتائج منها (أولا) أن ملك سبأ انما يشارك — عن طريق مبعوثيه — فى الاحتفال

---

(٢٤) J. B. Philly, op-cit, p. 95.
وكذا J. Ryckmans, op-cit, p. 207.
وكذا A. Grohmann, op-cit, p. 130.
، وانظر : جواد على ٥/٢٣١ — ٢٣٢ .

(٢٥) محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٢٣٩ ، وكـذا J. B. Philly, Sheba's Dayghters, London, 1939, p. 449-450.

بتتويج الملك الحضرمى ، ولكن من ناحية أخـرى . ربما كان وجـود المبعوثين السبئيين اشارة الى أن ملك حضرموت ، انما كان وقت ذاك يتولى سلطاته برضى وموافقة ملك سبأ ، بخاصة وأن احدى الكتابتين انما دونهما مبعوثا ملك سبأ ، ومنها (ثانيا) أن القوم فى حضرموت قد اعتادوا عند تنصيب ملك جديد ، أو اضافة لقب جديد الى ألقاب الملك القديمة : أن يتم ذلك فى حصن «أنود»(٢٦) ، وان كنا لا ندرى متى بدأ هذا التقليد ، وعلى أية حال ، فلقد استمر حتى القرن الثانى الميلادى ؛ فيما يرى أولبرايت ، أو بالتحديد حتى عام ٢٠٠م ؛ فيما يرى ريكمانز ، ومنها (ثالثا) أن هذا المكان ربما كان من الاماكن المقدسة عند القوم ؛ أو على الاقل ، ذا مكانة خاصة ، جرت العادة أن يتوج الملوك فيه(٢٧) .

وهناك ما يشير الى أن «سيف بن ذى يزن» عندما كتب له نجحا بعيد المدى فى طرد الاحباش من اليمن ، انما كان لذلك رنة فرح هائلة فى جميع بلاد العرب ، ومن ثم فقد وفدت العرب من الحجاز وغيرها على «سيف بن ذى يزن» يهنئونه بتحرير البلاد وعودة ملك أجداده اليه ؛ ومن هذه الوفود وفد امارة مكة برياسة كبيرها وسيدها «عبد المطلب بن هاشم» — جد النبى ﷺ — فى ناس من أشراف قريش : فأعظمهم سيف وأجلهم ووصلهم ، كما بشر سيد قريش بمولد النبى ، ﷺ ؛ وأنه سيكون من ولده(٢٨) .

بقيت الاشارة الى أن الحكومات الملكية هذه لم تعرف حكم الملوك

---

(٢٦) حصن انود (أنودم) : ويقع فى موضع «عقلة انحالية» ، وهو على شكل مربع ، يشرف على واد يتصل بتلال «شبوة» ، وقد كان حصنا ومعسكرا يقيم فيه الجيش لحماية مزارع الوادى (أنظر :
J. B Philly, op-cit, p. 314 F).

(٢٧) جواد على ١٤٢/٢ ، وكذا
H. Van. Wissmann and M. Hofner, op-cit, p. 108.

(٢٨) ابن كثير : البداية والنهاية ١٧٨/٢ ، ٣٢٨ — ٣٣١ ، تاريخ ابن خلدون ٧٠/٢ ، تاريخ الخميس ص ٢٧١ — ٢٧٢ ، العقد الفريد ١٣١/١ ، بلوغ الارب ٢٦٦/٢—٢٦٩ ، كتاب التيجان ص ٣٠٨—٣٠٩ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٥٢ — ١٥٣ ، وصايا الملوك ليحيى الوشاء ص ٣٨ — ٤٠ ، ثم قارن : مروج الذهب ٥٧/٢—٦٠ .

فحسب . وانما عرفت كذلك حكم الملكات ، وقد أشرنا من قبل انى ملكة سبأ ، صاحبة سليمان عليه السلام[٢٩] ، والتى حكمت فى القرن العاشر قبل الميلاد ، اعتمادا على أن حكم سليمان عليه السلام ، انما كان فى هذا القرن العاشر قبل الميلاد[٣٠] .

هذا وقد عثر المؤرخون فى النصوص الاشورية على أسماء ملكات عربيات ، حكمن فى شمال شبه الجزيرة العربية ، لعل من أهمهن : «زبيبة» ، حيث نقرأ فى حوليات الملك الاشورى «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ — ٧٢٧ ق.م) التى عثر عليها فى «كالح» عن جزية من «زبيبة» (زبيبى) ملكة بلاد العرب — وربما كان مقرها فى دومة الجندل — (الجوف الحالية فى شمال غرب بلاد العرب) ، والامر كذلك بالنسبة الى الملكة «شمس» (سمسى) التى قدمت للعاهل الاشورى جمالا ونياقا ، فضلا عن تعيين مقيم يمثله فى بلاطها[٣١] .

ونقرأ كذلك فى نقوش «اسرحدون» (٦٨٠ — ٦٦٩ ق.م) أن أباه «سنحريب» قد أخضع «أدوماتو» (دومة الجندل) وأخذ أصنامها الى عاصمته . كما أسر الاميرة «تبؤة» (تربو) ، ويذهب «الويس موسل» الى أن سلطان الملكة العربية «تلخونو» (تعلخونو) قد امتد من دومة الجندل . وحتى حدود بابل ، وأن الملكة العربية قد وقفت الى جانب الثوار ضد سنحريب ، وعند نجاحه فى القضاء على الثورة ، اتجه الى دومة الجندل ، وفرض الحصار عليها[٣٢] ، مما أدى الى استسلام الملكة ، ثم أسر الاميرة «تبؤة» وأخذها الى العاصمة الاشورية ، تمهيدا لاعدادها

---

(٢٩) انظر (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٣/٧٦١ — ٧٨٠) .

(٣٠) انظر عن حكم سليمان عليه السلام (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٢٦٧) .

(٣١) N. Abbot, Pre-Islamic Arab Queens, on AJSL, 58, 1941, p. 4.

وكذا A. Musil, in The Arabia Deserta, N. Y, 1930, p. 477.

وكذا A. L. Oppenheim, in ANET, 1966, p. 280.

(٣٢) D. D. Luckenbill, in ARAB, II, Chicago, 1927, p. 518.

وكذا A. Musil, op-cit, p. 480.

لتكون ملكة على قومها ، تعمل بأمر أشور ، وتنفذ سياسة ملوكها فيما يختص بالاعراب[٣٣] •

هذا وهناك ما يفيد أن المرأة العربية شغلت منصب «الوصية» على الملك الطفل ، فهناك من دولة الانباط «رب ايل الثانى» — والذى حكم فى الفترة (٧٠ — ١٠٦م) أو (٧٥ — ١٠١م) — قــد بدأ حكمه تحت وصاية أمه «شقيلة» ، وأن أخاه «أنيس» كان يساعــد أمه فى شئون الحكم ، وحينما بلغ الملك الصبى رشده ، تزوج من أخته «جميلة» التى نقشت صورتها بجانب صورته على احدى العملات ، واستقل بالحكم، فى عاصمته «البتراء»[٣٤] ، هذا وقد كانت «الزباء» (زنوبيا) فى تدمر، وصية على ولدها القاصر «وهب اللات» بعد مقتل أبيه «أذينة»[٣٥] •

(٣٣) جواد على ٥٩٢/١ ، وكذا
British Museum Tablets, K. 3087, 3405.

(٣٤) جواد على ٤٨/٣ ، وكذا
EI, 3, p. 801.
وكذا J. Hastings, EAE, 9, p. 121.
وكذا REP, EPIG, 468.

(٣٥) محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٤٧ •

ثانيا : النظـــام القبلى

تمثل القبيلة فى البـــادية دويلة صغيرة ، لهـــا كل مقومات الدولة ، باستثناء الارض الثابتة التى تحدد منطقة نفوذهـــا ، ذلك لان طبيعة البدو ، فضلا عن ظروف حياتهم ، لم تمكنهم من اقامة أوطان ثابتة ، بسبب تنقلهم وراء الماء والكلأ ، ولكن حتى هذه لم تكن هى القـــاعدة الثابتة ، الا على أيام الجفاف ، اذ أنه من المعروف ، رغم ذلك ، أن لكل قبيلة أرضا تعيش عليها وتنزل بها ، وتعتبرها ملكا لها ، تنتشر فى بطونها وعشائرها ، ولا تسمح لغريب أن ينزل بها — أو حتى يمـــر بها — الا بموافقتها وبرضاها ، وقد اعتادت القبائل أن ينزل كل بطن من بطونها بناحية ، ثم ينفرد بها ويعتبرها أرضا خاصة به .

هذا وقد اعتاد القـــوم أن يعينوا حـــدود أرض القبيلة بالظواهر الطبيعية البارزة ، مثل التلال أو الاودية أو الرمال . وعلى أية حال ، فان عدم تثبيت الحدود برسم معالم بارزة لها انما كان فى أغلب الامر ، سببا من أسباب النزاع المستمر بين القبائل .

ومن البدهى أن يكون الماء أهم ما تملكه القبائل فى الصحراء . فهو عماد الحياة ، ولهذا كان تنظيم السقى ، وخاصة أيام القيظ وانحباس المطر ، من أهم واجبات القبيلة ؛ لان الاخلال بحقوق السقى انما يؤدى غالبا الى القتال ، وعلى أية حال ، فالقاعدة أن ماء القبيلة مشـــاع بين أبنائها ؛ أما المياه المحمية من السادة والرؤساء ، وكـــذا المياه الخاصة كالآبار التى يحفرها أصحابها ، فتكون خاصة بهم ، لا يجوز الاستقاء منها الا باذن ، كما كان من حق القبيلة حماية أرضها ، شأنها فى ذلك شأن الدول ، ومن ثم فليس لفرد أو لجماعة النزول فيها أو المرور بها الا باذن ، والا تعرض للمنع ، فضلا عن القتال ، ومن ثم فقد كان لابد للتجار من ترضية سادات القبائل للسماح لهم بالمرور ، بدفع حق المرور ، وهى اتاوات تعارفت القبائل آنذاك على أخذها من المارة[1] .

---

(١) جواد على ٣٤٢/٤-٣٤٣ ، عبد العزيز سالم المرجع السابق ص ٣٦٠ .

هذا ويعتمد النظام السياسى القبلى على قاعدة شعبية قوامها كل أفراد القبيلة أو التجمع القبلى (فى حالة وجود كيان سياسى يضم أكثر من قبيلة) ، ولكنه مع ذلك يميل الى الصفة الطبقية أو الارستقراطية ، ومن ثم فقد كان لكل قبيلة مجلس من شيوخها يرأسه شيخ يختارونه من بين أحرار القبيلة ، وكانوا يسمونه بالرئيس أو الشيخ أو الامير أو السيد ، وكانوا يشترطون أن يكون من أشرف رجال القبيلة ، وأشدهم عصبية ، وأكثرهم مالا ، وأكبرهم سنا ، وأعظمهم نفوذا ، كذلك كان من الضرورى أن تتوافر فيه صفات محمودة كالسخاء والبيان والحلم والحنكة والحكمة والشجاعة والصدق والامانة والتجربة والحرص على وحدة القبيلة ومصالحها ٠

وفى الواقع فان هذه الصفات التى كانت تؤهل سيد القبيلة لمنصبه فى السيادة أو الرياسة ، هى صفات مستوحاة من حاجة القبيلة ومن ظروفها أساسا ، فالسن مثلا عليها معول كبير دون شك اذ أنها مؤشر الى التجربة والحكمة فى مجتمع كانت العلاقات القبلية فيه تتعرض للغارات المتبادلة لأوهى الاسباب ، وان كان لنا أن نتصور وجود سادة أو رؤساء قبائل دون اشتراط تقدم السن ، اذا كانت التجربة أو الحكمة فى التصرف متوفرة فى الشخص المرشح للرياسة(٢) ٠

والشجاعة ، دون شك ، انما هى مؤهل أساسى فى مجتمع الغارات المتبادلة ، ومن ثم فعلى سيد القبيلة أن يكون فى مقدمة القوم فى الحرب والغزو ، حتى يكسب النصر لنفسه ولقومه ، لانه رمز القبيلة ، ورمز النصر ، وباعث الهمم فى نفوس أبناء القبيلة ، والرئيس هو روح القبيلة وشعارها ، فاذا أصيب بمكروه أو جبن فى القتال ، واذا خر صريعا فى المعركة هربت قبيلته فى الغالب ، الا اذا وجد فى القبيلة من يؤجج فيها نار الحماسة ، ويبث فيها العزيمة للوقوف والصمود ، ثم يقودها آخر

---

(٢) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٥٨-٣٥٩ ، أحمد الشريف : المرجع السابق ص ٢٥ ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ٤٩/١ ٠

الامر الى النصر ؛ وانطلاقا من كل هذا ، فقد كان الفرسان يوجهون كل قوتهم نحو رؤساء القبائل ، ذلك لانهم ، ان تمكنوا من الرئيس فقتلوه، أو حتى أسروه ، غلبوا عـدوهم فى الغالب وقضوا عليه ، فهـو الروح المعنوية عند الاعراب ، ثم يلى شيخ القبيلة ، حامل اللواء ، فاذا سقط قتيلا ، أسرع من عين خليفة له فى التقاط اللواء فحمله ، واذا سقط هذا أيضا أسرع من يأتى بعده ، وهكذا ، ذلك لان سقوط اللواء انما يعنى هزيمة منكرة ستحيق بمن سقط لواؤه ، ومن ثم فان القوم انما كانوا يختارون رجالا شجعانا يولونهم أمر اللواء ، بحيث اذا سقط أحـدهم أخذ من يليه مكانه ، وهكذا حتى النصر[٣] .

وكان الكرم لا يقل أهمية عن السن والشجاعة فى مجتمـع معرض للظروف الجغرافية القاسية التى قد تودى بالزرع والضرع ، أو تؤدى الى ندرة العشب ، اذا حلت بالمنطقة فترة جفاف طويلة ، وقد كان ذلك واردا فى شبه الجزيرة العربية ، هذا فضلا عن أن المؤاكلة ، فى نظـر العرب ، انما هى عقد حلف وجوار ، فضلا عن أن الضيافة فى ذاتها من أكبر ما يحمد الرجل عليه ، وهكذا كانت القبيلة المضيافة ، وكأنها تعقد ، عن طريق المؤاكلة ، حلفا مع القبـائل التى تستضيفهـا ، وتسبغ على رجالاتها نوعا من التقدير والاحترام عند العرب[٤] .

والحلم مؤهل أساسى فى شيخ القبيلة فى مجتمع تسوده العصبية ، ومن ثم فقد كان على سيد القبيلة أن يغض النظر عن أعمـال الحمقى والجهلة ، وأن يتجاهل السفلة والسفهاء الجاهليين ، فلا يغضب ، ولا يثور ، وأن يكظم غيظه ، وفى المثل «الحلم تسد» ، وقد سئل أحد السادة: بأى شىء سدت قومك ؟ فقال : انى والله لأعفو عن سفيههم ، وأحـلم عن جاهلهم ، وأسعى فى حوائجهم ، وأعطى سائلهم ، فمن فعل فعلى فهو مثلى ، ومن فعل أحسن من فعلى فهو أفضل منى ، ومن قصر عن

---

(٣) جواد على ٣٤٥/٤ .

(٤) ابن هشام : سير النبى ﷺ ١٤٥/١ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٥٨/١ ، لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٥٩ .

فعلى فأنا خير منه)) : وروى عن ((الاحنف بن قيس)) ـ وهو ممن ضربت العرب به المثل فى الحلم ، فقالت : هو أحلم من الاحنف ـ أنه كان قاعدا يوما بفناء داره ، محتبيا بحبائل سيفه يحدث قومه ، حتى أتى برجل مكتوف ، وآخر مقتول ، فقيل له : هذا ابن أخيك قتل ابنك ، فما قطع كلامه حتى انتهى ، ثم كلم ابن أخيه وأنبه وعفا عنه ، ثم قال لابن آخر له : وار أخاك ، وحل كتاف ابن عمك ، وسق الى أمك مائة ناقة دية ابنها، فانها غريبة))(٥) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن العرب لم يكونوا يقبلون مبدأ الوراثة فى الرياسة ؛ بل كانوا يأنفون من التسود عن طريق الرياسة(٦) ، ومن ثم فقد كان الاساس الذى يقوم عليه حكم شيخ القبيلة هو الاختيار الذى قد يكون انتخابا أو اجماعا من القبيلة أو التجمع القبلى ، والذى ربما كان يتم فى حدود رؤساء الاسر والاحياء التى يتكون منها هذا الكيان القبلى ، خاصة اذا أدخلنا فى اعتبارنا حرص العرب على النقاء الاسرى فى عصر ما قبل الاسلام ؛ فى وقت لم تعرف العرب فيه نظام الدولة بما لها من مؤسسات ، ومن ثم فقد كان التماسك الاسرى هو البديل ، ان لم يكن البديل الوحيد ، لحفظ كيان القبيلة من التميع ، ومن ثم الاندثار(٧) .

على أن الدكتور جواد على انما يرى أن العرب انما قد جمعوا فى تولى الرياسة بين الارث والاختيار أو الوصية ، فضلا عن الشورى،فمن ناحية الارث ، فهى مثل سائر الرياسات عند العرب ، كرياسة المكربين والملوك والاقيال والاذواء والاقيان وكل الرياسات الجاهلية الاخرى ؛ وقد كانت وراثية فى الاغلب ، ومن ثم فقد كانت رياسة القبيلة أيضا

---

(٥) بلوغ الارب ٢/١٨٧ـ١٨٨ ، تاج العروس ٨/٢٥٦ ، ثمار القلوب للثعالبى ص ٨٥،٤ ، ٩٢،٠ ، نهاية الارب ٦/٥٠ـ٥١ ، جواد على ٤/٣٥١ـ٣٥٣ .

(٦) المسعودى : مروج الذهب ٢/٥٥ .

(٧) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٥٩ .

بالوراثة من الاب الى الابن الاكبر ، وآية ذلك ما نجده فى أكثر روايات القبائل ، وتولى الابناء رياستها بعد الآباء •

وأما من ناحية النص والتعيين ، فدليله قصة اختيــار «حصن بن حذيفة بن بدر» ولده «عيينة» لرياسة قومه ولم يكن «عيينة» هذا أصلح من غيره لرياسة قومه ، ومن ثم فقد استدعى «حصن» أولاده ، وقال لعيينة : أنت خليفتى ورئيس قومك من بعدى» ، ثم قال لقومه من بنى بدر : لوائى ورياستى لعيينة ، ثم أوصــاهم بمــا أراد ، فسمعوا له وأطاعوا ، واختاروا عيينة رئيسا عليهم •

وأما من ناحية الشورى ، فأمر يحدث عند عدم وجود عقب للرئيس المتوفى ، أو عند وجود تنافس وتباغض بين أبناء الرئيس المتوفى ، ربما لانهم من علات مختلفات ، وربما لان أكبرهم لا تتوفر فيه الصفــات المطلوبة فى شيخ القبيلة ومن ثم يتدخل أشراف القبيلة فيختارون أحزم الابناء وأصلحهم للسيادة ، أو اختيار أحد أبناء القبيلة من غير أبنــاء الرئيس المتوفى يجدونه أهلا لتولى الرياسة ، وقد يلجأون الى ذلك فى حالة الخوف من تشتت شمل القبيلة ، وظهور أشراف فيهــا ، لهم من الكفاءة والشهرة التى تفوق كفاءة وشهرة أسرة الرئيس المتوفى ، وقــد لا تجتمع كلمة المتنافسين على الرياسة على اختيار شخص منهم ، ومن ثم يضطر أشراف القبيلة الى اللجوء الى الملوك فى الغالب لتعيين رئيس عليهم يختارونه من جماعتهم وينصبونه سيدا عليهم ، وقد كان هــذا شأن قبائل «معد»[8] ، وقد روى أن سفهاء بكر قد غلبوا عقلاءها ، وأن القوى منهم قد أكل الضعيف ، فنظر العقلاء فى أمرهم ، ثم استقر رأيهم آخر الامر ، أن يملكوا عليهم ملكا يأخذ للضعيف من القوى ، فنهاهم العرب ، وعلموا أن هذا لا يستقيم بأن يكون الملك منهم ، لانه يطيعه قوم ويخالفه آخرون ، ومن ثم فقد ساروا الى بعض تبابعــة اليمن ، وكانوا للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين ، وطلبوا منهم أن يملكوا عليهم

(٨) جواد على ٣٤٩/٤ـ٣٥٠ •

ملكا ، فكان ذلك الملك هو «حجر آكل المرار»[٩] ؛ وهكذا نشأت مملكة كندة[١٠] .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أنه قد يكون سيد القبيلة الجديد ابنا للسيد القديم ؛ ولكن هذا ، فيما يرى أستاذنا الدكتور لطفى عبدالوهاب، لم يكن معناه ابتعادا عن النظام الانتخابى أو الاختيار المذكور أو اقترابا من النظام الوراثى ، وانما يكون ناتجا عن توفر صفات الرياسة بحكم الصدفة أو الواقع فى ابن السيد السابق ، ونحن نجد فى هذا الصدد سيدا لاحدى القبائل ، وهو «عامر بن الطفيل» الذى يبدو أنه اختير سيدا بعد وفاة أبيه السيد السابق للقبيلة ، يحاول جاهدا أن يرد عن نفسه ما قد يوجه اليه من اتهام بوراثة السيادة ، ويستنكر مثل هذا الاتهام ، ذاكرا أن قبيلته هى التى سودته عليها ، ومشيرا الى صفاته التى جعلت قبيلته تختاره لسيادة القبيلة فيقول :

فانى وان كنت ابن سيد عامر   وفارسها المندوه فى كل موكب
فما سودتنى عامر عن وراثة   أبى الله أن أسموا بأم ولا أب
ولكنى أحمى حماها وأتقى   أذاها وأرمى من رماها بمنكب[١١]

على أن هذا الشعر نفسه : فيما يرى جواد على ، انما يدل على أن الرياسة انما كانت بالوراثة ، وأن والد عامر كان سيدا ، فأراد عامر أن يتبجح بنفسه عن غيره ، بأنه ليس من أولئك الذين يرثون السيادة ارثا، فلا دخل لهم بمجيئها اليهم ، وانما أخذها عن جدارة واستحقاق ، ولو لم يكن أبوه سيدا ، لجاءته السيادة تركض اليه ، لما فيه من محامد ومكارم ، فسيادته اذن سيادة وراثة لانه ورثها عن أبيه ، وسيادة جدارة

---

(٩) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ١/٥١١-٥١٢ ، الهمدانى : الاكليل ١/١٤٥ .
(١٠) انظر : روايات أخرى عن نشأة مملكة كندة (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٩٩ - ٦٠٤) .
(١١) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٥٩-٣٦٠ ؛ ابن قتيبة: عيون الاخبار ١/٢٢٧ ، الشعر والشعراء ١/١٩٢ ، البلاذرى : أنساب الاشراف - الجزء الثانى - القاهرة ١٩٥٩ ص ١٧٩ .

لما فيه من خصال السادة الاشراف[١٢] .

هذا ولم تكن السيادة مقصورة على الرجال فحسب ، وانما قد تنالها امرأة ، والبيت الثانى من شعر عامر بن الطفيل يشير صراحة الى هذا الاتجاه[١٣] ، وقد رأينا من قبل ملكات عربيات جلسن على عروش قبائلهم أو دولهم ، مثل ملكة سبأ صاحبة سليمان عليه السلام ، وزبيبة وشمسى وتعلخونوا وتبؤة ، فضلا عن «الزباء» ملكة تدمر المشهورة .

وعلى أية حال ، فرغم ما كان يتمتع به شيخ القبيلة من سلطات ، حتى شبهه بعض المستشرقين[١٤] بالكاهن الذى يتمتع بالهيبة والسلطان والنفوذ ، الا أنه مع ذلك لم يكن صاحب الامر المطلق فى تصريف شئون القبيلة ، فقد كان يوجد الى جانبه مجلسان يشاركانه فى تصريف أمور القبيلة : أحدهما هو مجلس أعيان القبيلة ، والاخر يضم كل أفراد القبيلة ، ذلك لان العرب ، على أية حال ، انما كانوا من الشعوب التى تميل الى الاخذ بالرأى ، واستشارة ذوى الرأى والخبرة والسن ، وقد كان النقاش داخل مجلس الاعيان أو الملأ نقاشا مفتوحا وديمقراطيا يتسع للرأى ونقيضه ، ومن ثم فقد كان على شيخ القبيلة أن يستعين برؤساء العشائر وأصحاب الشرف منهم فى التأثير على الافراد للاخذ برأيه ، وطاعة أوامره ، وفى نفس الوقت انما كان يشركهم فى الامور الجليلة التى تخص القبيلة بأسرها ، وهكذا كان الحكم فى القبائل مستمدا من رأى وجهاء القبيلة وعقلائها وفرسانها وشعرائها ، فهو حكم «ملأ القبيلة» ، وقد يكون بيت رئيس القبيلة هو مجلسها وموضع حكمها[١٥] .

ويروى أهل الاخبار شعرا زعموا أن «لقيطا الايادى» قاله فى كيفية الحكم وسياسة الرعية ، ومنه :

---

(١٢) جواد على ٤/٣٥٠ .
(١٣) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٦٠ .
(١٤) Joseph Hell, The Arab Civilization, Beirut, 1973, p. 8.
(١٥) جواد على ٥/٢٣٨ ، لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٦١ ، أحمد الشامى : المرجع السابق ص ٤٩ .

فقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا ان رخاء العيش ساعده ولا اذا عض مكروه به خشعا
مازال يحلب در الدهر أشطره يكون متبعا طورا ومتبعا
حتى استمرت على شزر مريرته مستحصدا الرأى لاقمحا ولاضرعا(١٦)

وهكذا طالما توفرت فى شيخ القبيلة تلك المقومات التى اشترطها القوم ؛ طالما بقيت القبيلة مرهوبة الجانب ، وعلى قدر من القوة والمنعة، لا يطمع فيها طامع ، ولا يجرؤ أحد على التعرض لافرادها ، أو التعدى على أهون حقوقها ، أما اذا ضعف شيخ القبيلة وخمدت فيه تلك المقومات أو بعضها ، فمعنى هذا أذان ببداية تفكك القبيلة واضمحلالها ، حيث تتجزأ أو تذوب أو تذبل ، فشيخ القبيلة هو الذى يحافظ على قبيلته ويعز مكانتها بين القبائل ، ولعل هذا هو السبب فى ظهور قبائل كبيرة بصورة مفاجئة ، ثم اختفاء أمرها وهبوط منزلتها بعد أمد ، وسر ذلك أن الذى يرفع من شأن القبائل أو يخفض من منزلتها هو سيد القبيلة فى غالب الاحايين(١٧) .

هذا وقد تمتع شيخ القبيلة بشىء من الامتيازات المادية والمعنوية ، فى مقابل ما يؤديه من واجبات ، وما يقع عليه من مغارم ثقال ، فالامتيازات المعنوية تتلخص فى ضرورة توقيره واحترامه وتقبل رأيه من كل أفراد القبيلة ، وعدم ابرام أمر من الامور الخطيرة ، دون الرجوع اليه وأخذ موافقته عليه(١٨) .

وأما الامتيازات المادية فأهمها :

١ ــ حق المرباع : وهو حقه فى أخذ ربع الغنيمة اذا وقع الغزو ، ويمثل المرباع امارة من امارات الفخر والجاه والرياسة عند العرب ، ومن ثم فقد كانوا يتباهون به ويفاخرون لانه من سيما الرياسة والشرف،

(١٦) نهاية الارب ١٧/٦ .
(١٧) جواد على ٢٣٨/٥ ،احمد الشامى : المرجع السابق ص٤٩ــ٥٠ .
(١٨) احمد الشامى : المرجع السابق ص ٥٠ .

وقد افتخر «الزبرقان بن بدر التميمى» أمام سيدنا رسول الله ، ﷺ ، بأنه من حى كرام ، منهم الملوك ، وفيهم يقسم الربع،أى المرباع ،فقال :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا   منا الملوك وفينا يقسم الربع(١٩)

وكان «عدى بن حاتم الطائى» ممن يأكل المرباع ، وروى ابن هشام فى سيرة النبى ، ﷺ ، أن النبى ، ﷺ قال له : أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ قال : قلت بلى ، قال : فان ذلك لم يكن يحل لك فى دينك ؛ قال : قلت : أجل والله ، وقال : وعرفت أنه نبى مرسل»(٢٠) .

٢ ـ الصفى : وهو ما يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة من فرس وسلاح أو جارية ، وغير ذلك من الاموال قبل القسمة .

٣ ـ النشيطة : وهو ما أصاب الرئيس من الغنيمة قبل أن يصير الى مجتمع الحى ، أو ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن يصير الى بيضة القوم ، أو ما يغنمه الغزاة فى الطريق قبل بلوغهم المواضع التى قصدوها . أو ما أنشط من الغنائم ، ولم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب.

٤ ـ الفضول : وهو ما لا تصح قسمته على عدد من الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما ؛ وقد جمعها بعضهم فى قوله :

لك المرباع منا والصفايا   وحكمك والنشيطة والفضول(٢١)

وهناك «الحمى» : وهو الارض التى تحمى من الناس فلا يرعى فيها الا بموافقة من حماها ؛ أو هو موضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعى، وهو نوعان : دائم أو محدد بموسم أو مواسم،وكان من عادة القوم أن الشريف من العرب فى الجاهلية اذا نزل بلدا فى عشيرته استعوى كلبا فحمى لخاصته مدى عواء الكلب لا يشركه فيه غيره ، فلم يرعه معه أحد ، وكان

---

(١٩) جواد على ٢٦٤/٥ ـ ٢٦٥ ، اللسان ١٠١/٨ ، النهاية ٦٢/٢ .
(٢٠) ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ٤٢٩/٤ .
(٢١) اللسان ٤١٤/٧ ، ١٠١/٨ ، ٤٥٧/٩ ، تاج العروس ٢٣١/٥ـ ٢٣٢ ، ٢١٠/٧ ، ٦٣/٨ ، ٢١١/١٠ ، النهاية ٦٢/٢ ، ٢٩٢ ، المعانى الكبير ٩٤٨/٢ـ٩٤٩ ، جواد على ٢٦٤/٥ـ٢٦٧ .

شريك القوم فى سائر المراتع حـوله ؛ على أن هنـاك ما يشير الى أن الاحماء لم تكن أرضين صغيرة حدودها ضيقة بحدود مدى سماع عواء الكلب،بل انها مقاطعة كبيرة تضم آبارا وعيونا وقرى فى بعض الاحايين، وقد حصل عليها أصحابها من الحروب والغزو فى الاصل ، فعندما يغزو سيد قبيلة قبيلة أخرى ، يختار لنفسه خيرة الارض فيجعلها فى حماه ، فنشأة الحمى أصلا من الغزو والحروب .

والحمى ، على أية حال ، من امارات عز وشرف وسيادة سيد القبيلة، ومن ثم فقد كان اذا مر سيد قبيلة برمضة أعجبته أو بغدير أعجبه ، أعلن حمايته عليها أو عليه الى حد يعينه ويثبته . فلا يقترب أحـد من ذلك الحد ، وهو فى ذلك مثل الملوك فى هذا الحق ، ولهذا لم يتمتع بهذا الحق الا سادات القبائل الكبار ، وأصحاب العز والجاه وكثرة العدد ؛ مثل «كليب وائل» سيد ربيعة،وكانت رياسة مضر وربيعة له فى أيامه[22] .

---

(٢٢) ابن دريد : الاشتقاق ص ٢٠٤ ، اللسان ١٤/١٩٩ ، ٢٦٢ ؛ السمهودى : وفاء الوفا ٢/٢٢٤ ، الامام الشافعى : الام ٣/٢٧٠ ، تاج العـروس ١٠/١٠٠ ، عـلى بن محمد بن حبيب الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٨٥ ـ ١٨٦ (بيروت ١٩٨٢) ، جواد على ٥/٢٦٧ـ٢٧١ .

ثالثا ـ حكومات المدن

١ ـ مكة المكرمة :

لا يعرف التاريخ شيئا كثيرا عن نظام الحكم فى مكة المكرمة قبل عصر «قصى بن كلاب» الجد الرابع للنبى ﷺ ، الذى جمع أمر مكة فى يديه فى القرن الخامس الميلادى تقريبا ، ثم ورثه لابنائه من بعده، وذلك بعد أن قضى على نفوذ «خزاعة» ومن والاهـا من بكر ، وأن يصبح هو سيد المدينة المقدسة ، وصاحب ولاية البيت الحرام ، وأن يفرض نفوذه على بطون كنانة التى كانت تلى بعض مناسك الحج ، وأن ينزل قريشا مكة ، وكان بعضا من بطونها مقيما فى الشعاب ورؤوس الجبال ، ثم يقسمها أرباعا بينهم ، ومن ثم فقد سمى «مجمعا» ، وهكذا تزعم قصى قومه فملكوه عليهم ، فكان أول ولد «كعب بن لؤى» أصاب ملكا ، وأطاع له به قومه ، وكانت اليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء ودار الندوة ، فحاز شرف قريش كله[١] .

وهكذا كان «قصى بن كلاب» أول رئيس من رؤساء مكة المكرمة يمكننا الحديث عنه ، دون أن يخالجنا ريب فيما نقول ، فالرجل قد خلد ذكراه فى التاريخ بأعماله العظيمة فى مكة ، رغم ريب المرتابين ، والرجل قد أوجد من النظم فى تنظيم الحج الى بيت الله الحرام ، ما بقى بعده

---

(١) تاريخ الطبرى ٢٥٤/٢ ـ ٢٥٨ ، تاريخ اليعقوبى ٢٣٧/١ـ٢٤٠ ، تاريخ ابن خلدون ٣٣٤/٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٥/٢ ـ ٢٠٩ ، المسعودى : مروج الذهب ٣١/٢ ـ ٣٣ ، الازرقى : أخبار مكة ١٠٣/١ ـ ١٠٧ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣٦/١ـ٣٩ ، ١٠٩/٤ ، ابن دريد : الاشتقاق ٣٦/١ـ٣٩ : الفاسى : العقد الثمين ١٤٥/١ـ١٤٧ ، القلقشندى : نهاية الارب ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٢٧٩ ، صبح الاعشى ٣٠٠/١ ـ ٣٠٦ ، وكذا

H. Lammenes, la Mecque a la Veille de L'Hegire, Beyrouth, 1924, p. 289.

وكذا W. M. Watt. Muhammed at Mecca, Oxford, 1953, p. 13.

ثم قارن : أحمد ابراهيم : المرجع السابق ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ، شوقى ضيف : العصر الجاهلى ص ٤٩ ، وكذا

H. Lammenes, op-cit, p. 148-194.

مثات السنين . والرجل هو الذى جعل البلد الحرام خالصا لاهله من بنى كنانة من ولد اسماعيل عليه السلام ، بعد أن أبعد عنه المغتصبين من خزاعة .

وقد قام «قصى» بعدة اصلاحات فى مكة . فبعد أن جمع القرشيين المبعثرين فى نواحى متعددة الى وادى مكة جعل لكل بطن حيا خاصا به: على مقربة من الكعبة المشرفة ، حتى تكون منازل القوم بجوار البيت الحرام ، فيتعهدونه بالصيانة ، ويدفعون عنه الخطر ، ومن ثم فانه لم يترك بين الكعبة والبيوت التى بنتها بطون قريش ، الا بمقدار ما يسمح للناس بالطواف .

وكن «قصى» شديد العناية بالبيت الحرام . الذى يزعم البعض أنه اعاد بناءه ، ومن ثم فهو أول من جدد بناء الكعبة من قريش ، ثم سقفه بخشب الدوم وجريد النخل ، كما كان أول من أظهر « الحجر الاسود» بعد أن دفنته «اياد» فى جبال مكة ، ثم أوكل أمره من بعده الى جماعة من قريش ، حتى أعاد القوم بناء الكعبة فى عام ٦٠٦م ، فوضعوه فى ركن البيت بازاء باب الكعبة فى آخر الركن الشرقى،ويحدثنا التاريخ أن القوم كادوا يقتتلون على من يحوز شرف اعادة الحجر الاسود الى مكانه ، لولا حكمة سيد الاولين والاخرين ، سيدنا ومولانا وجدنا محمد ، ﷺ ، وذلك بأن وضع الحجر فى ثوب ، ثم أمر بأن تأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم رفعوه جميعا ، فلما بلغوا موضعه ، وضعه ، ﷺ ، بيده الشريفة ، ثم بنى عليه(٢) .

---

(٢) تاريخ الطبرى ٢٨٨/٢ ـ ٢٩٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٩٩/٢ ـ ٣٠٤ ، المسعودى : مروج الذهب ٢٧٢/٢ـ٢٧٣ ، محمد عبدالله دراز : مدخل الى القرآن الكريم ص ٢٥ـ٢٦ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٤٤/٢ـ٤٥ ،ياقوت : معجم البلدان ٤٣٦/٤ ،ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ١٩٩/١ـ٢٠٠ ، الازرقى : أخبار مكة ١٥٧/١ـ١٦٤ ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ص ١٢٦ـ١٣١ ،المقدسى : البدء والتأريخ ١٠٤/١ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٩٣/١ـ٩٥ ، تفسير القرطبى ١٢٢/٢ـ١٢٣ .

على أن أهم أعمال «قصى بن كلاب» فيما يتصل بموضوعنا : انما هي : دار الندوة والحجاجة والسقاية والرفادة واللواء •

١ ـ دار النـدوة :

وكان يدار فيها ـ تحت رياسته ـ كل أمر قريش ، وما أرادوه من حرب أو تجارة أو مشورة أو نكاح ، فما كان لرجل أو امرأة من قريش الا أن يتزوج فيها ، وما كان لفتاة من قريش أن تدرع الا فيها ؛ ومن ثم فقد كان على صاحب الدار أن يشق درعها بيده ، وكان القوم يفعلون ذلك ببناتهم اذا بلغن الحـلم ، وربما كان الغـرض من ذلك التعريف بالبالغين من قريش ـ ذكورا كانوا أم اناثا ـ وأما اعضاء دار الندوة فكانوا جميع ولد قصى (بنو عبد الدار وبنو عبد مناف وبنو عبد العزى) وبعضا من غيرهم ، على شريطة أن يكون الواحد منهم قد بلغ الاربعين من عمره ، أو كانوا من ذوى القدرات الخاصة[٣] ، وهكذا كانت دار الندوة بمثابة دار مشورة ودار حكومة فى آن واحد ، يديرها الملأ من القوم ، الذين كانوا ، فيما يرى البعض ، يشبهون الى حد ما أعضـاء مجلس الشيوخ الاثينى[٤] ، ويتكونون من رؤساء العشائر وأصحاب الرأى والحكمة فيهم ، للنظر فيما يعترض القوم من مشكلات[٥] ، وقد ظلت دار الندوة قائمة حتى العصر العباسى ، وكان معاوية بن أبى سفيان قد اشتراها من صاحبها بمائة ألف درهم ، وجعلها دار للامارة فى مكة المكرمة ، وأن الخليفة «العباسى» المعتضد بالله (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) قد أمر

---

(٣) ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ١/١٣٤ـ١٣٦ ، ابن سعد ١/٣٩ـ٤٠ ، المقدسى ٤/١٢٧ ، الازرقى ١/٢٠٧ـ٢٠٩ ، ياقوت ٥/١٨٦ـ١٨٧ ، تاريخ الطبرى ٢/٢٥٧ـ٢٥٩ ، تاريخ اليعقوبى ١/٢٤٠ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٣٣٥ ، البـلاذرى : أنساب الاشراف ١/٥٢ ، الاشتقـاق ١/١٥٥ ، القلقشندي : نهـاية الارب ص ٤٣٠ ، أحمد ابراهيم الشريف : المرجـع السابق ص ١١٥ ، وكذا

P. K. Hitt, op-cit, p. 104.

(٤) W. M. Watt. op-cit, p. 183.

(٥) جواد على ٤/٤٧ ، وكذا

De Lacy. D. D. O'Leary, Arabia Before Muhammad. London, 1927, p. 183,

بهدمها ، وادخالها فى المسجد الحرام[٦] ، قريبا من باب الندوة الحالى فى الجهة التى يخرج الحاج منها الى حى القشاشية الحالى ، قريبـــا من أول شارع عبد الله بن الزبير ٠

٢ ـ الحجـابة :

(سدنة الكعبة) ، وهى خدمة البيت الحرام ٠

٣ ـ السقاية :

وهى سقاية الحجيج ، وكانت ــ كالحجابة ــ من أهم الوظائف ، فى بلد شحت مياهه فى وقت كان يستقبل فيه أكثر مما يطيق من الحجيج، ومن ثم فقد كان على صاحب السقاية توفير المياه لزوار بيت الله الحرام، حتى ييسر لهم مهمة الحج ، ويجعل الاقبال عليه كثيرا ، ومن ثم يذهب الاخباريون الى أن «قصيا» قد حفر بئرا أسماها «العجول» ، ثم سارت قريش على منواله ، فقامت بحفر الآبار فى منطقة مكة المكرمة ، وأنشأت فيها أماكن للسقاية ، ثم أوكلت سقاية الحاج الى البطون القوية فيها ، وهكذا غدت سقاية الحاج ــ بجانب عمارة البيت الحرام وسدانته ــ عملا يراه القوم فى قمة مفاخرهم ، والى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله»[٧] ٠

٤ ـ الرفادة :

وهى خرج كانت تدفعه قريش الى قصى من أموالهـــا ليصنع منه طعاما للحجاج ممن لم يكونوا على ميسرة ، وتروى المصادر العربية أن

---

(٦) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٢١/٢ ، ابن كثير : البـــداية والنهاية ٢٠٧/٢ ، السهيلى : الروض الانف ٨٨/١ ٠

(٧) سورة التوبة : آية ١٩ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٦٨/١٤ ــ ١٧٣ ، تفسير المنار ٢١٥/١٠ــ٢٢٠ ، تفسير الكشاف ١٨٠/٢ ، تفســير القرطبى ٩١/٨ــ٩٢ ، فى ظلال القرآن ١٦١٤/٢ــ١٦١٥ ، تيسير العـــلى القدير ٢١٦/٢ــ٢١٧ ، تفسير النسفى ١٢٠/٢ ، صفوة التفاسير ٥٢٥/١ــ ٥٢٦ ، تفسير ابن كثير ٥٣٤/٢ــ٥٦٥ ، صحيح مسلم ٣٦/٦ ، مسند الامام احمد ٣٦٩/٤ ٠

قصيا قال لقومه : «انكم جيران الله ، وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وأن الحاج ضيف الله وزوار بيته . وهم أحق الضيف بالكرامة ؛ فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم» ، ففعلوا ، فكانوا يخرجون من أموالهم فيصنع به الطعام أيام «منى» ؛ فجرى الامر على ذلك فى الجاهلية والاسلام .

وفى الواقع ، فلقد كان أمر ضيافة الحجيج عملا لايقل عن سقايتهم، وقد أسندتها قريش الى الاغنياء من رجالاتها ، لان قدوم الحجاج من أماكن بعيدة من شبه الجزيرة العربية يصعب معه حمل الزاد ، ومن ثم فقد كانت الرفادة تكلف أصحابها الكثير من أموالهم ، بجانب ما تقـدمه قريش لهم ، الا أن هذا الامر فى الوقت نفسه قد أفاد قريشا كثيرا ؛ اذ كانت «المؤاكلة» فى نظر العرب ، انما هى عقد حلف وجوار ، فضلا عن أن الضيافة فى ذاتها – كما أشرنا من قبـل – انما كانت تعد من أكبر ما يحمد الرجل عليه ، وهكذا كانت قريش بعملها هذا . وكأنها تعقد حلفا مع كل القبائل العربية : تحمى به تجارتها ، وتسبغ على رجالاتها نوعا من التقدير والاحترام عند العرب ، لا يتوفر لغيرهم .

٥ ـ اللـــــواء :

وهو رياسة الجيش فى الحـرب ، يسلمونه اليه عند قيام الحرب .

هذا وتجمع المصادر العـربية على أن مولانا وسيدنا رسول الله ، ﷺ ، قد ألغى هذه المناصب جميعا يوم فتح مكة فى العام الثـامن من الهجرة . الا سقاية الحاج وسدانة الكعبة[8] .

(٨) ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ١/١٣٤–١٤٠ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/٤١ ، ياقوت ٥/١٨٦–١٨٧ ، تاريخ الطبرى ٢/٢٥٨ – ٢٦٠ ، ٣/٦٠–٦١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٤/٣٢٠ ، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٣٥ ، تاريخ اليعقوبى ١/٢٤٠–٢٤٢ ، الازرقى : اخبار مكة ١/٦٢ ، ١٢٧ ، ١١٠–١١١ ، ١١٤–١١٥ ، العقد الفريد ٣/٣١٣–٣١٥ ، المقدسى ٤/١٢٧–١٢٨ ، الفاسى : شفاء الغرام ٢/١٢٠ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٢/٢١–٢٣ ، تاريخ مكة ص ٣٥ ، محمد مبروك نافع : المرجـع السابق ص ١٣٨–١٣٩ ، محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٠٠ – ٤٢٧ .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن «قصيا» انما ظل يمسك بهذه الوظائف جميعا حتى وفاته ؛ كما ظل أيضا الرجل الوقور المطاع فى قومه لا يخالف ولا يرد عليه شيء أقره ، ولعله فى جمعه لرياسة الندوة وعقده اللواء وجمعه الرفادة والسقاية ، انما يقابل فى اصطلاحتنا الحديثة ، رياسة السلطات التشريعية والحربية والمالية ، ان جاز هذا التعبير[٩] .

ولعل هذا هو الذى دفع «الاب هنرى لامانس» الى القول : بأن مكة انما كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية ، وقد يكون لشخصية «قصى» الفذة تأثير فى ذلك ، الا أن تنظيمات قريش لم تكن فى واقع الامر ، الا تنظيما قبليا فى جوهره ؛ وان بدا فى ظاهره تنظيما جمهوريا، ذلك لان الزعيم لم يكن يحمل لقبا معينا ، فضلا عن أن هناك من الادلة ما يشير الى أن العشيرة انما كانت تتمتع بحرية كاملة ، لاتخضع لسلطان غيرها فى كثير من الاحايين ، بل ان كثيرا من الافراد انما كانوا يخرجون على رأى القبيلة .

ومن النوع الاول : عدم مشاركة «بنى زهرة» لقريش فى موقعة بدر، رغم موافقتها على القتال وخروجها اليه ، بل ان «بنى عدى» لم يخرجوا للقتال أصلا ، ومن النوع الثانى : خروج أبى لهب على رأى «بنى هاشم» وانضمامه الى بقية بطون قريش فى مقاطعتها لبنى هاشم ، وبقاء العباس على علاقاته الودية ببطون قريش ، رغم تضامنه تماما مع قومه من بنى هاشم ؛ هذا الى جانب أن العشيرة انما كانت تخرج أحيانا على رأى مجلس القبيلة ، ومثال ذلك : اجتماع بنى هاشم والمطلب ، برياسة أبى طالب ، على حماية النبى ، ﷺ ، ومواجهة قريش فى كل موقف تتخذه ضد النبى ، ﷺ[١٠] .

---

(٩) محمد مبروك نافع ، المرجع السابق ص ١٣٩ .

(١٠) ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ٣٦٥/١ ، تاريخ الطبرى ٣٢٣/٢-٣٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٨ ، ٤٤٣ ، ابن الاثير : الكامل ٨٧/٢ ، ١١٧ ، ١٢١، ابن كثير : البداية والنهاية ٨٤/٣-٨٨ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦ ، أحمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص ١١٢-١١٣ ، وكذا
H. Lammens, la Republique Marchand de la Mecque.

ويرى الدكتور طه حسين ، يرحمه الله ، أنه من العسير أن نحدد لمكة نظام من نظم الحكم التى يعرفها الناس ، فلم يكن لها ملك ، ولم تكن جمهورية ارستقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة ، ولم تكن جمهورية ديمقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة أيضا ، ولم يكن لها طاغية يدير أمورها على رغمها ، وانما كانت قبيلة عربية احتفظت بكثير من خصائص القبائل البادية ، فهى منقسمة الى أحياء وبطون وفصائل ، والتنافس بين هذه جميعا قد يشتد حينا ويلين حينا ، ولكنه لا يصل الى الخصومات الدامية ، كما هو الحال فى البادية ، وأمور الحكم تجرى ، كما تجرى فى البادية ، وكل ما وصلت اليه قريش من التطور فى شئون الحكم ، هو أنها لم يكن لها «سيد» أو «شيخ» يرجع اليه فيما يشكل من الامر، وانما كان لها سادة وشيوخ يلتيئم منهم مجلس فى المسجد الحرام أو فى دار الندوة(١١) .

وأيا ما كان الامر ، فلقد أنجب «قصى» ثلاثة أبناء ، وقيل أربعة «عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد بن قصى» ورغم أن عبد الدار كان أكبر اخوته ، الا أن عبد مناف كان أكثرهم شهرة ، وأرفع شأنا ، وأعظم مهابة ، ومن ثم فقد رأى «قصى» أن يعوض «عبد الدار» عما فقده من مقومات الزعامة ، فأسند اليه كثيرا من الوظائف ليقاوم شخصية أخيه «عبد مناف» القوية ، وتمضى الايام ويرث الابناء الاباء، ويقوم النزاع بينهم ، حتى ينتهى آخر الامر بأن تكون الحجاجة واللواء ورياسة دار الندوة لبنى عبد الدار ، وأن تكون السقاية والرفادة لعبد مناف(١٢) .

---

(١١) طه حسين : مرآة الاسلام ص ٢٢ .

(١٢) تاريخ الطبرى ٢/٢٥٥-٢٥٩ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٣٣٥-٣٣٦ ، تاريخ اليعقوبى ٢٤١/١ ، الكامل لابن الاثير ٢١/٢ ، طبقات ابن سعد ٤١/١-٤٢ ، ياقوت ١٨٧/٥ ، البلاذرى : أنساب الاشراف ٦٠/١ ، الفاسى : العقد الثمين ١٤٨/١ ، شفاء الغرام ٢/٧٥-٧٦ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ١٤ ، السيرة الحلبية ٤٨/٣-٤٩ ، الازرقى : أخبار مكة ١٠٩/١-١١٠ ، ابن حبيب : المحبر ص ١٦٦ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٦٠٤ .

ويتولى «هاشم» السقاية والرفادة بعد أبيه عبد مناف الذى اشتهر بأنه غياث قومه فى عام المجاعــة ، ويصبح زعيم البلد الحرام . دون اخوته وخاصة عبد شمس ثم ولده أمية الذى حسده على رياسته واطعامه، فتكلف أن يصنع مثله ، ولكنه عجز ، فشمت به ناس من قريش ، وتنافر عبد شمس وهاشم ، وانتهى الامر بجلاء أمية عن مكة عشر سنين ، فكان ذلك أول خلاف بين بنى هاشم وبنى أمية(١٣) .

هذا ويروى المؤرخون أن هــاشما انما كان أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء والصيف ، غير أن حقيقة ذلك فيما يخلص لنـــا من سوابق الرحلات أنه كان يحمى تلك الرحلات وينظمها ، فنسب اليه أنه أول من سنها ، هذا الى أن الرجل العظيم انما قد نجح فى أن يعقد بنفسه مع الامبراطورية الرومانية ؛ ومع أمــير غسان ؛ معاهدة حسن جــوار ومودة ، كما حصل من الامبراطور الرومانى على الاذن لقريش بأن تجوب الشام فى أمن وطمأنينة ، كما عقد أخواه نوفل والمطلب حلفا مع فارس، ومعاهدة تجارية مع الحميريين(١٤) .

وورث عبد المطلب زعامة أبيه هاشم ، فأصبح سيد قريش ، وان لم يكن أغناها ، وهكذا تولى السقاية والرفادة بعد عمه «المطلب» فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون لقومهم من أمرهم ؛ وشرف

---

(١٣) تاريخ اليعقوبى ٢٤٢/١ ، تاريخ الطـبرى ٢٥٢/٢ـ٢٥٤ ، الكامل لابن الاثير ١٦/٢ـ١٧ ، المقريزى : كتاب التخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ص ٢ ، ٧ ، الفاسى : العقد الثمين ٤٨/١ ، شفاء الغرام ٨٥/٢ ، طبقات ابن سعد ٤٤/١ ، ٥٢ ، بلوغ الارب ٢٨٣/٢ ـ ٢٨٤ ، نهاية الارب ٣٠٧/١ـ٣٠٨ .

(١٤) تاريخ ابن خلدون ٣٣٦/٢ـ٣٣٧ ، ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ١٤٥/١ـ١٤٦ ، تاريخ اليعقوبى ٢٤٢/١ـ٢٤٣ ، ابن سعد ٤٣/١ ـ ٤٤ ، تفسير الفخر الرازى ٣١ـ١٨٠ ، الثعالبى : ثمار القلوب ص ١١٥ـ ١١٦ ، تاريخ الطبرى ٢٥١/٢ـ٢٥٢ ، تاريخ ابن خلدون ٣٣٦/٢ـ٣٣٧، ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ١٤٥/١ـ١٤٦،تاريخ اليعقوبى ٢٤٢/١ـ٢٤٣، ابن سعد ٤٣/١ـ٤٤،تفسير الفخر الرازى ١٨٠/٣١،الثعالبى : ثمــار القلوب ص ١١٥ـ١١٦ ، تاريخ الطبرى ٢٥١/٢ـ٢٥٢،تاريخ ابن خلدون ٣٣٦/٢ـ٣٣٧ ، وكذا

L. Caetani,Annali dell' Islam, 1905, p. 109.

فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه ؛ وعظم خطره فيهم، وفى عهده وبجهده تم اعادة حفر زمزم ، كما حدث فى عهده أيضا أخطر الاحداث فى تاريخ مكة ، وأعنى به حملة أبرهة الحبشى على البلد الحرام، على أن أهم الاحداث من عهده دون منازع ، ليس فى تاريخ مكة فحسب، وانما فى تاريخ البشرية جمعاء ، انما كان مولد مولانا وسيدنا وجـدنا محمد رسول الله ، ﷺ ، وبذا كتب للرجل العظيم أن يكون جد المصطفى ﷺ ، : وهو شرف ما بعده شرف .

وورث زعامة مكة بعد عبد المطلب ولده «أبو طالب» ، فتولى السقاية والرفادة . ثم تنازل عنهما لاخيه العباس ؛ الذى ظل يمسك بهما حتى ظهور الاسلام ، وفى صحيح مسلم أن العباس بن عبد المطلب استأذن النبى ، ﷺ ، أن يبيت ليالى منى من أجل سقايته ، فأذن له ؛ وفى رواية أخرى عن جابر أن النبى ، ﷺ ، بعد أن طاف طواف الافاضة ، فى حجة الوداع ، صلى الظهـر بمكة ، ثم أتى أهـله من بنى عبد المطلب وهم يسقون على زمزم (فهم أصحاب سقاية الحاج) فقال ، ﷺ : انزعوا بنى عبد المطلب ؛ فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم ، فناولوه دلوا ، فشرب منه» ، وفى رواية عن العباس : قدم النبى ﷺ على راحلته وخلفـه أسامة ، فاستسقى فأتيناه باناء من نبيـذ فشرب وسقى فضله أسامة وقال : أحسنتم وأجملتم كذا فاصنعوا» .

٢ ــ المدينة المنـورة

لعل نظام الحكم فى «يثرب» (المدينة المنورة) لا يختلف كثيرا عن مكة المكرمة ، فلم يكن لأهل «يثرب» عند ظهور الاسلام رئيس ، وقـد حاول بعض ساداتها من الاوس والخزرج تنصيب أنفسهم ملوكا على المدينة (يثرب)[١٥] فلم يفلحـوا ، وذلك بسبب المنافسة الشديدة بين الحيين العربيين ــ الاوس والخزرج ــ على الزعامة والرياسة ، ممـا

---

(١٥) انظر عن اسم «يترب» واسم «المدينة» (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٢٩ ــ ٤٣٦) .

أدى الى قيام حروب بينهم . هذا فضلا عن العوامل الاقتصادية ، والتى تتلخص فى رغبة كل من الفريقين فى الاستيلاء على ما عند يهود . بعد أن كسرت شوكتهم وزال عنهم سلطانهم القديم على يثرب ، ثم حدث أن احتل الاوس بقاعا أخصب وأغنى من تلك التى احتلها الخزرج. فى الوقت الذى كان الخزرج يتمتعون فيه بمركز الصدارة ، لان نصرة العرب على يهود انما جاءت على يد رجل خزرجى،هو مالك المجلان[١٦] .

وهكذا كان الخزرج ينفثون على الاوس مكانتهم الاقتصادية ، بينما كان الاوس ينفثون على الخزرج مكانتهم السياسية ؛ حدث هذا فى وقت كانت فيه سياسة اليهود مع القبائل العربية انما تقوم على الايقاع بينها، واثارة الاحقاد بين المتخاصمين منهم . كلما جنحوا الى النسيان وتعاهدوا على الصلح والامان ، ومن ثم فقد عملت يهود على اذكاء روح التحاسد والتباغض التى بدأت تظهر فى سماء العلاقات بين الحيين العربيين ، حتى يشعلوا نار ، ان لم تقض على الاوس والخزرج معا ، فعلى الاقل ، تشغل كل فريق بالاخر . وتنتهز يهود الفرصة استعدادا لجولة قادمة. أو على الاقل الحفاظ على ما هى عليه .

هذا وقد حاول عرب يثرب من الاوس والخزرج حل مشكلة الحكم فى مدينتهم حلا وسطا ، على قاعدة : أن يكون من الاوس أمير ومن الخزرج أمير ، يحكمان حكما مشتركا ، أو على التوالى ، كأن يحكم سيد الاوس سنة ، ثم يترك الحكم لسيد الخزرج ليحكم السنة التالية ، ثم يعود ليتولى الحكم سيد الاوس وهكذا ، غير أن هذا الحل لم يكتب له نصيب من نجاح ، وبقيت مشكلة الحكم مستعصية دونما أى حل يرضى الطرفين ، حتى جاء الاسلام ، وقدم سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله ، ﷺ ، الى المدينة المنورة فحلها حلا أزعج بعض من كان طامعا فى

---

(١٦) انظر عن غلبة الاوس والخزرج على يهود يثرب (محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤٧٥-٤٨٠) .

الحكم[١٧] ، بل ربما كاد أن يصل اليه ويصبح سيد يثرب[١٨] .

هذا وليس هناك ما يشير الى وجود «ناد» فى المدينة على شاكلة «دار الندوة» فى مكة و «نوادى الملأ» ولعل السبب فى ذلك تلك النفرة الشديدة بين الاوس والخزرج ، فبغض كل حى للحى الآخر ، جعل الاتفاق فيما بينهما على تكوين مجلس واحد من «ملأ» المدينة أمرا صعبا، على حين أن الامر فى مكة جد مختلف ، فهم كتلة واحدة ، ومصالحهم فى حكم مشترك مصلحة عامة ، ثم المنافسات بين الاسر القرشية لم تكن حادة ، كما هى الحال بين الاوس والخزرج ، خاصة وهم يعملون فى التجارة فى حاجة الى الامن والامان[١٩] .

بقيت الاشارة الى موضعين : الطائف وديدان (العلا) :

وأما «الطائف» فقد كان أمرها فى أيدى «ملأ المدينة» يديرون شئونها فى أيام الحرب والسلم،وليس هناك مايشير الى أن أهل الطائف قد توجوا عليهم رجلا ، فجعلوه ملكا ؛ أو أنهم رأسوا عليهم رئيسا ،

---

(١٧) جواد على ٥/١ن٢ـ٢٥٣ .

(١٨) يروى ابن هشام فى سير النبى ﷺ ، عن ابن اسحاق فيقول : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وسيد أهلها «عبد الله بن أبى بن سلول» ، لا يختلف عليه فى شرفه اثنان ،لم يجتمع الاوس والخزرج ، قبله ولا بعده، على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الاسلام ، غيره ، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءه الله تعالى برسوله ﷺ ، وهم على ذلك ، فلما انصرف عنه قومه الى الاسلام ضغن ، ورأى أن رسول الله ﷺ ، قد استلبه ملكا ، فلما رأى قومه قد أبوا الا الاسلام دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغن .

وروى ابن اسحاق أن سيدنا ومولانا رسول الله ، ﷺ ، ركب الى سعد بن عبادة يعوده من شكو أصابه ، فسمع فى طريقه من عبد الله بن أبى ما يكره ، فلما دخل على سعد ، رؤى وجهه ما قاله عدو الله ابن أبى ، قال سعد : والله يا رسول الله انى لأرى فى وجهك شيئا ، لكانك سمعت شيئا تكرهه ، قال : أجل ثم أخبره بما قال ابن أبى ، فقال سعد : يا رسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وانا لننظم له الخرز لنتوجه ، فوالله انه ليرى ان قد سلبته ملكا (ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ـ الجزء الثانى ـ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٨ ـ تحقيق أحمد حجازى السقا ، وانظر نهاية الارب ٣٥٦/١٦ ـ ٣٥٧) .

(١٩) جواد على ٢٥١/٥ ـ ٢٥٢ .

وانما كانت الرياسة فى عدد من الرؤساء هم سادات البطون والاحياء ، ولكل رئيس كلمته فى حيه الذى يقيم فيه[٢٠] .

وأما «ديدان» — وتقع على مبعدة ١٥ كيلا الى الجنوب من مدائن صالح — وهى «العلا الحالية» (أو الخريبة وهى جزء منها) ، وقد اختلف العلماء فى مدلول كلمة «ديدان» (ددان) ، فذهب فريق الى أنه اسم للمكان نفسه ، بينما حاول آخرون أن يقرنوا بين هذا الاسم واسم الاله «دد» الذى كان يعبد لدى الساميين الشماليين[٢١] .

وأيا ما كان الامر ، فان بعض الباحثين انما يذهب الى أن منطقة ديدان وما صاقبها من أراض ، انما كانت بمثابة جزء من دولة معين ، غير أنه كان يدار بطريقة خاصة ، حيث كان ملوك معين يقومون بتعيين ولاة من قبلهم لادارة هذه المنطقة التى تقع بعيدا عن دولة معين ، فى الشمال الغربى لبلاد العرب ، يطلقون على الواحد منهم لقب «كبر» أى «كبير»، ويعهدون اليه بادارة شئون المنطقة والمحافظة على الامن فيها ، ثم جمع الضرائب وارسالها الى العاصمة «قرناو»[٢٢] .

وكان بجانب هؤلاء الولاة ، حامية عسكرية ، وجالية تتألف من الاوساط التجارية فى تلك الواحات ، وكانت هذه البقاع موردا للكسب بالنسبة لأهل الواحات ، وللقبائل التى كانت تقيم فى مجاوراتها ، فكانت القبائل الشمالية تقدم لهذه الجاليات ما تحتاج اليه من القوت والثياب ، وكان لهم — من أجل ذلك — نوع من السيطرة والسيادة[٢٣] .

---

(٢٠) جواد على ٢٥٢/٥ .

(٢١) عبد الرحمن الانصارى : لمحات عن بعض المدن القديمة فى شمال غربى الجزيرة العربية — مجلة الدارة ٧٩/١ ، (١٩٧٥) ، سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ص ٢٠٣ ، وكذا
W. Caskel, Lihyan und Lihyanisch. Koln 1954, p. 44.

(٢٢) A. Musil, The Northern Hegas, New York. 1926. p. 295.

(٢٣) الويس موسل : شمال الحجاز — ترجمة عبد المحسن الحسينى — الاسكندرية ١٩٥٢ ص ٨٧ .

الفصل الثانى

الحيـــاة الاقتصادية

أولا ـ المـــوارد الزراعيـــة

١ ـ الانهـــار والاودية :

لا تستطيع شبه الجزيرة العربية أن تفاخر بوجود نهر واحد دائم الجريان يصب ماؤه فى البحر ، وليس فى نهيراتها الصغيرة ما يصـلح للملاحة[١] ، ومن ثم فهى تعد من جملة الارضين التى تقل فيها الانهار والبحيرات : وفى جملة البلاد التى يتغلب عليها الجفاف ، ويقـل فيها سقوط الامطار ، ومن ثم فقـد أصبحت أكثر بقاعها صحـراوية قليلة السكان[٢] .

وقد عوضت عن الانهار بشبكة من الاودية التى تجرى فيها السيول غب المطر ، وقد ذهب بعض الباحثين الى أن كثيرا من أودية شبه الجزيرة العربية كانت أنهارا فى يوم ما[٣] ؛ ويعتمدون فى ذلك على أدلة منهـا (أولا) وجود ترسبات فى هذه الاودية من النوع الذى يتكون عادة فى قيعان الانهار ، ومنها (ثانيا) ما عثر عليه من عاديات وآثار سـكن على حافة الاودية ، ومنها (ثالثا) ما جاء فى كتابات القـدامى من مؤرخى

---

(١) K. Philip. Hitti, History of the Arabs. London, 1960, p. 18.

(٢) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الجـزء الاول ، بيروت ١٩٦٨ ص ١٥٧ـ١٥٨ .

(٣) هذا ومما يؤكد وجود الانهار قديما فى بلاد العرب ما رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب الزكاة (باب الترغيب فى الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها) ، عن أبى هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال «لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض ، وحتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدا يقبلها منه ، وحتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا» وهكذا يفيد الحـديث الشريف أن شبه الجزيرة العربية كانت فيها المروج والانهار قديما .

الاغارقة والرومان وجغرافيهم عن وجود أنهر فى شبه الجزيرة العربية، فمثلا «هيرودوت» يحدثنا عن نهر أسماه «كورس» ، زعم أنه يصب فى البحر الاحمر ، و «بطليموس» يذكر لنا نهرا دعاه «لار» وزعم أنه نهر عظيم ينبع من منطقة نجران ، ثم يسير فى اتجاه شمالى شرقى ، مخترقا بلاد العرب . حتى يصب فى الخليج العربى ، ويرى «مورتز» أنه وادى الدواسر الذى يمس حافة الربع الخالى عند نقطة تبعد خمسين ميلا ، من جنوب غرب السليل ، وتمده بعض الاودية المتجهة من سلاسل جبال اليمن بمياه السيول[٤] .

والامر كذلك بالنسبة الى البحيرات ، فليس فى بلاد العرب بحيرات، وانما هناك عدد كبير من «السبخات» الملحة ، وهى مناطق واسعة تؤلف مساحة عظيمة من الارض السهلة غالبا ، وتحتوى على كثير من الاملاح المتجمدة[٥] ، وقد اختلف الباحثون فى نشأتها ، فهناك من ذهب الى أنها بقايا أنهار أو بحيرات ملحية قديمة[٦] ، ومن ذهب الى أنها بقاع تجمع فيها الكثير من الاملاح ، وبمرور الزمن تكونت هذه السبخات[٧] : والتى منها . سبخة رابغ بين جدة ورابغ ، وسبخة المدينة المنورة ، وسبخة قريات الملح ، وسبخة حضوضاء فى وادى السرحان ، وسبخة الاحساء بين الاحساء والخليج العربى[٨] ، وانه لمن الجدير بالملاحظة أن هذه السبخات فى موسم الامطار لزجة جدا ، لا تتحمل ثقلا . وتغور بمن يمر عليها[٩] .

---

(٤) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٥٥ ، الالوسى : تاريخ نجد ص ٢٩ ، جواد على ١٥٨/١–١٥٩ ، وكذا

B. Moritz, op-cit, p. 21.

وكذا Herodotus, I, p. 214.

وكذا P. Thomas, Arabia Felix, Across the Empty Quarter, p. 350 F.

(٥) عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب ص ٧٤ .

(٦) مصطفى مراد الدباغ : جزيرة العرب ، الجزء الاول ص ٢٩ .

(٧) عمر رضا كحالة : المرجع السابق ص ٧٥ .

(٨) نفس المرجع السابق ص ٧٥ .

(٩) مصطفى الدباغ : المرجع السابق ص ٢٩ .

وأما الاودية فهى فى الاصل مسايل ماء ؛ حفرتها الامطار والسيول المنهمرة على الجبـــال والهضاب والتـــلال ، أثناء سيرها نحـــو الاماكن المنخفضة ، وعملت لها منافذ سارت مياهها منها ؛ والاودية ، على أية حال ، من أخصب المواضع فى شبه الجزيرة العربية ، حتى ان كانت جافة فى معظم أيام السنة . وذلك لخصب تربتها ، ولقرب الماء فيها من سطح الارض . ولوجـــود العيون والبرك فى بعض منها ؛ وهى قبـــلة أنظار الاعراب والرعاة بعد نزول الغيث وامتلائها بالسيول ؛ اذ يظهر فيهـــا الكلأ ، وتبقى فى حفرها المياه ، فتكون بركا للشرب ، كما أن فى هـــذه الاودية مواضع عديدة ذات مزارع ونخيل كأنها الجزر فى البحار(١٠) .

وهكذا أدت قلة المياه فى بلاد العرب أن انحصرت الزراعة فيها فى الاماكن التى حبتها الطبيعة بمواسم الامطار ، كما فى العربية الجنوبية. وفى الاماكن التى ظهرت فيها عيون وينابيع مثل وادى القرى فى الحجاز، والاحساء على الخليج العربى ، وفى الاودية والاماكن التى تكثر فيهـــا المياه الجوفية ، حيث استخرجت المياه منها بحفر الابار ، والزراعة فى هذه الأماكن ــ باستثناء العـــربية الجنوبية ــ هى زراعـــة محدودة : حدودها ضيقة وآفاقها غـــير بعيدة ، ونتاجهـــا قليل لا يكفى لاعاشة السكان(١١) ، والواقع أن بلاد العرب كانت ، ولا تزال ؛ فى معظمهـــا أرضين صحراوية يحيط البحر بأطرافها ، ما عدا القسم الشمالى ، فاذا زاد سكانها وعجزت عن امدادهم بالغذاء الضرورى ؛ كان طبيعيا أن يرحل الفائض من السكان الى المناطق الخصبة من منطقة الهلال الخصيب ومصر(١٢) .

وعلى أية حال ، فانه من الجدير بالاشارة هنا أن الاودية كثيرة فى شبه الجزيرة العربية ، لعل من أهمها :

---

(١٠) جواد على ١٧٦/٧ــ١٧٧ .
(١١) جواد على ١٦٢/١ .
(١٢) J.H.B. Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947, p. 10.

۱ – وادى الرمـــة :

ويمتد من شرق المدينة المنورة فى اتجاه شمالى شرقى حتى يصــل الى «واحة البعايث» ، ثم يتجه شرقا فجنوب شرق ، ثم شرق ، حتى أطراف نفود «الثويرات» ، حيث تطمس هذه النفود مجراه ، وبعــدها يأخذ الوادى نفس اتجاهه الى الشمال الشرقى حتى رمال الدهناء تحت اسم «وادى الاجردى» ، ثم يسير بعد ذلك فى نفس الاتجــاه باسم «وادى الباطن» ، حيث مدينة البصرة على شط العرب ، ويتصل بهذا الوادى مجموعة ضخمة من الروافد تجرى فى كل شمال غربى هضبة نجد ، ويبلغ اتساع وادى الرمة فى بعض المناطق خمسة أميال ، وتقع عليه – وكذا روافده – أكبر القرى الواحية فى منطقة القصيم ، وأهمها بريدة وعنيزة والرس ورياض الخبراء وقصر بن عقيل والبديع والخبراء والبكيرية والدليمية والديبية والنبهانية والروضة والعيون والرويضـــة والربيعية وغيرها[١٣] .

هذا ويتجه بعض الباحثين الى اعتبار وادى الرمة هذا ، انما هو نهر «فيشون» المذكور فى التوراة كواحد من أنهار الجنة الاربعة ، (دجلة ، والفرات وجيحون وفيشون)[١٤] ، وتصف التوراة فيشون هــذا بأنه «يحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب ، وذهب تلك الارض جيــد ، وفيها المقل وحجر الجزع»[١٥] ، بل أن هناك من يذهب الى أن الانهر المذكورة فى التوراة انما هى أنهر تقــع فى بلاد العرب ، وأنهــا وادى الدواسر ووادى الرمة ووادى السرحان ، ووادى حوران ، وأن ميــل السطح فى شبه جزيرة العرب وتعرضه للرياح الموسمية ، ربما كان قد تغير بانحساف فى طبقات الارض،فندر الماء فى شبه الجزيرة العربية[١٦]،

(١٣) محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ٨١ ، ٨٣ .
(١٤) تكوين : ٢ : ١٠ – ١٤ .
(١٥) تكوين ٢ : ١٢ .
(١٦) جواد على ٢٤٤/١ وكذا أنظر :
L. Caetani, Studi di Storia Orientale, I. p. 64, 80. 243, II. p. 53. 65.
وكذا J. A. Montgomery, Arabia and the Bible, p. 9.
وكذا A. Musil, Northern Nejd, p. 305.

ولعل سبق اليمن الى عمارة السدود وخزانات المياه التى من أشهرهـا «سد مأرب» ، انما يرجع الى محاولة القوم التغلب على هذا القحط ؛ بل لعل المأثورات المتداولة بين عرب الجاهلية عن وجود ما يسمى بالعرب البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم ووبار وغيرهم ؛ انما هو صدى لتلك الكوارث الجغرافية ـ فضلا عن الاسباب الدينية ـ التى دفعت بالساميين الاصليين من سكان بلاد العرب الى البحث عن القوت فى أماكن أخرى(١٧) ، وان كان «الويس موسل» يتجه الى أن سـبب الهجرات وتحول الارض الخصبة الى صحارى ، انما يرجع الى ضعف الحكومات ، والى تحول الطرق التجارية(١٨) .

٢ ـ وادى الحمض :

وكان يسمى قديما «وادى اضم» ، ويبدأ من جنوب حرة خيبر ؛ ثم يتجه الى المدينة المنورة حيث تتصل به أودية فرعية كوادى العقيـق ووادى القرى ، ثم يسير فى مرتفعات الحجاز ، حتى يصل الى سهول تهامة فيتجه الى الشمال الغربى ، حيث يصب فى البحر الاحمر جنوب ميناء «الوجه» . وهناك بقايا قرية يونانية قديمة ، ومعبد يعرف عنـد الاهلين «بقصر كريم» ، وهو من مخلفات المستعمرات اليونانية القديمة، التى كان الملاحون والتجار اليونان قد أقاموها عند ساحل البحر الاحمر لحماية سفنهم من القرصان (أولا) ، وللاتجار مع الاعراب (ثانيا) ، ولتموين رجال القوافل البحرية بما يحاجون اليه من ماء وزاد (ثالثا)(١٩)، ويذهب «مورتز» الى أن هذا الموضع هو مكان مدينة «لويكة كومى» المشهورة فى أحداث حملة «اليوس جالليوس» على اليمن فى عام ٢٤ق.م،

---

(١٧) أنظر : حسـن ظاظا : المرجـع السابق ص ١٤ ، ومقالنا «الساميون والاراء التى دارت حول موطنهم الاصلى» مجلة كلية اللغة العربية ، ١٩٧٤ العدد الرابع ص ٢٦٥ـ٢٦٧ ، وكتابنـا «دراسات فى التاريخ القرآنى» ـ الفصل التاسع من الجزء الاول .

(١٨) A. Grohmann, Arabien, p. 153.

(١٩) محمود طه ابو العلا : المرجع السابق ص ٨٧ ، ياقوت ١/ ٢١٤ـ٢١٥، ٤/٣٣٨ـ٣٣٩، ٥/٣٤٥، جواد على ١/١٦١ .

بينما يذهب آخرون الى أنها المحل المعروف باسم «الحوراء» ، وأما طول وادى الحمض ، فيقدره الجغرافيون بحوالى ٩٠٠ كيلو مترا[٢٠] .

٣ ـ وادى السرحـــان :

ويمتد من «عمان» عـاصمة المملكة الاردنية الهاشمية ، حتى قرب «الجوف» جنوبا ، على الاطراف الشمالية للنفود الكبير ، ويبلغ طـوله حوالى ٣٠٠ ميل ، ويصل اتساعه فى بعض المناطق الى عشرة اميـال ، وهو منخفض واسع يطلق عليه «قريت الملح» و «وادى السرحان» ، وهو ليس واديا بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، وانما هــو منخفض واسع من الارض يمتد من الجنوب الى الشمال ، وتنحدر منـه أودية كثيرة من جميع جهاته ، ولاشك أنه كان متصلا باقليم الجوف ، غـير أن الرمال قد تراكمت فى نقطة التقاء المنطقتين ــ فى الموضع المعروف باسم عريق الدسم وما بقربه ــ تراكما فصل بينهما ، وهــذا المنخفض من الارض كان يدعى قديما «فرافر» ، كما كان يدعى «البياض» كذلك[٢١] .

٤ ـ وادى حنيفـــة :

وكان يسمى «فلجا»[٢٢] ، ويمتد هذا الوادى ، ومجموعة الوديان المتصلة به ، بين جبال طويق غربا ، وبين هضبة العرمة شمالا ، بين خطى عرض ٢٤ ، ٢٦ ، ويبلغ طوله حوالى ٢٥٠ ميلا ، ويجرى موازيا له من الشمال الى الجنوب «وادى الايسن» حتى مدينة الرياض ، حيث يمتد فى جنوبها وادى السلمى ، وطولهما ١١٠ ميلا ، وهذه الوديان جميعها تنتهى فى منطقة الخرج أو منطقة اليمامة[٢٣] .

٥ ـ وادى الدواسر :

وهو واد كبير يتجه شرقا عبر وديان جبل طـوق ، وتنتهى مياهه

---

(٢٠) جواد على ١٦١/١ ، ياقوت ٣١٦/٢ وكذا
B. Moritz, op-cit, p. 21. 24.

(٢١) الهمدانى : المرجع السابق ص ١٢٩ : حمد الجاسر : فى شمال غرب الجزيرة ص ٤٠ .

(٢٢) عبد الوهاب عزام : مهد العرب ص ٧٧ .

(٢٣) محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ٨٤ .

شرقها عند أطراف الربع الخالى ، عند نقطة تبعد خمسين ميلا من جنوب شرقى السليل ، وأهم الوديان المتصلة به من الجنوب وادى تمرة ووادى الحسى ووادى الحنو ، ومن الشمال وادى المجامع ووادى بنى ليب . وأهم القرى اللدام والسليل والخماسين والشرافا وليلى والبديع والروضة ، وفى وادى الدواسر واحة تقع فى مدخلها من جهة الشرق مزارع نخيل الشرافا ، وهى غنية بشجر الآثل والكروم[٢٤] .

٦ ـ وادى بيشة :

وينبع من مرتفعات عسير الشرقية قرب مدينة «أبها» ، ثم يسير موازيا لوادى «تثليث» حتى يتصل به شمال غرب مدينة الخماسين . ويبلغ طوله حوالى ٣٥٠ ميلا ، ويتصل به من الغرب وادى رينة الذى ينبع من مرتفعات عسير الشرقية قرب بلاد «غامد» ثم يتجه شمالا مع الحافة الشرقية لحرة «البقوم» حتى يتصل بوادى بيشة شرق قرية «رينة» عند الرغوة ، ويبلغ طوله حوالى ٣٥٠ كيلو مترا[٢٥] من بدايته وحتى بعد «الجنينة» ثم يستمر حوالى ١٠٠ كيلو مترا فى الرمل[٢٦] .

٧ ـ وادى فاطمة :

وينتهى به وادى السيل ، ويصب فى البحر الاحمر جنوب ميناء «جدة» ، وهو الذى يزود المدينتين المقدستين ـ مكة المكرمة والمدينة المنورة ـ بالمياه .

٨ ـ وادى نجران :

وهو أحد الاودية الكبيرة فى شبه الجزيرة العربية ، بل هو فى الواقع مجموعة أودية كبيرة ، منها :

---

(٢٤) نفس المرجع السابق ص ٨٤ ، عمر رضا كحالة : المرجع السابق ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٢٥) محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ٨٤ـ٨٦ ، وانظر : محمود شاكر : شبه جزيرة العرب ـ الجزء الاول ـ عسير ، ص ٢٩ـ٣٣ (بيروت ١٩٧٦) .

(٢٦) محمود شاكر : المرجع السابق ص ٣٣ .

أ) وادى حرض : وينبع من مرتفعات «وشحة» ومرتفعات «خولان ابن عامر» غربى صعدة ، ويتجه مجراه الى ساحل البحر الاحمر شمالى «ميدى» فى المملكة العربية السعودية .

ب) وادى مور : وهو واد كبير تتصل به روافة كثيرة متعددة المنابع، بعضها من مرتفعات «العشمة» ، وبعضها من مرتفعات «وشحة» وبعضها من مرتفعات «كحلان» ؛ وبعضها من بلاد «حاشد» ؛ ويصب فى وادى مور فى البحر الاحمر شمال «اللحية» .

ج) وادى سردد : ويغذى مناطق زراعية واسعة ، وتتصل به روافد عدة ، أهمها وادى الاهجر الذى تكثر به الشلالات وقد استخدم على أيام «دولة حمير» فى طحن الغلال،ويصب وادى سردد جنوب «الزيدية».

د) وادى سهام : وتقع منابعــه فى وادى آنس جنــوب صنعاء ، ويصب فى البحر الاحمر جنوب الحديدة .

هـ) وادى رماع . وينبع من المرتفعات الواقعة شمال «ذمار» وتغذيه عدة روافد ؛ ويصب فى البحر الاحمر شمال «الفازة» .

و) وادى زبيد : وهــو من الاودية الغــزيرة المياه ، ومنابعه فى مرتفعات «لواء آب» ، ويصب فى البحر الاحمر غربى مدينة «زبيد» .

ز) وادى نخلة . ويصب فى البحر الاحمر شمالى «الخوخة» ، ثم هناك كذلك وادى «رسيان» ووادى «موزع» ، هذا مع ملاحظة أن كل هذه الاودية — الآنفة الذكر — انما تتجه غربا .

وأما الاودية التى تتجه شرقا ، فلعل أهمها :

أ) وادى الجوف : وتتجمع فيه عدة أودية .

ب) وادى مارب : وينبع من جبال «بلق» ثم يتجه شرقا ، مــارا بمدينة مأرب على مبعدة كيلو مترا من سد مأرب المشهور .

جـ) وادى حريب : وينبع من مرتفعات «خولان أنطيال» •

د) وادى أملح والعقيق .

هـ) وادى بيحان : وينبع من مرتفعات «لواء البيضاء» ثم يتجه الى اليمن الشرقى حتى يصل الى «بيحان القصاب» ثم تضيع مياهه شرقا فى الاحقاف •

وانه لمن الاهمية بمكان الاشارة الى أن هذه الاودية التى تتجه شرقا ذات أهمية تاريخية ، فقد كانت مركزا للسكنى والاستقرار ، وكان حجم التجمعات السكانية ، ولاشك كبيرا ، حتى أنهم فكروا فى اقامة السدود العديدة على مجارى هذه الوديان ، ومنها «سد مأرب»[٢٧] . وسد قتبان الذى أقيم فى وادى بيحان عند «هجر بن حميد» وكان يسقى منطقة واسعة من دولة قتبان[٢٨] : هذا فضلا عن تلك السدود التى تظهر آثارها فى وادى عديم وعند حصن العروثوبة فى جنوب وادى حضرموت[٢٩] ، فضلا عن سد عند «مرخة» وآخر عند «شبوة» وثالث عند «الحريضة»[٣٠] •

ويصف الشاعر العربى السدود[٣١] فى منطقة «ياريم» فقط بقوله :

---

(٢٧) محمود طه أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب ـ الجزءان الثالث والرابع ـ القاهرة ١٩٧٢ ص ٤٣ـ٥٢ ، وانظر عن «سد مارب» الفصل التاسع من كتابنا «دراسات فى التاريخ القرآنى» ـ الجزء الاول ـ

(٢٨) R. Hamilton, Archaeological Sites in the Western Aden Protectorate, in GJ, 101, 1943, p. 116.

وكذا J. B. Philby, the Land of Sheba, in GJ, 92, p. 113, 119.

وكذا A. Grohmann, Arabien, 1963, p. 153.

(٢٩) جواد على ٢١٣/٧ •

وكذا A. Grohmann, op-cit, p. 153.

وكذا J. B. Philby, op-cit, p. 16.

(٣٠) جواد على ٢١٣/٧ •

وكذا C. Thompson and E. Gardiner, in GJ, 93, 1939, p. 34-35.

(٣١) أهم سدود اليمن القديمة هى : سد مأرب وسد قصعان وسد قتاب وسد عياد وسد لحج وسد سحر وسد ذى شبار وسد ذى رعين وسد وهزان وسد الشعبانى وسد الخانق بصعدة وسد ريعان وسد شيام على مقربة من صنعاء وسد دعان وسد سيان وسد نقاطة (أنظر كتابنا : دراسات فى التاريخ القرآنى ، الجزء الاول) •

وفى الجنة الخضراء من أرض يحصب　　ثمانون سدا تقذف الماء سائلا

وبقايا هذه السدود مازال باقيا يشهد بوجودها فى مجارى هذه الوديان ، كما أن آثار العمارة مازال باقيا فى المدن القديمة ، وهناك المدن التى تنتشر بالقرب من مجارى هذه الوديان مثل «براقش» و «معين» . وقد ذكر «بلينى» أنها بلاد كثيرة الغابات والاعراس — الامر الذى سنناقشه فى مكانه من هذه الدراسة — .

أما الاودية التى تتجه شمالا : فقليلة وفقيرة جدا . أما المتجهة جنوبا ، فغنية بمائها ، وتتركز الاراضى الزراعية فى مجاريها الدنيا : وأهمها «وادى تبن» و «وادى بنا»[٣٢] .

المنـــاخ :

تعتبر شبه الجزيره العربيه من اشد البلاد جفافا وحرا . وربما كان ذلك لوقوعها فى منطقة قريبة من خط الاستواء ، ولان معظمها انما يقع فى الاقليم المدارى الحار . ولانها بعيدة عن المحيطات الواسعة التى تخفف من درجة الحرارة . ولان المسطحات المائية التى تقع الى الشرق والى الغرب منها — أى الخليج العربى والبحر الاحمر — أضيق من أن تكفى لكسر حدة هذا الجفاف المستمر : فهما مسطحان مائيان يتراوح اتساعهما بين ١٢٠ . ١٥٠ ميلا ، ولهذا كان أثرهما فى اعتدال الحرارة غير محسوس . أما المحيط الهندى الذى يقع الى الجنوب منها ، فلئن ساعد فى الجنوب على سقوط الامطار فى أطراف شبه الجزيرة العربية الجنوبية ، فان مرتفعات حضرموت والربع الخالى قد تمنعه عن داخلها ، هذا فضلا عن أن رياح السموم التى تنتاب شبه الجزيرة العربية فى مواسم معينة ، فتشوى الوجوه وتعمى العيون ، تسلب كذلك الرطوبة من الهواء قبل أن يبلغ داخل البلاد : أما الريح الشرقية المنعشة المعروفة «بريح الصبا»[٣٣] ، فقد كانت موضوعا محببا يتغنى به شعراء العرب،

---

(٣٢) محمود ابو العلا : المرجع السابق ص ٥٠ـ٥٢ .

(٣٣) يروى المسعودى أن الرياح أربعة ، احداها تهب جهة المشرق وهى القبول (الصبا) والثانية من المغرب وهى الدبور ، والثالثة من
=

ن ليس فى أشعار العالم ولا فى نثرهم شعرا ونثرا فيه هذا القدر من التغزل بريح من الرياح .

والمطر غوث ورحمة لسكن شبه الجزيرة العربية ، يبعث الحياة فى الارض ، فتنبت العشب والكلا والكمأة والازهار . ويحول وجهها الكئيب الى وجه مشرق ضحوك ، فيفرح الناس وتفرح معهم ماشيتهم ، ومن هنا كانت مرادفات المطر الغيث ، وفيها ما فيها من معانى الغوث والنصرة، وهو على أى حال : جد قليل فى داخل البلاد ، بالنسبة الى شدة احتياج البلاد اليه ، ولعل أكثر المناطق حظوة ونصيبا من المطر هى النفود الشمالى وجبل شمر : اذ تنزل بها الامطار فى الشتاء ، فتنبت أعشاب الربيع ، وأما الصحارى الجنوبية فلا يصيبها المطر الا رذاذا ، وقد تبخل الطبيعة عليها حتى بهذا الرذاذ ، وأما الساحل الغربى حيث معظم الارض حرة ، فان المطر ينهمر هناك مدرارا فتسيل السيول ، ثم تبدو الارض وكأن لم يصيبها شىء : حيث لا يتسرب من هذه السيول شىء كثير الى باطن الارض ، وانما تصب فى البحر ، على أن ثمة بقاعا قليلة تستفيد من المطر كالعقيق فى المدينة وبعض البقاع حول مكة ، ولا ريب فى أن الطائف مثلا بلد خصب — وكذا خيبر — ولكن تلك الاماكن الخصبة قليلة جدا بالنسبة الى اتساع شبه الجزيرة العربية(٣٤) .

وتسقط الامطار الموسمية فى اليمن وعسير ، وهى هناك تكفى لتأمين زراعة الارض زراعة منتظمة ، ففيها نجد خضرة دائمة تنبت فى أودية تمتد الى نحو مئتى ميل من الساحل ، ويزيد ارتفاع صنعاء على ٧٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، وهى لذلك من أصح المدن وأجملها فى بلاد العرب ، ويروى «الاصطخرى» أنه ليس فى الحجاز أبرد من جبل «غزوان» بجوار الطائف،وأنه ربما جمد الماء فى ذروته ، وأشار الهمدانى

=

اليمن وهى الجنوب ، والرابعة من التيسر وهى الشمال (مروج الذهب ٢٢١/٢) .

(٣٤) حافظ وهبة : المرجع سابق ص ٦ ، عمر فروخ : المرجع السابق ص ٣١ ، جواد على ٢١٤/١ .

الى جمود الماء فى صنعاء ، ويضيف «جلازر» الى هذين الموضعين جبل «حضور الشيخ» فى اليمن ، الذى كثيرا ما تسقط عليه الثلوج فى الشتاء، وأما الصقيع فهو أكثر من ذلك شيوعا(٣٥) .

وتهب على عسير فى الصيف الرياح الموسمية ، سواء الغربية منها أم الجنوبية الغربية ، فالاولى تصل الى المنطقة من المحيط الاطلسى وتسبب سقوط الامطار فوق هضبة الحبشة ، وعندما تجتازها تمر فوق مناطق منخفضة ثم فوق البحر الاحمر فتحمل معها بعض الرطوبة فعندما تصطدم بجبال عسير تسبب هطول الامطار ؛ بينما لا تسبب تهطلا فوق تهامة لحرارة المنطقة فتقل معها الرطوبة النسبية ، ولكنها تسبب العواصف الرملية ولذا تعرف هناك باسم «الغبرة» وغالبا ما تكون فى نهاية الصيف ، وبعد الزوال حتى غروب الشمس ، أما الرياح الجنوبية الغربية فتأتى من المحيط الهندى وتكون فى أوائل الصيف وتثير البحر وتهيجه فترتفع الامواج فيه ، ولا تسقط الا أمطارا قليلة لانها تتل فى ظل القرن الافريقى ، كما أن جبال اليمن تكون قد أفقدتها أكثر حمولتها، ولا ينال تهامة منها شيئا(٣٦) .

وتتميز حضرموت بالاودية العميقة وبالرياح الموسمية الجنوبية الغربية المشبعة ببخار الماء ؛ ويصل الى عمان قدر لا بأس به من المطر ينفع الناس ويعينهم على تصريف أمورهم .

ومن الغريب أن المطر ينهمر أحيانا ، وكأنه أفواه قرب قد فتحت ؛ فيكون سيولا عارمة جارفة ، تكتسح كل ما تجده أمامها ، وتسيل الاودية، فتتحول الى أنهار سريعة الجريان ؛ وقد لاقت مكة من السيول مصاعب كثيرة ، هذا وقد خصص «البلاذرى» فى «فتوح البلدان» فصلا كاملا

---

(٣٥) الاكليل ٨/٧ (طبعة نبيه أمين فارس ، برنستون ١٩٤٠) ، الاصطخرى : المسالك والممالك ص ١٩ (طبعة ليدن ١٨٧٠) ، نزيه العظم : رحلة فى بلاد العرب السعيدة ص ١١٨ (القاهرة ١٩٣٨) ، وكذلك
P. K. Hitti. A History of the Arabs, p. 18.

(٣٦) محمود شاكر : المرجع السابق ص ١٩-٢٠ .

لاخبار سيول مكة ، والامر كذلك بالنسبة الى المدينة المنورة . والى غيرها من المدن . وقد يهلك فى هذه السيول خلق من الناس كثير ، كما حدث لشعب سبأ بسبب سيل العرم[٣٧] ، وكما حدث قريبا فى عام ١٣٣٦ هـ عندما حدثت فيضانات كثيرة فى وادى «تثليث» فتجاوزت السد الرملى الى وادى الدواسر وأغرقت عدة قرى[٣٨] .

٣ ـ السدود فى بلاد العرب :

دفعت ظروف بلاد العرب المناخية ، الآنفة الذكر . الى أن يقيم القوم الكثير من السدود . والتى كان من أهمها فى اليمن القديمة ـ اذا ستثنينا سد مأرب العظيم ـ سد قصعان وربوان (سد قتاب) وشحران وطمحان وسد عبد وسد لحج (سد عرايس) وسد سحر ، وسد ذى نهال وسد ذى رعين وسد نقاطة وسد نضر وهران وسد الشعبانى وسد المليكى وسد النواسى ، وسد المهباد وسد الخانق فى صعدة ، ومظهرة فى الخنفرين من رحبان ، وسد ريعن ، وسد سين وسد شبام على مقربة من صنعاء . وسد دعان وغيرها .

هذا وهناك أيضا سد قتبان . وقد أقيم فى وادى بيجان عند «هجر بن حميد» وكان يسقى منطقة واسعة من دولة قتبان[٣٩] ، فضلا عن سد

---

(٣٧) جواد على ٢١٥/١ ، فتوح البلدان ص ٥٣ـ٥٥ . وانظر عن سيول مكة واعادة بناء الكعبة فى حوالى عام ٦٠٦م (مروج الذهب ٢/ ٢٧١ـ٢٧٢ ، ابن الاثير ٤٤/٢ ، الطبرى ٢٨٧/٢ ، الازرقى ١٥٧/١ ـ ١٥٨ ، ياقوت ٤٦٦/٤ ، نهاية الارب ٢٣٢/١ ، المقدسى ١٣٩/١ـ١٤٠ ، الحربى (أبو اسحاق ابراهيم بن اسحاق) : كتاب المناسك واماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، تحقيق حمد الجاسر ، الرياض ١٩٦٩ ، ص ٤٨٦ـ٤٨٧ .

(٣٨) محمود شاكر : المرجع السابق ص ٣٣ .

(٣٩) A. Grohmann. op-cit. p. 153

وكذا R. Hamilton, Archaeological Sites in The Western Aden Protectorate, in GJ, 101, 1943, p. 116.

وكذا J. B. Philhy, The Land of Sheba. in GJ. 92, p. 113, 119.

عند «مرخة» ، وآخر عند «شبوة» ، وثالث عنـد «الحريضة»[٤٠] . أضف الى ذلك تلك السدود التى تظهر آثارها فى وادى عديم وعند حصن العروثوبة فى جنـوب وادى حضرموت ، كما أن هناك ما يشير الى أن الصخور قد نحتت عند «نجران» لعمل ممر مائى يتجه الى حوض واسع أحيط بسد وجدار ، حيث يستطيع القوم تخزين مائة مليون جالون من المياه هناك[٤١] .

٤ ــ سـد مأرب :

كان خصب أرض سبأ مضرب الامثال عند العرب ، وكان أهلهـا ينعمون بخيرات واديهم ، وبما تدره التجارة عليهم من أموال ، اذ كان السبئيون القدامى يتحكمون فى ذلك الدرب التجارى الهام الذى لعب دورا من أكبر الادوار فى تاريخ العالم القديم .

وهناك على مقربة من مدينة مأرب توجة فتحة لتنظيم تصريف المياه التى كانت تسير فى القناة اليمنى ــ احدى القناتين اللتين كانتا تخرجان من سد مأرب ــ ومازالت بقايا جدرايها المشيدين بالحجر ، ترى حتى الان فى الجهة الجنوبية من المدينة ، وهى الباب الرئيسى فى السور الذى كان يواجه معبد «أوام» أو «محرم بلقيس» وعلى الجدار الشمالى من ذلك الاثر نقش معروف (رقـم ١ ــ ٤٤) ومكتوب فيه أن مكرب سبأ «ذمار على وتار» بن «كرب ايل» ــ الذى عاش فى القرن السابع قبل الميلاد ــ هو الذى بنى هذه الفتحة أمام هيكل الاله «عثتر»[٤٢] ، ويبدو أن الرجل كان مهتما بالاصلاح الزراعى ، وكما نعرف من نقش (هاليفى ٣٤٩) فانه قد أمر بتوسيع مدينة «نشق» ، كما أمر بتحسين وسائل

---

(٤٠) جواد على ٢١٣/٧ وكذا
C. Thompson and E. Gardiner, in GJ, 93, 1939, p p. 34-5.

(٤١) جواد على ٢١٣/٧ وكذا
J. B. Philby, The Land of Sheba, p. 16.
وكذا A. Grohmann, op-cit, p. 153.

(٤٢) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٧١ ، ١٨٠ وكذا
J. Ryckmans, les Institutions Monarchiques, p.p. 62-3.

للرى ؛ وباستصلاح الاراضى المحيطة بالمدينة واستغلالها فى الزراعة[٤٣].

وعلى أى حـال ، فلقد جاء بعد « ذمار على وتار» ولده سمه على ينوف» الذى ينسب اليه أنه صاحب فكرة ومنفـذ أكبر مشروع للرى عرفته بلاد العرب ، وذلك بالرغم من أن سكان مأرب كانوا ذوى خبرة بشئون الرى ، الا أن سدودهم كانت بدائية ، حتى جاء «سمـه على ينوف» وأحدث تطورا خطيرا فى وسائل الرى ، وذلك حـين شيد سد «رحب» للسيطرة على مياه الامطار والاستفادة من السيول ، وهكذا بدأ المشروع العظيم والذى عرف فى التاريخ باسم «سد مأرب» الذى نما على مر الايام ، حتى اكتمل فى نهاية القرن الثالث الميلادى على أيام «شمر يهرعش»[٤٤] ، فنظم وسائل الرى وأضاف مساحات كثيرة الى الارض الصالحة للانتاج[٤٥] .

ونعرف من نقش (جلازر ٥١٤) أن «سمه على ينوف» قـد ثقب حاجزا فى الحجر ، وفتح ثغرة فيه لمرور المياه الى سد «رحب» ثم الى منطقة «يسرن» التى كانت تغذيها مسايل وقنوات عديدة تأتى بالمياه من حوض السد[٤٦] ، وتستمد ماءها من مسيل «ذنة» فتغذى أرضا كانت — ومازال — خصبة ، يمكن للقوم الافادة منها اذا ما استعملوا الوسائل الحديثة لايجاد المياه[٤٧] .

وليس من شك فى أن عهد «سمه على ينوف» من أهم عهود مكاربة

---

(٤٣) جواد على ٢/٢٨٠ .
(٤٤) حكم شمر يهرعش فى الفترة (٢٧٠-٣١٠م) ، وان كان «فون فيسمان» يحدد النصف الثانى من حكمه بالفترة (٢٨٥-٢٩١ — أو ٣١٠-٣١٦م) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٩٥ وكذا
(٤٥) جواد على ٢/٢٨١ ، وكذا انظر :
D. Nielson, Handbuch, I, p. 79.
(٤٦) أنظر :
Hofner, Beirrag sur Tistorischen Geographie des Vorislamischen Sudarabien, p. 27.
(٤٧) جواد على ٢/٢٨١ ، نزيه مزيد العظم : المرجع السابق ص٨٨.

سبأ[٤٨] ، فيما يتصل بالتأريخ لسد مأرب ، وأن أقدم ما لدينا من وثائق عنه ، انما يرجع الى عهد هذا المكرب ، وربما الى حوالى عام ٧٥٠ ق٠م، على رأى[٤٩] ، والى حوالى عام ٧٠٠ ق٠م ، على رأى آخر[٥٠] .

وجاء «يثع أمر بين» وســـار على سنة أبيه «سمه على ينوف» فى الاهتمام بتحسين وسائل الرى فى البلاد ، ويبدو أن «سد رحب» لم يف بجميع حاجيات الاراضى الصالحة للزراعة من المياه ، ومن ثم فقد عمل «يثع أمر بين» على ادخال بعض التحسينات على هذا السد ، وانشاء فروع له ، منها فتح ثغرة فى منطقة صخرية ، حتى تصل المياه الى أرض «يسرن» ، هذا الى جانب تعلية سد رحب وتقويته ؛ أضف الى ذلك أن الرجل انما قام ببناء السد المسمى «هباذ» ، وهو أكبر من «سد رحب»، والذى كان على الارجح البوابة الاخرى على اليسار[٥١] ، كما أقام سده الجبار المعروف باسم « سد حبابض» الذى مكن كثيرا من الارض من الافادة بأكبر كمية من المياه التى كانت من قبل تجرى عبثا ، فلا تفيد زرعا أو ضرعا[٥٢] .

ولعل هذا كله،هو الذى دفع بعض الباحثين الى اعتبار «يثع أمر بين» وأبيه «سمه على ينوف» المؤسسين الاصليين لسد مأرب ، والذى يعتبر أكبر عمل هندسى عرفته شبه الجزيرة العربية فى تاريخها القديم .

هذا وقد كان من أثر الاهتمام بانشاء السدود وتنظيم الرى . أن

---

(٤٨) تقع هذه الفترة فيما بين عامى (٨٠٠ ــ ٦٥٠ ق٠م) أو (٧٥٠ـ ٤٥٠ ق٠م) وان كنا نفضل الرأى الذى يبدأ تاريخها بالقرن العاشر ق٠م، واليها تنتمى ملكة سبأ صاحبة سليمان ، انظر : جواد على ٢/٢٦٩ ،
BASOR, 137, 1955, p. 38.
وكذا (Discoveries, p. 73.

(٤٩) جواد على ٢/٢٨٢ وكذا Discoveries, p. 75

(٥٠) Ency, of Islam, III, p. 290.

(٥١) احمد فخرى : المرجع السابق ص ١٨٣،جواد على ٢/٢٨٢ ، Discoveries, p. 75. وكذا Glaser 523, 525

(٥٢) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٩١ وكذا
Ency, of Islam, III, p. 290.
انظر : D. H. Muller, Die Burgen, II, p. 13 F.

زادت مساحة الاراضى الزراعية ، وخاصة حول مأرب ، مما كان سببا فى الاعلاء من شأنها وزيادة سكانها ، ولما كان الرخاء الاقتصادى فى سبأ يعتمد على الحياة النباتية — وليس الحيوانية — فان الاهتمام بتنظيم الرى انما كان سببا فى الرخاء الذى ساد البلاد ابان تلك الفترة ، وجعل من «مأرب» مدينة مزدهرة ، وأوجد الصورة الرومانتيكية لبلاد العرب فى أذهان المؤلفين الكلاسيكيين ، فأطلقوا عليها «بلاد العرب السعيدة» ، وهكذا أضبحت مأرب تنازع «صرواح»(٥٣) مكانتها أول الامر ، ثم سلبتها هذه المكانة بعد حين من الدهر ، فغدت عاصمة سبأ ، وصاحبة معبد الاله الموقاه — اله سبأ الكبير(٥٤) .

هذا وهناك ما يشير الى أن ملوكا آخرين قد أضافوا أجزاء أخرى الى السد ، فضلا عن تقوية أجزائه القديمة ، ومن هؤلاء الملوك «كرب ايل بين بن يثع أمر» و «ذمار على ذريح» و «يدع ايل وتار»(٥٥) .

---

(٥٣) كانت صرواح عاصمة سبأ فى عصر المكاربة ، ثم واحدة من أهم مدن سبأ لعدة قرون بعد ذلك ، وتقع الان فى موضع «الخربة» و «صرواح الخربة» ما بين صنعاء ومارب ، وكثيرا ما تردد ذكرها فى أشعار العرب، وقال عنها الهمدانى : أنه لا يقارن بها شىء من المحافد المختلفة ، ويروى الاخباريون انها حصن باليمن ، وأن الجن قد بنوه لبلقيس بأمر من سليمان ، وليس من شك ان هذا من الاساطير التى لعب الخيال فيها دورا كبيرا ، فضلا عن جهل بتاريخ المدينة ، الى جانب اثر الاسرائيليات فى ارجاع اى اثر لا يعرفون صاحبه ، الى سليمان والى جن سليمان ، وتوجد المناطق الاثرية فى صرواح فى ثلاثة مناطق هى : منطقة البناء والمنطقة المسماة القصر ، وهى قرية حديثة استخدموا فى تشييدها بعض أحجار المعابد ، واما المنطقة الثالثة فهى المسماة الخريبة ، واما اهم آثار صرواح فهو معبد اله القمر الموقاة ، ودار بلقيس ومعبد « يفعان » الذى نال حظوة كبيرة بعد معبد الموقاة عند المكاربة (انظر : احمد فخرى ص ١٦٠— ١٦٢ ، نزيه مؤيد العظم ٣٤١٢ ، ياقوت ٤٠٢/٥ ، اللسان ٣٤٣/٣ ، الهمدانى الاكليل ٢٤/٨ ، ٤٥ ، ٧٥ ، ٢٢/١٠ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ١١٠، صفة جزيرة العرب ص ١٠٢ ، ١١٠ ، ٢٠٣ ، منتخبات ص ٦٠ وكذا .
G. Ryckmans, Publication of the Inscriptions, III, 1951.
وكذا D. Nielson, op-cit, p. 141.

(٥٤) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٩١ وكذا
I. Shahid, Pre-Islamic Arabia, in CHI, I, p. 10
وكذا J. B. Philby, op-cit, p. 39.

(٥٥) جرجى زيدان ، المرجع السابق ص ١٦١ ، جواد على ٢١٠/٧ ،
D.H. Muller, op-cit, p. 15.

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن القوم انما كانوا يهدفون من وراء السد الى تحقيق أمرين ، الواحد السيطرة على مياه السيول المتدفقة فلا تخرب ما يعترضها اذا جاءت فجأة بكثرة غير عادية،والاخر تخزين تلك المياه ورفع مستواها أمام السد وعدم صرف شيء منها الا بالمقدار اللازم ، وبذلك يضمنون ري وادي مأرب ، الذي يرتفع عن مستوى المياه السايلة بخمسة أمتار،ويأمنون توفير كميات المياه اللازمة للري حين يحين موعد مجيء سيول أخرى من المناطق المطرة في شرق اليمن لان منطقة مأرب من المناطق الجافة قليلة الامطار ، ولا يزرع أهلها اليوم – أي بعد تخريب السد – الا مساحات ضئيلة على مقربة من مجرى المياه في وادي ذنة . وتضيع أكثر مياه السيول هباء في الوقت الحالي ، ولا يمكن استخدامها في زراعة أراضي الوادي المرتفعة(٥٦)

٥ – وصف السـد :

تسقط كميات كثيرة من الامطار في مناطق كثيرة في شرق اليمن،وتسير سيولها في الوديان المختلفة ، ثم تتجمع مع غيرها من السيول القادمة من الشمال ومن الجنوب ، وتؤلف هذه السيول شبه بحيرة كبيرة مستديرة ومرتفعة من جهة الغرب والشمال والجنوب ، ومنخفضة من جهة الشرق، حيث تسير جميعها شرقا في مجرى سيل واحد يطلق عليه اسم أكبرها «ذنة» (اذنة) وتدخل جميعها في واد كبير في جبل يقال له جبـل بلق، فتقسمه الى جبلين – بلـق الايسر وبلق الايمن – وأما الفتحـة بين الجبلين فتعرف باسم «الضيقة»(٥٧) .

ويرتفع جبل بلق في تلك المنطقة الى حوالي ٣٠٠م ، وأما الضيقة فتبلغ متوسط اتساعها حوالي ٢٣٠م، وان اتسعت في الوسط الى حوالي ٥٠٠م ، ثم تضيق بعد ذلك فـلا تزيد عن ١٩٠م ، ثم تستمر الناحية الشمالية (أي التي على يمين الشخص المواجه للسد) في امتدادها ، بينما تنفرج الناحية الاخرى ، وقد اختار السبئيون القدامى هذا المكان لتشـييد

---

(٥٦) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٨١ .
(٥٧) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٨٢ .

السد ، فبنوا جدارا قويا يعترض الوادي ويوقف ميه السيول المتدفقة، وجعلوا فى الناحيتين فتحتين ، احداها الى أقصى اليمين ، واستغلوا ذلك الجبل المرتفع فى هذا الغرض فلم يبنوا الا جدارا ضخما واحدا ليكون مدغا ثانيا للبوابة ، أما البوابة التى فى الناحية اليسرى (الجهة الجنوبية) فهى أكبر وأعظم وتنقسم الى قسمين ، وبنوا لها جدارين كبيرين يسيران مسافة غير قليلة ، ثم ينتهيان بحوض كبير مبنى بالحجر ترى فى وجهاته المختلفة فتحات متعددة يخرج من كل منها قناة تسير لرى ناحية من نواحى الوادى الفسيح[٥٨] .

ويطلق الاهالى على البوابة اليمنى مربط الدم وكنت تروى الناحية اليمنى التى مازالت بقايا كثيرة من تراها ظاهرة حتى اليوم وكلها على يمين وادى زنة ، وربما كان ذلك الاسم فى حد ذاته ما يثبت أن تهدم السد قد حدث فى هذه الناحية القريبة من مدخل الضيقة ويبدو أن صخرة الجبل تكون احدى جانبى هذه الفتحة ، أما الناحية الاخرى فمشيدة من الحجر ، وربما كان فى صدغى تلك الفتحة المكان الذى كانوا يزلقون فيه كتل الاخشاب لتصريف الكميات اللازمة من المياه وتسير بعد ذلك فى قناة عادية ، ويبدو أنه كان هناك بروزا مثلثا فى ذلك الجدار الحجرى . وقد كان ذلك البروز داخلا فى جدار السد الكبير ، وهو الجدار الذى تهدم وسبب ذلك الخراب[٥٩] .

وأما البوابة اليسرى ، فقد كان لها عينان . ووراءها قناة مبنية الجوانب طولها أكثر من كيلو متر تنتهى بحوض كبير تتفرع منه عدة قنوات ، كما يبدو أنهم سدوا الناحية الجنوبية بجدار يرتكز على صخرة الجبل ، ثم جعلوا فى مكان مرتفع من الجدار أربع فتحات وذلك لتصريف أى كميات زائدة من المياه حتى لا يرتفع منسوب المياه أمام السد الى حد لا يريدونه ، أو يؤثر على الفتحات أو يتعارض مع النظام المقرر لها، وتخرج تلك المياه الزائدة الى الخارج وتنزل الى باطن الوادى ، وفى

---

(٥٨) احمد فخرى : المرجع السابق ص ١٨١ .
(٥٩) المرجع السابق ص ١٨٣ .

وقت من الاوقات رأوا أنه لا حاجة للعينين فسدوا واحدة منهما واكتفوا بالاخرى ، وكان يخرج من الحوض المبنى بالحجر فى آخر القناة الكبرى قنوات متعددة ، تبلــغ فتحات بعضها نحــو ثلاثة أمتار ، وكلها مبنية بالحجر ، وكانت مثل البوابتين الكبيرتين تغلق بوضع كتل من الخشب تنزلف فى فتحتين فى جانبى كل بوابة(٦٠) .

هذا وتدل دراسة المبانى التى مازالت قائمة عند البوابتين على أنه قد استخدمت فى بناء السد والحواجز حجارة اقتطعت من الصخــور وعولجت بمهارة وحذق حتى توضع بعضها فوق بعض ؛ وتثبت وتتماسك وكأنها قطعة صلدة واحدة ، وقد وجد أن بعض الاحجار قد ربطت بعضها ببعض بقطــع من قضبان اسطوانية من المعــدن المكون من الرصاص والنحاس وذلك ليكون البناء قويا ؛ وليكون فى امكانه الوقوف أمام ضغط الماء وخطر وقوع الزلازل . أما المــادة التى استعملت لربط الاحجار ببعضها فهى من الجبس الممتاز ، وقد تصلب هذا الجبس الذى طليت به واجهات السد كذلك حتى صار كأصلب أنواع الاسمنت(٦١) .

٦ ـ تهــدم الســد :

تعرض سد مأرب عدة مرات لتصدعات فى بنيانه ابان الفترة ما بين بنائه على أيام «سمــه على ينوف» فى منتصف القــرن السابع قبــل الميلاد(٦٢) ، أى حوالى عام ٦٥٠ ق.م (وربما حوالى عام ٧٠٠ ق.م أو ٧٥٠ ق.م ، كما أشرنا من قبل) وبين آخر مرة أصلح فيها السد فى عام ٥٤٣م ؛ على أيام أبرهــة الحبشى ، أى خلال ما يقرب من ألف ومائتى عام ؛ وربما أكثر من ذلك ، لان هناك من يرى أن السد قد ظل يؤدى

---

(٦٠) نفس المرجع السابق ص ١٨٤ .

(٦١) جواد على ٢١١/٧ ، نزيه مـ يد العظم ٩٢/٢ وكذا
A. Grohmann, op-cit,

(٦٢) حدد «فلبى» للمكرب «سمه على ينوف» فترة الحكم (٦٦٠ ـ ٦٤٠ ق.م) ، غير أنه عاد بعد ذلك وحدد له فى قائمته التى نشرها فى مجلة (le Museon) عــام ٧٨٠ ق.م كبداية الحكم ، ثم جعــل فترة الحكم ـ بالاضافة الى فترة حكم خليفته «يثع أمر بين» ثلاثين عاما ، تنتهى عــام ٧٥٠ ق.م (انظر جواد ٣١٢/٢) .

واجبه حتى حوالى عام ٥٧٥م[٦٣] . ومن ثم فليس فى استطاعتنا على ضوء معلوماتنا الحالية أن نؤكد أن تلك المبانى القائمة عند الفتحتين ، انما ترجع الى عهد «سمهعلى ينوف» و «يثع أمر بين» أو الى عهد غيرهما . غير أننا اذا ما قارنا مبانيهما بمبانى معبد صرواح ومعبد محرم بلقيس — وكلاهما من هذا العهد — ووضعنا فى أذهاننا أن تهدم ذلك السد يحدث من تصدع جداره الكبير الذى كان بين البوابتين ، نرى أنفسنا ميالين الى الاخذ بالرأى القائل بأن مبانى البوابتين القائمتين هما من ذلك العهد (مع افتراض حدوث بعض الترميمات فيهما) اللهم الا اذا ظهـر من الوثائق القديمة ما يثبت غير ذلك ، وهو ما لم يحدث حتى الآن[٦٤] .

ونقرأ فى نقش (جلازر ٨٢٥) أن الرومانيين قد انتهزوا فرصة الحرب التى دارت رحاها بين الملك السبيئى «نسعر أوتر» (٦٥ — ٥٥ ق.م)[٦٥]، وبين ملك حضرموت «العزيلط»[٦٦] ، فأغاروا على سد مأرب بغية ايقاع الخسائر به ، غير أن قبيلة «عملان» التى عهد اليها حماية السـد . نجحت فى صد هجوم الرومانيين ، هـذا ويذهب البعض الى أن هذا الهجوم ربما كان بتحريض من ملك حضرموت بهدف انزال ضربة قاصمة بالسبئيين ، وذلك بتخريب سدهم الذى هـو بمثابة العمـود الفقرى للاقتصاد السبيئى . وبخاصة بالنسبة للعاصمة مأرب[٦٧] .

هذا وهناك ما يشير الى أن هناك تصدعا قد حدث فى سد مأرب على

---

(٦٣) جواد على ٧/٢١٠ وكذا
A. Grohmann, op-cit, p. 151.
وكذا انظر :
A. Grohmann, Sudarabien als Wirtschaftsgebiet, II, p.p. 23-28.
(٦٤) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٨٢ .
(٦٥) A. Jamme, Sabaean Inscriptions from Mahram Bilquis, p. 390.
وقارن : A. Grohmann, op-cit, p. 28.
(٦٦) انظر H. Von Wissmann and M. Hofner, op-cit, p. 113.
وكذا Berlin. وكذا A. Jamme, op-cit, p. 300
وكذا Handbuch, I, p. 93. وكذا CIH, 334.
(٦٧) انظر : H. Von Wissmann and Maria Hofner, op-cit. p. 38.

أيام الملك «شمر يهرعش» وأن الرجل قد نجح فى اصلاحه[٦٨] .

وعلى أى حال ، فاننا نعرف من نص (جام ٦٧١) ، والذى أقـامته جمـاعة من سادات بيت ريمان ، وأقيال عشيرة سمعى ، شكرا للموقاة الذى ساعدهم على القيام بما أمر به الملكان «ثاران يهنعم» و «مكليكرب يأمن»[٦٩] ، من اصلاح للسد ، نعرف أن السد قد تهـدم عند موضع «حبابض» — وكذا عند رحبتين — فتداعت جدرانه ومبانيه وأحواضه وسدوده ومصارفه الواقعة فيما بين «حبابض» و «رحبتين» ، وأن القوم قد كتب لهم نجح كبير فى اصلاح ما تهدم من السور[٧٠] .

هذا ، ونجد أنفسنا اذا ما وصلنا الى عهد «شرحبيل يعفر» (٤٢٥—٤٥٥م)[٧١] ، أمام نص خطير (جلازر ٥٥٤)[٧٢] ، يحدثنا عن تصدع سد مأرب ، وما قام به الملك ازاء هذا الحـادث الخطير ، فنقـرأ أن شرحبيل يعفـر ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها فى النجاد والتهائم ، ابن أبى كرب أسعد ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها فى النجاد والتهائم ، قام بتجديد بناء سد مارب وترميمه

---

(٦٨) جواد على ٧/٢١٠ .

(٦٩) يرى «فون فيسمان» أن «ثاران يهنعم» قد حكم مع ابيـه «ذمار على يهبر» حكما مشترك فى الفترة (٢٤٥—٣٥٠ أو ٣٦٠م) ثم مع ابنه «ملكيكرب يهـأمن» ، ثم الاخـير مع ولديه «أب كرب أسعـد» و «ذرا أمر ايمن» ثم انفرد «أب كرب اسعد» مع ولده (حسن يهأمن) فى حوالى ٤٠٠ م

وكذا انظر le Museon, 1964, 3-4, pp. 490, 498)

(٧٠) le museon, 1964, 3-4, p. 491, 498.

وكذا A Jamme, op-cit, p. 176.

(٧١) J. B. Philby, op-cit, p. 143.

(وقارن فريتز هومل : حيث يضعه فى الفترة (٤٢٠—٤٥٥م) أنظر :

D. Nielsen, op-cit, p. 104.

وكذا Philby, Arabian Highlands, p. 460.

(٧٢) E. Glaser, Zweilnschriften uber den Dammbruch von Marib, MVG, II, 1897, p. 372.

وكذا أنظر le Museon, 1964, 3-4, p. 493.

وكذا A. Sprenger, Die Alte Geographie Arabiens. p. 131.

على مقربة من رحب وعند عبرن» ، فضلا عن اصلاح أجزاء منه حتى موضع طمحن (طمحان) ، وحفر مسايل المياه وبناء القواعد والجدران بالحجارة وتقوية فروعه ، وبناء أقسام جديدة بين «عيان» (عيــلان) و «مغلل» (مغلول) ، وتجديد سد «يسرن» ، وأن هذه الاعمال كلها انمــا تمت فى شهــر «ذى داون» من عــام ٥٦٤/٥٦٥ من التقــويم الحمــيرى[٧٣] ، الموافق عام ٤٤٩/٤٥٠ (أو عــام ٤٥٦) من التقويم الميلادى[٧٤] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن النص انما يشير الى أمور عدة ، منها (أولا) أن تصدع السد قد اضطر الملك الى تجديد بناء أقسام منه ، وترميم أقسام أخرى ، فضلا عن اضافة أقسام جديدة اليه، ومنها (ثانيا) أن السد انما تهدم مرة أخرى ، وبعد فترة قصيرة ، وذلك فى شهر ذو ثبتين (ذو الثبت) من عام ٥٦٥ من التقويم الحميرى (الموافق ٤٥٠/٤٥١م أو ٤٥٥/٤٥٦م) ، وكان التهدم هذه المرة فى غاية الخطورة حتى أن القوم فى «رحبتين» (الرحبة) قد اضطروا الى الفرار الى الجبال خوف الموت ، ومن ثم فقد لجأ الملك الى حمير والى قبائل حضرموت يستعين بهم على اعادة بناء السد ، وقد تجمع لديه من هؤلاء وأولئك زهاء عشرين ألف رجل ، عملوا فى قطع الاحجار وحفر الاسس وتنظيف الاودية وانشاء الخزانات وعمل الابواب ومنافذ مرور المياه ، وقد تم ذلك بنجاح فى شهر «ذو دأو» من عام (٥٦٥) من التقــويم الحميرى (٤٥٠/٤٥١م) .

ومنها (ثالثا) أن تصدع السد بعد فترة قصيرة من ترميمه واصلاحه

---

(٧٣) يبدأ هذا التقويم عام ١١٥ أو ١٠٩ ق.م ، لانه عام قيام دولة حمير ، أو لانه تاريخ سقوط معين تحت سيادة سبأ أو لانه عام انتصار سبأ على قتبان .

(٧٤) جواد على ٥٧٩/٢ـ٥٨١ وكذا

A. Sprenger, op-cit, p. 20.

وكذا E. Glaser, op-cit, p, 379.

وكذا le Museon, 1964, 3-4, p. 494.

وكذا J. B. Philby, The Buckground of Islam, p. 118.

وتجديده ، بعد انفاق أموال طائلة عليه ، واشتغال آلاف من العمال فى بنائه ، شىء يدعو الى التساؤل عن سبب سقوطه أو سقوط جزء منه بهذه السرعة ، وهنا يقدم الباحثون ثلاثة احتمالات ، أولها : أن التصدع انما كان بسبب سقوط أمطار غزيرة فى هذا العام لم يكن فى طاقة السد احتمالها ، وثانيها : أن اصلاح السد لم يكن قد كمل تماما ، فسقطت أمطار غزيرة سببت انهيار الاماكن الضعيفة فى المواضع التى لم تكن قد لمت ، وثالثها : أن التصدع انما كان بسبب كوارث طبيعية كالزلازل والبراكين(٧٥) .

وأيا ما كان الامر ، فلقد كان لهذه الاحداث أثر سىء على مأرب،ومن تم فقد أخذ الناس يرحلون عنها الى مناطق أخرى مثل «صنعاء» التى بدأ نجمها يتألق حتى صارت فيما بعد مقر الحكام الذين أقاموا فى قصر غمدان ، ربما بسبب التحول السياسى الذى أصاب هذا العهد ، وان كان تصدع السد عدة مرات كان هو السبب الاول ، حيث ترك المزارعون أراضيهم التى أصابها التلف والجفاف الى أرضين أخرى ، فضلا عن اللجوء الى الهضاب والجبال(٧٦) ، على أن نص (جلازر ٥٥٤) الذى أشار الى هذه الاحداث الخطيرة ، لم يشر الى اسماء القبائل التى هربت من «رحبتن» خوف الموت ، وان كان يفهم منه أن القبائل التى كانت تسكن هذه المنطقة قد تفرقت وتشتتت بسبب ما أصاب السد ، وفى هذا دليل على أن هناك أصلا تاريخيا للروايات العديدة التى يرويها الاخباريون عن تهدم سد مأرب وتفرق سبأ(٧٧) ، وان غلب فيها عنصر المبالغة والخيال على عنصر الحقيقة والتاريخ .

ونقرأ فى نص (جلازر ٦١٨) ونص (CIH 541) من عهد ابرهة

---

(٧٥) جواد على ٢/٥٨٠-٥٨١ وكذا
J. B. Philby, op-cit, p. 118.

(٧٦) le Museon, 1964, 3-4, p. 493.

(٧٧) أنظر : E. Glaser, in Mitteilungen der Vorderasiatishen Gesellschaft, II, 1897, p. 387.
وكذا A. Sprenger, op-cit, p. 28.

الحبشي عن ترميم سد مأرب وتجديده مرتين[78] ، الواحدة فى شهر «ذو المدرح» من عام ٦٥٧ من التقويم الحميرى (٥٤٢م) ، والثانية فى شهر «ذو معلت» من عام ٦٥٨ من التقويم الحميرى ، الموافق عام ٥٤٣ من التقويم الميلادى[79] .

ويبدأ ابرهة نصه بقوله «بقوة وجـلال ورحمة الرحمـن ومسيحه والروح القدس ، سطروا هذه الكتابة ، ان أبرهة نائب ملك الجعزيين رمخر زبيمان ، ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت وأعرابها فى النجـاد والتهائم»[80] ، ثم يتحدث النص بعد ذلك عن ثورة شبت بقيادة «يزيد بن كبشـة» ، والذى عينه ابرهة نائبا عنه فى قبيلة كنده ، وسرعان ماانضم اليه «معد يكرب» بن «السميفع أشوع» وبعض الزعماء اليمنيين ، ومن ثم فقد بدأت الثورة تنتشر فى أجـزاء كثيرة من اليمن ، حتى أنهـا قد شملت حضرموت وحريب وذوجدن وحياب عند صرواح ، الا أن أبرهة سرعان ما انتصر على الثوار وبطش بهم،بمساعدة قبائل يمنية قوية[81] .

ثم نقرأ بعد ذلك أن أبرهة سرعان ما يسمع بتصدع سد مأرب،وهو يصلى فى كنيسة مأرب ، فيسرع الى اصلاح السد ، مستعينا بحمـير

---

(٧٨) جواد على ٤٨٣/٣ـ٤٨٤ ، وكذا
E. Glaser, op-cit, p. 390.
وكذا A. J. Drewes, Inscriptions de l'Ethiopie Antique, 1961, 65, 1962, 71.
وكذا le Museon, 1953, 66, p. 340.
وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op-cit, p. 587.
وكذا A.F.L. Beeston, Probiems, of Sabaean Chronolgy, in BASOR, 16, 1954,
وكذا A. Spenger, op-cit, p. 31-126.
وكذا Handbuch, p. 106.
وكذا Ryckmans, 506.
(٧٩) جواد على ٤٨٤/٣ وكذا انظر
F. Praotorius, Bemerkungen Zur den beiden grossen Inschriften Vom Dammbruch Zu Marib, in ZDMG, 1899, 5, 15
(٨٠) جواد على ٤٨٤/٣ وكذا E. Glaser, op-cit, p. 421.
(٨١) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٠٣ وكذا
H. Von Wissmann and M. Hofner, op-cit, p. 121.

وجنوده من الاحباش ، غير أنه يضطر الى اعطائهم مهلة يستريحون فيها من شرور الحرب ، فضلا عن القضاء على تذمر التبائث التى لم تتعود مثل هذه الاعمال الشاقة ؛ الى جانب عقد هدنة مع أقيال سبأ الذين كانوا ما يزالون خارج سلطانه ، ثم يبدأ بعد ذلك فى جمع العمال من أبنـــاء العشائر ، وتخزين المؤن التى سوف يحتاج اليها ابان عمله فى اصلاح السد ، وأخيرا يبدأ العمل فى السد . فضـــلا عن القنوات والاحواض والمشروعات الفرعية الجديدة ، حتى اذا ما أكمل المشروع ، بعد أحد عشر شهرا من العمل المتواصل ، كان طول السد ٤٥ ذراعـــا ، وعرضه ١٤ ذراعا ، وارتفاعه ٣٥ ذراعا ، هذا ويحدثنا أبرهة أن مقـــدار المؤن التى صرفت أثناء العمل كانت ٥٠٨٠٦ كيسا من الدقيق ، ٢٦٠٠٠ حمـــلا من البلح ، فضلا عن نحر ٣٠٠٠ جملا وثورا ، ٢٠٧٠٠٠ رأسا من الغنم ؛ وذلك منذ اليوم الذى بدأ فيه العمل ، وحتى الانهاء فى شهر «ذو معان» من عـــام ٦٥٨ من التقـــويم الحميرى ، الموافـــق ٥٤٣ من التقـــويم الميلادى(٨٢) .

وكان نجاح أبرهة فى ترميم سد مأرب ــ وهو آخر ترميم له ــ أمرا أعتز به الرجل ، وقرر الاحتفال به . فجاءت الى مأرب وفود كثيرة تمثل مراكز القوى فى العالم وقت ذاك ، يذكر أبرهة منها فى نقشه ، وفدا يمثل «زمخير زبيمان» نجاشى الحبشة ، ووفدا يمثل «جستنيان» (٥٢٧ ــ ٥٦٦م) ملك الروم ، ووفدا يمثل ملك فارس ، ورسلا من الحارث بن جبلة الغسانى (٥٢٨ ــ ٥٦٩م) ، وآخرين من المنذر بن امرى القيس (٥٠٨ ــ ٥٥٤م) أمير الحيرة(٨٣) .

ولعل سؤال البداهة الان : أى هذه التصدعات فى سد مأرب هى التى يعنيها القرآن الكريم ؟

---

(٨٢) جواد على ٤٨٣/٣ـ٤٨٦ ، احمد فخرى : المرجع السابق ص ١٨٧ ، جرجى زيدان : المرجع السابق ص ١٦٢ ــ ١٦٣ .

(٨٣) جواد على ٤٨٩/٣ـ٤٩١ ، أحمد فخرى : المرجـع السابق ص ١٨٧ وكذا E. Glaser, op-cit, p.p. 408, 421.
وكذا F. Praetorius, op-cit, p. 650.

والواقع أن هذا واحدا من الاسئلة الصعبة التى لا يمكن الاجابة عليها فى يسر وسهولة ، وذلك لانعدام المادة العلمية التى نستطيع الاعتماد عليها فى الاجابة المؤكدة عن السؤال من ناحية ، ولان سد مارب انما تهدم عدة مرات ، من ناحية أخرى ، ومن ثم فان الامر لا يخرج هنا عن حيز الحدس والتخمين •

وعلى أى حال ، اننا إذا ما اعتمدنا على النصوص التى قدمناها من قبل ، فربما كان التصدع الذى حدث على أيام (شرحبيل يعفر) ، أقرب الى ما يعنيه القرآن الكريم من غيره ، لانه أشدها قوة ، ولان آثاره تعدت الاضرار الجانبية الى هروب سكان المنطقة الى الهضاب والجبال، ثم هجرتهم من هذه المنطقة الى أرضين أخرى ، ولانه دون غيره — فيما يرى بعض الباحثين — ربما كان بسبب كوارث طبيعية كالزلازل والبراكين ، وليس لمجرد سقوط أمطار غزيرة ، ومن ثم فقد كان أثره خطيرا على الارض وعلى الناس سواء بسواء •

ومع ذلك فلست أزعم أن هذا رأى يمكن الاعتماد عليه تماما ، وانما هو مجرد فرض لا أجد له من الادلة التى تدعمه غير الحدس والتخمين. ذلك لان الادلة الاثرية شبه معدومة ، وأقوال المفسرين والاخباريين تكاد لا تقدم علما يعتمد عليه ، أو أدلة قوية تساند وجهة النظر هذه أو تلك، وان كانت الاحوال الداخلية فى اليمن قد تشير الى اضطراب فى الامن ، والى تدخل الاجانب فى شئون البلاد ، فضلا عن ظهور عقائد دينية جديدة ، وأخيرا فان «شرحبيل يعفر» ما أن يختفى من المسرح ، حتى يعتلى العرش «عبد كلال» ، وهو — فيما يرى فلبى — كان من قبل كاهنا وشيخا لقبيلة ، نجح بمساعدة الاحباش — الذين أصبحوا أصحاب شأن فى شئون العربية الجنوبية — فى أن يغتصب العرش لمدة خمس سنوات (٤٥٥ — ٤٦٠م)(٨٤) •

---

(٨٤) J. B. Philby, Arabian Highlands, p. 260. The Background of Islam; p. 143.

هذا ويذهب بعض الباحثين الى أن التهدم الذى ورد فى القرآن الكريم ، انما كان آخر تهدم[٨٥] ، ويضيف آخرون الى أنه ربما قد حدث فيما بين عامى ٥٤٢م ، ٥٧٠م ، وأن السد لم يصلح هذه المرة ، ومن ثم فقد ترك الناس مزارعهم ، واضطروا الى الهجرة منها ، والى ذلك وردت الاشارة فى القرآن الكريم[٨٦] ، بل ان صاحب هذا الاتجاه انما يحاول مرة أخرى أن يحدد عام ٥٧٥م (أى بعد مولد الرسول ﷺ) كتاريخ لحدوث هذا التصدع الخطير ، الذى لم يمكن التغلب عليه بسبب الاحوال السياسية التى سادت العربية الجنوبية وقت ذاك ، من اضطراب للامن، ومن تدخل الاجانب فى شئون البلاد ، وبالتالى فقد أهمل السد ولم تتدخل الحكومة فى اصلاحه[٨٧] .

غير أن هذا الاتجاه انما يتجاهل أمورا كثيرة ، منها (أولا) أنه انما يحدد فترة قريبة جدا من الاسلام لسيل العرم ، ولو كان الامر كذلك لاستطاع المؤرخون الاسلاميون تحديده على وجه اليقين ، بل لاستطاع شعراء العرب تحديده كذلك ، ومنها (ثانيا) أنه يرجع بالهجرات العربية التى خرجت من اليمن بعد تهدم السد الى فترة متأخرة ، لاتتفق وتاريخ قيام دولتى المناذرة والغساسنة ـ وأصحابها من هذه الهجرات كما يرى المؤرخون الاسلاميون ـ كما أن وجود الاوس والخزرج فى يثرب انما يرجع بالتأكيد الى ما قبل هذه الفترة ، ومنها (ثالثا) أن الفترة ما بين استيلاء أبرهة على اليمن وظهور الاسلام ،ليست من الفترات الغامضة فى تاريخ اليمن ، ثم هى فترة قصيرة على أية حال ، ومنها (رابعا) أن عام ٥٧٥م ، هو العام الذى يرى فيه المؤرخون نهاية الحكم الحبشى وبداية حكم «سيف بن ذى يزن» ، فضلا عن النفوذ الفارسى فى أول الامر ، ثم السيطرة الفارسية بعد ذلك ، وتاريخ اليمن فى هذه الفترة لا يتحدث عن تصدع سد مأرب ، بل ليست هناك أية اشارة فى هذا

---

(٨٥) احمد فخرى : المرجع السابق ص ١٨٠ .
(٨٦) جواد على ٢/٣٨٣ .
(٨٧) جواد على ٧/٢١٠ .

التاريخ عن السد ، أو عن هجرة قبائل يمنية من مواطنها الاصلية الى الشمال ، كما نعرف من أحداث تهدم السد •

وأما الروايات العربية : فإن بعضها يشير الى أن الحدث الخطير انما كان قبل الاسلام بقرون أربعة (أى فى القرن الثالث الميلادى) ، ويشير بعضها الاخر الى أن ذلك انما كان على أيام ملك حبشان ، ولعل صاحب هذا الاتجاه يعنى بذلك الاحباش لانهم خربوا كثيرا من قصور اليمن وأبنيتها ، فاذا كان ذلك كذلك - فماذا يعنى «ياقوت» بأيامهم هذه : هل يعنى فترة تدخلهم فى شئون العربية الجنوبية قبل الاحتلال الحبشى فى عام ٥٢٥م ، أم يعنى فترة الاحتلال نفسه ؟ وعلى أى حال ، فان «ابن خلدون» انما يذهب الى أن ذلك انما كان على أيام «حسان بن تبان أسعد» فى القرن الخامس الميلادى[٨٨] •

هـذا ويرجح «بلو شانه» أن ذلك انمـا كان فى القرن الثـانى الميلادى[٨٩] ، بينما يذهب آخرون الى أن ذلك انما كان فى القرن الرابع الميلادى ، معتمدين فى ذلك على نسب «سعد بن عبـادة الخزرجى» • وجعله مقياسا للزمن الذى ربما تكون الهجرة قد تمت فيه : فنسب سعد هذا — طبقا لرواية النسابين — انما هو «سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبى خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج الاصغر بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الاكبر بن حارثة» ، فمن « سعد » الى « الخزرج الاكبر» أحد عشر جيلا ، واذا افترضنا أن الفرق بين كل جيلين خمسـة وعشرون عاما ، كانت المدة بين الهجرة النبوية الشريفة (فى عام ٦٢٢م) وبين الخزرج الاكبر ، حوالى مائتين وخمس وسبعين سنة ، أى أن هجرة الاوس والخزرج — بعد حادث سيل العرم — ربما كانت فى أخريات القرن الرابع الميلادى ، هذا ويحدد «سديو» هذه الهجرة بعام ٣٠٠م ، وأن الاستيلاء على المدينة كان حوالى عام ٤٩٢م[٩٠] •

---

(٨٨) ياقوت ٣٥/٥ ، جرجى زيدان : المرجع السابق ص ١٥٥ •
(٨٩) ريجبيس بلاشير : المرجع السابق ص ٣١ •
(٩٠) أحمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٣١٥ ، وانظـر : سديو : تاريخ العرب العام •

وهكذا يبدو بوضوح أن تحديد تاريخ معين لخراب سد مأرب وهجرة القبائل العربية من جنوب بلاد العرب الى وسطها وشمالها ، أمر لا يمكن — على ضوء معلوماتنا الحالية — أن نقول فيه كلمة نظن أنها القول الفصل ، أو حتى قريبا من هذا القول ، وأن الامر مايزال فى مرحلة الحدس والتخمين ، حتى تقدم لنا الارض الطيبة فى اليمن أو فى غيرها ما ينير الطريق أمامنا .

٧ — المحاصيل الزراعيـة :

لعل أهم المحاصيل الزراعية فى بلاد العرب انما هما القمح والشعير، وهما عماد الخبز فى شبه الجزيرة العربية حتى الآن ، وكان «القمح» — وهى كلمة شامية أو مصرية أو ارامية من «قمحو» Camho غذاء الطبقة الموسرة المترفة فى الغالب ، لغلاء ثمنه بالنسبة للفقراء ؛ وقد تباهى الملأ من القوم بتقديمهم «البر» (القمح) الى الضيوف ، والحنطة من الالفاظ الشائعة للقمح عند العرب أيضا ، فهى «حطاه» (خطاه Chittah) عند العبرانيين ؛ وان قيل لها أيضا «بر» فى العبرية ، وأما الشعير ، فهو أرخص من الحنطة (القمح) ، ومن ثم فقد كثر استعماله فى الاكل ، وما يزال خبز أهل القرى والاعراب ؛ وقد كان يهود يثرب (المدينة المنورة) يتاجرون فيه ؛ وخاصة فى سوق بنى قينقاع[٩١] .

هذا وقد أطلق القوم على «الطحين» فى كتابات المسند «دقمم» أى «دقيق» ، وكان يصنع بطرق مختلفة : أشهرها «الرحى» التى تدار باليد، والتى يديرها الحيوان ، والتى تدار بالقوى المائية ، ومع أن معظم الاسر تصنع الطحين فى بيوتها ؛ فان كثيرا من الناس كانوا يشترون الطحين من الاسواق ؛ ويستوردونه من الخارج ، من بلاد الشام فى الغالب، ويبيعونه

---

(٩١) انظر : صحيح البخارى ٤٧/٥ (دار الجيل — بيروت) ، تاج العروس ٢٠٨/٢ ، ٣٨/٣ ، غرائب اللغة ص ٢٠٢ ، جواد على ٥٨/٧
وكذا J. Hastings, Dictionary of The Bible, Edinburgh, 1936, II, p. 540.
وكذا
وكذا J. Hastings, ERE, p. 972.

- الاسواق المحلية[٩٢] .

وهناك زراعة «الذرة» ، وقد عرفت في اليمن خاصة ، وكان القوم يخبزونها ويستخرجون منها شرابا يقال له «المزر» ، أشير اليه في كتب الحديث والفقه ، وقد نهى النبي ، ﷺ ، عن شربه ، روى ابن حجر العسقلاني عن الليث بن سعد عن عامر بن يحيى عن أوس بن بشير ، أن رجلا من أهل اليمن من جيشان أتى للنبي ﷺ فقال : ان لنا شرابا يقال له المزر من الذرة ، فقال : أله نشوة ، قال نعم ، قال : فلا تشربوه»[٩٣]، وقد قيل : «المزر من الذرة ، والتبغ من نبيذ العسل ، والجعة نبيذ الشعير ، والسكر من التمر ، والخمر من العنب»[٩٤] .

وقد عرف العرب زراعة «الحمص» ، وهو برى وبستانى ، كما عرفوا زراعة «العدس» ، ويقال له «العلس» و «البلس» أيضا ، وذكروا أن العلس ضرب من البرجيد ، تكون حبتان منه في قشر ، يكون بناحية اليمن ، وهو طعام معروف عند أهل صنعاء ، كما عرفوا «الجلبان» و «القثاء» . وهو الخيار ، ويقال انه اسم جنس لما يقول له الناس الخيار والعجور والفقوس ، وبعض الناس يطلقه على نوع يشبه الخيار، ويقال انه أخف من الخيار ، ويطلق العرب لفظة «الشعارير» على القثاء الصغير ، وعلى أية حال ، فان بعض الباحثين انما يذهب الى أن لفظة «قثاء» انما هي لفظة آرامية في الاصل ، وأما لفظة «خيار» فهي فارسية الاصل ، كما عرفوا الثوم والبصل والكمأ ، ويسمونه «جدرى الارض» ، وقد استعمل العرب ماءه لشفاء العين ، وهو من النبات الذي يقتات به في أوقات ظهوره ، والكمأ السوداء خيار الكمأة ، كما عرفوا كذلك القرع والبطيخ ، وعرفوه باسم «الخربز» كما عرفوا الحنظل ، وهم يعالجون به أمراضا كثيرة ، ومايزال الاعراب يقيمون له وزنا كبيرا في طبهم . ويأكلون حبه أيضا .

---

(٩٢) جواد على ٥٨/٧ ، وكذا Handbuch. I, p. 137.

(٩٣) ابن حجر العسقلاني : الاصابة في تمييز الصحابة ١٣٣/١ (دار احياء التراث العربي - بيروت) .

(٩٤) تاج العروس ٥٤١/٣ .

وأخيرا ، فلعل من الجدير بالاشارة أن هذه المحاصيل بعضها يعتمد على رى البعل ؛ وهو الرى الذى يعتمد على ماء المطر (الذى يرسله بعل ـ اله الاراميين) ، وبعضها الاخر يعتمد على رى العيون والابار ، وما تبقى فى الوديان من مياه المطر والسيول[٩٥] .

٨ ـ المعـــاملات الزراعية :

عرف العرب فى الجاهلية أنواعا مختلفة من المعاملات الزراعية ، لعل من أهمها :

١ ـ المحاقلة : وتسمى «ذحقل» فى المسند ، وهى استئجار الارض بالحنطة أو الذهب أو أى شىء آخر يقوم مقامهما[٩٦] .

٢ ـ المزارعة : وهى الاتفاق على أن يزرع شخص أرض شخص آخر لقاء نسبة معلومة من الثمر أو الحصاد يتفق عليه ؛ بالثلث أو الربع أو أقل من ذلك أو أكثر ، أو على الاوسق من التمر والشعير ، أو على الدينار أو الدراهم ، وعلى أن تكون البذور من مالك الارض[٩٧] ؛ روى

---

(٩٥) جواد على ٦٠/٧ـ٦٤ ، لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٢٩٥ ، تاج العروس ١٨٦/٤ ، ١٩٥ ، ٣٨٣ ، ٣٨٢/٦ ، ١٠٠/١ ،
وكذا Dictionary of The Bible, I, p. 531.
وكذا J. Hastings, ERE, p. 271.
وكذا Encyclopaedia of Biblica, I, p. 965.

(٩٦) جواد على ٢١٦/٧ ، وكذا
Nnkolaus Rhodokanakis, Katabanische Texte Zur Bodenwirtschaft, Wien, 1922, I, p. 84.

(٩٧) ارشاد السارى ١٧٠/٤ ، ١٨٧ ، القاموس ٣٥٩/٣ ، جامع الاصول ٤٧٨/١١ ، تاج العروس ٢٨١/٧ ، عمدة القارىء ١٨٠/١٢ـ١٨١.
وفى صحيح مسلم عن ابن عمر قال : نهى رسول الله ﷺ عن المزابنة ، والمزابنة بيع ثمر النخل بالتمر كيلا ، وبيع الزبيب بالعنب كيلا ، وعن كل ثمر بخرصه» ، وعن ابن عمر أيضا أن رسول الله ﷺ نهى عن المزابنة ، ان يباع ما فى رؤوس النخل بتمر بكيل مسمى ، ان زاد فلى ، وان نقص فعلى» (صحيح مسلم ١٨٨/١٠ ـ ١٨٩ ـ بيروت ١٩٨١) ، وعن جابر بن عبد الله قال : نهى رسول الله ﷺ عن المحاقلة والمزابنة والمخابرة ، وعن بيع الثمر حتى يبدو صلاحه ، ولا يباع الا بالدينار والدرهم ، الا العرايا» (صحيح مسلم ١٩٣/١٠) ، والعرايا : جمع عرية ، وهى النخلة المعراة ، وأعراه النخل وهب له ثمر عامها ، والعرية أيضا التى تعزل عن المساومة عند بيع النخل ، والتى يعريها صاحبها رجلا محتاجا ، وأن يشترى الرجل =

الامام مسلم فى صحيحه عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ ، عامل أهل خيبر بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع»[98] ، وعن ابن عمر أيضـا أنه قال : لما افتتحت خيبر سألت يهود رسول الله ﷺ أن يقرهم فيها على أن يعملوا على نصف ما خرج منها من الثمر والزرع ، فقال رسول الله ﷺ ، أقركم فيها على ذلك ما شئنا»[99] .

٣ ـ المخابرة : وهى على نمط المزارعة ، غير أن بذور الزرع انما تكون على الزارع ، يقول الامام النووى فى شرح صحيح مسلم : وأما المخابرة فهى والمزارعة متقاربتان ، وهى المعـاملة على الارض ببعض ما يخرج منها من الزرع كالثلث والربع وغير ذلك من الاجزاء المعلومة ، لكن فى المزارعة يكون البذر من مالك الارض ، وفى المخابرة يكون البذر من العامل ، هكذا قال جمهـور أصحابنا . وهو ظاهـر نص الامـام الشافعى[100] ، هذا وقيل : المخابرة : المزارعة على النصف ونحوه أى الثلث ، والمزارعة على نصيب معـين كالثلث والربع وغيرهما ، وقيـل المزارعة ببعض ما يخرج من الارض ، والمؤاكرة : المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع وهى المخابرة[101] .

وعلى أية حال ، فهناك ما يشير الى أن القوم قد اشترطوا أن يكون من حق المالك ابطال العقد اذا أظهر المستأجر تباطؤا أو تكاسـلا أو اهمالا فى استغلال الارض ، اذ يصبح معنى هذا ــ فى حالة الاتفـاق على نسبة يؤديها المستأجر الى المؤجر ، أن يكون هذا التباطؤ أو الإهمال

=

النخل ، ثم يستثنى نخلة أو نخلتين ، يقال أعرى فـلان فلانا نخلة اذا أعطاه اياه يأكل رطبها ، وليس فى هذا بيع ، وانما هو فضل ومعروف ، فالعرية اذن النخلة عزلتها عن المساومة ، والاعراء أن تجعل ثمرتها لمحتاج أو لغير محتاج عامها ذلك ، وقد رخص الرسول ﷺ فى ذلك (اللسان ١٥/ ٤٩ـ٥٠ ، جواد ٧/٢٢٦) .

(٩٨) صحيح مسلم ١٠/٢٠٨ (بيروت ١٩٨١) .

(٩٩) صحيح مسلم ١٠/٢١٠ـ٢١٢ (بيروت ١٩٨١) .

(١٠٠) صحيح مسلم ١٠/١٩٢ ـ ١٩٣ .

(١٠١) جـامع الاصول ١١/٤٧٢ ، تاج العروس ٣/١٧ ، ١٦٧ ، جواد على ٧/٢١٧ .

سببا فى نقص المحصول ؛ وبالتالى فى قلة نصيب صاحب الارض من هذا المحصول[١٠٢] .

٤ ـ القصارة : وهى ما تبقى من السنابل من الحب بعد التذرية ؛ فيكون هناك اتفاق يجعل هذه القصارة من نصيب الذارى أحيانا ؛ ومن نصيب صاحب الزرع فى أحايين أخرى ، وقد يحدث الاختلاف بين صاحب الزرع والذارى بسبب اتهامه للمذرى باستغلال الشرط والافراط فى اسقاط الحب على الارض للافادة منه[١٠٣] .

٥ ـ المساقاة : وهى الاتفاق بين طرفين على قيام أحدهما بتوصيل الماء الى أرض الاخر ، سواء أكان صاحب هذه الارض أو ملتزما لها ؛ وذلك فى مقابل تعهد يقدمه الطرف المستفيد من الماء بجزء من المحصول أو أى شىء آخر .

٦ ـ المحاينة : وهى الحصاد لقاء أجر .

٧ ـ المخاضرة : وهى بيع الثمار قبل أن تنضج . ربما للتخلص من معاملات جنى الثمر أو حراسته أو حمله الى الاسواق ، وما يحيط بذلك أو يتصل به من معاملات تستلزم كثيرا من الجهد أو العناء ، وقد كانت المخاضرة فى كثير من الاحيان مثارا لعدد من الخلافات والمنازعات بين الاطراف المتعاقدة بسبب ما قد يصيب المحصول من تلف قبل أن يتم نضجه ؛ مما يفقد المبتاع لهذا المحصول ربحه أو جزء من هذا الربح فيطلب استرجاع ما دفعه كله أو بعضه ، وقد أدى تواتر هذه الخصومات الى أن نهى سيدنا رسول الله ﷺ عن بيع المحصول قبل أن ينضج ، الا بعد أن يتبين صلاح هذا المحصول ؛ وعندئذ لا يحق لمبتاع أن يتذمر من شرائه[١٠٤] .

---

(١٠٢) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٢٩٩ ، وكذا
N. Rodokonk, op-cit, I, p. 84.

(١٠٣) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٢٩٩ ، جواد على ٢١٨/٧ .

(١٠٤) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

روى الامام مسلم فى صحيحه عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الثمر حتى يبدو صلاحها ، نهى البائع والمبتاع» ، وروى أيضا عن أيوب عن نافع عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع النخل حتى يزهو ، وعن السنبل حتى يبيض ، ويأمن العاهة ، نهى البائع والمشترى» ، وروى أيضا عن يحيى بن سعيد عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله ، ﷺ ، لا تبتاعوا الثمر حتى يبدو صلاحه ، وتذهب عنه الآفة ، قال يبدو صلاحه حمرته وصفرته»[105] .

وعن أبى البخترى قال : سألت ابن عباس عن بيع النخل ، فقال : نهى رسول الله ﷺ عن بيع النخل حتى يأكل منه أو يؤكل . وحتى يوزن، قال فقلت : ما يوزن ، فقال رجل عنده : حتى يحرز» ، وعن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : لا تبتاعوا الثمار حتى يبدو صلاحها»[106] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن النصوص العربية الجنوبية انما تشير الى نوع من الجمعيات الزراعية التعاونية ، لكل منها مجلس يتألف من ثمانية أشخاص يقوم على ادارة شئون الاقطاع الزراعى من تهيئة البذور والاشراف على العمل وادارته ، ودفع حصة المعبد من المحصول ، وحصة الحكومة (أى الضريبة المستحقة لها) وبيع المحصول او توزيعه . وقد جاء فى احدى النصوص أن هناك جمعية كانت تدير أرضين فى ضواحى مدينة «هرم» . وقد نعت أعضاؤها بنعت «أبعل»، اى سادة ورؤساء ، أى سادة هذه الجمعية وأصحاب الامر فيها[107] .

بقيت الاشارة الى ان أهل الحجاز انما كانوا يكرون أرضهم بالثلث أو الربع والطعام المسمى وبالذهب وبالورق ، وكانوا يدفعون الارض الى من يزرعها ببذر من عنده ، على أن يكون لمالك الارض ما ينبت على

---

(١٠٥) صحيح مسلم ١٠/١٧٧–١٧٩ (ط بيروت ١٩٨١ – نشر دار الباز – مكة المكرمة) .
(١٠٦) صحيح مسلم ١٠/١٨٠–١٨٢ .
(١٠٧) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٠٠ ، جواد على ٧/٢٢٤ .

مسايل الماء ورؤوس الجداول أو هذه القطعة ، والباقى للعامل ، وقد نهى سيدنا رسول الله ﷺ ، عن أكثر أنواع هذا الكراء[١٠٨] ، روى الامام مسلم فى صحيحه عن الاوزاعى عن عطاء عن جابر بن عبد الله قال : كان لرجال فضول أرضين من أصحاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : من كانت له فضل أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ، فان أبى فليمسك أرضه» ، وروى أيضا عن عبد الملك عن عطاء عن جابر قال قال رسول الله ﷺ : من كانت له أرض فليزرعها ، فان لم يستطع أن يزرعها وعجز عنها فليمنحها أخاه المسلم ؛ ولا يؤاجرها اياه»[١٠٩] .

ويقول الامام النووى فى شرح صحيح مسلم : واختلف العلماء فى كراء الارض ، فقال طاوس والحسن البصرى لا يجوز بكل حال سواء أكراها بطعام أو ذهب أو فضة أو بجزء من زرعها لاطلاق حديث النهى عن كراء الارض ، وقال الشافعى وأبو حنيفة وكثيرون تجوز اجارتها بالذهب والفضة وبالطعام والثياب وسائر الاشياء ، سواء كان من جنس ما يزرع فيها أم من غيره ، ولكن لا تجوز اجارتها بجزء ما يخرج منها كالثلث والربع ؛ وهى المخابرة ، ولا يجوز أيضا أن يشترط له زرع قطعة معينة ، وقال ربيعة يجوز بالذهب والفضة فقط ، وقال مالك يجوز بالذهب والفضة وغيرهما ، الا الطعام ، وقال أحمد وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وجماعة من المالكية وآخرون تجوز اجارتها بالذهب والفضة ، وتجوز المزارعة بالثلث والربع وغيرها ، وبهذا قال ابن شريح وابن خزيمة والخطابى وغيرهم من محققى أصحابنا وهو الراجح المختار[١١٠] .

(١٠٨) جواد على ٢٢٢/٧ .
(١٠٩) صحيح مسلم ١٩٧/١٠ .
(١١٠) صحيح مسلم ١٩٨/١٠ .

ثانيا : المـــــوارد الطبيعيـة

١ ـ المعــــادن :

يمكن أن يقال أن شبه الجزيرة العربية بصفة عامة يمكن أن تنقسم الى قسمين جيولوجيين كبيرين ، وبخاصة فى المملكة العربية السعودية ، وأن القسم الشمالى منها يمتاز بوجود صخور رسوبية ، حيث تتركز الثروة البترولية ، وأما القسم الغربى فيمتاز بالصخور النارية المتبلورة القديمة . حيث توجد عروق المعادن الفلزية ، والتى من أهمها :

أ) الذهب : وهو من المعادن التى استخرجت من العصور القديمة. ومن ثم فقد ذكر لنا الجغرافيون العرب أسماء مواضع عرفت بوجـود خام الذهب فيها مثل بيشة وضنكان ، فضلا عن المنطقة فيما بين القنفذة ومرسى حلج . هذا الى جانب وادى تثليث . على مقربة من حمضة ، وعلى مبعدة ١٨٣ ميلا من نجران[١] ، حيث كان الذهب يستخرج من هناك فى العصور القديمة ، هذا فضلا عن اشتهار ديار بنى سليم بوجود معدن فيها . ومن بينها الذهب : كما أشارت المؤلفـات اليونانية الى المنطقة فيما بين القنفذة وعتودة ، ومن ثم فقد ذهب بعض الباحثين الى أنها «أوفير»[٢] التى أشارت اليها التوراة على أنها مورد الذهب لسليمان كما أن هناك ما يشير الى وجود الذهب على مقربة من «حمضة»[٣] .

وفى الواقع فان هناك جمهرة من الباحثين انما يذهبـون الى أن

---

(١) ياقوت ٣٢٣/٢ ، فؤاد حمزة : فى بلاد عسير ـ القاهرة ١٩٥١ ص ٦١ ، المسالك والممالك ص ١٨٨ ، جواد على ١٩٢/١ ، وكذا
K. S. Hwitchell, Saudi Arabia With an Account of Development of its Natural Resources, Princeton, 1943, p. 77.
وكذا B. Moritz, Arabien, Hanover, 1923, p. 105, 110.

(٢) انظر عن «أوفير» (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٧٨٢/٢ ـ ٧٩٢) .

(٣) محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ١٢٣
وكذا F. Hommel, Grundriss, I, p. 13 F.
وكذا B. Moritz, op-cit, p. 110

«أوفير» انما تقع فى جنوب شبه الجزيرة العربية[٤]. وان اختلفت الاراء فى هذا المكان من جنوب بلاد العرب . فذهب فريق الى أنها فى الجنوب الغربى (فى اليمن) متضمنا الساحل الافريقى المجاور[٥] ؛ على أن فريقا آخر انما يذهب الى أنها فى الجنوب الشرقى متضمنا الخليج العربى وخليج عمان[٦] ، هذا ويتجه فريق ثالث الى أنها انما تقع فى «العويفرة»[٧] القريبة من قرية «الفاو»[٨] ، على مبعدة ٦٠ كيلا الى الجنوب الغربى من مدينة الخماسين ، وأن الاسم القديم انما «عفرة» وقد حرفت بالنقل الى اللغتين العبرية واليونانية ، ومن ثم فقد أصبحت «أوفير» ، وأخيرا فهناك فريق رابع يرى أنها انما تقع فى المنطقة فيما بين القنفذة وعتود[٩] فى المملكة العربية السعودية .

وقد أشارت التوراة فى المزامير الى أن شبا (سبأ) ستقدم الذهب الى ملك العبرانيين[١٠] ، وفى سفر حزقيال أن تجار سبأ كانوا يتاجرون بأفخر أنواع الطيب وبكل حجر كريم وبالذهب[١١]

هذا وقد أشارت النصوص الاشورية الى ثراء السبئيين وامتلاكهم للذهب والفضة، فالعاهل الاشورى «تجلات بلاسر» الثالث (٧٤٥ — ٧٢٧ ق.م) يذكر أنه أخذ الجزية من السبئيين ذهبا وفضة وابلا : جمالا

---

(٤) A. Lods, Israel, From its Beginnings to The Middle of The Eighth Century London, 1962, p. 370.
وكذا S. A. Cook, CAH. III Cambridge, 1965, p. 357.
(٥) M. Nath, The History of Israel, London, 1965, p. 215.
وكذا M. F. Unger, op-cit, p. 810.
وكذا J. Hastings, op-cit, p. 669.
(٦) E. Glazer, Die Abessinier in Arabien und Africa, 1895, p. 368-373.
وكذا J. Hastings, op-cit, p. 669.
(٧) B. Thomas, Arabia Felix., Across The Empty Quater of Arabia, New York, 1932, p. 163.
(٨) أنظر : محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٧٨٤ .
(٩) B. Mortiz, op-cit, p. 110.
(١٠) مزمور ٧٢/١٥ .
(١١) حزقيال ٢٧/٢٢-٢٣ .

ونوقا ، ولبانا وبخورا من جميع الانواع ، كما يذكر «سرجون الثانى» الاشورى (٧٣٢ – ٧٠٥ ق.م) أنه أخذ الجزية من «يثع أمر» ملك سبأ ذهبا وخيلا وجمالا[١٢] .

وتذهب المصادر اليونانية والرومانية الى نفس الاتجاه ، فتتحدث عن امتلاك السبئيين للذهب والفضة والاحجار الكريمة ، وان بلغت فى ذلك الى درجة تخرجها من عالم التاريخ الى عالم الخيال والاساطير ، فمثلا يذهب «سترابو» الى أن لدى السبئيين «كميات كبيرة من مصوغات الذهب والفضة ، كالاسرة والموائد الصغيرة ، والآنية والكؤوس ، فضلا عن فخامة منازلهم ، حتى أن الابواب والجدران والسقوف فيها مختلفة الالوان ، بما يرصع فيها من العاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة[١٣] ، وانطلاقا من كل هذا نرى «سترابو» انما يذهب الى أن الحافز الذى دفع الامبراطور أغسطس (٢٧ ق.م – ١٤م) للقيام بحملته المشهورة على اليمن فى عام ٢٤ ق.م ، ومحاولة احتلالها ، انما كان ما سمعه عن ثروة سكانها ، ومن ثم فقد كان هدفه هو «التعامل معهم كأصدقاء أثرياء أو السيطرة عليهم كأعداء أثرياء»[١٤] .

وأيا ما كان الامر ، فان الكتاب القدامى من الاغارقة انما يذهبون الى أن هناك مواضع فى شبه جزيرة العرب ، يستخرج منها الذهب نقيا، لا يعالج بالنار لاستخلاصه من الشوائب ، ولا يصهر لتنقيته ، ومن ثم فقد قيل له «أبيرون» (Apyron) ، وأن العبرانيين انما أخذوا لفظة «أوفير» من هذه الكلمة ، فيما يرى بعض العلماء المحدثين[١٥] .

وقد عثر فى «مهد الذهب» والذى يقع الى الشمال من المدينة ، على

---

(١٢) J. Hastings, op-cit, p. 892.

(١٣) جواد على ٧/٢٣٤–٢٣٥ ، وانظر : مجلة المجمع العلمى العراق – العدد الثانى – ١٩٥٢ ص ٢٦٢ .

(١٤) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٠٨ وكذا Strabo, XXI, 4 : 22.

(١٥) جواد على ١/١٩٣ وكذا J. A. Montgomery, Arabia and the Bible, Philadephia, 1934 p. 39.

أدوات استعملها القدامى فى استخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه، مثل رحى وأدوات تنظيف ومدقات ومصابيح ، فضلا عن آثار القوم فى حفر العروق التى يتكون منها الذهب ، مما يدل على أن الموقع انما كان منجما للذهب فى عصور ما قبل الاسلام ، ولعله من المناجم التى أرسلت الذهب الى سليمان عليه السلام[١٦] .

ب) الفضة : وقد وجدت مناجم قديمة للفضة شرقى القنفذة،وعند منتصف المسافة بين وادى قينونة ووادى بنا ، هذا وقد أشار الهمدانى الى استخراج الفضة من «الرضواض» فى اليمن ، وأن فضته لا نظير لهـا[١٧] .

ولعل من الجدير بالاشارة أنه قد عثر على خامات الرصاص والزنك شرقى القنفذة ، وفى منطقة مهد الذهب ، كما عثر على مناجم الحديد فى وادى فاطمة ، وعلى مصنوعات حديدية فى الخرائب والاثار والاماكن القديمة فى اليمن ، والتى اشتهرت بسيوفها فى الجاهلية والاسلام ، وان كنا لا نعرف المواطن التى كانت تستغل لاستخراج الحديد منها ، وأخيرا فلقد ذكر «نيبؤور» أنه كان فى «صعدة» منجم يستخرج منه الحديد ، فضلا عن «نقم» و «غمدان»[١٨] .

٢ ـ النبـــات :

ليس هناك من شك فى أن الماء هو العنصر الفعال فى الانتاج الزراعى ومن ثم فان الانتاج لا يتيسر الا حيث تتوفر المياه ، الامـر الذى لم يحدث الا فى أقاليم قليلة من بلاد العرب ، فاذا أضفنا الى ذلك أن جفاف الهواء وملوحة التربة يحولان دون نمو النبات وازدهاره ، لتبين لنا أن

---

(١٦) جواد على ١٩٣/١ وكذا
R. H. Sanger, op-cit, p. 20, 23.

(١٧) الهمدانى : المرجع السابق ص ٢٠٢ ، محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ٢٣٤ .

(١٨) جواد على ١٩٦/١ ، محمود طه ابو العلا : المرجـع السابق ص ٢٣٥ ، وكذا
H. Scott, op-cit, p. 114, 237

دولة النبات فى شبه جزيرة العرب ليست بحال من الاحوال دولة ضخمة، ومن ثم فان الاراضى الزراعية قد انتثرت فى بلاد العـرب كالجزر فى محيط الصحراوات الرملية ، والمرتفعات الوعرة التضاريس العارية من التربة فى كثير من الاحايين[19] ؛ هذا الى جانب بعض المناطق الجنوبية حيث تفرغ الرياح الموسمية أمطارها على سفـوح السلسلة الجبلية ؛ فتقوم فيها بعض الزراعات الناجحة ، أو البستنة الرابحة ؛ عن طريق توفير المياه وحسن تصريفها[20] .

وتعتبر نخلة البلح ملكة عالم النبات فى شبه جزيرة العرب،ومازالت حتى اليوم تحتفظ بمركز ممتاز بين الحاصلات الزراعية فى بلاد العرب ؛ وإن تدهورت قيمة التمور فى السنوات الاخيرة ، ولم تعد كما كانت من قبل عند البدوى ، الذى كان قوام طعامه التمر والحليب ، كما لم تعـد كذلك منية البدوى أن يحصل على الاسودين الماء والتمر[21] .

وقد أفادت النخلة القوم فوائد جمة ، حية وميتة ، أفادتهم فى تقديم ثمرة صارت اداما للعرب ، وطبا يستطبون بها لمعالجة عدد من الامراض، ومادة استخرجوا منها دبسا وخمرا وشرابا[22] ، بل لقد ذهبوا فى ذلك الى أبعد من الفوائد المباشرة ، فحلوا بها مشكلة الصراع بين الحرارة والملوحة ؛ ذلك أن الاشعاع الشمسى الهائل يرفع البخر الى درجة تهدد الموارد الباطنية بالنفاد وسط التربة الزراعية بالاستملاح المتزايد ؛ ولهذا لجأ القوم الى النخيل ، لا كغذاء فقط ، وانما لتستظل به الزراعة ، ولهذا تمتاز بعض الواحات بعدة ملايين من النخيل ، تقوم كالغابة الحقيقية ،

---

(١٩) فيليب حتى : تاريخ العرب ٢١/١ ، محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ١٨٦ ٠

(٢٠) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ، منير البعلبكى ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٤٠

(٢١) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٣ ، وانظر ابن قتيبـة : عيون الاخبار ٢٠٩/٣-٢١٣ (القـاهرة ١٩٣٠) ، السيوطى : حسـن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ٢٥٥/٢ (القاهرة ١٣٢١هـ) ٠

(٢٢) جواد على ٢٠٧/١ ٠

بينما ترقد عند أقدامها وبين جذوعها الزراعات ، وهكذا تصبح الواحة بحق «غابة الصحراء» ، والنخلة عن جدارة «مظلة الواحة»[٢٣] .

ولقد أدت تلك الفوائد الجمة للنخلة أن أصبحت «سيدة الشجر» لا عند العرب فحسب ، بل عند قدماء الساميين جميعا ، وأحيطت عندهم بهالة من التقديس والتعظيم ، وقد عثر على صورها وصور سعفها على النقود القديمة ، وفى جملتها نقود العبرانيين ، الذين يحترمون النخلة احتراما لا يقل عن احترام العرب لها ؛ ومن ثم فقد ورد ذكرها فى مواضع عديدة من التوراة والتلمود[٢٤] ، ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن ملكة الاشجار العربية هذه ، غير عربية الاصل ، فقد نقلت الى بلاد العرب من بابل ، حيث كانت شجرة النخل من أعظم العوامل التى اجتذبت الانسان القديم للتوطن هناك[٢٥] .

أما الكروم فقد غرست فى مناطق شبه جزيرة العرب ، اشتهرت بها، كالطائف واليمن ، كما غرس فى الواحات العربية الرمان والتفاح والمشمش والبرتقال والليمون الحامض والبطيخ والموز ، ويرجح أن الانباط واليهود هم الذين أدخلوا هذه الفواكه الى بلاد العرب من الشمال[٢٦] ، كذلك زرع القمح والشعير فى الواحات ، كما كان ينمو الارز فى عمان والاحساء ، ولايزال شجر اللبان يزدهر على الهضاب المحاذية للساحل الجنوبى ، لاسيما فى مهرة ، وقد كان لشجر اللبان هذا أهمية كبرى فى الحياة التجارية الاولى فى بلاد العرب الجنوبية ؛ وأما الصمغ العربى فقد كان من أخص حاصلات عسير ، التى أصبحت الان أكثر الاقاليم زراعة للقمح ، تليها فى ذلك منطقة القصيم ، وأما شجرة البن

---

(٢٣) جمال حمدان : أنماط من البيئات ص ٩٥ـ٩٦ .

(٢٤) جواد على ٢٠٧/١ ، لاويون ٢٣ : ٤٠ ، نحميا ١٨ : ١٥ ، مكابيين أول ١٣ : ٥١ وكذا J. Hastings, Distionary of the Bible, p. 676

(٢٥) P. K. Hitti, op-cit, p. 19-20.

(٢٦) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٢ـ٢٣ ، وانظر السيوطى : المرجع السابق ص ٢٥٤ .

التى تشتهر بها اليمن الان فقـد أدخلت الى جنوب بلاد العـرب من الحبشة فى القرن الرابع عشر الميلادى(٢٧) .

وتوجد فى البادية عدة أنواع من شجر السنط : منها الآثل والغضال الذى ينتج الفحم الممتاز ، والطلح ، الذى يستخرج منه الصمغ العربى، والسدر وهو شجر النبق وأوراقه عريضة ، وترتفع أشجاره الى عشرة أمتار عن سطح الارض ، ويكثر فى بطون الاودية ، ويكون ظلا يقى من يجلس تحته لهيب الشمس ووهجها المحرق ، ويستعمل ورقـه أستعمال الصابون فى تنظيف الجسم ، والاراك وهو شجر محبب للشعراء ، وهو الحمض ، أو شجر من الحمض ، تتخذ منه المساويك ، وترعاه الابل ، فيه ملوحة ومرارة ، وهو للابل كالفاكهة للانسان ، تأكل منه الابل بعد أن تشبع من غيره ،وللاراك ثمر اذا نضج يدعى الكباث ، وأطيب مراعى الابل السعدان ، وهناك البرسيم ، وهو حب القرظ ــ والقرظ نوع من الكراث ــ وهناك الآس ، وهو شجرة طيبة الريح ، ولها ثمر أسـود وأبيض يؤكل ، والابيض أجود ، وهناك العرار ، وهو بهار البر ، طيب الرائحة ، والخزامى المشهور بطيب الزائحة وشقائق النعمان ... الى غير ذلك من أشجار البادية(٢٨) .

٣ ــ الحيــوان :

ليست دولة الحيوان فى بلاد العرب بأفضل من دولة النبات،والجمل ــ على أى حال ــ هو الحيوان الاليف الوحيد الذى استطاع بعنـاده وصلابته السير ــ بجبروت وبتبختر ــ فوق رمـال الصحارى ، فهو يتلاءم تماما مع ظروف البيئة الصحراوية : الرمال فى السير ، والعطش فى الحر ، والشوك فى الاكل ، والوبر فى البرد ، وارتفاع القامة والرقبة

---

(٢٧) محمود طه ابو العلا : المرجع السابق ص ٢١١ ، وكذا
P. K. Hitti, op-cit, p. 19.

(٢٨) جواد على ٢٠٩/١ ، عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٣٣ــ٣٤، وانظر محمود شاكر : شبه جزيرة العرب ــ الجزء الاول ــ المكتب الاسلامى بيروت ١٩٧٦ ص ٣٧ــ٤١ .

فى العواصف الرملية ، ولو أنه حين تشتد العواصف الرملية يلزم الباس الفم والمنخرين لثاما واقيا[٢٩] •

والجمل اثنان : جمل العدو ، وجمل الحمل ، أما الاول ، فالهجان أو الهجائن ، أى خيار الابل ، وتسمى ذللا ، والواحد منها ذلول ، وتستخدم للركوب ، وأحسن الهجائن ما كان من عمارة ومهـرة ، ثم «البعران» — جمع بعير — وهى الابل التى تستخدم فى حمل الاثقال[٣٠] ، وان كانت أقل ابل الصحراء لبنا ، بينما تلعب الذلل دور الخيل فى نطاقها ، من حيث الحرب والانتقال[٣١] •

والجمل ثروة العربى ، وهو أداة انتقاله ، بل هو نقده الذى يتبادل السلع بواسطته ، وهو فوق ذلك وحدة القياس لمهر العروس ، ودية القتيل ، وأرباح الميسر ، وغنى الشيخ ، فكل ذلك يقدر بعدد معين من الجمال ، والجمل رفيق البدوى ، وصنو نفسه ، وحاضنته التى ترضعه ، فيشرب لبنه بدل الماء (الذى يوفره للماشية) ، ويجعل طعامه من لحمه، وكساءه من جلده ، ويحوك بعض أجزاء خيمته من وبره ، ويتخذ روثه وقودا ، وهكذا لم يعد الجمل — فى نظر البدوى — «سفينة الصحراء» فحسب ، بل هو «هبة الله[٣٢]» ، وصدق جل وعلا حيث يقول : «والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشـق الانفس ، ان ربكم لرءوف رحيم»[٣٣] ، ومن هنا فقد لعب الجمل دورا كبيرا فى حياة العرب الاقتصادية ، يدل على ذلك ما يقال من أن اللغـة العربية تضم نحو ألف اسم للجمل فى مختلف أنواعه وأشكاله ومراحل

(٢٩) جمال حمدان : المرجع السابق ص ٩٢ — ٩٣ •
(٣٠) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٣٤ •
(٣١) جمال حمدان : المرجع السابق ص ٩٣ •
(٣٢) جواد على ١٩٧/١ وكذا P. H. Hitti, op-cit, p. 21.
(٣٣) سورة النحل : آية ٥ـ٧ وانظر : تفسير الطبرى ١٤/٥٤ـ٥٧ (دار المعرفة بيروت ١٩٧٢) ، تفسير النيسابورى ١/٤٤ـ٤٦ (نسخة على هامش الطبرى) •

نموه ، وهو عدد لا ينافسه الا عدد المترادفات لاسم السيف(٣٤) .

ويرى العلماء أن الانسان قد ذلل الجمل حين صيره أليفا مطيعا فى الالف الثانية قبل الميلاد(٣٥) ، هذا وقد ذهب بعضهم الى أن العربية الشرقية انما كانت الموطن الذى ذلل هـذا الحيوان فى الشرق الادنى القديم ؛ معتمدين فى ذلك على أن العراقيين القدامى قد أطلقوا عليه اسم «حمار البحر» ، وأن البحر هنا انما يعنى الخليج ، وأن لفظة «الجمل» (جملو ، وهى فى الاكادية كملو) انما جاءت من بادية الشام ، ومعظم سكانها من العرب ، وكانوا يستعملون الجمل منذ الالف الثانية ق.م ؛ وأن دخول كلمة الجمل من البادية الى العراق ، دليل على أن العرب قد استخدموه أولا ، ومنهم انتقل الى العراق والبلاد الاخرى(٣٦) .

وأما الخيل ، فبالرغم من اشتهار بلاد العرب بجمال خيلها وبتربيتها لأحسن الخيول وبتصديرها لها ، فانها فى شبه الجزيرة العربية من الحيوانات الهجينة غير الاصيلة فى الصحراء — رغم الخطأ الشائع — بل هى دخيلة بقصد استعمالها آلة للعدو والكر فى الحروب التى تعتبر ضرورة صحراوية(٣٧) ، ولا ترتقى أيام وصولها الى بلاد العرب الى ما قبل الميلاد بكثير ، وقد وردت اليها من العراق ومن بلاد الشام ، أو من مصر(٣٨) ، وربما من سيليسيا ، أو حتى من اسرائيل .

ويبدو أن مصر كانت فى الالف الاول قبل الميلاد ، مصدرا رئيسيا للخيل والمركبات ، ونقرأ فى التوراة «وكان مخرج الخيل التى لسليمان

---

(٣٤) فيليب حتى : تاريخ العرب ١/٢٧ .

(٣٥) جواد على ١/١٩٧ .

وكذا R. L. Bowen and F. Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, Baltimore, 1958, p. 35.

وكذا W. F. Albright, From the Stone Age to Christianity, Baltimare, 1946, p. 107.

(٣٦) جواد على ١/١٩٧–١٩٨ وكذا

(٣٧) جمال حمدان : المرجع السابق ص ٩١ .

(٣٨) R. H. Sanger, op-cit, p. 77.

من مصر ، وجماعة تجار الملك (سليمان) أخذوا جلية بثمن ، وكانت المركبة تصعد وتخرج من مصر بستمائة شاقل من الفضة ، والفرس بمئة وخمسين»[٣٩]،وربما كان ذلك أقل من أسعارها العادية ، ويعلل «برستد» لذلك ، بأن سليمان ربمـــا كان يتمتع فى مصر بامتياز خـــاص عن طريق الفرعون حميه[٤٠] .

وهناك مصدر آخر للخيل ، هو "KOA" ، وهو اسم دولة فى سيليسيا، كانت تقع فى السهل الخصب بين جبال طوروس والبحر الابيض المتوسط ، وتشتهر بتربية الخيول ، ويذكر «هيرودوت» أن الفرس كانوا يحصلون على أحسن خيولهم من سيليسيا[٤١] .

وأما المصدر الثالث فربما كان اسرائيل ــ فى عهد سليمان بالذات ــ ونقرأ فى التوراة أن سليمان كان شغوفا بالخيل[٤٢] رغم أن رب اسرائيل قد حذر ملوك اسرائيل من الخيل والنساء والذهب[٤٣] ، غير أن سليمان انما كان يرى أن «الفرس معدة ليوم الحرب» وان «كانت النصرة من الرب»[٤٤] ، ورغم أن العلماء قد اختلفوا فى أسباب ولع سليمان بالخيل، فالذى لاشك فيه أن الخيل كانت على أيامه سلعة تجارية رائجة ،.وأن اسرائيل كانت تحتكرها تماما ، وأن كل طرق القوافل الهـــامة بين مصر وسورية وآسيا الصغرى انما كانت تمر بمملكة سليمان[٤٥] ، وقد كشفت بعثات الحفائر الامريكية فى مجدو وبيت شان وتعنك وحاصور وأورشليم وغيرها من مدن مملكة سليمان على بقايا من عدة أجزاء كبيرة من اسطبلات الخيول ، والتى كان الواحد منها يسع ٤٥٠ حصانا[٤٦] .

---

(٣٩) ملوك أول ١٠ : ٢٨ ــ ٢٩ .

(٤٠) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, N.Y.. 1939. p. 355.

(٤١) W. Keller, The Bible As History, 1967, p. 207.

(٤٢) ملوك أول ١٠ : ٢٦ــ٢٩ ، اخبار ايام ثان ١ : ١٤ــ١٧ .

(٤٣) تثنية ١٧ : ١٤ــ٢٠ .

(٤٤) الامثال ٢١ : ٣١ .

(٤٥) W. Keller, op-cit. p. 207.

(٤٦) W. Keller, The Bible As History, p. 206.

وكذا W. F. Albright, op-cit, p. 124.

وكذا J. W. Crowfoot, in PEQ, 1940, p. 143-147.

وهكذا يبدو أن الخيل لم تكن أصيلة فى بلاد العرب ، هذا فضلا عن أن العربى انما كان يبدو فى الاثار المصرية والبابلية والاشورية والفارسية جمالا ، لا خيالا ، وكان الجمل — وليس الحصان — هو الذى يذكر عند جمع الجزية التى كان يفرضها الفاتحون الاشوريون على العربى والعربية فالملك الاشورى «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ — ٧٢٧ ق٠م) يفرض على الملكة «شمسى» جزية «جمالا ونياقا»[٤٧] ، وان رأينا الخيل بجوار الجمال ، فى الجزية التى قدمت للملك «سرجون الثانى» (٧٢٢ — ٧٠٥ ق٠م)[٤٨] ، والذى جاء بعد سليمان (٩٦٠ — ٩٢٢ ق٠م) بأكثر من قرنين ونصف من الزمان ، وفى جيش «اكزركسيس الاول» (٤٨٦—٤٦٥ ق٠م) الذى كان متجها الى بلاد اليونان لفتحها ، ظهر العرب يركبون جمالا[٤٩] ، وأخيرا ، فلقد أنكر «سترابو» وجود الحصان فى شبه الجزيرة العربية[٥٠] ٠

وأيا ما كان الامر ، فان بيئة الصحراء ، ليست أمثل بيئة لتأقلم الخيل ، فالعروض الجنوبية الحارة لا تلائمها ، وهذا هو السبب فى أن الخيل لا تسود فى الصحراء ، الا فى أقصى نطاقاتها شمالا ، والسطح الرملى لا يلائم حوافر الخيل ، ولذلك تميل الخيل فى نطاقها الى التركيز فى صحراء الحمادة ، أكثر منها فى صحراء الارج ، كذلك يدفع الانسان ثمن التأقلم باهظا ، فالخيل ليست حلوبا بدرجة الاستبس ، لفقر مراعى الصحراء ، بل قد ينبغى اطعام الخيل بلبن الجمل ، وبالحبوب المستوردة من بعيد ، أو بالاسماك على السواحل ، كما فى منطقة الخليج العربى ،

---

(٤٧) A.T. Olmstead, History of Assyria, p. 189.
وكذا ANET, 1966, p. 280.
وكذا N. Abbot, Pre-Islamic Arab Queens, in AJSL, 58, 1941, p. 4.
(٤٨) ANET, 1966, p. 284.
وكذا A.G. Lie, The Inscriptions of Sargon, II, p. 5.
(٤٩) فيليب حتى : تاريخ العرب — الجزء الاول — ص ٢٥ (بيروت ١٩٦٥) ،
وكذا Herodotus, VII, 86, 8.
(٥٠) Strabo, Geography, XVI, 4, 2, 26.
وكذا P.K. Hitti, op-cit, p. 19-20.

كما ينبغى الاهتمام بها اهتماما خاصا[٥١] . وربما كان اهتماما يفوق حد المعقول ، وقد لاحظ «الويس موسل» أن البدوى وذويه قد يبيتون على الطوى فى سبيل توفير شىء من الحليب أو الحبوب ، لفرس عندهم ذات خلـــوة[٥٢] .

وهكذا كان اقتناء الخيول هواية غالية وكمالية ، لا يقدر عليها الا من كان على سعة من عيش ، ولهذا تصبح سمة من سمات الابهة والعظمة والتفاخر فى المجتمع ، ولا عجب أن تؤدى العناية المضاعفة بها الى توليد أعظم السلالات فى بلاد العرب ، دون موطنها الاصلى ، والاعتزاز بها الى ظهور أنساب لها[٥٣] ، ولعل أعرق الخيل نسبا ما كان فى نجد ، بل ان خيول نجد لتعد من أجود الخيول فى العالم قاطبة[٥٤] .

ولقد عرفت بلاد العرب كذلك — الى جانب الابل والخيل — البغال والحمير «والخيل والبغال والحمـــير لتركبوها وزينـــة ، ويخلق ما لا تعلمون»[٥٥] ، وهناك كذلك الشاة والماعز والبقر والقردة والنسانيس والحمير (وهو حامور فى العبرية ، وأنثاه أتون أى أتان فى العربية) . ويظهر أنها أقدم عهدا فى بلاد العرب من الجمل والخيل والبغال ، اذ كانت وسيلة النقل والركوب فى أوائل الالف الثانية ق.م[٥٦] .

وهناك من الحيوانات البرية ، الاسد والفهد والنمر والضبع والثعلب والذئب وابن آوى والوعـــل واليربوع والخـــنزير والارانب والغزلان

---

(٥١) جمال حمدان : المرجع السابق ص ٩٢ .

(٥٢) A Musil, The Manners and Customs of the Rwala Bedouins, p. 374-5.

(٥٣) جمال حمدان : المرجع السابق ص ٩٢ .

(٥٤) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٥ .

(٥٥) سورة النحل : آية ٨ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٤/٥٧ — ٥٨ (المطبعة الاميرية — بولاق مصر ، ١٣٢٨ هـ) ، تفسير النيسابورى ١٤/ ٤٦—٤٧ (نسخة على هامش الطبرى) .

(٥٦) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٢٩ ، جـــواد عـــلى ١/٢٠٣ ، الهمدانى : المرجع السابق ص ٥٤ وكذا B. Moritz, op-cit, p. 40-42 F.

والظباء ، ويبدو أن هذه الحيوانات قد قلت الان ، ربمـا بسبب كثرة السكان واستعمال آلات الصيد الحـديثة وتغير المناخ ، فمثـلا كانت الاسود تعيش فى وادى بيش ، ووادى عتود وعثر ، بل ان هناك أماكن اشتهرت بكثرة أسودها حتى قيل لها «مآسد» (والواحدة مأسدة) ، ومن الطيور هناك النعام والقطا والحجل والكروان والغراب والبجـع والرخم والهدهد والنسر والعقاب والصقر والبوم والحدأة وغيرها(٥٧).

(٥٧) جواد على ٢٠٣/١ ، الهمدانى : المرجع السابق ص ١٠٢ ، محمود شاكر : المرجع السابق ص ٤١ ؛ وكذا
B. Moritz, op-cit, p. 40.

ثالثا : التجـــــارة

١ ــ السـلع التجــارية

كان العــرب القدامى ــ شأنهم فى ذلك شأن كثير من غـيرهم من الشعوب التجارية ــ نشيطون فى عالم التجــارة ، بل ان التجارة تكاد تكون هى الحرفة الوحيدة عند العرب ، التى لم ينظر العربى اليها والى المشتغل بها نظرة استهجان وازدراء ، بل اعتبرت عندهم من أشرف الحرف قدرا ومنزلة ؛ ونظر الى التاجر نظرة تقدير وتجلة ، مع أنها حرفة مثل سائر الحرف ؛ فيها من الحيل والخداع ؛ ما فى أية حرفة أخرى ، وفيها عمل وجهد على نحو ما نجد فى الزراعة والصناعة ، ولكنهــا نظرة واجتهاد فى الحياة ، وظروف طبيعية ، جعلت العرب تجارا فى الغالب ، فشرفوا التجارة على غيرها من الحرف ، وقدموهــا عليهــا فى المنــازل والدرجات •

وهكذا كان الملوك تجارا يبيعون ويشترون ، وكان رؤساء المعبــد تجارا ؛ يتاجــرون باسم معابدهم ، وكان أصحــاب الاملاك ورؤساء العشائر تجارا كذلك ، يتاجرون بما يقدمه اليهم من هو دونهم فى المنزلة من حاصل وغلة ، ويتاجرون بما يستوردونه من الخارج ، من افريقية أو من الهند ، من حاصلات ثمينة غالية فى نظر تجار ذلك اليوم ، لبيعه فى الداخل أو نقله الى بلاد الشام أو العراق أو مصر : لتصريفــه فى أسواق تلك الجهات[١] •

ومن البدهى أن موقع شبه الجزيرة العربية انما ساعد كثيرا على أن يحتل أهلها مكانة ممتازة فى عالم التجارة ، حتى أن البعض انما يذهب الى أن الحياة الاقتصادية لجنوب الجزيرة العــربية انما كانت تقوم ــ الى جانب المواد الزراعية العظيمة ــ على التجارة الدولية[٢] ؛ ومن هنا كان الاهتمام بالتجارة وتنظيمها ، وقد عثر الاثاريون على وفرة من

---

(١) جواد على ٢٣٧/٧ ــ ٢٣٨ •
(٢) موسكاتى : المرجع السابق ص ١٩٧ •

لاتفظ ذات المعانى التجارية التى تتصل بالبيـــع والشراء والامتلاك والعقود والاوامــر التى كان الملوك يصدرونها لتنظيم جبـاية المكوس (الضرائب الجمركية) على السلع التى تباع فى الاسواق ، وما يترتب على مخالفتها أو التهرب منها من عقوبات ، أو لتنظيم المعاملات التجارية بجوانبها المختلفة مثل الشروط التى تتصل بحقوق الاغراب فى ممارسة التجارة بالمنطقة أو بممارسة أهل المنطقة للتجارة فى الخارج ؛ ومن ذلك المرسوم الذى أصـدره الملك القتبانى « شهر هلل بن يدع أب » الى تجار قتبان — الوطنيين منهم والاجانب ـ وقد جاء فيه : أن من يتجر تجارة فى تمنع (عاصمة قتبان) أو بخارج تمنع ؛ فعليه أن يقدم عربونا الى تمنع ، وأن يكون مقيما فى «شمر» حتى وان آثر قتبان محـلا ، لا تجـارة . وأراد أن يتجـول ليشترى . فعليه أن يشترى من مدينة «شمر» ، وهكذا يبدو واضحا أن هناك شروطا يجب أن يلتزم بها التجار الاغراب الوافدين الى قتبان للاتجار فيها ، سواء من حيث مكان اقامتهم أو مكان مشترواتهم أو مكان ممارستهم لتجارتهم ، أو الرسوم المطلوب تاديتها الى الادارة المختصة بالعاصمه ، ونفس الشىء نجده فى منطقة الحجاز ، حيث ظهر أكثر من مركز تجارى : أشهرها مكة . ثم يثرب والطائف الى حد ما[٣] .

على أنه من الجدير بالذكر أن هذه القوانين القتبانية انما هى من أقدم وأشهر القوانين التى وصلت الينا باللهجات العربية القـديمة فى كيفية تنظيم الاتجار والتعامل فى السوق ؛ وفى تعيين حقـوق الدوله ونصيبها من الارباح المتأتية من التجارة ، وهو ، دون شك ، دليل قوى على مقدار عناية القتبانيين بأمور التجار بالنسبة لتلك الايام الخوالى[٤] .

وأما أهم السلع التى كان العرب يتاجرون فيها فهى : الذهب ؛ وكان على رأس السلع التى حملها تجار العرب الى الاشوريين ، وحكومات العراق وبلاد الشام ، وفى التوراة ذكر للذهب الذى كان يجلبه العرب

---

(٣) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣١٢ ، جـواد عـلى ٢٣١/٧ ـ ٢٣٢ .

(٤) جواد على ٢٣٢/٧ .

الى العبرانيين . وربما كانت الفضة من سلع التجارة العربية كذلك ، فقد ذكر الاخباريون أن «أبا سفيان» حمل معه تجـارة من فضة لبيعها فى أسواق الشام فى احدى رحلاته التجارية ، وكان «الطيب» من أهم المواد التى تاجر بها العرب الجنوبيون مع بلاد الشام ومصر والعراق ، فضلا عن بلاد العـرب نفسها ، وهو نوعان : محـلى ومستورد من الهنـد وأفريقية(٥) .

وأما «البخور» فهو من المواد الثمينة ذات السعر العالى بالنسـبة لتجارة ذلك الوقت ، ومن ثم فقد اكتسبت شجرة البخور أهمية خاصة فى العهد القديم ، حين كان احراق الطيوب يشـكل قسما أساسيا من الطقوس أو الشعائر الدينية فى كل العالم القديم ، ليس فقط على صعيد المناسبات الرسمية ، وانما كذلك على صعيد الحياة اليومية ، فقـد كان القوم يحرقون البخور فى المباخر ، ويبخرون به المعابد والاصنام ، كما كانوا يبخرون الضيوف ، ويطيبون ثيابهم ، وهكذا كانت أشجار البخور واللبان هى السلعة الاساسية التى تحملها القوافل التجارية من جنوبى شبه الجزيرة العربية لتجد طريقها الى أسواق مصر والشام ، ثم لتجد طريقها من موانى الشام بوجه خاص الى بلاد اليونان والرومان الذين كانوا يستخدمون كميات هائلة من الطيوب واللبان للاغراض الدينيـة والطبية ولأغراض الزينة التى تقوم مقامها الان الروائح العطرية(٦) .

وهناك «المر» (امرو فى المسند) من المواد الثمينة الغالية فى قـائمة المنتجات العربية التى تباع فى بلاد العرب نفسها ، كما تباع فى خارجها، وقد أقبل المصريون والعبرانيون على استيراده للاغراض الدينية ، اذ استعمله المصريون بخاصة فى المعابد وفى التحنيط ، واستعمله العبرانيون فى الدهن المقدس ، فضلا عن علاج بعض الامراض ، ثم هناك «الصبر» وهو عصارة شجر من أجوده «السقطرى» ، ويعرف أيضا بالصبار ، وهناك «القرفة» وهى من المواد الثمينة أيضا ، وتنبت فى جزيرة سيلان

(٥) مزمور ١٥/٧٢ ، حزقيال ٢٧/٢٢-٢٣ ، جواد على ٢٣٦/٧ - ٢٣٧ .

(٦) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ١١١ .

بصورة خاصة ، وهناك «القرنفل» ، وهو من المواد المستوردة من الهند وما وراءها ، وقد استعملوه طيبا : كما عالجوا به ، وذكره كثير من شعرائهم كامرىء القيس وعمر بن كلثوم ، وهناك «الكندر» وهى لفظة أعجمية دخلت الى العربية من السنسكريتية ، والكندر ، على أية حال ، ضرب من العلك ، وقيل هو اللبان ، وقد عولج به ، واللبان مشهور فى العربية الجنوبية ، وهو فى معظمه مستورد من الهند وافريقية ، وان كانت كمياته المحلية ليست قليلة ، كما أنها ليست أقل جودة من المستورد ، وقد أشارت التوراة الى أن العبرانيين كانوا يستوردون اللبان من شبا (سبأ) : وأشهره من شجر عمان ، ثم هناك العود والعنبر والمسك ، وكلها سلع تجارية هامة[٧] .

ومن البدهى أن العرب الجنوبيين قد كسبوا مكاسب هائلة من السلع التى كانوا يتاجرون فيها سواء أكانت سلعا محلية أو مستوردة من الهند والحبشة وبعض مناطق السودان أو غيرها ، ويشير «بلينى» الى الحجم الهائل الذى كانت تستورده روما من شبه الجزيرة العربية ، وغيرها فى أواسط القرن الاول الميلادى ، فيقول : ان الهند والصين وشبه الجزيرة العربية تأخذ منا كل عام مليون سستركة» (عملة رومانية) ، وقد كان هذا المبلغ وقت ذاك كبيرا ، حتى بالنسبة الى الامبراطورية الرومانية ؛ نعرف ذلك من العبارة التى ينهى بها حديثه فى هذا الموضع ، حيث يقول فى تعجب ظاهر «وهـذا هو ما يكلفنا ترفنـا ونساؤنا» ، ثم يتحدث «بلينى» عن ثروة العرب ، فيرى أنهم «فى عمومهم أغنى أجناس العالم ، لان ثروات واسعة تتجمع فى أيديهم من رومـا وبلاد فارس ، لقـاء ما يبيعونه لهذين البلدين ، سواء من نتاج البحر (يقصد اللالىء) أو من غاباتهم (يقصد غابات الطيوب) ، دون أن يشتروا منهما شيئا فى مقابل

---

(٧) تاج العروس ٤٣٧/٢ ، ١٢٦/٣ ، ٣٢٥ـ٣٢٩ ، ٥٣٧ ، ٦/ ٢١٩ ، ١٧٦/٧ ، ٣٢٩/٩ ، قاموس الكتاب المقدس ٢١٢/٢ ، ٢١٦ ، ٢٦٢ ، ٣٢٦ ، جواد على ٢٣٧/٧ ـ ٢٤٠ ، وكذا
J. Hasting, op-cit, p. 119, 639, 786.
وكذا W. Smith, A Dictionary of The Bible, I, p. 633.

ذلك» ؛ وربما كان بليني مبالغ في روايته ، ومع ذلك فهناك حقيقة ثابتة هي أن صادرات العرب كانت أكثر بكثير من وارداتهم ؛ فالسلعتان الاساسيتان في العالم القديم ؛ وهما الحبوب والطيوب ، كانت احداهما، وهي الطيوب متوفرة لديهم ، وكانت الاخرى ، وهي الحبوب ، متوفرة في اليمن وبعض الواحات ؛ بينما لم يكن باقي سكان شبه الجزيرة العربية يعتمدونها ، كمادة غذائية أساسية[٨] •

ويتحدث «سترابو» عن غنى بلاد العرب الجنوبية ، حتى أنه ذهب — كما أشرنا من قبل — الى أن الحافز الذي دفع الامبراطور أغسطس الى حملته المشهورة على اليمن في عام ٢٤ ق•م[٩] ، انما هو ما سمعه عن ثروة سكانها ، ومن ثم فقد كان هدفه هو «التعامل معهم كأصدقاء أثرياء ، أو السيطرة عليهم كأعداء أثرياء» ، وبصرف النظر عن مدى ما في هذا التعليل من دقة ، أو تطابق مع أهداف أغسطس من الحملة ؛ فان الاشارة واضحة الى ثروة المنطقة ، وفي الواقع فان الثروة التي عرفتها بعض مناطق شبه الجزيرة العربية قد أدت ببعض الكتاب الكلاسيكيين الى قدر من المبالغة في تقدير مظاهر هذه الثروة كما فعل «أجاثارخيدس» Agatharchides في وصفه المسهب لحياة البذخ عند السبئيين ، وكما فعل «أرتميدوروس» Artemidoros حين ذكر أن الجرهائيين والسبئيين قد أصبحوا بسبب تجارتهم أغنى الجميع (يقصد سكان بلاد العرب) فلديهم قدر كبير من الادوات المصنوعة من الذهب والفضة ، مثل النمارق والكراسي والاوعية وكؤوس الشراب ، كما تتصف

---

(٨) لطفي عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٠٧–٣٠٩ ، وكذا
Plinius, XII, 66.

(٩) انظر عن حملة أغسطس على اليمن عام ٢٤ ق•م (حملة اليوس جالليوس) : محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم — الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٣١٠ — ٣١٣ ، جواد علي ٢/٤٢–٦٠ ، وكذا
J. Pirenne, le Royaume, Sud-Arabe de Qataban et sa Datation Louvain, 1961, p. 93-124.
De Lacg O'Leary, Arabia before Muhammad, London, 1927, وكذا p. 74-77.

منازلهم بالبذخ ، اذ أن أبوابها وجدرانها وسقوفها مطعمة بالعاج والذهب والفضة ومرصعة بالاحجار الكريمة[١٠] .

٢ ـ الطرق التجارية

أ) طرق القوافل :

تقع شبه الجزيرة العربية فى مكان وسط ، من حيث المناطق المناخية والنباتية فى العالم القديم ، فالى شرقها يقع الاقليم الموسمى الغنى بانتاجه الزراعى ، والى غربها وشمالها يقع اقليم البحر المتوسط وما وراءه ، وله لون خاص من الانتاج الزراعى يختلف عن الانتاج فى الاقليم الموسمى ، وبعبارة أخرى ، تقع الصحراء العربية على أقصر طريق بين أغنى أقاليم العالم القديم التى تتفاوت فى انتاجها تفاوتا كبيرا ، مما يؤدى الى التبادل التجارى ، ومن ناحية أخرى يملك البدوى وسيلة المواصلات الوحيدة فى الصحراء ـ الجمل وخاصة المهرى ـ وأخيرا فالتجارة وسيلة ممتازة للاستفادة ، أفضل بكثير من رحلاته التى يقوم بها بطبعه الى هوامش الصحراء ، لمبادلة حاصلاته بحاصلات الزراع المستقرين ، أضف الى ذلك كله ، أن البدو يمكنهم عبور الصحراء فى قوافل ذات أعداد كبيرة ، تضمن الحماية والسلامة من الغارات أثناء الطريق[١١] .

وهكذا تكاملت الاطراف لانشاء تجارة رابحة بين الاقليم الموسمى وبلاد الهلال الخصيب من ناحية ، وبين جنوب غرب شبه الجزيرة العربية وجنوبها ، ومصر ودول شرق البحر المتوسط من ناحية أخرى . أو بمعنى آخر ، وجدت مناطق الانتاج وأسواق الاستهلاك ، والعرب الرعاة وابلهم فيما بينهما وسطاء للتجارة ، وهكذا نشأت الطرق والدروب الصحراوية لتسلكها التجارة ، وأصبح جنوب غرب الجزيرة وجنوبها مركز اشعاع تخرج منه القوافل التجارية الى الشمال ـ عبر مكة ويثرب ـ حتى

---

(١٠) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٠٨ ـ ٣١٠ ، وكذا وانظر : Strabo, XVI, 4, 19, Plinius, VI, 162.

(١١) جمال حمدان : المرجع السابق ص ٩٩ .

الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، وحول خليج العقبة الى مصر ، وكانت موانىء الخليج العربى مركز الاشعاع الثانى للطرق والدروب الصحراوية، فمنه تخرج الطرق الى غرب شبه الجـزيرة والى جنوبهـا ، وشماله الغربى(١٢) .

لقد كان هناك مركزان تخـرج منهما الطرق : جرهـا على الخليج العربى ، ومدن الساحـل الجنوبى الغربى ، وقد سارت هـذه الطرق كالاتى :

١ ـ الطريق الجنوبى الشمالى : من مأرب الى البتراء ، ويبدأ فى المواقع من عدن وقنا فى بلاد اليمن وحضرموت ، ثم مأرب ـ على مبعدة ٨٠ ميلا الى الشرق من صنعاء ـ ثم يتجه الى نجران فالطائف ، ثم مكة ويثرب وخيبر والعلا ومدائن صالح ، ثم ينفصل الطريق هنا ليتجه فرع منه الى تيماء صوب العراق ، ويستمر الفرع الاخر فى نفس الاتجاه حتى البتراء فغزة ثم الشام ومصر .

٢ ـ طريق مأرب ـ جرهـا : ويتجه من مأرب ثم نجران ، حيث ينجه الى الشمال الشرقى فى وادى الدواسر ، ويمر بقرية «الفاو» ـ على مبعدة ٥٠ كيلو مترا الى جنوب نقطة يتداخل ويتقاطع فيهـا وادى الدواسر مع جبال طويق عند فوهة مجرى قناة تدعى الفاو ، وتشرف على الحافة الشمالية الغربية للربع الخالى ـ ومن هناك يتجه الى الافلاج فاليمامة ، أو عن طريق واحة يبرين ـ على مبعدة ٣٠٠ كيلو مترا جنوب غرب الهفوف ـ ثم واحة الهفوف ، فجرها (الجرعاء)(١٣) ، على ساحل الخليج العربى .

(١٢) محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ١٢٤ ، ١٢٧ .

(١٣) جرها : وقد ذكرها الهمدانى باسم «جرعاء» وهى سوق لبنى تميم فى الاحساء ، ومنذ قرن مضى رأى «شبرنجر» أن (Gerrha) انما هى الجرعاء ، وقد كانت قائمة بالقرب من ميناء العقير الحالى ، وربما ـ فيما ترى اليزابيث مونرو ـ أنها تحت أنقـاض مدينة من العصور الوسطى تسمى «تاج» (Thaj) هى الان فيما وراء «جبير» (Jubair) ـ وربما الاصح الجبيل ، وكانت تعرف قديما باسم عينان ـ والتى كانت تقع على بحيرة =

٣ ــ طريق جرها ــ البتراء : ويبدأ من جرها ثم الهفوف ، ثم الى شمال اليمامة ، عند موقع مدينة الرياض الحالية تقريبا ، ثم يتجه الى الشمال الغربى ، موازيا لجبل طويق ، ثم يتجه غربا الى بريدة ، ومنها الى حائل فتيماء ، وأخيرا البتراء •

٤ ــ ويرفد هذا الطريق الرابع البحر العربى والمحيط الهندى والممالك العربية الجنوبية ، وخاصة حضرموت ومنطقة عمان ، ويبدأ من الخليج متجها شمالا بغرب مارا بمحاذاة الحدود الشرقية لنجد ، فمنها بعدئذ ، اما الى الشمال فى اتجاه العراق ، واما الى بادية الشام •

٥ ــ وأما الطريق الخامس ، فقد كان عبر الطرف الشرقى من الربع الخالى ، ويبدأ من منطقة حضرموت وعمان متجها الى منطقة اليمامة ، صاعدا الى بلاد الشام أو العراق ، حيث يلتقى بالطريق الشرقى وبفرع الطريق الغربى[١٤] •

=

او خليج ، على أن دائرة المعارف البريطانية ، انما تتفق مع «جون فلبى» على أن جرها هى العقير نفسها ، وان هذا الاسم الجديد (العقير) قد احتفظ فى بنيته بالاسم القديم «جرها» اذ أن هناك ثمة تقارب بين اسمى الجرعاء والعقير ، والتى تسمى محليا «عجيز» وهى قريبة من منطقة «جرعة» ، وأما الدكتور سليمان حزين ، فالرأى عنده أن جرهــا هى النطيف وان كان هناك من يرى أن جرها انما تقع على مبعدة ١٥ ميــلا الى الشمال الشرقى من العقير ، وقد حدد «سترابو» الجرعاء على مبعدة ٦٠ ميلا داخل اليابسة ، بينما رأى « بلينى » انهــا تقع على الساحل • (انظر : الهمدانى : صفة جــزيرة العرب ، ص ٢٨١ ، (طبعة الرياض ١٩٧٤) ، فضلو حورانى : المرجع السابق ص ٤٣ـ٤٤ ، اليزابيث مونرو : الجزيرة العربية بين البخور والبترول مجلة الدارة ، العدد الاول ص ٣٥ـ ٣٦ عام ١٩٧٦ ، وكذا : بيتر بروس كورنول : البحث عن ماضى جزيرة العرب ، ترجمة محمود محمد الشباوى ــ القاهرة ١٩٥٣ ص ٣٨ •

وكذا S. A. Huzayyin, Arabia and the Far East, Cairo, 1942, p. 142.

وكذا A. Sprenger, Die Alte Geographie Arabiens, Berlin, 1875, p. 135.

وكذا G. Bibby, Lookinh for Dilmun, London, 1970, p. 250.

وكذا E. Monroe, Arabia, From Incense to Oil, Addarah, I, Riyadh, 1976, p. 11.

(١٤) عبد الرحمن الانصارى : لمحــات عن بعض المدن القديمة فى شمال غربى الجزيرة العربية ، مجلة الدارة ، العدد الاول ١٩٧٥ ، ص٨٧ ،

=

وعلى أى حال ، ففى القــرن الاول الميلادى تحولت التجــارة الى البحر الاحر ، فاضمحلت أهمية هذه الطرق ، وأصبح الطريق البحرى هو المفضل ، وأما أهم مواد تجار النقل فى الصحراء ؛ فكان كل ما خف حمله وغلا ثمنه ، فمن الجنوب الى الشمال يتحرك تبر الذهب والصمغ والعاج وريش النعام والبخور من اللبان والمر ، ومن الشمال الى الجنوب تتحرك الاقمشة والآلات والادوات والمعادن والملح ، أى الخامات من الجنوب والمصنوعات من الشمال[١٥] .

ب) التجــارة والطرق البحرية :

لاريب فى أن بلاد العرب انما تقع فى موقع يساعدها على قيام تجارة بحرية نشطة ، ذلك لانها انما تقع بين بحرين ، هما : البحر الاحمر من الغرب ، والخليج العــربى من الشرق ، وبينهما يمتد المحيــط الهندى ليستمر بعد ذلك شرقا ، كذلك فان الرياح الموسمية التى تسود المنطقة أثبتت أنها عامل مساعد للملاحين الى حد كبير ، هذا الى أن نهرى دجلة الفرات فى شمال الخليج العربى ، ونهر النيل عبر البحــر الاحمر ؛ بإمكاناتهما فى مجال النقل يشكلان امتدادين لهذا الموقع التجارى الوسيط غير أن هناك عدة صعاب وقفت أمــام عرب شبه الجــزيرة العربية فى الحقبة الاولى من العصور القديمة ، من الانتفاع بهذه الامكانات المتاحة لها من حيث الموقع ، فالبحر الاحمر وشواطئه ليست آمنة تماما ، وخاصة فى القسم الشمالى منه ، حيث الشعب المرجانية التى لا تسمح بوجود موانى ترسو عليها السفن فى شيء من الامان ، هذا فضلا عن أن سواحل

=
اليزابيث مونرو : المرجع السابق ص ٣٥ ، محمود طه ابو العلا : المرجع السابق ص ١٢٧ .

وكذا A. Amer, The Ancient Trans-Peninsular Routes of Arabia, Cairo, 1925, p. 126-140.

(١٥) جمال حمدان : المرجع السابق ص ١٠٠ ، وانظر : اليزابيث مونرو : المرجع السابق ص ٢٨-٤٣ ، وانظر : مقالنا «العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة» ، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، العدد السادس ، الرياض ١٩٧٦ ص ٢٨٧ - ٤٣٧ .

الخليج العربى الشرقية لا تطل على أماكن يتوفر فيها الماء اللازم لمساعدة القائمين بأى نوع من النشاط التجارى فى الفترات الموغلة فى القـدم . أضف الى ذلك أن شبه الجزيرة العربية لا تنتج أى نوع من الاخشاب الصلبة الطويلة التى تصلح لبناء السفن ، مما أدى فى نهاية الامر الى عدم قيام نشاط بحرى من جانب سكان شبه الجزيرة العربية(١٦) .

غير أن الامر لم يكن كذلك بالنسبة الى الاتصال بالشاطىء الافريقى المقابل ، حيث لا يفصل بينهما فى الجنوب سوى مضيق باب المنـدب الضيق ، والذى يمكن عبوره بسهولة بوسائل نقل تلك العصور الخالية ، ومن ثم فقد تبادل الفريقان الهجرات ، فضلا عن التجارة الخارجية التى هيمنت على سياسة الدول العربية الجنـوبية ، والتى وجهت نشاطها بالضرورة الى الساحل الافريقى(١٧) ، وهكذا نشطت حركة تجارة العاج والصمغ واللبان والذهب ، بين شبه الجزيرة العربية من ناحية ، وبين موانى مصر والسودان والحبشة والصومال من ناحية أخرى ، واتخذ التجار العرب من بعض نقط على الساحل الافريقى مراكز لهم ، يوغلون منها بسلعهم فى قلب القارة الافريقية حتى وادى النيل الاعلى(١٨) ، وهكذا كانت حركة التجارة ، فضلا عن ثروات افريقية ، دافعا قويا الى الفتح والاستيطان الدائم ، ومن ثم فقد رأينا العرب الجنوبيين لايقومون بدور الوساطة والاتصال بموانى البحر الاحمر فحسب ، وانما نراهم كذلك يضعون أقدامهم ويتوغلون الى الداخل ، ويتسربون ويستقرون ، ويقومون آخر الامر ، بدور خطير فى ارساء قواعد حضارة وثقافة تنبثق من صميم الحضارة فى جنوب شبه الجزيرة العربية(١٩) ، بل ان هناك من

---

(١٦) لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٢٤-٣٢٥ ، وكذا G. Hourani, Arab Seafaring in The Indian Ocean in Ancient and Early Medival Times, Beirut,

(١٧) سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ص ٢١٣ .

(١٨) مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٦٠ ص ١٠٧ .

(١٩) صلاح الشامى : الموانى السودانية ـ القاهرة ١٩٦١ ص ٦٣ .

يذهب الى أن مملكة «أكسوم» نفسها ، انما أقامها العرب الجنوبيون[٢٠]، كما أن هناك أمراء عرب كانوا يحكمون فى الصومال وما وراءه ، كما أن «زنجبار» كانت خاضعة لسلطان عربى[٢١] .

وهناك ما يشير الى وجود علاقات تجارية ربطت مصر ببلاد العرب من البر ، كما ربطتها بالبحر كذلك ، فلقد عثر فى مصر على كتابات معينية فى الجيزة ، وعند قصر البنات — عند منتصف وادى الحمامات تقريبا فى الصحراء الشرقية — وفى منطقة ادفو[٢٢] ، بمحافظة أسوان ، وترجع بعض هذه الكتابات الى أيام «قمبيز» (٥٢٥ — ٥٢٢ ق٠م) ، وبعضها الاخر الى أيام البطالمة[٢٣] ، وهناك كتابات أخرى ، سامية جنوبية ، وربما فينيقية ، نشرها «فنكلر»[٢٤] ، فضلا عن العثور على كتابات ثمودية على صخور وادى الحمامات ، وفى سيناء وفى دلتا مصر ، هذا فضلا عن نقوش مشابهة لنقوش وادى الحمامات ، وجدت على صخور وادى العتباى ، ومنها كتابة سبئية ، ولعل من أكثرها وضوحا كتابة لشخص ، ربما كان قائد القافلة من تلك القوافل التى كانت تجتاز الطرق التجارية بين موانى البحر الاحمر والنيل[٢٥] .

وعلى أية حال ، فهناك ما يشير الى أن المعينيين — وكذا السبئيين —

---

(٢٠) فضلو حورانى : المرجع السابق ص ٨٥ وكذا
F. Altheim and R. Stiehl, Die Araber in der Alten Welt, Berlin, 1964, I, p. 114 .

(٢١) جورج فضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى — ترجمه وزاد عليه السيد يعقوب بكر — القاهرة ١٩٥٨ ص ٨٥ ٠

(٢٢) A. E. Weigall, Travels in The Upper Egyption Deserts. London, 1909, p. IV, fig. 13-13.

وكذا H. Winckler, Rock-drawings of Southern upper Egypt. I. London, 1934, p. 1.

(٢٣) مطهر الاريانى : فى تاريخ اليمن — القاهرة ١٩٧٣ ص ١٥ ٠

(٢٤) H. Winckler, op-cit, II, Pl. VIII.

(٢٥) عبد المنعم عبد الحليم : المرجع السابق ص ٥١ ، وكذا
F. W. Green, Notes on Some Inscriptions in The Ethai Deserict, in PSBA, 26, 1959, p. 274 F.

انما كانوا يقومون خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، برحلات بحرية الى مصر ، لنقل التوابل العربية التى كانت تستعمل فى مصر فى التحنيط وتقديم القرابين آلافا متعاقبة من السنين ، وان كنا على غير يقين من أن سفنا عربية هى التى كانت تنقل هذه السلع خلال الفترات الواقعة بين الرحلات المعروفة التى قام بها المصريون الى الجنوب ، وبين القرن الثالث قبل الميلاد ، فذلك أمر يبدو ممكنا فى ضوء الادلة التى انحدرت الينا من أوائل العصر الهلينستى ، ومع ذلك فلا يمكن اثبات شىء ، لان الطريق الاخر ، طريق القوافل عبر صحراوات بلاد العرب وسيناء ، كان قائما أبدا .

وأما التجارة فى الخليج العربى ، فهناك ما يشير الى أن أهل «جرها» ربما كانوا يمارسون تجارة نشطة مع «باريجازة» على خليج «كامباى» فى الهند : تحمل سفنهم السلع العربية اليها ، ثم تعود منها محملة بالنحاس والعاج وأنواع مختلفة من الاخشاب ، ولعل استيراد هذه السلعة الاخيرة أدى الى نوع من النشاط فى بناء السفن التى كانت الاخشاب الصالحة لبنائها لا توجد فى شبه الجزيرة العربية ، وهناك أيضا سفن «خاراكس» تحمل السلع الى الشواطىء الجنوبية العربية ، كما يذكر لنا «بلينى» ثلاث مدن وموانىء أخرى ذات نشاط تجارى بحرى : هى : جرها وأكيله (قرب رأس الخيمة الحالية) وهمنة واطانة. كموانى على الجانب الشرقى لشبه الجزيرة العربية ، ويذكر واحدة منها، على الاقل ، وهى «أكيلة» فى صدد العلاقات التجارية مع الهند[٣٦] .

---

(٣٦) فضلو حورانى : المرجع السابق ص ٦١-٦٢ ، محمد بيومى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة ــ الرياض ١٩٧٦ ص ٣٢٣ ــ ٣٣٢ ، ٣٨٧ ــ ٣٩٠ .

رابعا : تجارة مكة المكرمة

أصبحت مكة المكرمة منذ آل أمرها الى قريش على أيام «قصى بن كلاب» (حوالى ٤٤٠م) مركزا للحياة الدينية والاقتصادية فى شبه الجزيرة العربية ، تشد اليه الرحال ، وتشخص اليه الابصار ، وفيها أكثر من كل جهة سواها ، كانت ترعى حرمة الاشهر الحرم ، بسبب وجود الكعبة المشرفة فيها ، ولمركزها الممتاز فى تجارة العرب ، كانت تعتبر ، وكأنها عاصمة شبه الجزيرة العربية ، دينيا وتجاريا ، ذلك لان مكة المكرمة انما كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال ، وبين الشرق والغرب ، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن الى الشام ، ولمن يعود بتجارة من الشام يحملها الى شواطئ الجنوب •

وكانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها ، ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل فى باديتها أو فى رحلاتها ، فليست فى مكة دولة ، كدولة التبابعة فى اليمن ، أو المناذرة فى الحيرة ، أو الغساسنة فى الشام ، وليس من وراء أصحاب الرئاسة فيها سلطان ، كسلطان الفرس أو الروم أو الاحباش ، وراء الامارات العربية المتفرقة على الشواطئ ، او بين بوادى الصحراء ، وانما كانت مكة المكرمة بمثابة عبادة وتجارة ، وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش فيها ، ولا يبالى من عداه ، وهى — وان لم تكن كذلك من أقدم زمانها — فقد صارت الى هذه الحالة بعد عهد جرهم والعماليق ، الذين قال عنهم الرواة أنهم كانوا يعشرون كل ما دخلها من تجارة[1] •

وزاد من قيمة مكة : أن اليمن — بعد الاحتلال الحبشى فى عام ٥٢٥م — لم يكتب لها نجحا بعيد المدى أو قريبه فى سد الفراغ الذى تركته البحرية الرومية ، ربما لظروف جغرافية أكثر منها سياسية ، ومن ثم فقد أصبح الطريق البرى — عبر تهامة والحجاز — هو الطريق

---

(١) عباس محمود العقاد : مطلع النور — دار الهلال — القاهرة ١٩٦٨ ص ١٣٤ — ١٣٥ •

الوحيد المفتوح أمام التجارة ، وكان لابد — بعد زوال النشاط اليمنى — أن يوجد من يسد هذا الفراغ ، وأن يقوم بدور الوسيط المحايد بين المتنازعين لنقل التجارة ، وقد وجد هذا الوسيط ممثلا فى مكة المكرمة(٢)، التى حظيت منذ منتصف القرن الخامس الميلادى بمكانة ممتازة بين عرب الشمال ، فضلا عن طرفى الصراع الدولى — الفرس والروم — وقت ذاك ، وساعد على ذلك رغبة الفريقين المتنافسين فى وجود مثل هذا الوسيط المحايد من ناحية ، فضلا عن بعد مكة وصعوبة الوصول اليها ، من ناحية أخرى •

وهكذا كان موقع مكة الممتاز جغرافيا سببا فى أن يجعل من المدينة المقدسة عقدة تتجمع فيها القوافل ، التى ترد من العربية الجنوبية تريد الشام، أو القادمة من الشام تريد اليمن ، حتى اذا ما كان القرن السادس الميلادى ، نجح القرشيون فى احتكار التجارة فى بلاد العرب ، فضلا عن السيطرة على طريق القوافل التى تربط اليمن بالشام من ناحية، وبالعراق من ناحية أخرى(٣) ، وهكذا أصبحت مكة قريش مركز التجمع التجارى العالمى : واكتظت خزائنها بالذهب والفضة ، أو بتعبير التجاريين ، أصبحت مركزا للتسويق الذى تنساب منه السلع الى مراكز الاستهلاك، وهكذا تفوقت مكة فى التجارة ، وأثرى كثير من رجالاتها ، وتضخمت رؤوس أموالهم ، فكان منهم مترفون لهم مجالس سمر ، ولهم أرائك منصوبة ، وموائد ممدودة ، ونوادٍ للشراب يلهون فيها ويسكرون(٤) •

هذا وقد بلغت شهرة القرشيين فى التجارة ومهارتهم فيها ، الى أن يذهب البعض الى القول بأن «قريشا» انما سميت كذلك لاحترافها

---

(٢) أحمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول القاهرة ١٩٦٥ ص ١٥٤ ، وكذا

S. A. Huzayyin, Arabia and The Far East, Cairo, 1942, p. 142-143.

وكذا E. Gibbon. The Decline and Fall of The Roman Empire, London, 1950, p. 213.

(٣) W. M. Watt, Muhammad at Mecca, Oxford, 1953, p. 3.

(٤) انظر : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص٤١٦–٤٢٤

التجارة[٥] ، لان التقرش انما هو التجـارة والاكتساب[٦] ، والى أن تذكر رحلاتهم التجارية فى القرآن الكريم ، حيث يقول سبحانه وتعالى «لايلاف قريش ايلافهم[٧] رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هـذا

---

(٥) هناك أربعة آراء فى سبب تسمية القوم قريشا ، الاول : أنها من التقرش أى التجمع بعد التفرق ، اذ كانوا متفرقين فى غير الحرم ،فجمعهم «قصى بن كلاب» حتى اتخـذوه مسكنا لهم ، ومن ثم فقـد سمى قصى «مجمعا» ، وكانت اليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف قريش كله ، والثانى : أن قريشا من التقرش : والتقرش هو التكسب من التجارة ، اذ ترفعوا عن غارات السلب والنهب ، وكانوا يعيشـون من مكاسبهم ، على غير المألوف فى زمنهم ، والثالث : أنها من القرش بمعنى التفتيش ، لانهم كانوا يفتشون عن ذوى الخلة من الحجاج فيسدون خلتهم، أى حاجتهم ، والرابع : ما روى عن ابن عباس لما سئل : لم سميت قريش قريشا ، فقال : هو منقول من تصغير قرش ـ بفتح القاف والعامة تكسره ـ وهو دابة عظيمة فى البحر تعبث فى السفن فلا تطاق الا بالنار ، فشبهـوا بها ، لانها تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تعلى ، وصغر الاسم للتعظيم .

وعلى أية حال ، فلقد سميت قريش قريشا من اجل أحد هذه المعانى أو من أجلها جميعا ، وقريش هى القبيلة العربية ـ سليلة اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ـ التى كانت تقطن الحرم ، والتى أعطت سيدنا ومولانا محمـد رسول الله ﷺ ، شرف النسب ، فأعطاها ﷺ ، رفعة الذكر ، وبعد الصيت ، وهى أولاد النضر بن كنانة بن خزيمة ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشى ، وبرهان ذلك قوله ﷺ «أنا ولد النضر بن كنانة ، لا نقفـو أمنا ، ولا ننتفى من أبينـا» ، يعنى لا نترك النسب الى الاباء لننتسب الى الامهات (ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ـ بيروت ١٩٨٣ ص ١٢ ، نور الابصار فى مناقب آل بيت النبى المختار ص ٩ ، طبقات ابن سعد ٥٥/١ ، القلقشندى : نهاية الارب ـ بغداد ١٩٥٨ ص ٣٦٤، الباقورى: مع القرآن ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٠٥ ، أحمد عبد الرحمـن عيسى : من دلالات سورة قريش ـ الرياض ١٩٧٧ ص ٩٦ ـ ٩٧ ، الزبيرى : نسـب قريش ص ١٢) .

(٦) ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ٦٠/١ ، معجم ياقوت ٣٣٦/٤ ، الميدانى : مجمع الامثال ٧٢/٢ ، نهاية الارب للقلقشندى ص ٣٦٤ ، أحمد السباعى : تاريخ مكة ص ٥٩ ، أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١٣ ـ ١٤ ، البلاذرى ٥٩/١ ، وانظر تفسيرات أخرى : تفسير روح المعانى ٢٣٨/٣٠ـ ٢٣٩ ، تفسير الفخر الرازى ١٠٦/٣٢ ، ياقوت ٣٣٦ـ٣٣٧ .

(٧) الايلاف : يدور فى اللغة حول الانس وعدم الوحشة ، يقـول الامام الطبرسى : الايلاف ايجاب الالف بحسن التدبير والتلطف ، يقال : الف يألف الفا ، وآلفـه يؤلفه ايلافا ، اذا جعله يألف ، فالايلاف نقيض الايحاش ، ونظير الايلاف ، والف الشىء : لزومه على عادة فى سـكون

البيت ، الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف»[٨] ٠

هذا ويذهب بعض الباحثين الى أن هذا «الايلاف» انما بدأ حوالى عام ٥٠٠م ، وأن الذى بدأه انما هو «هاشم بن عبد مناف» ــ الجد الثانى للنبى ﷺ ، والذى نسب اليه بنو هاشم رهط النبى ، ﷺ ــ وهو فى السادسة والثلاثين من عمره ، ذلك أن قريشا انما كانوا تجارا ، وكانت تجارتهم لا تتجاوز مكة ، يقبل عليها الاعراب والاجانب بالسلع فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونها بينهم ، ويبيعونها لأبناء الجزيرة العربية ، وهكذا كان نشاطهم التجارى ، حتى سافر «هاشم بن عبد مناف» الى الشام ، وهناك كان يذبح كل يوم شاة ، ويبسط جفنة ثريد ، ويجمع من حوله فيأكلون ، ويروون أن هاشما كان من أجمل الناس خلقة ، وأتمهم جسما فذكر الناس ذلك لقيصر الروم ، وقيل له : هنا رجل من قريش يهشم

=

النفس اليه ، ومن معانى الايلاف اللغوية : أن يصير مادون الالف الفا ، الفت دنانير فلان ، تعنى أنها صارت ألفا ، وقد كانت دون ذلك ، ومن معانيها أن يبلغ عدد القبيلة الفا ، نقول لقينا أعداءنا مؤلفين فقهرناهم، ومن معانيها أن يكون المرء صاحب ألف من الابل والغنم او ما شاكل ذلك فيقول القائل : آلاف فلان ايلافا ، فهو مؤلف يعنى أنه صاحب ألف ٠

والايلاف فى الاية الكريمة تختلف فيه آراء أهل العلم بالقرآن،فالهروى يقول : الايلاف حبال أى عهود كانت بين قريش وملوك العجم ، فكان هاشم يؤالف الى ملك الشام ، وكان المطلب يؤالف الى كسرى ، وكان عبد شمس يؤالف الى ملك مصر ، وكان نوفل يؤالف الى ملك الحبشة ، وكان هؤلاء الاخوة ــ من ولد عبد مناف ــ يسمون «المجبرين» فكان تجار قريش يختلفون الى الامصار بحبل هؤلاء الاخوة ، فلا يتعرض لهم معترض ، ويقول الازهرى : الايلاف شبه الاجارة بالخفارة ، يقال : آلف يؤلف ، اذا أجار الحمائل بالخفارة ، والحمائل جمع حمولة ، وهى الابل التى تحمل ، وتاويل ذلك كله : أن قريشا كانوا سكان الحرم ، ولم يكن لهم زرع ولا ضرع ، وكانوا يميرون فى الشتاء والصيف آمنين ، والناس يتخطفون من حولهم ، فاذا عرض لهم عارض قالوا :نحن أهل حرم الله، فلا يتعرض الناس لهم (احمد حسن الباقورى : مع القرآن ص٣٠٠ـ٣٠٢)٠

(٨) سورة قريش : وانظر : تفسير القرطبى ٢٠٠/٢٠ ــ ٢٠٩ ، تفسير الفخر الرازى ١٠٣/٣٢ ــ ١١٠ ، تفسير البيضاوى ٥٧٧/٢،تفسير الطبرى ٣٠٥/٣٠ـ٣٠٩ ، تفسير روح المعانى ٢٣٨/٣٠ـ٢٤١ ، تفسير ابن كثير ٨٨١/٤ـ٨٨٢ ، صفوة التفاسير ٦٠٦/٣ـ٦٠٧ ، فى ظلال القرآن ٣٩٨٢/٦ـ٣٩٨٢ ، تفسير جزء عم للامام محمد عبده ص ١٢١ ــ ١٢٢ ٠

الخبز ثم يصب عليه المرق ؛ ويفرغ عليه اللحم . فدعاه قيصر اليه ، فلما رآه وكلمه أعجب به وأنس اليه ، وأخذ يبعث اليه ويحادثه ، فلما رأى هاشم أن نفسه تمكنت عند قيصر قال له : أيها الملك ان قومي تجـار العرب ، فان رأيت أن تكتب لى كتابا تؤمن به تجارتهم ، فيقدموا عليك بما يستظرف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندكم ، فهو أرخص عليكم، فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم ، ثم قفل هاشم راجعا بذلك الكتاب، وكلما مر بحي من العرب بطريق الشام ، أخذ من سادتهم ورؤسائهم ايلافا بأن تأمن قريش وهي مارة فى أرضهم بغير حلف ، وانما هو أمان طريق ، أن تحمل اليهم البضائع والسلع فى ديارهم بأثمانها ، ومازال كذلك على طول الطريق حتى قدم مكة ، فأتاهم بأعظم شيء بركة[9] ، على أن هناك من يرى أن ما يخلص لنا من سوابق الرحلات ، أن هاشما كان يحمى تلك الرحلات وينظمها ، فنسب اليه أنه أول من سن الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء والصيف[10] .

وأيا ما كان الامر ، فان «هاشم بن عبد مناف» (٤٦٤ — ٥١٠م) انما كان هو الذى عقد بنفسه مع الامبراطورية الرومانية ؛ ومع أمـير غسان ، معاهدة حسن جوار ومودة وأمان ، وحصـل من الامبراطور الرومانى على الاذن لقريش بأن تجوب الشام فى أمن وطمأنينة ، كما عقد عبد المطلب معاهدة تجارية مع الحميريين فى اليمن ، وعقـد نوفل حلفا مع فارس ، ولعل من التوافق العجيب أن يموت زعيمان من أصحاب الايلاف فى البلاد التى عقد معها الايلاف ، فلقد مات «هاشم» فى «غزة» عام ٥١٠م : كما مات عبد المطلب فى اليمن عام ٥٢٠م[11] ، وعلى أية

---

(٩) أحمد عبد الرحمن عيسى : المرجع السابق ص ١٠٢ .

(١٠) تاريخ الطبرى ٢٥١/٢ـ٢٥٢ ، ابن هشـام ١٤٥/١ـ١٤٦ ، صبح الاعشى ٣٥٨/١ ، بلوغ الارب ٢٨٤/٢ ، محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤١٠ـ٤١١ .

(٣) تاريخ اليعقوبى ٢٤٢/١ـ٢٤٣ ، تفسير الفخر الرازى ١٨٠/٣١، الثعالبى : ثمار القلوب ص ١١٥ـ١١٦ ، ذيل الامالى والنوادر ص ١٩٩ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤١١ ، أحمد عبد الرحمن عيسى: المرجع السابق ص ١١٣ .

حال ، فسواء أكان «هاشم» ــ وهو عمرو بن عبد مناف ــ[١٢] هو أول من سن الرحلتين ، رحلة الشتاء والصيف ، أو هــو أول من حمى تلك الرحلات ، فالذى لاشك فيه أنه هو الذى جمع كل بنى أب على رحلتين، رحلة فى الشتاء الى اليمن ، ورحلة فى الصيف الى الشام للتجارات : فما ربح الغنى قسمه هاشم بينه وبين الفقير ، حتى صار فقيرهم كغنيهم . فلما جاء الاسلام ، جاء وهم على هذه الحالة ، فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش ، وقــد كان سيدنا رسول الله ، ﷺ ، يعجبه أن يثنى المثنون على بنى عبد مناف بهذه الفضيلة التى عرفت فيهم ولهم ، وكان يصحح الامر للذين يخطئون فيه عن عمد أو عن جهل، روى سعيد بن جبير أن النبى ، ﷺ ، مر ذات يوم ، ومعه أبو بكر بمــلأ ، وهم ينشدون :

يا أيهــا الرجل المحــول رحله	هــلا نزلت بآل عبــد مناف
لو قد نزلت بهم تريد قراهم	منعوك من جهد ومن ايجــاف
الرائشون وليس يوجد رائش	والقــائلون هــلم للاضيــاف
والخــالطون غنيهم بفقيرهم	حتى يصــير فقــيرهم كالكافى
عمرو العلا هشم الثريد لقومه	قوم بمكة مسنتين عجاف[١٣]

هذا وقد كانت قريش تشترط فى رئيس القافلة (أو زعيم القــافلة أو زعيم السوق) أن تتوفــر فيه خصائص معينة تجعــله أهلا لها ، كالشجاعة وسعة الحيلة وسرعة التصرف فى المواقف الناجزة ، والخبرة التامة فى معرفة الطرق الرئيسية والبديلة عندما تتعرض القافلة لخطر يوجب انحرافها عن الطريق الرئيسى حماية للارواح ورؤوس الاموال والعير ، هذا الى جانب الشرط الرئيسى أو الاساسى ، وهو أن يكون من

(١٢) انظر عن سبب تسمية «عمرو عبد مناف» باسم «هاشم» (ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ١٣٦/١ ،الكامل لابن الاثير ١٦/١ ، العقاد : مطلع النور ص ١٤٤ ، تاريخ الطبرى ٢٥١/٢ــ٢٥٢ ، الباقورى : المرجع السابق ص ٣٠٧ ، تاريخ ابن خلدون ٣٣٦/٢ــ٣٣٧) .

(١٣) انظر : الباقورى : المرجع السابق ص ٣٠٧ ــ ٣٠٨ .

سادة القوم ومشهورا لدى سادات الاعراب فى الطريق : وقد تولى أصحاب الايلاف الاربعة أو الثلاثة رياسة القوافل ، كل فى جهة اختصاصه ، وان حدث أن أسندت قريش رئاسة القافلة فى بعض المرات الى رجال من غير قريش ، تتوافر فيهم خصائص القيادة .

وكان خروج القافلة من مكة عيدا دينيا وشعبيا ، ينتظم كل من فى مكة — سادة وسواهم — يبدأ رؤساء القافلة بالطواف حول الكعبة المشرفة ، ثم يجتمعون فى دار الندوة ، حيث الرأى والحكم والعهد فى مجتمع القوم ، ثم تبدأ مسيرة القافلة من دار الندوة ، فاذا مكة كلها عيد شعبى يخرج لتوديع القافلة محوطة بالآمال : وعند عودتها يستقبلونها بعيد آخر ، أشد فرحة وبهجة ، وقد تسامع بها العرب من أنحاء شبه الجزيرة فوفدوا اليها ليفرحوا مع أهل مكة ويقضوا مصالح لهم ، يتوجه حينئذ رؤساؤها الى الطواف حول الكعبة المشرفة تيمنا بالوصول رابحين، ثم يأخذون فى تصريف أرباح القافلة على أصحاب الاموال ، ويشيعون البر بين الناس ، ويغرقون أسواق مكة بالسلع الجديدة(١٤) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن قوافل مكة التجارية ، انما كانت أشبه بالحملات تكون بآلاف الابل ، التى يقوم على حمايتها جيش خاص دعوه «بالاحابيش» ، فكانت مكة أشبه ببنك كبير ، فلم تكن القوافل ملكا لشخص واحد ، وانما كانت هناك طريقة لجمع المال من عدة أسر معروفة ، كهاشم وأمية ومخزوم ونوفل(١٥) ، وقد أدى ذلك الى تضخم أموال قريش ، حتى بلغت قوافلهم التجارية ، التى كانت سببا فى غزوة بدر الكبرى : ألف بعير ، مضافا اليها خمسون ألف دينار منقولة بين أثقالهم ، بل ان رجلا واحدا هو «سعيد بن العاص» (أبو أحيحة) استطاع أن يسهم فى رأس مالها بثلاثين ألف دينار ، كما بلغت قوافلهم

---

(١٤) أحمد عبد الرحمن عيسى : المرجع السابق ص ١١٣ — ١١٥ .

(١٥) تاريخ الطبرى ٢/٤٢١—٤٢٢ ، تاريخ ابن خلدون ٢/١٧ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/٤٠ ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ١/٧٩ ، وكذا.

Essad Bey, la Vie de Mahomet, p. 42.

فى بعض المرات الفين وخمسمائة بعير ، وهى نسبة لها قيمتها المادية ، اذا قيست بالثروات فى عهدها ، هذا وقد بلغ ثراء قريش الى درجة أنها استطاعت فى غزوة بدر أن تفتدى أسراها من المكيين بأربعة آلاف درهم للرجل ، الى ألف درهم ، الا من عفا عنهم سيدنا رسول الله ، ﷺ ، من المعدمين[١٦] .

وعلى أى حال،فان ظروف مكة السياسية والاقتصادية والجغرافية[١٧] قد جعلت منها مدينة عربية لجميع العرب ، فلم تكن كسروية أو قيصرية، ولا تبعية أو نجاشية ، كما عساها أن تكون لو استقرت على مشارف الشام ، أو عند تخوم الجنوب ، ولهذا نمت لها الخصائص التى كانت لازمة لمن يقصدونها ، ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة ، لا على حكم القهر والاكراه[١٨] ، ومن هنا فقد أشرك أهل مكة سادات القبائل معهم فى الاتجار ، تأليفا لقلوبهم ، وحماية لتجارتهم وقوافلهم من التعرض للسلب والنهب — رغم ايلافهم للقبائل، وأنهم سدنة البيت الحرام — وكانوا يعطونهم نصيبهم من الارباح،وهو، دون شك ، عمل حكيم ، جعل سادات القبائل يفدون الى مكة ، ويعقدون العقود مع تجارهم للاتجار معهم ، وبذلك توسعت تجارة مكة ، وزادت رؤوس أموال قريش[١٩] .

---

(١٦) الواقدى : كتاب المغازى ١٢٨/١-١٤٤ (بيروت ١٩٨٤) ، احمد السباعى : تاريخ مكة ص ٣٦ — ٣٧ ، وكذا
P. K. Hitti, History of The Arabs, London, 1960, p. 104.

(١٧) ثبت اخيرا بالطرق العلمية أن مكة المكرمة انما تقع تماما فى وسط الكرة الارضية ، ففى الخامس عشر من يناير ١٩٧٧م ، أعلن الدكتور حسين كمال رئيس قسم الهندسة المدنية بجامعة عين شمس فى حديث نشر له فى جريدة الاهرام ، انه توصل الى ما يشبه النظرية الجغرافية التى تؤكد أن مكة المكرمة فى مركز اليابس من الكرة الارضية — أى مركز الارض — ولعلنا نفهم الان الحكمة الالهية من اختيار مكة المكرمة مقرا لبيت الله الحرام ، ومنطلقا للرسالة الخاتمة ، وهكذا كانت مكة المكرمة مكانا لمولد ومبعث النبى الخاتم سيدنا محمد ﷺ ، ومهبطا للوحى ، ونقطة انطلاق الاسلام الى العالم أجمع .

(١٨) العقاد : مطلع النور ص ١٣٥ .

(١٩) جواد على ٤٠٨/٧ .

هذا وقد عملت قريش على توفير الامن والامان فى منطقـة مكة ؛ وهو أمر ضرورى فى بيئة تغلى بالغارات وطلب الثأر ، حتى يكون البيت الحرام ملاذا للناس وأمنا ، وحتى يأمنوا على تجارتهم ، ولعل هـذا من أسباب حرص قريش على الحفاظ على حرمة الاشهر الحرم فى موسم الحج ، حتى يأمن الناس فيه على أنفسهم وأموالهم ، هذا فضـلا عن حركة إصلاحية هامة وخطيرة فى هذا المجال ، مؤداها : ألا يقر بمكة ظلما، سواء أكان من أهلها أم من سائر الناس ، فعقدت مع أهم بطونها ، ومع غيرها من القبائل الاخرى المجاورة حلفا عرف فى التاريخ باسـم «حلف الفضول» ، قبل المبعث بعشرين سنة ، وكان ، كما يقول الامام السهيلى فى روضه الانف ، أكرم حلف سمع به الناس وأشرفه ، وكان أول من تكلم به ودعا اليه «الزبير بن عبد المطلب» — عم النبى ﷺ — وكان سببه أن رجلا من «زبيد» قدم مكة ببضاعة ؛ واشتراها منه العاصى بن وائل ، وكان رجلا مماطلا سمجا ، فحبس عن الزبيدى حقه ، فاستعدى عليه بالاحلاف — عبد الدار ومخزوما وجمحا وسهما وعدى بن كعب — فأبوا أن يعينوه على العاصى بن وائل ، وزبروه زبرا شديدا ، فعـلا الزبيدى جبل أبى قبيس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فنـادى بشعر يصف فيه ظلامته . فمشى فى ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقـال : ما لهذا متروك ؛ ومن ثم فقد اجتمع فى دار «عبد الله بن جدعان» ، بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تميم ، وتعاهدوا على : ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ، ولا حر ولا عبد ، والا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم ، وعمدوا الى ماء زمزم فجعلوه فى جفنة ، وبعثوا به الى البيت الحرام ؛ فغسلت به أركانه وشربوه ، ومن عجب أن الامويين وبنى عبد شمس قد أبوا على أحد منهم أن يدخل فى هذا الحلف . وقد روى عن سيدنا ومولانا رسول الله ، ﷺ ، أنه قال «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمـر النعم ، ولو دعيت اليه فى الاسلام لأجبت» ؛ وهكذا تحالف القوم على أن ترد الفضول الى أهلها ، وألا يعز «يقهر» ظالم بمكة مظلوما ؛ ثم

مشى المحالفون الى العـاصى بن وائل ، فانتزعوا منه سلعـة الزبيدى ودفعوها اليه[٣٠] •

هذا وقد أسدت قريش ضيفة الحجيج الى الأغنياء من رجالاتها ، لان قدوم الحاج من أماكن بعيدة من شبه الجزيرة العربية ، يصعب معه حمل الزاد ، ومن ثم فقد كانت « الرفـادة » تكلف أصحابها الكثير من أموالهم ، بجانب ما تقدمه قريش لهم ، الا أن هذا الامر فى الوقت نفسه قد أفاد قريشا كثيرا ، فقد كانت المؤاكلة فى نظر العرب ، انما هى عقد حلف جوار ، فضلا عن أن الضيافة فى ذاتها من أكبر ما يحمـد الرجل عليه ، وهكذا كانت قريش بعملها هذا ، وكأنها تعقد حلفا مع كل القبائل العربية ، تحمى به تجارتها ، وتسبغ على رجالاتها نوعا من التقـدير والاحترام عند العرب لا يتوفـر لغيرهم ، الامر الذى أفـادهم كثيرا مكانة وتجارة[٣١] •

وهكذا اتسعت تجارة قريش فى أسواق العرب الموسمية بالداخل ، عن تجارتها الخارجية ، ولعل من أشهر أسواقهم فى الداخل : سوق دومة الجندل (الجوف الحالية) ، وكان التجار يفدون اليها من أنحـاء نجد والحجاز وبلاد الشام ، وسوق حباشة فى تهامة ، وسوق بدر ، وكانت موسما عاما من مواسم العرب تقام كل عام للتجارة ؛ وسوق بنى قينقاع فى يثرب (المدينة المنورة) حيث تتركز الجالية اليهودية ، وسوق الرابية فى حضرموت ، وسوق صحار فى عمان ، وهى سوق دولية فى العـالم القديم ، على أن أهم أسواق قريش ــ بعد مكة ــ انما كانت أسـواق عكاظ ومجنة وذى المجاز ، وقد رتب العرب لها مواعيد تنتهى بهم الى

---

(٣٠) ابن هشام ١/١٤٣ـ١٤٥ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٢٩٤،ابن كثير : البداية والنهاية ٢/٢٩١ـ٢٩٣ ، الكامل لابن الاثير ٢/٤١ـ٤٢ ، السيرة الحلبية ١/١٥٧ ، السهيلى : الروض الانف ١/٩١ ، ثمار القلوب للثعالبى ص ١٤١ ، العقاد : مطلع النور ص ١٤٠ ، تاريخ اليعقوبى ٢/ ١٧ـ١٨ ، الباقورى : مع القرآن ص ٣١٠ـ٣١٢ ، ابن حبيب : المحبر ص ١٦٧ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ •

(٣١) ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ١/١٤٥ ، ابن سعد : الطبقـات الكبرى ١/٥٨ •

الحج ، يقيمون «عكاظ» من أول القعدة الى أن يوافيهم العشرون منه ؛ فينتقلون الى «مجنة» حتى يتم شهر القعدة ؛ فاذا أهل الحجة توافوا على «ذى المجاز» الى يوم «التروية» وهو ثامن الحجة ، حيث يخرجون منها الى «عرفة» ، وهنا تتوقف تجارتهم تقديسا لايام الحج فى عرفة ومنى ، ومازالوا على تحرجهم هذا حتى جاء الاسلام ؛ فأباح لهم التجارة فى الحج[٢٢] بنزول الآية الكريمة «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم»[٢٣] .

روى الامام البخارى عن ابن عباس أنه قال : كنت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا فى الجاهلية فتأثموا أن يتجروا فى الموسم ، فنزلت «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم» فى مواسم الحج ؛ وهكذا رواه سعيد بن منصور وعبد الرازق وغير واحد عن سفيان بن عيينة ؛ وروى أبو داود وغيره عن مجاهد عن ابن عباس قال : كانوا يتقون البيوع والتجارة فى الموسم والحج ، يقولون أيام ذكر ، فأنزل الله «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم» ، وقال عبد الرازق : أخبرنا التورى عن العلاء بن المسيب عن رجل من بنى تميم قال : جاء رجل الى عبد الله بن عمر فقال : انا قوم نكرى ويزعمون أنه ليس لنا حج ، قال : ألستم تحرمون كما يحرمون وتطوفون كما يطوفون وترمون كما يرمون ؟ قال بلى ، قال فأنت حاج ؛ ثم قال ابن عمر : جاء رجل الى النبى ، ﷺ ، فسأله عما سألت عنه ؛ فنزلت هذه الآية «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم» ؛ ورواه عبد بن حميد عن عبد الرازق به ، وهكذا روى هذا الحديث أبو حذيفة عن الثورى مرفوعا[٢٤] .

---

(٢٢) أحمد عبد الرحمن عيسى : المرجع السابق ص ١١٦ .

(٢٣) سورة البقرة : آية ١٩٨ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٣٥٩/١ ـ ٣٦١ ، تفسير الطبرى ١٦٢/٤ـ١٦٩ ، صفوة التفاسير ١٢٩/١ـ١٣٠ ، تفسير القرطبى ص ٧٨٦ ، تفسير المنار ١٨٤/٢ ـ ١٨٦ ، تفسير النسفى ١٠١/١ ـ ١٠٢ ، فى ظلال القرآن ١٩٧/١ ـ ١٩٨ .

(٢٤) انظر : تفسير ابن كثير ٣٥٩/١ ـ ٣٦٠ ، ثم انظر روايات مختلفة فى بقية كتب التفسير الانفة الذكر .

الباب الثالث

الحيـــاة الدينيـة

الفصل الأول

دراسات تمهيدية

أولا ـ التدين :

يذهب علماء مقارنة الاديان الى أن الانسان كائن متدين بفطرته ، وأن قصة طفولة الانسانية ، انما هى قصة مثيرة ، ومليئة بالمخاوف وبالمثولوجيا التى من أخص مميزاتها دخول الاساطير الدينية فى تفسير العلاقة التى تربط الانسان بالوجود،وتعليل ما يجرى فيه من ظواهر[1]، بل ان تقييم المشاعر الانسانية ، فيما يرى تولستون ، انما تقوم على الاديان وحدها ، وأن التصور الدينى هو الذى يقرر المشاعر التى يعبر عنها[2] .

ولئن كان للتقدم البشرى الذى حققه العلم فى شتى المجالات ، شأن الإعتداد بالنفس والثقة فيها ، فقد بينت التجربة أن الحقيقة التى يكتشفها العقل المحض ، ليس لها من القدرة ما للدين ، على اشعال جذوة الايمان الصادق[3] ، وهذا هو السبب فى أن التفكير المجرد لم يؤثر فى النفس الا قليلا ، فى حين أن الدين استطاع أن يغير مجرى الحياة ، كما استطاع أن ينهض بالافراد ، ويبدل الجماعات ، ويغيرهم من حال الى حال[4] .

---

(١) التهامى نقرة : سيكولوجية القصة فى القرآن ـ تونس ١٩٧٤ ص ٦ .
(٢) مجلة كلية الاداب ـ العدد ١١ عام ١٩٥٤ ص ٤١ .
(٣) التهامى نقرة : المرجع السابق ص ٩ .
(٤) محمد اقبال : تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، ترجمة عباس محمود ـ القاهرة ١٩٥٥ ص ٢٠٧ .

ولكن : ماهو الدين ؟

ان الدين فى اللغة انما هو الجزاء ، وهو الله ، وهو الخضوع والطاعة ، وهو العبادة والورع ، وهو الحساب ، والقهر ، والغلبة والاستعلاء ، والسلطان والملك والحكم ، والسيرة والتدبير ، والتوحيد ، وهو اسم لجميع ما يتعبد به لله عز وجل(٥) .

والكلمة — أى الدين — تؤخذ تارة من فعل متعد بنفسه : «دان بدينه» ، وتارة من فعل متعد باللام «دان به» ، وباختلاف الاشتقاق تختلف الصورة المعنوية التى تعطيها الصيغة .

فاذا قلنا «دان دينا» عنينا بذلك أنه ملكه وحكمه وساسه ، ودبره وحاسبه وقضى فى شأنه ، وجازاه وكافأة ، فالدين فى هذا الاستعمال يدور على معنى الملك والتصرف ، بما هو من شأن الملوك من السياسة والتدبير ، والحكم والقهر ، والمحاسبة والمجازاة ، ومن ذلك «مالك يوم الدين» أى يوم المحاسبة والجزاء ، وفى الحديث «الكيس من دان نفسه» ، أى حلمها وضبطها ، والديان : الحكم القاضى .

واذا قلنا «دان له» ، أردنا أنه أطاعه وخضع له ، فالدين هنا هو الخضوع والطاعة ، والعبادة والورع ، وكلمة «الدين لله» يصح أن يفهم منها كلا المعنيين ، الحكم لله ، والخضوع لله .

واذا قلنا «دان بالشيء» ، كان معناه أنه اتخذه دينا ومذهبا ، أى اعتقده أو اعتاده ، أو تخلق به ، فالدين على هذا ، هو المذهب والطريقة التى يسير عليها المرء نظريا أو عمليا ، فالمذهب العملى لكل امرىء هو : عاداته وسيرته ، كما يقال «هذا دينى وديدنى» ، والمذهب النظرى عنده

---

(٥) الفيروز ابادى : القاموس المحيط — القاهرة ١٩٥٢ — الجزء الرابع ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٥٥/١ ، ٢٢١ ، ٣/ ٥٧٠—٥٧١ ، ٢٧٣/٦—٢٧٤ (دار المعارف بمصر) ، تفسير المنار ٢١١/٣—٢١٢ (القاهرة ١٩٧٣) تفسير القرطبى ص ١٢٨٥ (دار الشعب — القاهرة ١٩٧٠) ، محمود أبورية : دين الله واحد على السنة جميع الرسل — القاهرة ١٩٧٠ ص ١٤ .

هو : عقيدته ورأيه الذى يعتنقه ، ومن ذلك قولهم «دينت الرجل» ، أى وكلته الى دينه ، ولم اعترض عليه فيما يراه سائغا فى اعتقاده[٦] .

والدين ــ فى نظر الاسلاميين ــ «وضع الهى لذوى العقول السليمة باختيارهم الى الصلاح فى الحال والفلاح وآلمآل» ، ويمكن تلخيص ذلك بأن الدين : «وضع الهى يرشد الى الحق فى الاعتقادات ، والى الخير فى السلوك والمعاملات»[٧] .

وأما علماء الغرب : فقد ذهبوا فى تعريفهم للدين مذاهب شتى ، فمنهم من ذهب الى أنه الاعتقاد المسيطر على ذهن الانسان من أن هناك قوى تحيط بالانسان وتؤثر فيه . ومع أن الانسان لم ير هذه القوى : الا أنه كان يعتقد فى وجودها ، وكون فى مخيلته صورا لها ، وأخذ يعطى منها شكلا معينا ، واسما خاصا : بل أخذ يتمثلها على طريقته الخاصة ، فجعل من بعضها أصدقاء أوفياء ، ومن البعض الاخر أعداء الداء ، فهو لا يعرف أشكالها ولا أماكنها ، وأخذ يتصور الاشياء التى تدخل السرور الى نفسها : كما عرف ما يثيرها ، وبالفعل بذل جهودا لكى يرتب أعماله على هذه النتائج[٨] .

ومن العلماء الغربيين من ذهب الى تصوير الدين بأرقى صورة عرفتها الفلسفة ، وأبعد صورة عن الخطور ببال العامة من المتدينين ــ كما فعل «روبرت سبنسر» ــ حين ذهب الى أن العنصر الاصيل فى الدين : انما هو الايمان بقوة لا يمكن تصور نهاياتها الزمانية والمكانية .

وذهب فريق من علماء الاجتماع والاثار ــ من أمثال ايميل دوركايم وسالومون ريناك ــ الى حذف فكرة «الاله الخالق اللانهائى الذى لايحيط به التصور» من التعريف الجامع للاديان ، بل يذهب هذا الفريق الى

---

(٦) محمد عبد الله دراز : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الاديان ــ القاهرة ١٩٦٩ ص ٢٥ ــ ٢٦ .
(٧) نفس المرجع السابق ص ٢٧ ــ ٢٨ .
(٨) ادولف ارمان : ديانة مصر القديمة ــ ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد انور شكرى ــ القاهرة ١٩٥٢ ص ٤ .

وجود أبعاد أصل فكرة الالوهية بكل معانيها ، من هذا التعريف،محتجين بأن فى الشرق أديان مثل «البوذية» و «الجاينية» و «الكونفوشيوسية»، تقوم على أساس أخلاقى بحت ، خــال من تأليه كائن ما ، وأن الذين يؤلهون «بوذا»و «جينا» مثلا ، انما هم مبتدعون ، خارجون عن أصل دينهم الحقيقى القديم •

وفى الواقع أن هذا التفسير انما يكون نابيا عن مفهوم الناس،مجافيا لذوق اللغات ، ولاسيما لغتنا العربية ، التى لا تفهم من اسم الدين الا الاعتقاد بشىء يدين له المرء ، ويخضع له ، ويتوجه اليه بالرغبة والرهبة والتقديس ، بل اننا لا نبــالغ اذا قلنا : أن كل مذهب يخلو من هــذه «الدينونة» هو أحق باسم «الفلسفة الجافة» منه باسم آخر ، وأكبر الظن أن الديانات المذكورة آنفا (البوذية والجاينية والكونفوشيوسية) ما استحقت أن تدرج فى جدول الاديان ، الا منذ دخلتها فكرة التأليه ، أو على اعتبار أنها كانت كذلك أبدا[٩] •

ويستطرد الدكتور محمد عبد الله دراز ــ طيب الله ثراه ــ فيذهب الى أن الدين هو : «الاعتقاد بوجود ذات ــ أو ذوات ــ غيبية ، علوية، لها شعور واختيــار ، ولها تصرف وتدبير للشئون التى تعنى الانسان ، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجــاة تلك الذوات السامية فى رغبة ورهبة ، وفى خضوع وتمجيد» ، وبعبارة موجزة هــو «الايمان بذات الهية ، جديرة بالطاعة والعبادة» ، هذا اذا نظرنا الى الدين من حيث هو حالة نفسية بمعنى التدين •

وأما اذا نظرنا اليه : من حيث هو حقيقة خارجــة ؛ فهو «جمــلة النواميس النظرية التى تحدد صفات تلك القوة الالهية ، وجملة القواعد العملية التى ترسم طريق عبادتها»[١٠] •

---

(٩) محمد عبد الله دراز : المرجع السابق ص ٣٣ ــ ٣٥ •
(١٠) نفس المرجع السابق ص ٤٩ ــ ٥٠ •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن «الدين»(١١) فى نظر بعض الاتجاهات السابقة ، انما هو محصور فى نطاق الاديان المستندة الى الوحى السماوى ، وهى التى تتخذ معبودا واحدا ، هو الله الواحد الاحد الخالق المهيمن على كل شيء ، فالديانة الطبيعية المستندة الى محض العقل ، والديانات الخرافية التى هى وليدة الخيالات والاوهام ، وكل ديانة تقوم هى — أو جانب منها — على عبادة التماثيل أو عبادة الحيوان أو النبات أو الكواكب أو الجن أو الملائكة ... الخ ، تخرج بمقتضى بعض هذه التوجيهات عن أن تكون دينا ، مع أن القرآن الكريم قد سماها كذلك(١٢) ، حيث يقول سبحانه وتعالى «ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين»(١٣) .

هذا فضلا عن ان القرآن الكريم انما يسمى معتقدات الاخرين دينا، حتى ان كان هذا الدين هو الكفر ذاته(١٤) ؛ وذلك حيث يقول ؛ عز من

---

(١١) يقول صاحب الظلال : ان طبيعة — أى دين — أن يتضمن تنظيما لحياة الناس بالتشريع ، والا يقتصر على الجانب التهذيبى الاخلاقى وحده ، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها ، ولا على العبادات والشعائر وحدها كذلك ، فهو لا يكون دينا ، فما الدين الا منهج الحياة الذى اراده الله للبشر ، ونظام الحياة الذى يربط حياة الناس بمنهج الله ، ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الايمانية ، عن الشعائر التعبدية ، عن القيم الخلقية ، عن الشرائع التنظيمية ، فى أى دين يريد أن يصرف حياة الناس وفق المنهج الالهى ، وأى انفصال لهذه المقومات يبطل عمل الدين فى النفوس وفى الحياة ، ويخالف مفهوم الدين وطبيعته ، كما أراده الله (فى ظلال القرآن ١/٤٠٠ — بيروت ١٩٨١) .

(١٢) محمد عبد الله دراز : المرجع السابق ص ٣٢ .

(١٣) سورة آل عمران : آية ٨٥ ، وانظر : تفسير ابن كثير ١/٥٦٧، تفسير الطبرى ٦/٥٧٠ـ٥٧٢ ، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ٢/٤٠ (طهران ١٣٧٧ هـ) تفسير الطبرسى ٣/١٣٣ـ١٣٤ ، تفسير الكشاف ١/٤٤٣ ، تفسير القاسمى ٤/٨٧٨ ، تفسير الفخر الرازى ٨/١٣٢ ، تفسير أبى السعود ١/٥٠٩ ، تفسير القرطبى ص ١٣٧٠ — ١٣٧١ ، تفسير النسفى ١/١٦٨ ، فى ظلال القرآن ١/٣٩٩ـ٤٠٠ .

(١٤) عبده الراجحى : الشخصية الاسرائيلية — الاسكندرية ١٩٦٨ ص ١٧ — ١٨ .

قال «لكم دينكم ولى دين»[١٥] ، وقـال الامام البخارى : يقال « لكم دينكم» الكفر ، «ولى دين» الاسلام[١٦] ٠

وعلى أية حال ؛ فليس هناك من ريب فى أن دراسة أديان العرب فى عصور ما قبل الاسلام[١٧] أمر جد هام : بالنسبة الى التاريخ العـربى القديم ، فضلا عن الدين الاسلامى الحنيف ، ذلك أننا نستطيع عن طريق هذه الدراسة أن نتعرف ــ الى حد ما ــ عقلية هؤلاء الذين نزل الوحى بين ظهرانيهم : فضلا عن معرفة تفكيرهم ونظرتهم الى الخالق ــ جل وعلا ــ والى الكون ، والى غـير ذلك من معتقدات دينية ، كان القوم يؤمنون بها ، بدرجة أو بأخـرى ، ومن ثم نستطيع أن نتفهم رسـالة الاسلام العظيم ، والدور الذى قام به هؤلاء القوم ، فهما صحيحا ٠

هذا فضلا عن أن دراسة الدين العربى القديم قـد تعيننا الى حد كبير على فهم أمور جاءت بها توراة يهود ؛ أو أناجيل النصارى؛ذلك لان بعضا من العرب كان قد اعتنق اليهودية أو النصرانية ، هـذا الى أن العرب انما كانوا ــ فى موطن العروبة الاول ــ على صلات بتلك الارضين، التى أنزلت فيها التوراة من قبل ؛ والانجيل من بعد ، فضـلا عن تلك

---

(١٥) سورة الكافرون : آية ٦ ، وانظر تفسير ابن كثير ٨٩٤/٤ ، تفسير القرطبى ص ٧٣١٩ ، فى ظلال القرآن ٣٩٩٢/٦ ــ ٣٩٩٣ ، محمد عبده : تفسير جزء عم ــ القاهرة ١٩٥٧ ص ١٢٩ ٠

(١٦) صحيح البخارى ٢٢٠/٦ (القاهرة ١٣٧٨ هـ) ٠

(١٧) الاسلام ــ فى لغة القرآن العظيم ــ ليس اسما لدين خـاص ، وانما هو اسم للدين المشترك الذى هتف به كل الانبياء ، وانتسب اليه كل اتباع الانبياء ، ومن ثم كان الاسلام شعار عام يدور فى القرآن على السنة الانبياء وأتباعهم ، منذ أقدم العصور التاريخية وحتى البعثة المحمدية ، وقد أخبر القرآن الكريم أن كل الانبياء وأتباعهم انما كان دينهم الاسلام (أنظر : سورة البقرة : آية ١٣٢ ــ ١٣٣ ، آل عمران : آية ٥١ ــ ٥٣ ، ٦٤ــ٦٧ ، المائدة : آية ١١١ ، الاعراف : آية ١٢٦ ، يونس : آية ٧٢، ٨٤، يوسف : آية ١٠١ ، الانبياء : آية ٩٢ ، النمل : آية ٤٤ ، القصص : آية ٦٣ ، الشورى : آية ١٣ ، وانظر : محمد الراوى : الدعوة الاسلامية دعوة عالمية ص ٥١ ، محمود الشرقاوى ، الانبياء فى القرآن الكريم ص ٧٥ــ٧٦، محمد عبد الله دراز : المرجع السابق ص ١٨٣ ، محمود أبو رية : المرجع السابق ص ٦٠ ــ ٦٧) ٠

الصلة المباشرة بين تلك الديانات ، وبين من سكنوا مصر والشام والعراق، من عرب ، والذين كانوا قد هاجروا من موطن العروبة الاول الى تلك البقاع المتاخمة للجزيرة العربية في فترات تتفاوت فيما بين الالف الرابعة والثانية قبل الميلاد ، بل ان هناك ما يشير الى هجرات عربية الى أرض الكنانة ، على أيام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه وأرضاه (١٣ — ٢٣ هـ = ٦٣٤ — ٦٤٤م) ، قامت به قبائل عربية مسيحية من غسان ولخم وعاملة ، قبل فتح مصر ، وقبل فتح الشام ، وقد منح «هرقل» (٦١٠ — ٦٤١م) المهاجرين اقطاعية «تانيس» (صان الحجر ، بمركز فاقوس ، بمحافظة الشرقية) وقد انضمت هذه القبائل العربية المسيحية الى النجدة التى أرسلها الخليفة ، بقيادة «الزبير بن العوام» لمساعدة «عمرو بن العاص» فى فتح مصر[١٨] .

ثم ان الدين العربى القديم ، انما يمثل حلقة من حلقات الاديان التى انتشرت فى منطقتنا العربية ، وخاصة فى الشام والعراق ، وسوف نرى — من خلال هذه الدراسة — أن هناك معبودات عبدت فى بلاد العرب وهى فى الاصل منقولة اما من بلاد الرافدين أو من ديانات الكنعانيين والاراميين والاموريين وغيرهم ، بل ان الدراسة تثبت — كما سوف نرى — أن هناك صلة بين «يهوه» معبود بنى اسرائيل وبين الديانة العربية القديمة[١٩] .

---

(١٨) أنظر : المقريزى : البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب ـ القاهرة ١٩٦١ ص ٩٠-٩١ ، احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية فى مصر ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٢-١٣ ، مصطفى الشريف : عروبة مصر من قبائلها ـ القاهرة ١٩٦٥ ص ٢٣ .

(١٩) أنظر عن العلاقة بين الدين اليهودى والدين العربى القديم (ديتلف نلسن وآخرون : التاريخ العربى القديم ـ ترجمه وزاد عليه فؤاد حسنين ـ القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٣٣ — ٢٤٠ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ـ الكتاب الرابع ـ الاسكندرية ١٩٧٩ ص ٢١ ـ ٢٥ ، وكذا
A. J. Jaussen et R. Savignac, Mission Archeologique en Arabie II, Paris, 1911, p. 250-291.
وكذا D. S. Margoliouth, The Relations between Arabs and Israelites Prior to The Rise of Islam, London, 1924, p. 8, 10, 12, 23, 25.

هذا فضلا عن أن هناك ما يشير الى تأثيرات عربية فى الديانة المصرية القديمة : ذلك لان هناك من الادلة ، كما سوف نرى — ما يشير الى أن المعبود المصرى «حور» انما كان أصله من بلاد العرب ، كما أن هناك من يذهب الى أن المعبود «مين» انما كان كذلك من بلاد العرب[٢٠] .

وهكذا يبدو واضحا أن الديانة العربية القديمة قد أثرت ، كما أنها قد تأثرت ، بغيرها ، وانها كانت قوية التأثير على معتنقيها ، حتى أن هناك فريقا من الباحثين إنما يرجــع بأسباب «وأد البنات» الى عوامل اقتصادية واجتماعية . بينما يرجعها فريق آخر الى عــوامل دينية فى الدرجة الاولى ، كاظهار الشكر للاله (الله) على نعمه ، ويذهبون الى أن ذلك انما كان أثرا من تقاليد وشعائر دينية كانت معروفة ، بغية التقرب الى الآلهة[٢١] .

على أن هناك من يفسر هذا السبب الدينى تفسيرا مختلفا ، ويذهب الى أن «وأد البنات» ، دون الذكور ، انما يرجع الى اعتقاد القوم أن البنات رجس من خلق الشيطان — وربما من خــلق اله غير آلهتهم — فتخلصوا منهن ، وهذا النوع من الوأد . انما يختلف عن الوأد الذى سببه الفقر : كما أنه كان مقصورا على البنات ، دون البنين[٢٢] .

ويذهب الامام القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى «ويجعلون لله البنات سبحانه ، ولهم ما يشتهون ، واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا ،

---

(٢٠) انظر : محمد بيومى مهران : العرب وعــلاقاتهم الدولية فى العصور القــديمة — الرياض ١٩٧٦ ص ٢٩٩ — ٣٠٧ ، الحضارة المصرية القديمة — الاسكندرية ١٩٨٤ ص ٢٧٤ — ٢٧٦ ، ص ٣١٨ — ٣١٩ .

(٢١) على الهاشمى : المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ، السيد عبد العزيز سالم : دراسات فى تاريخ العرب — عصر ما قبل الاسلام — الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٦١٧ .

(٢٢) عــلى عبد الواحد وافى : الاسرة فى المجتمع — القاهرة ص ص ١١٩ — ١٢٣ ، أحمد محمد الحوفى : المرأة فى الشعــر الجاهلى — القاهرة ١٩٥٤ ص ٢٣٦ .

وهو كظيم»[٢٣] ؛ يذهب الى أنها نزلت في «خزاعة» فانهم زعموا أن الملائكة بنات الله ، ومن ثم فقد كانوا يقولون : الحقوا البنات بالبنات ، فنسب سبب الوأد عندهم الى عقيدتهم هذه[٢٤] .

ويرى الدكتور جـواد على أن الوأد بسبب دافع دينى ، يحمـل الجاهليين على قتل الاولاد ، ليس بالامر الغريب ، وربما كان من بقايا الشعائر الدينية القديمة ، كتقديم الضحايا البشرية للالهة لخير المجتمع وسلامته ، ذلك لان ارضاء الآلهة انما كان من الشعائر الدينية المعروفة، على أن الغريب من الامر أن الوأد يكون بالدفن ، بينما العادة فى الضحايا التى تقدم للالهة تكون بالذبح أو الطعن أو غيره ، مما يجعل الدم يسيل من الضحية ، ذلك لان الدم بالذات انما هو الغـاية من كل أضحية . والجزء المهم من الضحايا التى تقدم للالهة[٢٥] .

وعلى أى حال ، فالوأد لا يعدو أن يكون نوعا من القتل ، وأن ذبح الاولاد وتقديمهم قرابين للالهة . انما كانت عبادة معروفة عنـد آمم أخرى[٢٦] ؛ كانت تمارسها ، لترضى بذلك الآلهة وتجيب مطالبها[٢٧] .

تانيا ـ صعوبة التاريخ للدين العربى القديم

لعل من الافضل هنا ـ وقبل دراستنا للدين العربى القديم ـ أن نشير الى الصعوبات التى يلاقيها الباحث فى التأريخ لاديان العرب قبل

---

(٢٣) سورة النحل : آية ٥٧ ـ ٥٨ ، وانظر : تفسـير ابن كثير ٢/ ٨٨٨ ، تفسير النسفى ٢/٢٨٩ـ٢٩٠ ، صفوة التفاسير ٢/١٣١ ، فى ظلال القرآن ٤/٢١٧٧ـ٢١٧٨ .

(٢٤) تفسير القرطبى ص ٣٧٣٢ ، وانظر : تفسير الخازن ٣/١١٩ .

(٢٥) جواد على : المفصل فى تاريخ العـرب قبل الاسلام ـ بيروت ١٩٧٠ ـ الجزء الخامس ص ٩٧ ـ ٩٨ .

(٢٦) أنظر : عن التضحية البشرية فى الشرق الادنى القديم (محمد بيومى مهران) : اسرائيل ـ الكتاب الاول ـ الاسكندرية ١٩٧٨ ص ١٦٢ـ ١٧٤) .

(٢٧) W. R. Smith, Lectures on The Religion of The Semites, London, 1927, p. 370.

وكذا J. Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, II, p. 383.

الاسلام والتى من أهمها (أولا) أن المعلومات غير متوفرة ، والمراجع الاسلامية تكاد لاتقدم لنا شيئا ذا قيمة : فيما يتصل بدين العرب فى بلاد العرب الجنوبية لدرجة أن «الموقاة» (المقة) ، اله سبأ الرئيسى ، لم تعرفه المراجع الاسلامية ، ولو اسما ، رغم انه ظل طوال نحو ألف عام ، كأكبر اله عرفته بلاد العرب الجنوبية ، وكانت معابده أكثر ما عرفت الجزيرة العربية من معابد ، كما أن اسمه قد جاء أكثر من ألف مرة فى النقوش العربية الجنوبية ، والامر كذلك بالنسبة الى المعبود « عثتر » الذى تجهله المصادر الاسلامية كذلك[٢٨] ٠

ومنها (ثانيا) أن معظم أسماء المعبودات الوثنية التى نصادفها فى المراجع الاسلامية عربية شمالية ، ذلك لان مؤرخى الاديان من المسلمين، لم يفرقوا كثيرا فى كتاباتهم بين الآلهــة الاجنبية التى دخلت عبادتها البلاد قبل ظهور الاســلام ، وانتشرت فى شمال بلاد العــرب ، حتى مكة المكرمة ٠

ومنها (ثالثــا) أن النقوش التى وجــدت فى الحبشة ، وفى جنوب وشمال بلاد العرب ، تكاد تكون عديمة الفائدة من النــاحية الدينية ، والامر كذلك بالنسبة الى المعلومات التى تركها لنا الكتاب القدامى من اليونان واللاتين ، ذلك لان بلاد العرب الحقيقية أو الداخلية ، كانت من بلاد العالم غير المعروفة لهم[٢٩] ، أو على الاقل كانت معلوماتهم عنها مضطربة ، ومن باب أولى أن يكون ذلك بالنسبة الى الدين نفسه ٠

ومنها (رابعا) أن القرآن الكريم ــ وهو أعظم المصادر وأصدقها قاطبة ــ شاءت ارادة الله ، ألا يقدم عن الدين العربى القديم ، غــير ما أشار اليه من عبــادة الشمس فى دولة سبأ ، على أيام ملكتهم التى عاصرت سليمان عليه السلام[٣٠] ، فضلا عن الآلهة التى عبدت منذ أيام

---

(٢٨) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ١٧٧ ٠
(٢٩) نفس المرجع السابق ص ١٧٧ ــ ١٧٨ ٠
(٣٠) أنظر : سورة النمل : آية ٢٢ ــ ٤٤ ، وانظر : تفسير الطبرى

نوح عليه السلام وظلت تعبد فى الجاهليات بعد ذلك الى عهد الرسالة المحمدية . وهى «ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا»[٣١] .

ومنها (خامسا) أن أسماء الاعلام المكونة من أسماء الآلهة — رغم أنها مصادر هامة — الا أنها قد ترجع فى مدلولها الى عصور قديمة ؛ أعنى أقدم من المسميات ، وذلك لان الاسماء عادة تحمل طابع الرجعية، فالمسمى قد يتخذ اسما كان مشهورا معروفا من قبل[٣٢] .

ومنها (سادسا) أن الآلهة التى عرفناها عن طريق أسماء الاعلام ، عرفناها أيضا عن طريق الادب العربى القديم ؛ فأقدم مصادر جاهلية هى الشعر العربى الجاهلى[٣٣] (القرنان السادس والسابع الميلادى) ؛ لكن حتى هذا الشعر ؛ فهو شعر دنيوى ؛ لم يتعرض كثيرا للناحية الدينية ، وان كان قد عرض فى كثير من الحالات لاسماء بعض الآلهة ؛ اما جهلا ، واما هيبة ؛ كما أنه من الجائز كذلك أن بعض هذه الاسماء قد استعيض عنها بلفظ الجلالة (الله)[٣٤] .

ومنها (سابعا) أن رواة الشعر فى الاسلام قد أغفلوا أمر الشعر الجاهلى الذى مجد الاصنام والوثنية وأهملوه ؛ وأن بعضا منهم قد

=

١٤٣/١٩ — ١٧٠ ، تفسير الطبرسى ٢٠٨/١٩—٢٣٠ ، تفسير البيضاوى ١٧٣/٢ — ١٧٨ ، تفسير القرطبى ١٧٦/١٣—٢١٣ ، تفسير أبى السعود ١٢٧/٤—١٣٤ ، تفسير روح المعانى ١٨٢/١٩—٢١٠ ، فى ظلال القرآن ٥/ ٢٦٣١—٢٦٤٣ ، تفسير الكشاف ١٤٢/٣—١٥١ ، صفوة التفاسير ٤٠٦/٢— ٤١٠ ، تفسير النسفى ٢٠٦/٣—٢١٥ ، تفسير ابن كثير ٥٧٦/٣—٥٨٦ .

(٣١) أنظر : سورة نوح : آية ٢٢—٢٣ ، وانظر : تفسير الكشاف ٤/ ١٦٤—١٦٥ ، تفسير الطبرى ٩٨/٢٩—١٠٠ ، تفسير الطبرسى ٦٩/٢٩—٧٢، تفسير القرطبى ٦٧٨٥—٦٧٨٦ ، فى ظلال القرآن ٣٧١٦/٦ ، تفسير ابن كثير ٦٦٦/٤—٦٦٧ ، تفسير النسفى ٢٩٧/٤ ، عبد القادر المغربى : تفسير جزء تبارك — القاهرة ١٩٤٧ ص ١٣٥—١٣٦ .

(٣٢) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ١٧٩ .

(٣٣) أنظر عن الشعر الجاهلى كمصدر تاريخى (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٦ — ٥٢) .

(٣٤) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ١٧٩ .

هذب هذا الشعر وشذبه ، فحذف منه كل ما له علاقة بالأصنام والوثنية، ورفع منه أسماء الاصنام وأحل محلهـا اسم (الله) . حيث يرد اسم الصنم(٣٥) .

ومنها (ثامنا) أن أهل الأخبار يرون أن أسماء عدد من الصحابة . كانت ذات صلة بالاصنام ، فلما أسلموا ابدلها الرسول ـ ﷺ ـ ، فمثلا كان «عبد الله بن الارقم» يدعى «عبد يغوث» و «عبد الله بن أصرم الهلالى» كان اسمه «عبد عوف»(٣٦) ، وهناك «غاوى بن عبد العزى» ، غير المصطفى ﷺ ، اسمه الى «راشد بن عبد ربه»(٣٧) ... وهكذا . ومنها (تاسعـا) ان المصادر الاسلامية انما اهتمت فقط بالوثنية القريبة زمنيا من الاسلام ، فضلا عن تلك التى كانت متفشية بين قبائل الحجاز، وبين القبائل التى اعتمد عليها رواة الاخبار ـ فى جمع اللغة والاخبار ـ ومن ثم فهى لا تتعرض للوثنية : التى بعد بها العهد عن فترة ظهـور الاسلام ، ولا تلك التى انتشرت فى بلاد العرب الجنوبية ، أو بين عرب الشام والعراق ، ولم يكن وضع اليهودية والنصرانية عند الاخبـاريين بأفضل من وضع الوثنية ، وبالتالى فانهم لم يقدموا لنا معلومات ذات قيمة عن هاتين الديانتين فى بلاد العرب .

على أن اقرار الاسلام لبعض أحكام الجاهلية وشعائرها ، قد أفادنا فى معرفة الكثير عنها ، وما كان فى وسعنا الوقوف عليها ، لولا أن الاسلام قد تعرض لها ، فأقر بعضا ، وأنكر بعضا ، وعدل بعضا ، وأوضح الامثلة على ذلك مناسك الحج(٣٨) .

---

(٣٥) جواد على : المرجع السابق ١٢/٦ .

(٣٦) ابن حجر العسقلانى : الاصابة فى تمييز الصحابة ـ الجـزء الثانى ـ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧ (رقم ٤٥٢٥ ، ٤٥٣٤) ، جواد على : المرجع السابق ص ١٩ .

(٣٧) ابن منظور : اللسان ٢٣٧/١ ، ابن حجر العسقلانى : المرجع السابق ٤٨٢/١ـ٤٨٣ (رقم ٢٥١٧) .

(٣٨) أحمد أمين : فجر الاسلام ـ بيروت ١٩٦٩ ص ٢٢٧ ، عمـر فروخ : تاريخ الجاهلية ـ بيروت ١٩٦٤ ص ١٦١ ، جواد على : المرجع السابق ص ١٤/٦ ـ ١٥ .

ومنها (عاشرا) أن الاساطير ـ وهى مصدر غنى لمعرفة تطور الأديان الانسانية وتطور فكرة الالوهية عند الشعوب ـ مقلة عند العرب لدرجة دعت بعض الباحثين الى القول بأن العرب لم تكن لها أساطير دينية عن آلهتها ، كما كان للامم الآرية والسامية ، سواء بسواء[٣٩] ، وفى الواقع فانه رغم ما فى هذا القول من مبالغة ، فان فيه كثيرا من الصواب ، ذلك لان الاساطير العربية رغم سذاجتها ، فانها قليلة بشكل ملفت للنظر ، وهى فى هذا تختلف الى حد كبير ، عنها عند المصريين والبابليين . فضلا عن اليونان والرومان والفرس .

ومنها (حادى عشر) أن المؤرخين المسلمين الذين قدموا لنا معلومات عن الوثنية العربية ، كانت معلوماتهم عن الآلهة الوثنية فجة ، لا تعدو ذكر اسمائها فحسب ، حتى أننا نرى الصفات الحقيقية للمعبود الوثنى مهملة اهمالا يكاد يكون تاما ، فالاله يذكر عـادة ، ومعه وطنه ، ووصف لنصبه وسدنته وأعوانه ، ثم المسلم الذى حطمه ، وقـد تذكر بعض القصص المتعلقة بعبادة ذلك الصنم ، وشرح لغوى لمعنى اسمه . ولكن لا نجد وصفا حقيقيا للوثنية البائدة .

ومنها (ثانى عشر) أن أسماء الآلهة ليست واحدة فى الازمنة المختلفة وفى الاماكن المتباينة ، ومن ثم فاننا نجد بعض الاسماء تتكرر فى أماكن متعدد ، وفى عصور مختلفة ، ورغم أن بعض الاسماء نجدها مقصورة على مكان خاص ، غير أن شخصية الاله الوثنى ، اذا ما انتقلت الى مكان آخر ، فانها سرعان ما تتخذ أسماء جديدة .

ومنها (ثالث عشر) ان بعضا من الآلهة العربية انما قد كتب بحروف يونانية أو لاتينية ، ومن ثم فقـد أصبح من الصعب أن نتعـرف على الشخصية الحقيقية للالهة العربية ، وهى متدثرة بالثوب الاجنبى[٤٠] .

وعلى أية حال ، فان أعلام الاشخاص التى تدخل فى تركيبها أسماء

---

(٣٩) J. Hastings, ERE, I, p. 660.

(٤٠) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ١٧٧ ـ ١٧٨ .

الآلهة ، انما هي المصدر الاساسي لمعلوماتنا عن الصفات التي اعتاد العرب الجنوبيون اطلاقها على الالهة في ابتهالاتهم ، ومنها (الاب) . كما في أسماء الاعلام «أب عم»و «أب شمس» ، ومنها (الرب) ، كما في العلمين «ال رب» و «رب ال» ، ومنهــا (الملك) كمــا في اسم العــلم «ال ملك» ، ومنها (العزيز) ، كما في «ال عز» ، ومنها (العــادل) ، كما في العلمين «صدق ال» و «يصدق ال» ، ومنها (الامين) ، كما في العلم «ال أمن» والعلم «عم أمن» .

هذا ويبرز بين العرب في بلاد العرب الجنوبية : عبودية الانســان للآلهة ، بدليل أسماء الاعلام المكونة من (عبد + اسم الاله) وذلك مثل «عبد ال» ، و «عبد ود» ، و «عبد عثتر»[41] .

وقد أدى ذلك كله الى أن يسعى القوم للظفر بحماية الآلهة ، ومن ثم فقد كانت تقدم ، عند أداء أي عمل له أهمية ما ، احتفالا لاسترضاء الآلهة ، وتكريس ذلك العمل لها ، فضلا عما يقدم في هذه الاحتفالات من قرابين ، من حيوانات مختلفة كالغنم والثيران ، في أعداد كبيرة في غالب الاحيان ، الى جنب قرابين أخرى من غــير دم ، كقرابين الشراب ، وتقديم البخور[42] .

وكانت المعابد والقنوات والقوانين ومراسم الدولة وأنصاب القبور ، توضع كلها في رعاية الآلهة ، وكان على الآلهة أن تنتقم من كل من ينتهك تلك الاشياء أو يدنسها ، وفي مثل هذه البيئة الدينية كانت للمعابد أهمية قصوى ، فكانت تخصص لهــا العشور ، ومصــادر دخل أخرى[43] ،

---

(٤١) سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ـ ترجمه وزاد عليه السيد يعقوب بكر ـ القاهرة ١٩٦٨ ص ١٩٥ ، ٣٥٣ـ٣٥٤ ، ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ، وكذا
G. Ryckmans Noms Propres Sud-Semitiques, I, 217-219, 240-242, 246, 248, II, 23, 30, 74, 103, 116-117.

(٤٢) سبتينو موسكاتي : المرجع السابق ص ١٩٥ .

(٤٣) نفس المرجع السابق ص ١٩٥ .

كالميراث والمشتريات ، الى جانب ضريبة تسدد للمعبد . وكانت فى الاصل تقدم له كهدية خاصة .

هذا فضلا عن ايراد الاراضى التى كان يمتلكها المعبد ، والتى كان يشرف على جمعها رجال الدين ، الذين كان القوم يعتقدون فيهم أنهم المفوضون من جانب الاله لادارة أراضيه الدنيوية ، ومن ثم فقد قامت الجماعة المعروفة باسم «المطعمون من الاله أو من الله» ، وهى جماعة خاصة بالمعبد كانت تعيش على نفقة الدولة ، مما جعلها فى مركز يساعدها على المطالبة بالاراضى للمعبد ، فضلا عن دخلها ، بدعوى أن هذا الدخل للاله (الله) سيد الارض[٤٤] .

ونقرأ فى النقوش القتبانية والمعينية أن القوم ظلوا دائما معترفين بحق الاله فى الدولة ، وخاصة فيما يتصل بالسلطان على الارض ، ومن ثم فقد كان نظام المعبد يشبه كثيرا «النظام الاقطاعى» . فحيثما وجدت أرض للمعبد ، وجدت قبيلة متصلة به ، يشتغل أفرادها فى أراضى المعبد ، ويرتبطون به ارتباطا وثيقا ، ويحصلون بالتالى على امتيازات خاصة عن استثمار هذه الاراضى واستغلالها .

وهكذا وجدت فى أراضى قبيلة «بكيل» أملاك واسعة لمعابد مختلفة للاله «الموقاة» (المقة) ، وكانت تديرها عشيرة «مرتد» ، ويبدو أن المعابد السبئية ــ وكذا القتبانية ــ كانت مراكز تجارية هامة ، فقد كانت تقدم ــ الى جانب المحافظة على بيوت الاله ، وعلى القيام بالنفقات الضرورية لمعيشة رجال الدين ــ تقدم نشاطها الاقتصادى ، محافظة على نظم المعابد الاقتصادية[٤٥] .

---

(٤٤) نيكولوس رودكناكيس : التاريخ العربى القديم ص ١٤٩ .
(٤٥) نفس المرجع السابق ص ١٤٧ ــ ١٤٨ .

الفصل الثانى

الاديان الوثنيـــــة

١ ـ ما قبــل الوثنيــة :

كانت عقائد العرب القدامى ـ شأنهم فى ذلك شأن بقية الساميين ـ[١] انما تختلف من فريق الى آخر ، فمنهم من آمن بالله واعتنق التوحيد . ومنهم من آمن بالله ، ولكنه تعبد لهذا الصنم أو ذاك ، على زعم منهم أن هذه الاصنام انما تقربهم الى الله زلفى ، والى هذا يشــير القرآن الكريم فى قوله تعالى «والذين اتخذوا من دونه أوليــاء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى»[٢] .

ولعل هذا انما يشير بوضوح الى أن القوم انما كانوا يعتقدون فى وجود «الله» سبحانه وتعالى : ولكنهم يخالطون ايمانهم هـذا بعبادة الاصنام ، واتخاذ الاولياء والشفعاء .

على أن فريقا منهم انما كانوا يعبدون الاصنام : على أنها النافعة

---

(١) انظر عن : الساميين وموطنهم الاصلى (محمد بيومى مهران : الساميون والاراء التى دارت حول موطنهم الاصلى ـ مجلة كلية اللغــة العربية ـ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ العدد الرابع ـ الرياض ١٩٧٤ ص ٢٤٥ ـ ٢٧١) .

(٢) سورة الزمر : آية ٣ ، وانظر : تفسير البيضاوى ٣١٦/٢ ـ ٣١٧ (القاهرة ١٩٦٨) ، تفسير الفخر الرازى ٢٤١/٦ـ٢٤٢ (القاهرة ١٩٣٨) ، تفسير القرطبى ص ٥٦٧٦ ـ ٥٦٧٨ (القاهرة ١٩٧٠/٦٩) ، تفسير أبى السعود ٣٠٠/٣ (القاهرة ١٩٤٧) ، الدر المنثور فى التفسير المأثور ٣٢٢/٥ (طهران ١٣٧٧ هـ) ، تفسير النسفى ٤٩/٤ـ٥٠ (دار الفكر ـ بيروت) ، تفسير الطبرى (القاهرة ١٩٥٤) ، تفسير الطبرسى ١٣٦/٢٣ـ١٣٨ (بيروت ١٩٦١) ، تفسير الكشاف ٣٨٦/٣ (القاهرة ١٩٦٦) ، تفسير روح المعانى ٢٣٤/٢٣ـ٢٣٦ (بيروت ١٩٧٨) ، فى ظلال القرآن ٣٠٣٧/٥ ، صفــوة التفاسير ٦٩/٣ـ٧٠ (بيروت ١٩٨١) ، تفسير ابن كثير ٦٩/٤ (بيروت ١٩٨٦) .

الضـــارة ، ومنهم من دان باليهــودية أو النصرانية ، ومنهم من دان بالمجوسية ، ومنهم من توقف فلم يعتقد فى شىء ، ومنهم الدهريون الذين آمنوا بتحكم الآلهة فى هذه الدنيا ، وببطلان كل شىء بعد الموت ، ومن ثم فلم يعتقدوا فى بعث أو نشور[٣] .

وقد أشار القرآن الكريم الى الدهريين هؤلاء فى كثير من سوره ، كما فى سورة الانعام (آية ٢٩) وهود (آية ٧) والرعد (آية ٥) والنحل (آية ٣٨) والاسراء (آية ٤٩ — ٥٢) والحج (آية ٥) والمؤمنون (آية ٣٥ — ٣٧) والنمل (آية ٦٧ — ٧٢) والسجدة (آية ١٠ — ١١) وسبأ (آية ٣) والصافات (آية ١٦ — ٢١) والدخان (آية ٣٤ — ٣٦) والجاثية (آية ٢٤ — ٢٩) والتغابن (آية ٧)[٤] .

ثم ان العرب القدامى انما قد عرفوا — فى عصور ما قبل الاسلام — بعضا من رسالات السماء ، ومن ثم فقد كان هود فى الاحقاف[٥] ، وكان صالح فى ثمود[٦] ، وكان شعيب فى مدين[٧] ، وكن موسى الذى نداه

---

(٣) الالوسى : بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب ـ الجزء الثانى ـ القاهرة ١٩٢٤ ص ١٩٧ ـ ٢٠٠ .

(٤) انظر : تفسير الطبرى ٣٢٢/١١ ـ ٣٢٣ ، ٢٤٤/١٥ ـ ٢٥٢ ، ٣٤٦/١٦ ـ ٣٥٠ (دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٩/٥٧) ١٩/١٨ ـ ٢١ ، ٨/٢٠ ـ ١٠ ، ٩٦/٢١ ـ ٩٨ ، ٥٩/٢٢ ـ ٦٠ ، ٤٤/٢٣ ـ ٤٦ ، ٢٥ ، ١٢٨ ، ١٥١ ـ ١٥٦ (ط الحلبى القاهرة ١٩٥٤) تفسير الفخر الرازى ١٧٦/٢٥ ، ٢٤٠ ـ ٢٤١ ، تفسير البيضاوى ٨٥/٢ ، ١٠٧ ، ١٨٢ ، ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ، ٢٩٠ ـ ٢٩١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٤٨٠ ـ ٤٨١ ، تفسير روح المعانى ١٣/١٢ ـ ١٤ ، ١٠٤/١٣ ـ ١٠٧ ، ١٤٠/١٤ ـ ١٤١ ، ١٢٥/٢١ ـ ١٢٧ ، ١٠٤/٢٢ ـ ١٠٦ ، ٧٧/٢٣ ـ ٨٠ ، تفسير ابن كثير ٢٠٦/٢ ، ٦٧٨ ، ٧٧٤ ـ ٧٧٥ ، ٨٨٣ ، ٧٤/٣ ـ ٧٥ ـ ٣٣٠ ، ٣٩٢ ـ ٣٩٣ ، ٥٩٦ ـ ٥٩٧ ـ ٥٩٧ ، ٧٢٩ ـ ٧٣٠ ، ٨٣٦ ، ٧/٤ ـ ٨ ، ٢١٨ ـ ٢١٩ ، ٢٣٠ ، ٥٨٥ ـ ٥٨٦ .

(٥) انظر عن قصة هود عليه السلام (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٢٣٧/١ ـ ٢٦٢) .

(٦) انظر عن قصة صالح عليه السلام (محمد بيومى مهران : المرجع السابق ٢٦٣/١ ـ ٢٨٨) .

(٧) انظر عن قصة شعيب عليه السلام (محمد بيومى مهران : المرجع السابق ٢٨٩/١ ـ ٣٠٧) .

ربه من جانب الطور الايمن ، على تخوم شبه الجزيرة العربية[8] . ثم كان من قبل ابراهيم الذى بنى البيت ، واسماعيل الذى شارك فى البناء ثم رعاه وورث أولاده رعايته من بعده[9] .

وهكذا كانت بلاد العـــرب مهبط الوحى منـذ القدم ، ولهـا عهد بالرسالات السماوية التى تتابعت فيها على مر العصور ، حتى كانت بعثة خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، ورحمة الله للعالمين ، جـدنا ومولانا وسيدنا محمد رسول الله ، ﷺ .

والرأى عندى أن العـــرب كانوا — على الاقل منذ دعـــوة أبيهم ابراهيم — على دين ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام دين التوحيد ، ثم سرعان ما لعبت بهم الاهواء ، فضلوا الطريق . وانغمسوا فى عبادة لا صلة بينها وبين دين ابراهيم ، عبادة مغرقة فى الوثنية . يقع وزرها على «عمرو بن لحى»[10] ، أول من اتبع هواه . ونشر عبادة الاصنام بين العرب[11] .

---

(٨) انظر عن قصة موسى عليه السلام (محمد بيومى مهران:اسرائيل ٢٨٥/١ — ٤٩٣) .

(٩) أنظر عن قصة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وبناء الكعبــة (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم — الرياض ١٩٨٠ — الجزء الاول — ص ١١٣ — ٢٣٥) .

(١٠) روى الامام أحمد بسنده عن أبى هريرة قال : سمعت رســول الله ، ﷺ ، يقول : «رأيت عمرو بن عامر يجر قصبة فى النار ، وكان اول من سيب السوائب ، وبحر البحيرة» ، وروى البخارى بسنده عن عائشة قالت قال رسول الله ، ﷺ «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ، ورأيت عمرا يجر قصبة ، وهو اول من سيب السوائب» ، ويقول ابن كثير : والمقصود أن عمرو بن لحى ، لعنه الله ، كان قد ابتدع لهم أشياء فى الدين ، غـــير بها دين الخليل ، فاتبعه العـــرب فى ذلك فضـلوا بذلك ضـــلالا بعيدا (ابن كثير : البداية والنهاية ١٨٨/٢ — ١٩٠) .

(١١) الفاسى : العقد الثمين ١٣٦/١ (القاهرة ١٩٥٩) ، شفـــاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٢١/٢ ، ٤٦—٤٧ (القاهرة ١٩٥٦) المسعودى : مروج الذهب ٢٩/٢—٣٠ (بيروت ١٩٧٣) ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ص ١٢٤ (القاهرة ١٣٠٢ هـ) ، تاريخ اليعقوبى ٢٥٤/١ (بيروت ١٩٦٠) ، الازرقى : أخبار مكة ٨٨/١ ، ١١١ — ١١٨ (بيروت ١٩٦٩) ، ابن دريد : الاشتقاق ٤٧٤/٢ (القاهرة ١٩٥٨) ابن هشام : سيرة النبى ٨٤/١ — ٨٥ ، صحيح البخارى ١٨٤/٤ ، ٥٤/٦—٥٥ ، فتح البـــارى ٣٩٨/٦—٤٠٠ ، ٢١٣/٨ (ط بولاق) .

ولعل من الجدير بالاشارة هنا ، أن العرب فى هذا ، انما كان شأنهم شأن بنى اسرائيل ، الذين بدأت عبادة الاصنام تتسرب اليهم ، بعد أن اعتنقوا ملة ابراهيم ، وسار على نهجها اسحاق ويعقوب ويوسف . عليهم السلام ، والتوراة تحدثنا أنهم — وياللعجب — لم ينقطعوا عن عبادة الاصنام ، حتى على أيام يعقوب[١٢] ، وأثناء اقامتهم بمصر[١٣] ، بل وحتى الى ما بعد نزول التوراة ، وموسى عليه السلام ، مايزال بين ظهرانيهم ، يتلقى الوحى من ربه على جبال سيناء ، بل وحتى بعد الخروج من مصر وعبور البحر مباشرة[١٤] ، ثم بقيت بينهم « عبادة العجل » تتجدد حينا بعد حين ، حتى اذا ما حدث الانقسام الى مملكتين فى أعقاب موت سليمان عليه السلام فى عام ٩٢٢ قبل الميلاد ، تبنى بنو اسرائيل ديانات الشرك — الى جانب ديانة يهوه — فأقاموا عجولا من ذهب ، وضعوها فى مبان كالمعابد ، كما فعل الملك «يربعام» (٩٢٢—٩٠١ ق.م) فى مدينتى «دان» و «بيت ايل» ، وكما فعل «أخاب» (٨٦٩—٨٥٠ ق.م) حيث اتخذ من «البعل» الها معبودا ، يقيم لها الهياكل وتتقدم له القرابين[٥] .

---

(١٢) تكوين ٣٥/٢، ٤ .
(١٣) لاويون ١٧/٧ ، يشوع ٢٤/١٤ ، ارميا ٤٤/٨—١٩ ، حزقيال ٢٠/٧—٨ .
(١٤) خروج ٣٢/٢٧ — ٢٨، وانظر : سورة الاعراف : آية ١٣٨—١٤٠ .
(١٥) انظر عن الوثنية الاسرائيلية (محمد بيومى مهران : اسرائيل — الكتاب الرابع — الاسكندرية ١٩٧٩ ص ٨٣ — ١٢١ ، خروج ٢٠/٧—٢٦ ، تثنية ٩/٧ ، يشوع ٢٤/١٤، ٢٣ ، قضاة ٢/٨—٢٣ ، ٣/٥—٩ ، صموئيل أول ١٥/٢٣ ، ١٩/١٣ ، ملوك أول ١١/٤ — ٨ ، ٣٣/٤١ ، ملوك ثان ٨/٣٦ ، ٣١/١١ — ١٢ ، ٢٣/١٠ ، ٢٤ — ١٨ ، اخبار أيام ثان ٣٣/٢— ١١ ، ٣٤/٣ — ٧ حزقيال ٢٤/٢٢—٢٣ ، ثم انظر سورة البقرة : آية ٥١ ، ٥٤ ، ٩٢ — ٩٣ ، سورة النساء : آية ١٥٣ ، سورة الاعراف ، آية : ١٤٨— ١٥٢ ، سورة طه : آية ٨٣—٩٨ .

I. Epstein, Judaism, 1970, p. 26 F

وكذا O. Eissfeldt, in CAH, II, Part 2, Cambridge, 1975, p. 556 F.

وكذا C. Roth, A Short History of The Jewish People, London, 1969, p. 25 F.

وكذا M. Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 242 F.

ومع ذلك ، فالعرب — شأنهم فى ذلك شأن بقية الساميين — انما كانوا موحـــدين بطبعهم ، وأن دياناتهم انما هى من ديانات التوحيد ، ورغم أن هناك من الباحثين من يخلف هذا الاتجاه[١٦] ، فان الغالبية تذهب الى هذا الاتجاه ، اعتمادا على أن اله الساميين الذى كانوا اليه يتعبدون ، انما هو اله واحد ، ثم سرعان ما لعبت الاهواء بهم من ناحية، والجهل من ناحية أخرى ، حتى أبعدتهم عن التوحيد ، فعبدوا الاصنام وقدموا لها القرابين[١٧] .

وأما دليل هذا التوحيد ، فهو ورود اسم الجلالة (الله) فى نصوص معينية قديمة[١٨]،وفى نصوص الصفا ، حيث يرد الاسم بصيغة ((هلاه))، قبل ظهور الاسلام بخمسة قرون[١٩] ، هذا فضلا عن وجوده أيضا فى نص من القرن السادس قبل الميلاد[٢٠] ، وكذا اعتراف كفار مكة بالله، جل وعلا . — كما جاء فى آيات كثيرة من القرآن الكريم[٢١] ، فضلا عن تلبيتهم أثناء الحج[٢٢] .

والرأى عندى أن هذا التوحيد المشار اليه ، انما هو دين ابراهيم الخليل عليه السلام[٢٣] . وأن عبادة الاصنام ، انما حدثت بعد عهـــد ابراهيم : صلوات الله وسلامه عليه ، فضلا عن دعـــوة اسماعيل عليه

---

(١٦) J. Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, II, p. 383

(١٧) E. Renan, Histoire General et Systeme Compare des Langues Semitiques, I, 1853, p. 1 F.

(١٨) JA, XX, 1892, p. 157-166.

وكذا P. K. Hitti, Historg of The Arabs, London, 1960, p. 101.

(١٩) R. Dussaud, les Arabes en Syrie avant L'Israel, Paris, 1907, p. 141-142.

(٢٠) P. K. Hitti, op-cit, p. 101.

(٢١) انظر : سورة الانعام : آية ١٠٩ ، ١٣٦ ، ١٤٨ ، سورة النحل: آية ٣٨ ، سورة العنكبوت : آية ٦١ ، ٦٣ ، سورة لقمان : آية ٢٥ ، سورة الزخرف : آية ٩ ، ٨٧ .

(٢٢) اللسان ١٠/٤٥ ، جواد على ٦/١٠٥ .

(٢٣) ربما كان كذلك من آثار دعوة هود وصالح عليهما السلام ، ان كان صحيحا انهما سبقا خليل الله فى دعوتهما ، من الناحية الزمنية ، كما تذهب كثير من المراجع الاسلامية .

السلام . بقرون وقرون ، بل ان دعوة ابراهيم عليه السلام : انما بقيت آثارها بين العرب — والشماليين بصفة خاصة — حتى ظهور الاسلام . بحمل لواءها «الحنفاء» ، وهم قوم لم يكونوا يهودا ولا نصارى ، ولم يشركوا بربهم أحدا ، وانما كانوا على ملة أبيهم ابراهيم . يؤمنون بالله الواحد الاحد ، ويكفرون بالنصب والاوثان — كما سوف نرى فيما بعد — .

وهكذا . فالذى لا ريب فيه ، أن العرب — فى الحجاز على الاقل — كانت لديهم فى أوائل القرن السابع الميلادى . وقبل ذلك دون شك . فكرة عن اله خالق قادر على كل شىء ، هو الله سبحانه وتعالى[٢٤] : والادلة على ذلك كثيرة : منها (أولا) ما جاء فى القرآن الكريم فى قوله تعالى «ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر. ليقولن الله فأنى يؤفكون»[٢٥] : ومنها (ثانيا) أن هذه الفكرة نفسها انما تتكرر فى القرآن الكريم أكثر من عشر مرات ؛ كما فى سورة الانعام ويونس والنحل ولقمان والعنكبوت والزمر والزخرف[٢٦] .

ومنها (ثالثا) ما جاء فى دعاء العرب من اعتراف بالله سبحانه وتعالى ، فى مثل قولهم «شتت الله شعبه» و «مسح الله فاه» و «رماه الله بالذبحة» و «قطع الله به السبب» و «قطع الله لهجته» و «رماه

---

(٢٤) ريجيس بلاشير : تاريخ الادب العربى — العصر الجاهلى — ترجمة ابراهيم كيلانى — بيروت ١٩٥٦ ص ٦٨ وكذا
وكذا J. Hastings, ERE, 6, p. 248.
وكذا A. Guillaume, Islam, (Penguin Books), 1964, p. 7.

(٢٥) سورة العنكبوت : آية ٦١ ، وانظر تفسير الطبرى ١١/٢١ — ١٢ ، تفسير الفخر الرازى ٨٨/٢٥—٨٩ ، تفسير البيضاوى ٢١٤/٢ ،تفسير روح المعانى ١١/٢١ ، صفوة التفاسير ٤٦٧/٢ ، فى ظلال القرآن ٢٧٥٠/٥ ، تفسير ابن كثير ٦٧٠/٣ — ٦٧١ ، تفسير النسفى ٢٦٣/٣ .

(٢٦) انظر : سورة الانعام : آية ١٠٩ ، ١٣٦ ، ١٤٨ ، سورة يونس : آية ٢٢ ، سورة النحل : آية ٣٨ ، سورة العنكبوت : آية ٦٣ ، يونس : آية ٢٢ ، سورة النحل : آية ٣٨ ، سورة العنكبوت : آية ٦٣ ، ٨٧ .

الله بسهم لا يشويه ولا يطنيه» (أى لا يمرضـــه ولا يخطىء مقتله) و «رماه الله بنيطة» (أى بالموت) و «خلع الله نعليه» (أى جعله مقعدا) و «أتعس الله جده وأنكسه» و «عضله الله» و «رماه الله بكل داء يعرف وكل داء لا يعرف» و «نعوذ بالله من كل هامة وعين لامة» و «نعوذ بالله من وطأة العدو ، وغلبة الرجال وضلع الدين» الى غير ذلك من دعاء يدل على ايمان القوم باله خالق هو الله سبحانه وتعالى •

ومنها (رابعا) وجود اسم الجلالة (الله) فى قسمهم ، مثل قولهم «لا وبارىء الخلق» و «لا والذى يرانى ولا أراه» و «لا والذى هــو أقرب الى من حبل الوريد»[٣٧] •

ومنها (خامسا) وجود اسم الجلالة (الله) فى أشعار بعض شـــعراء الجـــاهلية مثل « امرىء القيس » و « الاعشى » و « عمرو بن شاش » وغيرهم ، فى مثل قولهم «الله» و «تالله» و «يمـــين الله» و «الحمـــد لله» و «من الله» و «ولله» و «جزى الله» و «عمر الله»[٣٨] هذا فضلا عن أن الخالق ، جل جلاله . فى شعر «زهير بن أبى سلمة» عالم بكل شىء ، عارف بالخفايا والاسرار،وبما ظهر من الاعمال وما بطن ، انظر الى قوله :

فلا تكتمن الله ما فى أنفسكم ليخفى ومهمـــا يكـــتم الله يعـــلم[٢٩]

وهكذا يبدو واضحا أن العرب كانت تعرف «الله الخالق» حتى الذين كفروا منهم بالاسلام ؛ والدليل على ذلك ، أننا على أيام البعثة النبوية الشريفة ، نرى «أبا جهل» لعنه الله ، يقول ؛ حين أشار عليه القوم يوم بدر بالرجوع وعدم الحرب : «والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد» ﷺ •

---

(٢٧) جواد على ١٠٥/٦ ــ ١١٠ •

(٢٨) انظر امثلة فى : الاغانى ٦٢/١٠ ، شرح ديوان زهير ص ١٢ ، ١٨ ، ١٠٩ ، ١٢١ ، ١٦٢ ، شرح ديوان امرىء القيس ص ٦٣ ، ١٥٢ ، الالوسى : بلوغ الارب ٢٧٧/٢ ، لويس شيخو : شعراء النصرانية ــ بيروت ١٨٩٠ ص ٤٠ ص ٣٣٢ ، ٣٣٨ ــ ٣٤٨ •

(٢٩) شرح ديوان زهير ص ١٨ •

. وفى يوم فتح مكة ، نرى سيدنا رسول الله ﷺ . يقول لأبى سفيان: «ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله الا الله ، قال : بلى، بأبى أنت وأمى ، ولقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره ، لقد أغنى عنى شيئا ، فقال ، ﷺ : ويحك يا أبا سفيان : ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ، فقال : بأبى أنت وأمى ، أما هذه ففى النفس منها شيء»[٣٠] .

وهناك ما يشير كذلك الى أن العرب فى جاهليتها قد استعملت كلمة «الرب» . على أنه الاله الخالق ، رب كل شيء ، وله الربوبية على جميع الخلق ، لا شريك له ، ولا يقال الرب لغير الله ، الا فى حالة الاضافة . وان استعملتها العرب فى نفس الوقت بمعنى سيد ومالك ، وهى تؤدى معنى «بعل» و «أدون» فى اللغات السامية الاخرى ، أى أن اللفظة كانت تطلق على الاله ، وعلى الآلهة . وعلى الانسان كذلك ، باعتباره ، سيدا . أو مالكا . ثم جاء التخصيص فى الاسلام[٣١] .

ومع ذلك ، ورغم ايمان القوم بالله أعظم ، خالق للكون ، ومدبر لشئونه ، ورغم أن هذا الايمان لا يرجع فقط الى بعض الاثار المحفوظه من ديانة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام . وانما توجد كذلك فى أعماق النفس البشرية[٣٢] ، غير أن هذا الايمان بالفطرة . كما يسميه القرآن الكريم[٣٣] . أو التوحيد الاولى ، لم تكن الا فكرة نظرية محجوبة مغمورة فى الواقع تحت معتقدات وعبادات كانت تؤدى الى عدد لايحصى من الآلهة[٣٤] .

---

(٣٠) سيرة ابن هشام ٦٢٢/١ ، ٤٠٣/٢ (القاهرة ١٩٥٥) ، السيرة الحلبية ١٨/٣ (القاهرة ١٩٦٤) ، ابو الحسن الندوى : السيرة النبوية ص ٢٨٩ (بيروت ١٩٨٣) ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣٦٦/٣ ، ٢٩٠/٤ (بيروت ١٩٦٦) ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ١٢٤/٢ ، ٢٤٥ (بيروت ١٩٦٥) ، تاريخ الطبرى ٤٣٨/٢ ، ٥٣/٣-٥٤ (القاهرة ١٩٦٩/٦٧) ، البلاذرى : انساب الاشراف ٢٩٠/١ - ٢٩١ (القاهرة ١٩٥٩) .

(٣١) ابن منظور : لسان العرب ٣٩٩/١ (بيروت ١٩٥٥) ، وكذا
Encyclopaedia of Islam. I. p. 610. III. p. 1088.

(٣٢) أنظر : سورة الاعراف : آية ١٧٢ .

(٣٣) أنظر : سورة الروم : آية ٣٠ .

(٣٤) أنظر : سورة يوسف : آية ١٠٦ .

وهكذا كان القوم لا يدعون الله الواحد الاحد ؛ الفرد الصمد ، الا اذا ألم بهم خطر كبير[٣٥] ، ولا يقدمون له من القرابين الا ما قل[٣٦]. كما كان لاتصالهم الوثيق بالطبيعة ومظاهرها المختلفة : كانوا ينسبون الى النجوم[٣٧] والكواكب[٣٨]،بعض الفضل،وكانوا يخرون لها ساجدين، أما بين الله الواحد الاحد ، وبين الناس ، فقد ابتكروا قوى وسيطة قادرة على أن تقرب الناس الى خالقهم[٣٩] ؛ أو تشفع لهم عنده[٤٠] ؛ ولهذا كانوا يعبدون الملائكة[٤١] ، ويزعمون أنها بنات الله .

وأما الاوثان[٤٢] . والاصنام[٤٣] . التى كانت تتنبأ لهم بخفايا الامور . أو ترمز — فى نظرهم — الى بعض الآلهة المستترة ، فقد حظيت بمرور الايام بنفس التقديس والعبادة التى كانت لله[٤٤] .

هذا وقد استطاعت هذه العقليات الخيالية أن تخترع تدريجيا عددا لا يحصى من الآلهة الصغرى التى وضعوها فى مرتبة أقل من الخالق . وجعلوا لها اختصاصات محدودة تناسبها . اذ قياسا على أمور الناس . لم يستطع القوم أن يتصوروا ملكا ليس له معاونين وحاشية تستحق التقدير والتقديس والعبادة . ولقد احتفظ لنا الاثر من هذا الاعتقاد العجيب — حيث نجد الآلهة المملوكة لله الخالق ؛ وشريكة له فى نفس

---

(٣٥) انظر : سورة يونس : آية ٢٢ .
(٣٦) انظر : سورة الانعام : آية ١٣٦ .
(٣٧) انظر : سورة النجم : آية ٤٩ .
(٣٨) أنظر : سورة فصلت : آية ٣٧ .
(٣٩) انظر : سورة الزمر : آية ٣ .
(٤٠) أنظر : سورة يونس : آية ١٨ .
(٤١) سورة الزخرف : آية ٢٩ — ٣٠ .
(٤٢) سورة الحج : آية ٣٠ .
(٤٣) انظر : سورة المائدة : آية ٩٠ .
(٤٤) محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم ، الكويت ١٩٧٤ ص ٧٤ — ٧٥ .

الوقت ــ ببعض الصيغ التى كان الحجاج الوثنيون يبتهلون بها أثناء الحج[٤٥] ، ومن ثم قولهم «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، الا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك»[٤٦] .

وهكذا كانت العــرب فى الجاهلية توحــد الله تعالى بالتلبية ، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده ، يقول الله تعالى لنبيه ، ﷺ ، «وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون» ، أى ما يوحدوننى لمعرفة حقى ، الا جعلوا معى شريكا من خلقى ، وقد ذكر السهيلى وغيره: أن أول من لبى هذه التلبية ، عمرو بن لحى ، ابليس تبدى له فى صورة شيخ ، فجعل يلقنه ذلك فيسمع منه ويقول كما يقول ، واتبعه العــرب فى ذلك[٤٧] .

---

(٤٥) نفس المرجع السابق ص ٧٥ ـ ٧٦ .

(٤٦) تاريخ اليعقوبى ٢٥٥/١ ـ ٢٥٦ ، البداية والنهاية ١٨٨/٢ ، تفسير الطبرى ٢٨٩/١٦ ، محمد بن حبيب : كتاب المحبر ـ حيدر أباد الدكن ١٩٤٢ ص ٣١١ ـ ٣١٤ .

(٤٧) ابن كثير البداية والنهاية فى التاريخ ـ بيروت ١٩٦٦ ـ الجزء الثانى ص ١٩٨٨ .

٢ ــ عبـــادة الكواكب

سادت جنوب شبه الجزيرة العربية عبادة ثالوث من الكواكب هي : القمر والشمس والزهرة . ويمثل القمر في هذا الثالوث دور الاب، وتمثل الشمس دور الام ، بينما كانت الزهرة تمثل دور الابن ، على أنه من الغلو أن نحاول ــ كما فعل ديتلف نلسن ــ اخضاع جميع الآلهة لحدود هذا الثالوث، وان كان ممالاشك فيه أنه لعب دورا هاما في نظام الآلهة في جنوب بلاد العرب ، وأن كثيرا من الالهة المختلفة ليست في الواقع سوى مظاهر لهذا الثالوث[١] .

وربما كان العرب الجنوبيون متاثرين في هذا الثالوث ببلاد الرافدين. حيث نرى نفس الثالوث يحتل مكانة ممتازة هناك : وان كنت أميل الى أن عبادة ((التثليث)) هذه . انما كانت آمرا شائعا بين سكان منطقة الشرق الادنى القديم بصفة عامة ، ومن تم فقد رأيناه في الحبشة . وفي بلاد الرافدين وفي سورية وفينيقيا ، كما رأيناه الى حد ما في مصر[٢] : بل ان الرمز الذي اتخذه أهل بابل وأشور وسورية وآسيا الصغرى لاله الشمس ــ وهو قرص ذو جناحين ــ انما هو رمز الشمس في مصر[٣] . ومع ذلك ، فربما كان تاثير بلاد الرافدين الديني على جنوب بلاد العرب. أكبر من تأثير غيرهم من الساميين .

وعلى أية حال . فالقرآن الكريم يشير الى أن القوم قــد عبدوا الشمس والقمر ، يقول سبحانه وتعــالى «ومن آياته الليــل والنهار

---

(١) سبتينو موسكاتي : المرجع السابق ص ١٩٤ .

(٢) عرفت الديانة المصرية القديمة (فيما عدا دعوة اخناتون) مبدأ التثليث ، أو العائلة الالهية المكونة من الاله الاب ، والالهة الام ، والاله الابن ، كما في «طيبة» ، حيث يوجد الاله آمون (الاب) والالهة (موت) (الام) والاله خونسو (الابن) ، وكما في «منف» حيث يوجد الاله بتاح (الاب) والالهة (سخمت) الام) والاله «نفــر توم» (الابن) ، وكما في «اليفانتين» (جزيرة اسوان) حيث توجد : خنوم وعنقت وسانت ، وكما في عائلة : أوزير وايزة وحور ... وهكذا .

(٣) أنظر : محمد بيومي مهران : الحضارة المصرية القديمة ص ٢٢٩ ــ ٣٠٧ ، اخناتون ص ٣٤٩ ــ ٣٥٠ ، اسرائيل ٣٧٨/٣ــ٣٧٩ .

والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون»[٤] .

١ ـ القمـــــر :

اعتبر العرب الجنوبيون القمر أبا فى الثالوث الكوكبى[٥] . ومن ثم فقد صار له منزلة خاصة فى ديانة القوم : فهو المقدم على غيره ، وهو كبير الآلهة ، وهو الذى ينفرد بالكثرة المطلقة من الاسماء والالقاب فى الاساطير : وفى الطقوس . وفى التقويم : وفى أسماء الاعــلام ، وهكذا أصبح الاله القمر قويا مهيمنا على سائر مناحى الحياة المدنية والسيسية: هيمنة أشـــبه ما تكون بهيمنة الشمس فى الديانات السامية الشمــالية . مما دفع بعض الباحثين الى القول بأن الديانة العربية الجنوبية انما هى «ديانة قمرية» .

ولعل السبب فى ذلك انما هو العوامل الجغرافية والمناخية ، فالشمس محرقة متعبة . تشل الحركة فى النهار . وبخاصة فى الصيف القائظ . ومن ثم فقد دعوها «ذات حميم» . بينما القمر هو دليل الحادى . ورسول القافلة . وهكذا كانت ديانة العرب الجنوبيين ــ على عكس البابليين مثلا ــ انما هى ديانة عبادة القمر : أى أن القمر مقدم فيها على الشمس، بل أصبحنا نرى فى العــربية « القمران » كتعبــير يدل على الشمس والقمر[٦] .

---

(٤) ســورة فصلت : آية ٣٧ ، وانظـــر : تفسير ابن كثير ١٥٣/٤ (بيروت ١٩٨٦) ، تفسير روح المعانى ١٢٥/٢ ــ ١٣٦ ، تفسير النسفى ٢٨٢/٤ ، تفسير القرطبى ٣٦٣/١٥ ــ ٣٦٥ (القاهرة ١٩٦٧) ، تفسـير الطبرى ١٥١/٢٤ (ط الحلبى ـ القاهرة ١٩٥٤) ، تفسير الطبرسى ٢٤/ ٢٣ ــ ٣٦ ، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ٢٩٥/٥ ــ ٢٩٦ ، تفسير الكشاف ٤٥٤/٣ ، فى ظلال القرآن ٣١٢٤/٥ .

(٥) انظر : عن العلاقة بين الاله مين المصرى ، وبين العبادة القمرية فى بلاد العرب (محمد بيومى مهران : العرب وعلاقتهم الدولية فى العصور القديمة ــ الرياض ١٩٧٦ ص ٢٩٧ ــ ٣٠٦) .

(٦) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧ ، سبتينو موسكاتى: المرجع الســابق ص ٢٥٥ ، ابن هشام : سيرة النبى ٨٧/١ ، جــواد علــى ٥٢/٦ ، وكذا

=

وهنا لعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك الكثير من الادلة على أن اله اليهود «يهوه» انما هو فى الاصل قمرى[٧] . كما لا يستبعد أن يكون لاسم «سيناء» علاقة باله القمر «سين»[٨] .

هذا ويعرف «الاله القمر» عند المعينيين بالاله «ود» ، وعند السبئيين بالاله «المقة» (الموقاة) وعند القتبانيين بالاله «عم» وعند الحضرميين

C. Thompson, The Tombs and The Moon Temple of Hureidha, Oxford, 1944, p. 15.

(٧) يتجه بعض الباحثين الى ان الشريان الرئيسى للديانة العبرية ، انما يتصل فى واقع الامر ببنت العرب القديمة ، ذلك ان اصول الديانة العبرية القديمة واسسها (ولا اعنى هنا ديانة الانبياء ؛ وانما اعنى تلك الديانة التى سادت بين الشعب العبرى ، وكما يقدمها لنا العهد القديم) انما ترجع الى اصول عربية ، وهكذا نجد عند العبرانيين تلك الظاهرة العربية القديمة ، اعنى «الشمس» كالهة أم مؤنثة ، كما فى زوج يهوه (رب يهود) بالشمس ، وفى جميع الحالات التى ترد فيها الشمس مؤنثة ، واما «السرهراء» (عتتر) فمذكر .

واما «يهوه» راس الثالوث ، فيعتبر فى الهيئة العربية القديمة جدا ، كما يرجح ورود الاسم فى النقوش اللحيانية ، وهناك الكثير من الادلة التى تؤيد عدد ان الاله العبرى «يهوه» انما هو فى الاصل اله قمرى ، كما ان «الحصان» عند العرب القدامى ، وكذا العبرانيين ، هو الحيوان المقدس التابع للشمس ، تبعية «الثور» للقمر ، كذلك كان يهوه فى العصور القديمة يرسم فى صورة «ثور» مقدس ، ويعبد ، فضلا عن اننا نجد قرنين فى مذبحه ، الى جانب اننا نفهم من العهد القديم (التوراة) ان الديانة العبرية قبل السبى البابلى (٥٨٦ ــ ٥٣٩ ق٠م) كانت توصف بانها ديانة قمر وشمس وكواكب (انظر سفر الخروج ٣٢/٤ ، ملوك اول ١٢/٢٨ ، ملوك ثان ١٧/١٦ ، ٢١/٣ ، ٥ ، ٢٣/٤ــ٥ ، ١١ هوشع ٨/٥ ، ارميا ٨/٢ ، ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٢٣٦ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ــ الكتاب الرابع ــ الاسكندرية ١٩٧٩ ص ٢١ــ٢٥ ، وكذا

A. Lods, Israel, From its Beginnings to The Middle of The Eith Century, London, 1962, p. 404.

وكذا A. J. Jaussen and R. Savignac, Mission Archaeologique en Arabie, II, p. 250-291.

وكذا D. S. Margoloiouth, The Relations between Arabs and Israelites Prior to The Rise of Islam. London, 1924, p. 8, 10.

(٨) انظر : محمد بيومى مهران : الديانة العربية القديمة ــ الاسكندرية ١٩٧٨ .

مالاله «سين»[٩] .

فأما «ود» فهو فى طليعة الآلهة المدونة فى نصوص المسند . وهو اله «معين»[١٠] الكبير ، فضلا عن قبائل عربية أخرى . كثمود ولحين فى العربية الشمالية ، كما كان من الاصنام الكبرى فى الحجاز عند ظهور الاسلام ؛ وقد حكى القرآن الكريم عنه بأنه اله جاهلى قديم ، وجد قبل زمان الطوفان ، وقد عبده قوم نوح : قال تعالى «وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا»[١١] .

وأما الرأى الذى يذهب الى أن المعبود «ود» قد انقرضت عبادته قبيل ظهور الاسلام ، وأثناء ظهوره . فقد جانب أصحابه الصواب الى حد كبير ؛ اذ أن هناك اشارة له فى شعر «النابغة الذبيانى» ؛ كما كان له معبد فى «دومة الجندل»[١٢] . فضلا عن أسماء جملة رجال جاهليين

---

(٩) حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ـ الاسكندرية ١٩٧١ ص ١٣٨ـ ١٣٩ . سبتينو موسكاتى ، المرجع السابق ص ١٩٤ ؛ دينلف نلسن : المرجع السابق ص ١٨٩ ، وكذا

I. Shahid, Pre-Islamic Arabia, in CAH, I, 1970, p. 9 F.

هذا ويلاحظ ان اسم القمر «سين» هو اسم سومرى غير سامى ، نقله الاكديون عن السومريين ، ونظائره السامية هى «ود» عند عرب الجنوب ، و «سهر عند الاراميين» ، و «ورخ» عند الاموريين ، كما ان للقمر اسما آخر عند السومريين هو «ننا» (Na-an-na = Nanna) بمعنى «رجل السماء» ، ويرمز له فى أحايين كثيرة بالهلال ، وبجانبه قرص الشمس ، رمزا لاله الشمس ، ونجمة فى وسط دائرة رمزا لكوكب الزهرة ، وزوجة «سين» هى «ننجل» Nin - gal بمعنى (السيدة الكبيرة) ، ومركز عبادته «أور» (تل المقير) وكذا زوجته وابنهما «نسكو» ثم انتقلت الى «حران» ثم بابل ، ثم سورية وفينيقيا (انظر : موسكاتى : المرجع السابق ص ٢٥٥ ، وكذا

P. Dhorme, Langues et ecritures Semitiques, Paris, 1930, p. 54-60, 83-86.

(١٠) انظر عن دولة معين (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢١٣ ـ ٢٣٣) .

(١١) سورة نوح : آية ٢٣ .

(١٢) دومة الجندل : وتسمى الان «الجوف» وهى امارة بالمملكة العربية السعودية ، وتسمى فى الاشورية «ادوماتو» ، وفى التوراة «دومة» ،
=

سموا به (عبد ود) ، وأخيرا فان قريشا انما كانت تتعبد لصنم دعته «ود» أو «أد»[١٣] .

وأما كلمة «ود» فتعني «حب» ، ويقصد بها هنا الحب الالهي ، وليس الحب الجنسي ، ومن ثم فقد دعوه «الاب» تعبيرا عن عطفه على المتعبدين له ، ورحمة بهم[١٤] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الملك «يصدق غرعم عت» بن «ودم» (ود) ، أشهر ملوك «أوسان»[١٥] قد دعى «بن ودم» (ابن ود) ، وقد دعا هذا اللقب بعض العلماء الى القول بوجود فكرة «تالية الملوك» فى أوسان ، وأن الرجل كان يعتقد أنه من نسل الاله «ود»[١٦] ، ومن ثم فقد اعتمد مؤرخو الاديان على هذه الحالة كدليل على قيام مملكة للاله فى بلاد العرب الجنوبية[١٧] ، وعلى أى حال ، فقد

= وفى جغرافية بطليموس (Doumatha (Adomatho ، وفى المصادر العربية «دومة الجندل» ، وتقع على مبعدة ٤٠٠ كيلا الى الشرق من «البتراء» على حافة النفوذ الكبير ، ومن ثم فقد اعتبرت بمثابة قلعة الجزيرة العربية الشمالية فى وجه المهاجمين من الشمال والشمال الشرقى (أنظر : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٨٧ ــ ٤٩٠ ، وكذا
F. Hommel, Explorations in Arabia, Philadelphia, 1903, p. 581, 594.
وكذا W. F. Albright, JRAS, 1952, p. 293.)

(١٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان ٣٦٦/٥ (بيروت ١٩٥٧) جواد على ٢٩٣/٦ .

(١٤) لويس شيخو : المرجع السابق ص ٧٠٥ .
وكذا J. Hastings, ERE, 6, p. 248.

(١٥) انظر عن «أوسان» (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٣٢٩ ــ ٣٣١) .

(١٦) H. Von Wissmann and M. Hofner, Beitrage Zur Historischen Geographie des Vorislamischen Sudarbien, Wiesbaden, 1953, p. 58.

(١٧) هناك ما يشير الى أن الملوك فى بلاد العرب الجنوبية انما كانوا يعتبرون أنفسهم ، فى غالب الاحايين ، ممثلين للاله ، كما يعتبرون أنفسهم كذلك أبناء له (أنظر : نيكولوس رودكناكيس : المرجع السابق ص ١٤٧ ، وكذا
Kataban-Texte, I, p. 144.

كان «ود» هو المعبود القومى لاوسان ــ كما كان المعبود القومى لدولة «معين»[١٨] ــ وأن الاوسانيين قد خصصوا معبدهم الرئيسى فى وادى نعمان للاله «ود»[١٩] .

وأما «المقة» (الموقاة)، اله سبأ الكبير، فقد انتشرت عبادته بين الاحباش، فضلا عن السبئيين أنفسهم، بطبيعة الحال ــ وأن الكلمة بمعنى «لمع»، ومن ثم يكون للاسم «معنى اللمعان» أو بمعنى «بسيده»، أو أن اللفظة مكونة من «ال»، وهو اسم الاله «ايل» الشهير عند الساميين، ومن «مقهو» بمعنى «قوى»، ومن ثم يصبح معنى الاسم «ايل قوى»، أى «الله قوى»[٢٠]، هذا وقد اتخذ القوم «الثور» رمزا للاله الموقاة (المقة)، وهو من الرموز الدالة على الاله القمر عند الساميين القدامى، فالعبرانيون ــ على سبيل المثال ــ انما كانوا يصورون الههم «يهوه» على هيئة عجل[٢١] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن النصوص المعروفة باسم (ج م ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١) هى آخر النصوص التى نقرأ فيها اسم الاله المقة، وقد عثر عليها بمعبده المعروف باسم «أوام» فى «مأرب»[٢٢]،

---

(١٨) أنظر عن «معين» (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٢١٣ ــ ٢٣٣) .

(١٩) H. Van Wissmann and M. Hofner, op-cit, p. 58.

وكذا I. Shahid, CAH, I Cambridge, 1970, p. 9.

(٢٠) احمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ــ القاهرة ١٩٦٣ ص ١٦٢، وكذا

A. Jame, le Pantheon Sud-Arabe Preislamique d'apres les Sources Epigraphiques, in le Museon, 60, 1947, p. 26.

(٢١) خروج ٣٢/٤، ملوك أول ٢٨/١٢، جواد على ٢٩٨/٦ .

(٢٢) مأرب : تقع مأرب على مبعدة مائة كيلو متر الى الشرق من «صنعاء»، وتقوم مدينة مأرب الحالية فوق جزء مرتفع من كوم أثرى كبير هو خرائب مأرب القديمة، ومن أسف أننا لا نعرف من النقوش التى اكتشفت فى الموقع اسم مؤسسها، وعلى أية حال، فهناك على مبعدة ٤ كيلا الى الجنوب الشرقى من مأرب الحالية، تقع خرائب معبد الاله الموقاة، رب أوام، والمعروف بحرم أو محرم بلقيس، ويرى البعض أن هذا المعبد، مثله فى ذلك معبد الموقاة فى مدينة «صرواح» (تقع فى موضع
=

ترجع الى أيام «ثاران يهنعم» وولدم «مليكيكرب يهأمن»[٢٣] ، وهـذا يشـير الى اعراض القـوم منذ ذلك العهد (أخريات القـرن الرابع الميلادى)[٢٤] عن عبادة المقة ، وبقية المعبودات السبئية ، وبداية عصر الثيانات السماوية ، بل ان الملك «ملكيكرب يهأمن» انما يتجاهل الاله المقة ، ولا يتقرب اليه بالقرابين ، كما كان يفعل الاسلاف وانما يتقرب الى الاله «ذى سموى» (رب السماء) •

ومن البدهى أن هذا انما هو دليل على أن «عقيدة التوحيد» بدأت تأخذ طريقها الى ملوك اليمن ، منذ اختفاء الآلهـة الوثنية أمام «رب السماوات» (الاله ذى سموى) ، الامر الذى لم يحدث فجأة ، فيمـا يرى البعض ، وانما كان عبارة عن تطور يتصل بالمعبود الذى كان يقدس ــ الى جانب الاله تالب ــ واسمـه «ذو سماوى» وكـذا «الله» رب السموات والارض ، ثم بعد ذلك نجد ــ وفى صورة واضحة رائعة ، لا نجد لها مثيلا فى اليهودية المتأخرة ــ نجد «الرحمن»[٢٥] •

هذا وقد ورد اسم «هبس» مع الاله «المقة» أحيانا ، ومفردا أحيانا أخرى ، وقد قصد به الاله القمر كذلك ويبدو أن هذه التسمية للقمـر ــ ربما تعنى اليابس والجاف ــ قد بقيت حتى ظهور الاسلام ، ومن ثم فقد رأينا بعض الكتاب العرب يشيرون الى أن اسم القمـر انما كان «هيبس»[٢٦] •

= الخربة وصرواح الخربية ، ما بين صنعاء ومأرب) وكذا معبد المساجد ببلاد مراد (على مبعدة ١٧ كيلا من مارب) انما تم بناؤه فى القرن الثامن قبل الميلاد (انظر : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٢٩٦ــ ٢٩٩ ، أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٧٤ ، وكذا

ETAO SHRD in PSBA, 26, 1959, p. 274 F.

(٢٣) Le Museon,

(٢٤) انظر عن هذا التاريخ

J. B. Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947, p. 116, 143.

وكذا Note on The Last Kinks of Saba, p. 269.

(٢٥) فريتز هومل : التاريخ العربى القديم ص ١٠٨ •

(٢٦) A. Grohmann, Arabien, Munchen, 1963, p. 244.

وكذا F. Hommel, Grundriss, I, p. 85.

وأما اسم «عم» فهو من الاسماء السامية الواسعة الانتشار ، والتى كانت وصفا من أوصاف الآلهة ، ثم صارت علما على اله قتبان .

وأما «سين» اله حضرموت[٢٧] ، فهو اسم سومرى ، وليس اسما ساميا ، نقله الاكديون عن السومريين ، ونظائره السامية هى «ود» لدى عرب الجنوب ، و «سهر» لدى الاراميين ، و «ارخ» أو «يرخ» لدى الاموريين[٢٨] .

هذا ويبدو أن المعبودات القمرية كانت أكثر من ذلك ، فهناك فى النقوش العربية الجنوبية «ورخن» ، والظاهر أنه كان يدل على الهلال ، فقد استعملت فى اللغات السامية كلها تقريبا ، ألفاظ مشابهة لهذه اللفظة لمعان متصلة بالهلال ، منها «يرح» بالعبرية ، و «يرحا» بالسريانية والارامية ، و و «أرخو» بالآشورية ، و «ارخ» بالبابلية و «روخ» بالعربية اليمنية والحبشية ، وكلها بمعانى القمر والهلال والشهر ، ومنها جاء الفعل «أرخ» فى العربية الفصحى ، أى حسب الايام والشهور على دورة القمر ، والاسم «التأريخ»[٢٩] .

وعلى أى حال ، فان الاسم «شهر» هو المستعمل للقمر فى الكتابات الجاهلية التى عثر عليها فى جنوب وشمال بلاد العرب ، وفى الحبشة ، كما أن الصورة التى عثر عليها فى تلك النصوص لرمز القمر ، انما هى متشابهة ومتقاربة فى شكلها ، مما يشير الى أن الاسطورة الدينية عند القوم انما كانت متشابهة ، بل ومن أصل واحد ، أما كلمة «قمر» فلم ترد فى تلك النصوص الجاهلية ، مما دفع البعض الى القول بأن هذه التسمية متأخرة[٣٠] .

---

(٢٧) أنظر عن «دولة حضرموت» (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٢٣٥ ــ ٢٤٥) .

(٢٨) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٢٥٤ ــ ٢٥٥ ، وكذا
J. Hastings, ERE, VIII, p. 387.
وكذا I. Shahid, op-cit, p. 9.

(٢٩) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٣٩ ، وكذا

(٣٠) جواد على ٦/٥٣ .

وعلى أية حال، فان القمر ما كان يسمى فى النصوص باسمه ، وانما كان يشار اليه بكناه وصفاته ، فى غالب الاحايين ، وربما كان العرب يفعلون ذلك تأدبا ، أمام من يرونه رب الارباب ، اذ ليس من المقبول أن يخاطب المرء ربه ، كما يخاطب غيره من البشر(٣١) .

على أنه من الامور الغريبة فى الديانة العربية أن كل الاساطير التى لدينا بمحتوياتها الدينية المختلفة ، انما ترجع الى «القمر» ، وأما الرموز الحيوانية ، فكما أشرنا آنفا ، فقد اختير الثور ، لقرنية اللذين يذكران بالهلال ، كحيوان مقدس للقمر(٣٢) ، ومن ثم فقد عد «الثور» من الحيوانات المقدسة التى ترمز الى الآلهة ، ونجد هذه الصورة مرسومة فى النصوص اللحيانية والثمودية ، وعند غير العرب من الشعوب السامية وقد نص على اسمه فى الكتابات ، فقيل له «ثور» فى بعضها ، وصورت رأس الثور ، فى بعضها الاخر ، كما أن النذور التى كانت تقدم للاله المقة ، انما كان أغلبها من الثيران(٣٣) .

٢ ـ الشمس :

تأتى الشمس فى المرتبة الثانية بعد القمر ، وقد تعبد لها العرب فى مواضع مختلفة من شبه الجزيرة العربية ، وان كنا لا ندرى متى بدأت عبادة الشمس على وجه اليقين ، الا أننا نملك نصا قرآنيا كريما ، نعرف منه أنها كانت موجودة على الاقل منذ القرن العاشر قبل الميلاد ، ذلك أن القرآن الكريم يحدثنا أن ملكة سبأ على أيام سيدنا سليمان عليه السلام ، انما كانت وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، ولما كان سليمان يحكم فى القرن العاشر قبل الميلاد(٣٤) ، فان عبادة الشمس قد وجدت فى سبأ منذ القرن العاشر قبل الميلاد ، على الاقل .

---

(٣١) نفس المرجع السابق ص ٥٣ .
(٣٢) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٢٠٧ .
(٣٣) جواد على ٥٤/٦ ، وكذا
D. Nielsen, Der Sabaisch Gott. Ilmukah, p. 52.
(٣٤) يتفق المؤرخون على أن سليمان عليه السلام قد حكم فى القرن

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة «وتفقد الطير فقال مالى لاأرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لاعذبنه عذابا شديدا أو لاذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون»[٣٥] .

هـذا وقد عبدت الشمس فى قتبان وحضرموت وسبأ تحت اسم «شمس» فقد كان العرب ينطقونها كذلك ، أما العبرانيون والاراميون فينطقونها «شمش» ، وأهل أوجاريت ينطقونها «شبش» ، وكان أهل أوجاريت وعرب الجنوب يعتبرون الشمس الهة مؤنثة ، كما جاءت كذلك فى احدى رسائل العمارنة من عسقلان (رقم ٣٢٣) ، بينما كان السومريون والإكديون والمصريون يعتبرونها الهـا ذكرا ، ولعل هـذه الصلات الدينية تؤيد أن كثيرا من عناصرها فى الشعوب السامية انما كان يتوقف بعضها على البعض الاخر[٣٦] .

=

العاشر قبل الميلاد ، ولكنهم يختلفون فى تحديد تلك الفترة من هذا القرن العاشر ، فهى فى الفترة (٩٧٤ ــ ٩٣٢ ق٠م) أو فى الفترة (٩٧٣ ــ ٩٣٦ ق٠م) أو فى الفترة (٩٧٢ ــ ٩٣٢ ق٠م) أو فى الفترة (٩٧٠ ــ ٩٣٣ ق٠م) أو فى الفترة (٩٦٣ ــ ٩٢٣ ق٠م) أو فى الفترة (٩٦١ ــ ٩٢٢ ق٠م) أو فى الفترة (٩٦٠ ــ ٩٢٢ ق٠م) وهكذا (انظر : فيلب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢٠٣/١ ، وكذا
Historical Atlas of The Holy Land, N. Y., 1959, p. 81.
وكذا I. Epstein, Judaism, 1970. p. 35.

(٣٥) انظر القصة كاملة : سورة النمل : آية ٢٠ ــ ٤٤ ، وانظر : تفسير روح المعانى ١٨٢/١٩ ــ ٢١٠ ، تفسير القرطبى ١٧٦/١٣ ــ ٢١٣ ، تفسير أبى السعود ١٢٧/٤ ــ ١٣٤ ، تفسير ابن كثير ٣٦٠/٣ ــ ٣٦٦ ، تفسير الطبرسى ٢٠٨/١٩ ــ ٢٣٠ ، فى ظلال القرآن ٢٦٣١/٥ ــ ٢٦٤٣ ، تفسير الكشاف ١٤٣/٣ ــ ١٥١ ، تفسير البيضاوى ١٧٢/٢ ــ ١٧٨ ، صفوة التفاسير ٤٠٦/٢ ــ ٤١٠ ، تفسير الطبرى ٩٠/١٩ ــ ١٠٠ ، حاشية زادة على البيضاوى ٤٩٢/٣ ــ ٤٩٤ ، تفسير النسفى ٢٠٧/٣ ــ ٢١٥ ، تاريخ الطبرى ٤٨٩/١ ــ ٤٩٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٨/٢ ــ ٢٤ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٢٣٤/١ ــ ٢٣٨ .

(٣٦) سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ص١٩٤، ٢٥٦ .

هذا وغالبا ماتبدأ أسماء الشمس فى بلاد العـرب الجنوبية بلفظ «ذات» ، كما يرجح أن آلهة الشمس كانت تسمى عند المعينين «تكرح»، وهو اسم غريب غامض[٣٧] ، وان ذهب البعض الى أنه بمعنى « ذات حميم» (ذات الحميم) عند السبئيين[٣٨] ، ورأى آخرون أن «تكرح» فى معنى «كره» فى عربيتنا ، وأنه «نكرو» عند البابليين ، وهو العـدو ، فهو على طرفى نقيض مع الآله «ود»[٣٩] .

وتعرف الشمس عند السبئيين باسم «ذات غضرن» و «ذات حمى» (ذات حميم) ، وهذا ربما يعنى أنها «ذات حرارة» على أساس أن كلمة «حمى» تعنى «حرارة»[٤٠] ، وهذا المعنى قريب من «آل حمـون» و «بعل حمون» فى العبرية ، على أن هناك من يفسر اصطـلاح «ذات حميم » بمعنى « ذات الحمى » (ذات حمى) ، والحمى : الموضع الذى يحمى ، ويخصص بالاله أو المعبد أو الملك أو سيد القبيلة ، والمكان الذى يحيط بالمعبد ، فيكون حرما آمنا ، لا يجوز لاحد انتهاك حرمته ، وفى بلاد العرب جملة مواضع يقال لها «حمى» ذكر الاخباريون أسماءها[٤١] .

وأما فى النقوش القتبانية فهى «ذات صهرن» و «ذات رحبن»[٤٢]، فضلا عن اسم آخر للشمس فى الكتابات القتبانية وأعنى به «اث رت»، وهو بعينه اللفظ العبرى «أشرت» ، ويرجح «فريتز هومل» — ويؤيده نقش جلازر رقم ١٦٠٠ — أن هذا الاسم القتبانى انما يشير عادة الى آلهة الشمس ، والى زوج الاله «ود»[٤٣] .

(٣٧) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٢١٧ .

(٣٨) D. Nielsen, op-cit, p. 56.

(٣٩) جواد على : المرجع السابق ٦/٢٩٥ ، وكذا
وكذا J. Hastings, ERE, I, p. 882 .

(٤٠) على الاريانى : فى تاريخ اليمن ـ القاهرة ١٩٧٣ ص ١١ـ١٢، ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٢١٧ .

(٤١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ٢/٣٠٧ ـ ٣٠٩ ، وكذا
ZDMG, XX, 1866, p. 282, XXXII, p. 88, LIV, 1900, p. 238.

(٤٢) ٧٣تد ٤٣٢١ ٨٦ ٢١ ٢١ ٣٠٩٨٧٦٧٨٧٦

(٤٣) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن التوراة قد أشارت الى أن عقوبة عبادة الشمس ، انما هى الموت ، ومع ذلك لم يرعو المؤمنون بها، ومن ثم فقد انتشرت عبادتها فى مدن يهوذا ، فضلا عن تخصيص أماكن معينة لعبادتها عرفت باسم «بيت شمس»(٤٤) .

هذا وقد انتسب بعض العرب الى الشمس ، فسمى الواحد منهم «عبد شمس» ، وطبقا لرواية الاخباريين ، فان سبأ الاكبر ، كان أول من تسمى بهذا الاسم ، كما كان أول من تعبد للشمس ، ومن ثم فقد دعى «عبد شمس»(٤٥) .

ويذهب «فلهاوزن» أن «اللات» هى الهة الشمس ، معتمدا فى ذلك على أن «الا لاهة» بمعنى الشمس فى بيت الشعر الجاهلى يقول :

تروحنا من اللعباء قسرا فأعجلنا الاهة أن تؤوبا

هذا فضلا عن أن الهة « همدان » فى النقوش السبئية بمعنى الشمس(٤٦) ، غير أن «ريكمانز»(٤٧) انما يذهب الى أن «ألهت» هنا ليست بمعنى «الهة» ، ولكنها اسم موصول للجمع ، ومن ثم فان معنى العبارة يصبح « الذين ينتسبون الى همدان »(٤٨) ، هذا ويرى الدكتور يعقوب بكر ، أن اسم «اللات» يدخل فى تركيب بعض الاعلام العربية

---

(٤٤) F. Altheim and R. Stiehl, Die Araber der Alten Welt, III, Berlin, 1968, p. 235 F.
وكذا J. Hastings, ERE, 10, p. 880.

(٤٥) تاج العروس ١٧٢/٤ ، منتخبات ص ٥٧ ، ثم قارن : ابن حبيب : المحبر ص ٣٦٤ ، الدينورى : الاخبار الطوال ـ القاهرة ١٩٦٠ ص ١٠ ، ابن قتيبة : المعارف ـ القاهرة ١٩٣٤ ص ٤٦ ، ٢٧١ ، تاريخ اليعقوبى ١٩٥/١ ، ابن دريد : الاشتقاق ١٥٥/١ ، ٢/٣٦١ ـ ٣٦٢ ، الالوسى : بلوغ الارب ٢٠٧/١ .

(٤٦) J. Welhausen, Rest Arabischen Heidentums, Berlin, Leipzig, 1927, p. 33.

(٤٧) G. Ryckmans, Les Religions Arabs Pre-Islamiques, Lauvain, 1961, p. 56.

(٤٨) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٦١ .

الجنوبية القديمة ، مما يدل على أنها كانت من آلهة جنوب شبه الجزيرة العربية قديما[٤٩] .

ويذهب «ليتمان» الى أن «اللات» انما هى الهة الشمس عند الصفويين[٥٠] ـ وهم نصف بدو يحترفون الزراعة فى المنطقة الواقعة شرق جبل الدروز أو جبل حوزان فى سورية ـ ومن ثم فهم على اتصال بالثقافة الارامية النبطية الحوارنية ، والتى تمتاز بميزات الحضارة السامية الشمالية ، ولذا فهى متأثرة بطقوس عبادة الشمس السامية الشمالية ، ومن ثم فاننا نجد أن آلهة الشمس فى النقوش الصفوية تذكر تحت اسم «الات» ، وهى ترسم أحيانا كقطعة من الشمس ، وقد تصور أيضا حسب الطريقة السامية الشمالية «انسانا» (بينما هذا الرسم غير موجود فى السامية الجنوبية) وهذا الانسان يمثل حسناء عارية ، وان كانت الصورة فى الواقع تشبه تمثال الالهة «عشترت»[٥١] .

غير أن وجود الشمس بجوار الرأس ، انما يجعلنا نجزم بأنها صورة اله الشمس ، ومع ذلك فان «رينيه ديسو» ـ ويؤيده فى هذا «ريكمانز»[٥٢] و «ستاركى»[٥٣] ـ يرى أن الالهة المؤنثة «اللات» عند عرب الشمال ، انما هى كوكب «الزهرة» ، وأنها فى هذا نظير الاله المذكر «عثتر» عند عرب الجنوب[٥٤] .

---

(٤٩) نفس المرجع السابق ص ٣٦١ .

(٥٠) E. Littmann, Thamud und Safa, Leipzig, 1940, p. 106.

(٥١) فريتز هومل : المرجع السابق ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

(٥٢) G. Ryckmans, op-cit, p. 15, 20-22.

(٥٣) J. Stracky, Palmyreniens, Nabateens et Arabes du Nord avant l'Islam, dans Histoire des Religions, IV, Tourni, 1956, p. 211-213.

وكذا A. Grohman, Arabien, Munchen, 1963, p. 82-83.

(٥٤) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ .

وكذا R. Dussaud, Les Penetration des Arabes en Syrie avant L'Islam, Paris, 1955, p. 142.

وكذا R. Dussaud, Arabes en Syrie avant L'Islam, Paris, 1907, p. 131-132.

٢ ـ الزهـــــرة :

الزهرة هي الاله «عثتر»،وتقابل «عشتار» عند البابليين والاشوريين، و «عشتارت» لدى الكنعانيين والفينيقيين والاحباش ، و «عتر» عنـــد العبريان ، مما يدل على أنه كان من الالهة التى كانت عبادتها شائعة فى منطقة واسعة ، كما كان أيضا من الالهة الكبرى قبل الميلاد[٥٥]

ولعـــل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الاله «عثتر» العـــربى الجنوبى ، انما هو اله «ذكر» ، بينما كانت نظـــائره فى جميع الاديان السامية الاخرى مؤنثة ، وهكذا نرى الشعر العربى يذكر الزهرة مذكرة، وحتى عند العرب الذين عرفهم «نيلوس» فقد كان هذا النجم مذكرا ، ويسمونه «أسفوروس» (وليس افروديت أو أورانيا) ، ولا أدل على صحة هذا القول من أن العادة جرت أن يقدم القربان من جنس المقرب اليه ـــ ان كان ذكرا فذكر ، وان كانت أنثى فأنثى ـــ ففى «حران»[٥٦] حيث كانت عبادة القمر ، وحيث نظر للقمر كشيخ ، أصبح قربانه رجلا هرما ، ممتلىء الوجه ، وأما هنا ـــ فى الجنوب العربى ـــ فقد كان ينظر الى الزهرة ، كطفل صغير يتفق ومكانته بين العائلة المقدسة ، كابن لاله القمر ، وأمه الهة الشمس[٥٧] .

وعلى أية حال ، فلقد استنتج بعض الباحثين من عبادة هذا الثالوث الكوكبى (القمر والشمس والزهرة) فى بلاد العرب الجنوبية ، أن عبادة القوم كانت عبادة نجوم ؛ وأن هذا الثالوث يمثل عائلة الهية مكونة من

---

(٥٥) جواد على : المرجع السابق ص ٣٠٢ .
وكذا J. Hastings, ERE, II, p. 165.

(٥٦) تقع حران (حاران) على نهر بلخ ، على مبعدة ٦٠ كيلا من اتصاله بالفرات ، والى الغرب من تل حلفا ، وعلى مبعدة ٢٨٠ ميلا الى الشمال الشرقى من دمشق ، وهى احدى مراكز عبادة القمر الرئيسية تحت اسم «تارح» (عبد فى أور تحت اسم ننار). (انظر :
M. F. unger, unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 455.
L. Wolley, The Beginnings of Civilization, N. Y., 1965, p. 492)

(٥٧) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ١٩٩ .

ثلاثة أرباب (الاب وهــو القمر ، والابن وهــو الزهــرة ، والأم وهى الشمس)(٥٨) .

هذا وقد حاول «فلهاوزن» أن يثبت أن «الزهرة» هى الالهة «العزى» غير أنه لم يقدم أدلة مقنعة تثبت وجهة نظره ، بينما يرى «روبرتسون سمث» أن الطقوس الدينية للزهرة ، لا تتفق وتلك المعروفة عن العزى ، فى بلاد العــرب ، على أن نستثنى القبائل العــربية المتأثرة بطقوس «عشتار» الاشورية ، والتى كانت تؤدى عند الارامين(٥٩) .

هذا ويذهب «توخ» Tuch الى أن المعبود «ذو الخلصة» (ذو أخلص ـــ أو الاخلص) الذى كان يعبد فى «تبالة» على طريق القوافل بين مكة المكرمة وصنعــاء ، انما هو صفة للزهــرة ، ويرى «نلسن» أن الاكتشافات الحديثة قد أثبتت صحة هذا الاتجاه . وأن عبادة هذا الاله انما كانت منتشرة فى مناطق الحضارة السامية : سواء فى مناطق العرب الشماليين أو النازلين على الحدود(٦٠) .

وعلى أية حال ، فان عبادة الكواكب فى بلاد العرب لم تكن مقصورة على الثالوث المشهور (القمر والشمس والزهرة) ، وانما عبد القــوم كذلك ـــ وبخاصــة قبائل لخم وخزاعة وحمــير وقريش ـــ «الشعرى العبور» ، ويذهب الاخباريون الى أن أول من سن عبادتها للعرب ، انما كان «أبو كبشة» من خزاعة ، حيث خالف قريشا فى عبادة الاصنام ، وعبد «الشعرى العبور» والتى سميت كذلك لانها تعبر السماء عرضا(٦١) ،

---

(٥٨) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٦٢ ، سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ١٩٤ .

(٥٩) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ١٩٩ .

(٦٠) نفس المرجع السابق ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

(٦١) الزبيدى : تاج العروس ٢٤١/٤ ـ ٢٤٢ ، ابن حبيب : المحبر ص ١٢٩ ، الزبير بن بكار : جمهرة نسب قريش ـ القاهرة ١٣٨١هـ ص ٢٦١ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣١/١ ، تفسير الطبرى ٤٥/٢٧ـ٤٦ ، تفسير البيضاوى ٤٣٣/٢ ، تفسير القرطبى ١١٩/١٧ .

وأنها هى المقصودة من قوله تعـالى فى سورة النجم «وأنه هـو رب الشعرى»(٦٢) .

وهناك أيضا ما يشير الى أن بعض العرب قد عبدوا «الثريا والنجم» بدليل وجود أسماء مثل «عبد الثريا» و «عبد نجم» ، كما عبد بعض آخر «المريخ وسهيلا وعطارد وزحل»(٦٣) .

هذا وهناك من العرب من عبد «جملا أسودا»، ومن عبد «الخيل»(٦٤)، وتبرك آخرون «بالناقة»(٦٥) ، وقـدس فريق «الشجـر» ، وذلك مثل «نخلة نجران» ، «أنواط»(٦٦) على مقربة من مكة ، وكانت العرب تاتيها كل عام ، فتعلق أسلحتها عليها ، وتذبح عندها(٦٧) .

---

(٦٢) سورة النجم : آية ٤٩ ، وانظر : تفسير روح المعانى ٦٩/٢٧ـ ٧٠ ، تفسير ابى السعود ١٦٦/٥ ، تفسير النسفى ١٩٦/٤ ـ ٢٠٠ ،تفسير الطبرسى ٦٠/١٧ـ٦٠ ، تفسير الكشاف ٢٤/٤ ، فى ظلال القران ٣٤١٨/٦، الدر المنثور فى التفسير بالماثور ١٢١/٦ ،تفسير القرطبى ص ٦٢٨٨ـ٦٢٨٩، تفسير ابن كثير ٤٠٢/٤ ـ ٤٠٢ .

(٦٣) أنظر : تفسير الطبرى ٢٤/٢٧ ، تفسير القرطبى ١١٩/١٧ ، تاج العروس ٣١١/٨ ، الالوسى : بلوغ الارب ٢٤٠/٢ ، وكذا

(٦٤) ابن حجر العسقلانى : الاصابة فى معرفة الصحابة ٥٥٥/١ (رقم ٢٩٤١) ، البلاذرى : فتوح البلدان ـ القاهرة ١٩٥٧ ، الجزء الاول ص ٨٦ ، الإغانى : ٤٧/١٦ .

(٦٥) الاصفهانى : الاغانى ٩٣/١٥ (القاهرة ١٩٢٩) .

(٦٦) يروى ابن اسحاق والواقدى بسنده عن الحارث بن مالك قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ الى حنين ، وكانت لكفار قريش ومن والاهم من العرب ، شجرة عظيمه يقال لها «ذات أنواط» ياتونها كل سنة ، يعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ، يعكفون عليها يوما ، قال : فرأينا يوما ونحن نسير مع النبى ﷺ ، شجرة عظيمة خضرتنا ، فسترتنا من جـانب الطريق ، فقلنـا يا رسول الله : اجعـل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ، ﷺ : الله أكبر ، الله أكبر ، قلتم والذى نفسى بيده ، كما قال قوم : اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة ، قال : انكم قوم تجهلون ، انها لسنن ، سنن من كان قبلكم» (أنظر : ابن هشام : سيرة النبى ٣٣٤/٤ ، الواقدى : المغازى ٨٩٠/٣ ـ ٨٩١ (بيروت ١٩٨٤) ، السيرة الحلبية ٦٤/٣ (القاهرة ١٩٦٤) ، أبو الحسن الندوى : السيرة النبوية ص٣٠١ـ٣٠٢ .

(٦٧) الازرقى : أخبار مكة ١٢٩/١ ـ ١٣٠ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان ٢٧٣/١ ، ٢٦٦/٥ ـ ٢٦٧ ، تاج العروس ٢٣٦/٥ ، وكذا .
A. Grohmann, Arabien, Munchen, 1963, p. 82.

ونعن من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه الى جنب الآلهة المشتركة، كانت هناك طائفة كبيرة من الآلهة الخاصة تحمى بعض الاماكن أو القبائل . بل والامر كذلك ، ويشار اليها غالبا بالاسم «بعل» ، الذى عرفناه كأبرز الآلهة الكنعانية ، وكمركز لمجموعة من الآلهة . ولكن كلمة «بعل» فى الاصل اسم عام معناه «صاحب» أو «سيد» . ولهذا امكن اطلاقه على آلهة مختلفة(٦٨) ؛ ومنها الاله «بعل» الذى عبده بنو اسرائيل على أيام «الياس» (ايليا) عليه السلام . والى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى «وان الياس لمن المرسلين ، اذ قال لقومه ألا تتقون ـ أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الاولين»(٦٩) .

هذا وقد ذهب الامام الطبرى فى تفسير كلمة «بعل» فى الآية الكريمة الى أنها تعنى «رب» فى لغة أهل اليمن . أو أن المراد ببعل صنم(٧٠) ، وذهب البيضاوى فى تفسيره (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) الى أن بعلا ـ انما هو صنم لأهل بعلبك(٧١) . والامر كذلك بالنسبة الى صاحبى «تفسير الجلالين»(٧٢) . وكذا الامام الزمخشرى فى (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل فى وجوه التأويل)(٧٣) ، والامام الفخر الرازى

---

(٦٨) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ١٢٧ ، ١٩٤ .

(٦٩) سورة الصافات : آية ١٢٣ ـ ١٢٦ ، وانظر : تفسير النسفى ٢٧/٤ـ٢٨ . تفسير روح المعانى ١٣٨/٢٣ ـ ١٤٢ ، تفسير الطبرسى ٢٣/ ٩١ ، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٢٨٥/٥ ، تفسير ابى السعود ٢٧٦/٤.

(٧٠) تفسير الطبرى ٩١/٢٣ ، وانظر

Emcyclopedia of Islam, I p. 510.

هذا وقد جاء فى تفسير ابن كثير : قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدى : بعلا يعنى ربا ، قال عكرمة وقتادة وهى لغة اهل اليمن، وفى رواية عن قتادة : وهى لغة أزدشنوءة ، وقال ابن اسحاق : أخبرنى بعض أهل العلم أنه كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربى دمشق، وقال الضحاك : هو صنم كانوا يعبدونه (تفسير القرآن العظيم ٣١/٤) .

(٧١) تفسير البيضاوى ٢٩٩/٢ .

(٧٢) تفسير الجلالين ص ٣٩٨ (القاهرة ١٩٧٠) .

(٧٣) تفسير الكشاف ٣٥٢/٣ .

فى (التفسير الكبير)[٧٤] ، والامام القرطبى فى (الجمع لأحكام القرآن)[٧٥] ، وذهب صاحب الظلال الى أنه صنم فى سوريه كان يعبده القوم ، ومازالت مدينة «بعلبك»[٧٦] تدل على اسم هذه المعبودة[٧٧] .

والرأى عندى أن هذه الآية الكريمة انما تشير الى ان بنى اسرائيل كانوا فى فلسطين ، وخاصة على أيام الملك «آخاب» (٨٦٩ — ٨٥٠ ق٠م) يعبدون الاله «بعل» اله مدينة صور الفينيقية ، بتاثير نفوذ «ايزابيل» ابنة ملك صور ، وزوج ملك اسرائيل «آخاب» فى معبد أقيم فى «السامرة»[٧٨] من أجل هذا الغرض[٧٩] .

هذا فضلا عن أن «الياس» عليه السلام ، انما هو النبى «ايليا» عند بنى اسرائيل ، وقد جاءت قصته مفصلة فى التوراة[٨٠] (العهد

---

(٧٤) تفسير الفخر الرازى ١٦٠/٢٦ — ١٦٢ ٠

(٧٥) تفسير القرطبى ١١٧/١٥ ، ثم قارن : تفسير أبى السعود ٢٧٦/٣ ، الدر المنثور ٢٨٥/٥ ٠

(٧٦) بعلبك : مدينة سورية تقع فى سهل البقاع عند سفح الجبل الشرقى ، سماها اليونان «هليوبوليس» بمعنى «مدينة الشمس» ، وتقع على مبعدة حوالى ٧٠ ميلا الى الشمال الغربى من دمشق (قاموس الكتاب المقدس ١٨٢/١ — ١٨٣) ٠

(٧٧) فى ظلال القرآن ٢٩٩٧/٥ ٠

(٧٨) السامرة : انشأها ملك اسرائيل «عمرى» (٨٧٦ — ٨٦٩ ق٠م) فى العام السادس من حكمه ، واتخذها عاصمة له ، بدلا من «ترزة» (تل الفارعة الحالية على مبعدة ١١ كيلا شمال شرق شكيم وهى نابلس الحالية) ولمدة قرن ونصف ، حتى سقوطها عام ٧٢١ ق٠م ، على يد «سرجون الاشورى» وقد سميت السامرة ، نسبة الى شامر صاحب التل الذى بنيت فوقه ، أو بمعنى جبل الحراسة أو مركز المراقبة ، وهى فى مكان «سبسطية» الحالية ، على مبعدة ١٠ كيلا الى الشمال الغربى من شكيم (نابلس) (أنظر عن السامرة : محمد بيومى مهران : اسرائيل ٨٩٩/٢—٩٠٣، وكذا
G. A. Reiner, C. S. Fisher, and D. G. Lyon, Harvard Excava tions at Samaria, 1908-1901, 2 Vols, 1924.
وكذا J. Crowfoot, K. Kenyon and E. Sukenik, The Buildings at Samaria, 1942.
وكذا W. Keller, The Bible as History, p. 227.
وكذا W. F. Albright, BASOR, 150, 1958, p. 21-25.

(٧٩) ملوك أول ٢٣/١٦ — ٢٤ ، ٣٠ — ٣٤ ٠

(٨٠) سفر الملوك الاول ٠

القديم) ، وان كان المؤرخـون يتشككون ، من الناحية التاريخية ، فى تفصيلات رواية التوراة ، وليس ، بطبيعة الحال فى حقيقة وجود النبى ايليا ، أو فى دعوته ، ولعل السبب فى ذلك أن الرواية التوراتية انما تقدم لنا شعرا قصصيا ، أكثر منه رواية تاريخية(٨١) .

وعلى أية حال ، فالمظنون أن عبادة البعل قد انتقلت الى بلاد العرب من الشعوب المجاورة ، اذ أن كثيرا من الالهة الوثنية التى رأيناها هنا ، لم تأت جميعا من التراث القـومى ، وانما أخذ القوم بعضـا منها عن الشعوب المجاورة ، طبقا لاستعداد عام بين العرب الجنوبيين يحـدوهم الى النقل والاستيعاب ، وهو استعداد ، على أى حال ، يسر فى مراحل متأخرة من تاريخهم دخول العقائد اليهودية والنصرانية(٨٢) كما سنرى .

هذا ، وهناك بين آلهة العرب الجنوبيين عدة آلهة لا أسماء لها ، كان القوم يبتهلون اليها فرادى أو جماعات ، من هـذه الالهة الاله «ال» (ايل) ، وهو اله سامى مشترك ، فهو «ال» عند الاكديين والكنعانيين ، وهو «الوهيم» عند العبرانيين ، وهو «الله» عند العرب ، وهناك مايشير الى أن العرب الجنوبيين قد عرفوه ، واستعملوه فى الغالب اسما عـاما بمعنى «اله» ، وان استعملوه فى أحايين قليلة علما على اله خاص ، فضلا عن وروده كعنصر من أعلام الاشخاص(٨٣) .

على أن هناك من يذهب الى أنه قد لعب دورا هاما فى حركة اصلاح دينى عند الساميين ، وذلك حين حررت العقيدة السامية هـذا الاله الرئيسى وفصلته عن سائر الآلهة ، ولم تقف هذه العقيدة بهذا الاله عند

---

(٨١) E. W. Heaton, The Old Testment Prophets, (Penguin Books), 1969.
وكذا A. Lods, Israel, From its Beginnings to The Middle of The Eight Century, London, 1962, p. 378.
(٨٢) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ١٩٤ وكذا G. Ryckmans, op-cit, p. 27, 133.
(٨٣) ديتلف نلسن ، المرجع السابق ص ٢١٢ ، سبتينو موسـكاتى : المرجع السابق ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ، وكذا
Alfred Guillsume, Islam (Pelican Books), 1964, p. 7.

هذا الحد ، بل استنكرت وجود آلهة أخرى الى جواره[٨٤] ، الامر الذى تكرر فى «مصر الفرعونية» على يد الملك «اخناتون» (١٣٦٧ — ١٣٥٠ ق٠م) ، حين قام بحركته الدينية المشهورة ، التى نادى فيها بأن الهـــه «أتون» ليس هو الاله الاعظم فحسب ، بل هو الاله الواحد الاحد ؛ وقال عنه فى تسبيحاته : «اللهم انك أنت الواحد الاحد ، الذى ليس معه سواه ، برأت الدنيا وكنت فردا ، خلقت البشر والانعام ، وكل ما يسعى على الارض بقدم ، ويحلق فى الفضاء بجناح»[٨٥] ٠

وهناك كذلك عند عرب الجنوب الاله «تالب ريام» اله قبيلة همدان؛ وقد ظهر مع ظهور «بنى بتـــع» ، واشتهر بهم حوالى الميـــلاد بصفـــة خاصة ، حيث كان الهمدانيون فى تلك الفترة أصحاب جاه وسلطان ؛ ومن ثم فقد رفعوه فوق الآلهة الاخرى ؛ وبنوا له المعابد ؛ والتى كان أكبرها معبده المعروف باسم «معبد تالب ريام رب ترعت»[٨٦] والذى بقى حتى هدم بعد انتشار اليهودية فى اليمن[٨٧] ٠

وهناك كذلك الاله «ذسموى» (رب السماء) ؛ وقد ظهر قبيل الميلاد بفترة قصيرة،واستمر الى ما بعد الميلاد (أى ميلاد المسيح عليه السلام) يقدسه القوم ويقدمون له القرابين ، وقد دفع وجود هذا الاله فى بلاد العرب الجنوبية الى القول بوجود عقيدة التوحيد عند عباده من قبيـــلة «أمر» بصفة خاصة[٨٨]

وهناك الاله «رحمنن» (الرحمان) ، والذى يرجع المستشرقون أصله الى دخول اليهودية الى بلاد اليمن ، وربما اعتمدوا فى ذلك على نص

---

(٨٤) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٢١٣ ٠

(٨٥) أنظر عن ديانة اخناتون (محمد بيومى مهران : اخناتون : عصره ودعوته ــ الاسكندرية ١٩٧٩ ص ٢٨٩ ــ ٤٨٤) ٠

(٨٦) ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ــ الجزء الاول ــ ص ٩٦ ، وكذا D. Nnelsen, op-cit, p. 68.

(٨٧) الاغانى ١٧٢/٣ ، ياقوت ١٠٩/٣ ــ ١١٠ ٠

(٨٨) Le Museon, LXVII, p. 118.

مشكوك فيه يقول «الرحمن الذى فى السماء ، واسرائيل رب يهود»[٨٩]، رغم أن النص لا يفيد توحيدا ، لان اسرائيل[٩٠] لم يكن يوما رب يهود، وانما كان ذلك هو «يهوه» •

---

(٨٩) D. S. Margoliouth, The Relations between Arabs and Israelites Prior to The Rise Islam, London, 1924, p. 68.

(٩٠) انظـــر عن معنى كلمه «اسرائيل» واستعمالاتها فى العصـــور التاريخية (محمد بيومى مهران : اسرائيل ـ الكتاب الاول ـ الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٢٩ ـ ٣٢) •

٣ ـ الآلهـــة الشمـالية

١ ـ ذو الشرى :

هو اله النبط الكبير الذى نشر القوم عبادته فى أماكن تجاوزت حدود نفوذهم ، ومن ثم فقد ذكر فى النقوش الثمودية والصفوية ، بعـد أن انتقلت عبادته الى أماكن استقرارهم ، بالصيغة الارامية الاصلية «دشر» (دوشرا)·وأما الصيغة العربية المستحدثة فهى «ذسر» (ذو الشرى) ، ويبدو أن الاسم الارامى القديم لهذا الاله هو «عرا» ، وأما «دوشرا» فلقب عربى أطلقه الانباط عليه ، ومعناه «سيد شرا» والمقصود هنـا «الشراة» ، وهى المنطقة الجنوبية التى تقع جنوبى البتراء ، والتى لاتزال تسمى كذلك حتى اليوم[١] •

هذا وقد عرف هذا الاله فى كتابة يونانية عثر عليها فى الاردن،وترجع الى عام ١١٦/١١٧ ، أو ١٢٦/١٢٧م ، وفى هـذا ما يشير الى أنه اله عربى وأنه من بين الالهة المعروفة عند القوم[٢]،وقد جعله الكتاب اليونان بمنزلة الههم «ديونيسوس» ، اله الخصب ، وبخاصة الكروم ، ولعـل هذا هو السبب فى أن نقود «بصرى» تجعل لدوشـرا شعار «ديونيسوس» وهو معصرة النبيذ[٣] •

على أن «فلهاوزن»[٤] ـ ويؤيده فى ذلك كوك[٥] وجرومان[٦] ـ انما يرى أن «دوشرا» لم يأخذ طابع «ديونيسوس» Dionysos وهو فى الصحراء ، وانما حدث ذلك بتأثير من «الحضارة الكنعانية الارامية» ، غير أن « رينيه ديسو » انما يتجه الى أن دوشرا ، انما كان اله خصب

---

(١) ريجيس بلاشير : تاريخ الادب العربى ـ العصر الجـاهلى ـ ترجمة ابراهيم كيلانى ص ٦٣ ، وكذا ADAJ. II, p. 28.

(٢) R. De Vaux, une Nouvelle Inscription du Dien Arabiku, p. 23 . وكذا A. Grohmann, Arabien, 1963, p. 86.

(٣) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٥٧ •

(٤) J. Wellhausen. op-cit, p. 50-51.

(٥) G. Cook, Palmyra, in EB, 17, 1964, p. 218-219.

(٦) A. Grohmann, op-cit, p. 86.

وزرع فى الاصل ، وذلك أن منطقة الشراة التى نسب اليها كانت ، ومانزال ، غنية بأشجار الزيتون واللوز والتين والعنب والرمان[٧] •

وعلى أية حال ، فان دوشرا عند الانباط[٨] ، انما هو «ذو الشرى» عند عرب الجاهلية ، وهناك كتابات نبطية جاء فيها مع اسم «ذو الشرى» اسم «مناة» و «هبل» ، والاخير ، كما نعرف ، هو صنم قريش الرئيسى • ويذهب «ابن الكلبى» الى أن ذا الشرى انما كان صنما لبنى الحارث بن يشكر بن مبشر بن الازد ، كما كان صنما لدوس ، وهم من خزاعة من الازد[٩] •

٢ ـ اللات :

كانت اللات كبيرة آلهة الصفويين ، وأكثرها ورودا فى دعواتهم ، بل ربما كانت أهم الآلهة عندهم ، وقد عرفها اللحيانيون[١٠] كذلك ، فكان من أسمائهم «تيم اللات»[١١] ، كما تعبد لها الانباط ، سواء فى حوران، أو فى الحجاز ، وعدوها اما للالهة ، ومن ثم فان «روبرتس سمث» انما يذهب الى أنها كانت الالهة الام لمدينة البتراء[١٢] ، وأنها بمثابة الالهة

---

(٧) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ ، وكذا
R. Dussaud, la Penetration des Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1955, p. 30, 56.

(٨) انظر عن «الانباط» (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٩٣ ـ ٥٢٤) •

(٩) ابن الكلبى : كتاب الاصنام ـ القاهرة ١٩١٤ ص ٣٨ : ابن هشام ٢٤/٢ (ط السقا) •

(١٠) انظر عن «اللحيانيين» (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٢٥ ـ ٥٣٢) •

(١١) جواد على ٣٣٢/٦ ، سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٥٨ ، رينيه ديسو ـ العرب فى سورية قبل الاسلام ـ ترجمة عبد الحميد الدواخلى ـ القاهرة ١٩٥٩ ص ١١١ ، وكذا
W. Caskel, Lihyan und Lihyansch, Kohn, 1954, p. 46.

(١٢) البتراء : واحدة من أشهر مدن العالم القديم ، كانت عاصمة أدوم ، ثم أصبحت لمؤاب ، ثم عاصمة الانباط ، وتقع الى الشرق من وادى عربة ، فى منتصف المسافة تقريبا بين خليج العقبة والبحر الميت ، أو على مبعدة ٥٠ ميلا جنوب البحر الميت ، والبتراء كلمة يونانية تعنى =

«أرتميس» عند القرطاجيين ، كما أطلق «ابيجانيوس» على معبدها في البتراء «معبد الأم العذراء»[١٣] •

وهناك الكثير من النقوش النبطية التي جاء فيها ذكر «اللات» ، ومنها تلك التي في «صلخد» في حوران ، وترجع الى أعوام ٤٠،٥٠،٦٥م، وتتحدث عن هذه الالهة وعن بناء معبد لها ، له سدنة يقومون بخدمتها ، هذا فضلاً عن نقش آخر يرجع الى عام ٤٧م ، ويتحدث عن «مالك بن قصي» كاهن اللات في جبران بحوران[١٤] •

وهناك في «الحجر»[١٥] قبر شيدته «كمكام بنت وائلة بنت حرام»،

=

الصخر ، ولعلها ترجمة للكلمة العبرية «سلع» ، كما تعني كذلك الشق في الصخر ، والاسم العربي للبتراء هو «الرقيم» ، وربما هو اسم ثان للبتراء عرفها به الاغريق وهو Arke فحرفه العرب الى « الرقيم » ، وربما أرادوا بالرقيم «خزانة فرعون» بالذات ، واسمها الحديث وادي موسى •

وازدهرت البتراء حوالي القرن الرابع ق•م ، واستمرت كذلك حوالي أربعة قرون ، كانت تشغل أثناءها مركزا خطيراً على طريق القوافل بين سبأ في الجنوب وثغور البحر المتوسط في الشمال ، ثم جاء الغزو الروماني للمدينة عام ١٠٦م ، فنقل مركز الثقل نهائيا الى «بصرى» ، وسرعان ما أخذت المدينة تتضاءل شيئا فشيئا حتى أصبحت في ذمة التاريخ ، حتى كشف عنها «بوركهاردت» في عام ١٨١٢م (انظر : التفصيلات والمراجع : محمد بيومي مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٢٠ ـ ٥٢٣) •

(١٣) J. Wellhausen, op-cit, p. 33.

وكذا W. R. Smith, op-cit, p. 33, 35.

وكذا A. Grohmann, op-cit, p. 82.

(١٤) رينيه ديسو : المرجع السابق ص ١١٥ ، سبتينو موسكاتي : المرجع السابق ص ٣٥٩ ، وكذا •

A. J. Jaussen and R. Savignac, Mission Archeologique en Arabie, II, Paris, 1911, p. 506.

(١٥) الحجر : وتعرف باسم «مدائن صالح» وتقع على مبعدة ١٥ كيلا الى الشمال من مدينة «العلا» الحالية ، بالمملكة العربية السعودية ، وعلى الطريق التجاري بين جنوب بلاد العرب وسورية ، وقد ذكرت الحجر في جغرافية بطليموس ، كما ذكرها «اصطيفانوس البيزنطي» ، والحجر ، هي «أجرا» الذي ذكرها «سترابو» في حديثه عن حملة اليوس جالليوس على اليمن عام ٢٤ ق•م ، وربما كان لها ميناء يعرف باسم

=

وابنتهـــا «كليبة» لنفسيهما وذريتهمـــا ، وعليه نقش نبطى يطلب من «دوشرا» ومن «اللات» التى من «عمند» (وهو موضع غير معروف) ، ومن الالهة «منوتو» (مناة) أن يصبوا اللعنة على من يبيع هـذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يهبه أو يخرج منه جثة أو عضوا ، أو يدفن فيه أحدا ، غير «كمكام وابنتها وذريتهما» ، ويرجع تاريخ هذا النقش الى السنة الاولى قبل أو بعد الميلاد[١٦] .

وقد عرف «التدمريون»[١٧] اللات كذلك ، وهناك نقش تدمرى يرجع الى عام ١٢٩م يذكر «اللات» بين الاله شمس والاله رحيم (الذى يرد فى النقوش الصفوية) ، ثم يصف النقش هذه الالهة الثلاثة بأنها (الآلهة الطيبة) ، هذا وتصور «اللات» فى الآثار غالبا بسمات الالهة اليونانية «اثينى» Athene ، الهة الحرب والحكمة ، وهذا دليل على تقدير حكمة اللات ، ان لم يكن طابع القتال فى الالهة اليونانية هو الذى أغرى عرب تدمر ، فجعلوا «اللات» صنوا لها ، هذا وتصور «اللات» أيضا ، وفى صحبتها أسد ، وهو الحيوان الذى نجده كذلك مع الالهتين الساميتين

=

«فرضة الحجر» ، وربما كانت هى بعينها مدينة وميناء «الوجه الحالى» ، وتشير الكتابات التى وجدت فى مدائن صالح الى أنها ربما كانت من انشاء المعينيين ، كما تشير مقابرها التى جمعت فى نحتها عناصر فنيـــة مختلفة (فرعونية واغريقية ورومانية وعربية) الى أنها تشبه الى حد كبير ما هو موجود فى البتراء .

ويشير «بلينى» فى «التاريخ الطبيعى» (١٥٦/٦) أن عاصمة اللحيانيين هى «هجرا» ، وأن مركزهم الرئيسى فى واحة ديدان ، على مبعدة ١٥ كيلا الى الجنوب من الحجر ، وأن اللحيانيين كانوا يسكنون فى واحـــة الحجر ، وفى ديدان ، مما يشير الى أن «هجرا» عاصمة اللحيانيين ، هى بعينها «الحجر» ، وأما المصادر العربية فتذهب الى أن الحجر هى ديار ثمود ، عند وادى العزى ، وهم قوم سيدنا صالح عليه السلام ، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم وفى الحديث الشريف (انظر التفصيلات والمراجع : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٩٠ ـ ٤٩٢) .

(١٦) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٥٩ .

(١٧) أنظر عن «التدمريين» (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٣٣ ـ ٥٦٠) .

«عشتارت» (افروديت) و «اترجاتس»(١٨) .

هذا وكان اسم «اللات» يكون الجزء الاخير من اسم آخر ملوك تدمر «وهب اللات» (ابن أذينة والزباء) والذى يسمى فى النقوش اليونانية السورية «أثينودروس» (بمعنى هبة ايثنى) ، مما يدل على أن اللات قد أصبحت صنوا للآلهة اليونانية «اثينى» .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن «اللات» انما كانت أول صنم عربى يرد ذكره عند اليونان،فلقد جعلمنها المؤرخ اليونانى الشهير «هيرودوت» (٤٨٤ — ٤٣٠ ق.م) صنوا للالهة اليونانية «أورانيا» Urania الهة علم الفلك(١٩) .

واللات من الاصنام القديمة المشهورة عند العرب ، ويبدو أنها قد انتقلت الى الحجاز من الانباط والقبائل العربية الشمالية ، وتروى المصادر العربية أنها كانت صخرة مربعة بنت عليها «ثقيف» فى مدينة الطائف بيتا تضاهى به الكعبة المشرفة ، وكانت العرب تعظم بيت اللات. بل ان «ثقيفا» انما كانت تخص اللات ، بما كانت تخص به قريش «العزى» ، فكان الواحد منهم اذا قدم من سفر توجه الى بيت اللات فتقرب اليه ، وشكر اللات على عودته سالما ، ثم يذهب الى بيته ، هذا

---

(١٨) أترجاتس : يتكون هذا الاسم من كلمتين هما : «اتر» ، أى عثتر ، و «جاتس» ، وهى الالهة الكنعانية القديمة «عنت» ، والصيغة الارامية الاصلية التى أخذت عنها الصيغة اليونانية (اترجاتس) هى «عتر عته» ، والاسم المركب (عترعته — أو اتر جاتس) يدل على اندماج هاتين الالهتين بعضهما فى بعض ، وكان الاسد والحمامة هما الحيوانين المقدسين للالهة «اترجاتس» ، كما كان الثور الحيوان المقدس لزوجها «هدد» ، وقد انتشرت عبادة «اترجاتس» فى جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية (أنظر
Dupont - Sommer. les Arameens, Paris, 1949, p. 107-108.

(١٩) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٥٩ — ٣٦٠ ، وكذا
G. A. Cook, op-cit, p. 118.
وكذا J. Hastings, ERE. 9, p. 594.
وكذا A. Grohmann, op-cit, p. 82.
وكذا Herodotus, III, 8.

فضلا عن أن القوم كانوا يعتقدون أنه لا يجوز أن تقطع أشجار من حماها ، ولا يصاد عنده ، ولا يراق دم آدمي فيه[20] .

وتذهب المصادر العربية الى أن «عمرا بن لحي» هو الذي أدخل «اللات» على العرب ، وطبقا لرواية الاخباريين ، فقد كان «اللات» رجلا من ثقيف ، يلت له السوق للحج على صخرة اللات ، فلما مات الرجل أشاع «عمرو بن لحي» أنه لم يمت ، وانما دخل في الصخرة ، ثم أمر بعبادتها ، وأن يبنوا عليها بنيانا يسمى «اللات»[21] ، على أن رواية أخرى تذهب الى أن «عمرا بن لحي» هو الذي كان يلت السوق ؛ ويطعم الحاج ، وذهبت رواية ثالثة الى أن يهوديا كان هو الذي يلت السوق[22] .

هذا وكانت تحت صخرة اللات حفرة يقال لها «غبغب» حفظت فيها الهدايا والنذور والاموال التي كانت تقدم للصنم ، ولما أسلمت ثقيف بعث سيدنا رسول الله ، ﷺ ، المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار ، ثم أخذ الاموال التي كانت بالغبغب وسلمها الى أبي سفيان ، امتثالا لأوامر المصطفى ، ﷺ[23] .

---

(٢٠) ابن الكلبي : كتاب الاصنام ص ١٦ ، ١٩ ، ٢٧ ، ٤٣ ، ياقوت: معجم البلدان ٤/٥ ، ابن حبيب : المحبر ص ٣١٥ ، محمد الخضرى : تاريخ الامم الاسلامية ٥٥/١ (القاهرة ١٣٧٦هـ) ، محمد مبروك نافع ـ عصر ما قبل الاسلام ـ القاهرة ١٩٥٢ ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ، محمد عبدالمعيد خان : الاساطير العربية قبل الاسلام ـ القاهرة ١٩٣٦ ص ١١٩ ، تفسير البحر المحيط ١٦٠/٨ ، تفسير ابن كثير ٢٥٣/٤ .

(٢١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٧١/٢ ، الازرقى : اخبار مكة ١٢٥/١ ـ ١٢٦ ، الفاسى : شفاء الغرام ٢٨١/٢ ، ياقوت ٤/٥ ، الالوسى : بلوغ الارب ٣٤٦/١ ، وكذا A. Guillaume, op-cit, p. 7-8.

(٢٢) تفسير روح المعانى ٤٧/٢٧ ، تفسير البيضاوى ٤٣٠/٢ ،تفسير الخازن ١٩٤/٤ ، الازرقى : اخبار مكة ١٢٥/١ ، اللسان ٣٨٨/٢ ، تاج العروس ٥٨٠/١ ، ابن الكلبى : كتاب الاصنام ص ١٦ .

(٢٣) تاريخ الطبرى ٩٩/٣ ، تاريخ ابن خلدون ٥١/٢ (بيروت ١٩٧١) ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٢٨٣/٢ـ٢٨٤ ، ابن هشام ٢/ ٣٢٦ ، بلوغ الارب ٢٠٣/٢ـ٢٠٤ ، ياقوت ١٨٥/٤ ، ٥/٥ ، ابن الكلبى : كتاب الاصنام ص ١٧ ، ابن حبيب : المحبر ص ٣١٥ ، تفسير القرطبى ص ٦٢٦٩ ، تفسير ابن كثير ٤٣٢/٧ (دار الشعب ـ القاهرة ١٩٧١) ، وكذا J. Wellhausen, op-cit, p. 31.

وكان اسم «اللات» يدخل فى تركيب بعض الاسماء : فكانت العرب تسمى : زيد اللات وتيم اللات وسعد اللات وسكن اللات ، وشكم اللات ، ووهب اللات ، وعائذ اللات ، وشيع اللات ، وان كان مما يلفت النظر أن العرب ما كانت تسمى «عبد اللات» ، وان كانوا قد أقسموا بها ، كما أقسموا بغيرها من الاصنام ، كما كانوا يحملون رموزا لها معهم فى ميادين القتال ، تنصب فى ساحة الجيش حتى تشجع المحاربين ويستميتوا فى القتال، وربما كان المنادون ينادون بنداء تلك الاصنام مثل : يا للات[٢٤] .

وكان للات حمى وحرم فى جوار الطائف يقصده حجيج مكة وسواها: ويقدمون لها الذبائح ، وقد حرم قطع الاشجار والصيد والقتل فى مثل هذا المكان، فكأن الحيوان والنبات استمد من تلك البقعة مناعة الحرم[٢٥].

وتذهب المصادر العربية الى أن قريشا قبل الاسلام ، انما كانت تطوف بالكعبة ، وتقول : «واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ، فانهن الغرانيق العلا . وان شفاعتهن لترتجى» ، كانوا يقولون بنات الله، وهن يشفعن اليه[٢٦] ، والى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ، ألكم الذكر وله الانثى ، تلك اذا قسمة ضيزى . ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى»[٢٧] .

---

(٢٤) ابن دريد : الاشتقاق ٥٣٨/١ (تحقيق عبد السلام هارون ١٩٥٨) ، ابن حبيب : المحبر ص ٢١٣ ، ٣٢٧ ، ٣٥٠ ، ياقوت ٤/٥ ، جواد على ٢٣٣/٦ ــ ٢٣٥ ، وكذا J. Wellhausen, op-cit, p. 32.

(٢٥) P. K. Hitti, A History of The Arabs, 1960, p. 99.

(٢٦) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٦٠ ، الالوسى : بلوغ الارب ٢٠٣/٢ .

(٢٧) سورة النجم : آية ١٩ ــ ٢٣ ، وانظر : تفسير القرطبى ١٧/ ٩٩ـ١٠٣ ، تفسير البيضاوى ٤٣٠/٢ ، تفسير أبى السعود ١١٢/٥ـ١١٣، تفسير روح المعانى ٥٤/٢٧ـ٥٨ ، تفسير الطبرى ٥٨/٢٧ ــ ٦٢ ، تفسير الطبرسى ٤٤/٢٧ ــ ٥٦ ، فى ظلال القرآن ٣٤٠٧/٦ ــ ٣٤١٠ ، تفسير =

وتروى بعض كتب التفسير : أن مشركى مكة وبعض قبائل العـرب مثل جهينة وخزاعة وبنى مليح وبنى سلمة وعبد الدار ، كانت تقول ان الملائكة بنات الله ، وانهم كانوا يتعبدون اليهم ، على هذا المنوال ، ومن ثم فحين سأل أبو بكر الصديق ، رضوان الله عليه ، عن أمهاتهن ، أجابوه: سروات الجن ، يحسبون أنهم خلقوا مما خلق منه ابليس[٢٨] .

والى هذا يشير القرآن الكريم ، موبخـا القوم على قولهم هـذا «ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون»[٢٩] ويقول «فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون ، ألا انهم من افكهم ليقولون ، ولد الله ، وانهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ، مالكم كيف تحكمون أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ، فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين»[٣٠] .

٣ ـ الاله بيـــــل :

ربما كان «بيل» أو «بل» اله «تدمر» (على مبعدة ١٠٠ كيـلا من حمص ، ١٥٠ كيلا الى الشمال الشرقى من دمشق) ، وهو الاله السامى «بعل» ، وان كان «هنرى سيرج» يرى أن اسم «بيل» ما هو الا غطاء للاسم المحلى «بول» ، بينما يذهب «ستاركى» الى أن «بل» انما حل

= الكشاف ٤/٣٠ـ٣١ ، تفسير ابن كثـير ٧/٤٣٠ ـ ٤٣٤ (دار الشعب) ، تفسير النسفى ٤/١٩٦ ـ ١٩٧ ، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٦/١٢٦ـ ١٢٧ .

(٢٨) تفسير القرطبى ١٥/١٣٣ ، تفسير الطبرى ٢٣/١٠٥ ـ ١٠٦ ، تفسير الفخر الرازى ٢٦/١٩٦ـ٢١٩ ، تفسير روح المعانى ٢٣/١٣٥ .

(٢٩) سورة النحل : آية ٥٧ ، وانظر : تفسير الالوسى ١٤/١٦٧ ـ ١٦٨ ، تفسير ابن كثير ٤/٢٠٠ـ٢٠١ ، تفسير الكشاف ٢/٤١٤ .

(٣٠) سورة الصافات : آية ١٤٩ ـ ١٥٧ ، وانظر : تفسير النسفى ٤/٢٩ـ٣٠ ، تفسير أبى السعود ٤/٢٧٧ـ٢٧٨ ، تفسير الطبرى ٢٣/١٠٤ـ ١٠٧ ، تفسير الطبرسى ٢٣/٨٦ـ٨٨ ، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٥/ ٢٩٢ ، تفسير الكشاف ٣/٣٥٤ ، تفسير روح المعانى ٢٣/١٤٩ ـ ١٥١ ، تفسير القرطبى ١٥/١٣٣ ـ ١٣٤ ، فى ظلال القرآن ٦/٢٩٩٩ ـ ٣٠٠٠ ، تفسير البيضاوى ٢/٣٠٠ ـ ٣٠١ ، تفسير الفخر الرازى ٢٦/١٦٦ـ١٦٩ ، تفسير ابن كثير ٧/٣٦ـ٣٧ .

محل الاله المحلى «بول» ، أو بالاحرى صار اتصالا له ، ومن المقطوع به أن أهل «تدمر» أخذوا الاسم «بيل» عن «بابل» (وتقع على مبعدة ٩٠ كيلا الى الجنوب من بغداد) ، حيث يطلق هذا الاسم على الاله « بعل »[٣١] •

ويرى بعض علماء اللغة أن الاسم «بول» انما هو تطور صوتى عن «بعل» ، حيث تحول «بعل» الى «بال» الى (بول) ويعترض (رينيه ديسو) على هذا التفسير الصوتى ، ويرى أن «بل» ليست له صفات «بعل» الذى نعرفه الها للعواصف والمعارك ، ومن ثم فان «بل» ليس مشتقا اشتقاقا منطقيا من «بعل» ، وانما هو اسم مصطنع ابتدعه كهان تدمر ، ليجنبوا الجمهور الخطأ الذى نقع فيه الان ، حين نخلط بين «بعل» و «بعل شمين» •

على أن «ستاركى» ــ رغم أنه لا يرفض أن يكون اسم «بول» قد تطور صوتيا عن الصيغة العادية «بعل» ــ فانه يرى أنه يمكن أن نفترض أن «بول» الاله القومى لواحة تدمر ، قبل مجىء الساميين اليها ، معتمدا فى ذلك على أن هناك من الاسماء ما يدخل فى تركيبها اسم «بول» ، مثل «زيد بول»[٣٢] ••• وهكذا •

٢ ــ عبادة الكواكب :

والاله «رضى» هذا ، من آلهة الثموديين والصفويين ، وقد جاء فى النقوش الثمودية بصيغ مختلفة : منها «رضو» و «رضا» و «رضى»[٣٣]،

---

(٣١) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٦٢ • وكذا
R. Dussaud, op-cit, p. 92.
وكذا J. Starcky, op-cit, p. 205.

(٣٢) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٦٢ ــ ٣٦٣ ،
وكذا R. Dussaud, op-cit, p. 94.
وكذا J. Starcky, op-cit, p. 206-207.

(٣٣) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٦٧ •
وكذا J. Hastings, op-cit, p. 662.

وقد ذكرته النصوص الصفوية كثيرا فى نقوش يتوسل فيها أصحابها اليه، بأن يمن عليهم بالسلامة والنعم ، وأن يبعد عنهم شر الاعداء وكيدهم . وأن ينزل النقمة بهؤلاء الاعداء(٣٤) .

ويحاول بعض الباحثين أن يروا فى الاله «رضى» الاله «عثتر»، وأما الاخباريون فقد رأوا فيه صنما عبده بعض القوم ، غير أنهم لم يذكروا شيئا عن صلته بالكواكب ، ولا عن المعبود الذى يمثله(٣٥) ، فابن الكلبى يرى أن «رضى» كان بيتا لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة، وأن الذى هدمه انما كان واحدا منهم، هو «المستوغر بن ربيعة بن كعب»(٣٦)، وهناك من يذهب الى أن قبيلة «تميم» ، وربما طىء كذلك ، قد تعبدت لهذا الاله(٣٧) .

ويذهب بعض الباحثين الى أن «رضى» (رضا) انما عبد عند عرب الجاهلية كالهة أنثى فى صيغة «رضى» أو «رضاء» ، وعبد كاله ذكر عند الثموديين فى صيغة المذكر «رضو» ؛ والتى هى نظير «أرصو» اسمه لدى التدمريين ؛ والذى جاء كذلك فى صيغة «رصو» فى بعض الاسماء التدمرية مثل «تيم — رصو» : هذا ويقرن «أرصو» عند التدمريين بالاله «عزيزو» فهما الاهان توأمان ، ولعلهما نجم الصباح ونجم المساء(٣٨) .

---

(٣٤) W. Caskel, op-cit, p. 47, 143.

(٣٥) جواد على ١٧٠/٦ .

(٣٦) السهيلى : الروض الانف ٦٧/١ القاهرة ١٩٧١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٩٢/٣ ، تاج العروس ١٥١/١٠ ، ابن الكلبى : الاصنام ص ٣٠ ، ياقوت ٥٠/٣ ، ابن هشام ٩٦/١ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٤ .

(٣٧) أبو الفرج الاصفهانى : الاغانى ١٤٧/٧ ، ١٦/٩ ، ٤٧ .

(٣٨) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٦٨ ، وكذا
J. Starcky, op-cit, p. 220-226.
وكذا G. A. Cooke, op-cit, p. 22-23.
وكذا R. Dussaud, op-cit, p. 142-143.
وكذا J. Wellhausen, op-cit, p. 58-59.

٤ - الاصنـــام

عبادة الاصنام : بدايتها وأسبابها :

تروى المصادر العربية أن عبادة الاصنام كانت متفشية بين العرب قبل الاسلام ، حتى كان الواحد منهم ، يتخذ فى داره صنما يتعبد له هو وأهله ، ويطوف به حين خروجه وساعة أوبته ، حتى اذا ما أراد سفرا تمسح به حين يركب ، وحين يعود من سفره ، فان هذا الصنم انما يكون أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله(١) .

ولعل هذا انما كان واحدا من أهم الاسباب التى دفعت بقريش الى معارضة الاسلام بعنف وقسوة ، حين نادى بالوحدانية ، وترك عبادة الاصنام ، والى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى «وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشىء يراد ، ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ان هــذا الا اختلاق»(٢) .

ويقول صاحب كتاب الاصنام : «واشتهرت العرب فى عبادة الاصنام، فمنهم من اتخذ بيتا ، ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لم يقدر عليه ، ولا على بناء البيت ، نصب حجرا أمام الحرم ، وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت»(٣) .

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ٨٤/١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٩١/٢-١٩٢ ، الالوسى : بلوغ الارب ٢٠٦/٢ ، ابن الكلبى : كتـــاب الاصنام ص ٣٢ .

(٢) سورة ص : آية ٤-٧ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٢٤/٢٣-١٢٨، تفسير الطبرسى ٩٤/٢٣-٩٩ ، تفسير روح المعانى ١٦٥/٢٣-١٦٨ ، تفسير القرطبى ١٤٩/١٥-١٥٠ ، تفسير الفخر الرازى ١٧٦/٢٦-١٧٨ ، تفسير الكشاف ٣٦٠/٣-٣٦١ ، تفسير البيضاوى ٣٠٤/٢-٣٠٥ ، الدر المنثـور فى التفسير بالمأثور ٢٩٥/٥-٢٩٧ ، تفسير أبى السعود ٢٨٢/٤ ، تفسـير النسفى ٣٣/٤-٣٤ ، تفسير ابن كثير ٤١/٤-٤٣ ، مسند الامام احمـــد ٣٦٢/١ ، تحفة الاحوذى ٩٩/٩ .

(٣) أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبى : كتاب الاصنام - الدار القومية - القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٣ .

وهكذا اشتد غرام العرب بالاصنام وعبادتها ، حتى روى أنه لم يكن هناك حى من أحياء العرب ، الا وله صنم يعبده ، يسمونه «أنثى بنى فلان ...» ، ومنه قوله تعالى «ان يدعون من دونه الا اناثا»[٤] ، والاناث هنا كل شىء ليس فيه روح مثل الخشبة والحجارة[٥] .

والغريب من أمر هؤلاء الجاهليين أن بعضا منهم كان اذا ما وجد حجرا أجمل وأحسن مما عنده تركه ، وأخذ الحجر الجديد فعبده،ويروى «ابن دريد» فى «الاشتقاق» أن الحارث بن قيس بالذات هو الذى كان اذا ما وجد حجرا أحسن من حجر ، أخذه فعبده[٦] ، وفيه نزلت الآية الكريمة «أفرأيت من اتخذ الهه هواه»[٧] .

وهناك من يرى أن عبادة الاصنام لم تكن معروفة فى بلاد العرب الجنوبية ، وربما كان السبب فى ذلك أن القوم هناك انما تعبدوا لآلهة منظورة فى السماء — هى الكواكب الثلاثة المعروفة : الشمس والقمر والزهرة — الا أن ذلك أمرا لا يمكن القول به على وجه اليقين : الا بعد اجراء حفريات كثيرة فى جميع بلاد العرب[٨] .

ويقدم العلماء — القدامى منهم والمحدثون — عدة آراء عن كيفية بداية عبادة الاصنام فى بلاد العرب ، فهم يتفقون ، أو يكدون ، على أن العرب لم تبدأ — بادىء ذى بدء — بعبادة الاصنام ، وانما اتخذتها فى بادىء الامر ، «رمزا» للاله أو للآلهة — أو حتى للاشخاص الصالحين

---

(٤) سورة النساء : آية ١١٧ ، وانظر : تفسير الطبرى ٩/٢٠٧-٢١٢، تفسير المنارة ٥/٤٢٤-٤٢٦ ، الدر المنثور ٢/١٦٩ ، تفسير الكشاف ١/٥٦٤ .

(٥) جواد على ٦/٦٦ - ٦٧ ، اللسان ٢/٣٤٩ .

(٦) ابن دريد : الاشتقاق ١/١٢٢ ، تفسير القرطبى ١٦/١٦١-١٧٠ .

(٧) سورة الجاثية : آية ٢٣،وانظر : تفسير ابن كثير ٤/٢٢٩-٢٣٠ (بيروت ١٩٨٦) ، تفسير روح المعانى ٢٥/١٥٢-١٥٣ ، تفسير الطبرى ٢٥/١٥٠-١٥١ ، تفسير الكشاف ٣/٥١٢ ، تفسير البيضاوى ٢/٣٨٢ ، تفسير البحر المحيط ٨/٤٨ ، تفسير النسفى ٤/١٣٧ ، صفوة التفاسير ٣/ ١٨٦ ، حاشية الصاوى على الجلالين ٤/٦٧ .

(٨) A. Grohman, Arabien, Munchen, 1963, p. 247.

منهم — وبمرور الزمن نسى القوم أمر هذه «الرموز» ، فعبدوها من دون الله لأسباب مختلفة .

وهكذا فهناك أصنام عبدت بسبب المسخ — كأساف ونائلة — حين ظن القوم أنهما رجل وامرأة من «جرهم» ، وأن أساف وقع على نائلة فى الكعبة فمسخا[٩] ، وهناك من عبد — كاللات — بسبب التقمص ، حيث يروى أن «اللات» كان رجلا قد مات ، الا أن «عمرا بن لحى» أخبر القوم أنه لم يمت ، وانما دخل فى الصخرة ، كما أشرنا من قبل ، ومن ثم فقد عبد[١٠] .

وهناك أصنام تمثل قوما صالحين — كما فى حالة ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا — ذلك حين صور القـــوم هؤلاء الصالحين بعد مماتهم احياء لذكراهم ، فضلا عن الاقتداء بها ، وما أن تمر الايام ، وتمضى السنون ، حتى يعزى الشيطان القوم بعبادة هذه التماثيل[١١] ، وروى الامام البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس : صارت الاوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد ، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع كانت لهـذيل ، وأما يغـــوث فكانت لمراد ، ثم لبنى غطيف بالجوف عند سبأ ، وأما يعوق فكان لهمدان ، وأما نسرا فكانت لحمير ، لآل ذى الكلاع ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن أنصبوا الى مجالسهم التى كان يجلسون ، أنصابا

(٩) السهيلى : الروض الانف ٦٤/١ ، الفاسى : العقد الثمين ٢١٢/١ ، شفاء الغرام ٢٧٩/٢ ، ابن حبيب : المحبر ص٣١١ ، الالوسى : بلوغ الارب ٢٠١/٢ ، تاريخ اليعقوبى ٢٥٤/١ (بيروت ١٩٦٠) ، المسعودى : مروج الذهب ٢٣/٢ ، ابن كثير : البداية والنهـــاية ١٩١/٢ ، ابن هشام ٩٠/١ — ٩١ .

(١٠) الازرقى : أخبار مكة ١٢٥/١—١٢٦ ، ياقوت : معجم البلدان ٤/٥ ؛ الالوسى : بلوغ الارب ٢٤٦/١ .

(١١) تفسير المنار ٤٥٥/٧ ، ٤٣٦/٨ ، تفسير الطبرى ٩٩/٢٩ ، تفسير القرطبى ص ٦٧٨٧ ، تفسير الطبرسى ٧١/٢٩ ، تفسير البيضـاوى ٥٠٨/٢ ، تفسير ابن كثير ٦٦٦/٤—٦٦٧ ، تفسير جزء تبارك ص ١٣٥—١٣٦ .

وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت[١٢] .

وروى عن عكرمة والضحاك وقتادة وابن اسحاق نحو هذا ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هذه أصنام كانت تعبد فى زمن نوح ، وروى ابن جرير بسنده عن محمد بن قيس : ويغوث ويعوق ونسرا ، كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كانوا أشوق لنا الى العبادة ، اذا ذكرناهم ، فصوروهم ، فلما ماتوا ، وجاء آخرون دب اليهم ابليس فقال : انمـــا كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم[١٣] .

وهناك نوع من الاصنام عبدت لأسباب شخصية ، وربما الاصح بتاثير شخصى ، فطبقا للرواية المشهورة ، ان «عمرا بن لحى» قد أتى بصنم «هبل» من الشـــام الى مكة ، فنصبه عند الكعبة ، وأمر الناس بعبادته ، فكان أول صنم وضع بمكة[١٤] ، الى غير ذلك من روايات نخرج منها بنتيجة واحدة هى : أن عبادة الاصنام لم تكن أصيلة عند العرب .

والرأى عندى : أن العرب انما كانت تعبد الرب الواحد الاحد ، على ملة أبيهم ابراهيم ، ثم تمر الايام ، وتمضى السنون ، وينسى القوم هذا الدين الحنيف ، فيعكفون على عبادة هذه الاوثان،التى زعموا أنها تقربهم الى الله زلفى ، والى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى «والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى»[١٥] .

---

(١٢) صحيح البخارى ١٩٩/٦ (ط دار الجيل ـ بيروت) .

(١٣) تفسير ابن كثير ٦٦٦/٦ـ٦٦٧ ، وانظر : تفسير القرطبى ص ٦٧٨٧ ، تفسير المنار ٤٤٥/٧ ، ٤٣٦/٨ .

(١٤) ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ٤٩/١ ـ ٥٠ (تحقيق السقا) ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٨٧/٢ ـ ١٨٨ ، تاريخ اليعقوبى ٢٥٤/١ ـ ٢٥٥ ، المسعـــودى : مروج الذهب ٢٩/٢ـ٣٠ ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ص ١١٣ (القاهرة ١٣٠٢هـ) ، ياقوت : معجم البلدان ٣٦٨/٥، الالوسى : بلوغ الارب ٢٠٠/٢ ـ ٢٠١ .

(١٥) سورة الزمر : آية ٣ .

ولعل مما يؤيد هذا الاتجاه ، قلة احتفاء الجاهليين بتلك الاوثان والاصنام ، التى لا نجد لها ذكرا ، الا فى مناسبات معينة ، هـذا فضلا عن أن هذه الاوثان ، وتلك الاصنام ، لم تحل عند الجاهليين محل «الله»، كما اتفق عند غير العرب ، وعند غير الساميين على الاخص[١٦] •

وكلمة «الاصنام» ـ فيما يرى علماء اللغة ـ ليست عربية أصيلة ، وانما هى معربة من كلمة «شنم»[١٧] ، ورغم أنهم لم يذكروا لنا اسم اللغة التى عربت منها،فربما كانت من الكلمة الارامية «صلموا» أو العبرية «صلم»[١٨] ، وعلى أية حال ، فان الكلمة وردت فى النصوص العربية الجنوبية تحت اسم «صلمو» ، بمعنى «صنم» و «تمثال» ، وفى الكتابات العربية الشمالية ، من أعالى الحجاز ، تحت اسم «صلم» كاسم لاله علم ، ازدهرت عبادته فى «تيماء» حوالى عام ٦٠٠ قبل الميلاد ، ذلك أنه قد عثر على مقربة من «تيماء» على بقايا معبد ، عثر فيه على كتابة على نقش محفوظ الآن بمتحف اللوفر فى باريس ، وربما يرجع تاريخه الى القرن الخامس قبل الميلاد ، نقرأ فيه بلغة أرامية أن كاهنا قد أتى بصنم جديد (صلم هجم) وبنى له معبـدا ، وعـين له كهانا ، كما صوره فى زى آشورى ، مما دفع بعض الباحثين الى القول بأن قدوم هذا الصنم انما كان على أيام الملك البابلى «نبونيد» (٥٥٥ ـ ٥٣٩ ق٠م)[١٩] حين أقام فى تيماء ، حينا من الدهر ، قـارب سنوات عشر ، حتى أصبحت

---

(١٦) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ـ بيروت ١٩٦٤ ص ١٥٩ •

(١٧) الفيروز أبادى : القاموس المحيط ١٤١/٤ ، اللسان ٢٤١/١٥ ، تاج العروس ٣٧١/٨ •

(١٨) محمد عبد المعيد خان : المرجع السابق ص ١١٣ •

(١٩) J. A. Montgomery, Arabia and The Bible, Philadelphia, 1934, p. 67.

وكذا S. Smith, op-cit, p. 79-80.

وكذا G. A. Cooke, op-cit, p. 195-196.

تيماء[٢٠] ، وكأنها قد غدت خليفة لعاصمة البابليين (بابل)[٢١] .

ولعل من الجدير بالاشارة هنا ، أن العرب انما كانوا يفرقون بين الاصنام والاوثان ، فالصنم — فى تعريف علماء اللغة — هو ما اتخذ الها من دون الله ، وما كان له صورة كالتمثال ، وعمل من خشب أو ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد أو غيرها من جواهر الارض ، هذا وقد عرف بعضهم «الصنم» بأنه ما كان له جسم أو صورة ، فان لم يكن له جسم أو صورة فهو «وثن»[٢٢] .

وأما «ابن الكلبى» ، فالتمثال عنده ، اذا كان معمولا من خشب أو ذهب أو فضة أو غيرها من جواهر الارض فى صورة الانسان ، فهو «صنم» ؛ واذا كان من حجارة ، فهو «وثن»[٢٣] .

وأما «النصب» فهو حجر غفل ، ليس على صورة معينة[٢٤] ، تجرى عليه قبيلة من القبائل أوضاع العبادة ، لما تزعمه من أصلها السماوى ، ان حجرا بركانيا أو ما يشبهه ، ولعل أدق الاصنام صنعا ما كان لأهل اليمن ، ولا عجب ، فحظهم من الحضارة لم يعرفه أهل الحجاز ، ولا عرفه أهل نجد ، ولا كنده[٢٥] .

---

(٢٠) تيماء : وتقع على مبعدة ٦٥ ميلا الى الشمال من مدينة العلا ، على الطريق التجارى بين جنوب بلاد العرب وشمالها ، وقد بدأت تظهر فى التاريخ منذ الملك الاشورى «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ — ٧٢٧ق٠م) حيث أخذت منها الجزية ، وقد ذكرت فى عدة أسفار من التوراة،واشتهرت فى الروايات العربية بحصن السموأل بن عاديا ، والذى ربما كان من بقايا قصر الملك البابلى «نبونيد» (انظر التفصيلات والمراجع : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٨٥ — ٤٨٧) ٠

(٢١) R. P. Dougherty, Nabonidus and Belshazzar,, New-Haven, 1929, p. 106-107.

وكذا C. J. Gadd, The Harran Inscriptions of Nabonidus, AS, 8, 1958, p. 8.

(٢٢) السهيلى : الروض الانف ٦٢/١ ، اللسان ٣٤٩/١٢ ، القاموس المحيط ١٤١/٤ ، ٢٧٤ ، تاج العروس ٣٧١/٨ ٠

(٢٣) ابن الكلبى : كتاب الاصنام ص ٥٣ ٠

(٢٤) محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الاسلام — القاهرة ١٩٥٢ ص ١٦٣ ٠

(٢٥) محمد حسين هيكل : حياة محمد — القاهرة ١٩٦٥ ص ٨٣ ٠

وأما أهم الاصنام ، غير ما ذكرنا من قبل ، فهى :

١ ـ العــــزى :

كانت «العزى» ـ وأصلها تأنيث الاعز بمعنى الاقوى ـ أعظم أصنام قريش وبنى كنانة ، وكانوا يزورونها ويهدون اليها ، ويتقربون عندها بالذبح ، وطبقا لرواية ابن الكلبى ، فلم تكن قريش بمكة ، ومن أقام بها من العرب ، يعظمون شيئا من الاصنام ، اعظامهم : العزى ، ثم اللات ، ثم مناة(٢٦) .

والعزى أحـدث من اللات ومناة . لان العـرب سمت بهما قبل العزى(٢٧) ، ولان العزى ، كما يقول فلهاوزن ، لاترد فى الاعلام المركبة ، الا بعد كلمة (عبد) ، فهى لا ترد أبدا بعد الاسماء القديمة المهجورة : مثل زيد وتميم وأوس وشكم وشيع ، ولان المصادر غير العربية تذكر «مناة» حوالى عصر المسيح عليه السـلام ، وتذكر «اللات» فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وتذكر «العزى» بعد ذلك بزمن طويل ، وان غطى ذكرها بعدئذ تماما على ذكر اللات ومناة(٢٨) .

وقد نسب الاخباريون عبادة «العزى» الى عمرو بن لحى ، فقالوا : انه قال لعمرو بن ربيعة والحارث بن كعب : «ان ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتو بالعزة لحر تهامة»(٢٩) ، وطبقا لرواية ابن الكلبى ، فان الذى اتخذ العزى انما هو «ظالم بن سعد» ، وقد وضعت فى واد من نخلة الشامية ، يقال له «حراض» بازاء الغمير ، عن يمين المصعد الى العراق من مكة ، وذلك فوق «ذات عرق» الى البستان ، بتسعة أميال ،

---

(٢٦) الازرقى : أخبار مكة ١٢٦/١ ، ابن الكلبى : الاصنام ص ٢٧ ، ابن هشام ٩٢/١ ، ياقوت ١١٦/٤ ، ١١٨ ، تفسير البيضاوى ٤٣٠/٢ ، تفسير أبى السعود ١١٢/٥ ، محمد الخضرى : تاريخ الامم الاسلامية ٥٥/١ ، وكذا A. Guillaume, op-cit, p. 7.

(٢٧) ابن الكلبى : كتاب الاصنام ص ٧١ ، ياقوت ١١٦/٤ .

(٢٨) J. Wellhausen, op-cit, p. 37-39.

(٢٩) الازرقى : أخبار مكة ١٢٦/١ ، الفاسى : شفاء الغرام ٢٨١/٢ .

فبنى عليها «بسا» (يريد بيتا) وكانوا يسمعون فيه الصوت[٣٠] ، على أن بعض المفسرين انما يذهب الى أن العزى كانت بيتا بالطائف تعبده ثقيف[٣١] .

وليس هناك من ريب فى أن هذا من نوع الخلط بين العزى واللات ، كما خلط الاخباريون كذلك بين «عزى» كانت تعبدها «غطفان» ، على ما يبدو فى بيتها (بس) الذى هدمه زهير بن جناب الكلبى ، وبين «عزى» نخلة المشهورة، التى كانت تعبدها قريش، والتى هدمها خالد بن الوليد[٣٢]، كما أخطأ ابن الكلبى ، فيما يرى فلهاوزن ، حين قال : ان «بسا» بنى على العزى التى فى نخلة ، ذلك لان (بسا) ليس اسم ذات ، معناه البيت عامة ، وانما هو علم على البيت الذى بنته غطفان للعزى التى عندها[٣٣] .

وهناك رواية تذهب الى أن «العزى» سمرات (والسمرة واحدة السمر ، وهو ضرب من شجر الطلح) لها حمى : وكان الناس يتقربون اليها بالنذور ، غير أن الامام الطبرى انما يضيف رواية أخرى تذهب الى أن العزى انما هى حجر أبيض ويذهب آخرون الى أنها كانت شجرة بنخلة ، عندها وثن تعبده غطفان[٣٤] ، بينما تتجه رواية رابعة الى أنها شيطانة تأتى ثلاث سمرات ، أى أن العزى هى تلك الشيطانة ، لا السمرة أو السمرات الثلاث[٣٥] .

ولعل الاقرب الى الصواب ، أنها صنم ، له بيت وأمامها «غبغب» ، وذلك لاننا نعرف من قصة القضاء على العزى ، أن خالدا انما قطع

---

(٣٠) ابن الكلبى : الاصنام ص ١٧ــ١٨ ، ياقوت ١٦/٤ ، تفسير الطبرى ٣٥/٢٧ ، تفسير الطبرسي ١٧٥/٢٧ .
(٣١) تفسير الطبرى ٣٥/٢٧ .
(٣٢) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٧١ ، الالوسى : بلوغ الارب ٣٤٦/١ ، الاغانى ٩/١٤ ، ياقوت ١٦٧/٤ .
(٣٣) J. Wellhausen, op-cit, p. 37-39.
(٣٤) تفسير الطبرى ٣٥/٢٧، تفسير البيضاوى ١٩٩/١، ابن حبيب : المحبر ص ٣١٥ ، الفاسى : العقد الثمين ٢١٣/١ وكذا P. K. Hitti, op-cit, p. 99.
(٣٥) ابن حبيب : المحبر ص ٣١٥ ، جواد على ٢٢٤/٦ .

الشجر وهدم البيت ، وكسر الوثن ، وقتل السادن ، فضلا عن المرأة الحبشية[٣٦] ، وهذا يعنى أن العزى صنم داخل بيت ، بنيت فى حرمه أشجار ، صارت لها قداسة ، لانها حرم العزى ٠

وأما المرأة الحبشية التى رآها خالد بن الوليد نافشة شعرها ، وزعم الرواة أنها شيطانة ، فهى — ان صحت روايتهم — امرأة كان السادن يخفيها فى مكان لا يعلمه أحد غيره ، تجيب الناس ، من حيث لا يرونها ، فينسب السادن كلامها الى العزى[٣٧] ، بل ان هناك رواية يفهم منها أن العزى كانت صنما أنثى ، وأن خالدا قد هشم أنفها بالفأس[٣٨] ٠

هذا وقد أصبحت «العزى» عند العرب الهة الخضر ، حينما قامت على ثلاث سمرات فى وادى نخلة ، وصعدت الى السماء فى صورة امرأة حسناء ، وعرفت «بالزهرة» ، وكما كانت «عشتار» الهة الحب الجسدى والعشق ، فقد كان «للعزى» عند عرب الجاهلية علاقة بالزواج ، فكانت الفتاة اذا ما طلبت الزواج نشرت جانبا من شعرها ، وكحلت احدى عينيها ، وحجلت على احدى رجليها ليلا ، وقالت عبارة معناها ، انها تدعو أن تتزوج قبل الصباح ، أى قبل أن يطلع نجم الصباح وهو «الزهرة»[٣٩] ٠

وكان سدنة العزى وحجابها «بنو شيبان بن جابر بن مرة» ، من بنى سليم ، حلفاء بنى هاشم ، بل حلفاء بنى أبى طالب خاصة ، وكان آخر من سدنها ، على رأى بعض الرواة «دبية بن حرمى السلمى»[٤٠] ٠

---

(٣٦) تاريخ الطبرى ٦٥/٣ ، الازرقى : اخبار مكة ١٢٦/١-١٢٧ ، ابن الكلبى : الاصنام ص ٢٧ ، ياقوت ١١٧/٤ ، ١٨٥ ، ١١٨٦ تفسير النسفى ١٩٦/٤ ، تفسير ابى السعود ١١٢/٥ ٠

(٣٧) تاريخ الطبرى ٦٥/٣ ، ياقوت ١١٧/٤ ، الازرقى اخبار مكة ١٢٧/١-١٢٨ ٠

(٣٨) تفسير الطبرى ٥/٢٤ ، تفسير القرطبى ٢٥٨/١٥ ٠

(٣٩) ابن الكلبى : الاصنام ص ٢٥ ، عبد العزيز سالم : عصر ماقبل الاسلام ص ٦٤٣ - ٦٤٤ ٠

(٤٠) ابن كثير : البداية والنهاية ١٩٢/٢ ، الازرقى : اخبار مكة ١٢٦/١ - ١٢٧ ٠

ويرى ان مولانا وسيدنا رسول الله ، ﷺ ، حين بعث الى النـــاس كافة ، هاديا ومبشرا ونذيرا ، عاب العزى وغيرها من الاصنام ، ونهى قريشا عن عبادتها ، فاشتد ذلك على قريش ، التى كانت تعظمها أشد الاعظام ، حتى أنها كانت قد جمعت لها شعبا فى وادى حراض ، يقال له «سقام» يضاهون به الكعبة ، كما أقامت لها «منحرا» ، تنحر فيه الذبائح ويقصد اليه الحاج بعد «منى» .

وفى هذا الوقت مرض «أبو أحيحة» (سعيد بن العاص بن أمية) مرضه الذى مات فيه ، فدخل عليه «أبو لهب» (وكان يسمى عبد العزى، ومن أشد المتحمسين لها) ، فوجده يبكى ، فسأله ما يبكيك : أمن الموت ، ولا مفر منه ؟ قال الرجل : كلا ، ولكنى أخاف ألا تعبد العزى بعدى ، فقال أبو لهب : والله ما عبدت وأنت حى لأجلك ، ولا تترك بعدك لموتك، فاطمأن الرجل ومات ، وهو يقول : الان علمت أن لى خليفة يرعاها»[41] .

هذا ويبدو أن عبادة العزى انما كانت واسعـــة الانتشار فى بلاد العرب ، فقد تعبدت لها قريش وكنانة وخزاعة فى مكة ؛ كما تعبد لهـــا بنو سليم وغطفان وجشم وسعد بن بكر ونصر ، وغنى وباهلة وجميـــع مضر وبنو كنانة[42] ، وأقامت لها غطفان بيتا دعوه «كعبة غطفان» كان له سدنة وحجاب[43] ، كما تعبدت لها ثقيف واتخذت لها صنما[44] .

وهناك من يذهب الى أن عبادة العزى انما وصلت الى بلاد العرب الجنوبية ، بدليل وجود امرأة هناك تدعى «أمة العزى» فى نص عربى

---

(٤١) ابن الكلبى : الاصنام ص ٢٣ ، البـــلاذرى : المرجـــع السابق ص ١٢١ ، ثم قارن

P. K. Hitti, op-cit, p. 99.

(٤٢) تاريخ اليعقوبى ٢٥٥/١ ، ياقوت ١١٦/٤،١١٨ ، ابن حبيب : المحبر ص ٣١٥ ، ابن حزم ، المرجع السابق ص ٤٩١ ، تفســير الطبرى ٦٥/٣ ، تفسير الطبرسى ٣٦٤/٥ .

(٤٣) A. Grohmann, op-cit, p. 83.

وكذا Shorter Ency. of Islam, p. 617.

(٤٤) جواد على ٢٤٠/٦ ، وكذا A. Grohmann, op-cit, p. 83.

جنوبى ، وبدليل أن واحدا من هناك قدم لها تمثالا من ذهب : رجاء أن تشفى أخته العليلة ، وهى نفسها أمة العزى ، الانفة الذكر ، أو «أمة عزيان»(٤٥) .

وهناك أيضا ما يشير الى أن عبادة العزى قد تسربت الى عرب الشام والعراق ، والى الانباط والصفويين ، وسواء أكان ما ينسبه المؤرخون السريان الى «المنذر بن ماء السماء» (٥٠٨ — ٥٥٤م) ملك الحيرة ، من أنه ضحى بأربعمائة راهبة للعزى (فى غـزوة له بالشام عام ٥٢٨م) صحيحا ، أم أنه مجرد اختلاق على الرجل ، فليس من شك فى أنه يدل على مكانة العزى عند المناذرة حكام العراق(٤٦) .

هذا ويذهب «فلهاوزن» الى أن اسم العزى انما جـاء مرتين فى المصادر غير العربية ، الواحدة : ما جاء فى رواية لمؤرخ سريانى ، من أن الالهة العربية التى يسميها المؤرخ البيزنطى «بركوبيوس» (المتوفى عام ٥٦٣م) «افروديت» انما هى «العزى» (عوزى) ؛ والاخرى : ما جاء فى رواية «اسحاق الانطاكى» من أن العرب قد حرموا مدينة «بيت حور» فى أرض الرافدين رغم أنهم جميعا يعبدون الالهة «بليتس» (العزى) ، ويقول «فلهاوزن» أن «اسحاق الانطاكى» هذا ، يطلق على الالهة العربية «العزى» — والتى جعلها صنو الاله بليتس — اسم «كوكبتا» (مؤنث كوكب) ، وهو اسم اعتاد اليهود والسريان اطلاقه على كوكب الزهرة .

وهكذا يبدو مما قاله المؤرخ السريانى واسحاق الانطاكى أن العزى هى المقصودة حين قال ان العرب يعبدون الزهرة أو نجم الصباح ، غير أن العلاقة ليست ثابتة بالنسبة الى الجزيرة العربية كلها ، وانمـا هى ثابتة فقط بالنسبة لمنطقة الحدود مع سورية وفلسطين ، فنحن لا نلحظ شيئا منها بالنسبة الى الحجاز ونجد ، واذن فمن المحتمل أن العرب لم

---

(٤٥) P. K. Hitti, op-cit, p. 99.

(٤٦) جواد على ٢٣٨/٦ .

يعتقدوا الصلة بين الهتهم وكوكب الزهرة ، الا فى مناطق الحدود ، وتحت التأثير الاجنبى(٤٧) •

هذا ورغم أن «العزى» لا تدخل فى تركيب الاسماء الحيانية ، فقد ورد اسمها فى نصوص لحيانية قديمة تحت اسم «هنعزى» مرة ، وتحت اسم «عزى» مرة أخرى ، وعلى أية حال ، فانها ، فيما يبدو ، لم تكن من آلهة اللحيانيين فى الاصل ، وربما نقلها القوم عن الانباط(٤٨) والذين تحدثت نقوشهم عنها ، حيث وردت تحت اسم «العـزا» فى نقش من البتراء ، وآخر من «جبـل رم» ، على مبعدة ٢٠ ميـلا الى الشرق من العقبة(٤٩) ، وثالث من «بصرى» فى حوران ، فضلا عن ورودها تحت اسم «عـزيا» فى نقشين نبطيين سبئيين ، وفى أسماء بعض الاعـلام النبطية مثل «عبد العزى» •

وأما فى «تدمر» فقـد وردت «العزى» ــ فيمـا يرى ستاركى ــ بالصيغة المذكرة «عزيزو» ، وهو الاله الذى يقترن بالاله «ارصو» عند اهل تدمر(٥٠) •

ولم يرد ذكر «العزى» فى النقوش الثمودية بشمالى الجزيرة العربية، وان ورد ذكرها فى المخربشات الثمودية ، التى كشفتها بعثة (فلبيى ــ ريكمانز) فى وسط الجزيرة ، وخاصة فى المثلث الواقع بين جدة ونجران والرياض ، فى عام ١٩٥١/١٩٥٢م ، فقد دخلت فى تركيب بعض الاعلام

---

(٤٧) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٧٥ ، وكذا
Ency. of Islam, 4, p. 1059.
وكذا J. Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927, p. 28, 82.
وكذا A. Grohman, Arabien, Munchen, 1963, p. 40-41.
(٤٨) موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٧٥ ، وكذا
W. Caskel, Lihyan und Lihyanisch, Koln, 1954, p. 45, 82, 262.
(٤٩) P. K. Hitti, History of The Arabs, London, 1960, p. 73.
(٥٠) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٧٦ ، وكذا
J. Starcky, op-cit, p. 213-215.

مثل «تيم عزى» و «عبد العزى» و «أمة العزى»[٥١] .

وأخيرا فلعل «العزى» هى ملكة السماء التى جـاء عنها فى العهد القديم أن اليهود كانوا يصنعون لها كعكا يتقربون به اليها[٥٢] ، فـاذا ما تذكرنا أن العرب فى جاهليتهم كانوا يتقربون الى كوكب السماء بالخبز والكعك ، فربما كانت العزى هى ملكة السماء التى عنتها التوراة[٥٣] .

٢ ـ منـــاة :

ومناة هى الثالثة الاخرى التى ورد ذكرها ـ بجانب اللات والعزى ـ فى القرآن الكريم : فى قوله تعالى «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى»[٥٤] ، وهى «منوتو» عند الانباط ، و «منوت» عند التدمريين ، و «منت» عند اللحيانيين والثموديين ، وان كان اسمها يدخل فى تركيب كثير من الاعلام اللحيانية بالصيغتين «منت» و «منوت» وفى الصيغـة الاخيرة فى بعض الاعلام الثمودية مثل «عبد منت» و «أوس منت»[٥٥] .

ومناة : لفظة مشتقة من المنا والمنية ، وهو الموت والقدر ، ومن المنية المنون : بمعنى «القدر المقدور» ؛ وقولهم «حانت منيته» و «حان قدره» معنى واحدا عند عباد مناة ، أو أنها سميت كذلك لان دماء النســائك كانت تمنى عندها ، أى تراق ، ومنها «منى» ، وهو موضع فى تخـوم مكة ، كان يمنى فيه ، أى يراق فيه ، وقرأها «ابن كثير» (مناءة) ، وهى مفعلة من النوء ، فانهم كانوا يستمطرون النوء عندها تبركا بها[٥٦] .

---

(٥١) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٧٦ ، وكذا
G. Ryckmans, les Religions Arabes Pre-Islamiques. Lauvain, 1961, p. 10-11.

(٥٢) ارميا ١٨/٧ .

(٥٣) J. Hastings, op-cit, p. 778.

(٥٤) سورة النجم : آية ١٩ ـ ٢٠ .

(٥٥) J. Starcky, op-cit, p. 46-47.
وكذا G. A. Cooke, op-cit, p. 217-219.

(٥٦) عباس العقـاد : مطلع النـور ـ القاهرة ١٩٦٨ ص ٥٩ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٦٣٩ ، ياقوت ١٩٨/٥ ، ٢٠٤ .

وربما كان للكلمة صلة بكلمة «مناتا» الارامية ، وكلمة «منا» العبرية، وبكلمة «منية» ؛ وجمعها منايا فى عربية القرآن الكريم ، وهى بذلك تمثل الحفـوظ والامانى ، وبخـاصة الموت ، ومن ثم فهى » الهـة القضاء والقدر»[٥٧] ، أضف الى ذلك أن ارتباط «منى» بـ «جد» فى العهد القديم، قد يشير الى ذلك أيضا ، ذلك لان كلا منهما انما تعنى المستقبل ، وان كان الاول انما يعنيه بمعناه الضار ، فى أغلب الاحايين ، على عكس الثانى الذى قد يعنى الحظ السعيد ، والمستقبل المشرق[٥٨] .

وعلى أى حال ، فلقد كان «منى» من الاصنام المشهورة عنـد بنى اسرائيل فى جاهليتهم ، لاننا نعرف من نبوءات أشعياء الاول (٧٣٤ ـ ٦٨٠ ق٠م) أن «منى» كان الها للخمر[٥٩] ، يقول أشعياء «وأما الذين تركوا الرب ، ونسوا جبل قدسى ، فرتبوا الى «جـد» مائدة ، وملأوا خمرا ممزوجا لـ «منى»[٦٠] .

على أن هناك من يرى أن «مناة» لا تمثل القدر ، الذى تمثله «مناتو» البابلية ، و «منا» العبرية ، وذلك لان الدهر فى تصور العرب والشعراء الجاهليين رجلا ، وليس امرأة ، وقد يفسر هـذا استقسام العرب عند «هبل» و «ذى الخلصة» بالازلام ، وحلفهم فقط أمام «مناة» ، ويؤكد صفة «مناة» أن سيفى الحارث الغسانى «مخذوم ورسوب» عثر عليها الامام على بن أبى طالب ، رضى الله عنه وكرم الله وجهه فى الجنة ، عند «مناة» حينما هدمت ، لان السيف رمز العـدالة والانصاف عند أهل البادية[٦١] .

---

(٥٧) J. Starcky, op-cit, p. 214-215.
وكذا J. Wellhausen, op-cit, p. 25-29.
وكذا J. Hastings, op-cit, p. 231, 661.
وكذا A. Grohmann, op-cit, p. 84.
(٥٨) Ibid, p. 257.
(٥٩) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العـرب ـ القاهرة ١٩٢٧ ص ٨٣ .
(٦٠) اشعيا ١١/٦٥ (من ترجمة التوراة لجمعية المبشرين البريطانيين ثم قارن هذا بنص التوراة العربى) .
(٦١) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٦٤٠ .

وصنم «مناة» المشهور ، انما كان «بالمشلل» ، على مبعدة ١٠ كيلا من المدينة المنورة ، وفى «قديد» بين مكة والمدينـة ، على رواية ، وفى «ودان» أو على مقربة منها ، على رواية أخرى ، وفى «فدك» على رواية ثالثة ، وعند ساحل البحر من ناحية «المشلل» على رواية رابعة[٦٢] ، هذا وينفرد الامام الطبرى بأن لمناة معبدا بالمشلل[٦٣] .

ويرى الاخباريون أن العرب جميعا انما كانت تعظم مناة ، وتذبح حول صنمها ، وكانت الاوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب هذه المواضع ، يعظمونه ويذبحون حوله ويهدون اليه ، وان كان الاوس والخزرج أشد الناس اعظاما له ، بل كانت الاوس والخزرج ومن يأخذ أخذهم من عرب أهل يثرب[٦٤] وغيرها يحجون ، فيقضون مع النـاس المواقف كلها ، ولكنهم لا يحلقون رؤوسهم ، حتى اذا ما نفروا أتوا صنم مناة ، فحلقوا رؤوسهم وأقاموا عنده،لايرون لحجتهم تماما الا بذلك[٦٥] .

وروى الامام البخارى فى صحيحه عن الحميـدى عن سفيان عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : من أهل بمناة الطاغية التى بالمشلل لا يطوفون بين الصفا والمروة ، فأنزل الله تعالى : ان الصفا والمروة من شعائر الله ، فطاف رسول الله ﷺ والمسلمون ، قال سفيان مناة بالمشلل من قديد ، وقال عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب قـال عروة ، قالت عائشة : نزلت فى الانصـار ، كانوا هم وغسان قبـل أن يسلموا يهلون لمناة ، وقال معمر عن الزهرى عن عائشة : كان رجال من الانصار ممن كان يهل لمناة ــ ومناة صنم بين مكة والمدينة ــ قالوا يا نبى

---

(٦٢) الازرقى ١٢٤/١ـ١٢٥ ، ياقوت ٢٠٤/٥ـ٢٠٥ ، الروض الانف ٦٥/١ ، ابن هشام ٥٥/١ ، تفسير الطبرسى ٤٨/٢٧ ، تفسير أبى السعود ١١٢/٥ .

(٦٣) تفسير الطبرى ٣٥/٢٧ .

(٦٤) انظر عن اسم يثرب : تاريخه وتطوره (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٢٩ ـ ٤٣٦) .

(٦٥) سبتينو موسكاتى : المرجع السابق ص ٣٦٩ ، ابن الكلبى : الاصنام ص ١٣ ــ ١٥ ، ابن حبيب : المحبر ص ٣١٦ ، اللسان ١٦٧/٢٠ ، الالوسى : بلوغ الارب ٣٤٦/١ ، ابن هشام ٩٤/١ .

الله : كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظما لمناة»[٦٦] .

هذا وقد ظلت مناة مقدسة عند القوم ، حتى اذا ما خرج سيدنا ومولانا رسول الله ، ﷺ ، فى عام الفتح (فتح مكة ٨ هـ = ٦٣٠م) ، فلما سار من المدينة المنورة أربع ليال أو خمس ، بعث الامام عليا ، كرم الله وجهه فى الجنة ، اليها ، فهدمها ، وأخذ ما كان لها[٦٧] .

وليس هناك من ريب ، فى أن ورود اسم هـذا الصنم فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، فضلا عن دخوله فى تركيب كثير من أسماء الاعلام مثل «عبد مناة» و «زيد مناة» و «عوذ مناة» و «سعد مناة» و «أوس مناة» ، انما هو دليل على انتشار عبادة «مناة» بين كثير من قبائل العرب . وبخاصة عند الاوس والخزرج وهذيل وخزاعة ، فضلا عن الانباط الذين أقاموا لها معبدا . واعتبروها معبودا قائما بذاته ، مشاركا لذى الشرى ، وان كانت النقوش النبطية التى تتحدث عنها انما جاءت من الحجر (مدائن صالح) ، وأخيرا فقد تعبد لمناة كذلك قوم ثمود ولحيان ونبط تدمر[٦٨] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن العرب انما نظرت الى اللات والعزى ومناة ، على أنهن اناث ، ومن ثم فقد رأينا بعض الباحثين يذهب الى أن عبادة الاناث انما كانت أسبق من عبادة الذكور فى بلاد العرب ، ذلك لان العرب ــ شأنهم فى ذلك شأن كل الساميين الاخرين ــ انما كانوا يعلقون أهمية على دم الامومة ، أكثر من تلك التى كانوا يعلقونها

---

(٦٦) صحيح البخارى ١٩٣/٢ـ١٩٥ ، ١٧٦/٦ـ١٧٧ .

(٦٧) ابن الكلبى : الاصنام ص ١٥ ، ياقوت ٢٠٥/٥ ، الالوسى : بلوغ الارب ١٠٢/٢ .

(٦٨) تاج العروس ٣٥١/١٠ ، وكذا

A. Grohmann, Arabien, Munchen, 1963, p. 84.

وكذا J. Starcky, Palmyrenieus, Nabateens et Arabes du Nord avant L'Islam, dans Histoire des Religions, IV, Tourni, 1956, p. 85.

وكذا A. J. Jaussen et R. Savignac, Mission Archeologique en Arabie II, Paris, 1911, p. 168, 192.

على دم الابوة[٦٩] ، كما نظرت العرب كذلك الى «مناة» على أنها أقدم أصنام العرب جميعا[٧٠] .

٣ ـ هبـــل :

كان هبل أعظم أصنام قريش ، ومن ثم فقد كان أعظم الاصنام فى الكعبة المشرفة ، التى اتخذت منها العرب مقرا لاصنامها وأوثانها ، التى تأتى فى الموسم لزيارتها وتقديم القرابين لها ، وهكذا أخذ عدد الاصنام يزداد فى الكعبة بمرور الزمن ، حتى جاء وقت زاد عددها على ثلاثمائة وستين صنما ، كان منها الكبير ومنها الصغير ، ومنها ما هو على هيئة الآدميين أو على هيئة بعض الحيوانات أو النباتات ، وان كان أكبرهـــا جميعا انما هو «هبل»[٧١] .

ويروى الاخباريون أن «هبل» انما كان من عقيق أحمر ، على صورة انسان ، مكسور اليد اليمنى،أدركته قريش،فوضعت له يدا من ذهب[٧٢] .

هذا وقد وضع القوم الى جانب صنم هبل الازلام ، وهى القداح أو السهام التى كان أهل الجاهلية يستقسمون بها ، وكان الكاهن يقرر مصائر الناس ــ الخاصة والعامة ــ بوساطة هذه السهام ، فاذا اختصموا فى أمر ما ، وأرادوا سفرا أو عملا ، أتوه فاستقسموا بالازلام عنـــده ، فما خرج عملوا به وانتهوا اليه ، وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ولده عبد الله[٧٣] ، والد النبى ، ﷺ .

---

(٦٩) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ١٦٦ ، وكذا
P. K. Hitti, op-cit, p. 100.

(٧٠) ابن الكلبى : كتاب الاصنام ص ١٣ .

(٧١) السهيلى : الروض الانف ٢٧٦/٢ ، تاريخ اليعقوبى ٢٥٤/١ـ ٢٥٥ ، جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ١٢٤ ، ابن الكلبى : كتـاب الاصنام ص ٢٧ـ٢٨ .

(٧٢) الازرقى ١١٧/١ ، ياقوت ٣٩١/٥ ، ابن الكلبى : الاصنـــام ص ٢٧ .

(٧٣) تاريخ الطبرى ٢٤٠/٢ـ٢٤١ ، الكامل لابن الاثير ٥/٢ـ٧ ، ابن حزم : المرجع السابق ص ٤٩٢ ، ابن هشام ٩١/١ .

وقد اختلف المؤرخون فى أول من نصب «هبل» فى الكعبة المشرفة ، فذهب فريق الى «خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر» ، ومن ثم فقد كان يقال له «هبل خزيمة»(٧٤) ، على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب أصحابه الى أن أول من نصب «هبل» انما كان «عمرو بن لحى» ؛ وقد أتى به من «مؤاب»(٧٥) أو من العراق ، ويميل بعض المؤرخين المحدثين الاتجاه الآخير ، معتمدين فى ذلك على أن اسم «هبل» ، انما هو مشتق من لفظ أرامى بمعنى «الروح»(٧٦) .

هذا وتشير روايات الاخباريين الى أن قريشا ، كثيرا ما كانت تلوذ بهبل وتتوسل اليه ، ليمن عليها بالخير والبركة ، فضـــلا عن النصر فى الحروب ، وكف الاذى ، وهكذا رأينا صوت أبى سفيان بن حرب ، قائد جيش الكفرة فى غزوة أحد (٣هـ =٦٢٥م) ، يعلو ، بعد المعركة ، قائلا : اعل هبل ، فاذا سيدنا ومولانا رسول الله ، ﷺ ، يأمر عمر بن الخطاب، رضوان الله عليه ، أن يرد عليه «الله أعلى وأجل» ، فيرد أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم» ، فيقول النبى ، ﷺ ، لعمر : قل : الله مولانا ولا مولى لكم(٧٧) .

هذا ويذهب بعض المستشرقين الى أن «هبل» انما هو رمز القمر ، وأن قريشا من شدة تعظيمها له وضعته فى جوف الكعبة ، على أن هناك من يذهب الى أن صورة الحية أو تمثالها ، انما تشـــير الى «هبل» أو «هبل» و «ود»(٧٨) ، وهناك ما يشير الى أن «هبل» انما كان من معبودات

---

(٧٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣٩/١ ، ابن الكلبى : الاصنـــام ص ٢٨ ، ياقوت ٣٩١/٥ .

(٧٥) أنظر عن مؤاب (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٥٥٢/٢ ـ ٥٥٦) .

(٧٦) تاريـــخ اليعقـــوبى ٢٥٤/١ ، الديـــار بكـــرى : تاريـــخ الخميس ص ١١٣، اللسان ٦٨٦/١١ ، ابن كثير ١٩١/٢ ، الازرقى ١١٧/١.

(٧٧) تاريخ الطبرى ٥٢٦/٢ ، الكامل لابن الاثير ١٦٠/٢، الاشتقاق ٥٤٠/٢ ، الميدانى : مجمع الامثال ـ القاهرة ١٩٥٥ ، ٢١٤/١ .

(٧٨) تاريخ اليعقوبى ٢٤٥/١ ، وكذا

A. J. Jussen and R. Savignac, op-cit, p. 169.

وكذا A. Grohamann, op-cit, p. 87.

وكذا J. Wellhausen, op-cit, p. 73, 221.

العرب الشماليين ، فقد ورد اسمه — الى جانب ذى الشرى ومناة — فى نقوش نبطية من الحجر ، كما أن هناك أشخاصا من قبيلة «كلب» قد حملوا اسمه[٧٩] .

ويذهب «ياقوت الحموى» الى أن هبل انما كان صنما لبنى كنانة — بكر ومالك وملكان — وكانت قريش تعبده ، وكانت كنانة تعبد ماتعبده قريش — هبل واللات والعزى — وكانت العرب تعظم هذا المجمع عليه، فتجتمع عليه كل عام مرة[٨٠] .

٤ — اساف ونائلة :

يروى الاخباريون أن اسافا ونائلة عملا — كما أشرنا من قبلا — عملا قبيحا فى الكعبة فمسخا حجرين ، روى ابن اسحاق عن عمرة قالت سمعت عائشة تقول : مزلنا نسمع أن اسافا ونائلة كانا رجلا وامرأة من جرهم، أحدثا فى الكعبة فمسخهما الله حجرين ، والله أعلم ، وقيل أن الله لم يمهلهما حتى فجرا فيها ، بل مسخهما قبل ذلك ، ثم وضعا عند الكعبة ليتعظ الناس بهما ، فلما طال مكثهما وعبدت الاصنام ، عبدا معهما،وكان أحدهما بلصق الكعبة ، والاخر فى موضع زمزم ، فنقلت قريش الذى كان بلصق الكعبة الى الاخر ، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما[٨١] .

ويروى الاخباريون أن «عمرا بن لحى» هو الذى وضع «هبل» عند الكعبة ، فكان أول صنم وضع بمكة ، ثم وضعوا كلا من اساف ونائلة على ركن من أركان البيت ، فكان الطائف يبدأ باساف ، ثم يختم به ،

---

(٧٩) A. J. Jussen and Savignac, op-cit, p. 169.
وكذا J. Hastings, ERE, I, p. 66.
وكذا Ency., of Islam, II, p. 327.

(٨٠) ياقوت ٣٩١/٥ ، ابن حبيب : المرجع السابق ص ٣١٨ .

(٨١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٩١/٢ ، ابن هشام ٩٠/١-٩١ ، الازرقى ١١٩/١-١٢٢ ، تاريخ الطبرى ٢٤١/٢ ، تفسير الطبرى ٤٣/٢، السهيلى : الروض الانف ٦٤/١ ،
وكذا P. Hitti, op-cit, p. 99.
وكذا G. A. Cooke, op-cit, p. 217-219.

ونصبوا على الصفا صنما يقال له «مجاور الريح» ، وعلى المروة صنما يقال له «مطعم الطير» ، على أن هناك رواية ثالثة تذهب الى أنهما قد وضعا على الصفا والمروة ، وأن عمرو بن لحى ، هو الذي نقلهما الى الكعبة ، ووضعهما على «زمزم»(٨٢) .

وعلى أية حال ، فيبدو أن قداسة هذين الصنمين انما كانت مقصورة على قريش ، وأن القبائل الاخرى لم تشارك في تقديسهما ، وربما كان السبب في ذلك تلك الروايات ــ الانفة الذكر ــ التي دارت حولهما ، كما أنهما صنمان استوردهما القوم من الشام ، على رواية ، ومن اليمن ، على رواية أخرى(٨٣) .

٥ ــ ود :

جاء ذكر «ود» في القرآن الكريم ، بين خمسة أصنام عبدها قوم نوح ، يقول تعالى «وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا»(٨٤) ، وقد أشرنا من قبل ، الى قصة عبدة هذه الاصنام ، وأنها من أقدم الاصنام التي عبدت قاطبة ، وأن ذلك يرجع الى ما قبل طوفان نوح(٨٥) ، حين صور القوم بعض الصالحين منهم ، ثم وضعوا لهم الصور والتماثيل لاحياء ذكراهم والاقتداء بهم ، ثم عبدوا صورهم وتماثيلهم ، ثم صارت هذه الاصنام في العرب ، بعد تبديلهم دين اسماعيل(٨٦) .

---

(٨٢) تاريخ اليعقوبي ٢٥٤/١ ، المسعودي : مروج الذهب ٢٣/٢ ، الفاسي : العقد الثمين ٢١٢/١ ، شفاء الغرام ٢٧٨/٢ ، الازرقي ٨٨/١ ، السهيلي : الروض الانف ٦٤/١ــ٦٥ .

(٨٣) تاريخ الطبري ٢٨٤/٢ ، تاريخ الخميس ص ١٢٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٩١/٢ ، ابن حزم : المرجع السابق ص ٤٩٦ ، السهيلي : المرجع السابق ص ٦٤ ــ ٦٥ .

(٨٤) سورة نوح : آية ٢٣

(٨٥) عن طوفان نوح (انظر : محمد بيومي مهران : قصة الطوفان بين الاثار والكتب المقدسة ، الرياض ١٩٧٥ ص ٣٨٣ ــ ٤٥٧ .

(٨٦) تفسير المنار ٤٥٤/٧ ، ٤٣٦/٨ ، تفسير البيضاوي ٥٠٨/٢ ، تفسير الالوسي ٧٧/٢٩ ، تفسير الطبرسي ٧١/٢٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٩١/٢ــ١٩٢ .

ويذهب الاخباريون الى أن «عمرا بن لحي» هو الذى نشر عبادة «ود» فى تهامة وفى وادى القرى ، وفى دومة الجندل ، وأن سدنته انما كانوا من بنى الفرافصة بن الاحوص ، من «كلب»[87] ، وأن القوم قد استمروا يتعبدون له حتى كسره خالد بن الوليد ، بأمر من المصطفى ، ﷺ ، بعد غلبته على بنى عبد ود ، وبنى عامر الاجدار[88] .

غير أن هناك من البـاحثين من يتشكك فى هـذه الرواية ، ذلك لان الفرافصة من الاحوص ، انما كان نصرانيا ، كما أنه لم يكن من « بنى عمرو بن ود» ، ولا من «بنى عـوف بن عذرة» ، ومن ثم فلا يمكن أن تكون السدانة من نصيبه ، ولا من نصيب ورثته من بعده[89] .

هذا ويحاول بعض الباحثين ايجـاد صلة بين «ود» العـربى وبين «ايروس» اليونانى ، وأن الاول انما هو مستورد من بلاد اليونان ، الا أن هناك ــ فى الوقت نفسه ــ من يعارض هذا الاتجاه ، لاسباب ، منها انتفاء التشابه بينهما[90] ، ومنها أن «ود» انما هو اله «معين» الكبير ، ومنها (وهو الاهم) أن القوم قد عرفوه منذ ما قبل الطوفان ، كما أشار القرآن الكريم الى عبادته بين قوم نوح ، كما أشرنا من قبل ، ومنها أن عبادته بين القـوم منذ فترة مبكرة ، بدأت منذ غيروا دعـوة اسماعيل عليه السلام .

٦ ــ سـواع :

وسواع هذا ــ طبقا لرواية الاخباريين ــ قد دفعه «عمرو بن لحى» الى رجل من هذيل ، أو «هذيل بن مدركة» ، وعلى أية حال ، فقد كانت تعبده بنو كنانة وهذيل ومزينة وعمرو بن قيس عيلان ، وهو فى «رهاط»

---

(٨٧) ابن حبيب : المحبر ص ٣١٦ ، ابن الكلبى : الاصنام ص ٥١ـ ٥٥ ، ياقوت ٣٦٧/٥ .

(٨٨) ياقوت ٣٦٨/٥ .

(٨٩) J. Hastings, ERE, I, p. 662.

وكذا W. J. Wellhausen, op-cit, p. 17.

(٩٠) W. J. Wellhausen, op-cit, p. 17.

وكذا J. Hastings, ERE, 8, p. 180.

من أرض ينبع ، وأما سدنته فكانوا من بنى صاهلة من هذيل(٩١) .

ويرجع اسم «سواع» الى فعل سامى قديم يأتى حرف العلة فى وسطه هو «شيع» ، بمعنى صاحب انسانا لحراسته ، وقد ورد فى النقوش الصفوية التى عثر عليها «رينيه ديسو» فى بادية سورية وشمال نجد ، اسم اله يقال له «شيع القوم» ، وربما كان اسم «سواع» هو الاسم القديم اليمنى الذى تطور فى الشمال الى «شيع»(٩٢) ، وهو على أية حال ، من أصنام قوم نوح .

هذا ويذهب بعض الباحثين الى أن «سواعا» هذا ، لم يكن من الاصنام الهامة عند العرب ، بدليل أنه لم يرد فى أسماء الاعلام المركبة، كما أنه لم يكن ذا شأن عند ظهور الاسلام(٩٣) ، وعلى أية حال ، فلقد هدمه «عمرو بن العاص» فى العام الثامن من هجرة المصطفى ، ﷺ(٩٤) .

٧ ـ يغــوث :

وهو صنم المذحج ، وهى قبيلة يمنية الاصل ، بل انها ، فى رأى البعض ، شعب عظيم فيه قبائل وافخاذ وبطون : تدعى «مالك بن أدد»، وعلى أى حال ، فان يغوث ـ طبقا لرواية الاخباريين ـ قد دفعه «عمرو بن لحى» الى «أنعم بن عمرو المرادى» فوضعه لمذحج باليمن . ومن ثم عبدته «مذحج» ومن والاها ، وأهل «جرش» ، وقد بقى فى «أنعم» الى أن قاتلتهم عليه بنو غطيف من مراد،فهربوا الى نجران،فأقروه عند بنى النار من الضباب من بنى الحارث بن كعب ، واجتمعوا عليه جميعا(٩٥) .

---

(٩١) البكرى : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ٦٧٩/٢ (القاهرة ١٩٤٥) ابن حبيب : المحبر ص ٣١٦ ، ابن هشام ٨٧/١،ياقوت ٢٧٦/٣ ، تفسير الطبرى ٩٩/٢٩ ، تفسير القرطبى ٣٠٩/١٨ ، تفسير الالوسى ٧٧/٢٩ .

(٩٢) حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١٤٠ .

(٩٣) J. Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, I, p. 663.

(٩٤) تاريخ الطبرى ٦٦/٣ ، الازرقى : أخبار مكة ١٣١/١ـ١٣٢ .

(٩٥) ابن الكلبى : الاصنام ص ٥٧ ، ابن حبيب : المحبر ص ٣١٧، ياقوت : معجم البلدان ٤٣٩/٥ ،السهيلى : الروض الانف ٦٣/١،ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٤٩٢ ، تفسير الطبرى ٩٩/٢٩ ، تفسير الطبرسى =

على أن هناك رواية أخرى تذهب الى أن «يغوث» قد بقى فى «أنعم» و «أعلى مراد» ، وحين أرادت مراد أن تأخذه من بنى الحارث ، استنجد هؤلاء بهمدان مما كان سببا فى أن تدق طبول الحرب بينهما . ويستعر أوارها فى معركة عرفت باسم «يوم الرزم» ، كتب النصر فيها لبنى الحارث وحلفائهم من همدان ، وحاقت الهزيمه ببنى مراد ، ولعل من الجدير بالاشارة هنا الى أن يوم الرزم هذا انما كان يوم «غزوة بدر»[96] المشهورة ، حيث نصر الله جنده من المسلمين ، وهزم المشركين من قريش ، ومن ثم فان «يوم الرزم» انما كان فى العام الثانى من الهجرة (١٤ مارس ٦٢٤م)[97] .

هذا ويتجه بعض الباحثين الى أن «يغوث» انما يمثل الاسد ، وانه كان «طوطم» مذحج ، تحمله معها ابان وقوع المعارك بينها وبين أعدائها ، وأنه كان يتولى ، فيما يزعمون ، مهمة الدفاع ، وبنفس ما تفعله «حية نحشتان»[98] لبنى اسرائيل ، والتى كانت فى بادىء أمرها ، فيما يرى سمث ، طوطما[99] .

وهناك ما يشير الى أن القوم انما قد أدخلوا صنمهم هذا فى تركيب بعض الاسماء ، ومن ثم فقد رأينا اسم «يغوث» يتردد بين كثير من

=

٣٦٤/٥ ، تفسير القرطبى ٩٨/٢٩ ، تفسير الكشاف ٣٤/٤ ،تفسير البيضاوى ٥٠٨/٢ .

(٩٦) أنظر عن «غزوة بدر» (ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ٢ / ٢٠١ – ٤٨١ ، الواقدى : المغازى ١ / ١٩–١٧٢ : السيرة الحلبية ٢ / ٣٧٤ – ٤٧٠ ، أبو زهرة : خاتم النبيين ٦١٨/٢ – ٦٧٥ ، تاريخ الطبرى ٤٢١/٢–٤٧٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٥٦/٣–٣٢٩ ، الكامل لابن الاثير ١١٦/٢ – ١٣٧ ، محمد الصادق عرجون : محمد رسول الله ٢٨٤/٣ – ٥٣٩) .

(٩٧) ياقوت ٤٣٩/٥ ، البكرى ٦٤٩/٢–٦٥١ ، وكذا

J. Wellhausen, op-cit, p. 20.

وكذا J. Hastings, op-cit, p. 663.

(٩٨) أنظر عن «حية نحشتان» (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٣١١/١ ، وكذا

J. Breasted, The Dawn of Conscience, p. 354.

(٩٩) J. Wellhausen, op-cit, p. 20.

وكذا W. R. Smith, op-cit, p. 227.

القبائل العربية — كقريش وهوازن وتغلب — مما يدل على أن «يغوث» انما كان معروفا عند هذه القبائل[١٠٠] ، فضـــلا عن وروده فى النقوش الصفوية والنصوص اليونانية[١٠١] .

هذا وهناك من الباحثين من يحاول ايجاد رابطة بين «يغوث» هذا . وبين «يعوش» الذى تحدثت عنه التوراة كواحد من أبناء عيسو (توأم بعقوب) الخمسة[١٠٢] ، أى أحد أجداد الآدوميين[١٠٣] ، ويمثله فيما يرى روبرتس سمث ، «الاسد»[١٠٤] ، غير أن هذه الرابطة ، فضلا عن أنها أمر غير متبول ، ليست هناك أدلة تؤكدها .

٨ — يعــــوق :

ويعوق هذا صنم لكنانة[١٠٥] . ومن قبل كان لقوم نوح[١٠٦] . وطبقا لرواية الاخباريين ، فان عمـــرا بن لحى ، كان قد سلمه الى «مالك بن مرثد» . . همدان ، فوضعه فى «خيوان» حيث عبدته همدان وخـــولان ومن والاها من قبل ، وكان فى «أرحب»[١٠٧] .

هذا وتشير روايات الاخباريين أن همدان أو غيرها ، لم تقل شعرا فى «يعوق» ، كما أنها لم تدخله فى تركيب أسماء الاعلام فيها ، ولعل السبب فى ذلك أن همدان قد اختلطت بحمير ، ومن ثم فقد دانت باليهودية

---

(١٠٠) ابن حبيب : المحبر ص ٢٥١ ، وكذا
W. R. Smith, op-cit, p. 226.

(١٠١) حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١٤١ .

(١٠٢) عدد ١٨/٢٤ ، تكوين ٥/٣٦ ، ١٤ ، ١٨ ، يشوع ١/١٥ ، صموئيل ثان ١٤/٨ ، أخبار ايام ثان ٣٥/١ .

(١٠٣) انظر عن الادوميين : (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٢/ ٥٤٧—٥٥٢) .

(١٠٤) W. R. Smith, op-cit, p. 226.

(١٠٥) J. Hastings, op-cit, p. 665.

(١٠٦) سورة نوح : آية ٢٣ .

(١٠٧) القاموس المحيط ٢٧٠/٣ ، الاكليل ٥٦/١٠ ، ابن الكلبى : الاصنام ص ٥٧ ، ابن كثير ١٩٢/٢ ، تفسير الكشاف ١٣٤/٤ ، تفسير الطبرى ٩٩/٢٩ ، تفسير الخازن ٣١٤/٤ ، تفسير ابى السعود ١٩٨/٥ ، تفسير الطبرسى ٣٦٤/٥ .

على أيام ذى نواس[١٠٨] ، وربما كان ذلك دليلا على أن يعوق لم يكن من الاصنام المهمة بين العــرب عند ظهور الاســلام ، وأن عبادته قد تضاءلت وانحصرت فى قبائل معينة[١٠٩] .

على أن الشىء الملافت للنظر ، أن أحدا من الاخباريين أو اللغويين لم يحاول الربط بين «يعوق» و «العيوق» الذى يأتى فى نفس هذه المادة من المعاجم : اسم نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة الايمن ، يتلو الثريا لا يتقدمها ، ويطلع قبل الجوزاء ، وسمى (العيوق) لانه يعوق «البران» عن لقاء «الثريا»[١١٠] .

٩ ـ نســـــــر :

و « نسر » هذا ـ رغم أنه من أصنام قــوم نوح ـ[١١١] الا أن رواية الاخباريين انما تذهب الى أن «عمرا بن لحى» ، قد أعطاه لرجل من «ذى رعين» يقال له «معد يكرب» فوضعه فى موضع من أرض سبأ يقال له«بلخع» فعبدته حمير ومن والاها،حتى هودهم«ذو نواس»[١١٢]، ويذهب اليعقوبى الى أن «نسرا» انما كان لحمير وهمدان ، وأنه كان منصوبا فى «غمدان» ، قصر ملوك اليمن المشهور[١١٣] .

وتذهب المصادر العربية الى أن كلمة «نسر» اسم كوكبين ، يفرقون بينهما ، فيقولون : النسر الواقع ، والنسر الطائر ، والراجح أن يعوق ونسرا كانا كوكبين ، قبل أن يكونا صنمين ، مثلهمـــا فى ذلك مثل آلهة

---

(١٠٨) ياقوت ٥١٠/٨ ، وكذا J. Hastings, op-cit, p. 663.
وكذا P. K. Hitti, op-cit, p. 62.
(١٠٩) جواد على ٢٦٢/٦ـ٢٦٣ .
(١١٠) أنظر : محمد بيومى مهــران : الديانة العــربية القديمة ـ الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٤٦ ـ ٤٧ .
(١١١) سورة نوح : آية ٢٣ .
(١١٢) ابن الكلبى : الاصنام ص ٥٧ ـ ٥٨ ، ياقـــوت ٢٨٤/٥ ، تفسير الكشاف ١٤٣/٤ ، ابن هشام ٨٨/١ ، تفسير القرطبى ٣٠٩/١٨ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٦٣٦ ـ ٦٣٧ .
(١١٣) تاريخ اليعقوبى ٢٥٥/١ .

وثنية كثيرة ، فالالهة «عشتارت» كانت فى الاصل كوبا ، ثم أصبحت لها تماثيل تجعلها رمزا للامومة والانوثة ، والامر كذلك بالنسبة الى «أفروديت» عند اليونان ، و «فينوس» عند الرومان[١١٤] .

وهناك ما يشير الى أن «نسرا» انما كان يعبد عند اللحيانيين ، وعند العرب الشماليين كذلك ، ومن ثم فان المصادر السريانية — وكذا العبرية — قد ذكرته على أنه اله عربى[١١٥] ، فالتلمود ، مثلا ، يدعوه «نشرا» ، وأنه صنم كانت العرب تعبده ، وليس هناك من ريب فى أن «نشرا» هو «نسر» ، وأنه كان يعبد عند كثير من الساميين ، وبخاصة فى شبه الجزيرة العربية[١١٦] ، وأنه كان يصور على صورة نسر من الطير ، وقد وجدت له أصنام منحوتة على الصخر ، وبخاصة فى أعالى الحجاز[١١٧] .

١٠ — ذو الخلصة :

كان ذو الخلصة صنما لخثعم وبجيلة ودوس وأزد السراة ، ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن ، ومن كان ببلادهم بتبالة ، فضلا عن بنى هلال بن عامر وغيرهم[١١٨] .

وأما بيت ذى الخلصة ، فقد كان يدعى «الكعبة اليمانية» فى أرض «خثعم» فى طريق القوافل بين مكة واليمن ، وأما تسمية «الكعبة اليمانية» هذه . فقد كانت للتمييز بينها وبين كعبة مكة (الكعبة المشرفة — بيت الله الحرام) التى كان عباد ذى الخلصة يطلقون عليها «الكعبة

---

(١١٤) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٤٢ .

(١١٥) J. Hastings, ERE, I, p. 36.

وكذا D. Neilsen, op-cit, p. 44.

(١١٦) J Hastings, op-cit, p. 36.

(١١٧) W R. Smith, op-cit, p. 226.

(١١٨) ابن هشام ٩٤/١ ، تاريخ اليعقوبى ٢٥٥/١ ، السهيلى : الروض الانف ٦٦/١ ، ابن حزم : المرجع السابق ص ٤٩٣ ، ابن حبيب : كتاب المحبر ص ٣١٧ .

الشامية» ، هذا وقد هدم بيت ذى الخلصة فى العام الثامن أو العاشر من الهجرة ، على يد «جرير بن عبد الله»(١١٩) .

ويروى الامام البخارى (١٩٤ ــ ٢٥٦م) فى صحيحه ، عن قيس عن جرير بن عبد الله ، أنه قال «كان فى الجاهلية بيت يقال له ذو الخلصة، وكان يقال له الكعبة اليمانية أو الكعبة الشمالية ، فقال رسول الله ، ﷺ: هل أنت مريحى من ذى الخلصة ، قال : فنفرت اليه فى خمسين ومائة فارس من أحمس ، قال : فكسرناه ، وقتلنا من وجدنا عنده ، فأتيناه ، فأخبرناه ، فدعا لنا ولاحمس»(١٢٠) .

وهناك ما يشير ، من رثاء امرأة من خثعم لذى الخلصة حين هدمه جرير بن عبد الله ، من أنه كان صنما أنثى ، حيث تقول :

وبنو امامة بالولية صرعوا ثمــلا يعالج كلهم أنبوبا

فقولها «الولية» يدل على أن ذا الخلصة كان صنما أنثى ، أى الهة ، هذا فضلا عن اشارات أخرى فى روايات الاخباريين ، حيث استعملوا ضمير التأنيث للتعبير عنها ، كما قالوا فيه «المروة البيضاء» ، وأما تعبيرهم عنه بضمير التذكير ، فذلك اشارة الى صنم ذى الخلصة ، وليس الى ذى الخلصة نفسه(١٢١) .

١١ ــ عم انس :

وعم أنس أو «عميأنس» صنم لخولان ، كان القوم يقدمون له نصيبه كل عام من الحرث والانعام ، ويذهب الاخباريون الى أنه هــو الذى نزلت فيه آية الانعام (١٣٦) «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام

---

(١١٩) ابن كثير : البداية والنهــاية ١٩٢/٢ ، الازرقى ١٢٤/١ ، ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥ ، ابن الكلبى : الاصــنام ص ٣٤ .

(١٢٠) صحيح البخارى ٤٩/٥ (دار الجيل) .

(١٢١) جواد على ٢٧٣/٦ ، ديتلف نلسن : المرجع السابق ص٢٢٥ ، تاج العروس ٣٨٩/٤ ، ابن الكلبى : كتاب الاصنام ص ٢٢ .

نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله ، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ، ساء ما يحكمون».

ومن ثم فقد كانوا يقسمون له من أنعامهم وحرثهم قسما بينه وبين الله تعالى بزعمهم ؛ فما دخل في حق الله من حق «عميأنس» ردوه عليه، وما دخل في حق الصنم من حق الله الذي سموه له ، تركوه له[١٢٢] .

١٢ ــ الاقيصر :

وهو صنم كان له بيت (بيت الاقيصر) في مشارف الشام ، مقصد القبائل من قضاعة ولخم وعاملة وجذام ، يحجون اليه ويحلقون رؤوسهم عنده . ويلقون قبضة من الدقيق مع كل شعرة ، وربما كان عباده يطوفون حوله . وهم يلبون ويغنون[١٢٣] .

وليس هناك من شك أن هذه الاصنام ــ الآنفة الذكر ــ ليست هي كل أصنام العرب ؛ فهناك غيرها كثير ومن ذلك ، على سبيل المثال ، وليس الحصر :

هناك صنم « المحرق » ، وهو صنم لبكر بن وائل ، وبقية ربيعة في موضع «سلمان»[١٢٤] ويظن بعض المستشرقين أنه عرف باسم «المحرق» لان عباده كانوا يقدمون اليه بعض القرابين البشرية المحروقة ، وهذا ما لم يثبت بعد[١٢٥] .

وهناك «الفلس» صنم في نجد لطيء على هيئة انسان ، كان القوم يعبدونه ويهدون اليه ، ولا يأتيه خائف الا أمن عنده ، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها اليه ، الا تركت له ولم تخفر حويته (أي حوزته

---

(١٢٢) ابن الكلبي : الاصنام ص ٤٤ ،ابن كثير ١٩١/٢ ، الالوسي : بلوغ الارب ٢٠٩/٢ .

(١٢٣) ابن الكلبي الاصنام ص ١٨ ، العقاد : مطلع النور ص ١١٤ ، تاج العروس ٤٩٧/٣ ، ياقوت ٢٣٨/١ .

(١٢٤) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ٤٩٣ ، ابن الكلبي : الاصنام ص ١١١ ، ابن حبيب : المحبر ص ٣١٧ ، ياقوت ٦١/٥ .

(١٢٥) J. Hastings, ERE, I, p. 660.

وحرمه) . وكان سدنته «ابنو بولان»[١٢٦] الذين استمر الامر فيهم حتى أرسل المصطفى ، ﷺ ، الامام على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه فى الجنة ، فهدمه ؛ وأخذ سيفين كان «الحرث بن أبى سمر الغسانى» ملك غسان قلدهما أياه ، يقال لهما «مخزم ورسوب» ، فقدم بهمـا الامام على على النبى ، ﷺ ، فتقلد أحدهما ، ثم دفعه الى الامام على ، فهو سيفه الذى كان يتقلده[١٢٧] ، هذا و «الفلس» ربما كان هـو نفسه «ها ـ فلس» عند اللحيانيين الذين تعبدوا له مع أصنامهم الاخرى[١٢٨].

وهناك «ذو الكفين» ، وكان صنما لخزاعة ولدوس ، ثم لبنى منهب بن دوس ، وقد أحرق بعد البعثة النبوية الشريفة على يد «الطفيل بن عمرو الدوسى»[١٢٩] .

وهنالك «سعد» وهو صنم بساحل «جدة» لمالك وملكان ، ابنى كنانة، وقد دخل اسمه فى تركيب بعض الاعلام مثل «عبد سعد» . وطبقـا لرواية اليعقوبى ، فقد كان كذلك لبنى بكر بن كنانة ، كما ورد اسمه فى النقوش النبطية والصفوية ، مما يدل على أن القوم كانوا يتعبدون له كذلك[١٣٠] .

وهنـاك «مناف» وبه سمى «عبد مناف» ، و «نهم» وهـو صنم لمزينة ، و «عائم» وهو لازد السراة ، و «سعير» وهو صنم عنزة . وكان القوم يحجون اليه ويطوفون حوله . فضلا عن «اليعبوب» و «باجر» وغيرها[١٣١] .

---

(١٢٦) السهيـلى : الروض الانف ٦٥/١ ، ابن هشـام ٩٥/١ ، ابن حبيب : المحبر ص ٣١٦ ، ياقوت ٢٧٣/٤ـ٢٧٤ .

(١٢٧) جواد على ٢٧٨/٦ـ٢٧٩ ، ابن الكلبى : الاصنام ص ٣٧ ، تاج العروس ٢١٠/٤ .

(١٢٨) A. Grohmann, op-cit. p. 98+.

وكذا A. J. Jaussen and R. Savignac, op-cit. II, p. 484.

(١٢٩) ابن الكلبى : الاصنام ص ٣٧ ، الروض الانف ٢٣٥/١ ، تاريخ الخميس ١٩٠/٢ .

(١٣٠) ابن كثير ١٩١/١ ، ابن الكلبى : الاصنام ص ٣٧ ،

وكذا J. Hastings, op-cit. I. p. 662.

وكذا A. Grohmann, op-cit. p. 85.

(١٣١) جواد على ٢٦٩/٦ ، ٢٧٧ـ٢٨٠ .

٥ ـ المجوس والصابئة

١ ـ المجوس :

ليس هناك من ريب في أن بعض العرب انما كانوا مجوسا ، كما أن آخرين كانوا من الصابئة ، وأن أهل الحجاز كانوا على علم بهاتين الديانتين ، على الاقل قبيل وابان حياة النبي الاعظم ، سيدنا ومولانا محمد رسول الله ، ﷺ ، ومن ثم فاننا نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى «ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ، ان الله على كل شيء شهيد»[١] .

هذا ولعل مما تجدر الاشارة اليه ، أن الصبائين ـ وليس المجوس ـ انما قد ذكروا في القرآن العظيم ، غير هذه المرة ، مرتين أخريين، الواحدة في سورة البقرة ، والاخرى في سورة المائدة[٢] .

وكلمة «مجوس» : لفظة فارسية ، وليست عربية ، وتعني «عابد النار[٣]» ، وهي من الالفاظ التي انتقلت من اللغة الفارسية الى اللغات اليونانية والارمنية والعربية ، وان كان انتقالها من الفارسية الى العربية مباشرة ، انما هو موضع شك[٤] .

وأما الديانة المجوسية ، فأغلب الظن أنها قد شاعت بين القبائل العربية ، لانها سهلة هينة عليهم ، لا تكلفهم بناء الهياكل ، ولا نحت

---

(١) سورة الحج : آية ١٧ ، وانظر : تفسير الطبري ١٧/١٢٩ـ١٣٠، تفسير البيضاوي ٢/٨٧ـ٨٨ ، تفسير الكشاف ٣/٨ ، تفسير روح المعاني ١٧/١٢٨ـ١٣٠ ، تفسير ابي السعود ٤/٨٤ ، في ظلال القرآن ٤/٢٤٠٥ ـ ٢٤١٤ ، تفسير ابن كثير ٣/٣٣٧ ، تفسير النسفي ٣/٩٦ ، صفوة التفاسير ٢/٢٨٤ ، تفسير البحر المحيط ٦/٣٥٧ ، تفسير القرطبي ١٢/٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) سورة البقرة : آية ٦٢ ، سورة المائدة : آية ٦٩ .

(٣) غرائب اللغة ص ٢٦٩ .

(٤) جواد علي ٦/٦٩٢ ، اللسان ٨/٩٨ ، وكذا

Shorter Encyclopaedia of Islam, p. 98.

وكذا Encyclopaedia Biblica, III, p. 97.

وكذا J. Hastings, op-cit, p. 465.

الادنتم . ولا ينكرون فى عبادتها للنار شيئ : لان اشعال النار للعزى والاستسقاء واشتهار الحلف . لم تكن مجهولة فى البادية العربية(٥) .

ولعل احدهم لم يكن يلتفت الى مجوسية المجوس ، الا حين يحدد الزواج بالمحارم التى لا يحلها عامة العرب : فأما فيما عدا ذلك ، فقد كانت مراسم الدين كغيرها من عادات البداوة فى الاعراس والمآتم وتعظيم الاسلاف والارواح ، لا ينكرها المجوسى ولا اليهودى ولا النصرانى من عرب الجاهلية(٦) .

ويروى «ابن قتيبة» ان المجوسية كانت معروفة فى قبائل «تميم» . ومنهم «زرارة بن عدس» . وولده «حاجب» . وقد تزوج ابنته ثم ندم. ومنهم «الاقرع بن حابس» و «أبو الاسود» جد «وكيع بن حسان» ويروى أنها كانت متفشية بين قبائل البحرين عامة . على مقربة من فارس. وأن «لقيطا بن زرارة» قد تزوج ابنته «دختنوس» . وسماها بهذا الاسم الفارسى ومات عنها(٧) .

وأما فى اليمن : فلعل المجوسيه كانت بسبب وجود الفرس هناك . بعد مساعدتهم للملك «سيف بن ذى يزن» فى طرد الاحباش من البلاد(٨) . ومن ثم فربما قد عملوا على نقلها الى بعض القبائل اليمنية. وربما كانت مقصورة عليهم .

وأيا ما كان الامر ، فان الاسلام قد قضى عليها ، وعلى غيرها من الديانات الاخرى . هناك . حيث نبذ القوم المجوسية . واعتنقوا الاسلام(٩) .

---

(٥) عباس العقاد : مطلع النور ص ٣٧ .
(٦) نفس المرجع سابق ص ٣٨ .
(٧) ابن قتيبة : المعارف ـ القاهرة ١٩٣٤ ص ٦٢١ ، المقدسى : بدء والتاريخ ـ باريس ١٩٠٧ ـ الجزء الرابع ص ٣١ ، العقاد : مطلع النور ص ٣٧ .
(٨) انظر عن طرد الاحباش من اليمن والاحتلال الفارسى (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٣٨٢ـ٣٩٠ ـ الاسكندرية ١٩٨٨) .
(٩) EB. III. p. 99

٢ ـ الصـــــابئة :

يذهب اهل الاخبار الى ان «الصابئه»(١٠) فريقان ، طائفة مؤمنة ،

---

(١٠) اختلف العلماء فى الصابئة هؤلاء ، فيقول الامام الطبرى : الصابئون : جمع صباتى ، وهو المستحدث سوى دينه دينا ، كالمرتد من اهل الاسلام عن دينه ، وكل خارج من دين كان عليه الى اخـــر غيره ، تسميه العرب صابئا ، وقد اختلف اهل التاويل فى الصبائى ، فراى فريق انه كل من خرج من دين الى غير دين ، وانهم ليسوا يهودا ولا نصارى ولا دين لهم ، وراى اخـرون أنهم بين اليهود والنصـــارى ، ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نسائهم ، وانهم من نحو سواد العراق ، ورأى فـريق ثالث انهم أهل دين بجزيرة الموصل ، يقولون (لا اله الا الله) وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبى ، ولم يؤمنوا برسول الله ، وراى فريق رابع انهم يعبدون الملائكة ، ويقرأون الزبور ، ويصلون الى القبلة ، وراى فريق خامس انهم من اهل الكتاب .

وذكر الفـــيروز ابادى فى القاموس انهم يزعمون انهم على دين نوح عليه السلام ، وقبلتهم من مهب الشمال عند منتصف النهـــار ، ويذهب صاحب تفسير المنار الى انهم فرقة من النصارى لما بينهم من التوفـــاق فى كثير من التقاليد ، ويذهب الدكتور دراز الى انهم طائفة دينية متميزة (صابئوا حـــران الذين ينسبون انفسهم الى «صابى بن ست» الذى كان يدعى نشر تعاليم ديانة أبيه ، وأنه كان عندهم كتابا بالغة السريانية) او انها طائفة يهودية مسيحية تسمى «الصابئة» (من مسيحى يوحنا المعمدان) او انها هى ذاتها الطائفة الوثنية الاولى التى كانت تنتحل هذا الاسم .

ويقول مجاهد وتابعيه ووهب بن منبه : انهم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين ، وانما هم باقون على فطرتهم ، ولا دين مقرر لهم يتبعونه ، ويذهب الامام القرطبى الى انهم موحدون ويعتقدون تاثير النجوم . وانها فاعلة ، ولهذا افتى «أبو سعيد الاصطخرى» بكفرهم للخليفة «القادر بالله» حين ساله عنهم .

ويقول «السجستانى» : الصابئون : اى الخارجون من دين الى دين ، ويقال «صبا» فلان ، اذا خرج من دينه الى دين آخر ، وصبات النجوم خرجت من مطالعها ، وصبانا خرجنا ، وقـــال قتادة : الاديان ستة ، خمسة للشيطان ، وواحد للرحمن . الصابئون يتعبدون الملائكة ويصلون للقبلة ويقرأون الزبور ، والمجوس يعبدون الشمس والقمر ، والذين أشركوا يعبدون الاوثان ، واليهود والنصارى ، ويقول النسفى أن الصابئين نوع من النصارى .

ويقول صاحب الظـــلال : والارجح ان الصابئين تلك الطائفة من مشركى العرب قبل البعثة ، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الاصنام ، فبحثوا لانفسهم عن عقيـــدة يرتضونها ، فاهتدوا الى التوحيد ، وقالوا : انهم يتعبدون على الحنيفية الاولى ، ملة ابراهيم ، =

وأخرى كافرة ، فالمؤمنون هم «الحنفاء» ومكانهم فى «حران» (حاران) موطن ابراهيم الخليل عليه السلام[11] ، وأما الكافرة ، فهم الذين يعظمون الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر ، ويصورونها فى هياكلهم[12] .

على أن الذى يفهم من الاية الكريمة (الحج : آية ١٧) ، فضلا عن ورود اسمهم مع اليهود والنصارى فيها ، أنهم انما كانوا يعبدون «الها» يتوجهون اليه فى عبادتهم[13] .

هذا ويتجه فريق من المفسرين الى القول بأنهم كانوا يمثلون دينا وسطا بين اليهودية والنصرانية يقول بالوحدانية ، ولكنه يعبد الملائكة ، على أن هناك وجه آخر للنظر يذهب الى أن الصابئة كالمجوس ؛ ويقول «أبو جعفر الرازى» : ان الصابئين قوم يعبدون الملائكة ، ويقرأون الزبور ؛ ويصلون الى القبلة[14] .

وهناك وجه ثالث للنظر يذهب الى أنهم يؤمنون بالنبيين كلهم ؛ ويصومون من كل سنة ثلاثين يوما . ويصلون الى اليمن كل يوم خمس صلوات ، على أن الرأى عند «وهب بن منبه» أن الصابىء هو من يعرف الله وحده ، وليست له شريعة يعمل بها ؛ ولم يحدث كفرا .

=

واعتزلوا عبادة قومهم ، دون أن تكون لهم دعوة فيهم ، فقال عنهم المشركون أنهم «صبأوا» أى مالوا عن دين آبائهم ، كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك ، ومن ثم سموا الصابئة ، وهذا القول ارجح من القول بانهم عبدة النجوم ، كما جاء فى بعض التفاسير .

(أنظر : تفسير الطبرى ١/١٤٥ــ١٤٧ ، القاموس المحيط ١/٢١ ، تفسير المنار ١/٢٨٠ ، تفسير ابن كثير ١/١٥٥ــ١٥٧ ، تفسير النسفى ١/ ٩٦ ، تفسير القرطبى ص ٣٧٠ ، ٤٤١٤ ، محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم ص ١٣٢ ، السجستانى : تفسير غريب القرآن ــ القاهرة ١٩٨٠ ص ١٧ ــ ١٨ ، فى ظلال القرآن ١/٥٧) .

(١١) أنظر عن الاراء التى دارت حول موطن ابراهيم الخليل عليه السلام (محمد بيومى مهران : اسرائيل ١/٦١ــ٧٢) .

(١٢) الالوسى : بلوغ الارب ٢/٢٢٣ ــ ٢٢٥ .

(١٣) تفسير الطبرى ٢/١٤٧ ، تفسير ابن كثير ١/١٥٦ــ١٥٧ .

(١٤) تفسير الطبرى ٢/١٤٧ ، تفسير ابن كثير ١/١٥٧ .

وأرجح الاقوال — فيما يرى الامام ابن كثير —(١٥) أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين : وانما هم قوم باقون على فطرتهم ، ولا دين لهم مقرر يتبعونه : هذا فضلا عن أن المؤرخين والمفسرين قد اختلفوا فى اعتبارهم من أهل الكتاب : ولكن الاغلبية ترفض ذلك ، وان اعتبروا فى فترة ما — ولاغراض سياسية — من أهل الكتاب(١٦) .

ويرى الاستاذ العقاد أن الصابئين انما كانوا يخالفون كل دين فى أشياء ، ويجنحون الى العزلة والاعتكاف . فلا يصل الى أسرارهم الا من تعمد البحث عنها ، والنفاذ اليها : من طلاب المعرفة والمتنسكين والمتحنفين : ومن ثم فانها لم تنتشر بين العرب لكثرة قيودها وأشراطها . وكتمان الصابئين ما كانوا يؤمنون به مخالفا لمن حولهم .

ومع ذلك فالظاهر من أصول كتاباتهم النبطية أن الصلة بينهم وبين نبط الحجاز الشمالى ، عن طريق العراق والعقبة كانت أوثق وأقرب من صلاتهم بسكان البحرين والشواطىء اليمنية : ولهذا وجد فيهم من ينتمى الى جد يسمونه «كاظم بن تارح» يزعمون أنه أخو ابراهيم الخليل عليه السلام(١٧) .

وهناك بعض الشعائر والعادات التى تتميز تماما عن كل من العادات الوثنية والاسلامية : فقد كان الحج عن الصابئين يتم فى « حران » بالعراق ، وليس حول الكعبة المشرفة فى مكة المكرمة ؛ كما كانت قرابينهم تحرق تماما ، ولا يؤكل منها شىء ، وكانوا يحرمون تعدد الزوجات . ولايزاولون الختان ، وكانت عبادتهم طقوسا يقصد بها الكواكب . فقد كانت تمارس ثلاث مرات يوميا : بحيث تتوافق مع شروق الشمس ،

---

(١٥) تفسير ابن كثير ١٥٥/١ — ١٥٧ (بيروت ١٩٨٦) .

(١٦) محمد مبروك نافع : تاريخ العرب — عصر ما قبل الاسلام — القاهرة ١٩٥٢ ص ١٧١ .

(١٧) عباس العقاد : مطلع النور — او طوالع البعثة المحمدية — القاهرة ١٩٦٨ ص ٣٨ .

ومع الزوال والغروب ، وذلك يخالف مواعيد الصلاة في الاسلام[18] .

ورغم أن هذه الديانة قد انتشرت الى حد ما في بلاد اليمن ، وفي حاران وأعالي العراق[19] ، فلم يوجد بين العرب قبيلة عربية كبيرة تدين بملة الصابئة ، كما دانت تميم بالمجوسية ؛ لأن هذه الملة الصابئة بطبيعتها لا تنتقل الى طائفة كبيرة بعيدة من مواطنها على موارد المياه ، وانما تنتقل اليها فرد أو أفراد يفضلون عقيدتها على العقائد الوثنية من حولها .

هذا ولا يخفى شأن الارتباط بالمكان في العقيدة الصابئية ، فان اشتراط القرب من الماء فريضة من فرائضهم العامة ، واسمهم الاول مأخوذ من «سبح» ، لا من «سبأ» التي تنتمي اليها بعض قبائل اليمن ، ولا من «صبأ» بمعنى ارتد عن الدين[20] ، وهي اللفظة التي كثر استعمالها في المصادر الاسلامية[21] ، وهي نفسها التي كان يطلقها المشركون من قريش على من كان يعتنق الاسلام[22] .

وفي قصة اسلام «الفاروق عمر بن الخطاب» رضى الله عنه وأرضاه،

---

(١٨) محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم — الكويت ١٩٧٤ ص ١٣٣ ، وكذا

Georges Sale, Observations Historiques et Critiques sur le Mohometisme, Amsterdam, 1775, p. 30-31.

(١٩) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى — الجزء الاول — القاهرة ١٩٦٦ ص ٧٢ .

(٢٠) عباس العقاد : المرجع السابق ص ٣٨ ، تفسير الطبرى ١٤٦/٢ — ١٤٧

(٢١) انتشرت بعض عادات الصابئة في قريش الى درجة انه يصعب عزلها عن الوثنية السائدة ، وذلك مثل : تأليه الملائكة والكواكب وتأثيرها على الاحداث الارضية ، ومثل نصيب الاسد الذى كان يؤخذ من القرابين ليقدم الى الالهة الاقل في الدرجة ، بدلا من تقديمها الى الله ، ومثل عبارة الابتهال التى كانت تتضمن الشرك بالله ، وتستخدم في الحج (انظر : محمد عبد الله دراز : المرجع السابق ص ١٣٢ — ١٣٣ ، البخارى : كتاب المغازى (حيث ورد مطرنا بنجم كذا ..) ، وكذا

G. Salé, op-cit, p. 30-31.

(٢٢) اللسان ٣٠٦/١ ، جواد على ٧٠٢/٦ .

نرى «جمين بن معمر الجمحى» يصرخ فى قريش «ألا ان ابن الخطاب قد صبأ» . وينادي عمـر بن الخطـاب من ورائه : «كـذب ولكنى أسلمت»[٢٣] .

وبدهى أن هذا انما يدل على أن الكلمة كانت تقال فى موضع السب، ومن ثم فقد كان المسلمون يفاخرون باسلامهم وبانهم الحلفاء ، أتباع ملة ابراهيم عليه السلام ، وقـد كان ابراهيم حنيفـا ، كما كان أول المسلمين ، وصدق الله العظيم حيث يقول تعـالى «ان أولى النـاس بابراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبى والذين آمنـوا معه ، والله ولى المؤمنين»[٢٤] .

(٢٣) ابن هشام : سـيرة النبى ﷺ ٣٥٥/١ ـ ٣٦٤ ، ابن كثـير البداية والنهاية ٧٩/٣ـ٨٢ ، الكامل لابن الاثير ٨٦/٢ ، وانظر : صحيح البخارى ٦٠/٥ـ٦١ .

(٢٤) سورة آل عمران : آية ٦٨ ، وانظر : تفسير الطبرى ٤٩٧/٦ـ ٤٩٩ ، تفسير القرطبى ص ١٣٥١ ـ ١٣٥٢ ، تفسير ابن كثير ٧٥٥/١ ـ ٧٥٦ ، تفسير النسفى ١٦٣/١ ، صفوة التفاسير ٢٠٩/١ ، فى ظـلال القرآن ٤١٢/١ـ٤١٣ ، تفسير المنار ٢٧٢/٣ .

الفصل الثالث

الاديان السمـــاوية

اليهـــودية

١ ـ اليهودية بين الانغلاق والتبشير :

لعل من الافضل هنا أن نشير ـ بادئ ذى بدء ـ الى ذلك الزعم الذى تمتلئ به صفحات الكتب من أن اليهود ما كانوا يميلون الى نشر دينهم بين الامم ، لان نشر الدعوة الدينية ، من بعض الوجوه ، محظور على اليهود[1] ، ولانهم يزعمون أنهم «شعب الله المختار»[2] ، ذلك لانهم ، فيما يزعمون ، شعب مقدس اختاره ربهم «يهوه» ليكونوا شعبه المختار ، دون بقية شعوب الارض ؛ ومن ثم فقد خاطبهم فى توراتهم «واتخذكم لى شعبا وأكون لكم الها»[3] ، و «أنتم تكونون لى مملكة كهنة ، وأمة مقدسة»[4] ، بل ان ربهم يقول لهم فى توراتهم «انك شعب مقدس للرب الهك ، وقد اختارك الرب لكى تكون له شعبا خاصا ، فوق جميع الشعوب التى على وجه الارض»[5] ، وهكذا نظر بنو اسرائيل الى أنفسهم على أنهم الشعب الذى اصطفاه الله وفضله على العالمين ، وأن من عداهم من الشعوب أقل منهم مكانة فى سلم الانسانية ، ومن ثم فلا تسمح أنفسهم أن تكون هذه الميزة لغيرهم من الشعوب .

ورغم أن هذه الاسباب قد تكون صحيحة ، من وجهة نظر معينة ،

---

(١) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ـ القـــاهرة ١٩٢٧ ص ٧٢ .

(٢) خروج ٦/١٩ ، عدد ٢/١٤ ، تثنية ١٥/١٠ .

(٣) خروج ٦ .

(٤) خروج ٦/١٩ .

(٥) تثنية ٢/١٤ ، وانظر ١٥/١٠ .

ولحد ما ؛ فليس هنـــاك من ريب فى أنه لايوجد شعب عـــرف التفرقة العنصرية كما عرفها اليهود[٦] ، بل ان «يهوه» اله اليهود نفسه ، لم يكن الها عالميا ، وانما كان الها قوميا ، وربا لليهود ـ دون سواهم من العالمين ، ذلك أن التوراة انمـــا تجعل من «الرب الاله» ، «ربا الها» لابراهيم ، وبعد ابراهيم «ربا الها» لاسحاق ، ثم ليعقوب من بعده[٧]، ثم موسى[٨]،وأخيرا تنتقل التوراة خطوة أخرى فى مفهوم الله،فتصوره «الها» لبنى اسرائيل جميعا[٩] ، بل أن اليهود لم يفكروا قبـل النبى «اشعياء» (٧٣٤ ـ ٦٨٠ ق٠م) فى أن «يهـــوه» هـــو اله أسباط بنى اسرائيل جميعا[١٠] ٠

وعلى أى حال ؛ فان التوراة حين تخرج فى أسفارها الاخيرة بيهوه من دائرة بنى اسرائيل الى غيرهم من الشعوب ، فقد ظل المعنى المتضمن لمفهوم الله فى التوراة ، على أنه اله اسرائيل فى المقام الاول[١١] ، ولهذا يقول يشوع فى سفره : «هكذا قال الرب اله اسرائيل»[١٢] و «هكذا بنى مذبحا للرب اله اسرائيل»[١٣] و «أن جماعة اسرائيل حلفوا بالرب اله اسرائيل»[١٤] ٠

وهكذا كانت ديانة يهـــود ، ديانة أسرة بشرية واحدة هى «بنـــو اسرائيل» ؛ ذلك لان اله اسرائيل ـ كما تصوره التوراة ـ لم يكن الله،

---

(٦) أنظر عن التفرقة العنصرية عن اليهود (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٣/٢٥٣ ـ ٢٦٢) ٠
(٧) تكوين ١/١٢ ـ ١٣ ، ١٤/١٣ ـ ١٨ ، ١٨/١٥ ـ ٢٠ ، ٢٦/ ٢٤ ، ٩/٢٢ ، ١٣/٢٨ ، ٤٠/٤٦ ٠
(٨) خروج ٦/٣ ، ١٥ ٠
(٩) خروج ٦/٦ ـ ٧ ٠
(١٠) ول ديورانت : قصة الحضارة ـ الجزء الثانى ـ ترجمة محمد بدران ـ القاهرة ١٩٦١ ص ٢٤٣ ٠
(١١) صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٥ ٠
(١٢) يشوع ١٣ ٠
(١٣) يشوع ٣/٨ ٠
(١٤) يشوع ١٨/٩ ٠

كما تفهمه البشرية فى الديانات المعاصرة[١٥] ، وهذه الفكرة تتناسق تناسقا كاملا مع سياق النظام الاسرائيلى عامة ، لان الدين الخاص لشعب خاص ، لابد وأن يكون له اله خاص ، وهذه الخصوصية مهمة جدا فى عقيدة هذا الشعب[١٦] .

غير أن هذه المزاعم الاسرائيلية شىء ، وما قام به اليهود من نشر دينهم بين الشعوب الاخرى شىء آخر ، والادلة على ذلك كثيرة .

منها (أولا) أن هناك من غير اليهود من اعتنق اليهودية فى مرحلتها الاولى : وعلى رأس هؤلاء جميعا المصريون ، والذين تكاد تجمع الكتب المقدسة من قبل ، والمؤرخون من بعد ، على أنهم هم الذين آمنوا بدعوة موسى الكليم ، عليه السلام ، عن عقيدة وايمان . ولعمرى ان الذين هددهم فرعون «فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل»[١٧] ، فكان ردهم «لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحياة الدنيا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى»[١٨] ، ان هؤلاء لاشد ايمانا ، من بنى اسرائيل أنفسهم ، الذين ما إن رأوا فرعون وجنوده،حتى تملكهم الذعر والخوف،وصاحوا بموسى قبائلين[١٩] « أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا »[٢٠] ، أو كما تقول توراتهم «ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر ، أليس هذا هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين : كف عنا فنخدم المصريين ، لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية»[٢١] .

---

(١٥) صبرى جرجس : المرجع السابق ص ٥٢ .
(١٦) عبده الراجحى : الشخصية الاسرائيلية ــ الاسكندرية ١٩٦٨ ص ٤٧ .
(١٧) سورة طه : آية ٧١ .
(١٨) سورة طه : آية ٧٢ ــ ٧٣ .
(١٩) أنظر عن قصة السحرة مع فرعون وموسى (محمد بيومى مهران : اسرائيل ١/٣١٥ــ٣٣٥) .
(٢٠) سورة الاعراف : آية ١٢٩ .
(٢١) خروج ١٤/٨ ــ ١٢ .

ومن هنا فان العلماء ـ ومنهم يهود كالحاخام الدكتور أبشتين[٢٢] والدكتور سيسل روث ـ[٢٣] يكادون يجمعون على أن أتبـاع موسى الخارجين فى ركابه من مصر ، لم يكونوا كلهم من بنى اسرائيل ؛ وانما كانوا خليطا من بنى اسرائيل ومن غير بنى اسرائيل ، ينتمون الى فكرة وعقيدة واحدة ، لا الى جنس وعنصر بعينه ، بل ان التوراة نفسها انما تصرح فى وضوح ، لا لبس فيه ولا غموض بهذه الفكرة ، حيث تقـول «وصعد معهم لفيف كثير أيضا»[٢٤] ، يتكونون ـ فيما يرى جوستاف لوبون ـ[٢٥] من المصريين الساخطين ، ومن العبيد المتمردين ، فضلا عن السحرة المصريين ، الذين آمنوا بدعوة موسى عليه السلام عن عقيدة وايمـان •

ومنها (ثانيا) أن التوراة تمتلىء بالنصوص التى تتحدث عن تهويد أناس من غير بنى اسرائيل ـ كما فى أسفار الخروج والقضاة وراعوث وصموئيل الثانى وأخبار الايام الاول وغيرها ـ[٢٦] •

ومنها (ثالثـا) أن التوراة تقدم لنا اليهـود فى عصر القضاة[٢٧] ـ وعلى أيام دبورة بالذات ـ على أنهم أربعون ألفا من المحاربين[٢٨] ،

---

(٢٢) I. Epstien, Judaism, 1970, p. 16.

(٢٣) I. Roth, A Short History of The Jewish People, London. 1969, p. 6.

وكذا L. Woolcy. The Beginnings of Civilization, N. Y., 1965, p. 496.

(٢٤) خروج ٣٨/١٢ •

(٢٥) جوستاف لوبون : اليهود فى تاريخ الحضارات الاولى ـ ترجمة عادل زعيتر ـ القاهرة ١٩٦٧ ص ٣٣ •

(٢٦) خروج ٣٨/١٢ ، قضاة ١٦/١ ، ٤١/١١ ، ١٤ ، راعـوث ١/١ ـ ٤ ، ١٢/٤ ـ ١٣ ، صموئيل ثان ٢/١١ ـ ٢٤ ، اخبار أيام أول ٩/٢ ، ١٨ ـ ٢٠ ، ٢٥ـ ٢٧ ، ٣٣ ، ٤٢ ، ٣٢/١١ ، ٣٠/٢٧ ، وكذا A. Lods, Israel, From its Beginnings to The Middle of The Eighth Century, London, 1962, p. 391.

(٢٧) أنظر عن عصر القضاة (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٢/ ٦٢٣ ـ ٦٥٨) •

(٢٨) قضاة ٨/٥ •

ثم هم بعد ذلك على أيام داود عليه السلام[٢٩]، (وبعد حوالى نصف قرن من الزمان) على أنهم مليون وثلاثمائة ألف[٣٠]، مما يدل على أنهم كانوا على أيام الملكية، خليطا من الاسرائيليين والكنعانيين، وان كانت الارقام (رغم ما فيها من مبالغة تميزت بها التوراة)[٣١] تدل على أن الغالبية العظمى انما كانت من الكنعانيين[٣٢].

ومنها (رابعا) أن السبى البابلى (٥٨٦ — ٥٣٩ ق٠م) والاشورى من قبل (عام ٧٢٢ ق٠م)[٣٣] انما كانا سببا فى تهجير آلاف من اليهود الى العراق، واستبدالهم بآخرين، فضلا عما حدث أثناء ذلك من اختلاط جنسى بين الغزاة الاشوريين والبابليين وبين بنى اسرائيل — راضين كانوا أم مرغمين — حتى أن سفر «عزرا» —[٣٤] والذى كتب أثناء السبى البابلى، انما هو لا يتحدث الا عن هذا الاختلاط فى معظمه[٣٥].

ومنها (خامسا) ما ذهب اليه الدكتور اسرائيل ولفنسون من أن «يوحنا هيركانوس» (١٣٥ — ١٠٥ ق٠م) كان قد أجبر الادوميين حوالى عام ١٢٦ ق٠م، على الاختتان واعتناق اليهودية: رغبة منه فى ازالة الفوارق الدينية بين اليهود والادوميين، وحبا فى نشر اليهودية بين الادوميين،ومن ثم فقد انضم بنو عيسو الى بنى يعقوب (اسرائيل)[٣٦].

---

(٢٩) انظر عن عصر داود عليه السلام (محمد بيومى مهران: اسرائيل ٦٩٣/٢ ـ ٧٤٣).

(٣٠) صموئيل ثان ٩/٢٤.

(٣١) انظر عن المبالغات فى التوراة (محمد بيومى مهران: اسرائيل ٣٠١/٣ ـ ٣٢٣).

(٣٢) A. Lods, op-cit, p. 333.

(٣٣) انظر عن السبى الاشورى والبابلى (محمد بيومى مهران: ٩٤٠/٢ ـ ٩٥٠، ٩٩٧/٢ ـ ١٠٢٦).

(٣٤) انظر عن سفر عزرا (محمد بيومى مهران ٨٥/٣ ـ ٨٦).

(٣٥) عزرا ١/٩ ـ ١٠، ٤٤، وانظر: ثروت الاسيوطى: نظام الاسرة بين الاقتصاد والدين ـ بنو اسرائيل ص ١٨٠.

(٣٦) سفر المكابيين الاول ٢٩/٤، ٦٥/٥، اسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود فى بلاد العرب ـ القاهرة ١٩٢٧ ص ٧٢، تاريخ اللغات السامية ـ القاهرة ١٩٢٩ ص ١٠٥، فيلب حتى: المرجع السابق ص٣٦٩، وكذا Josephus Antiquities of The Jews, XIII, p. 1.

ومنها (سادسا) ما حــدث فى اليمن على أيام الدولة الحمــيرية (حوالى ٣٠٠ ــ ٥٢٥م) وتهود العرب هنـــاك ، ذلك أن اليهودية انما كانت قد بدأت تأخذ طريقها الى اليمن منذ فترة طويلة ، وان ازدادت بعد تدمير «بيت المقدس» على يد القائد الرومانى «تيتوس» فى عـــام ٧٠م ، ومن ثم فان أصحاب هذا الاتجاه الاخير ، يرون أننا لو تفحصنا أسماء اليهود المقيمين فى بلاد العرب ، لرأينا أن معظمهم أراميون وعرب متهودون ، وليسوا من ذرية ابراهيم الخليل ، من ولده اسحاق عليهما السلام(٣٧) ، أو منذ تهود الملك الحميرى «أب كرب أسعد»(٣٨) ، وفرض اليهودية على الحميريين بالقوة ، فيما تروى المصادر العربية(٣٩) ، أو منذ تهود «ذى نواس»(٤٠) سواء أكان ذلك رغبة منه فى أن يقاوم دينا سماويا بدين سماوى آخر (أى مقاومة المسيحية باليهودية) ومن ثم فهو يمثل الروح القومية فى اليمن ، وذلك حين رأى فى النصـــارى من

---

(٣٧) P. K. Hitti, History of The Arabs, London, 1960, p. 61.

(٣٨) يختلف الباحثون فى فترة حكم «اب كرب أسعد» ، ففريق يرى أنها فى الفترة (٤٠٠ ــ ٤١٥م) ، وفريق يرى أنها فى الفترة (٣٨٥ ــ ٤٢٠م) ، وفريق يرى أنها فى الفترة (٣٧٨ ــ ٤١٥م) ، وفريق يرى أنها استمرت حتى عام ٤٣٠م (فريتز هومل : التاريخ العربى القديم ص ١٠٨ ، وكذا J. P. Philpy, Notes on The Last Kings of Saba, in Le Museon, LXIII, 1950, p. 269.

وكذا J. P. Philpy, The Background of Islam, Alexandria, 1947, p. 116, 143.

(٣٩) أنظر : ابن كثير : البداية والنهاية ١٦٤/٢ ــ ١٦٧ ، تاريخ الطبرى ١٠٧/٢ ــ ١١١ ، ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ٢٧/١ــ٣٠ ، تاريخ اليعقوبى ١٩٨/١ ، الازرقى : اخبار مكة ٢٤٩/١ ، تاريخ ابن خـلدون ٥٣/٢ــ٥٤ ، السمهودى : وفـــاء الوفا باخبار دار المصطفى ١٣٤/١ ، المسعودى : مروج الذهب ٥١/٢ ، نشوان بن سعيد الحميرى : ملوك حمير واقيال اليمن ص ١٢٢ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ ، تفسـير الطبرى ١٥٤/٢٧ ، تفسير الخازن ١١٥/٤ .

(٤٠) ذو نواس : هو زرعة ذو نواس بن تبان أسعد بن كرب ، وقد سمى «يوسف» بعد تهـــوده ، وان ذهب البعض الى انه من غير الاسرة المالكة ، وأنه سمى «ذو نواس» لانه كان له ذوابتان تناوسان على عاتقه (ابن قتيبة : المعارف ص ٣١١ ، ٣٧٧ ، المسعودى : مروج الذهب ٥٢/٢ ، تاريخ اليعقوبى ١٩٩/١) .

مواطنيه ما يذكره بحكم الاحباش المسيحيين البغيض[41] ، بخاصة وأن النصرانية قد أصبحت وقت ذاك تستند الى قـوة الدولة الرومـانية الشرقية الطامعة فى غزو اليمن[42] ، أو لانه كان فى الاصل ، طبقاً لرواية ابن العبرى ، من أهل الحيرة ، وأن أمه يهودية من «نصيبين» وقعت فى الاسر فتزوجها والد يوسف فأولده منها ، ومن ثم فهو يهودى وفد على اليمن من الحيرة[43] .

ومنها (سابعا) أننا نرى فى القرن الثامن الميـلادي شعبا بأسره يعتنق اليهودية ، وذلك حين اعتنق «بولان» ملك قبائل «الخزر المنغولية» فى عام ٧٤٠م الديانة اليهودية ، ثم اتخذها دينا رسميا للخزر ، ذلك أن هذه القبائل قد طبعتها طبائع القسوة المتعطشة الى الدماء،التى كانت تتميز بها القبائل المنغولية ، وقد رغب مسلمو الشرق فى أن يرشدوا هـؤلاء الخزر المنغولية الى سماحة الاسلام ، كما رغب مسيحيو الغرب فى أن ينشروا السلام فى أرجاء هذه المملكة الدموية .

وكان ذلك دافعا لحاكم هذه القبائل على الاطلاع على الدين اليهودى ـ كما تقدمه توراة يهود ـ فصادف هذا الدين من نفس «بولان» هوى، فقد وجد فيه ـ بما يحتويه من طقوس دموية ، وبما يشتمل عليه من شرائع تبيح كل أنواع القسوة ـ تفسيرا لاصول دينه الوثنى ، فاعتنق اليهودية دينا فى عام ٧٤٠م ، ثم تبعته حاشيته فشعبه ، ثم أعلنه دينا رسميا لقبائل الخزر[44] .

---

(٤١) P. K. Hitti, History of Arabs, London, 1960, p. 62.
وكذا Bont - Maury, L'Islamisme et le Christianisme en Afrique, Paris, 1906, p. 47.

(٤٢) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعـرب ـ القاهرة ١٩٤٧ ص ٤٥ .

(٤٣) جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٧٠ ـ الجزء الثانى ص ٥٩٣ ، ثم قارن : الهمدانى : الاكليل ٦٣/٢ ، وانظر : F. Altheim and R. Stiehl, Die Araber in der Alten Welt, Berlin, I, 1964, p. 360.

(٤٤) ابكار السقاف : اسرائيل وعقيدة الارض الموعودة ـ القـاهرة ١٩٦٧ ص ٤٩ .

ومنها (ثامنا) أن القرآن الكريم يكذب هذا الادعاء — الذى تسرب للاسف حتى الى كتابات بعض المؤرخين المسلمين — وذلك حين يشير صراحة الى انتشار اليهودية فى اليمن فى القرن العاشر قبل الميلاد ، وعلى أيام سليمان ، عليه السلام (٩٦٠ — ٩٢٢ ق٠م) ، حيث يروى فى سورة النمل قصة ملكة سبأ مع سليمان ، وكيف بدأت بدعوة النبى الكريم ملكة سبأ الى الاسلام (على أساس دعوة موسى ومن بعده من أنبياء بنى اسرائيل حتى المسيح عليهم السلام) ثم انتهت القصة — بعد أن تأكدت الملكة السبئية أن سليمان انما يبغى لها ولقومها الهداية الى سواء السبيل — الى أن قالت : «رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»(٤٥) ٠

ومنها (تاسعا) أن هناك فريقا من المؤرخين يذهب الى أن « بنى النضير» و «بنى قريظة» — وهما فرعان من قبيلة جذام العربية — قد تهودوا ، وسموا بالمكان الذى نزلوا فيه(٤٦) . وطبقا لرواية الاخباريين، فان «الجبل بن جوال» من «بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان» قد تهود هو وقومه ، وعاش مع بنى قريظة حتى ظهور الاسلام ، ثم هداه الله الى الدين الحق ، فأسلم وحسن اسلامه(٤٧) ٠

ثم هناك «كعب بن الاشرف» اليهودى المشهور،وكان من «بنى طىء» ثم أحد «بنى نبهان» ، ولكن أمه من «بنى النضير» ، وقد قتله المسلمون بسبب تشبيبه بنساء المسلمين الطاهرات . وشعره فى التحريض على

---

(٤٥) أنظر : سورة النمل : آية ٢٠ — ٤٤ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٩/١٤٣—١٧٠ ، تفسير الطبرسى ١٩/٢٠٨—٢٣٠ ، تفسير القرطبى ١٣/١٧٦—٢١٣ ، تفسير الكشاف ٣/١٤٢—١٥١ ، تفسير روح المعانى ١٩/١٨٢—٢١٠ ، فى ظلال القرآن ٢٦٣١—٢٦٤٣ ، تفسير البيضاوى ٢/١٧٣—١٧٨ ، تفسير أبى السعود ٤/١٢٧—١٣٤ ، تفسير ابن كثير ٣/٥٧٦—٥٨٦، البداية والنهاية ٢/٢٠—٢٤ ، الكامل لابن الاثير ١/٢٣٤—٢٣٨ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٢/٧٦٢—٧٨٠ ٠

(٤٦) أحمد بن أبى يعقوب : تاريخ اليعقوبى ٢/٣٦—٣٩ (بيروت ١٩٦٠) ٠

(٤٧) ابن حجر العسقلانى : الاصابة فى تمييز الصحابة — الجزء الاول — القاهرة ١٩٣٩ ص ٢٢٣ (رقم ١٠٧١) ٠

مولانا وسيدنا رسول الله ، ﷺ ، فضلا عن تحريض قريش على محاربة المسلمين فى المدينة ، والثأر لقتلاها فى بدر[٤٨] .

ومنها (عاشرا) هناك الكثير من العرب المتهودين ، ولاسيما القبائل المسماة بأسماء عربية أصيلة ، لها صلة بالوثنية ، مما يدل على أنها كانت وثنية قبل أن تتهود ، ومن ثم فهناك الكثير من البطون العربية التى تهودت[٤٩] ، فلقد تهود قوم من الاوس والخزرج ، بعد خروجهم من اليمن ومجاورتهم ليهود خيبر وقريظة والنضير ، كما تهود قوم من «بنى الحارث بن كعب» ، وقوم من «غسان» ، وقوم من «بلى»[٥٠] .

ومنها (حادى عشر) أن هناك ما يشير الى أن المرأة المقلات فى الجاهلية ، كانت تنذر ، ان عاش لها ولد ، أن تهوده ، ومن ثم فقد تهود بعض منهم ، فلما جاء الاسلام أراد بعض الانصار اكراه أبنائهم عليه، فنهاهم الله تعالى عن ذلك[٥١] حيث يقول سبحانه وتعالى «لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى»[٥٢] .

---

(٤٨) ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ــ القاهرة ١٩٥٥ ــ الجزء الثانى ص ٥١ ــ ٥٨ ، ابن كثير : السيرة النبوية ٣/٩ــ١٥ ، تاريخ الطبرى ٢/ ٤٨٧ ــ ٤٩١ ، صحيح البخارى ٢/٧٩ــ٨٠ ، ابن حزم : جوامع السيرة ص ١٥٤ ــ ١٥٦ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/٢١ــ٢٣ ، الكامل لابن الاثير ٢/١٤٣ ــ ١٤٤ .

(٤٩) D. S. Margoliouth, The Relations between Arabs and Israelites Prior to The Rise of Islam, London. 1924, p. 60.

وكذا D. Noldeke, in Encyclopaedia Biblica, 24, 1911.

(٥٠) تاريخ اليعقوبى ١/٢٥٧ ، جواد على ٦/٥٢٥ ، وكذا

H. Graetz, History of The Jews, II, Philadelphia, 1956, p. 408.

وكذا Islamic Culture, III, 2, p. 177.

(٥١) سنن أبى داود ٣/٧٨ــ٧٩ ، البيهقى : السنن الكبرى ٩/١٨٦، اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٨٨ ، اديان العرب فى الجاهلية ص ٢٠١ .

(٥٢) سورة البقرة : آية ٢٥٦ ، وانظر : تفسير المنار ٣/٣٥ــ٤٠ ، تفسير أبى السعود ١/١٨٩ــ١٩٠ ، تفسير الطبرى ٥/٤٠٧ــ٤٢٤ ، تفسير روح المعانى ٣/١٣ــ١٥ ، تفسير الطبرسى ٣/٣٠٤ــ٣٠٧ ، الدر المنثور ١/٣٢٩ــ٣٣١ ، تفسير الكشاف ١/٣٨٧ ، تفسير ابن كثير ١/٤٥٩ــ٤٦٢ ، تفسير القرطبى ٣/٢٩٣ــ٢٩٦ ، مسند الامام أحمد ٣/١٨١ ، ٥/٤٦ ، ٤٥٢ ، ٧/١٦٠ .

وعلى أية حال ، فان بعضا من المؤرخين انما يذهب الى أن يهود بلاد العرب،انما هم عرب قد تهودوا،وان لم يكونوا مزودين بمعلومات كافية عن التوحيد ، ولم يكونوا خاضعين لقوانين «التلمود» كله ؛ حتى أن بعضا من يهود دمشق وحلب ؛ فى القرن الثالث الميلادى ، انكروا عليهم يهوديتهم ، وان كانوا مع ذلك شديدى التمسك بدينهم(٥٣) .

وهكذا يبدو بوضوح أن اعتناق اليهودية لم يكن مقصورا على بنى اسرائيل فحسب ، وانما اعتنقها آخرون من غير بنى اسرائيل . وأن هؤلاء اليهود من غير بنى اسرائيل — أو هؤلاء المتهودين من غير أبناء يعقوب (اسرائيل) ، انما كان منهم من اعتنق اليهودية ايمانا بها ، كدين سماوى. كما أشار القرآن الكريم الى السحرة المصريين على أيام موسى عليه السلام(٥٤) ؛ والى ملكة سبأ على أيام سليمان عليه السلام ، ومن سار فى ركابهما . كما فعل العبيد والاسارى الذين لحقوا بموكب الخروج من مصر فى أخريات القرن الثالث قبل الميلاد ؛ كما تشير توراة اليهود الى ذلك(٥٥) .

على أن هناك فريقا من المتهودين ، انما قد فرضت عليهم اليهودية بقوة الدولة وسلطانها ، على أيام دولة بنى اسرائيل فى فلسطين ، كما حدث بالنسبة الى الكنعانيين على أيام الملكية . وهناك فريق فرضت عليهم

---

(٥٣) اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ١٣ ، ٧٣ ، وكذا
D. S. Margoliouth, op-cit, p. 60.
وكذا H. Graetz, op-cit, p. 51, 75.

(٥٤) انظر : سورة الاعراف : آية ١٠٩ — ١٢٦ ، وانظر : تفسير البحر المحيط ٣٥٥/٤ — ٣٦٨ ، تفسير روح المعاني ٢١/٩ — ٢٨ ، تفسير المنار ٤٥/٩ — ٧٨ ، فى ظلال القرآن ١٣٤٢/٣ — ١٣٥٣ ، تفسير القرطبى ٢٥٦/٧ — ٢٦٢ ، تفسير الطبرى ١٨/١٣—٣٦ ، تفسير ابن كثير ٢٠٥/٢— ٢٠٩ ، وانظر سورة طه : آية ٥٦ — ٥٧ ، تفسير البيضاوى٥٢/٢، — ٥٦، تفسير الطبرسى ١٩٩/١٦ — ١٢٤ ، تفسير القرطبى ٢١١/١١—٢٢٧ .

(٥٥) خروج ٣٨/١٢ ، وكذا
L. Wolley, The Beginnings of Civilization, N. Y., 1965, p. 490.
وكذا C. Roth, A Short History of The Jewish People, London, 1965, p. 6.

اليهودية بحد السيف ، كما حدث بالنسبة الى الادوميين فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وهناك من ولدوا من أمهات يهـوديات تزوجن من جنود الرومان ، بعد قضـاء الامبراطورية الرومانية على ثورة «باركوخبا» (١٣٢ — ١٣٥م) فى أغسطس من عام ١٣٥م ، وتدمير بيت المقدس ، والقيام بمذبحة مروعة ختمت حياة اليهود فى فلسطين — كدولة وكقومية — وتشريد البقية الباقية من يهود فى جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية ، ثم زواج كثير من بنات يهود من جنود الرومان ، الذين سرعان ماتركوهم بعد حين من الدهر ، فشب أبناؤهم يهودا كأمهاتهم(٥٦)

وهناك من اعتنقوا اليهودية لان طقوسها الدموية . تتفق وطباعهم المتعطشة الى الدماء ، كقبـائل الخزر المنغولية . وهنـاك من اعتنقوا اليهودية لاسباب قومية ، ونكاية فى النصرانية كالحميريين ، الذين كانوا يخشون على بلادهم من أطماع الرومن ، وحكم الاحباش البغيض . وهناك من اعتنقوا اليهودية لان الامهات المقـلات فى الجاهلية العربية وهبنهم لليهودية — ان عاشوا — كما حدث فى «يثرب» (المدينة المنورة) حتى أن الانصار حين أرادوا اكراه هؤلاء الابناء على ترك اليهودية ، واعتناق الاسلام ، نهاهم الله ، سبحانه وتعالى ، عن ذلك .

وهناك من اعتنقوا اليهودية تبشيرا بها من يهود ، أو لانهم كانوا مطالبين بثأر ، فهجروا مواطن قبائلهم الى مواطن أخرى تسكنها يهود ، أبت عليهم مجاوراتها ، الا أن يتهودوا ، كما حدث مع «بنى حسنة بن عكارمة» ، وهم بطن من قبيلة «بلى» .

وأخيرا لا أريد أن أتحدث عن اليهود فى العصر الحديث ، حيث تتوافر الادلة فى أمريكا الوسطى والجنوبية ، على تحول كثير من الهنود الحمر الى اليهودية ، ولا علاقة لهم جنسيا ودمويا باليهود أصلا .

---

(٥٦) جمال حمدان : اليهود أنثروبولوجيا — القاهرة ١٩٦٧ ص ٧٨ ،
وكذا Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 453-454.
وكذا H. Strathmann, in PJB, 23, 1927, p. 92 F.
وكذا A. Schulten, in ZDPV, 56, 1933, p. 180.

وليس هناك من ريب فى أن كل هذا انما يمنع أى شك فى أن اعتناق اليهودية لم يكن مقصورا على بنى اسرائيل وحدهم ، بل ان هناك شعوبا أخرى قد اعتنقت الدين اليهودى من غير بنى اسرائيل[٥٧] .

ولست أدرى بعد هذا كله : أية وسيلة بقيت لم يتبعها اليهود فى سبيل نشر دينهم ؟ ومن ثم فان انتشار الدين اليهودى قد أوجد أجيالا وطوائف لا تمت الى بنى اسرائيل بشىء ، سوى صلة الدين ، أو بعبارة أخرى ، فان انتشار اليهودية قد قضى على بنى اسرائيل كسلالة بشرية متميزة ، والنتيجة النهائية فى موضوعنا بالنسبة لبلاد العرب : أن اليهود ربما كانوا — غالبيتهم — من بنى اسرائيل ، ولكن هذا لا يمنعنا ، بل يوجب علينا ، القول بأن هناك عربا تهودوا ، وهم ليسوا قلة ، على أية حال .

٢ — اليهودية فى بلاد العرب :

وأما عن كيفية انتشار اليهودية فى بلاد العرب ، ووقت ذلك الانتشار؟ فمن المعروف أن اليهود قد تحدثوا عن أنفسهم كثيرا ، ثم سجلوا هذا الحديث فى كتاب يقرأه الناس من بعد ، غير أنهم — وياللعجب — فقد كانوا — كما يقول الدكتور حسن ظاظا — هم الامة الوحيدة التى كتبت تاريخها بيدها : وبحسب هواها ، ثم زعمت أن هذا التاريخ قد أنزل من السماء ، وأنه فوق الجدل والنقاش . وهم عندما كتبوا تاريخهم هذا أغاروا على المأثورات الشعبية للامم القديمة التى عرفوها ، وأضافوا اليها من بقايا «الفولكلور» الذى حفظته ذاكرتهم منذ بداوتهم الاولى ، فنسجوا من ذلك كله أسطورة ، اختلطت فيها حكمة الحكماء ، وشرائع الانبياء ، بحكايات الابطال الخرافيين ، وترجمت تكاد تكون حرفية

---

(٥٧) انظر : محمد عوض محمد : الاستعمار والمذاهب الاستعمارية القاهرة ١٩٥٧ ص ١٣٨ — ١٥٥ ، جمال حمدان : المرجع السابق ص ٧٧ — ٧٨ .

وكذا W. Z. Ripley, Races of Europe, London, 1900, p. 392.

وكذا E. Pittard, Les Races et L'Histoire, p. 313, 330.

للاحم من أمم أقدم[٥٨] .

وأيا ما كان الامر بالنسبة لهذا التاريخ الذى تضمنته توراة اليهود : سواء من وجهة نظر الذين يؤمنون بقدسيتها أو من وجهة نظر المخالفين لهم ، فلاشك أنه من ألزم الضروريات — ان أردنا أن نفهم تاريخ بنى اسرائيل على حقيقته — أن نعالجه كما نعالج تاريخ أى شعب . ان من كتبوا التوراة بشر مثلنا ، وهم كمؤرخين لا يختلفون عن نظائرهم من معاصريهم فى الشرق ، كما أنه ليس هناك تاريخ لا يحتمل المناقشة ، بل لا يحتمل أن نخطئه[٥٩] .

وعلى اية حال : فبالنسبة لتاريخ اليهود فى بلاد العرب : انما هو جد مختلف عن تاريخهم فى فلسطين ، وعبنع علمى . أنهم لم يتركوا أثرا مكتوبا يتحدث عن ماضيهم فى شبه الجزيرة العربية . الا أن يكون بعضا من نصوص فى اليمن ، أو فى غيرها ، لا تفيد علما ، ولا تدون تاريخا . والامر كذلك بالنسبة لمؤرخى اليهود فى خارج بلاد العرب . ومن ثم فان معلوماتنا عن اليهود واليهودية فى بلاد العرب . انما تعتمد فى معظمها . على ما جاء فى القرآن الكريم . وفى الحديث الشريف . فضلا عما جاء فى كتب التفسير والسير والاخبار .

غير أن هذا لا يمنعنا من القول بأن هناك نقوشا نبطية : ترجع الى ما بين القرنين الاول والرابع بعد الميلاد ، جاءت فيها أسماء عبرية تشير الى أن أصحابها من يهود ، غير أن هذه الكتابات انما هى كتابات شخصية فى الدرجة الاولى ، كالتي تنسب الى رجل يدعى «يحيى بر شمعون» أى «يحيى بن شمعون» : ومن ثم فهى لا تقدم لنا نفعا فى التاريخ للديانة

---

(٥٨) حسن ظاظا : الصهيونية العالمية واسرائيل ـ القاهرة ١٩٧١ ص ١٣ .

(٥٩) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ٢٧٣/٣ (الاسكندرية ١٩٦٦) ، وكذا
A. H. Sayce, Early History of the Hebrews

اليهودية فى بلاد العرب[٦٠] .

هذا فضلا عن كتابة يمنية بالخط المسند : جاء فيها «تبــارك اسم الرحمن الذى فى السماء ، واسرائيل والهه رب يهود ، الذى ساعد عبده شحرا وأمه بم وزوجته شمسا وأولاده «ذمم» (؟) وكل أهل بيته»[٦١]، غير أن هناك من الباحثين من يشك فى نقل هذا النص نقلا صحيحا، وخاصة فيما يتصل بكلمة «اسرائيل»[٦٢] ، وذلك لان كلمة «اسرائيل» : فيمـا نعرف ، لم تكن تستعمل عند يهود فى تلك الفترة ، حيث بدأت تختفى منذ نهاية دويلة اسرائيل الشمالية فى القرن الثامن قبل الميلاد ، تاركا المجال لكلمة «يهود» التى حلت محلها منذ عصر «أحاز» (٧٣٥ — ٧١٥ ق٠م)، بل منذ أيام الفرس (٥٣٩ — ٣٣٢ ق٠م) فيما يرى بعض الباحثين[٦٣].

وعلى أية حال ، فاننا نعرف من روايات المؤرخ اليهودى «يوسف ابن متى» (٣٧ — ٩٨م) — وكذا من «التلمود»[٦٤] — أن اليهــودية قد وجدت طريقها الى بلاد العرب ، ويضيف «سوزمين» أن اليهود كانوا يعتبرون العرب الذين يقطنون الى الشرق من الحد العربى ، على أنهم من أبناء اسماعيل عليه السلام ، ابن ابراهيم الخليل عليه السلام : فهم اذن من ذوى قرباهم . ومن ثم فقد كانوا يرجون أن يعتنــق العرب اليهودية[٦٥] .

ولعل ذلك انما يتفق الى حد كبير ، مع الروايات العربية التى ذهبت . .

---

(٦٠) Josef Horovity, Judaeo - Arabic Relations in Pre-Islames Times, in Islamic Culture, III, No. 2, 1929, p. 170.
وكذا H. Winckler, in AOF, I, p. 337.
(٦١) جواد على : المرجع السابق ـ الجزء السادس ص ٥٤١ .
(٦٢) D. S. Margoliouth, op-cit, p. 68.
(٦٣) أنظر عن مصطلحات : اسرائيل ويهود (محمد بيومى مهران : ١/٢٩ ـ ٣٥) .
(٦٤) أنظر عن «التلمود» (محمد بيومى مهــران : اسرائيل ٣/ ٣٨٠ ـ ٤٥٧) .
(٦٥) F. Altheim and R. Stiehl, Die Araber in der Alten Welt, Berlin, 1964, p. 65-74.

الى أن اليهودية قد انتشرت فى حمير ، وفى بنى كنانة وبنى الحارث بن كعب ، وفى كندة وغسان ، فضلا عن قوم من الاوس والخزرج ، وقوم من جذام(٦٦) •

٣ ـ تاريخ دخول اليهودية بلاد العرب :

لاشك فى أن دخول اليهودية الى بلاد العرب ؛ انما يختلف من منطقة الى أخرى ، وخاصة فى الحجاز واليمن ؛ ومن ثم فسوف نتحدث عن كل منطقة على حدة :

أ) فى المدينة المنورة : تختلف المصـادر ؛ وتتضارب الآراء ؛ فى الوقت الذى وصل اليهود فيه الى «يثرب»(٦٧) (المدينة المنورة) الى درجة يصعب عليك التوفيق بينها ، اذ تذهب بعض الاراء الى أن ذلك انما حدث فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد(٦٨) ، بينما تذهب آراء أخرى الى أن ذلك انما كان فى القرنين الاول والثانى بعد الميلاد(٦٩) ؛ والفرق بينهما جد شاسع ، قد يصل الى أربعـة عشر قرنا ، ومن هنـا كانت الصعوبة فى التوفيق بين هذه الاراء المختلفة أحيانا ، والمتضاربة أحيانا أخرى •

فهناك رواية تذهب الى أن وجود اليهود فى «يثرب» انما كان على

---

(٦٦) ابن قتيبة : المعارف ص ٦٢١ ، تاريخ اليعقوبى ١/١٥٧ ، المقدسى : البدء والتاريخ ٣١/٤ (باريس ١٩٠٧) ، ابن رستة : الاعلاق النفيسة ـ ليدن ١٨٩٢ ص ٢١٧ •

(٦٧) انظر عن «يثرب» و «المدينة» (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٣٠ ـ ٤٣٦) •

(٦٨) السهيلى : الروض الانف ١٦/٢ ، السمهودى : وفـاء الوفـا ١٠٧/١ ، ١١١ ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ١٢٣/١ ؛ ياقوت : معجم البلدان ٨٤/٥ ، الاغانى ١١٦/٣ ، تاريخ ابن خلدون ٨٧/٢ـ٨٨ (القسم الاول) ٢٨٦/٢ـ٢٨٧ (القسم الثانى) •

(٦٩) Josephus, The Jewish War, II, 18, 1, 3-4.

وكذا D. D. De Lacy O'Leary, Arabia before Muhammad. London. 1927, p. 173.

وكذا J. Horovitz, op-cit, p. 170.

أيام موسى عليه السلام[٧٠] ، فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد[٧١] ، وهى رواية هشة : لا تستطيع أن تقف على قدميها ، بل هى أقرب الى الاساطير منها الى حقائق التاريخ[٧٢] .

وهناك رواية ثانية تذهب الى أن اليهود انما قدموا الى يثرب على أيام داود عليه السلام (١٠٠٠ — ٩٦٠ ق.م) ، وهى رواية لا تعدو أن تكون تحريفا لاحداث فى التوراة عن ثورة قام بها «أبشالوم» ضد أبيه داود عليه السلام[٧٣] ، بل ان من أصحاب هذه الرواية من الاخباريين من ذهب به الخيال الى أن يرى أن داود قد غزا يثرب ، وكان يسكنها «صلع» و «فالج» ، وأنه قد أخذ من سكانها مائة ألف عذراء ، وأن الله تعالى قد سلط الدود على أهل يثرب بعد ذلك فأهلكهم . ثم دفنوا فى السهل والجبل فى ناحية الجوف[٧٤] .

غير أن أصحابنا الاخباريين لم يقولوا لنا : ماذا فعل النبى الاواب بهذه المائة ألف من عذراء يثرب ، فضلا عن السبب فى سبيهم ؟ ثم وهل

---

(٧٠) تاريخ ابن خلدون ٢ /٨٧ـ٨٨ ، ٢٨٦ ـ ٢٨٧ (بيروت ١٩٧١) ، اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٦ ، السهيلى : الروض الانف ٢/ ١٦ ، الاغانى ١١٦/٣ ، ٩٤/٦ ، ياقوت ٨٤/٥ ، ابو الفداء ١٢٣/١ ، ابن هشام ١٧/٢ ، الاعلاق النفيسة ص ٦٠ ـ ٦١ ، وفاء الوفا ١١١/١ ، خلاصة الوفا ص ١٥٦ ـ ١٥٧ ، الدرر الثمينة فى تاريخ المدينة ص ٣٢٤ .

(٧١) اختلف المؤرخون فى تاريخ موسى عليه السلام وخروج بنى اسرائيل من مصر ، والفرعون الذى عاصر موسى عليه السلام ، بين ان يكون أحمس الاول أو تحوتمس الثالث أو ولده أمنحتب الثانى أو توت عنخ امون أو رعمسيس الثانى أو مرنبتاح (وهذا ما نميل اليه ونرجحه) أو فى أخريات الاسرة التاسعة عشرة وأوائل الاسرة العشرين (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٣٥١/١ ـ ٤٣٩) .

(٧٢) أنظر عن هذه الرواية وأدلة دحضها (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٣٧ ـ ٤٤٤) .

(٧٣) تاريخ ابن خلدون ٩٧/٢ ، وفاء الوفا ١١٠/١ـ١١٢ ، صموئيل ثان ١/١٣ـ٣٣/١٨ ، وكذا

R. Dozy, Die Israeliten Zu Mekka, 1864, p. 40-8.

وكذا

M. Noth, op-cit, p. 201-202.

(٧٤) وفاء الوفا ١١٠/١ ، خلاصة الوفا ص ١٥٦ ، الدرر الثمينة فى تاريخ المدينة ص ٣٢٣ ، جواد على ١٢٩/٤ .

صحيح أن يثرب كان بها فى تلك الاونة من القرن العاشر قبل الميلاد مائة ألف من العذارى ؟ ثم وهل صحيح كذلك أن الله تعالى قد أهلك أهل يثرب جميعا ، وأخيرا ماذا فعل أهل يثرب حتى يصب داود عليهم نقمته الى هذا الحد ، وهكذا يبدو واضحا أن هذه الرواية ، شأنها شأن الرواية السابقة ، لا تعدو أن تكون أسطورة .

على أن هناك فريق ثالث يذهب الى أن اليهود قدموا الى يثرب فى القرن الثامن قبل الميلاد ، بعد سقوط السامرة عاصمة اسرائيل فى أيدى الاشوريين عام ٧٢٢ قبل الميلاد ، وليس من شك أن هذا الاتجاه انما قد تأثر بسقوط السامرة وتهجير أكثر عناصر سكانها أهمية الى شرق الامبراطورية الاشورية(٧٥) ، ثم استبدالهم بقوم من «بابل وكوت وحماة» ، ومن «سوسة وعيلام» . فضلا عن «قبائل ثمود (تامود) ومرسيمانو وجبايا ، والعرب الذين يعيشون بعيدا ، فى الصحراء . واسكانهم فى السامرة » ، ورغبة من العاهل الاشورى «سرجون الثانى» (٧٢٢ — ٧٠٥ ق٠م) فى كسر التحالفات القديمة فى سورية وفلسطين . بادخال أجانب الى البلاد»(٧٦) .

وهكذا يبدو واضحا أنه ليست هناك أية اشارة فى التوراة أو فى النصوص الاشورية ، الى تهجير يهود من السامرة الى يثرب أو الى غيرها من بلاد العرب ، ومن ثم فان المؤرخين يكادون يجمعون على رفض هذا الاتجاه .

---

(٧٥) - T. Olmstead, A JSL, 47, p. 262.
وكذا A. Guillaume, Islam, 1964, p. 11.
وكذا J. Finegan, op-cit, p. 210.
وكذا A. L. Oppenheim, ANET, 1966, p. 284.
وكذا A. G. Lie, The Inscriptions of Sargon, II, Part, I, The Annals, 1929, p. 5.

(٧٦) ملوك ثان ١٧/١-٢٦ ، عزرا ٤/٢، ٩ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٢/٩٤٠-٩٥٠ ، وكذا S. A. Cook, in CAH, III, 1965, p. 385.
وكذا A. L. Oppenhiem, ANET, p. 260.
وكذا C. Roth, A Short History of The Jewish People, London, 1969, p. 28-29.

وهناك فريق رابع يرى أن هجرة اليهود الى يثرب ، انما كانت بعد سقوط القدس وتدمير الهيكل فى القرن السادس قبل الميلاد على يد «نبوخذ نصر» (٦٠٥ — ٥٦٢ ق.م) فى عام ٥٨٦ ق.م (وربما فى أغسطس ٥٨٧ ق.م) ، وابعاد كثير من اليهود الى بابل وهو ما عرف فى التاريخ باسم «السبى البابلى» (٥٨٦ — ٥٣٩ ق.م)[٧٧] ، وعندما قتل اليهود «جداليا» نائب «نبوخذ نصر» فى فلسطين ، ادركوا مدى الكارثة التى حلت بهم ، وخوفا من انتقام «نبوخذ نصر» كان الهروب الى مصر هو سبيل النجاة الوحيد امامهم[٧٨] ، ومرة أخرى ، فليس فى هذه الأحداث ما يشير الى هروب اليهود الى يثرب ، كما تذهب الروايات العربية وغيرها[٧٩] .

على أنه فى مثل هذه الاضطرابات ، لا يمكننا نقول أن مصر هى سبيل النجاة الوحيد أمام اليهود ، كما تقول التوراة ومن ثم فيمكن القول ان فريقا من يهود قد فر الى بلاد العرب ، وان كنا لا نستطيع القول بحال من الأحوال ، أنهم قد ذهبوا الى يثرب بالذات . ولعل الذهاب الى تيماء ووادى القرى ومجاوراتهما ، ربما كان أقرب الى الصواب من الذهاب الى يثرب . ذلك لأن الطريق الى الحجاز لم يكن مقفلا أمام يهود فى تلك الفترة ، بخاصة وأن اليهود كانوا هاربين من فلسطين يبحثون عن ملجأ يقيهم شر العذاب الذى يمكن أن يصبه عليهم العاهل البابلى . والحجاز أقرب المناطق الى فلسطين ، كما أن وجود بعض يهود على طرق التجارة بين جنوب بلاد العرب وشمالها فيما بعد فى العصر الرومانى ، قد يدعم الرأى القائل بوجود هجرة يهودية الى بلاد العرب

---

(٧٧) انظر عن «السبى البابلى» (محمد بيومى مهران : اسرائيل ٩٩٧/٢ — ١٠٢٦) .

(٧٨) ارميا ٤١/١—١٨ ، زكريا ٥/٧ ، ملوك ثان ٢٥/٢٦ .

(٧٩) تاريخ الطبرى ٥٣٩/١ ، ابو الفداء ١٢٣/١ ، الروض الأنف ١٦/٢ ، الاغانى ٩٤/١٩ ، وفاء الوفا ١١٢/١ ، تاريخ ابن خلدون ١٠٧/٢ ، اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٦ ، وكذا

A. Gaillaume, op-cit, p. 11,

R. Dozy, op-cit, p. 135. وكذا .

منذ تلك الفترة(٨٠) .

غير أن حملات البابليين المتكررة بعد ذلك على شمال بلاد العرب ، فضلا عن استقرار «نبونيد» (٥٥٥ ــ ٥٣٩ ق.م) فى تيماء ، ولمدة عشر سنوات ، قد يضعف هذا الاتجاه ، ورغم أن هناك من يذهب الى أن حملة نبونيد على بلاد العرب قد ضمت بين رجالها بعضا من يهود(٨١) ، وأن هذا النفر من يهود انما أقاموا فى شمال الحجاز . وحتى يثرب ، اقامة دائمة استمرت حتى ظهور الاسلام ، فان العاهل البابلى لم يشر أبدا الى عناصر يهودية فى جيشه ، أو أنه قد أسكن يهودا فى تلك المناطق، كما أننا لا نملك من الادلة ما يؤيد وجهة النظر هذه(٨٢) .

وهناك فريق خامس يذهب الى أن وجود اليهود فى يثرب انما يرجع الى القرنين الاول والثانى بعد الميلاد . وليس من شك فى أن الادلة التاريخية ، انما هى فى جانب هذا الاتجاه أكثر من غيره ، ولعل من أهم هذه الادلة أن الظروف السياسية التى كانت يهود تمر بها فى تلك الفترة ــ بعد أن نجح الروم فى السيطرة على سورية ومصر فى القرن الاول قبل الميلاد ، ثم على اليهودية والانباط فى القرن الثانى بعد الميلاد ــ قد ساعدت هذه الظروف على هجرة أعداد من يهود الى شبه الجزيرة العربية ، التى كانت بعيدة عن السيطرة الرومانية ، فضلا عن أن بلاد العرب انما كانت ماتزال فى بداوة تشبه ما كان عليه اليهود الى حد ما ، هذا الى أن اليهود أنفسهم انما كانوا ينظرون الى العرب على أنهم من ولد اسماعيل ، وبما أنهم ، أى اليهود ، من ولد اسحاق ، فهم جميعا

---

(٨٠) اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ١٦ ، وكذا
A. Guillaume, op-cit, p. 11.

(٨١) A. R. Burn, Persia and The Greeks, p. 38.

وكذا C. J. Gadd, The Harran Inscriptions of Nabonidus. AS, 8, 1958, p. 35.

وكذا P. K. Hitti, op-cit, p. 39.

وكذا A. Musil; Northern Nejd, N. Y., 1928, p. 225.

(٨٢) جواد على ٦/٥١٣ ، وانظر : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ــ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٤٣٧ ــ ٤٥٥ .

اذن من نسل ابراهيم الخليل عليه السلام ، وبالتالى فهم من ذوى رحمهم ، ولهم بهم صلة قربى •

هذا فضلا عن أمر هروب اليهود الى أعالى الحجاز ودخولهم اليه، أمر سهل ميسور ، فالارض واحدة وهى متصلة ، والطرق مفتوحة ومطروقة ، ولا يوجد ما يمنع اليهود ، أو غير اليهود ، من دخول الحجاز، ولاسيما أن اليهود كانوا خائفين ، فارين بأنفسهم من فتك الروم ، وأقرب مكان مأمون اليهم هو الحجاز(٨٣) •

وهكذا كان الحجاز هو المكان الذى فر اليه اليهود — بعد تدمير القدس مرتين ، الاولى عام ٧٠م ، على يد القائد الرومانى «تيتوس» ، والثانية عام ١٣٥م على يد الامبراطور الرومانى «هادريان» ، حيث تم القضاء تماما على اليهود — ككيان سياسى وقومى — فى فلسطين ، وتغير أسم «القدس» الى «ايليا كابيتولينا» ، وتحول المعبد اليهودى الى معبد لاله الرومان «جوبيتر» ، ثم بيعت النساء اليهوديات كاماء ، وضاع اليهود فى غياهب التاريخ •

وسرعان ما فر — من أسعده الحظ فنجا — الى مكان يحتمى به من غضبة الروم القاسية ، وكان من هؤلاء المحظوظين فريق من يهود وصلوا الى «يثرب» ، وكان هؤلاء — الى من وصلوا بعد تدمير القدس على يد تيتوس — هم الذين كونوا الجالية اليهودية فى شمال الحجاز ، وفى يثرب بصفة خاصة(٨٤) ، وزاد عددهم بمرور الزمن ، حتى اذا ما ظهر الاسلام كان معظم سكان وادى القرى الى يثرب من اليهود . وهناك فى «الحجر» وفى مواضع أخرى من أرض الانباط كتابات نبطية يرجع بعضها الى القرن الاول الميلادى ، وبعضها الاخر الى القرن الرابع

---

(٨٣) جواد على : المرجع السابق ٦/٥١٤ ، وكذا
F. Altheim and R. Stiehl, op-cit, II. p. 74.
وكذا O'Leary, op-cit, p. 173.

(٨٤) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٣٧٥ — ٣٧٧ ،
وكذا Josephus, The Jewish War, II, 18, I, 3-4.

. الميلادى ؛ وردت بها أسماء عبرية ، تشير الى أن أصحابها من يهود[٨٥] .

وتؤيد المصادر العربية هذا الاتجاه ، فتذكر أنه لما ظهرت الروم على بنى اسرائيل جميعا بالشام ، فوطؤوهم ونكحوا نساءهم ، خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو هدل (بهدل) الى من بالحجاز من يهود ، فلما فصلوا عنهم بأهليهم ، اتبعهم الروم فأعجزهم ، وهلك جند الروم فى المفاوز والصحارى الخالية من الماء ، وهذه الروايات مأخوذة عن يهود المدينة أنفسهم ثم أخذت جموع اليهود فى الجزيرة العربية تزداد وتكثر بعد اضطهاد الروم لهم ، ثم قصدوا بنو النضير وقريظة منطقة يثرب ، وارتادوا حتى تخيروا أخصب بقاعها فسكنوها[٨٦] .

وهكذا سكنت جاليات يهودية منطقة يثرب : والطرق المؤدية الى الشام ، وان تركزت كتل اليهود الكبرى فى يثرب بالذات ، حيث كان فيها قبائل ثلاثة هى : قينقاع والنضير وقريظة : الى جنب بطون وعشائر يهودية أخرى ، ذهب الاخباريون الى انها بلغت أكثر من عشرين بطنا[٨٧] ، وهكذا دخلت اليهودية يثرب وخيبر ووادى القرى فى القرن الاول والثانى بعد الميلاد ، وسرعان ما تكونت فى يثرب ، وفى الواحات المتجمعة فى اتجاه الشمال ، فى خيبر ووادى القرى وفدك وتيماء ؛ حتى حدود شرق الاردن ، طوائف يهودية متماسكة غنية نسبيا ، يرأسها حاخام ، وبها مدرسة ، وصندوق تعاونى ، ان صح هذا التعبير[٨٨] .

---

(٨٥) J. Horovity, op-cit, p. 170.

(٨٦) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٨٧ ، وفاء الوفا ١١٢/٢ ، الاغانى ٩٥/١٩ ، اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٩ ، ١٠ ، أحمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول ـ القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٠٧ .

(٨٧) وفاء الوفا ١/١١٢ـ١١٦ ، ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ٢/ ٢٥٩ ، الاغانى ٩٥/١٩ ، أحمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ، اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ١٤ ، جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الجزء السادس ـ بيروت ١٩٧٠ ص ٥٢٢ .

(٨٨) ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ٦٤ .

ب) فى مكة المكرمة : وأما فى مكة المكرمة . فرغم أن هناك أفرادا من يهود كانوا على علاقات تجارية بالمدينة المقدسة ، ورغم أن أهل مكة من ناحية أخرى كانوا على اتصال بيهود الحجاز ـ كما نعرف ذلك من دوقعة الاحزاب ـ ومن قصة ذلك الغلام اليهودى الذى دخل فى ذمة النبى ﷺ ، بعد أن سمع منه قصة يوسف عليه السلام[٨٩] ، فان عدد اليهود بمكة انما كان قليلا ، وان ذهب «الاب لامانس» الى غير ذلك[٩٠] .

غير أن الادلة التاريخية ، فيما يرى اسرائيل ولفنسون ، لا تتفق ووجهة نظر «لامانس» . ومنها عدم وجود معبد لليهود فى مكة المكرمة ، فضلا عن عدم وجود حى خاص باليهود فى المدينة المقدسة ، كما أن كفار مكة كانوا يذهبـون الى يثرب ليسألوا أحبـار يهـود عن النبى ﷺ ، ومدى صدق دعوته . اذ لو كان هناك يهود فى مكة ، ما ذهب القرشيون الى أحبار يهود فى المدينة ، وأن الموجودين منهم فى مكة ، انما كانوا قلة نادرة ، مستضعفة وجاهلة[٩١] .

ج) فى اليمن : يروى الاخباريون أن انتشار اليهودية فى اليمن ، انما يرجع الى أيام «تبان أسعد أب كرب» ، وأن ذلك انما كان بتأثير حبرين يهوديين من يثرب فى قصة طريفة ، نهياه فيها عن تدمير المدينـة المنورة ، لانها سوف تكون مهاجر نبى يخـرج من قريش ، تدعوه أحمدا مرة ، ومحمدا مرة أخرى ، وهكذا صرف الحبران «تبعا» عن تدمير يثرب ، فضلا عن ايمانه بدينهما ، وقوله شعرا فى النبى ﷺ ، متمنيا فيه أن يعيش حتى يراه ، فيكون له وزيرا وابن عم ، فضلا عن القتال الى جانبه ، لانه كان على علم بما سيلاقيه النبى ﷺ ، من قومه من أذى

---

(٨٩) ابن هشام ٦٨/٣ ، المغازى للواقدى ٢٢٧/١ ، ٣٤٩ ، تاريخ الطبرى ٥٦٤/٢ ـ ٥٨١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٩٢/٤ـ١١٦ ، الكامل لابن الاثير ١٧٨/٢ ـ ١٨٤ .

(٩٠) اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٩٤ .

(٩١) نفس المرجع السابق ص ٩٤ ، ٩٦ ـ ٩٨ ، ابن هشام ٣٠١/١ـ ٣١٢ .

ثم أودع هذا الشعر عند أهل يثرب ودفعه الى كبيرهم ، وأن القوم كانوا يتوارثونه كابرا عن كابر الى عهد النبوة[٩٢] .

والقصة على أية حال ، أقرب الى القصص الشعبي ، منها الى التاريخ الصحيح ، ثم أننا حتى لو صدقناها ، لكان من الصعب أن نقتنع بأن «قيلا» واحدا يستطيع أن يرغم أقيال حمير على اعتناق دين جديد، دون أن يحدث ذلك فتنا داخلية ، وهذا ما لم تشر اليه المصادر التاريخية[٩٣] ، وقد ناقشنا ذلك كله بالتفصيل فى كتابنا عن تاريخ العرب القديم[٩٤] .

على أن هناك نصا عرف بنص (جلازر ٥٥٤) دونه «شرحبيل يعفر بن أب كرب » ، من القرن الخامس الميلادى ، عند اصلاح «سد مأرب» بعد تصدع أصابه ، وقد جاءت فيه جملة «رب السماء والارض»، وقد استدل البعض من هذه الجملة أنها تشير الى التوحيد الخالص ، وهو عقيدة يهود[٩٥] . هذا الى جانب نص آخر من نفس العهد ، جاءت فيه أيضا جملة «الاله الذى له السماوات والارض»[٩٦] .

وهناك رواية أخرى ، تذهب الى أن اليهودية انما قد انتشرت فى اليمن منذ أيام «ذى نواس» ، سواء أكان ذلك يمثل روحا قومية ، أم

---

(٩٢) تاريخ الطبرى ١٠٥/٢ ـ ١٠٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٦٣/٢ـ١٦٤ ، الازرقى : اخبار مكة ١٣٢/١ـ١٣٤ ، الالوسى : بلوغ الارب ١٧٠/٢ ، ٢٤٠ـ٢٤١ ، ابن هشام ٢٥/١ـ٢٧ ، تفسير ابن كثير ١٢٤/٤ ، وفاء الوفا ٢٢١/١ ، المسعودى : مروج الذهب ٨٢/١ ، تاريخ ابن خلدون ٥٣/٢ ، تاريخ اليعقوبى ١٩٧/١ ـ ١٩٨ ، تفسير القرطبى ١٤٥/١٦ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ، أخبار عبيد بن شرية ص ٤٦٠ .

(٩٣) اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٣٩ .

(٩٤) انظر : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ـ الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٣٥٦ ـ ٣٦٢ .

(٩٥) انظر : Le Museon, 1964, 3-4, p. 493.

وكذا D. S. Margoliouth, op-cit, p. 88.

(٩٦) Le Museon, 1961, 1-2, p. 174.

لان أمه يهودية من نصيبين، ومن ثم فهو قد تربى تربية يهودية محضة، وأنها كانت فى عقليته وميوله منذ نعومة أظفاره[٩٧] .

هذا وقد ساعد على انتشار اليهودية وقت ذاك أن ملوك حمير لم يخشوا على أنفسهم من اعتناق اليهودية ، أن تتسلط عليهم دولة ، ذات سلطان كبير ، ونفوذ واسع ، اذ لم يكن لليهودية فى ذلك العصر دولة سياسية ، فى حين أن النصرانية كانت تعتمد على الدولة الرومانية الشرقية الطامعة فى فتح بلادهم ، ومن هنا نفهم السر فى مقاومة الرهبان واضطهاد أهل نجران ، والنفور من الاحباش : لانهم جميعا كانوا آلة فى أيدى البيزنطيين[٩٨] .

والامر بهذه الصورة ليس هناك من دليل تاريخى يؤكده تماما . وان كنا فى الوقت نفسه ، لا نستطيع أن ننفى وجود اليهودية فى اليمن على أيام «ذى نواس» ، ومن ثم فان الخلاف على وقت دخول اليهودية الى اليمن : مايزال قائما .

ولعلنا نتساءل : اذا كان اليهود قد اكرهوا قبائل اليمن على التهود: فمن اين لهم القوة التى مكنتهم من ذلك الاكراه ؟ واذا كانوا قد هودوا تلك القبائل اليمنية بالتبشير والاقناع . فكيف قبلوا أن يشركوا معهم أناسا من المطرودين المحرومين من وعد ابراهيم الخليل ؟

ويرى الاستاذ العقاد — طيب الله ثراه — أن الاحتمال الراجح بين هذه النقائض ، أن اليهود وصلوا الى اليمن مهاجرين متفرقين . وربما بدأت هذه الهجرة منذ أيام السبى البابلى فى القرن السادس قبل الميلاد، لقرب بابل من طريق البحرين الى اليمن ، فان لم تكن موغلة هذا الايغال

---

(٩٧) اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٤٤ ، جواد على ٥٩٣/٢ ، وكذا

P. K. Hitti, History of The Arabs, London, 1960, p. 61.

وكذا F. Altheim and R. Stiehl, Die Araber in der Alten Welt, Berlin, 1964, p. 630.

(٩٨) اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٣٦ .

فى القدم ، فقد يكون مبدؤها عند تشتيت اليهود فى القرن الثانى للميلاد، ثم استمرت ثلاثمائة سنة حتى الدولة الحميرية ، ثم وجد الحميريون أنفسهم معرضين لخطر واحد أمام تحالف الحبشة والروم ، ونصـــارى اليمن فى نجران وغير نجران ، فعقدوا الحلف المقابل بينها وبين فارس وأعوانها من عرب الشواطئ الشرقية .

ومن ثم فان الدولة الحميرية ، على عهد ذى نواس ، لم تكن دولة يهودية ، يقبلها اليهود ويدخلونها معهم فى عداد «شعب الله المختار» ، ولكنها كانت تحالف اليهود ، وتعمل على الاشتهار بمحالفتهم ، لاقناع فارس بولائها فى النزاع بينها وبين الحبشة والروم ، واشتهرت من ثم بالتهود ، لانها أيدت اليهود ، وتنكرت للنصارى . حذرا من معاونتهم خفية أو جهارا لشركائهم فى العقيدة ، من أبناء الحبشة ، ولو كان اليهود هم القوة التي قامت عليها دولة حمير ، لما صاروا الى القلة التى غمرتها الكثرة العربية فى القرن الخامس للميلاد[٩٩] .

على أن المؤرخين انما ينكرون وصول اليهودية الى اليمن بعد السبى البابلى ، رغم اشارة أحبار من اليهود الى ذلك[١٠٠] ، ومن ثم فان فريقا من المؤرخين انما يذهب الى أنها قد انتشرت منذ أخريات القرن الاول ، وأثناء القرن الثانى للميلاد ، ربما اعتمادا على أن الفرقة اليهودية التى صاحبت «اليوس جالليوس» فى حملته على اليمن عام ٢٤ ق.م ، ربما قد فضلت البقاء فى اليمن ، ولم تعد الى فلسطين[١٠١] ، وربما اعتمادا على رحلة الحبر اليهودى «ربى عقيبة» الى اليمن فى عام ١٣٠ ميلادية[١٠٢]، وربما اعتمادا على العثور على مقبرة لاحد كبار أحبار اليمن ، ويدعى «منحيم» فى «بيت شعاريم» جنوب شرق حيفا ، والتى ترجـــع الى

(٩٩) عباس العقاد : مطلع النور ص ٤٠ ــ ٤١ .

(١٠٠) R. Dozy, op-cit, p. 135.

(١٠١) Lss. I. 3. 1956, p. 221.

(١٠٢) Islamic Culture, III, 2, p. 190.

وكذا Josephus, Antiquities of The Jews, XV, 3, 29.

Islamic Culture, III, 2, p. 190.

وكذا F. Altheim and R. Stieh, op-cit, III, p. 22.

عام ۲۰۰م[۱۰۳] .

وهكذا رأينا من ينادى بقيام دولة حميرية يهودية فى اليمن ، فيما بين القرن الاول قبل الميلاد . والقرن الثانى الميلادى[۱۰٤] ، غير أن هناك من يعترض على هذا الاتجاه الذى يعتمد على الحدس والتخمين ، أكثر من اعتمـاده على الادلة التـاريخية ويرى أنه لو صح : لكان المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» أول من تحدث عنه ، كما فعل عن «حديب»، وهى دويلة أرامية متهودة ، قـامت على أطراف نهـر الفرات ، ولملأ «التلمود» بعد ذلك ، صحائف غير قليلة ، بذكر أخبارها ، وسرد الاساطير عنها : فسكوت التلمود عنها ، لدليل قوى على عدم وجودها وقت تأليفه، فى ختام القرن الرابع الميلادى[۱۰٥] .

والرأى عندى أن لو أردنا معرفة تاريخ بداية انتشار اليهودية فى اليمن ، لوجب علينا أن نرجع الى القرآن الكريم : ومنه سوف نعرف أن ذلك انما كان فى القرن العاشر قبل الميلاد ، ذلك لان القرآن الكريم انما يحدثنا فى قصة ملكة سبأ مع سليمـان عليه السلام . انما انتهت بقولها «رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»[۱۰٦] .

ولعل سؤال البداهة الان : هل كان هذا الاسلام لله رب العالمين ، مقصورا على الملكة وحدها ، أم انضم اليها آخرون ؟

وانني لأظن . وليس كل الظن اثما — أن الملأ من قومها ربما كانوا معها فى اسلامها هـذا ، لان الذى يفهم من الايات الكريمة أنهـا قد استشارتهم فى الامر منذ بدايته «قالت يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب

(۱۰۳) S. D. Koitein, Jews and Arabs, New York, 1955, p. 47.
وكذا G. R. Driver, Hebrew and Semitic Studies, 1963, p. 131.
وكذا F. Altheim and R. Stieh, op-cit, p. 16.
(۱۰٤) اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ۳۷ — ۳۸ .
(۱۰٥) اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ۳۸ ، وكذا
Graetz, History of The Jews, III, p. 405.
وكذا F. Altheim and R. Stieh, op-cit, p. 65 F.
(۱۰٦) انظر : سورة النمل : آية ۳۰—٤٤ .

كريم ، انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على وأتوني مسلمين ، قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ؛ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد . والامر اليك فانظري ماذا تأمرين»(١٠٧) •

ولعل هذه الآيات انما تشير الى أن الملأ من قوم ملكة سبأ قد آمنوا بما آمنت به الملكة آخر الامر ، على أننا لا نستطيع أن نذهب بعيدا ، فنقول ان الشعب قد آمن كذلك ؛ فالحق ان ذلك أمرا ليس لدى صاحب هذه الدراسة اجابة عليه ؛ فانه لا يعلم الغيب الا الله ، كما أننا لانستطيع أن نستنتج من الآيات الكريمة شيئا محددا في هذا الصدد •

وعلى أية حال . فما أن تمر الايام ، وتمضي السنون حتى ينسى القوم هذا الدين القويم . وتنحرف الأجيال — جيلا بعد جيل — عن التوحيد ، فترتد مرة أخرى الى الوثنية القديمة •

هذا ومن المقبول أن ما تعرض له اليهود من نكبات — الواحدة تلو الأخرى — في فلسطين ، انما يجعل بعضا من اليهود يتسللون الى اليمن — جماعات أو فرادى — سواء أكان ذلك أثناء الاسر البابلي (٥٨٦ — ٥٣٩ ق•م) أو بعده . وبخاصة بعد تدمير بيت المقدس على يد «تيتوس» عام ٧٠م ؛ وعلى يد «هدريان» عام ١٣٥م ؛ بخاصة ونحن نعلم أن فريقا منهم قد ذهب الى الحجاز ، كما أن فريقا آخر كانوا يعملون في التجارة ؛ وليست هناك في تلك الفترة أية عوائق تعوق وصول تجار اليهود الى ثغور اليمن ، والى مدنها الداخلية ، سالكة طرق التجارة المعروفة •

أضف الى ذلك أنه ليس من المنطق القول بأن «ذا نواس» لم يعتنق اليهودية . وان كنت أفضل هنا — ان كان ذلك قد حدث حقا ، الاتجاه الى أن الدوافع انما كانت سياسية أكثر منها دينية ؛ فقد كان «ذا نواس»

---

(١٠٧) سورة النمل : آية ٢٩ — ٣٣ •

يتعرض لضغط شـديد من الحبشة ، تعضدهـا فى ذلك الامبراطورية الرومانية الشرقية ــ ممثلا فى النصرانية ــ ذلك الدين الجديد الذى يبغى الاحباش ــ فضلا عن الروم ــ فرضه على اليمن ، ومن ثم فقد بدأ «ذو نواس» يحتضن اليهودية وأصحابها اليهود ، أعداء الروم ، وربما كان ذلك منه بغضا للروم : أكثر منه ايمانا باليهودية .

وهكذا بدأ «ذو نواس» يرحب بالنصارى من أتباع المذاهب التى وقع عليهـا التحريم والتشديد : بعـد تنصر العواهـل الشرقيين فى القسطنطينية ، فضلا عن نصارى الحيرة المنافسين لنصارى غسان،أتباع الروم ، وهكذا بدأت اليهودية تنتشر فى اليمن بصورة أكثر مما كانت عليه من قبل ، وان أصيبت بهزة عنيفة على أيدى النصارى بعد هزيمة ذى نواس(١٠٨) .

٣ ـ أسباب عدم انتشار اليهودية فى بلاد العرب :

لعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى انه رغم اعتناق كثـير من العرب لليهودية ، فعلينا ألا نبالغ كثيرا فى مدى انتشار اليهودية بين العرب : فقد كانت هناك عقبات تقف فى طريق سعة هذا الانتشار.وتغلغل اليهودية بين القبائل العربية ، منها :

أولا : أن اليهودية كانت فى تلك الفترة تلمودية أكثر منها توراتية ، وقد نجم عن ذلك ، أن الذين أرادوا اعتناق اليهودية ــ كما جـاءت فى التوراة ــ دون أن يخضعوا لقانون التلمود وعقائده : لم تقبل يهوديتهم. بل ان اليهود انما كانوا ينظرون اليهم ، نظرتهم الى بقية عبدة الاصنام. بخاصة فيما يتصل بالتمسك بالسبت .

وثانيا : أن التوراة والتلمود قد فرضتا على معتنقى اليهودية تكاليف نظر اليها العربى الذى جبل على حب الحرية ، وكأنها نوع من القيـود والاغلال التى تحد من حريته(١٠٩) .

---

(١٠٨) أنظر : محمد بيـومى مهران : الديانة العربية القديمة ـ الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٤٩ ـ ٥٧ ، ٩٩ ـ ١٠٢ .
(١٠٩) اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٧٢ ـ ٧٣ .

وثالثا : أن سلوك اليهود فى بلاد العرب لم يكن المثل الذى يرتضيه العربى فى كثير من مناحى الحياة ، وبالتالى فلم يكونوا القدوة الحسنة التى يرضى العربى أن يحتذى حذوها ، فضلا عن أن يعتنق دينها ، بل ان العربى فى كثير من الاحايين ، انما كان ينظر الى اليهود نظرة بعيدة عن الاحترام •

ورابعا : أن اليهود انما كانوا يعتبرون الله — تعالى عن ذلك علوا كبيرا — اله بنى اسرائيل خاصة ، وليس رب العالمين — كما يعتقد المسلمون والمسيحيون — بل حتى حين تخرج أسفار التوراة الأخيرة به عن دائرة بنى اسرائيل الى غيرهم من الشعوب . فقد ظل المعنى المتضمن لمفهوم الله تعالى فى التوراة ، على أنه اله بنى اسرائيل فى المقام الاول[110] •

وخامسا : أن الله — تعالى عن ذلك علوا كبيرا — لم يكن فى عرف بنى اسرائيل ، هو الاله الاوحد — أو حتى الوحيد — وانما هو أكبر الآلهة فحسب ، ومن ذلك ما جاء فى التوراة «من مثلك بين الآلهة يارب» و «الرب أعظم من جميع الآلهة» و «الهنا أعظم من جميع الآلهة» و «ربنا فوق جميع الآلهة»[111] •

وهذه النصوص التوراتية ، انما تدل على أن «يهوه» اله اليهود . لم يكن الاله الوحيد الذى يعترف اليهود بوجوده ، أو يعترف هو نفسه بوجوده وحده ، وشاهد ذلك أن كل ما يطلبه فى الوصية الاولى من الوصايا العشر المشهورة هو أن يكون مقامه فوق سائر الارباب •

وانطلاقا من كل هذا ، وكما يقول أنجنل ، ان الوحدانية التى كان

---

(١١٠) تكوين ١/١٢ — ٣ ، ١٤/١٣ — ١٨ ، ١٨/١٥ — ٢٠ ، ٢٦/٢٤ ، ١٣/٢٨ ، ٤٠/٤٦ ، خروج ٦/٣ ، ١٥ ، ٦/٦ — ٧ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٤/٤ — ٧ ، ول ديورانت : قصة الحضارة ٢٤٣/٢ ، صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى ص ٥٢ •

(١١١) خروج ١١/١٥ ، ١١/١٨ ، ٥/٢٠ ، ٢٤/٢٣ ؛ ١٤/٣٤ ، قضاة ٢٤/١١ ، راعوث ١٥/١٠ ، اخبار أيام ثان ٥/٢ ، مزمور ٨/٨٦ ، ٥/١٣٥ •

يدركها الاسرائيليون فى ذلك الزمن ، لم تكن وحدانية تفكير ، ولكنها وحدانية تغليب رب من الارباب على سائر الارباب ، ولم يخط اليهود خطوة غير هذه الخطوة ، وهى أن لليهود الها واحدا يعلو على آلهة غيرهم من الشعوب[112] .

---

(١١٢) ول ديورانت : المرجع السابق ص ١٤٢ ، العقاد : أبو الانبياء ص ١٢٢ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٤٦/٤ ـ ٥٤ .

٢ ـ النصرانية

١ ـ النصرانية والنصارى :

النصرانية : واحدة النصارى ، وقد أطلقت فى العربية على أتباع السيد المسيح عليه السلام[1] ، والنصارى : جمع واحدة (او واحدهم) نصرانى ــ أو «نصران» ، فيما يرى سيبويه ــ والانثى نصرانة ، وهو نكرة يعرف بالالف واللام ، وذهب الخليل الى أن واحد من النصارى «نصرى» ، هـذا وقد سمع فى جمعهم «أنصار» ، بمعنى النصارى ، والكلمة ليست عربية أصيلة ، وانما هى معربة عن السريانية من كلمة «نصريو» أو «نصرايا» على رأى[2] ، ومن التسمية العبرية «الناصريين» أو «النذيريين»[3] ، حيث أطلقتها يهود على اتباع السيد المسيح عليه السلام ، على رأى آخر[4] .

على أن بعض المؤرخين انما يرى أن للكلمة صلة بمدينة «الناصرة»[5] بلد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام أو «بالناصريين» احدى الفرق اليهودية القديمة المتنصرة ، وقد بقى اليهود يطلقون كلمة «النصارى»[6] على من اتبع دين المسيح . وبهـذا المعنى وردت الكلمة فى القرآن

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ٦٨/٧ ، تفسير الطبرى ١٠٣/٢ـ١٤٤ ، تفسير القرطبى ص ٣٦٩ ، تفسير النسفى ٥٢/١ ، تفسير البحر المحيط ٢٦٨/١ ، معانى القرآن للفراء ٤٤/١ ، أمالى ابن الشجرى ٧٩/١ ، ٣٧١ .

(٢) غرائب اللغة ص ٢٠٧ ، وكذا
Encyclopaedia of Islam, III, p. 848.

(٣) انظر عن النذريين (محمد بيومى مهران : اسرائيل ١٥٠/٤ ــ ١٥١ ، وكذا A. Bertholet, Histoire de la Civilisation d'Israel, Paris, 1929, p 356.
وكذا A. Loods, op-cit, p. 448-449.

(٤) أعمال الرسل ٥/٢٤ ، وكذا
J. Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, III, p. 574.

(٥) الناصرة : وتقع على مبعدة ١٤ ميلا الى الغرب من بحيرة طبرية ، ١٩ ميلا شرقى عكا ، ٣٦ ميلا الى الشمال من القدس ، وهى بلد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، ولذا لقب «يسوع الناصرى» ، ولقب تلاميذه بالناصريين (قاموس الكتاب المقدس ٩٤٦/٢ـ٩٤٧) .

(٦) يذهب البعض الى انهم سموا «نصارى» ، واحـدهم نصران =

الكريم(7) ؛ ومن ثم فقد أصبحت «النصرانية» علما على ديانة المسيح عند المسلمين(8) ، وهنا حاول بعض علماء اللغة تفسير الكلمة على أنها نسبة للناصرة التى ينتسب اليها السيد المسيح عليه السلام(9) ، بينما ذهب آخرون الى أنها نسبة الى قرية يقال لها «نصران» ، وهكذا قيل نصرانى ؛ وجمعه نصارى(10) .

وأما النصارى أنفسهم ، فقد كان انقدامى منهم ينظرون الى المسيح؛ نظرتهم الى «المعلم» ، ومن ثم فقد كانوا يسمون أنفسهم «التلاميذ» و«تلاميذ المسيح»(11)، والامر كذلك بالنسبة الى نظرتهم الى «الحواريين» ــ وهى لفظة آرامية على رأى،وعربية على رأى ثان،وحبشية على رأى ثالث ــ(12) ومن ثم فاننا نقرأ فى انجيل مرقص(13) «وكان تلاميذ يوحنا والفريسيون(14) يصومون» ، كما دعوا أنفسهم «الاخوة» و «الاخوة

=

لنصرة بعضهم البعض ، وتناصرهم فيما بينهم ، بينما يذهب آخرون الى أن السبب فى التسمية أنهم نزلوا ارضا يقال لها «ناصرة» ، أو لان قريه سيدنا عيسى عليه السلام كانت تسمى الناصرة،ويسمى اصحابها الناصريون بينما يسمى عيسى الناصرى (أنظر تفسير الطبرى ١٤٢/٢ ــ ١٤٥ ، تفسير القرطبى ص ٣٦٩ ، تفسير النسفى ٥٢/١) .

(٧) انظــر : سورة البقرة : آية ٦٢،١١١،١١٣،١٢٠،١٣٥،١٤٠، المائدة : آية ١٤ ، ١٨،٥١،٦٩،٨٢ ، التوبة : آية ٣٠ ، الحج : آية ١٧ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٤٣/٢ ــ ١٤٥ ، ١٥٠/١٠ ــ ١٥٤ ، ٣٩٥ــ٤٠٣، ٤٩٨ ــ ٥٠٦ ، تفسير ابن كثير ٥٢٨/٢ ــ ٥٣٠ ، ٦١٣ ــ ٦٢٣ ، تفسير الكشاف ٦٠٢/١ ، ٦٣١ ــ ٦٣٢ ، ٦٣٧ ــ ٦٣٨ ، تفسير القرطبى ص ٢١١٧ ــ ٢١١٨ ، ٢٢١٣ ، ٢٢٤٣ ــ ٢٢٤٤ ، ٢٢٥٢ ــ ٢٢٥٥ ، تفسير روح المعانى ٢٠٠/٦ ــ ٢٠٦ ، ٢/٧ ــ ٥ تفسير المنار ٢٥٣/٦ ــ ٢٦٤ ، ٣٥٠ ــ ٣٥٤ ، ٣٩٤ ــ ٣٩٦ ، ٣/٧ــ٦ ، تفسير أبى السعود ٣٥/٢ــ٣٦ ، ٤٦ ــ ٤٧ .

(٨) جواد على ٥٨٣/٦ .

(١٠) اللسان ٦٨/٦ ، جواد على ٥٨٣/٦ .

(١١) J. Hastings, Dictionary of The Bible, Edinburgh, 1936, p. 192.

(١٢) الاب لويس شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ــ بيروت ١٩٢٣ ص ١٨٩ ، المشرق ــ السنة السابعة ١٩٠٤ ص ٦٢٠ .

(١٣) انجيل مرقص ١٨/٢ ، اعمال الرسل ١٥/١ .

(١٤) أنظر عن : الفريسيين : محمد بيومى مهران : اسرائيل ٤/ ١٨٨ ــ ١٩٢ (الاسكندرية ١٩٧٩) .

فى الله» ، على أساس أن العقيـدة الدينية قد آخت بينهـم[١٥] ، ثم سرعان ما أصبحت الكلمة مقصورة على «رجال الدين» الذين دعـوا أنفسهم بالقديسيين ، وبالاخـوة المؤمنين فى المسيح ، وبالمقدسين فى المسيح يسوع المدعويين «قديسيين»[١٦] .

هذا وقد عرف النصارى كذلك «بالمسيحيين» ، ومفردها مسيحى ، ونقرأ فى الانجيل أن «برنابا» قد خرج الى «طرسوس» (فى شرق آسيا الصغرى) ، وهناك التقى بشاؤل ، حيث جاء به الى انطاكية ، وبقيـا هنـاك عاما كاملا يعلمان جمعـا غفيرا فى الكنيسة ، ودعى التـلاميذ «مسيحيين» فى أنطاكية أولا[١٧] .

ونقرأ أيضا : «فقـال أغريباس لبولس : بقليل تقتعنى أن أصـير مسيحيا»[١٨] ، وربما كانت كلمة «مسيحيين» نسبة الى المسيح عليه السلام ، وهو المخلص المنتظر الذى يتم على يديه خلاص الشعب المختار ، فيما يرون ، ومن ثم فقد أطلق على أتباعه «المسيحيين» تمييزا لهم عن اليهود[١٩] ، وربما تعنى كلمة «المسيح» الممسوح بزيت البركة ، كمـا كان اليهود يفعلون عند تنصيب ملك جديد[٢٠] .

وأما اسم «يسوع» فهو الصيغة الهلينية لكلمة «يشوع» العبرية ، والتى تعنى «يهوه هو الخلاص»[٢١] ، على أنه من الجدير بالملاحظة أن هذه اللفظة اليونانية لم تستعمل اطلاقا فى القرآن الكريم ، وكذا المؤلفات العربية القديمة ، والشعر الجاهلى ، فالكلمة ، فيما يبدو ، من المصطلحات

---

(١٥) J. Hastings, op-cit, p. 104.
(١٦) اعمال الرسل ١/١٥ ـ ١٦ ، رسالة بولس الرسول الاولى الى اهل كورنثوس ٢/١ ، ١٠ .
(١٧) اعمال الرسل ٢٥/١١ـ٢٦ .
(١٨) اعمال الرسل ٢٦/١١ ، ٢٨/٢٦ ، رسالة بولس الرسول الاولى الى اهل كورنثوس ١٦/٤ ، وكذا J. Hastings, op. cit., p. 127.
(١٩) جواد على ٥٨٥/٦ .
(٢٠) صموئيل ثان ١/١٠ .
(٢١) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٣٦٣ .

المتأخرة[٢٢] .

هذا وقد أطلق القرآن الكريم علي النصارى «أهل الانجيل» فى قوله تعالى «وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون»[٢٣] .

هذا ولم يتعرض القرآن الكريم لسير السيد المسيح عليه السلام ، أو تعاليم الانجيل ، الا بعد فترة تقاربت سنوات عشر من مبعث المصطفى ﷺ[٢٤] ، ورغم أن هناك أفراداً من أحرار النصارى وعبيدهم كانوا مقيمين فى البلد الحرام ، ورغم أن القرآن الكريم قد أشار الى اليهود فى هذه الفترة نفسها .

ويعلل بعض الباحثين ذلك بان هناك بونا شاسعا بين قلوب عرب الحجاز وبين تعاليم المسيحية[٢٥] ، وأن النصارى المقيمين فى مكة المكرمة انما كانوا أفراداً من المغامرين الروملن . والذين كانوا فيما يرى اوليرى ، يقومون بالتجسس لحساب بلادهم[٢٦] ، وكذا من الزنوج الاحباش بائعى الخمر ، أو من الكادحين الذين يقطنون الاحياء المنزوية[٢٧] ، هذا فضلا عن أن هؤلاء المطمورين لم يكونوا يجهلون دينهم فحسب ، وانما

---

(٢٢) جواد على ٥٨٥/٦ ـ ٥٨٦ ، وكذا
Hughes, Dictionary of Islam, p. 431.

(٢٣) سورة المائدة : آية ٤٧ ، وانظر : تفسير الطبرى ٣٧٤/١٠ ـ ٣٧٦ ، تفسير روح المعانى ١٥١/٦ ـ ١٥٤ ، تفسير المنار ٣٩٦/٦ـ٤٠٠ ، تفسير الكشاف ٦١٧/١ ، تفسير أبى السعود ٣٢/٢ـ٣٣ ، تفسير القرطبى ٢٠٨/٦ـ٢٠٩ ، صفوة التفاسير ٣٤٦/١ ، تفسير النسفى ٢٨٦/١ ، تفسير ابن كثير ١٠٣/٢ .

(٢٤) سورة مريم : آية ١٦ ـ ٤٠ ، سورة الروم : آية ١ ـ ٦ .

(٢٥) اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٩٦ ، احمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٢٣٢ ، وكذا
Lezyvsky, Die Juden Zu Medina, p. 41.

(٢٦) De Lacy O'Leary, Arabia before Muhammad, London, 1927, p. 184.

(٢٧) محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم ـ الكويت ١٩٧٤ ص ١٣٤ .

كانت كذلك لغتهم الاجنبية حاجزا بينهم وبين النبى ﷺ ، وفهم القرآن الكريم[٢٨] ، ومع ذلك كله : فقد رأينا بعض سادة مكة يعتنقون النصرانية وليس اليهودية ، كما سنرى فيما بعد .

٢ ــ النصرانية دعوة خاصة :

لعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أننا اذا أردنا أن نقدم صورة موجزة لانتشار المسيحية بين العرب ، أن نتذكر ــ بادئ ذى بدء ــ أن المسيحية فى صميم أمرها ــ شأنها فى ذلك شأن غيرها من الديانات السماوية السابقة للاسلام : انما هى دعوة خاصة ؛ وأن النبى الوحيد من بين الانبياء جميعا ، الذى أرسل للناس كافة ، انما هو سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ[٢٩] ؛ وأن السيد المسيح عليه السلام :

---

(٢٨) سورة النحل : آية ١٠٣ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٢/٩٠٩ ــ ٩١٠ ، تفسير النسفى ٢/٣٠٠ ، تفسير القرطبى ص ٣٧٩٣ ــ ٣٧٩٤ ، صفوة التفاسير ٢/١٤٣ ، فى ظلال القرآن ٤/٢١٩٩ ، محمد عبد الله دراز : المرجع السابق ص ١٣٥ ، وكذا
P. Lammens L'Islam Croyance et Institution, 1926, p 28.

(٢٩) دل القرآن الكريم على عالمية الدعوة المحمدية بأساليب متعددة فى نصوص واضحة ، بل ان هناك أكثر من أربعين آية فى القرآن الكريم يذكر فيها الله تعالى باسم رب العالمين ، هذا عدا الايات التى ذكر فيها بالنص الواضح أن سيدنا محمد رسول الله ، ﷺ ، قد أرسل الى الناس كافة من ذلك قوله تعالى فى سورة النساء (آية ٧٩) «وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيدا» ، وقوله تعالى فى الانبياء (آية ١٠٧) «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» ، وقوله تعالى فى سورة سبأ (آية ٢٨) «وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن اكثر الناس لايعلمون» ، وقوله تعالى فى سورة الاعراف (آية ١٥٨) «قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا» ، وقوله تعالى فى الحج (آية ٤٩) «قل يا ايها الناس انما أنا لكم نذير مبين» ، وقوله تعالى فى سورة ابراهيم (آية ١ ، ٥٢) «كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد» ، و «هذا بلاغ للناس ولينذروا به» ، وقوله تعالى فى سورة ص «ان هو الا ذكر للعالمين» .

ويتفق الحديث الشريف مع القرآن الكريم على عالمية الدعوة المحمدية ، وأن تلك ميزة الحبيب المصطفى ، ﷺ ، على غيره من أنبياء الله الكرام البررة ، الذين كانت دعوتهم مقصورة على أقوامهم ، دون غيرهم من العالمين ، يقول ﷺ ــ كما جاء فى الصحيحين ــ «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلى ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الارض =

انما أرسل الى قومه من بنى اسرائيل خـاصة ، ومن ثم فاننا نقرأ فى القرآن الكريم ، قوله تعالى «واذ قال عيسى بن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هـذا سحر مبين»[٣٠] ، ونقرأ كذلك قوله تعالى «ورسولا الى بنى اسرائيل»[٣١] .

ومن ثم فقد اتجه المسيح عليه السلام بدعوته الى بنى اسرائيل ، يبغى من ورائها هداية خراف اسرائيل الضالة ، يقول الانجيل : انه بينما كان السيد المسيح متجها الى صيدا وصور : «واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم ، صرخت اليه قـائلة : يا سيدى يا ابن داود ، ابنتى مجنونة جدا ، فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قـائلين : اصرفها لانها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال : لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة ، فأتت وسجدت له قائلة : يا سيدى أعنى ، فأجـاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب ، فقالت : نعم

=

مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى الناس عـامة» ، وروى عنه ، ﷺ أنه قـال «والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الامة يهودى ولا نصرانى ، ثم لا يؤمن بى ، الا دخل النار» ، وفى الصحيح ايضا أن رسول الله ، ﷺ قال «بعثت الى الاسود والاحمر» .

وروى عن عكرمة أنه قال : سمعت ابن عباس يقول : ان الله تعـالى فضل محمدا ﷺ ، على أهل السماء وعلى الانبياء ، قالوا : يا ابن عباس، فيم فضله على الانبياء ، قال : ان الله تعالى قال «وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم» ، وقال للنبى «وما أرسلناك الا كافة للناس» (انظر : صحيح مسلم ٣٦٧/١ ، ابن كثير : شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضله وخصائصه ـ القاهرة ١٩٦٧ ص ٣٤٠ ، تفسير ابن كثير ٨٥٦/٣ ـ ٨٥٧ ، فتاوى ابن تيمية ٢٠٣/٤ ـ ٢٠٨ ، ١٦٩/١١ ـ ١٧٠ ، ٩/١٩ـ١٢، ١٠١ ـ ١٠٣ ، صحيح البخارى ، العقاد : الاسلام دعوة عالمية ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٥٧ ـ ١٦٠ ، مناع القطان : الاسلام شريعة الله الخالدة الى البشرية كافة ـ الرياض ١٩٧٤ ص ١١ ـ ٤٠ ، عطية صقر : الدين العالمى ومنهج الدعوة اليه ، محمد بيومى : قصـة الطوفان بين الاثار والكتب المقدسة ـ الرياض ١٩٧٦ ص ٤٣٧ ـ ٤٤١) .

(٣٠) سورة الصف : آية ٦ .

(٣١) سورة آل عمران : آية ٤٩ .

يا سيدي ، والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها، حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا أمرأة عظيم ايمانك ، ليكن لك ما تريدين فشفيت ابنتها من تلك الساعة»[٣٢] .

وهكذا عمم سيدنا عيسى عليه السلام الدعوة — أو عممها تلاميذه — بعد تكرارها على بنى اسرائيل ولحاجتهم فى الاعراض عنها ، فوجها الى كل مستمع لها ، مقبل عليها ، وقال لهم : ان العاملين بالخير هم ذرية ابراهيم الخليل ، أقرب وأوفى ممن يدعون النسبة اليه بالسلالة ، لانهم أبناؤه بالروح[٣٣] ، وضرب لهم المثل بوليمة العرس التى لم يحضرها المدعون اليها ، ولذلك غضب الداعى ، وقال لعبيده : أما العرس فمستعد، وأما المدعون فلم يكونوا مستحقين ، فاذهبوا الى مفارق الطرق ، وكل من وجدتموه فادعوه الى العرس ، فخرج أولئك العبيد الى الطرق ، وجمعوا كل الذين وجدوهم ، أشرارا وصالحين ، فامتلأ العرس من المتكئين[٣٤] ، وهكذا بدأ تلاميذ المسيح ينشرون دعوته ، وكانت بلاد العرب من بين تلك البلاد التى انتشرت النصرانية فيها ، ولكن الى حد ما.

٣ — تاريخ دخول النصرانية بلاد العرب وطريقة انتشارها :

لاريب فى أن تحديد تاريخ معين لدخول النصرانية بلاد العرب ، أمر صعب ، غير أنه يمكننا القول بصفة عامة ، ان وجود النصرانية بين العرب فى بعض مناطق اقامتهم المختلفة ، ربما كان قديما قدم النصرانية نفسها، فلدينا رواية فى الانجيل يفهم منها أن «دمشق» كانت على أيام «بولس الرسول»[٣٥] تحت سلطان «الحارث الرابع» النبطى (٩ ق.م — ٤٠م)، وأن عامله هناك قد حاول القبض على بولس ، غير أن الاخير قد أفلت بعد أن تدلى من طاقة فى زنبيل من السور[٣٦] .

---

(٣٢) انجيل متى ١٥/٢٣ — ٢٨ .
(٣٣) العقاد : مطلع النور ص ٩٦ .
(٣٤) انجيل متى ٢٢/١ — ١٠ .
(٣٥) أنظر عن بولس الرسول : قاموس الكتاب المقدس ١/١٩٥ — ١٩٩ .
(٣٦) رسالة بولس الثانية الى اهل كورنثوس ١١/٣٢—٣٣ ، وكذا A. Guillaume, Islam, 1964, p. 13.

ورغم أننا لا نستفيد كثيرا من هذه الرواية ، الا أنها قد تشير الى بداية انتشار النصرانية فى ممتلكات الانباط ، ثم بين حلفائهم التدمريين، هذا فضلا عن أنا نعرف أنه قد أقيم فى «أديسا» أقدم مركز للمسيحية فى بلاد النهرين ، وربما كان ذلك فى أخريات القرن الثانى الميلادى(٣٧).

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أن تسرب النصرانية الى بلاد العرب، انما يختلف عن اليهودية ؛ فبينما اعتمدت الثانية على الهجرة والتجارة، اعتمدت الاولى على التبشير ، ثم دخول بعض النساك والرهبان الى بلاد العرب ، للاقامة فيها بعيدا عن ملذات الحياة ، كما اعتمدت على التجارة والرقيق ، ولاسيما الابيض منه ، والذى كان يستورد من بلاد ذات حضارة وثقافة ، وأخيرا كان عمادها الدول الكبرى ، كالامبراطورية الرومانية ، وأتباعها من الضجاعمة والغساسنة(٣٨).

هذا فضلا عن اعتماد النصرانية على الاحباش ، الذين قدر لهم أن يحتلوا اليمن فى عام ٥٢٥م ، وأن ينشروا المسيحية بين أرجائه ، فضلا عن محاربة الاديان الاخرى ، وبناء الكنائس فى مختلف أنحاء اليمن . والتى كان من أهمها : كنائس مأرب ونجران وصنعاء ، ثم اتخاذ «نجران» مركزا رئيسيا لنشر المسيحية ، حتى أننا وجدنا جماعة مسيحية فى صحراء اليمامة — فى منتصف المنطقة بين اليمن والحيرة — وكذا فى «يثرب» . وعلى امتداد الطريق التجارى الى فلسطين وسورية(٣٩).

وأيا ما كان الامر ، فلقد أصبح للنصرانية فى مناطق اقامة العرب مراكز ثلاثة رئيسية : سورية فى الشمال ، والحيرة فى الشرق ، واليمن فى الجنوب . وما أن يمضى حين من الدهر ، حتى تشق النصرانية طريقها

---

(٣٧) فيلب حتى : المرجع السابق ص ٣٧١ — ٣٩٠ .

(٣٨) لويس شيخو : المرجع السابق ص ٣٥ ، جواد على ٥٨٧/٦ ، وكذا Sozomene, IV. p. 38.

(٣٩) البكرى : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ٣٠٨/١ (القاهرة ١٩٤٥) .

الى مملكتى الغساسنة فى الشام والمناذرة فى العراق(٤٠) ، كما تقوم جالية نصرانية فى الحجاز ؛ فضلا عن اعتناق بعض القبائل العربية للنصرانية .

هذا فضلا عن أن هناك بعضا من شعراء الجاهلية المشهورين ، يقال أنهم كانوا نصارى ، من أمثال «عدى بن يزيد» المتوفى عام ٦٠٤م، والذى عاش فى الحيرة، وساهم بحظ وافر فى بلاط اللخميين و «قس بن ساعدة»، المتوفى عام ٦٠٠م ، والذى سمى خطأ «أسقف نجران» ، وهو مشهور بفصاحته وحكمته ، و «عنترة بن شداد» (٥٢٥ ــ ٦١٥م) الذى أصبح اسمه فى الشعر العربى مرادفا للشعر والفروسية(٤١) .

ومع ذلك فليست هناك صورة واضحة عن كيفية انتشار المسيحية ، وعن الرجال الذين قاموا بالتبشير لها ، حتى أننا نرى الغموض يحيط بالهدف من وراء زيارة «بولس الرسول» لبلاد العرب ، بعد اعتناقه النصرانية مباشرة ، فهناك من يرى أنه كان فى مهمة تبشيرية ، بينما يرجح آخرون أن الرجل بعد تنصره ، انما كان فى حاجة الى العزلة حينا من الدهر ، بعيدا عن مجتمعه اليهودى القديم ، وليعطى نفسه الفرصة ليخطط لمهمته الجديدة ، ازاء عقيدته الجديدة(٤٢) .

٤ ــ النصرانية فى بلاد العرب :

بدأ تلاميذ المسيح ، كما أمرنا آنفا ، ينشرون دعوته ، وكانت بلاد العرب من بين البلاد التى انتشرت الدعوة فيها ، وهناك آيات من القرآن الكريم تشير الى وجود أتباع للمسيح عليه السلام فى مكة المكرمة على أيام سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ ، فسورة مريم ، وكذا سورة

---

(٤٠) انظر عن دولتى المناذرة والغساسنة (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٦١ ــ ٥٩٧) .

(٤١) P. K. Hitti, op. cit., p. 107.

(٤٢) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٦٥٣ ، وكذا
R. Bell, The Origin of Islam in its Christian Environment, London, 1926, p. 15-17.

الروم ، وهما مكيتان ، تتحدث الاولى عن ولادة عيسى بن مريم وانكار ألوهيته(٤٣) . وتتحدث الثانية عن خبر انكسار الروم النصارى ، أمام قوات الفرس الوثنيين ، ثم البشرى بفوزهم فى بضع سنين(٤٤) ، مما يدل على أن الكتابيين بمكة انما كانوا من النصارى(٤٥) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى الآية الكريمة «ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذين يلحدون اليه أعجمى ، وهـذا لسان عربى مبين»(٤٦) ، انما تشير الى أن بعض هؤلاء النصارى على الاقل ، انما كانوا حديثى عهد بمكة ، وربما قد نزحوا اليها قبل مبعث المصطفى ، ﷺ ، ومن ثم فقد كانوا مايزالون يتكلمون لغة عربية غير فصيحة ، أو أنهم كانوا مايزالون يتحدثون بلغتهم الاجنبية(٤٧) .

هذا فضلا عن أن كتب السيرة انما تشير الى أن هناك «شماسا» قد زار مكة فى الجاهلية ، ويروى ابن كثير أنه كان فى «مر الظهران» راهب من الشام يدعى «عيصا» قد آتاه الله علما كثيرا ، وجعل فيه منـافع كثيرة لأهل مكة من طب وعلم ، وان كانت بقية الرواية تدعو الى الشك ، ربما حتى فى وجود الراهب نفسه .

وعلى أى حال ، فهناك ما يشير الى وجود نساء نصرانيات فى مكة ، وقد تزوج بعض منهن بعض رجالات مكة ، وأنجبن منهم أبناء ، كما أن بعضا من المكيين الذين برموا بوثنيتهم ــ من أمثال ورقة بن نوفـل وعثمان بن الحويرث ــ انما قد اعتنقوا النصرانية ، وليس اليهودية ، وربما كان ذلك نتيجة لاتصالهم بالعالم المسيحى الخارجى ، وليس بتأثير النصارى المقيمين فى مكة نفسها ، والذين لم يكونوا مؤهلين حقيقة للقيام

---

(٤٣) سورة مريم : آية ١٦ ــ ٤٠ ، وانظر : انجيل يوحنا ١٠/٤ .
(٤٤) سورة الروم : آية ٢ ــ ٦ .
(٤٥) أحمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٢٣٢ .
(٤٦) سورة النحل : آية ١٠٣ ، وانظر : تفسير القرطبى ص ٣٧٩٣ــ ٣٧٩٥ ، تفسير ابن كثير ٩٠٩/٢ــ٩١٠ ، فى ظـلال القرآن ٢١٩٤/٤ ، صفوة التفاسير ١٤٣/٢ ، تفسير النسفى ٣٠٠/٢ .
(٤٧) ابن الاثير : أسد الغابة ٣٧٥/٣ ، ابن هشام ٣٤٩/١ .

بالدعوة لدينهم بين القرشيين فى مكة ، فضــلا عن جهلهم بهذا الدين نفسه[٤٨] •

هذا وقد ذهب البعض الى أن صورة السيد المسيح وأمه مريم،التى ذهبت بعض الروايات ، أنها قد وجدت فى الكعبة المشرفة عند فتح مكة فى العام الثامن الهجرى (٦٣٠م) ، انما هى من آثار النصرانية فى مكة قبل الاسلام ، ورغم ما يدور حول هذه الروايات من شك ، فاننا لانرى فيها أثرا للنصرانية وانتشارها فى مكة ، بقدر ما نرى فيها – ان صحت وهذا ما نشك – دليلا على أن هناك بعضا من العمــال النصارى قد شاركوا فى بناء الكعبة ، عندما أعادت قريش بناءها فى العام الخامس قبل البعثة النبوية الشريفة (٦٠٦م)[٤٩] •

ب) فى المدينة المنــورة :

وأما فى المدينة المنورة ، فرغم أن هناك آيات من القرآن الكريم قد تعرضت للنصارى وديانتهم ، غير أنها اشارات عامة فى طبيعة المسيح ، وفى النصرانية نفسها ، وليست خاصة بنصارى يثرب ، ومن ذلك ما جاء فى سورتى آل عمران والمائدة – وهما مدنيتان – بشأن معجزات المسيح عليه السلام[٥٠] ، وبشأن انكار ألوهيته[٥١] أيضا •

وعلى أية حال ، فان نصارى يثرب لم يكونوا ، فى غالب الظن ، قوة يخشى بأسها ، وأنهم كانوا فى موضع يقال له «سوق النبط» ، كان فى

---

(٤٨) جــواد على ٦٠٦/٦ – ٦٠٧ ، تاريخ اليعقوبى ٢٢٧/١ ، ابن حبيب : المرجع السابق ص ٣٠٥ – ٣٠٦ ، ابن هشام ٢٢٧/١–٢٢٨، ابن حزم : المرجع السابق ص ٤٩١ •

(٤٩) لويس شيخو : المرجع السابق ص ١٦٧ ، جواد على ٤٣٨/٦– ٤٣٩ ، محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القــرآن الكريم ١/ ٢٣٢–٢٣٣ ، السيرة الحلبية ١٤٤/١ ، ٨٧/٣ ، الروض الانف ٢٧٤/٢– ٢٧٦ ، صحيح مسلم ١٧٣/٥ ، الازرقى ١٦٥/١ – ١٦٨ ، الأصنام ص ٣١ – ٣٢ •

(٥٠) سورة آل عمران : آية ٤٥ – ٤٩ •

(٥١) سورة المائدة : آية ٧٢ – ٧٥ ، وانظــر : سورة النساء : آية ١٧١ – ١٧٢ •

بادىء الامر مكانا يقصده تجار الشام من الانباط ، الذين كانوا يحملون الحبوب والزيت والنبيذ ، ثم سرعان ما تحول بمرور الزمن الى مكان يسكنه هؤلاء النصارى .

هذا وهناك ما يشير الى أن «أبا عامر الراهب الاوسى» ، قد فر ، ومعه جماعة من الاوس (ما بين خمسة عشر وخمسين غلاما) الى مكة ، ثم جاءوا الى المدينة مع كفار مكة لقتال المسلمين فى غزوة أحد (٣هـ = مارس ٦٢٥م) كما أن هنك من يذهب الى أن الخليفة الراشد : عمر ابن الخطاب ، رضى الله عنه وأرضاه ، أبا زبيد الشاعر النصرانى على صدقات قومه . وأن الرجل نفسه انما كان مقربا من الخليفة الراشد . عثمان بن عفان ، رضى الله عنه وأرضاه[٥٢] .

جـ) فى اليمن :

وأما بداية النصرانية فى «اليمـن» فأمرها أشـد غموضا ، وأكثر اضطرابا ، فالمصادر الاسلامية لا تستقر بشأنها على رأى . ولا تتفق على مصدر . فهناك رواية تذهب الى أن راهبا دعوه «فيميون» قد خرج — ومعـه تابع له يدعى صالح — من بلاد الشام فى طريقـه الى شبه الجزيرة العربية . الا أن الظروف قـد وضعت فى طريقهما سيارة من العرب . اختطفتهما ثم باعتهما فى «نجران» بثمن بخس دراهم معدودة . وهنـاك استطاع «فيميون» أن يبصر القـوم — الذين كانوا يعبدون «العزى» فى صورة نخلة — بعبادة ربهم الواحد الاحد . وذلك حين دعا «فيميون» ربه أن يرسل على «نخلة نجران» هذه ، ريحا صرصرا عاتية تخنى عليها . فأتت الريح عليها فجعفتها (أى قطعتها) من أصلها فألقتها . فآمن القـوم بدين «فيميـون» ، ومن هنـا كانت بداية النصرانية فى نجران[٥٣] .

---

(٥٢) تاريخ الطبرى ٥١١/٢ — ٥١٢ ، الكامل لابن الاثير ١٤٩/٢ — ١٥٠ ، لويس شيخو : المرجع السابق ص ٤٤٩ ، ابن هشام ٥٠/٣ ، سعد زغلول عبد الحميد : فى تاريخ العرب قبل الاسلام — بيروت ١٩٧٥ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ ، جواد على ٦٠٢/٦ .

(٥٣) تاريخ الطبرى ١١٩/٢ — ١٢٢ ، تاريخ ابن خلدون ٥٩/٢ ، ياقوت ٢٦٦/٥ — ٢٦٧ ، الكامل لابن الاثير ٤٢٦/٢—٤٣١ .

على أن هناك رواية أخرى تذهب الى أن «فيميون» قد عهد الى «عبد الله بن الثامر»[٥٤] أن يتولى أمر النصارى وأنهم جميعا قد تركوا تحت رعاية أسقف دعوه «بولس»[٥٥] .

وهناك رواية ثالثة تذهب الى أن دخول النصرانية الى اليمن انما تم على يد التبع «عبدكلال بن مثوب» وقد أخذها عن رجل من غسان قدم عليه من الشام ، فوثبت حمير بالغسانى فقتلته[٥٦] . وقد أشار الى تنصر «عبد كلال» هذا ، صاحب القصيدة الحميرية[٥٧] .

وهناك رواية رابعة ، يرجعها «أوليرى» الى أصل جذوره فى السريانية[٥٨] ، تجعل انتشار النصرانية فى اليمن قد تم على يد رجل لم تذكر الرواية اسمه ، وان رأت أنه هو الذى نصر «عبد الله بن الثامر». ومن ثم نقد عمل «عبد الله» على نشر المسيحية بين قومه[٥٩] .

---

(٥٤) يروى الامام الطبرى فى تاريخه (١٢٤/٢) أن رجلا من اهل نجران فى زمن عمر بن الخطاب حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجاته ، فوجد عبد الله بن الثامر تحت دفن منها قاعدا ، واضعا يده على ضربة فى رأسه ، ممسكا عليها بيده ، فاذا أخرت يده عنها انبعثت دما (أى انفجرت دما) واذا أرسلت يده ردها عليها ، فأمسك دمها ، وفى يده خاتم مكتوب فيه «ربى الله» فكتب فيه الى عمر يخبره بأمره ، فكتب اليهم عمر : أن أقروه على حاله ، وردوا عليه الدفن الذى كان عليه ، ففعلوا» .

(٥٥) جواد على ٦٠٨/٦ ـ ٦٠٩ ، وكذا O'Leary, op-cit, p. 143. وكذا Feil, in ZDMG, 35, 1881, p. 31.

(٥٦) تاريخ الطبرى ٨٩/٢ .

(٥٧) لويس شيخو : المرجع السابق ص ٥٥ .

(٥٨) De Lacy. D. D. O'Leory. Arabia' before Muhammad, London, 1927, p. 143.

(٥٩) تاريخ الطبرى ١٢١/٢ ـ ١٢٤ ، الكامل لابن الاثير ٤٣٠/١ ـ ٤٣١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢٩/٢ ـ ١٣١ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٢٧٧ ، الدينورى : الاخبار الطوال ص ٦١ ـ ٦٢ ، تاريخ ابن خلدون ٥٩/٢ ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ ، تاريخ اليعقوبى ١٩٩/١ ، ابن حبيب : المحبر ص ٣٦٨ ، ياقوت ٢٦٦/٥ ـ ٢٦٨ ، تفسير الطبرى ١٢٧/٣٠ ـ ١٣٥ ، تفسير روح المعانى ٨٧/٣٠ ـ ٩٠ ، تفسير الفخر الرازى ١١٧/٣١ ـ ١٢٠

ولعل الافضل هنا — وقبل أن نتعرض للرواية النصرانية ، من يونانية وحبشية وسريانية — أن نثبت هنـا — بادىء ذى بدء — تلك الرواية الصحيحة التى جاءت فى صحيح الامام مسلم عن سيدنا ومولانا محمد رسول الله ، ﷺ .

«عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب أن رسول الله ، ﷺ قال : كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : انى كبرت فابعث الى غلاما أعلمه السحر ، فبعث اليه غلاما يعلمه ، فكان فى طريقه اذا سلك راهب ، فقعد اليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان اذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد اليه ، فاذا أتى الساحر ضربه ، فشكى ذلك الى الراهب ، فقال : اذا خشيت الساحـر ، فقل حبسنى أهلى ، واذا خشيت أهلك فقل حبسنى الساحر ، فبينما هو كذلك اذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب ، فأخذ حجرا فقال : اللهم ان كان أمر الراهب أحب اليك من أمر الساحر ، فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس فرماها فقتلها ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره ، فقال له الراهب : أى بنى أنت اليوم أفضل منى ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وانك ستبتلى ، فان ابتليت فلا تدل على» .

«وكان الغلام يبرىء الاكمه والابرص ، ويداوى الناس من سائر الادواء ،فسمع جليس للملك كان قـد عمى فأتاه بهدايا كثـيرة ، فقال : ما هاهنا لك ، ان أنت شفيتنى ، فقال : انى لا أشفى أحدا ، انما يشفى الله ، فـان أنت آمنت بالله ، دعوت الله فشفـاك ، فآمن بالله فشفاه الله ، فأتى الملك فجلس اليه ، كما كان يجلس ، فقال له الملك : من رد عليك بصرك ، قال ربى ، قال ولك رب غيرى ، قال ربى وربك الله،فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجىء بالغلام ، فقال له الملك : أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرىء الاكمه والابرص ، وتفعل وتفعل ، فقال انى لا أشفى أحدا ، انما يشفى الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ، فجىء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فدعـا بالمنشار ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه ، فشقه به حتى وقع شقاه»

«ثم جيء بالغلام ، فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدفعــه الى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به الى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فاذا بلغتم ذروته ، فان رجع عن دينه ، والا فاطرحوه ، فذهبوا به ، فصعدوا به الجبل ، فقال : اللهم أكفينيهم بم شئت ؛ فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشى الى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ، قال كفانيهم الله ؛ فدفعه الى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه فى قرقور ، فتوسطوا به البحر ، فان رجع عن دينه ؛ والا فاقذفوه ، فذهبوا به ، فقال الله اكفينهم بم شئت ، فانكفات بهم السفينة فغرقوا» « وجــاء يمشى الى الملك ، فقال له الملك ما فعل أصحابك ، قال كفانيهم الله ، فقال للملك انك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به ، قال وما هو ؛ قال تجمع الناس فى صعيد واحد ؛ وتصلبنى على جذع ، ثم خذ سهما من كنانتى ثم ضع السهم فى كبد القوس ؛ ثم قل : باسم الله رب الغــلام ، ثم ارمنى فانك اذا فعلت ذلك قتلتنى ؛ فجمع الناس فى صعيد واحد،وصلبه على جذع . ثم أخذ سهما من كنانته ، ثم وضع السهم فى كبد القوس ثم قال : باسم الله رب الغلام ، ثم رماه . فوقع السهم فى صــدغه ، فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم ؛ فمات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام» .

«فاتى الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ؛ قد والله نزل بك حذرك. قد آمن الناس ، فأمر بالاخدود فى أفواه السكك فخدت ، وأضرم النيران، وقال : من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها ؛ أو قيل له اقتحم ففعلوا ، حتى جاءت امرأة ، ومعها صبى لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : ياأمه اصبرى فانك على الحق»[٦٠] .

وأما المصادر النصرانية ـــ من يونانية وحبشية ـــ فقد حاولت كل منهما أن تسبغ على نفسها شرف نشر النصرانية فى اليمن .

---

(٦٠) صحيح مسلم ـ بشرح النووى ١٨/١٣٠ ـ ١٣٣ (دار الباز ـ مكة المكرمة) .

وهكذا ذهبت المصادر اليونانية الى أن الامبراطور «قسطنطين الثاني» (٣٥٠–٣٦١م) قد أرسل فى عام ٣٥٦ «ثيوفيلى» الى اليمن، وأن الرجل قد نجح فى مهمته، بل وأنشأ كنيسة فى «ظفار»، وأخرى فى «عدن» وثالثة فى «هرمز»، وكانت الاسقفية لكنيسة ظفار، ومن ثم فقد أصبح رئيس أساقفتها بمثابة المشرف على كنائس بلاد العرب الجنوبية.

هذا وقد عثر على مقربة من «ظفار» على بقايا هذه الكنائس التى شيدها القوم بمساعدة «المبشرين»، وعلى أيام الاحتلال الحبشى لليمن[٦١]، وطبقا لهذا الاتجاه: فان «ثاران يهنعم» هو الملك الحميرى الذى هجر دينه الوثنى واعتنق النصرانية، اعتمادا على الكتابة التى ورد فيها اسم الاله «ذى سموى» (رب السماء) انما تعود الى عهد قريب من عهد «ثاران يهنعم» — اى حوالى عام ٣٧٨م، أو عام ٣٨٤م — وبعبارة أخرى الى عهد أبيه «ملكيكرب يهأمن»[٦٢].

على أن هناك رواية أخرى — يونانية كذلك — تذهب الى أن بعثة «ثيوفيليس» انما كانت عام ٣٥٦م، وأنها كانت الى ملكى الحبشة واليمن، وأنها ذات طابع سياسى، أكثر منه دينى، بل ان «روسينى» ليرى أنها كانت ذات مهمة مزدوجة، مهمة اقتصادية بشأن التجارة البحرية، ومهمة سياسية تهدف الى تحريض اليمن ضد فارس، وضمهم الى جانب الروم، وربما كان ذلك بعد تنصرهم[٦٣]، فاذا كان ذلك كذلك، فانها تصبح ذات أهداف ثلاثة — اقتصادية وسياسية ودينية —.

على أن هناك رواية تتأخر بدخول المسيحية بلاد العرب الجنوبية

---

(٦١) أنظر عن الاحتلال الحبشى لليمن (محمد بيومى مهران: تاريخ العرب القديم ـ الرياض ١٩٧٧ ص ٣٦٨ ـ ٣٩٠).

(٦٢) لويس شيخو: المرجع السابق ص ٥٦، وكذا
A. Grohmann. Arabien. Munchen, 1963, p. 21. 29.
وكذا J. B. Bury, A History of The Later Roman Empire, II, London, 1931. p. 322.

(٦٣) Le Museon, 1964, 3-4, p. 492.
وكذا Le Museon, 1950, 3-4, p. 270.

الى القرن الخامس الميلادى ، وعلى أيام «أنسطاسيوس» (٤٩١ — ٥١٨م)[٦٤] .

وأما المصادر السريانية ، فترجع نشر المسيحية فى اليمن الى تاجر يمنى ، دعته «حنان» أو «حيان» ، كان قد تلقى مبـــادىء المسيحية فى «الحيرة»[٦٥] على أيام العاهل الفارسى «يزدجر الاول» (٣٩٩—٤٢٠م)، وعند عودته الى «نجران» بشر بها بين قومه ، ثم سرعان ما كتب له نجاحا بعيد المدى فى نشرها بين الحميريين[٦٦] .

وأما المصادر الحبشية فتذهب الى أن القديس «أزكـير» قد أقام كنيســة ، ورفــع الصليب ، وبشر بالنصرانية فى نجــران ، على أيام «شرحبيل ينكف» الحميرى . فاذا كان ذلك صحيحا ، واذا كان شرحبيل قد حكم فى الفترة (٤٢٠ — ٤٥٥م)[٦٧] ، فان هذا الرأى يتأخر بظهــور المسيحية فى اليمن ، الى النصف الاول من القرن الخامس الميلادى ، كما أنه يتعارض مع الرأى الذى يذهب الى أن أحد أساقفة اليمن قد حضر مجمع «نيقية» فى عام ٣٢٥م[٦٨] ، وعلى أية حال ، فان الرواية الحبشية انما تذهب الى أن نصارى اليمن انما كانوا يدفعون الضرائب الى ملك «أكسوم» . وليس الى ملك «ظفار»[٦٩] .

---

(٦٤) A. Grohmann, op-cit, p. 12.
وكذا J. B. Bury, op-cit, p. 23.
وكذا J. Hastings, ERE, III, p. 589.
وكذا Kidd, A History of The Church, II, p. 161, III, p. 429.

(٦٥) أنظر عن مدينة الحيرة (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٥٧٧ — ٥٨٠) .

(٦٦) جواد على ٦/٦١٤ .

(٦٧) جواد على ٦/٦١٤ ، وكذا
E. Sachau, Zur dusbrettung des Christentums in Asien, Berlin, 1919, p. 68.

(٦٨) J. B. Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1974, p. 143.

(٦٩) لويس شيخو : المرجع السابق ص ٥٧ ، وكذا
L. Caetani, Annali dell'Islam, p. 125.

وهكذا تختلف الاراء على طريقة انتشار المسيحية فى اليمن ، وربما كان ذلك سببا يدعونا الى القول بأنها لم تدخل الى اليمن عن طريق واحد ، وربما اتخذت فى ذلك سبلا ، وطرقا عدة : واتخذت سبيل التبشير مرة ، وسبيل القوة العسكرية مرة أخرى ، وجاءت الى اليمن من الشمال عن طريق الشام فالحجاز مرة ، وعن طريق الغرب من الحبشة مرة أخرى ، وربما من العربية الشرقية مرة ثالثة .

غير أن انتشار النصرانية عن طريق الحبشة ، انما كان ، بعد الاحتلال الحبشى لليمن فى عام ٥٢٥م ، أهم الطرق جميعا : ذلك أن «أبرهة» بعد أن انتصر على «ذى نواس» ، وبعد أن فرغ من الثورات اليمنية التى هبت ضده ، وبعد أن انتهى من ترميم «سد مأرب» ، انصرف الى نشر المسيحية ، ومحاربة الاديان الاخرى فى بلاد العرب ، فقوى ساعد نصارى بلاد العرب الجنوبية ، واتخذ من «نجران» مركزا رئيسيا لحركته الدينية . فنجد جماعة نصرانية فى صحراء اليمامة . وفى يثرب ، وعلى امتداد الطريق التجارى الى فلسطين وسورية[٧٠] .

وتبع ذلك انشاء الكنائس فى أنحاء مختلفة من اليمن ، لعل من أهمها مأرب ونجران وصنعاء ، وفى هذه الاخيرة بنى أبرهة كنيسته المشهورة «القليس» . بغية أن يصرف الحجيج من مكة الى صنعاء ، فيكسب من ذلك فوائد مادية وأدبية وسياسية ، وبالتالى فقد كان ذلك سببا فى حملته المنكودة على مكة المكرمة فى العام المعروف بعام الفيل[٧١] .

---

(٧٠) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٠٣ ، وكذا
H. Von Wissmann and M. Hofner, op-cit, p. 92, 120-121.
وكذا A. F. A. Beeston, in BASOR, 1954, p. 389.
وكذا J. B. Bury, op-cit, 324.
وكذا S. Smith, Events in Arabia in The 6th Century AD, in BASOR, 1954, p. 435.
وكذا Le Museon, 1953, 3-4, p. 277-279, 1965, 3-4, p. 426.

(٧١) انظر عن حملة الفيل (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية فى القرآن الكريم ـ الجزء الاول ـ فى بلاد العرب ـ الرياض ١٩٨٠ ص ٣٨٨ ـ ٤١٠) .

ويبالغ الاخباريون كثيرا فى وصف «كنيسة القليس» (وهى محرفة عن كلمة أكليسيا بمعنى كنيسة) ، حتى أنهم يرون أن أبرهـــة لما أتم بناءها كتب الى «النجاشى» يقول «انى قد بنيت لك بصنعاء بيتا لم تبن العرب ولا العجم مثله»[72] أو «انى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف اليها حج العرب»[73].

وتذهب الروايات العربية الى أن القليس انما بنيت بجـوار قصر غمدان ، وبحجارة قصر بلقيس بمارب ، وأن أبرهة قد كتب الى قيصر الروم يطلب منه الرخام والفسيفساء ومهرة الصناع ، كما استعمل فى بناء القليس طبقات من حجر ذى ألوان مختلفة ، لها بريق ، وأنه نقشها بالذهب والفضة والفسيفساء وألوان الاصباغ وصنوف الجواهر وطعموا بابها بالذهب واللؤلؤ ، ورشوا حوائطها بالمسك ، وأقاموا صلبانا منقوشة بالذهب والفضة والفسيفساء ، وفيها رخامة مما يلى مطلع الشمس من البلق مربعة ، عشر أذرع فى عشر أذرع ، تغشى عين من ينظر اليها من بطن القبة ، تودى ضوء الشمس والقمر الى داخل القبة ، وكان تحت القبة منبر من شجر اللبخ — وهو عندهم الابنوس — فصد بالعـاج الابيض ، ودرج المنبر من خشب الساج ، ملبسه ذهبا وفضة ، وكان فى القبة سلاسل فضية[74] .

هذا وقد لجأ «أبرهة» فى بناء «القليس» الى السخرة ، فضـــلا عن القسوة الشديدة التى كانت تصل الى حد قطع يد العامل ، ان تكاسل

---

(٧٢) تاريخ الطبرى ١٣٠/٢ ، ابن هشام ٤٣/١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٧٠/١ ، تفسير ابن كثير ٥٠٤/٨ ، تفسير الطبرى ٣٠٠/٣٠ ، تفسير القرطبى ١٨٨/٢٠ ، الازرقى : أخبار مكة ١٣٨/١ .

(٧٣) تفسير الطبرى ٣٠٠/٣٠ ، تفسير ابن كثير ٥٤٨/٤ ، البـداية والنهاية ١٧٠/١ ، ابن هشام ٣٤/١ ، تفسير القرطبى ١٨٧/٢٠ .

(٧٤) تاريخ الطبرى ١٣٠/٢ — ١٣١ ، الكامل لابن الاثير ٤٤٢/١ ، الازرقى : اخبار مكة ١٣٨/١ — ١٣٩ ، أديان العرب ص ٣٥ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ٥٥/١ ، النويرى : نهاية الارب فى فنون الادب ١٨٢/١— ١٨٣ ، محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ٣٧٩ — ٣٨٢ ، وكذا H. Scott, in The High Yemen, London, 1947, p. 212.

فى عمله ، ويروى «ياقوت الحموى» أن أبرهة استذل أهل اليمن فى بناء هذه الكنيسة وجشمهم فيها أنواعا من السخرة ، وكان ينقل اليها أدوات البناء ، كالرخام والحجـارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمن عليه السلام ، وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ، وكن فيها بقايا من آثار ملكهم ، فاستعان بذلك على ما أراده من بناء هـذه الكنيسة وبهجتها وبهائها(٧٥) .

وكانت «نجران» أهم المراكز الرئيسية للنصرانية فى بلاد العـرب الجنوبية ، وعرفت كنيستها باسم «كعبة نجران» و «بيعة نجران» . وقد كانت قبة من أدم من ثلاثمائة جلد ، كان اذا جاءها الخائف آمن، أو طالب حاجة قضيت ، أو مسترق أرفد . وكن لعظمتها عندهم يسمونه كعبة نجران ، وكانت على نهر نجران ، وكان لعبد المسيح بن دارس بن عدى بن معقل . وكان يستغل من ذلك النهر عشرة آلاف دينر ، وكانت القبة تستغرقها(٧٦) .

على أن هناك رواية أخرى تذهب الى أنها كانت قد بنيت على بناء الكعبة(٧٧) ، وأنها هى — وكذا «بيت سنداد» بين الكوفة والبصرة — لم يكونا من بيوت العبادة ، وانما من المزارات التى يذكرها السياح(٧٨) .

ويروى أهل السيرة أن كنيسة نجران ، انما كانت تخضع لنظـام سياسى وادارى خاص بها ، فقد كان عليها «العاقب» وهو أمير القوم وذو رأيهم ، وصاحب مشورتهم ، والذى لا يصدرون الا عن رأيه ، ثم «السيد» وهو ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، و «الاسقف» وهـو حبرهم وامامهم وصاحب مدارسهم(٧٩) .

---

(٧٥) ياقوت ٣٩٤/٤–٣٩٦ ، روح المعانى ٢٣٣/٣٠ .
(٧٦) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١٨٣/١ ، تاج العروس ٤٥٧/١ ، ٥٥٦/٣ .
(٧٧) ياقوت ٢٦٨/٥ ، جواد على ٦١٦/٦ .
(٧٨) عباس العقاد : المرجع السابق ص ١١ .
(٧٩) ابن هشام ٣٧٦/٢ (تحقيق السقا) ، اللسان ٥٧/١١ ، تاج العروس ٣٨٩/١ .

د) بين عرب الشـــام :

هذا وقد وجدت النصرانية لها سبيلا بين عرب الشام ، فضـــلا عن بادية الشام والعراق،ومن ثم فقد دخلت الى «بنى سليح»و«الغساسنة» فضلا عن تغلب وتنوخ ولخم واياد وربيعة وبكر والنمر وعبد القيس وكثير من بكر[٨٠] .

وليس هناك من ريب فى أن النصرانية قد انتشرت بين عرب الشام، أكثر من انتشارها بين عـــرب العراق ، وربمـــا كان السبب أن الروم ـــ أصحاب السلطان على الشـــام ـــ كانوا نصـــارى . كما أنهم كانوا يتخذون من النصرانية وسيلة من ... بسط نفوذهم على الغساسنة وغير الغساسنة ؛ ومن ثم فقد كانوا يشجعون حركة التبشير بين الاقاليم غير النصرانية . حتى وان كانت وسيلة هذا التبشير هى القوة العسكرية؛ الامر الذى حدث فى اليمن على شكل احتلال حبشى فى الظاهر ، وسياسة رومية حبشية فى الواقع[٨١] .

هـ) بين عرب العـراق :

وأما النصرانية فى العراق ، فأمرها يختلف كثيرا عن تلك التى فى الشام . فالاولى انما قامت فى بلاد يسيطر عليها قوم وثنيون . ولم تكن النصرانية ؛ بحال من الاحوال ، واحدة من تقوية نفوذ هؤلاء الوثنيين (الفرس) فى العراق ، غير أن الفرس انما كانوا ـــ كاليهود ـــ يعتبرون ديانتهم ديانة خاصة بهم الى حد ما ؛ ومن ثم فلم يحاولوا أن يبشروا بها بين عرب العراق .

هذا فضلا عن أن النصرانية التى انتشرت بين عرب العراق ، لم تكن نصرانية تتشيع للروم ، أو تعارض الفرس ، ومن ثم فان الساسانيين انما كانوا فى أغلب الاحايين ، لا يقفون عقبة فى سبيل انتشارها ، وان

---

(٨٠) ياقوت ٥٤١/٢ ـ ٥٤٢ ، يوسف رزق الله : الحيرة : المدينـة والمملكة العربية ـ بغداد ١٩٣٦ ص ٤٧ ، وكذا
P. K. Hitti, op. cit., p. 83.

(٨١) محمد بيومى مهران : الديانة العربية القديمة ص ٨٢ .

كان هذا لا يمنع من القول بأن الفرس قد تعرضوا أحيـانا للمبشرين بالنصرانية ، وفتكوا بمعتنقيها[٨٢] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن «هندا» أم الملك اللخمى «عمرو بن هند» (٥٥٤ — ٥٦٩م) انما كانت نصرانية وقد نسب اليها بناء «دير هند الكبرى» الذى بقى حتى القرن الثانى الهجرى ، ويذهب البعض الى أن البناء انما تم على أيام الاسقف «مارأفرايم» فى عهد ملك الفرس «خسروا أنو شروان» (٥٣١ — ٥٨٩م) ، وقد جـاء فى صدر هيكل الدير : «بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجـر ، الملكة بنت الاملاك ، وأم الملك عمرو بن المنذر ، أمة المسيح وأم عبده ، فى زمن ملك الاملاك خسرو أنو شروان ، وفى زمن مأأفرايم الاسقف ، فالاله الذى بنت له هذا البيت يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ، ويقبل بهما وبقومهما ، اقامة الحق ، ويكون الاله معهما ومع ولدهـا ، الدهر الداهر»[٨٣] ، فاذا صحت هذه القراءة ، فان بناء الدير انما يرجع الى عهد «عمرو بن هند»[٨٤] .

هذا ويذهب «لويس شيخو» الى أن «عمرا بن هند» قـد اعتنق النصرانية ، فقد كانت «الحيرة» فى عهده تموج بالمبشرين النصارى ، ومن ثم فليس ببعيد أن تكون «هند» قد أجـابت دعوتهم ، فاعتنقت النصرانية ، ثم عملت على جذب ولدها لاعتناقها[٨٥] ، وان كان هناك من يشك فى ذلك ، ويذهب الى أن الملك «النعمان بن المنذر» (٥٨٠ —

---

(٨٢) لويس شيخو : المرجع السابق ص ٩١ ، جرجى زيدان : العرب قبل الاسلام ص ٢٢٣ ، البكرى ٢/٦٠٦-١٠٧ وكذا
P. K. Hitti, op. cit., p. 84.

(٨٣) البكرى ٢/٦٠٦ ، ياقوت ٢/٥٤٢ ، ابن بلهيد : صحيح الاخبار عما فى بلاد العرب من الاثار ٣/٨٩ .

(٨٤) ياقوت ٢/٥٤١-٥٤٢ ، يوسف رزق الله : المرجع السابق ص٤٧ وكذا
P. K. Hitti, History of The Arabs, London, 1960, p. 83.

(٨٥) البكرى ٢/٦٠٦-٦٠٧ ، جرجى زيدان : المرجع السابق ص ٢٢٣ ، لويس شيخو : المرجع السابق ص ٩١ (بيروت ١٩١٢) .

٦٠٢م) انما كان هو الوحيد الذى اعتنق النصرانية من ملوك الحيرة[٨٦].

٥ ـ أسباب عدم انتشار النصرانية فى بلاد العربية :

لعل من الجدير بالاشارة هنا الى أن نصرانية بلاد العرب ، انما كانت نصرانية سطحية ، ولعل فى السرعة التى اعتنقت بها قبائل جذام وتغلب وعاملة ، الاسلام ، فضلا عن انضمام القبائل العربية فى الشام الى المسلمين ، ابان الفتوحات الاسلامية ، ما يدل على ضعف ايمانهم بالمسيحية ؛ ولعل من أهم الاسباب التى أدت الى ذلك ، فضلا عن عدم انتشار المسيحية فى بلاد العرب ، وخاصة فى غير مناطق النفوذ المسيحى، انما هى :

أولا : أن النصرانية نفسها لم تكن تتلاءم والطبائع العربية ؛ فضلا عن جهلها ، أو على الاقل تجاهلها للنفسية العربية ، فمثلا من ناحية الميل الى الاخذ بالثأر ، والانفة من الضيم ، فما من عربى يرضى لضاربه على خده الايسر ، أن يدير له خده الايمن ، ليضربه مرة ثانية ، وما من عربى يقبل أن يحب عدوه ، وأن يحسن الى مبغضه ، وأن يبارك لاعنيه ، كما تقضى بذلك تعاليم الانجيل[٨٧] .

وثانيا : أن العرب رأوا فى النصرانية ديانة دخيلة ، تحمل طابع الغزاة ، فهى فى الشام تحمل طابع الروم الغزاة ، (رغم أن النصرانية نشأت أصلا فى فلسطين) ، وهى فى اليمن تحمل طابع الاحباش الغزاة .

ثالثا : أن منطقة واسعة من «نجد» انما ظلت بعيدة عن متناول المبشرين ، ومن ثم فقد ظلت الوثنية هناك عميقة الجذور ، بل ان الوثنية ــ حتى فى عهد بصرى حيث الحياة المسيحية هناك فى غليان ــ ظلت حية على أيام «جستنيان» (٥٢٧ ــ ٥٦٥م) .

ورابعا : أن شعور البدوى كان ــ حتى فى المراكز الحضرية كالمدينة ــ انما هو شعور الازدراء تجاه النصارى ، وكذا اليهود .

---

(٨٦) P. K. Hitti, op. cit., p. 84.

(٨٧) انجيل لوقا ٦/٢٧ـ٤٤ .

وخامسا : أن القوم فى «نجـد» انما تعرفوا على المسيحية ـ فى غالب الاحايين ـ عن طريق التجار الخمارين الواردين اليهم من الحيرة أو سورية ، والذين هم فى الواقع مبشرين من طراز غريب •

وسادسا : أن الطائفة المسيحية فى بلاد العرب انما كانت تتكون من العبيد والمرتزقة والاحباش[٨٨] •

وسابعـا : أن المسيحية كنت قـد اختلطت تعاليمهـا بالفلسفة الافلاطونية ، فتعقدت بساطتها ، وامتلأت بالشبهات والغموض ، وكما يقول «تايلور» فان أئمة اللاهوت قد استبدلوا بديانة المسيح عقـائد ميتافيزيقية عويصة ، ودعوا الى العزوبية والعزلة ؛ وادعوا أن القذارة من خصائص الرهبنة ، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضر أو مستقبل ؛ ومن هنا فقد كان من العسير على العربى أن يتشرب هذه التعاليم •

وثامنا : أن الكنيسة كانت تحرم الابل وألبانها ؛ بينما يحل العرب ذلك ؛ كما كانت الكنيسة أيضا تحرم تعدد الزوجات ، والعرب يعددون، والنصارى يحظرون الطلاق ؛ والعرب يستبيحونه[٨٩] •

وتاسعا : أننا اذا قرأنا التاريخ الكنسى ـ كما يقول جورج سال ـ فسوف نرى أن العـالم المسيحى قد تعرض منذ القـرن الثالث لمسخ صورته ؛ بسبب أطماع رجال الدين والانشقاق بينهم ، والخلافات على أتفه المسائل ، والمشاجرات التى لا تنتهى . والتى كان الانقسام يتزايد بشأنها ، وكان المسيحيون فى تحفزهم لارضاء شهواتهم ؛ واستخدام كل

---

(٨٨) ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ٦٩ ، وكذا
H. Charles, le Christanisme des Arabs sur le Limes aux Alentours de L'Hegire, p. 39.
وكذا C. Hurt, Une Nouvelle Source du Koran, Paris, 1904, p. 130.

(٨٩) القلقشندى : صبح الاعشى ٢٨٥/١٣ ، أرنولد : الدعـوة الى الاسلام ـ ترجمة حسن ابراهيم وآخرين ـ القاهرة ١٩٤٧ ص ٦٦ـ٦٧ ، دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ـ ترجمة أبو ريدة ـ القاهرة ١٩٣٨ ص ٣٦ •

أنواع الخبث والحقد والقسوة ، قد انتهوا تقريبا الى طرد المسيحية ذاتها من الوجود ، بفعل جدالهم المستمر حول طريقة فهمها ؛ وفى هذه العصور المظلمة بالذات ظهرت ، بل ونبت ؛ أغلب أنواع الخرافات والفساد •

ولقد وجدت الكنيسة الشرقية نفسها بعد مجمع «نيقية» فى عام ٣٢٥م ، ممزقة بسبب الخلافات بين أنصار «آريوس» و«سابليوس» و«نسطور» و «يوتيخيوس» ؛ ولقد رأى رجال الدين أن يمنح ضباط الجيش بعض الحماية ، وبهذه الحجة كان العدل يباع علنا ، مما شجع كل نوع من أنواع الفساد والرشوة[٩٠] ••• وكلها أمور تتنافى تنافيا مطلقـا ، مع دعوة المسيح ورسالته ، وبالتالى لا تشجع العرب على اعتناق النصرانية •

وعاشرا : أن «موشايم» عندما أراد رصف الحالة فى القرن السابع الميلادى . رسم صورة للمقارنة . أبرز فيها التعارض بين المسيحيين الاوائل والاواخر . وخرج بأن الديانة الحقيقية فى القرن السابع الميلادى كانت مدفونة تحت أكوام من الخرافات والاوهام السخيفة . حتى أنه لم يكن فى مقدورها أن ترفع رأسها[٩١] •

وحادى عشر : أن المسيحية لم تغير من حالة القبائل العربية السورية التى تنصرت فى الجاهلية ، اذ احتفظت هـذه القبائل بكل عـاداتها وتقاليدها الوثنية القديمة[٩٢] ، بل ان كل ما أخذه التغالبة من المسيحية انما هو شرب الخمر[٩٣] ؛ ورغم ما فى هذا القول من مبالغة ، فلا ريب أن فيه بعض الصواب •

---

(٩٠) محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم ـ ترجمـة محمد عبد العظيم على ـ الكويت ١٩٧٤ ص ١٣٦ ـ ١٣٧ ، وكذا
Georges Sale, Observations Historiques et Critiques sur le Mahometisme, Amsterdam, 1775, p. 68-71.

(٩١) محمد عبد الله دراز : المرجع السابق ص ١٣٧ ـ ١٣٨ ، وكذا
Saint-Clair Tisdall, The Original Sources of The Qur'an, 1905, p. 136-137.

(٩٢) G. Sale, op-cit, p. 17.

(٩٣) انظر تفسير الاية الخامسة من سورة المائدة للزمخشرى، وكذا
T. Noeleke, Geschichte des Qurans, Leipzig, 1909, p. 10.

وثانى عشر : أن المسيحية التى كانت الكنيسة تبتشر بها قبل ظهور الاسلام ، وأثناء ظهوره ، لم يكن يختلف كثيرا عن الديانات العربية قبل الاسلام . بل انها لم تكن ديانة توحيدية ، وانما هى ديانة متعـددة الآلهة ، فالمسيح وأمه ، كانا يقدسان فيها ككائنين الهيين(٩٤) .

والى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى «لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح يا بنى اسرائيل اعبـدوا الله ربى وربكم ، انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار ، لقد كفـر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمس الذين كفروا منهم عذاب أليم، أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ، ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات : ثم انظر أنى يؤفكون»(٩٥) .

وفى قوله تعالى «واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لى أن أقـول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم . وأنت على كل شئ شهيد»(٩٦) .

وفى قوله تعالى «لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم، قل فمن يملك من الله شيئا ، ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الارض جميعا ، ولله ملك السماوات والارض وما بينهما ، يخـلق

---

(٩٤) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .
(٩٥) سورة المائدة : آية ٧٢ ـ ٧٥ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٠/ ٤٨٠ـ٤٨٦ ، تفسير المنار ٣٩٧/٦ـ٤٠٤ ، فى ظلال القرآن ٩٤٣/٢ـ٩٤٩، تفسير ابن كثير ١٢٩/٢ـ١٣١ ، تفسـير النسفى ٢٩٤/١ـ٢٩٦ ، صفوة التفاسير ٣٥٧/١ـ٣٥٨ ، تفسير البحر المحيط ٥٣٧/٣ـ٥٣٨ ، تفسـير ابى السعود ٤٨/٢ـ٤٩ ، تفسير القرطبى ص ٢٢٤٦ـ٢٢٤٨ .
(٩٦) سورة المائدة : آية ١١٦ ـ ١١٧ .

ما يشاء والله على كل شيء قدير»[97] .

وثالث عشر : أن المسيحية كانت قد تعددت مذاهبها ، وانقسم كل مذهب على توالى الزمن فرقا وأحزابا ، وصار لكل شيعة ، فى أوضاع الدين وأسسه ، رأى يخالف رأى الشيعة الاخرى ، وتنكرت هذه الطوائف بعضها لبعض ، بسبب خلافها فى الرأى ، تنكر أنتج العداوة الشخصية التى تلمسها حيثما دب الضعف الخلقى والذهنى الى النفوس، فجعلها سريعة الى الخوف ، سريعة كذلك الى التعصب الاعمى والجمود القتال[98] .

ومن نافلة القول : أن كل هذه أمور تؤدى الى بعد العرب عن النصرانية ، وهى فى نفس الوقت ، انما هى أسباب دخيلة على دعوة المسيح ، صلوات الله وسلامه عليه ، وربما لو وصلت المسيحية الى العرب : نقية صافية ـ كما جاءت من السماء ، وكما بلغها عيسى بن مريم رسول الله ، لتغير الامر كثيرا .

---

(٩٧) سورة المائدة : آية ١٧ ، وانظر سورة النساء : آية ١٧١ـ١٧٢

(٩٨) محمد حسين هيكل : حياة محمد ـ القاهرة ١٩٦٥ ص ٦٩ .

٣ ـ الحنفـــــاء

كان الجو الدينى فى بلاد العرب بعد ظهور المسيحية ملبدا بالغيوم فى كثير من الاماكن ، وهو خليط من عناصر يهودية ، وأخرى مسيحية ، كما يلاحظ ذلك فى النقوش التى تركها لنا الاقدمون فى أماكن مختلفة من بلاد العرب . وقد أدى ذلك الوضع الدينى المضطرب الى أن يبحث قوم عن ربهم ، بعيدا عن تعدد الآلهة عند العرب الجاهليين ، وبعيدا عن رب «يهوه» رب يهود ، الذى جعله الاحبار «الها قوميا» خــاصا باليهود : دون سواهم من العالمين ، وبعيدا عن تعدد الآلهة عند بعض النصارى فى بلاد العرب ؛ فضلا عن الساميين الشماليين[1] .

وهكذا ظهر فى بلاد العرب ما عرف باسم « الحنفاء » ــ ومفردها حنيف ــ وهم الذين يميلون الى الحق أو الى الدين المستقيم ، أو الذين يستقبلون البيت الحرام : أو الذين أسلموا فى أمــر الله فلم يلتوا فى شىء : أو أنهم ــ فى عرف الجاهليين ــ هم الذين اختتنوا وحجوا البيت الحــرام . وان كان الامام الطـبرى يشترط كذلك الاستقامة على ملة ابراهيم . أو هم الذين آمنوا بجميع الرسل . والجامعون لكل الدين . أو الممتنعون عن نكاح المحارم ، أو الذين مالوا عن الاديان ملهــا الى الاسلام .

وهكذا وجدت عدة تفسيرات ؛ قد تختلف فى قليل أو كثير عن بعضها؛ ولكنها تتفق غالبا فى أن الحنفاء (أو المتحنفين أو المنحثين) كانوا على ملة ابراهيم . ولم يكونوا يهودا أو نصارى ، ومن ثم فهى ليست دينا جديدا ، وانما هى مجرد حركة دينية ؛ وصف أصحابها «بالحنفاء» أتبـاع ابراهيم الخليل : عليه السلام ، نادوا بنبذ الاصنام . والتخلص من عادات الجاهلية السيئة ؛ كوأد البنات وشرب الخمر ، ثم الدعوة الى

---

(١) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ١٨٠ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٤/٤ ـ ٧ .

الايمان بالله واحد ، لا شريك له(٢) .

هذا وهناك من ينسب الى الحنفاء عدم أكل ذبائح الاصنام . وكل ما أهل لغير الله ، فضلا عن تحريم الخمر على أنفسهم . والاغراق فى النظر والتأمل فى خلق الله ، الى جانب شعائر الحج وغيرها من مستحسنات الاعمال(٣) .

ويذهب فريق من الباحثين الى أن لفظة «الحنفاء» انما ترجع الى أصل عبرانى هو «تحينوث» أو من «حنف» ومعناها «التحنث» فى العربية . وذلك لما لهذه اللفظة من صلة بالزهد والزهاد ، وان كان اليهود يطلقون لفظة «حنيف» على من اختتن دون أن يعتنق اليهودية(٤) .

على أن هناك من يذهب الى أن الكلمة عربية من «تحنف» على وزن «تبرر» . وقد وردت فى النصوص العربية الجنوبية بمعنى «صبأ» ؛ أى مال وتأثر بشىء ما(٥) .

---

(٢) تفسير الكشاف ١٧٨/١ ، ٤٠٧ ، تفسير روح المعانى ٣٥٢/١ ، تفسير المنار ٤٨٠/١-٤٨٢ ، تفسير الفخر الرازى ٤٦/٢٢-٤٨ ، صحيح البخارى ٥١/٥ ، اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٧٩-٨٠ ، ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ٦٨ ، وكذا

A. I. Katsh, Juddaism in Islam, New York, 1954, p. 108.

C. Lyall, The Word Hanif and Muslim, in JRAS, 1903, p. 772.

R. Dozy, op-cit, p. 190.

J. Halevey, in JA, 1905, p. 114.

(٣) صحيح البخارى ١٧٨/٢ (ط الاميرية - القاهرة ١٢٨٠هـ)، تفسير القرطبى ١٠٩/٤ ، تفسير الخازن ٢٣٨/١ ، ٢٥١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٩/٢-٢٤٠ ، ابن الكلبى ، الاصنام ص ٦ .

(٤) اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٧٩ ، جواد على ٤٥٣/٦ ، وكذا A. I Katsh, op. cit., p. 108.

وكذا A. I. Katsh, op-cit, p. 108.

وكذا J. A. Montgomery, Ascetic Strains in early Judaism, in JBL. LI, 1932, p. 183.

وكذا Encyclopaedia of Islam, II, p. 529.

(٥) جواد على ٤٥٣/٦ ، وكذا

Encyclopaedia of Islam, II, p. 529.

هذا ويلخص بعض المفسرين[٦] آراء العلماء عند تفسير الآية الكريمة «وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قــل بل ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين»[٧] ، فذهبوا الى أن فى «الحنيفية» أقوال أربعة : أنها حج البيت ، وثانيها : أنها اتباع الحق ، وثالثها : أنها اتباع ابراهيم فيما أتى به من الشريعة التى صار بها اماما للناس وحده ، من الحــج والختان وغير ذلك من شرائع الاسلام ، والرابع : أنهــا الاخلاص لله وحده ، والاقرار له بالربوبية ، والاذعان بالعبودية •

هذا ويذهب بعض المستشرقين الى أن لفظــة «الحنيفية» أرامية الاصل ، أخذها العرب عن النصارى ، ثم أطلقوها على المنادين بالتوحيد منهم ، والذين ظهروا ــ باديء ذى بدء ــ فى اليمن ، متأثرين باليهودية والنصرانية ، ولكنهم لم يعتنقوا أيا منها ، ومن ثم فيجب الاحتراس من قول القائلين أن أحدا من أولئك المتحنفين أو الحنفاء قد تهود أو تنصر على مذهب مفصل مستوعب لعقائد اليهودية أو النصرانية ، فكل ما صح من أخبار الحنفاء أنهم كانوا يعرفون أن الايمان بالاله الواحد ، أهدى وأحكم من الاوثان والنصب •

ونحسب «ابن هشام» قد صدق الرواية حقا ، حين قال عن أشهر هؤلاء المتحنفين ، وهو «زيد بن عمرو بن نفيل» أنه توقف ، ولم يدخل فى يهودية أو نصرانية ، وفارق دين قــومه ، فاعتزل الاوثان والميتــة والذبائح التى تذبح على الاوثان ، ونهى عن قتل المؤودة وشرب الخمر ، وقال : أعبد رب ابراهيم ، وبادى قومه بعيب ما هم عليه ، وكان يسند ظهره الى الكعبة ويقول : يا معشر قريش ، والذى نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيرى ، ثم يقول : اللهم

---

(٦) تفسير الفخر الرازى ٨٩/٤ــ٩٠، تفسير الطبرسى ٤٨٥/١ــ٤٨٨ •

(٧) سورة البقرة : آية ١٣٥ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٠١/٣ــ١٠٨ ، تفسير المنار ٣٩٤/١ــ٣٩٧ ، فى ظــلال القرآن ١١٧/١ــ١١٨ ، صفــوة التفاسير ٩٨/١ــ٩٩ ، تفسير ابن كثير ٢٧٨/١ •

لو أنى أعلم أى الوجوه أحب اليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه ثم يسجد على راحلته[٨] .

ومن ثم فليس صحيحا ما ذهب اليه بعض المستشرقين الذين عدوا الحنفاء شيعة من شيع النصارى ، وربما الذى أغراهم بذلك الغرض أن بعض من الاحناف قد اعتنقوا النصرانية[٩] : من أمثال «ورقة بن نوفل»؛ فانه كان حقا يطيل القراءة فى كتب اليهود والنصارى ، ويعلم أن عبادة الأصنام ضلالة ؛ فيلتمس الهداية فى غيرها . ولا يستوفى العلم ، ولا الايمان ، بأى الديانتين، وغاية الامر فى نصرانيته ــ كما قال ابن هشام ــ أنه كان نصرانيا تتبع الكتب ، وعلم من علم أهل الكتاب .

هذا وقد ذكر ابن هشام عن «ورقة بن نوفل» . وثلاثة من أصحابه (عبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث[١٠] ؛ وزيد بن عمرو بن نفيل) أنهم قد انصرفوا عن صنم يعظمونه فى يوم عيد . فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله ما قومكم على شىء : لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم ؛ ما حجر نطيف به ؛ لا يسمع ولا يبصر . ولا يضر ولا ينفع . يا قوم التمسوا لانفسكم دينا ؛ فانكم والله ما أنتم على شىء ؛ فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية ، دين ابراهيم»[١١] .

ويروى الامام البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عمر : أن زيد بن

---

(٨) ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ١/٢٢٨ــ٢٢٩ ، الذهبى : تاريخ الاسلام ١/٥٤ ، ابن دريد : الاشتقاق ١/٨٤،١٠٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢/٢٣٧ــ٢٤١ ، العقاد : المرجع السابق ص ٦٨ .

(٩) جواد على ٦/٤٥٦ ، وكذا A. I. Katsh, op-cit, p. 108.
وكذا J. A. Montgomery, op-cit, p. 183.

(١٠) عبيد الله بن جحش : اقام ما هو عليه من الالتباس ، حتى ظهر الاسلام فاسلم ، ثم هاجر الى الحبشة مع المسلمين ، غير أنه تنصر هناك ، ثم بقى حتى هلك ، وأما «عثمان بن الحويرث» فقد قدم على قيصر الروم ثم تنصر ، ثم ارسله قيصر ليكون ملكا على مكة من قبله ، غير أنه فشل ، فعاد الى قيصر وبقى هناك حتى هلك (ابن هشام ١/ ٢٢٢ــ٢٢٥ ، ابن كثير البداية والنهاية ٢/٢٤٣ ، ابن حبيب : المحبر ص ١٧١ــ١٧٢) .

(١١) ابن هشام ١/٢٢٣ (القاهرة ١٩٥٥) .

عمرو بن نفيل خرج الى الشام يسأل عن الدين ويتبعه ، فلقى عالما من اليهود فسأله عن دينهم ، فقــال أبى لعلى أن أدين أدينكم فأخبرنى ، فقال : لا تكون علي ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ، قال زيد : ما أفر الا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا ، وانى استطيعه فهل تدلنى على غيره ، قال ما أعلمه الا ان يكون حنيفا : قال زيد : وما الحنيف ، قال : دين ابراهيم : لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، ولا يعبد الا الله» •

«فخرج زيد فلقى عالما من النصارى ، فذكر مثله ، فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله : قال ما أفر الا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنة الله ، ولا من غضبه شيئا أبدا . وانى أستطيع . فهل تدلنى على غيره ، قال : ما أعلمه الا أن يكون حنيفا ، قال وما الحنيف. قال : دين ابراهيم ، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، ولا يعبد الا الله ، فما رأى زيد قولهم فى ابراهيم عليه السلام خرج ، فلما برز رفع يديه فقال: اللهم انى أشهد أنى على دين ابراهيم»(١٢) •

وهذا الحديث ، فيما يرى العلامة الغزالى ــ يبين مقدار الحــيرة التى سادت الدنيا ، وغطت بضبابها الكثيف على الاديان الظاهرة.اليهود يشعرون بأنهم مطاردون فى الارض . منبوذون من أقطارها . فعــلى الداخل فى دينهم أن يحمل وزرا من المقت المكتوب عليهم •

والنصارى وقع بينهم شقاق رهيب فى طبيعة المسيح ووضعه.ووضع أمه : من الاله الكبير ، وقد أثار هذا الخلاف بينهم الحروب المهلكة ، وقسمهم فرقا يلعن بعضها بعضا •

وكان نصارى الشام الذين سألهم «زيد» من فريق «اليعاقبة» الذين يخالفون المذهب الرسمى لكنيسة الرومان فلا غرابة اذا أشعروا «زيدا» بما يقع عليه من عذاب : لو دخل فى دينهم : أو لعل هذه اللعنة المرهوبة

---

(١٢) صحيح البخارى ٥/٥٠ــ٥١ (دار الحديث ــ القاهرة) •

هى تبعات الخطيئة التى اقترفها آدم واستحقها من بعده بنوه ؛ كما يدعى ذلك النصارى ، وهم يبررون صلب المسيح ، ومن حق زيد أن يدع هؤلاء وأولئك ، ويرجع الى دين ابراهيم عليه السلام ؛ ويبحث عن أصوله وفروعه[13] .

وأخرج البخارى عن أسماء بنت أبى بكر قالت : رأيت زيد بن عمرو ابن نوفيل قائما مسندا ظهره الى الكعبة يقول : يا معشر قريش ؛ والله ما منكم على دين ابراهيم عليه السلام غيرى ، وكان يحيى المؤودة ، يقول للرجل — اذا أراد أن يقتل ابنته — أنا أكفيك مؤنتها ، فيأخذها . فاذا ترعرت قال لابيها : ان شئت دفعتها اليك ؛ وان شئت كفيتك مؤنتها))[14] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن القرآن الكريم قد نص صراحة على أن «الحنفاء» لم يكونوا يهودا ؛ ولا نصارى . وانما كانوا ينتمون فى عقيدتهم الى ابراهيم عليه السلام ؛ ثم أن الاخباريين ، وان كانوا قد أدخلوا فى الاحناف أناسا . نصوا على أنهم كانوا نصارى ؛ فانهم فى الوقت نفسه : قد نصوا على أن البقية من هؤلاء الاحنف انما كانوا على دين ابراهيم .

وهكذا يبدو واضحا أن رواية الاخباريين ؛ انما تتفق مع ما جاء فى القرآن الكريم[15] ، من أن الاحناف لم يكونوا يهودا ولا نصارى . وانما كانوا على دين ابراهيم ؛ ومن ثم فليس صحيحا أن الاحنف انما كانوا شيعة من شيع النصارى ، أو حتى القنطرة التى توصل بين النصرانية والاسلام ، كما يزعم فلهاوزن[16] .

---

(١٣) محمد الغزالى : فقه السيرة — القاهرة ١٩٦٥ ص ٨٧ .
(١٤) صحيح البخارى ٥/٥١ ، وانظر : المستدرك للحاكم ٣/٤٤٠ .
(١٥) انظر : سورة البقرة : آية ١٣٥ ، آل عمران : آية ٦٧،٩٥ ، النساء : آية ١٢٥ ، الانعام : آية ٧٩ ، ١٦١ ، يونس : آية ١٠٥ ، وانظر كذلك : ابن كثير ٢/٢٣٧ — ٢٤٣ ، تفسير الطبرى ٣/١٠١—١٠٨،٦/٤٩٣—٤٩٦ ، السهيلى : الروض الانف ١/١٤٥ .
(١٦) J. Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927. p. 239 F.

ويروى ابن كثير أن «زيد بن عمرو بن نفيل» قال : شاممت اليهودية والنصرانية فكرهتهما ، فكنت بالشام وما والاها ، حتى أتيت راهبا فى صومعة فذكرت له اغترابى عن قومى ، وكراهتى عبادة الاوثان واليهودية والنصرانية ، فقال له : أراك تريد دين ابراهيم يا أخا أهل مكة ، انك لتطلب دينا ما يوجد اليوم أحد يدين به ، وهو دين أبيك ابراهيم ، كان حنيفا ، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، كان يصلى ويسجد الى هذا البيت الذى ببلادك ، فالحق ببلدك ، فان الله يبعث من قومك فى بلدك ، من يأتى بدين ابراهيم الحنيفية ، وهو أكرم الخلق على الله»(١٧) .

وليس هنـــاك الى سبيل من شك فى أن الذى حفـظ أخبار هؤلاء الحنفاء ، ورود ذكرهم فى القرآن الكريم ، فلقد جاء ذكرهم فى موضعين: الواحد فى سورة الحج(١٨) ، والاخر فى سورة البينة(١٩) ، وهما مدنيتان، كما ورد فى القرآن الكريم لفظ «حنيف» فى عشر مواضع ، فى سور مكية، وأخرى مدنية ، ومن هنا كان اهتمام المفسرين والمؤرخين بجمع ما كان عالقا بأذهان الناس عنهم ، بخاصة وأن الحديث الشريف قد أشار الى الحنيفية والحنفاء .

روى عن المعصوم مولانا وسيدنا محمد رسول الله ـ ﷺ : أنه قال : «لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكن بعثت بالحنيفية السمحة»(٢١)، وقال ـ ﷺ «بعثت بالحنيفيه السمحة السهلة»(٢٢) . وقال «أحب الأديان الى الله تعالى الحنيفية السمحة»(٢٣) .

---

(١٧) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٩/٢ .
(١٨) سورة الحج : آية ٣١ .
(١٩) سورة البينة : آية ٥ .
(٢٠) أنظر سورة البقرة : آية ١٣٥ ، آل عمران : آية ٦٧ ، ٩٥ ، النساء : آية ١٢٥ ، الانعام : آية ٧٩ ، ١٦١ ، يونس : آية ١٠٥ ، النحل : آية ١٢٠ ، ١٢٣ ، الروم : آية ٣٠ .
(٢١) مسند الامام أحمد ١١٦/٤ ، ٣٣/٦ .
(٢٢) اللسان ٥٦/٩ـ٥٧ ، جواد على ٦ـ٤٥٠ .
(٢٣) تفسير الطبرسى ٢١٥/١ـ٢١٦ ، الاصابة ٥١/١ ، جواد على ٤٥٠/٦ .

وهكذا بدأت التيارات التوحيدية تظهر في بلاد العرب في القرن السادس الميلادى بوضوح ، وبدأ كثير من القوم يشكون كثيرا فى عبادة الاصنام ، غير أن اليهودية والنصرانية ، وان أوجدتا الشك فى صحة الديانات الوثنية ، فانهما لم تفلحا فى ادخال تغيير جوهرى في النظم الدينية فى بلاد العرب ، وظلت الوثنية واليهودية والنصرانية فى نزاع عنيف ، دون أن تتغلب واحدة على الاخرى[٢٤] .

هذا ولا يختلف الامر كثيرا بالنسبة الى حركة «الحنفاء» التى كانت تبحث عن دين ابراهيم الحنيف ، وتسب الاصنام ، ولا ترى فى عبادتها غذاء روحيا يرضى العقلاء من العرب ، ولكنها لم تكن حركة منتجة،لانها لم تؤد الى شىء من التغيير فى عبادة الاصنام ، ولا الى شىء من اصلاح أحوال العرب ، ولكنها ، دون جدال ، قد عبدت الطريق ، وجعلت فى بعض الانفس شيئا من الاستعداد لقبول الاسلام[٢٥] .

وهكذا بقيت بلاد العرب مضطربة اضطرابا شديدا بين هذه الديانات المختلفة — السماوية والبشرية — الى أن ظهر رجل عظيم ، رفع علم النبوة (حوالى عام ٦١٠م) ، وصار غرة ناصعة فى جبين الدهر . ومجدا باقيا حتى يغير الله هذه الارض غير الارض،فأرغم التاريخ على أن ينحو نحوا جديدا[٢٦] ، ذلكم الرجل العظيم هو سيد الاولين والاخرين . رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ ، فقضى على كل أثر للوثنية فى بلاد العرب .

وفى الواقع — وكما يقول المؤرخ الالمانى المسيحى ديتلف نلسن — فان علم الاديان لم يعرف دينا شن حربا شعواء لا هوادة فيها ، على الوثنية ، كتلك التى شنها «الاسلام» ، فالكتاب المقدس (التوراة والانجيل) مثلا ، قد احتفظ بالكثير من الديانات القديمة ، بخلاف القرآن

---

(٢٤) اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٩٠ — ٩١ .
(٢٥) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ١٦٩ .
(٢٦) اسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٩١ .

الكريم الذى حرمها ، التحريم كل التحريم ، والمسيحية قد ضمت اليها ــ سواء كان ذلك فى وطنهــا أو فى الاوطان التى عزتها ــ كثــيرا من العادات الوثنية القديمة ؛ وكانت روح الوثام بينها وبين الوثنية قوية ؛ بخلاف الوثنية مع الاسلام ، فلا يوجد دين عالمى بغض تعدد الآلهة . وأغرم بالتوحيد وتغنى به مثل الاسلام ، ولا يوجــد دين من الاديان قدر الله تعالى له النجاح فى القضاء على الوثنية ؛ كما قدر للاسلام[٣٧]، دين التوحيد المطلق ، وصدق الله حيث يقول «قل هــو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد»[٢٨] .

---

(٢٧) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ١٧٣ ، وانظر ص ١٨٠ .

(٢٨) سورة الاخلاص ، وانظر : تفسير ابن كثير ٤/٩٠٣-٩١١ ، تفسير النسفى ٤/٣٨٣ ــ ٣٨٥ ، تفسير القرطبى ص ٧٣٣٤ ــ ٧٣٤٠ ، تفسير جزء عم للامام محمد عبده ص ١٣٤ ــ ١٣٦ ، صفوة التفاسير ٣/٦٢٠-٦٢٢ ، تفسير البحر المحيط ٨/٥٢٧ ــ ٥٢٨ ، تفسير الفخر الرازى ٣١/١٧٤-١٧٦ ، فى ظلال القرآن ٦/٤٠٢-٤٠٥ .

الفصل الرابع

بيوت العبادة

١ ـ انواع المعابد :

المعبد : هو الموضع المخصص للعبادة . وكان العرب القدامى قد اتخذوا لانفسهم معابد تعبدوا بها الى معبوداتهم الوثنية ، منذ أن انحرفوا عن دين ابراهيم الحنيف ، وحتى ظهور الاسلام فى أوائل القرن السابع الميلادى .

ومعابد العرب قبل الاسلام ، تنقسم الى انواع ، طبقا لعقيدة المتعبدين ، فضلا عن الثابت منها والمتنقل . الى جانب تلك التى اتخذت للعبدة والحج . وتلك التى كانت بمثابة مزارات فحسب : فأما من ناحية عقيدة المتعبدين فهناك أنواع ثلاثة : بيوت عبدة خاصة بالمشركين عبدة الاصنام ، وهم الكثرة الكاثرة ، وهناك بيوت عبادة خاصة باليهود، وثالثة خاصة بالنصارى ، ورابعة للمجوس . فقد عرفت بلاد العرب الشرقية والجنوبية المجوسية ، غير أن عبادها انما كانوا من العجم (الفرس) ، ذلك لان المجوسية لم تنتشر بين العرب ، ولم يعتنقها الا عدد قليل منهم .

على أن هناك تقسيما آخر ، فهناك معابد أقامها الحضر من العرب فى مواطن اقامتهم . وتفننوا فى بنائها وزخرفتها لتكون بيوتا تليق بسكنى أربابهم الوثنيين ، على أن هناك معابد أخرى متنقلة : فقد كانت القبائل العربية ـ وخاصة الشمالية منها ـ فى حركة دائمة ، بحثا عن الغزو والكلأ والماء ، وكانت معبوداتها فى حركة دائمة أيضا : ترحل مع المتعبدين أيضا ، وتستقر عند استقرارهم ، ومن ثم فعند نزول القبيلة فى مكان ما ، توضع الاصنام فى خيمة : تقوم مقام المعبد الثابت عند أهل

المدر ؛ وتكون للخيمة عندئذ قدسية خاصة ، كما يكون للمكان الذى تثبت عليه حرمة ، مادامت الخيمة فوقه ، حيث كان القوم ينظرون اليها نظرة تقديس واجلال ، لانها ، فيما يعتقدون ، من حرم الالهة وأماكنها وبيوتها المقدسة ، التى لا يجوز تدنيسها ، ولا انتهاك حرمتها ؛ ومن ثم فلم يكن يسمح لاحد بالدخول اليها ، الا اذا كان من رجال الدين .

ولعل السبب فى الحفاظ على عدم تغيير هذا الطراز المتنقل من المعابد أن اقامة معبد ثابت — فى نظر البدو — انما هو خروج على سنن الاباء والاجداد ؛ فضلا عما فيه من نبذ للخيمة المقدسة ، التى كانت المعبد القديم لهم ، وهم فى حالة تنقل من مكان الى آخر ، ثم ان أهل «الوبر» انما هم قوم رحل ، ولا يمكن لمن هذا حاله ، اتخاذ معبد ثابت له ، الامر الذى يفرض عليه نقل أصنامه معه حيث يذهب[1] .

وهناك تقسيم ثالث للمعابد ، فهناك بيوت عبادة كبيرة ، يحج اليها القوم فى أوقات معينة ، ومواسم محددة ، من أماكن قريبة أو بعيدة ، وهى فى الغالب محجة واحدة ، اختارها الاله — أو الالهة — من بين سائر الاماكن ، لتكون موضعا مقدسا ، وحرما آمنا ، فهى — فى نظر المتعبدين — أقدس بقعة ، وأعز مكان فى البلاد . ومن ثم فلا تدانيها المعابد الاخرى ، ولا تبلغ منزلتها فى الحرمة والمكانة ، وهناك بيوت عبادة أخرى ، تكون دون المحجات فى الاهمية ، لان الالهة لم تخترها لنفسها ، ولم تنص على اسمها ، وانما هى دور عبادة أقامها الناس ، تقربا الى تلك الآلهة[2] .

٢ — اسماء المعابد :

أطلق العرب القدامى على معبد آلهتهم عدة أسماء ، فهناك الاسم «بيت» (بيت العبادة) ، فقد ورد فى نصوص المسند جملة «وقدسوا

---

(١) جواد على ٦/٣٩٨ — ٣٩٩ ، وكذا
F. Altheim and R. Stiehl, Die Araber in der Alten Welt, III, Berlin, 1968, p. 132.

(٢) جواد على ٦/٤٠٢ — ٤٠٣ .

بيت مرب» (بمعنى قدسوا بيت مأرب[٣] ، أو بيت مأرب المقدس)[٤]. فلفظة «بيت» هي اللفظة التي استعملت في النص للمعبد ، وقد أطلقت قبل اسم الاله أو المكان لتدل على التخصيص .

وهنـــاك «الكعبة» ، وهي البيت المربع ، وكل بيت مربع «كعبة»[٥] عند العرب ، وقد خصصت في الاسلام بالبيت الحرام بمكة المكرمة . والكعبة : الغرفة أيضا ، وكان لربيعة بيت يطوفون به يسمونه «الكعبات» أو «ذو الكعبات»[٦] ؛ وهناك «المسجد» ، وهو كل موضع يتعبد فيه .

---

(٣) انظر عن : مارب : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم الاسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٩ .

(٤) جواد على ٦/٤٠٠ ، وكذا
Le Muséon, LXVII, 1934, p. 105.

(٥) الكعبة : من الكعوب ، وهو العلو والارتفاع . والكعبة البيت المربع ، وجمعه «كعاب» ، والكعبة البيت الحرام سمى كعبة لارتفاعه وتربعه ، وقد ذكرت الكعبة في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، وباسماء مختلفة ، ذكرت باسم « الـكعبة » في سورة المائدة (آية ٩٧) «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس» ، وفي سورة المائدة (آية ٩٥) في قوله تعالى «هديا بالغ الكعبة» ، وذكرت باسم «البيت» في قوله تعالى من سورة البقرة (آية ١٢٧) «واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل» وفي قوله تعالى من سورة البقرة (آية ١٥٨) «فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما» ، وفي قـوله تعـالى عن سورة آل عمران (آية ٩٦) «ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين» ، وفي قوله تعالى من سورة قريش «فليعبدوا رب هذا البيت» ، وذكرت باسم «الحرم» في قوله تعالى من سورة العنكبوت (آية ٦٧) «أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا» ، وفي قوله تعـــالى من سورة القصص (آية ٥٧) «أولم نمكن لهم حرما آمنا» ، وذكرت باسم «المسجد الحرام» في قـــوله تعالى من سورة البقرة (آية ١٤٤) «ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحـــرام » ، وفي قـــوله تعـــالى من سورة البقرة (آية ١٩١) «ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام» ، وفي قوله تعالى في سورة البقـــرة (آية ١٩٦) « ذلك لم يكن أهـــله حـــاضرى المسجد الحـــرام » (وانظر : احمـــد حسن الباقـــورى : مع القـــرآن ـ القـــاهرة ١٩٧٠ ص ٤٦ ـ ٤٧) .

(٦) عرفت معـــابد الجـــاهليين « بالكعبـــات » ، مما يدل على أن بناءها كان على هيئة مكعب كشكل بناء « الكعبة المشرقة » ، ومن هذه الكعبات «كعبة سنداد» ، وهو قصر كانت العرب تحـــج اليه ويطوفون حوله ،وكان مركز حج قبائل «بكر بن وائل واياد» ،وان ذهب «ابن الكلبى» =

وقد استعملها الجاهليون بهذا المعنى أيضا ، كما جاءت كذلك فى النصوص النبطية والصفوية ، وقد عنيت به «معبدا»(٧)

وهناك «المكرب» أو «المكراب» (مكربن) ، وقد جاء فى بعض نصوص المسند «مكربن يعق» بمعنى «معبد يعوق»(٨) . ومن ثم فهناك من يرجح أن اسم «مكة»(٩) انما أخذ من لغة الجنوب ، مستندا فى ذلك الى البيت الحرام : ذلك لأن «مكة» أو «مكرب» — فى نظر هذا الفريق من الباحثين — انما هى كلمة يمنية ، مكونة من «مك» و «رب» و «مك» بمعنى «بيت» فتكون «مكرب» بمعنى «بيت الرب» أو (بيت الاله) ؛ ومن هذه الكلمة أخذت كلمة «مكة» — أو بكة بقلب الميم باء على عادة أهل الجنوب — ويرى « بروكلمان » أنها مأخوذة من كلمة « مقربُ » العربية الجنوبية ، ومعناها «الهيكل»(١٠) .

=

الى أنه كان منزلا شريفا ، ولم يكن بيت عبادة ، وكان موقعه بين الحيرة والابلة ، وهناك «كعبة نجران» ، وهو بناء على هيئة الكعبة ، ذهب «ابن الكلبى» الى أنه قبة من ادم من ثلاثمائة جلد ، كان اذا جاءها الخائف أمن ، أو طالب حاجة قضيت أو مسترفدا رفد ، وهى فى الواقع بيعة أسسها النصارى فى نجران ، ولا علاقة لها بالوثنية ، وكانت لمذحج وبنى الحارث بن كعب ، وهى ، فى رأى ابن الكلبى ، لم تكن كعبة عبادة ، وانما كانت غرفة يعظمها بنو الحارث بن كعب ، رؤساء نصارى نجران (ابن الكلبى : الأصنام ص ٤٥ ، تاج العروس ٤٥٦/١–٤٥٧ ، ٧١٨ ، ٢/ ٣٨٣ ، ٥٥٦/٣ ، اللسان ٧١٨/١ ، ياقوت ١٤٩/٥–١٥٠ ، ٢٦٢/٨ ، جواد على ٤١٦/٦ – ٤١٧) .

(٧) رينيه ديسو : العرب فى سورية قبل الاسلام — ترجمة عبد الحميد الدواخلى — القاهرة ١٩٥٩ ص ١١٩ ، وكذا

G. A. Cooke, A Text-Book of North-Semitic Inscriptions, Moabite, Hebrew, Phoenician; Aramaic, Nabataean, Plmyrene, Oxford, 1903, p. 238.

وكذا Shorter Ency. of Islam. p. 300.

(٨) Le Museon, LXVII, 1954, p. 100.

(٩) انظر عن اسم «مكة المكرمة» من وجهة نظر الاخباريين (محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٣٩١ — ٣٩٣) .

(١٠) أحمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول — القاهرة ١٩٦٥ ص ٩٧–٩٨ ، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ٣٣/١ ، وكذا

Gerald De Gaury, Rulers of Mecca, London, 1951, p. 24.

وهناك «الهيكل» : وهو من الالفاظ الدالة على العبادة ، استعملت لبيوت الاصنام مجازا ، وكذا لمعابد النصارى ، وخاصة عند العرب الشماليين كعرب العراق والشام ، ولاسيما النصارى منهم ، الذين نقلوها عن الاراميين ، فهي بمعنى «بيت الصنم» ، وقد وردت فى المسند بمعنى «قصر» و «معبد» فى أيام دخول النصرانية اليمن[١١] ، وهناك «الحرم» (أحرم) ، وقد أطلقه «الديدانيون» على بيت «بعل سمن» ، كما جاءت كلمة «محرم» فى المسند بمعنى المعبد ، وبمعنى المسجد ، فى عدة نصوص[١٢] .

وبدهى أن أشهر المعابد العربية انما «الكعبة البيت الحرام» بمكة المكرمة ، وسنتحدث عنه فى فصل خاص ، ثم «معبد ذى الشرا» فى البتراء ، وكعبة سنداد ، وكعبة نجران .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن العرب القدامى — شأنهم فى ذلك شأن الناس الآن — لايكتفون بتشييد معبد واحد فى المدينة الواحدة ، وانما يقيمون عدة بيوت عبادة ، خصص بعضها لعدة آلهة ، وخصص بعضها الاخر لمعبود بعينه ، بل قد يبنون عدة معابد لاله واحد فى موضع واحد ، وربما كان ذلك فى جنوب بلاد العرب ، أكثر منه فى شمالها .

وهكذا كانت كثرة عدد المعابد فى بلاد العرب الجنوبية ، فضلا عن بذخها ، مما شد انتباه الكتاب الكلاسيكيين أو التجار الجنود والبحارة اليونان والرومان الذين أخذ عنهم هؤلاء الكتاب معلوماتهم فى بعض الاحيان ، ويحدثنا «بليني» بأن «شبوه» عاصمة حضرموت بها ٦٠ معبدا،

---

(١١) تاج العروس ١٧٠/٨ ، غرائب اللغة ص ٢٠٩ ، جواد علي ٤٠٢/٦ ، وكذا

A. Jamme. South Arabian Inscriptions, Princeton, 1955, p. 433.

(١٢) E. Renan, Histoire Generale et Systeme Compare des Langues Semitiques, IV, Paris, 1855, p. 312.

وكذا A. Jamme, La Religion Sud-Arabe Preislamique, p. 275.

وكذا A. Jamme, Sauth Arabian Inscriptions, p. 440.

وأن «تمنع» عاصمة قتبان بها ٦٥ معبدا ؛ ولم يكن الامر مقصورا على هذا العدد الهائل من المعابد ، وانما يبدو أن شيئا غير قليل من البذخ والعناية كان ظاهرا فى هذه المعابد ، اذ كان هذا يصل فى مستواه الى مستوى ما يبذل فى بناء القصور الملكية ذاتها ، كما يستنتج من حديث «استرابو» عن مدن العربية الجنوبية التى يزينها جمال المعابد والقصور الملكية .

وشيء قريب من هذا فى مدينة «تدمر» التى كان مجمعها الالهى يزيد على عشرين معبودا ، ولابد أن عددا كبيرا من المعابد التى بنيت على قدر كبير من البذخ كانت تزينها ، اذ رغم ما أصابها من تدمير شامل على يد الامبراطور الرومانى «أورليان» عام ٢٨٣م ، لايزال مستوى البذخ المعمارى الذى تميزت به مبانيها يطل علينا من بقاياها الاثرية ؛ كما لايزال هناك عدد بين بقايا معابدها ومبانيها الدينية الاخرى ؛ مثل معبد «بل» ومعبد «شمين» ، والابراج الجنائزية المضلعة . وعدد من التوابيت التى وجدت فى مغارة الجديدة ؛ تزينها مناظر من النحت البارز . تشهد بعظمة المستوى الفنى ؛ وبالعناية الفائقة التى كانت تبذل فى المجال الدينى(١٣) .

٣ ـ حرمة المعابد :

كان للمعابد ـ وهى بيوت الارباب ـ حرمة خاصة وقدسية فى كل دين ، ومن ثم فلا يجوز انتهاك حرمتها ، ولا القيام بأعمال شائنة دنسة فيها ؛ خاصة فى أقدس مكان فى المعبد . وهو البيت ، أى الغرفة التى تضم الصنم أو الاصنام ؛ وهكذا كان البيت ؛ وهو «الكعبة» أقدس مكان فى البيت الحرام ، ويروى الاخباريون أن «أسافا» «ونائلة» عملا ـ كما أشرنا من قبل ـ عملا قبيحا فى الكعبة فمسخا حجرين . وان ذهبت رواية الى أن الله تعالى لم يمهلهما حتى يفجرا فيها ، بل مسخهما

(١٣) لطفى عبد الوهاب يحيى : العرب فى العصور القديمة ـ بيروت ١٩٧٩ ص ٣٩٢ ـ ٣٩٤ .

قبل ذلك[١٤] .

هذا وكانت للمعابد أرض جرام تحيط بالبيت ، يحرم فيها ما ليس محرما فى غيرها ، يقال لها «حمى» ، لانها فى حماية الارباب والاصنام ورعايتها ، فلا يعتدى عليها ، ولا يقطع شجرها ، ولا يرعى فيها ، ولا يسمح بصيد الحيوان فيها ، والاعتداء عليه فى «أرض الحمى» ، فكان فى الطائف «حمى اللات» ، وكان فى «جرش» (على مقربة من خميس مشيط ، وعلى مبعدة ٣٠ كيلا جنوب أبها) حمى[١٥] ، وكان وادى مكة الذى أقيم فيه البيت الحرام «حمى رب البيت» ، ولم يكن لاحد قبل «قصى بن كلاب» أن يقطع شجرة ، ولا التجاوز على ما فيه من نبت ، وكان قصى — طبقا لرواية الاخباريين — أول من اقتطع شجرة ، وأقام البيوت لسكناه وسكنى قريش فى ذلك الوادى[١٦] ، وذلك حين جمع

(١٤) السهيلى : الروض الانف ١/٦٤ ، تاريخ اليعقوبى ١/٦٤ ، تاريخ الطبرى ٢/٢٤١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢/١٩١ ، ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ١/٩٠ — ٩١ ، الازرقى : أخبار مكة ١/١١٩—١١٢ ، تفسير الطبرى ٢/٤٣ ، وكذا
P. K. Hitti, History of The Arabs, London, 1960, p. 99.
وكذا G. A. Cooke, op-cit, p. 217-219.

(١٥) اللسان ١٤/١٩٩ ، رينيه ديسو : المرجع السابق ص ١١١ ، وكذا J. Hastings, ERE, 6, p. 753.

(١٦) فى الواقع ان لمكة شان آخر ، غير بيوت الاصنام هذه ، فهى بلد الله الحرام ، حرمها الله منذ خلق السماوات والارض ، وحتى تقوم الساعة ، روى ابن سعد فى الطبقات الكبرى أن سيدنا رسول الله ، ﷺ قال : «ان الله قد حرم مكة يوم خلق السماوات والارض ، فهى حرام الى يوم القيامة — ولم تحل لى الا ساعة من نهار — ثم رجعت حرمتها كحرمتها بالامس — فليبلغ شاهدكم غائبكم» .

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو بن سعيد ، وهو يبعث البعوث الى مكة : ائذن لى أيها الامير أحدثك قولا قام به رسول الله ﷺ ، الغد يوم الفتح ، سمعته أذناى ، ووعاه قلبى ، وأبصرته عيناى حين تكلم به ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ان مكة حرمها الله ، ولم يحرمها الناس لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر ان يسفك بها دما ، ولا يعضد بها شجرا ، فان أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ ، فقولوا له : ان الله أذن لرسوله ، ولم يأذن لكم ، وانما أذن لى فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالامس ، وليبلغ
=

القرشيين المبعثرين فى نواحى متعددة الى وادى مكة . وجعل لكل بطن حيا خاصا بهم . على مقربة من الكعبة . حتى تكون منازل القوم بجوار البيت الحرام ، فيتعهدونه بالصيانة . ويدفعون عنه الخطر . ومن ثم فانه لم يترك بين الكعبة والبيوت التى بنتها بطون قريش ، الا بمقدار ما يسمح للناس بالطواف[17] .

وهناك كتابة نبطية تتحدث عن أرض حرام «لذى الشرى» سميت «حرم ذى الشرى الاله ربنا»[18] ، كما أن صنم طيء المعروف باسم «الفلس» كان «لا يأتيه خائف الا أمن عنده ، ولا يطرد طريدة فيلجأ بها اليه : الا تركت له . ولم تخفر حويته»[19] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الامر لم يقتصر على ما يدخل فى حرم المعبد . وانما أضاف «عمرو بن لحى» — أول من نشر عبادة الاصنام بين العرب — أمرا جديدا . فقد «سيب السائبة» . ووصل الوصيلة . وبحر البحيرة ، وحمى الحامية»[20] .

=

الشاهد الغائب » فقيل لابى شريح : ماذا قال لك عمرو ، قال قال انا أعلم بذلك يا أبا شريح ، أن الحرم لا يعيذ عاصيا ، ولا فارا بدم ، ولا فارا بخربة» وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن مجاهد أن رسول الله ﷺ ، قام يوم الفتح فقال : ان الله حرم مكة يوم خلق السماوات والارض ، فهى حرام بحرام الله الى يوم القيامة ، لم تحل لاحد قبلى ، ولا تحل لاحد بعدى ، ولم تحلل لى الا ساعة من الدهر ، لا ينفر صيدها ، ولا يعضد شوكها ، ولا يختلى خلاها ، ولا تحل لقطتها الا لمنشد ، فقال العباس بن عبد المطلب : الا الاذخر يا رسول الله ، فانه لابد منه للقين والبيوت . فسكت ثم قال : الا الاذخر ، فانه حلال» (صحيح البخارى ١٩٠/٥ ، ١٩٤ ، ابن هشام ٣١٦/٤) .

(١٧) انظر : محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٤٠٦ .

(١٨) جواد على ٤١٣/٦ ، وكذا

G. A. Cooke, A Text-Book of North-Semitic Inscriptions. Moabite, Hebrew. Phoenician, Aramic, Nabataean, Palmyrene,. Oxford. 1903, p. 79.

J. Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, Edinburgh. 6, p. 753.

(١٩) ابن الكلبى : الاصنام ص ٥٩ .

(٢٠) ابن كثير : البداية والنهاية ١٨٨/٢ــ١٩٠ ، ابن الكلبى : الاصنام ص ٨ .

قال ابن اسحاق : فأما البحيرة فهى بنت السائبة ، والسائبة : الناقة اذا تابعت بين عشر اناث ليس بينهن ذكر ، سيبت فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها الا ضيف ، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنها . ثم خلى سبيلها مع أمها فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها الا ضيف كما فعل بامها . فهى البحيرة بنت السائبة ، والوصيلة : الشاة اذا أتأمت (جاءت باثنين فى بطن واحد) عشر اناث متتابعات فى خمسة أبطن ، ليس بينهن ذكر . جعلت وصيلة ، قالوا : قد وصلت ، فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون اناثهم . الا أن يموت منها شيء ، فيشتركوا فى أكله ذكورهم واناثهم ، والحامى : الفحل اذا نتج له عشر اناث متتابعات ليس بينهن ذكر . حمى ظهره فلم يركب ، ولم يجز وبره ، وخلى فى ابله يضرب فيها ، لا ينتفع منه بغير ذلك(٢١) .

---

(٢١) ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ١/٥٦-٥٧ ، هذا ويقول الزمخشرى فى تفسيره الكشاف (١/٥٣٣) : كان أهل الجاهلية اذا نتجت الناقة خمسة ابطن آخرها ذكر ، بحروا أذنها ، اى شقوها ، وحرموا ركوبها ، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى ، واذا لقيها المعى لم يركبها ، واسمها البحيرة ، وكان يقول الرجل : اذا قدمت من سفرى أو برئت من مرضى . فناقتى سائبة ، وجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها ، وقيل كان الرجل اذا اعتق عبدا قال هو سائبة ، فلا عقل بينهما ولا ميراث ، واذا ولدت الشاة انثى فهى لهم ، وان ولدت ذكرا فهو لالهتهم ، فان ولدت ذكرا وأنثى ، قالوا : وصلت أخاها ، فلم يذبحوا الذكر لالهتهم ، واذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن ، قالوا قد حمى ظهره ، فلا يركب ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى» .

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن سعيد بن المسيب قال : البحيرة التى يمنع درها للطواغيت ، فلا يحلبها احد من الناس ، والسائبة كانوا يسيبونها لالهتهم ، لا يحمل عليها شيء ، قال وقال ابو هريرة ، قال رسول الله ﷺ «رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبة فى النار ، كان أول من سيب السوائب» ، والوصيلة : الناقة البكر تبكر فى اول نتاج الابل ، ثم تثنى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم ، ان وصلت احداهما بالاخرى ، ليس بينهما ذكر ، والحام : فحل الابل يضرب الضراب المعدود ، فاذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه عن الحمل ، فلم يحمل عليه شيء ، وسموه الحامى» (صحيح البخارى ٦/٦٨-٦٩ ، صحيح مسلم ٨/١٥٥ ، تفسير ابن كثير ٢/١٧٢-١٧٣) .

على أنه من الجدير بالاشارة أن حرمة المعابد لم تكن دائما مصانة فكثيرا ما انتهك المستهترون وذو الحاجة حرمتها ؛ فسرقوا ما تمكنوا عليه من خزائنها ؛ فقد سرقت خزائن الكعبة المشرفة نفسها مرارا ، ذكر أهل الاخبار أن سارقا سرق من مالها فى زمن جرهم ؛ وأنه دخل البئر التى فيها كنزها ، فسقط عليه حجر فحبسه فيها حتى أخرج منها ، وانتزع المال منه ، وسرقت قبيل بنائها فى عام ٦٠٦م ، وقبيل البعثة المحمدية الشريفة ، سرقها فتيان من فتيان قريش ، وأودعوا المال عند «دويك» مولى لبنى مليح بن عمرو ؛ من خزاعة ، فقطعت قريش يده[٢٢] ٠

٤ ـ سدنة المعابد :

من البدهى أن يكون لبيوت العبادة سدنة وحجبة وخدم ٠ يقومون بخدمة المعبد وما فيه من أصنام . فضلا عن التوسط لدى الآلهة برفع الضر والكرب عن الناس ، فى أيام الشدة والعسر : فضلا عن التوسل للالهة بحفظ القوافل ، وكذا انزال المطر أو ما يسمونه «الاستسقاء»[٢٣] ٠

وكانت قريش قبل الاسلام يستسقون ببنى هاشم ؛ رهط النبى

=

وفى احكام القرآن للجصاص (٥٩١/٢) : قال اهل اللغة : البحيرة الناقة التى تشق أذنها ، وكان اهل الجاهلية يحرمون البحيرة ، وهى أن تنتج خمسة أبطن اخرها ذكرا ، بحروا اذنها وحرموها وامتنعوا من ركوبها ونحرها ، ولم تطرد عن ماء ، ولم تمنع عن مرعى ، واذا لقيها ألمعى لم يركبها ، والسائبة : المخلاة وهى المسيبة ، وكانوا فى الجاهلية اذا نذر الرجل لقدوم من سفر أو برء من مرض ، قال ناقتى سائبة ،فكانت كالبحيرة فى التحريم والتخلية ، فأما الوصيلة ، فان بعض أهل اللغة ذكر أنها الانثى من الغنم ، اذا ولدت مع ذكر ، قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوها ، وقال بعضهم : كانت الشاة اذا ولدت انثى فهى لهم ، واذا ولدت ذكرا ذبحوه لالهتهم فى زعمهم،واذا ولدت ذكرا وانثى،قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوه لالهتهم وقالوا : الحامى : الفحل من الابل : اذا نتجت من صلبه عشرة أبطن ، قالوا : حمى ظهره فلا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى» (فى ظلال القرآن ٩٨٩/٢ ، وانظر : صفوة التفاسير ٣٦٨/١ ـ ٣٦٩ ، تفسير المنار ١٦٩/٧ـ١٧١ ، تفسير القرطبى ص٢٣٣٢ـ ٢٣٣٥ ، تفسير الطبرى ١١٦/١١ـ١٣٦) ٠

(٢٢) السهيلى : الروض الانف ١٣٠/١ ، جواد على ٤٢٨/٦ ٠

(٢٣) السيرة الحلبية ١٣٢/١ ، جواد على ٢٢١/٦ ٠

ﷺ ، اذا أجدبوا ، يروى أن قريشا كانت اذا أصابها قحط شديد تأخذ بيد عبد المطلب ، جد النبى ، ﷺ ، فتخرج الى جبل «ثبير» (مقابل جبل حراء من الجنوب ، ويشرف على منى من الشمال) يستسقى الله لهم ، لما جربوه من قضاء الحوائج على يديه ببركة نور النبى ﷺ ، فضلا عن مخالفته أهل الجاهلية ، بالهام من الله ، وكم من مرة حجبت السماء عنهم غيثها ، وكاد القحط يقتلهم فيذهبون الى شيخهم عبد المطلب الذى يخرج بهم صفوفا ضارعة لله تعالى ، الى قنن الجبال ، حيث يضرع الى الله تعالى كى ينزل المطر ، مبتهلا بهذه الكلمات : اللهم هؤلاء عبيدك ، وقد نزل بهم ما ترى ، فاذهب عنهم الجدب ، وآتنا بالمطر والخصب» ، فلا يلبثون الا قليلا ، وتجىء الامطار كريمة رحيمة ، تنبت وتحيى وتنعش .

واخرج ابن عساكر عن جلهمة بن غرفطة قال : قدمت مكة وهم فى قحط : فقالت قريش : يا أبا طالب أقحط الوادى ، وأجدب العيال ، فهلم فاستسق ، فخرج أبو طالب ، ومعه غلام كأنه شمس دجن تجلت عنه سحابة قتماء ، حوله أغيلمة ، فأخذه أبو طالب فالصق ظهره بالكعبة ، ولاذ باصبعه الغلام ، وما فى السماء قزعة ، فأقبل السحاب من هنا وهنا ، وأغدق واغدودق ، وانفجر الوادى ، وأخصب النادى والبادى ، وفى ذلك يقول أبو طالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ثمال اليتامى عصمة للارامل

هذا ، ومن بركة هذا البيت الهاشمى الطاهر ، وكرامته على الله ، من أجل نبيه ﷺ ، أن القوم كانوا يستسقون ببنى هاشم فى الاسلام كذلك ، أخرج البخارى فى صحيحه عن أنس أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه — كانوا اذا أقحطوا — استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال « اللهم انا كنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا» .

وأخرج ابن عساكر فى تاريخ دمشق أن الناس كرروا الاستسقاء عام الرمادة ، سنة سبعة وعشرة من الهجرة ، فلم يسقوا ، فقال عمر :

لاستسقين غدا بمن يسقينى الله به ، فلما أصبح غدا للعباس فدق عليه الباب فقال : من ، قال : عمر ، قال : ما حاجتك ، قال : أخرج حتى نستسقى الله بك ، قال اقعد ، فأرسل العباس الى بنى هاشم : أن تطهروا والبسوا من صالح ثيابكم ، فأتوا فأخرج طيبا فطيبهم ، ثم خرج ، وعلى بن أبى طالب أمامه بين يديه ، والحسن عن يمينه،والحسين عن يساره ، وبنو هاشم خلف ظهره ، فقال يا عمر : لا تخلط بنا غيرنا ، ثم أتى المصلى فوقف ، فحمد لله وأثنى عليه وقال : اللهم انك خلقتنا ولم تؤامرنا ، وعلمت ما نحن عاملون قبل أن تخلقنا ، فلم يمنعك علمك فينا عن رزقنا ، اللهم فكما تفضلت فى أوله ، تفضل علينا فى آخره» ، قال جابر : فما برحنا حتى سحت السماء علينا سحا ، فما وصلنا الى منازلنا الا خوضا ، فقال العباس : أنا المسقى بن المسقى بن المسقى بن المسقى بن المسقى ، خمس مرات ؛ وأشار الى أن أباه عبد المطلب استسقى خمس مرات فسقى •

وعودا على بدء،الى السدانة،لنرى أن «السادن» هو المرجع الاعلى فى سلسلة الرتب بالنسبة الى المعابد ، والسادن فى المعينية دعى «شوع» أو «رشو» ، واما ان كان السادن امرأة فهى «رشوت»(٢٤) وهو فى اللحيانية «افكل» ، فسادن اللات يقال له «افكل اللات»(٢٥) •

وكان العرب الجاهليون يعتبرون وظيفة «السدانة» من المنازل الدينية والاجتماعية الرفيعة ، وغالبا ما تكون وراثية ، وهى على أية حال، تكسب صاحبها جاها ومالا ، ومن ثم فقد كنت سببا فى وقوع خصومات بين الاسر •

.. ونقرأ فى تاريخ مكة المكرمة أن «قصى بن كلاب» كان يجمع بين السدانة والسقاية والرفادة واللواء ورياسة دار الندوة ، فلما مات قام

---

(٢٤) جواد على ٤٢٦/٦ ، وكذا
A. Grohman, Arabien, Munchen, 1963, p. 248.

(٢٥) A. J. Jaussen and R. Savignac, Mission Archeologique en Arabie, II, Paris, 1911, p. 506.

النزاع بين بنيه (عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى) وانتهى الامر بأن يتولى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون السدانة واللواء ورياسة دار الندوة لبنى عبد الدار ، وتجمع المصادر الاسلامية على أن مولانا وسيدنا رسول الله ، ﷺ قد ألغى هذه المناصب جميعا يوم فتح مكة . الا سقاية الحاج ، وبقيت فى بنى هاشم ، وسدانة الكعبة . وبقيت فى بنى عبد الدار(٢٦) .

هذا ويذهب الدكتور جواد على الى أنه من الصعب تصور وجـود طبقة خاصة كبيرة لرجـال الدين ، على نحـو ما كان عند المصريين أو الاشوريين والبابليين أو اليونان أو الرومان أو فى الكنيسة المسيحية ، وذلك بسبب النظام القبلى الذى كان غالبا على جزيرة العرب ، وصغر المجتمعات الحضرية ، فالاصنام محلية،عبدتها هم أبناء القبيلة أو القبائل المتعبدة لها . وفى محيط اجتماعى ضيق مثل هذا المحيط ، لا يمكن ظهور طبقة خاصة برجال الدين ذات نفوذ واسع ، انما تكون قدرتها بقدرة المحيط الذى تعيش فيه وهـو محيط بدوى بسيط ، أكثر من السدانة والكهانة لحل مشكلات حياته ، ولجلب السعادة له(٢٧) .

على أن هذا قد يكون صحيحا بالنسبة الى بلاد العرب الشمالية . وأما فى بلاد العرب الجنوبية فالامر جد مختلف ، ومن ثم يذهب أستاذنا الدكتور لطفى عبد الوهاب الى أن المركز الذى كان يتمتع به رجال الدين فى ممالك العرب الجنوبية ، سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية السياسية ، نجد شبيها له فى العربية الشمالية فى مملكة تدمر : فهناك كذلك نجد رجال الدين على قدر كبير من القوة والنفوذ فى هاتين الناحيتين وعلى سبيل المثال : فالكهنة الذين كانوا يقومون على معبد الاله « بل » (كبير الالهة) وتابعيه الاله يرحبول (اله الشمس فى أحـد مظاهره)

---

(٢٦) تاريخ الطبرى ٢/٢٥٥ ــ ٢٥٩ ، ٣/٦٠ ــ ٦١ ، الفـاسى : شفاء الغرام ٢/٧٥ ــ ٧٦ ، ١٢٠ ، السيرة الحلبية ٣/٤٨ ــ ٤٩ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٣٣٥ــ٣٣٦ ، ابن سعد ١/٤١ــ٤٢ ، المقدسى ٤/١٢٧ ــ ١٢٨ ، الازرقى : أخبار مكة ١/١١٠ــ١١٥ ، العقد الفريد ٣/٣١٣ــ٣١٥ .

(٢٧) جواد على : ٦/٢٢٠ .

والاله عجلبول (اله القمــر) كانوا لا يسمحون لاحــد أن يدخل ضمن صفوفهم ، الا اذا كان ينتمى الى الارستقراطية التجارية فى تدمر،كذلك كانت موافقتهم لازمة لتعيين الموظفين الكبار فى الدولة ، وهكذا فــان النصوص التى تشير الى أن الاله «يرحبول» قد سمى أحد الاشخاص ليشغل احدى الوظائف معناه فى الحقيقة أن مجموعة هؤلاء الكهنة قــد اختاروا هذا الشخص للوظيفة المسماه[٢٨] ٠

٥ ـ مصادر دخل المعـابد :

اعتمدت المعابد فى مصادر دخلها على النذور والقرابين والمنح ؛ أى الصدقات والعطايا ، ويذهب بعض الباحثين الى تقسيم ما كان يتقدم به العرب القدامى الى أربابهم الى قسمين ؛ الواحد اجبارى يجب الوفاء به بسبب نذر مثلا ، والاخر اختيارى أو تطوعى كالمنح والذبائح التى كانت تقدم فى المواسم ، ويقال لها «ندب» و «ندبت» (أى مندوب أو مستحب) ٠

هذا وقد قامت النذور بدور خطير فى الحياة الدينية عند الجاهليين، حتى صارت عندهم بمثابة المظهر الاول ، والوحيد للدين ؛ فالعامة تكاد لا تفهم من الدين سوى تقديم النذور للارباب ، لتحقق لهم الرخاء ، وتسبغ عليهم نعمائها ، والنذور ليست بالضرورة مادية ؛ فقــد تكون معنوية أيضا ، كأن يهب شخص ولده لخدمة الصنم ؛ وهــو ما يسمى بالنذير أو النذيرة ، و فى التنزيل «انى نذرت لك ما فى بطنى محررا»[٢٩]٠

على أن الامر جد مختلف فى العربية الجنوبية ، فكثــيرا ما تشير نصوص المسند الى أن هناك فى العربية الجنوبية أرضين واسعة موقوفة على الالهة؛ وقــد أجرتها المعابد للرؤساء لاستغلالها فى مقابل أجــر يدفعونه ؛ وهــذه الارضون هى أوقــاف حبست على الالهة يسمونها

---

(٢٨) لطفى عبد الوهاب يحيى : العرب فى العصور القديمة ـ بيروت ١٩٧٩ ص ٣٩٥ ٠

(٢٩) سورة آل عمران آية ٣٥ ٠

«وتضم» (وتف)[٣٠] •

وهناك فى «قتبان» ضرائب معينة للمعابد تسمى «إعصم» ، وهى لفظة — فيما يرى رود كناكيس — تطلق على كل ما يسمى للالهة أو المعابد من ضريبة مقررة ، أو نذر ، أو صدقة •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أن ادارة المعابد القتبانية انما تتركز فى العاصمة «تمنع» ، وأنها قد تركت أثرا بعيدا فى استغلال أراضى الدولة ، وفى الحصول على جزء من دخلها ، وأن الدولة نفسها قد منحت ادارة المعابد هذا الحق ، مجاملة منها لهذه المراكز الدينية التى انتشرت كذلك فى خارج العاصمة «تمنع» وقد كانت القبائل مطالبة بأن تدفع للمعابد عشر الدخل والميراث والمشتريات ، الى جانب ضريبة أخرى كانت تقدم للمعبد كهبة •

هذا وقد كان أفراد طائفة المعبد يسمون «المطعمون على يد عم» (وعم هو كبير آلهة قتبان) بسبب اتصالهم بكبار رجال الدين فى قتبان ، وهم الذين كانوا يعتقدون أن الله قد فوضهم فى ادارة أراضيه الدنيوية، وهكذا قامت الجماعة المعروفة باسم «المطعمون من الله أو من الاله» ، وهى جماعة خاصة بالمعبد ، وتعيش على نفقة الدولة ، مما جعلها فى مركز يساعدها على المطالبة بالأراضى ودخلها للمعبد ، بدعوى أن هذا الدخل لله سيد الارض[٣١] •

---

(٣٠) تاج العروس ٤٨١/١ ، القاموس المحيط ١٢٠/٢ ، الروض الانف ٦/١ ، تفسير الطبرى ٥٨٠/٥-٥٨٢ ، تفسير البيضاوى ١٥٤/٦ ، تفسير الطبرسى ٣٤٥/٢ ، اللسان ٢٠٠/٥ ، جواد على ١٨٦/٦،١٩٠ ،
Encyclopaedio Britannica, 25, p. 200.
J. Hastings, ERE, 12, p. 644.

(٣١) محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ٢٥٣ — ٢٥٤ ، نيكولوس رودكناكيس : الحياة العامة للدولة العربية الجنوبية ص ١٤٩ ، وكذا
N. Rhodokanakis, KTB, I, p. 11-12, 25.

الفصل الخامس

الكعبة المشرفة

١ ـ تقديم عن الحج :

الحج : هو الذهاب الى الاماكن المقدسة فى أزمنة موقوتة ؛ للتقرب الى الاله أو الالهة ، والى صاحب ذلك الموضع المقدس ، والحج بهذا المعنى معروف فى جميع الاديان تقريبا[١] ، وهو من الشعائر الدينية عند الساميين[٢] .

والحج فى اللغة ـ كما جاء فى القاموس المحيط ـ هو القصد والكف والقدوم وسبر الشبحة بالحجاج للمسبار والغلبة بالحجة وكثرة الاختلاف والتردد ، وقصد مكة للنسك ، وهو حاج وحاجيج[٣] ، وكله «حج» من الكلمات السامية الاصيلة العتيقة ، وتعنى مكان مقدس وزيارته[٤] .

هذا وقد ميز الشهر الذى يقع فيه الحج عن الاشهر الاخر بتسميته «شهر ذى الحجة» و «شهر الحج» وذلك لوقوع الحج فيه ، وهذه التسمية المعروفة حتى الان فى التقويم الهجرى ، انما هى تسمية قديمة، وردت فى النصوص القديمة فى المسند باسم « ذى حجتن » أى «ذى الحجة»[٥] .

---

(١) انظر عن الحج الى أبيدوس عند المصريين القدامى (محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية القديمة ص ٤٣١ ـ ٤٣٤) .

(٢) جواد على ٣٤٧/٦ ، اللسان ٢٣٦/٢ ، وكذا
Encyclopaedia Britannica, 17, p. 925.
وكذا J. Hastings, ERE, 10, p. 10.

(٣) القاموس المحيط ٨٨/١ (القاهرة ١٩٥٢) .

(٤) تاج العروس ١٦/٢ـ١٧ ، جواد على ٣٤٧/٦ ، وكذا
J. Hastings, op-cit, p. 23.

(٥) جواد على ٣٤٨/٦ .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن روايات الاخباريين عن موسم الحج فى الجاهلية تفيد أن الحج الى مكة انما كان فى موسم ثابت، هو الربيع على رأى كثير من المستشرقين ، أو هو الخريف على رأى «فلهاوزن» ، وذلك بسبب ماذكر عن «النسىء»(٦) ، ومن رغبة قريش وغيرها فى أن يكون فى وقت واحد(٧) .

ويرى بعض الباحثين أن الشهر الحرام المذكور فى القرآن الكريم فى قوله تعالى «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس ، والشهر الحرام»(٨) ، هو شهر الحج ، وهو الشهر الاول من السنة ، أى شهر المحرم ، على أن بعض المفسرين انما يرى أنه رجب أو ذو القعدة أو ذو الحجة ، ويذهب الامام النسفى الى أنه ذو الحجة ، فهو الشهر الذى

---

(٦) النسىء : بالهمزة مصدره نساة اذا اخره ، وهو تاخير حرمة الشهر الى شهر آخر ، وذلك أن الجاهليين كانوا أصحاب حروب وغارات، فاذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة فيحلونه ويحرمون مكانه شهرا آخر ، حتى رفضوا تخصيص الاشهر الحرم بالتحريم ، فكانوا يحرمون من بين شهور العام اربعة اشهر (تفسير النسفى ١/١٢٥) .

وقال مجاهد : كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام الى الموسم على حمار له فيقول : أيها الناس انى لا اعاب ولا أخاب ، ولا مرد لما اقول، انا قد حرمنا المحرم وأخرنا صفر ، ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ، ويقول : انا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم ، فهو قوله ليواطئوا عدة ما حرم الله» ، قال يعنى الاربعة ، فيحلوا ما حرم الله تاخير هذا الشهر الحرام .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم : هذا رجل من بنى كنانة يقال له «القلمس» وكان فى الجاهلية ، وكانوا فى الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الاشهر الحرام ، يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يمد اليه يده ، فلما كان هو قال : اخرجوا بنا ، قالوا له : هذا المحرم ، قال : ننسئه العام ، هما العام صفران ، فاذا كان العام القابل قضينا ، جعلناهما محرمين ، قال ففعل ذلك ، فلما كان عام قابل قال : لا تغزوا فى صفر ، حرموه مع المحرم ، هما محرمان (فى ظلال القرآن ٣/١٦٥٣) .

(٧) جواد على ٦/٣٤٩ ، وكذا
Shorter Encyclopaedia of Islam, p. 124.

(٨) سورة المائدة : آية ٩٧ ، وانظر : تفسير الطبرى ٣/٥٧٦–٥٧٨، صفوة التفاسير ١/٣٦٧ ، تفسير ابن كثير ٢/٦٦٢ ، تفسير النسفى ١/٣٠٤ .

يؤدي فيه الحج ، لان فى اختصاصه من بين الاشهر باقامة موسم الحج فيه شأنا قد علمه الله ، وان رأى الامام الطبرى أنه شهر ذو القعدة[٩] .

هذا ويذهب المفسرون والمؤرخون أن الاشهر الحرم انما هى المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة ، أما شهور الحج فهى شوال وذو القعدة وعشرة من ذى الحجة[١٠] ، وعلى أية حال ، فلقد تحدث القرآن الكريم عن الاشهر الحرام ، ورغم أنه لم يعلن عن أسمائها ، ولم يزد عن أنها أربعة حرم ، قال تعالى «ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السماوات والارض ، منها أربعة حرم»[١١] ، فان الروايات المتواترة انما تذهب الى أنها : رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وروى الامام أحمد فى مسنده ، والامام البخارى فى صحيحه عن أبى بكرة عن النبى ، ﷺ ، قال : أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والارض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان[١٢] .

٢ ـ اسم الكعبة :

يذهب الباحثون مذاهب شتى فى تفسير اسم «الكعبة» ، فرأى بعضهم أنها كلمة رومية أطلقت على كعبة مكة لتكعيبها أو لتربيعها ، وأن بناء الروم من بنائها وهندستها ، فاستعير اسمها من اللغة الرومية ، وقيل كان بناؤها من الحبشة التى عرف العرب عن طريقها بناء هذه

---

(٩) تفسير الطبرى ٣/٥٧٦ـ٥٧٨ ، تفسير النسفى ١/٣٠٤ ، جواد على ٦/٣٤٩ـ٣٥٠ ، وكذا
Shorter Ency. of Islam, p. 409.

(١٠) تفسير القرطبى ٣/٤٠٥ ، تفسير الطبرى ٤/١١٥ـ١٢١،١٤/ ١٣٤ ، المسعودى : مروج الذهب ٢/١٨٩ .

(١١) سورة التوبة : آية ٣٦ .

(١٢) صحيح البخارى ٦/٨٣ ، مسند الامام أحمد ٥/٣٧ ، وانظر : فتح البارى ١/١٤٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٣/٤٥٩ ، ٦/٢٩٠ـ٢١١ ، ٨/٨٣، ٢٤٤ ، تفسير ابن كثير ٢/٥٥١ـ٥٥٣ ، تفسير الطبرى ١٤/٢٣٤ـ٢٣٧ ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢/٢٧ ، السهيلى : الروض الانف ٢/٦٠ ، ابن كثير ٥/١٩٥ .

المعابد وأمثالها ، لانها أمة خيام لم تتأصل فيها صناعة البناء ، وهؤلاء الباحثون وأمثالهم يتشبسون بالفروع ويغفلون الاصل ، بجذوره وجذوعه عليه ، فمهما يكن من لغة البناء الرومى أو الحبشى : فالقبائل العربية لم تبن تلك البيوت لان البناء من الروم والحبش ، ولم ترد أن تنشىء لها بيتا يسمى الكعبة أو المكعبة فى اللغة الرومية ، وانما وجدت الحاجة الى البيت الحرام ؛ ثم وجدت الوسيلة الى تلك الغاية ، ولو لم يبنه أحد من الروم أو الحبش ، بناه أحد من فارس أو مصر أو الهند أو غيرها من الامم التى تقدمت فى هذه الصناعات(١٣) .

على أن أصحاب هذا الرأى جهلوا — أو تجاهلوا — أن الكعبة : كما سوف نرى ، انما قد بناها سيدنا ابراهيم عليه السلام حوالى عام ١٨٢٤م ؛ قبل أن يظهر للروم أو الحبش فن في البناء أو غيره ، بل لم يظهروا هم أنفسهم على مسرح التاريخ ، هذا فضلا عن أننا نعرف معبدا سمى بشكله ، أو كان له شكل غير أشكال الابنية التي يغلب عليها «التكعيب» مع بعض الاستطالة ، هذا الى أن مادة «كعب» بالعربية عن اللغة العربية ، لانهم كانوا يعرفون كعوب الفتاة ، ويسمون الفتاة كاعبا، اذا كعب ثدياها ، ويلعبون بالكعوب ويتسلحون بالرماح ، وهى من القصب أو من الاقنية ، فيغلب أن يكون اليونان هم الذين أخذوا من العرب كلمة الكعب ، وكلمة القناة ، فتصحفت فى لغتهم الى القانون وهو العصا التى تتخذ للقياس(١٤) .

وأما الحبشة ، وأن العرب قد نقلوا عنها طريقة بناء المعابد وأمثالها، فربما كانت الادلة تتجه الى العكس ، فهناك على سبيل المثال ، بقايا أعمدة لمعبد سبئي ، فضلا عن مذبح سبيىء للمعبود «سين» ، الى جانب كتابات وأشياء أخرى من الفن العربى القديم ، بل ان هناك من يرى أن

(١٣) عباس العقاد : مطلع النور ص ١١١–١١٢ ، وانظر : تفسير الطبرى ٨٩/١١–٩٠ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان ٤٦٥/٤ ، أحمد حسن الباقورى : مع القرآن — القاهرة ١٩٧٠ ص ٤٦ .
(١٤) العقاد : المرجع السابق ص ١١٢ .

الفن العربى انما تجاوز تأثيره الحبشة الى مجاوراتها ، ومن ثم فانهم انما يذهبون الى أن بقايا المعابد التى عثر عليها فى روديسيا وفى أوغنده، انما هى من المعابد المتأثرة بطراز معبد «أوام» (محرم بلقيس) ، فان بين هذه المعابد جميعـا شبها كبيرًا فى طراز البناء وفى المسـاحة وفى الابعاد كذلك(١٥) .

٣ ـ بنـاء الكعبـة :

لاريب فى أن الكعبة المشرفة انما قام ببنائها ابراهيم الخليل وولده اسماعيل ، عليهما السلام ، الامر الذى يؤكده القرآن ، ويرتضيه محققو المؤرخين ، غير أن نفرا من المؤرخين انما يقدموا لنا روايات ترجع ببناء الكعبة الى ما قبل عهد ابراهيم الخليل بالاف السنين ، بل ان البعض يذهب الى أنها قد بنيت قبل أن يبرأ الله الارض نفسها ، وهكذا وجدت لنا روايات تنسب بناء الكعبة الى الملائكة ، وقبل أن يخـلق آدم عليه السلام بألفى سنة ، بل ان هذا النفر انما يذهب الى أن الملائكة قـد خاطبت آدم عند حجه البيت الحرام ، وبلسان عربى مبين «برّ حجتك يا آدم ، حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام» ، بينما تواضع بعض هؤلاء الرواة فنسب بناء الكعبة الى آدم ، وتواضع بعض أكثر فنسب بناءها الى «شيث بن آدم» ، وأن هذا البيت المقدس انما غرق فى طوفان نوح، حتى أتى ابراهيم فأعاد بناءه(١٦) .

على أن فريقا آخر انما يذهب الى أن الكعبة المشرفة انما أقيمت فى

---

(١٥) أنظر : محمد بيومى مهران : العرب وعـلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة ص ٣٨٧ ـ ٤٠٠ ، جـواد على ٤٥١/٣ ، موسكاتى : المرجع السابق ص ٢٢١ ـ ٢٢٣ ، وكذا
H. Von Wissmann and M. Hofner, op-cit, p. 28.

(١٦) تفسير المنار ٤٦٦/١ ، تفسير البيضاوى ١٧٢/١ ، تفسـير الكشاف ٣١١/١ ، العمرى : مسالك الابصار فى ممالك الامصار ٩٣/١ـ٩٤، الديار بكرى : تاريخ الخميس ص ١٠٠ ـ ١٠٤ ، ١٣٣ ، معجم ياقوت ٤٦٣/٤ـ٤٦٥ ، الازرقى : أخبار مكة ٣٢/١ـ٣٥ ، الحربى : كتـاب المناسك وأماكن الحج ومعالم الجـزيرة ص ٤٨١ـ٤٨٢ ، على حسنى الخربوطلى : الكعبة على مر العصور ص ٥ ـ ١٠ ، نهاية الارب ٢٢٨/١ـ ٢٣٠ .

مكان معبد قديم للعماليق : اندثر قبل قدوم ابراهيم الخليل عليه السلام الى الحجاز . مما جعل هذه البلاد موضع تقديس ، حتى أن المصريين القدامى انما كانوا يسمون بلاد الحجاز «البلاد المقدسة»(١٧) ، بل ان البعض زاد على ذلك فأراد أن يطوع الآيتين الكريمتين فى قوله تعالى «واذا بوّأنا لابراهيم مكان البيت»(١٨) ، وفى قوله تعالى «واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل»(١٩) ، لتتفقا مع هذا الهدف ، فرأى أنهما تلهمان أن هذه المنطقة كانت معروفة ، وأن الكعبة ربما قامت على أنقاض معبد قديم ، جرت عليه أحداث تاريخية وجغرافية غيرت من طبيعة المكان ، وأهل هذا المعبد ، حتى هىء لابراهيم أن يرفع قواعده من جديد(٢٠) .

والرأى عندى أن الكعبة المشرفة انما يرجع بناؤها الى سيدنا ابراهيم واسماعيل عليهما السلام(٢١) ، دون غيرهما من العالمين ، يقول سبحانه وتعالى «واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ، واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البيت آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الاخر . ومن كفر

---

(١٧) الخربوطلى : المرجع السابق ص ١٠ ، مع ملاحظة انه ليس هناك شىء مؤكد من الناحية التاريخية عن هذا الاسم .

(١٨) سورة الحج : آية ٢٦ .

(١٩) سورة البقرة : آية ١٢٧ .

(٢٠) تاريخ الطبرى ٢٥٤/١ ، احمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص ١٦٧ ، ثم قارن : تفسير القرطبى ١٢٠/٢ ، تفسير الكشاف ٣١١/١ .

(٢١) يلاحظ فى الاية الكريمة «واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل» ، تاخير ذكر اسماعيل عن ذكر المفعول ، اشارة الى ان المامور من الله انما هو ابراهيم عليه السلام ، وانما كان اسماعيل عليه السلام مساعدا له ، وقد ورد أنه كان يناوله الحجارة (تفسير المنار ٣٦٩/١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٥٦/٩) ثم قارن (تفسير الطبرى ٦٤/٣ ـ ٦٧ ، ٧٦ـ٧٣) ، حيث نرى أن النبيين الكريمين قد رفعا القواعد معا ، بدليل قوله تعالى «ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا امة مسلمة لك ، وارنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم» (سورة البقرة : آية ١٢٧ ـ ١٢٨) .

فامتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النـار وبئس المصير ، واذ يرفـع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم»(٢٢) .

ويروى الامام ابن كثير وغـيره من العلمـاء أنه لم يجىء فى خبر صحيح عن المعصوم ، ﷺ ، أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك فى هذا بقوله مكان البيت فليس بناهض ولا ظـاهر ، لان المراد مكانه المقدر فى علم الله ، المقرر فى قدرته ، المعظم عند الانبياء ، موضعه ، من لدن آدم الى زمان ابراهيم(٢٣) ، ولعل من الافضل هنا أن نعود الى القصة من أولها :

قام ابراهيم عليه السلام برحلته المباركة من فلسطين الى الحجاز ، وبصحبته زوجه السيدة هاجر ، وولدهما اسماعيل عليهم السلام، امتثالا لأمر الله ، ورغبة فى نشر الايمان بالله فى بيئة جديدة : و فى مناخ جديد، وليس ، كما يحلو للسطحيين من المؤرخين ، فضـلا عن الذين تابعـوا التوراة فى مزاعمها ، ان تلك الرحلة انما كانت بأمر من سارة لىبعد هاجر وولدها عنها وعن ابراهيم ، بل انه حتى لم تكن بأمر ابراهيم نفسه ، وانما كان ذلك كله بأمر رب ابراهيم ؛ تمهيدا لاعظم مهمة ، خلدت ذكر ابراهيم ، وهدت أقواما الى الايمان بالله الواحد القهار ، أعنى بناء أول بيت وضع للناس ، بيت الله الحرام ، وليعيش هناك فى جوار الحـرم الشريف ، وحتى يخـرج من ظهره أشرف الاولين والاخـرين ، سيدنا

---

(٢٢) سورة البقرة : آية ١٢٥ ـ ١٢٧ ، وأنظر : تفسير المنار ٢/ ٣٧٨ـ٣٨٦ ، تفسير النسفي ٧٣/١ـ٧٥ ، تفسير القرطبى ص ٤٩٦ـ٥١٥، تفسير ابن كثير ٢٥٥/١ـ٢٧٤ (بيروت ١٩٨٦) ، صفوة التفاسير ٩٣/١ ـ ٩٦ ، تفسير أبى السعود ١٢٣/١ـ١٢٥ ، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١١/١ ، فى ظلال القرآن ١١٣/١ ـ ١١٥ (بيروت ١٩٨٠م) ، وكذا انظر : سورة آل عمران : آية ٩٦ ـ ٩٧ ، سورة الحج : آية ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١٦٣/١ ، ٢٩٨/٢ ، تفسير الكشاف ٤٤٦/١ ، تفسير المنار ٤٦٦/١ ـ ٤٦٧ ، تفسير الطبرى ٧٠/٣ ، تاريخ اليعقوبى ٢٧/١ .

ومولانا محمد رسول الله - ﷺ - وحتى تنشأ هناك خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

وهكذا فالرأى عندى أن هجرة أبى الانبياء ، وخليل الرحمن ، سيدنا ابراهيم عليه السلام ، بولده اسماعيل وزوجه هاجر ، انما كانت تنفيذا لأمر الله تعالى ، ثم سرعان ما يعود الخليل عليه السلام ، من الحجاز الشريف الى فلسطين ، ومن ثم فان هناك من يتجه الى أن هجرة ابراهيم بولده وزوجه الى الارض المقدسة فى الحجاز ، انما كانت بعد أن أمر الله تعالى ابراهيم ببناء البيت الحرام(٢٤) .

وأيا ما كان الامر - فان الاسرة المباركة سرعان ما تصل الى الارض الطيبة . حيث تبقى هاجر ووليدها العظيم ، بينما يعود الخليل الى فلسطين ، وهنا تقدم لنا الروايات العربية منظرا فريدا فى التاريخ . ابراهيم الخليل ، كما تقدم هاجر كذلك ، دليلا ما بعده دليل على قوة الايمان بالخالق الاعظم .

تقول الروايات أن الله تعالى أوحى الى خليله ابراهيم أن يأتى مكة، وليس بمكة يومئذ بيت . وكان موضع البيت ربوة حمراء ، وان ذهبت بعض الروايات الى أن ناسا من العماليق كانوا وقت ذاك خارج مكة وما حولها ، وأن واديها قد اتخذ من قبل أن تبنى موئلا للراحة من قبل رجال القوافل ، سواء ابان قدومها من اليمن قاصدة فلسطين ، أو متجهة من فلسطين الى اليمن ، ولكنه فيما خلا ذلك كان من أشد الاماكن خلاء أو يكاد(٢٥) .

وهناك فى هذا المكان المقفر ، ترك ابراهيم هاجر واسماعيل ، عليهم

---

(٢٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١/١٥٤ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ١/١٣٥ ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ص ١٠٥ ؛ المقدسى : البدء والتاريخ ٣/٥٣ ، شفاء الغرام للفاسى ٢/١٥ ، ثم قارن : المسعودى : مروج الذهب ٢/١٩-٢٠ .

(٢٥) أنظر : محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/١٨٠ - ٢٣٥ .

السلام ، عند دوحة فوق زمزم ، ثم قفل راجعا فنادته هاجر : يا ابراهيم الى من تكلنا ؟ فيقول : الى الله ، فتقول له : انطلق فـانه لا يضيعنا ، وينطلق ابراهيم حتى اذا ما كان عند الثنية حيث لا يرونه ، يستقبل بوجهه البيت ثم يدعوه بهذه الدعوات[٢٦] : «ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من النـاس[٢٧] تهـوى[٢٨] اليهـم ، وارزقهم من الثمـرات لعـلهم يشكرون»[٢٩] .

وفرغ الطعام والماء ، فعطشت هاجر وعطش وليدها ، وراح يتلبط ، ونظرت اليه وهو يتلوى من العطش . فأحست نيـاط قلبها يتمزق من الالم ، وكاد عقلها أن يطيش ، وراحت تسعى بين الصفا والمروة ، تتلهف على رؤية أحد ينقذ وليدها من الموت عطشا ، حتى اذا ما أتمت السعى سبع مرات ، عادت الى اسماعيل ، فاذا الماء قد ظهر عند قدميه . فجعلت تخوضا فى فرح . وتغرف الماء فى سقائها ، وشربت وأرضعت وليدها . واذا بملك عند زمزم يقول لها : لاتخافى الضيعة فان هذا بيت الله الحرام.

---

(٢٦) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ١/١٠٣ ، تاريخ الطبرى ١/ ٢٥٢-٢٥٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١/١٥٤-١٥٥ ، تفسير الطبرى ٦٢/٣ ، ١٣/٢٣٠-٢٣٢ ، تفسير الفخر الرازى ١٩/١٣٦، تاريخ اليعقوبى ٢٥/١ ، شفاء الغـرام ٢/٣ ، تاريخ الخميس ص ١٠٦ ، تفسير روح المعانى ١٣/٢٣٦ ، المقدسى ٣/٦٠ ، الازرقى ١/٥٤ ، ٢/٣٩ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٣٦ ، مروج الذهب ٢/١٨ .

(٢٧) روى عن ابن عباس وغيره أن الله سبحانه وتعالى ، لو قال «افئدة الناس» ، ولم يقل «أفئدة من الناس» ، لازدحم عليهم الفـرس والروم والناس كلهم ، ولحجت اليهود والنصارى والمجوس ، ولكنه قال «من الناس» ، فاختص به المسلمون (تفسير ابن كثير ٢/٨٣٧ ، تفسـير روح المعانى ١٣/٢٣٨-٢٣٩ ، تفسير الفخر الرازى ١٩/١٣٧ ، تفسـير البيضاوى ١/٥٣٣ ، تفسير الطبرى ١٣/٢٣٣-٢٣٤ ، تفسـير القـرطبى ٩/٣٧٣ ، تفسير النسفى ٢/٢٦٤ .

(٢٨) يقول ابن قيم الجوزية فى زاد المعاد (١/٩) فى فضل مكة : وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص فى انجذاب الافئدة ، وهـوى القلوب وانعطافها ومجيئها لهذا البلد الامين ، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد .

(٢٩) سورة ابراهيم : آية ٣٧ .

يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وأن الله لا يضيع أهله»[٣٠] .

وهكذا كتب الله الرؤوف الرحيم لاسماعيل وأمه النجاة ، وكان السعى بين الصفا والمروة من شعائر الله ، وصدق عز من قال «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم»[٣١] ، ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله ، ﷺ ، «فلذلك سعى الناس بينهما» ، أى بين الصفا والمروة ، ولست أدرى : هل كان يدور بخلد جدتنا العظيمة أم اسماعيل ، عليهما السلام ، أن ملايين المؤمنين على مر السنين سوف يسعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، تخليدا لذكرى ما كان فى ذلك السعى من خير وبركة[٣٢] .

ويمر نفر من «جرهم» أو من العماليق ، على بعض الروايات ، بواد قريب من مكة ، ويعرفوا بذمر «زمزم» ثم لم يلبثوا الا قليلا حتى يعرضوا على السيدة هاجر أن يقيموا فى جوارها ، على أن يكون الماء ماءها ، فأذنت لهم ، وشب اسماعيل بينهم ، كما تزوج باحدى بناتهم[٣٣] ،

---

(٣٠) تفسير الطبرى ٦٩/٣ ، تفسير روح المعانى ٢٣٦/١٣ـ٢٣٧ ، تاريخ الطبرى ٢٥٣/١ـ٢٥٨ ، ابن الاثير ١٠٢/١ـ١٠٥ ، ابن كثير ١/١٥٥ ، تاريخ اليعقوبى ٢٥/١ ، ياقوت ١٤٨/٣ـ١٤٩ ، العقد الفريد ١٣٣/١ ، مروج الذهب ١٨/٢ ، تاريخ ابن خلدون ٣٦/٢ـ٣٧ ، المقدسى ٦٠/٣ـ٦٢ ، الازرقى ٥٤/١ـ٥٥ ، شفاء الغرام ٣/٢ـ٤ .

(٣١) سورة البقرة : آية ١٥٨ .

(٣٢) تفسير الفخر الرازى ١٣٦/١٩ ، تفسير الطبرى ٢٣٠/١٣ ـ ٢٣٢ ، تفسير القرطبى ٣٦٩/٩ (القاهرة ١٩٦٧) ، مروج الذهب ٤٦/٢ـ٤٧ ، العقد الفريد ١٣٥/١ ، شفاء الغرام ٤٦/٢ـ٤٧ ، تاريخ الخميس ص ١٠٦ ، الازرقى ٤٠/٢ ، محمود الشرقاوى : الانبياء فى القرآن ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٦٦ـ١٦٧ ، النجار : قصص الانبياء ص ١٠٥ .

(٣٣) تفسير البيضاوى ٥٣٣/١ ، تفسير الطبرى ٢٣٠/١٣ ، تفسير الالوسى ٢٣٧/١٣ ، تفسير القرطبى ٢٧٤/٩ ، مروج الذهب ٤٦/٢ـ٤٧ ، تاريخ الطبرى ٢٥٨/١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٥٥/١ ، الكامل فى التاريخ لابن الاثير ١٠٣/١ ـ ١٠٤ ، العقد الفريد ١٣٣/١ ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٤/٢ ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ص ١١٠ ، ابن قتيبة : المعارف ص ١٦ ـ ١٧ ، الهمدانى : الاكليل ٩٨/١ـ١٠٢ ، تاريخ ابن خلدون ٣٣١/٢ ـ ٣٣٢ .

وان زوجته التوراة بمصرية[٣٤] .

وأيا ما كان الامر ، فان ابراهيم الخليل عليه السلام ، ما كان ليترك ولده وزوجه دون أن يزورهما بين الحين والحين ، وفى احـدى هذه الزيارات يقـول ابراهيم لاسماعيل : يا اسماعيل ان الله قد أمرنى أن ابنى له بيتا ، فقال اسماعيل : فأطع ربك ، فقال ابراهيم : قـد أمرك أن تعيننى على بنائه ، قال : اذن أفعل ، فقام معه ، فجعل ابراهيم يبنيه واسماعيل يناوله الحجارة ، ثم قال ابراهيم لاسماعيل : ائتنى بحجر حسن اضعه على الركن ، فيكون للناس علما ، وذهب اسمعيل يلتمس لأبيه حجرا ، فأتاه به ، ولكنه وجده قد ركب الحجر الاسود فى مكانه ، فقال : يا أبت من أتاك بهذا الحجر ، فقـال : أتانى به من لم يتكل على بنائك ، أتانى به جبريل من السماء[٣٥] .

وهكذا بنى ابراهيم واسماعيل عليهما السلام الكعبة المشرفة . بيتا لله تعالى ، ليكون رمزا للحقيقة الكبرى فى الوجود . حقيقة التوحيد . توحيد التوجه الى الله الواحد الاحد ، وتضرع خليل الرحمن ودعا ربه: وأمن اسماعيل ، أن يجعل الله أفئدة من الناس تهوى الى ذريته فى جوار هذا البيت المحرم[٣٦] «ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهـوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون»[٣٧] .

واذا كان صحيحا ما ذهب اليه بعض المؤرخين من أن اسمعيل عليه

---

(٣٤) تكوين ٢١/٢١ .

(٣٥) تاريخ الطبرى ٢٥٠/١ ـ ٢٦٠ ، تفسير الطبرى ٦٦/٣ ـ ٧٠ ، ابن الاثير ١٠٦/١ ، ابن كثير ١٥٦/١ ، ١٦٣ـ١٦٦ ، الازرقى ٥٨/١ـ٦٥، تفسير القرطبى ١٢٢/٢ ، مروج الذهب ٢٢/٢ ، ثم قارن : تاريخ اليعقوبى ٢٧/١ .

(٣٦) محمد الصادق عرجون : محمد ﷺ من نبعته الى بعثته ص١٧ .

(٣٧) سورة ابراهيم : آية ٣٧ ، وانظر : تفسير الطبرى ٢٢٩/١٣ـ ٢٣٥ ، تفسير الكشاف ٣٨٠/٢ ، تفسير ابن كثير ٨٣٧/٢ ، فى ظلال القرآن ٢١٠٤/٤ ـ ٢١١٠ ، الدر المنثـور فى التفسـير بالمأثور ٨٦/٤ ـ ٨٧ ، تفسير النسفى ٢٦٣/٢ـ٢٦٤ ، تفسير القرطبى ٣٦٨/٩ـ٣٧٤ ، صفـوة التفاسير ١٠٠/٢ .

السلام ؛ كان فى الثلاثين من عمره ؛ يوم أمر الله عز وجل ابراهيم ببناء الكعبة ، فان بناء الكعبة يكون قد تم فى حوالى ١٨٢٤ قبل الميلاد على أساس أن اسماعيل قد ولد فى عام ١٨٥٤ ق٠م ؛ لانه قد ولد لأبيه ابراهيم وهو فى السادسة والثمانين من عمره ، وأن ابراهيم قد عاش فى الفترة (١٩٤٠ ــ ١٧٦٥ ق٠م) ، ولما كان اسماعيل قد عاش مائة وسبع وثلاثين سنة ، فانه يكون قد انتقل الى الرفيق الاعلى فى حوالى ١٧١٧ قبل الميلاد ، وبالتالى فقد عاش فى الفترة (١٨٥٤ ــ ١٧١٧ق٠م)(٣٨)٠

هذا وقد خلد القرآن الكريم بناء الكعبة المشرفة فى قوله تعالى «ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ٠ فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ؛ ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا»(٣٩) ٠ ولعل فى هذه الآيات الكريمة اشارة الى أن الحج الى البيت الحرام على المستطيع انما هو استمرار لغرض الهى قديم ٠ معترف به من الناس ٠ وممارس من بعضهم ٠ فهو أول بيت وضع للناس(٤٠) ٠ فيه الهدى ؛ وفيه البركة ٠ وفيه الخير الكثير ، وهو من بناء ابراهيم بما فيه من علامات هى «مقام ابراهيم» وان من دخله كان آمنا، ويلفت النظر ما كلمة «الناس» فانها انما تدل على أن الحج انما كان على الناس كافة(٤١) ، كما تدل كلمة «العالمين» على أن الكعبة البيت الحرام ٠ انما هو هداية للبشرية جمعاء ٠

---

(٣٨) المسعودى : مروج الذهب ٢٢/٢ ؛ محمد بيومى مهران : اسرائيل ٨١/١ ، تكوين ٤/١٢ ، ٧/٢٥ ، ١٧ ــ ١٨ ٠

(٣٩) سورة آل عمران : آية ٩٦ـ٩٧ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٥٧٢/١ ــ ٥٧٨ ، تفسير القرطبى ١٢٧٩ـ١٣٩٦ ، تفسير المنار ٢/٣ـ١٢؛ صفوة التفاسير ٢١٨/١ـ٢١٩ ، تفسير الكشاف ٢٩٦/١ـ٢٩٧ ، تفسير النسفى ١٧٠/١ـ١٧٢ ، تفسير الطبرى ١٩/٧ـ٢٥ ، فى ظلال القرآن ١/ ٤٣٤ ــ ٤٣٦ ٠

(٤٠) هناك رواية تنسب الى الامام على بن ابى طالب ، رضى الله عنه وكرم الله وجهه فى الجنة مؤداها : ان رجلا سأله : اهو أول بيت ، فقال : لا ، قد كان قبله بيوت ، ولكنه أول بيت وضع للناس (اى الناس كافة) مباركا ، فيه الهدى والرحمة والبركة (أنظر : محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١٩٦/١) ٠

(٤١) أحمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص ١٧٣ ، وأنظر : تفسير المنار ٦/٤ـ١٤ ، تفسير ابن كثير ٥٧٢/١ـ٥٧٨ ٠

وهكذا ما أن نرى ابراهيم عليه السلام يفرغ من بناء البيت . حتى يأمره الله ، جل وعلا ، أن يؤذن فى الناس بالحج ، يقول تعالى «وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق»(٤٢) وهنا يروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف ، أن ابراهيم قال : يارب وما يبلغ صوتى ، قال : أذن وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه أو على الحجر أو على الصفا أو على أبى قبيس وقال : أيها الناس ان الله قد كتب عليكم الحج الى البيت العتيق فحجوه، فسمعه ما بين السماء والارض وما فى أصلاب الرجال وأرحام النساء . وأجابه من آمن ممن سبق فى علم الله أن يحج الى يوم القيامة:فأجيب «لبيك اللهم لبيك» .

وخرج ابراهيم باسماعيل ومن معه من المسلمين الى التروية . فنزل بهم «منى» فصلى بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة . ثم بات حتى أصبح فصلى بهم الفجر ، ثم سار الى عرفة فأقام بها هناك . حتى اذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين ، الظهر والعصر . ثم راح الى الموقف من عرفة ، الذى يقف عليه الامام ، فوقف به على الاراك ، فلما غربت الشمس دفع بهم حتى أتى « المزدلفة » فجمع بين الصلاتين . المغرب والعشاء الآخرة ، ثم بات بهم ، حتى اذا طلع الفجر صلى الغداة ، ثم وقف على قزح حتى اذا أسفر دفع بهم يريهم ويعلمهم كيف يصنعون ، حتى رمى الجمرة ، وأراه المنحر ، ثم نحر وحلق ، وأراه كيف يطوف حول البيت ، ثم عاد بهم الى منى ليريهم كيف رمى الجمار ، حتى فرغ من الحج ، وقد روى عن النبى ، ﷺ . أن جبريل هو الذى أرى ابراهيم كيف يحج(٤٣) .

٤ ـ الكعبة بعد ابراهيم واسماعيل :

ظلت الكعبة بعد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، حرما آمنا

(٤٢) سورة الحج : آية ٢٧ .

(٤٣) تفسير الطبرى ٣/٧٦-٨٠ ، تفسير القرطبى ٢/١٢٨ ـ ١٣٠ ، تاريخ الطبرى ١/٢٦٠-٢٦٢ ، الكامل لابن الاثير ١/١٠٧ ، تاريخ اليعقوبى ١/٢٧ ، الازرقى ١/٦٦ ـ ٧٢ .

يقدسه العرب ، على أنه البيت الحرام الذى بناه أبوهم ابراهيم وولده اسماعيل،ثم ما لبثت هذه القداسة أن امتدت الى مكة المكرمة ومجاوراتها بل ان «ابن الكلبى» ليرى أنه كان لا يظعن عن مكة ظاعن ، الا وقد حمل معه حجرا من حجارة الكعبة تعظيما لها ، وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمنا منهم بها ، وصبابة بالحرم، وحباله ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون ، على ارث أبيهم اسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار(٤٤) .

ويروى الاخباريون أن المكيين انما كانوا يعظمون البيت ويقدسونه، حتى أنهم كانوا يرون أن من علا الكعبة من العبيد فهو حر ، حتى لايجمع بين عز علوها وذل الرق(٤٥) ، على أن هذه القداسة للبيت الحرام لم تكن مقصورة على المكيين وحدهم . وانما امتدت الى سائر العرب الذين كانوا يشدون الرحال من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية الى مكة فى مواسم معينة ؛ ليحجوا الى البيت الحرام ، ليشهدوا منافع لهم فى الاسواق التجارية ، التى كانت تعقد فى موسم الحج كل عام .

ويمضى حين من الدهر ، ويؤول أمر الكعبة الى «جرهم» ، غير أن العماليق ، فيما يروى الاخباريون ، قد نازعوهم فى الامر ، ثم سرعان ما ينشب القتال بين الفريقين ، ولا تضع الحرب أوزارها حتى تكون الغلبة للعماليق ، غير أن «جرهم» ما لبثت أن استعادت نفوذها من جديد ، حيث بقى الامر فيها قرابة قرنين — وربما ثلاثة — عادت بعدها الى بنى أسماعيل ، ثم انتزعته منهم «خزاعة» بعد حرب دارت رحاها بين اياد ومضر ، وهكذا بقى الامر فى «خزاعة» الى أيام «عمرو بن الحارث» فانتزع منه «قصى بن كلاب» الملك وأمر الكعبة معا(٤٦) .

---

(٤٤) ابن هشام ٥١/١ ، العقد الفريد ١٣٦/١ ، نهاية الارب ١/ ٢٤٥ ، ثم انظر كتاب الاصنام لابن الكلبى .
(٤٥) الثعالبى : ثمار القلوب ص ١٨ .
(٤٦) تاريخ الطبرى ٢٨٤/٢ ، تاريخ اليعقوبى ٢٢٢/١ ، تاريخ ابن خلدون ٣٣٢/٢-٣٣٥ ، مروج الذهب للمسعودى ٢٢/٢-٢٤ ،الازرقى ٨٢/١-٨٧ ، شفاء الغرام ٤٨/٢-٥٤ .

وأيا كان نصيب هذه الروايات من صواب أو خطأ ، فان هناك اجماعا على أن «عمرو بن لحى» كان أول من أدخل عبادة الاصنام الى الكعبة ، ومن ثم فقد غير دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ودعا العرب الى عبادة الاوثان ، روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : رأيت عمرو بن لحى يجر قصبة فى النار ، وكان أول من سيب السوائب» ، وتضيف رواية أخرى «وهو أول من غير دين ابراهيم عليه السلام»(٤٧) .

وهكذا لعبت أيدى الوثنية الخبيثة بدين ابراهيم الحنيف ، واصابت النكسة عقيدته السمحاء ، التى قضى عمره يرفع لواءها فى كفاح طويل وجهاد موصول ، فحطم الاصنام وتحدى الجبابرة ، وهكذا انقلب القوم الى عبادة الاصنام ، وجهلوا سر الفداء ، وسر البقاء ، وبدأ عصر الوثنية وتقديس الاصنام ، الى درجة أن الرجل منهم كان يأخذ معه فى أسفاره أى حجر من أحجار الكعبة يصلى اليه ، ويستأذنه فى الاقامة والسفر . ويؤدى اليه كل ما يؤدى للنجوم وخالق النجوم من طقوس العبادة ، ومن ثم فقد استقرت الوثنية وقدست التماثيل ، وقدم العرب لها القرابين(٤٨) .

ومع ذلك فلم يكن القوم شديدى الايمان بأصنامهم ، حتى أن العرب كانت اذا حجت الى الكعبة ، سألت قريشا عن تلك الاصنام ، فكانوا يقولون لهم : انما نعبدها لتقربنا الى الله زلفى ، والى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى «والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى»(٤٩) ، وفى هذا اشارة الى أن القوم انما كانوا يعتقدون بوجود الله . ولكنهم كانوا يخلطون ايمانهم هذا بعبادة الاصنام

---

(٤٧) صحيح البخارى ١٨٤/٤ ، ٥٤/٦-٥٥ ، فتح البارى ٣٩٨/٦-٤٠٠ ، ٢١٣/٨ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٢٣٣-٢٣٥ (بيروت ١٩٨٣) ، العقد الثمين فى تاريخ البلد الامين للفاسى ١٣٦/١ ، شفاء الغرام للفاسى ٢١/٢، ٤٦-٤٧ ، ابن دريد : الاشتقاق ٤٧٤/٢ ، الديار بكرى : تاريخ الخميس ص ١٢٤ ، المسعودى : مروج الذهب ٢٩/٢-٣٠ ، تفسير روح المعانى ١٩٧/٧ .

(٤٨) ابن كثير : البداية والنهاية ١٩١/٢-١٩٢ ، الازرقى : أخبار مكة ١٢٣/١ ، ابن الكلبى : كتاب الاصنام ص ٣٢ .

(٤٩) سورة الزمر : آية ٣ .

واتخاذ الاولياء والشفعاء لتقربهم الى الله زلفى[٥٠] . هذا الى أن قريشا انما كانت تلبيتها عند الكعبة «لبيك اللهم لبيك : لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك،تملكه وما ملك»[٥١]،هذا فضلا عن قلة احتفاء الجاهليين بتلك الأوثان والاصنام التى لا نجد لها ذكرا ، الا فى مناسبات معينة ، كما أنها لم تحل عند القوم محل «الله» ، كما اتفق عند غير العرب ، وعند غير الساميين على الاخص[٥٢] .

وايا ما كان الامر ، فان الأساس الذى قامت عليه مكانة الكعبة ، أن البيت الحرام بجملته كان هو المقصود بالقداسة غير منظور الى الاصنام والاوثان التى اشتمل عليها ، وربما اشتمل على الوثن تقدسه بعض القبائل ، وتزدريه قبل اخرى ، فلا يغض ذلك من مكانة البيت عند المعظمين والمزدرين ، واختلفت الشعائر والدعاوى التى يدعيها كل فريق لصنمه ووثنه : ولم تختلف شعائر البيت ، كما يتولاها سدنته المقيمون الى جواره والمكلفون بخدمته : فكانت قداسة البيت هى القداسة التى لا خلاف عليها بين أهل مكة وأهل البادية ، وجاز عندهم ، من ثم ، أن يحكموا بالضلالة على أتباع صنم معلوم . ويعطوا البيت غاية حقه من الرعاية والتقدير[٥٣] .

وعلى هذا فقد كان يتفق فى موسم أن يجتمع حول البيت اناس من العرب ، يأخذون بأشتات متفرقة من المجوسية واليهودية والمسيحية وعبادات الامم الاخرى . ولا يجتمع منها دين واحد يؤمن به متعبدان على نحو واحد : وما من كلمة من كلمات الفرائض لم تعرف بين عرب الجاهلية بلفظها وجملة معناها ، كالصلاة والصوم والزكاة والطهارة ، ومناطها كلها أنها حسنة عند رب البيت أو عند الله تعالى[٥٤] .

---

(٥٠) أنظر : سورة الانعام : آية ١٤٨ ، سورة النحل : آية ٣٥ ، سورة الزمر : آية ٣ .

(٥١) تاريخ اليعقوبى ٢٥٥/١ ، ابن حبيب : كتاب المحبر ص٣١١ .

(٥٢) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ١٥٩ .

(٥٣) العقاد : مطلع النور ص ١١٥ .

(٥٤) نفس المرجع السابق ص ١١٦ .

وظلت «خزاعة» تتولى شئون الكعبة ، حتى نجحت قريش آخر الامر فى انتزاع القيادة منها ، وهكذا آل أمر الكعبة الى قريش مرة أخرى على يد «قصى بن كلاب» — الجد الرابع لسيدنا ومولانا رسول الله ، ﷺ — وأصبحت مكة مركزا للحياة الدينية فى شبه الجزيرة العربية بسبب وجود الكعبة فيها ، فضلا عن أنها انما كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال . وبين الشرق والغرب .

وقد عملت قريش على توفير الامن فى منطقة مكة . وهو أمر ضرورى فى بيئة تغلى بالغارات وطلب الثأر ، حتى يكون البيت الحرام ملاذ للناس وأمنا . وحتى يجد فيه من تضيق به الحياة ويتعرض للثأر ، الامن والحماية . ولعل هذا هو السبب الذى جعل قريشا تنشد الحفاظ على حرمة الاشهر الحرم فى موسم الحج ، حتى يأمن الناس فيه على أنفسهم وأموالهم[٥٥] .

ولم تكتف قريش بذلك ، وانما عملت أيضا على توفير الماء والطعام للحجيج فى منطقة يشح فيها الماء . ويقل الطعام ، ومن ثم فقد قامت بحفر الآبار فى منطقة مكة ، وأنشأت أماكن للسقاية ، ثم أوكلت سقاية الحاج الى البطون القوية منها[٥٦] . حتى غدت سقاية الحاج . بجانب عمارة البيت وسدانته ، عملا يراه القوم فى قمة مفاخرهم ، والى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى «أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله»[٥٧] .

وكانت ضيافة الحجيج عملا جليلا كالسقاية ، وقد أسندتها قريش الى الاغنياء من رجالاتها ، لان قدوم الحجاج من أماكن بعيدة من شبه الجزيرة العربية ، يصعب معه حمل الزاد ، ومن ثم فقد كانت الرفادة

---

(٥٥) محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم ص ١٩٧-٢١٠ .
(٥٦) ابن هشام : سير النبى ﷺ ١/١٥٩-١٦٢ .
(٥٧) سورة التوبة ، وانظر : تفسير الطبرى ١٤/١٦٨ - ١٧٣ ، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٣/٢١٨ ، تفسير القرطبى ٨/٩١-٩٢ ، تفسير المنار ١٠/٢١٥-٢٢٠ .

تكلف أصحابها الكثير من أموالهم ، بجانب ما تقدمه قريش لهم ، غير أن هذا الامر فى الوقت ذاته ، قد أفاد قريشا كثيرا ، اذ كانت المؤاكلة فى عرف العرب ، انما هى عقد جوار وحلف ، فضلا عن أن الضيافة فى ذاتها من أكبر ما يحمد الرجل عليه ، وهكذا كانت قريش بعملها هذا ، وكأنها تعقد حلفا مع كل القبائل العربية ، تحمى به تجارتها،وتسبغ على رجالاتها نوعا من التقدير والاحترام عند العرب لا يتوفر لغيرهم(٥٨) .

وخطت قريش خطوة أخرى فى اجتذاب القبائل العربية الى مكة ، فنصبت أصنام جميع القبائل عند الكعبة فكان لكل قبيلة أوثانها ، تقدم فى الموسم لزيارتها وتقديم القرابين لها ، وزاد عدد الاصنام عند الكعبة على ثلاثمائة صنم ، فيهـــا الكبير والصغير ، ومنها ما هــو على هيئة الآدميين أو على هيئة بعض الحيوانات أو النباتات ، وكان أكبر الاصنام «هبل» فى صورة انسان من عقيق أحمر(٥٩) .

وهكذا تمضى الايام ، وتزداد مكانة الكعبة عند العرب الجاهليين ؛ حتى تصبح آخر الامر المفخرة القومية ، والحرم الالهى عندهم ، ثم تغدو بعد حين من الدهر ، الجوار الوحيد الذى يشعـــر العرب عنده بشعور العروبة الموحدة ، عالية الرأس ، غير مستكينة لاجنبى كائنا من كان ، ذلك لانهـــم كانوا يحسون أنهم من رعـــايا الروم فى الشام ومن رعايا الفرس فى الحيرة ، وأتباع للحبشة أو الفرس فى اليمن ، ولكنهم هنا — فى مكة عند بيت الله — فى حرم الله ، يقدسونه جميعا ، لانه لهم جميعا ، يضمهم اليه كما يضم أوثانهم وأصنامهم وأربابهم ، يلوذون به ويأوون اليه ؛ فكلهم من معبود وعابد فى حمى الكعبة ، لانهم فى بيت الله، وشعورهم هنا ، بأنهم «عرب» لم يماثله شعور قط فى كل أنحاء الجزيرة العربية ، وقد أوشك هذا الشعور أن يشمل شعب اليمن وجمهرة أقوامه،

---

(٥٨) ابن هشام ١٤٧/١ ، ابن سعد ٥٨/١ .

(٥٩) السهيلى : الروض الانف ٢٧٦/٢ ، تاريخ اليعقوبى ٢٥٤/١—٢٥٥ ، الازرقى ١٢٠/١—١٢١ ، جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ٣٧/١ ، جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ابن الكلبى : كتاب الاصنام ص ٢٧—٢٨ ، وكذا E. Gibbon, op-cit, p. 225.

على الرغم من سادته وحكامه ، فما كان هـؤلاء الحكام لينفسوا على الكعبة مكانتهـا ، ويقيموا لها نظـيرا فى أرضهم ، لو كان شعب اليمن منصرفا عنها غير معتز بها ، كاعتزاز البادية والصحراء[٦٠] .

٥ ـ المحاولات الفاشلة لهدم الكعبة :

من البدهى أن هذه المكانة الفريدة للكعبة المشرفة عند العرب ، انما هى التى دفعت بأصحاب السلطان والقوة فى تلك الايام لمحاولة هـدم الكعبة[٦١] ؛ أو على الاقـل انضوائها تحت لوائهم ، وطبقـا لرواية الاخباريين ، فلقد جاءت المحاولة الاولى من اليمن ، وقد قام بها «تبان أسعد أب كرب» ، ثم كانت الثانية من اليمن أيضا ، وقد قام بها «حسان بن عبد كلال» ، حين أقبل «فى حمير وقبائل من اليمن عظيمة ، يريد أن ينقل أحجار الكعبة من مكة الى اليمن ، ليجعل حج البيت عنده فى بلاده»، وهناك عند «نخلة» خرج له القرشيون ، بقيادة فهـر بن مالك ، حيث دارت بين الفريقين معركة ضارية ، كان النصر فيها من نصيب قريش ، والهزيمة ، بل والاسر كذلك فى مكة ثلاث سنوات ، من نصيب حسان بن عبد كلال[٦٢] .

وكانت المحاولة الثالثة فى القرن الاول قبل الهجرة الشريفة (القرن السادس الميلادى) وذلك حين بنت غطفان حرما كحرم مكة ، ثم حاولت أن تصرف العرب اليه ، غير أن سيدا من سادات العـرب رفض ذلك ، وقال : «لا والله لا يكون ذلك أبدا وأنا حى» ، واتبعه قومه حين قـال لهم : «ان أعظم مأثرة ندخرها عند العرب أن نمنع غطفان من غرضها»، وقاتل غطفان وأبطل حرمهم[٦٣] .

(٦٠) العقاد : المرجع السابق ص ٢١٠ .
(٦١) أنظر هذه المحاولات (محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ الجزء الاول ص ٢١١ـ ٢٢١) .
(٦٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٦٣/٢ـ١٦٤ ، تاريخ الطبرى ٢٦٢/٢ـ٢٦٣ ، الهمدانى : الاكليل ٣٥٧/٣ـ٣٥٩ ، جواد على ٥١٤/٢ـ٥١٥ ، تاريخ ابن خلدون ٥/٢ ، مروج الذهب ٨٢/١ ، تاريخ اليعقوبى ١٩٧/١ـ١٩٨ ، الازرقى ١٣٢/١ـ١٣٤ ، جواد على ٥٨٥/٢ .
(٦٣) محمد حسين هيكل : فى منزل الوحى ص ٤١٥ .

وأما رابعة المحاولات ، فكانت تلك التى قام بها «أبرهة الحبشى» فى حملته المشهورة على مكة المكرمة والمعروفة بحملة الفيل[٦٤] ، واليهما يشير القرآن الكريم فى سورة الفيل ، يقول تعالى «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول» ، وفى هذا العصف المأكول كان أبرهة نفسه ، فضلا عن القضاء على جيشه قضاء مبرما[٦٥] .

وفكر الرومان والبيزنطيون ــ كمحاولة خامسة ــ فى ضرب مكة من داخلها ، بعد أن فشلت كل جهودهم فى الاستيلاء عليها ، سواء عن طريق نشر النصرانية فى بلاد العرب أو عن طريق حملة أبرهة الحبشية النصرانية ، ومن ثم فقد اختار قيصر ، عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ، ليكون ملكا على مكة من قبله ، وكتب له رسالة يبلغها قومه، ومن ثم فقد عاد عثمان الى مكة ، فجمع القوم اليه يرغبهم فى حسن الجزاء من قيصر ، وينذرهم بسوء العاقبة فى الشام ، ان هم عصوه ، وأهون ما هنالك أن يغلق أبواب بلاده فى وجوههم ، وهم يذهبون اليها ويعودون منها كل عام ، يقول عثمان بن الحويرث : «يا قوم ، ان قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده ، وما تصيبون من التجارة فى كنفه ، وقد ملكنى عليكم ، وأنا ابن عمكم وأحدكم ، وانما آخذ منكم الجراب من القرظ ، والعكة من السمن والاوهاب ، فأجمع ذلك كله ، ثم أذهب اليه ، وأنا أخاف ان أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام ، فلا تتجروا به ، وينقطع

---

(٦٤) أنظر محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ٣٨٨/١ ــ ٤١٠ .

(٦٥) أنظر عن حملة ابرهة على مكة : سورة الفيل ، تفسير الطبرى ١٩٢/٣٠ــ١٩٣ ، تفسير القرطبى ص ٧٢٧٧ــ٧٢٩٠ ، تفسير روح المعانى ٢٣٣/٣٠ــ٢٣٧ ، تفسير البيضاوى ٥٧٦/٢ ، تفسير الكشاف ٢٨٨/٣ ، تفسير ابن كثير ٨٧٤/٤ ــ ٨٨٠ ، فى ظلال القرآن ٣٩٧٤/٦ــ٣٩٨١ ، صفوة التفاسير ٦٠٤/٣ــ٦٠٥ ، تفسير النسفى ٣٧٦/٤ــ٣٧٧ ، صحيح مسلم ١١٠/٤ ، صحيح البخارى ٣٨/١ ، تاريخ الطبرى ١٣٠/٢ــ١٣٩ ، ابن الاثير ٤٤٢/١ــ٤٤٧ ، البيهقى : دلائل النبوة ٥٦/١ــ٥٧ .

مرفقكم منه))(٦٦) •

وليس من شك فى أن هذه المحاولة الرومية السياسية انما عرضها ، كما هو ظاهر ، غرض تلك المحاولة الحبشية العسكرية ، وأن المحاولتين قد فشلتا ، وبقيت مكة بكعبتها المشرفة — كما أراد الله تعالى — حرما آمنا للعرب ، وغير العرب ، وبذلت قريش فى المحاولتين جهدها ، لاخفاق الواحدة تلو الاخرى ، وليس هناك من ريب فى أن الله انما كان أشد خطرا ، وان دفعت فى الثانية ببعض رجالها ، يقضون فى سجون القيصر بفترة لا ندرى مداها على وجه التحقيق ، ثم سرعان ما عادت الامور الى سيرتها الاولى(٦٧) •

٦ — الكعبة قبيل الاسلام :

لعل أهم ما يميز هذه الفترة من تاريخ الكعبة المشرفة أمران،الواحد : اعادة حفر زمزم ، والاخر اعادة بناء الكعبة نفسها ، وأما الامر الاول ، فان المصادر العربية انما تروى أن عبد المطلب ، جد النبى ﷺ ، قد لقى الكثير من العناء فى توفير الماء للحجيج عندما تولى أمر السقاية والرفادة وذلك بسبب دفن زمزم ، ربما منذ أيام جرهم ، وزاد الامر صعوبة أن مكة كانت وقت ذاك تمر بفترة قاسية ندرت فيها الامطار ، وجفت مياه الابار ، أو كادت ، فى وقت كان موسم الحج قد بدأت فيه طلائعه •

وهنا رأى عبد المطلب ، فيما يرى النائم ، أنه يؤمر بحفر طيبة،وحين يسأل عن طيبة هذه لا يتلقى جوابا ، غير أن الرؤيا تتكرر ليال ثلاث، يؤمر فيها عبد المطلب بحفر ((برة)) ثم بحفر((المضنونة)) ثم بحفر ((زمزم)) ثم يحدد له مكانها ، ويتم الحفر ، ويقبل الحجيج على بئر زمزم تبركا

---

(٦٦) العقاد : المرجع السابق ص ١١٤ — ١١٥ ،محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ١٢٧—١٢٨ ، ابن هشام ٢٢٤/١ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ١١٨ ، السهيلى : الروض الانف ١٤٦/١ ، الاغانى ١١٢/٣ •

(٦٧) أحمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص ١٦٢—١٦٣ ، السهيلى : الروض الانف ١٤٦/١ ، وكذا
W. M. Watt, Muhammad at Mecca, Oxford, 1953, p. 16.

بها ورغبة فيها ، ثم أعرضوا عما سواها من الابار ، وذلك لمكانة زمزم فى المسجد الحرام ، ولفضلها على ما سواها من المياه ، ولانها بئر أبيهم اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام[٦٨] .

وأما الامر الثانى ، فهو اعادة بناء الكعبة ، والذى يجمع المؤرخون على أنه قد تم ، وسيدنا رسول الله ﷺ ، فى الخامسة والثلاثين من عمره (حوالى عام ٦٠٥م أو ٦٠٦م) ، وأن القرشيين انما كانوا يصرون على بنائها من كل طيب ، ومن ثم فقد نسب الى الوليد — أو الى أبى وهب — أنه قال «يا معشر قريش لا تدخلوا فى بنيانها من كسبكم الا طيبا ، ولا تدخلوا فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس» .

وبدأ البنيان يرتفع ، حتى اذا ما وصلوا موضع الركن (الحجر الاسود) اختلفت بطون قريش على من يحوز شرف اعادة الحجر الاسود الى مكانه ، وكاد القتال أن ينشب بين القوم ، وأخيرا اتفقوا على تحكيم أول من يدخل المسجد ، وكان النبى ، ﷺ ، أول من دخل ، فلما رأوه قالوا : «هذا الامين قد رضينا به» ، فقال ، ﷺ ، «هلموا الى ثوبا فأتى به ، فأخذ الحجر فوضعه فيه ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ، ففعلوا ، فلما بلغوا به موضعه وضعه بيده، ثم بنى عليه» . وهكذا نجح سيدنا رسول الله ﷺ فى أن يجنب قومه القتال ، وأن يعيد الامن والسلام بينهم ، وبدهى أن ذلك انما يدل على مكانة الحجر الاسود عند قريش ، وعلى أنه كان أقدس شىء عندهم . ومن هنا كان الخلاف بينهم على من يحوز شرف وضعه فى مكانه ، بينما لم يكن الامر كذلك على غيره من مقتنيات الكعبة المشرفة[٦٩] .

هذا وقد بقيت هذه المكانة السامية للحجر الاسود حتى على أيام

---

(٦٨) انظر : محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم — الرياض ١٩٨٠ — الجزء الاول ص ٢٢١ — ٢٢٣ .

(٦٩) نفس المرجع السابق ص ٢٢٣ — ٢٢٧ .

الاسلام الحنيف ، ويروى أن سيدنا رسول الله ، ﷺ ، حين كان يطوف بالبيت الحرام ، كان يستلم الحجر الاسود ويقبله ، وان كانت مكانة الحجر الاسود فى الاسلام غيرها فى الجاهلية ، فقد روى الامام أحمد والبخارى أن سيدنا رسول الله ﷺ ، وقف عند الحجر الاسود فقال «انى أعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر» ثم قبله ، وكذلك فعل أبو بكر الصديق عند حجه بالناس ، ولما حج عمر بن الخطاب وقف عند الحجر — فيما يروى الامام أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم — قال : «انى لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ، ولولا أنى رأيت رسول الله ، ﷺ ، يقبلك ما قبلتك» ثم قبله(٧٠) •

وعلى أى حال ، فما أن فرغ المكيون من بناء الكعبة حتى أعادوا اليها الاصنام ، ويروى المسعودى أنه كان فى حيطانها صور كثيرة بأنواع من الاصباغ عجيبة ، منها صورة ابراهيم الخليل فى يده الازلام ، ويقابلها صورة اسماعيل ولده على فرس يجيز الناس مفيضا ، وبعد ذلك صور لكثير من أولادهما ، حتى «قصى بن كلاب» فى نحو من ستين صورة مع كل واحدة «اله» يصاحبها كيفية عبادته وما اشتهر من فعله ،هذا الى جانب ما فيها من أصنام بلغ عددها ٣٦٠ صنما ، بل ان البعض انما يذهب الى أن فيها صورا للمسيح ابن مريم وأمه ، فاذا كان ذلك كذلك ، فلابد أن تكون هذه الاخيرة من عمل نصارى الروم ، وان اعترض البعض على وجود صور للانبياء فى الكعبة ، فما للوثنية — فى رأى هذا البعض — والانبياء ، وما شأن الشرك بمريم وابنها وبقية الرسل حتى ترسم صورها على أعمدة أو جدران البيت الحرام فى البلد الحرام •

والرأى عندى أن صور الانبياء فى الكعبة يمكن تقسيمها الى قسمين الواحد : يتصل بابراهيم واسماعيل عليهما السلام وهما جدا العرب ، وبناة البيت الحرام ، فوجود صور لهما فى الكعبة — وقد امتلأت

---

(٧٠) صحيح البخارى ١٨٥/٢ـ١٨٦ ، صحيح مسلم ١٣/٩ـ١٧ ، سنن أبى داود ٤٣٣/١ ، السيرة الحلبية ٣١٤/٣ـ٣١٥ ، تفسير المنار ٤٦٧/١ ، الازرقى : اخبار مكة ٣٢٢/١ـ٣٢٤ ، ٣٢٩ـ٣٣٠ •

بالاصنام — أمر لا يخالف المنطق ، مادام هـؤلاء القرشيون يؤمنون بأبوة الخليل ، وأنه هو اسماعيل — قد رفعا القواعد من البيت .

والثانى : يتصل بالمسيح وأمه البتول عليهما السلام . وصورهما . فيما أظن : تتصل بأمرين : الواحـد أن قريشا انما سمحت للنـاس بالطواف حول الكعبة ، وأن يضعوا أصناما لمعبوداتهم فيها ؛ والثانى أن الاخباريين يذهبون الى أن «باقوم» الرومى هو الذى أشرف على بناء الكعبة (عام ٦٠٦م) وهندستها ، ومن ثم فليس من المستبعد أن يكـون الرجل ، وهو نصرانى ، قد قام برسم تلك الصور بمفرده أو بمساعدة من كانوا معه من نصارى الروم ؛ ولم يجد عمله هذا اعتراضا من قريش، لان ذلك لا يتنافى وعقيدتها فى أن البيت لله،يتعبد فيه الناس لالهتهم(٧١) .

وأيا ماكان الامر . فلقد بقى الحسان فى الكعبة حتى العـام الثامن للهجـرة . حيث أكرم الله تعالى رسوله والمؤمنين بفتح مكة فى رمضان ٨ هـ (ديسمبر ٦٣٠) ؛ فقام المسلمون بتحطيم الاصنام . ويروى أن النبي . ﷺ . رأى صورة ابراهيم . وهو يستقيم بالازلام . فقـال : قاتلهم الله . جعلوه شيخا يستقسم بالازلام . وفى صحيح البخـارى عن ابن عباس . أن رسول الله ، ﷺ : لما قدم مكة ، أبى أن يدخل البيت وفيه الالهـة ، قال : فأمـر بها فأخرجت : فأخرجـوا صورة ابراهيم واسماعيل فى أيديهما الازلام : فقال رسول الله ﷺ : قاتلهم الله ؛ أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط»(٧٢) . ثم حكم رسول الله .

---

(٧١) صحيح مسلم ١٧٣/٥ ، ارشاد السارى ٢١٠/٧ ، الفـاسى : شفاء الغرام ٢٨٠/٢ ، العقد الثمين ٢١٢/١ ، الازرقى ١٢٠/١-١٢٣ ، بلوغ الارب ٢١١/٢ ، جواد على ٤٣٥/٦-٤٣٩ ، الازرقى ١٦٥/١-١٦٨، المسعودى : مروج الذهب ٢٧٢/٢ .

(٧٢) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد فى هـدى خير العباد ٢٩٦/٢ (بيروت ١٩٨٥) ، صحيح البخارى ٢٧٥/٣-٣٧٦ ، سنن ابى داود ٤٦٧/١ ، السهيلى : الروض الانف ٢٧٤/٢-٤٧٦ ، صحيح مسلم ١٧٣/٥ ، ارشاد السارى ٢١٠/٧ ، السيرة الحلبية ١٤٤/١ ، ٨٧/٣ ، الفاسى : العقد الثمين ١٥٧/١ ، ٢١٢ ، ابن الكلبى : الاصنام ص ٣١ - ٣٣ ، الازرقى : أخبار مكة ١٦٨/١-١٦٩ .

ﷺ كل التماثيل والصور ، وهو يقول «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا»(٧٣) .

وفى ثانى يوم الفتح ، خطب النبى ﷺ ، خطبته المشهورة التى وضع فيها مآثر الجاهلية ، الا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ثم قال : يا أهل قريش . ويا أهل مكة ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء» . وهكذا أعتقهم رسول الله ، ﷺ ، وكانوا له فيئا ، ومن ثم فقد سمى سكان مكة يوم الفتح «بالطلقاء» ، ثم أعلن رسول الله ، ﷺ ، أن مكة سوف تبقى حرما آمنا لا يقاتل فيها ، وأن تكون الكعبة هى بيت الله الحرام ، يحج اليها العرب حتى المشركون منهم(٧٤) .

وفى العام التسع للهجرة (٦٣٠/٦٣١م) — عام الوفود — بقى المصطفى ، ﷺ ، فى المدينة المنورة يستقبل الوفود . حيث كان ما يزال فى بلاد العرب من لم يؤمن بعد بالله ورسوله ، وإن كانوا فى الوقت نفسه . مايزالون — كما كانوا فى الجاهلية — يحجون الى الكعبة فى الأشهر الحرم ، ومن ثم فليبق سيدنا رسول الله . ﷺ . اذا بالمدينة . حتى يتم الله كلمته ، وحتى يأذن الله له بالحج الى بيته الحرام ، وليخرج أبو بكر حاجا بالناس(٧٥) .

على أن سيدنا ومولانا رسول الله . ﷺ . سرعان ما أمر الامام على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه ، أن يسرع الى مكة قبل

---

(٧٣) سورة الاسراء : آية ٨١ .

(٧٤) تاريخ الطبرى ٦١/٣ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٢ ، النويرى : تهذيب الاسماء ، واللغات ٢٩٨/١ ، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٤٤-٤٥ ، المسعودى : مروج الذهب ٢٩٠/٢ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٢٥٥/٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠١/٤ .

(٧٥) ابن هشام : سير النبى ﷺ ٩١٩/٤ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٢٨٦/٢-٢٩٢ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٨٢ ، تاريخ ابن خلدون ٥١/٢-٥٨ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ١٦٤-١٦٥ ، ارفنج : حياة محمد ص ٢٢٩ ، محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٤٧٠-٤٧٦ ، الصديق أبو بكر ص ٥٣ .

أن تصل اليها وفود الحجيج من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ، ليبلغهم بسورة نزل بها الوحى من السماء ، والتى عرفت بسورة براءة ، ويقوم سيدنا الامام على بالمهمة خير قيام ، ويبلغ رسالة النبى الاعظم، ﷺ ، الى الناس فى اجتماعهم العام هذا «يوم الحج الاكبر» فى «منى» وقبل الوقوف فى «عرفات» ، وقد جاء فى هذه الرسالة ، قول الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وان خفتم غيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ، ان شاء ، ان الله عليم حكيم»(٧٦) .

ويعلن الامام على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه فى الجنة ، بأمر رسول الله ، ﷺ . «يا أيها الناس : انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد اليوم مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله ، ﷺ ، عهد فهو الى مدته» . وأجل على الناس أربعة أشهر بعد ذلك ، ليرجع كل قوم الى بلادهم ، ومن يومئذ لم يحج بالبيت مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان»، وهكذا أعاد الاسلام الى الكعبة وجهها الصحيح ، كما كان على أيام ابراهيم واسماعيل ، عليهما السلام، بيتا لله وحده ، لا يعبد فيه أحد غيره(٧٧) .

وهكذا ازدادت الكعبة المشرفة شرفا وفضلا فى الاسلام ، فقد جعل

---

(٧٦) سورة التوبة : آية ٢٨ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٤/١٩٠-١٩٨ ، تفسير البحر المحيط ٥/٢٧-٢٩ ، فى ظلال القرآن ٣/١٦١٨-١٦١٩ ، تفسير الجلالين ص ١٧٠ ، ١٧٣ ، تفسير القرطبى ص ٢٩٤٢-٢٩٤٨ ، تفسير المنار ١٠/٢٤٠-٢٤٧ ، تفسير النسفى ٢/١٢٢-١٢٣ ، صفوة التفاسير ١/٥٣٠ ، تفسير أبى السعود ٢/٢٦٤-٢٦٥ ، تفسير ابن كثير ٢/٥٤١ - ٥٤٢ ، صحيح البخارى ٦/٨١ .

(٧٧) ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ٤/٢٠١-٢٠٥ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٢/٢٩١ ، المسعودى : مروج الذهب ٢/٢٩٠، التنبيه والاشراف ص ١٨٦-١٨٧ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٥٣ ، تفسير الطبرى ١٤/٩٥-١١٢، تفسير البيضاوى ١/٣٨٢ ، محمد بن عبد الوهاب : مختصر زاد المعاد ص ٣٦٧ - ٣٦٨ ، الخربوطلى : المرجع السابق ص ٨٩ ، محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٤٧٦ ، السباعى : تاريخ مكة ص ٥٤ ، فيلب حتى : المرجع السابق ص ١٦٣-١٦٤ ، محمد البتنونى : المرجع السابق ص ١٧ .

الله تعالى الكعبة البيت الحرام قبلة المسلمين فى صلاتهم . وجعل الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فى غيره ، كما أن الحج ــ ركن الاسلام الخامس : لا يتم الا بالطواف حول الكعبة المشرفة ، فهذان ركنان من أركان الاسلام الخمسة ــ الصلاة والحج ــ لا يتم الواحد منهما الا بالاتجاه الى الكعبة المشرفة فى مكة المكرمة ، ولا يصح الثانى الا فى مكة ومجاوراتها (عرفة ــ المزدلفة منى) ، وهكذا ، ومنذ السنة الثامنة للهجــرة النبوية الشريفة (عام ٦٣٠م) أصبحت مكة المكرمة مدينة الاسلام المقدسة ، يحج الى كعبتها كل عام عدد من البشر . يفوق ــ على وجه اليقين ــ أى عدد آخر من الحجاج الى أى مكان آخر على ظهر الارض ، يقصدون اليها لاداء فريضة الحج والصلاة فى بيتها الحرام ، والطواف حول كعبتها المشرفة .

هذا وقد وردت عدة أحاديث شريفة فى فضائل الكعبة المشرفة ــ فضلا عن مكة نفسها ــ من ذلك ما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما بسندد عن سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ أنه قال : «ان مكة حــرمها الله ولم يحرمها الناس : فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الاخر أن يسفك بها دم . ولا يعضد بها شجرة . فان أحد ترخص بقتال رسول الله ، ﷺ ، فيها ، فقولوا له : ان الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم . وانما أذن لى فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالامس ، وليبــلغ الشاهد الغائب» ، وروى الترمذى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : «ما أطيبك من بلد . وأحبك الى ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك» ، وفى رواية للامام أحمــد والترمذى وابن ماجة وابن حبان والحاكم عن ابن الحمراء أن رسول الله ﷺ قال «والله انك لخير أرض الله وأحب أرض الله الى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت» ، وروى مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ ، قــال : «لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة سلاح» .

وروى أن رسول الله ﷺ قال : «صلاة فى مسجدى هذا (أى مسجد الرسول بالمدينة) خير من ألف صلاة ، الا فى المسجد الحرام ، وفضل المسجد الحرام فضل مائة صلاة» ، وعن عطاء بن أبى رباح عن ابن الزبير

قال قال رسول الله ﷺ «فضل المسجد الحرام على مسجدى مائة صلاة» ، وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «صلاة فى مسجدى هـذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، الا المسجد الحرام»،وروى النووى فى شرح صحيح مسلم عن عبد الله بن الزبير قال قـال ﷺ : «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، الا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صـلاة فى مسجدى» وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال «لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد ، مسجدى هذا ، ومسجـد الحرام ، ومسجد الاقصى»(٧٨) .

---

(٧٨) انظر : صحيح مسلم ١٢٣/٩ـ١٦٩ (بيروت ١٩٨١) .

المراجـــــع

أولا : المراجـــع العـربية

القرآن الكريم
كتب الحديث الشريف
كتب التفســـير
التـــــوراة

ابراهيم الابيارى ، تاريخ القرآن ، القاهرة ، ١٩٦٥ ٠

ابكار السقاف ، اسرائيل وعقيدة الارض الموعودة ، القاهرة ١٩٦٧ ٠

ابن حجر العسقلانى (احمـــد بن على) ، الاصابة فى تمييز الصحابة ـ الجزء الاول ـ القاهرة ١٩٣٩ ٠

ابن عبد ربه (أبو عمر احمد بن محمد الاندلسى) ، العقد الفريد ـ تحقيق مفيد محمد قميحة ـ الجزء الاول ـ بيروت ١٩٨٣ ٠

ابن عبد ربه (أبو عمر احمد بن محمد الاندلسى) ، العقد الفريد ـ تحقيق عبد المجيد الترحينى ـ الجزء السادس ـ بيروت ١٩٨٣ ٠

ابن الاثير (عز الدين أبو الحسن على الشيبانى) ، الكامل فى التاريخ، حـ١ ، بيروت ١٩٦٥ ٠

ابن حزم (أبو محمد على بن احمد) ، جمهـــرة أنساب العرب ـ بيروت ١٩٨٣ ٠

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمـــد) ، مقدمة ابن خلدون ، بيروت ١٩٨١ ٠

أبو جعفر محمد بن حبيب ، كتاب المحبر ـ حيدر أباد الدكن ١٩٤٢ ٠

أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبى ، كتاب الاصنام ـ الدار القومية ـ القاهرة ١٩٦٥ ٠

احمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ١٩٦٥ ٠

احمد الشامى ، فى تاريخ العرب والاسلام ـ القاهرة ، ١٩٨٢ ٠

أحمد أمين ، فجر الاسلام ، بيروت ١٩٦٩ ٠
أحمـــد بدوى ، فى موكب الشمس ـ الجـــزء الاول والثانى ـ القاهرة ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥ ٠
أحمد حسن الباقورى ، مع القرآن ـ القاهرة ١٩٧٠ ٠
أحمد فخرى ، دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، القاهرة ١٩٦٣ ٠
أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، القاهرة ١٩٧١ ٠
أحمد عبد الرحمن عيسى ، من دلالات سورة قريش ـ الرياض ١٩٧٧ ٠
أحمد محمد الحوفى ، المرأة فى الشعر الجاهلى ـ القاهرة ١٩٥٤
أحمد مختار عمر ، تاريخ اللغة العربية فى مصر ـ القاهرة ١٩٧٠ ٠
اسرائيل ولفنسون ، تاريخ اليهود فى بلاد العرب ، القاهرة ١٩٢٧ ٠
الاصطخرى ، المسالك والممالك ـ طبعة ليدن ١٨٧٠ ٠
الالوسى ، (السيد محمود شكرى) ، بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب ـ الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٢٤ ٠
البلازرى (أحمد بن يحيى) ، أنساب الاشراف ـ الجزء الثانى ـ القاهرة ١٩٥٩
التهامى نقرة ، سيكولوجية القصة فى القرآن ، تونس ١٩٧٤ ٠
الجـــوزى ، الوفاء باحوال المصطفى ، القاهرة ١٩٦٦ ٠
الحربى (ابو اسحاق ابراهيم بن اسحاق) ، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، تحقيق حمد الجاسر ، الرياض ١٩٦٩٠
الزبير بن بكار ، جمهرة نسب قريش ، القاهرة ١٣٨١ هـ٠
السجستانى (الحافظ ابو بكر عبـــد الله بن أبى داود) ، تفسـير غريب القرآن ـ القاهرة ١٩٨٠٠
السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر) ، حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة جـ ٢ ، القاهرة ١٣٢١ هـ٠
السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر) الخصائص الكبرى جـ ١ (دار الكتب العلمية بيروت) ٠
الفيروز آبادى ، القاموس المحيط ـ جـ ٤ القاهرة ١٩٥٢ ٠
المقريزى ، البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب، القاهرة ١٩٦١٠
القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) ، نهاية الارب فى معرفة انساب العرب ، جـ ٦ ، القاهرة ١٩٥٩ ٠

الهمــذانى (ابو الحسن بن أحمد بن يعقوب) ، صفة جزيرة العــرب ، تحقيق محمد بن على الاكوع ، الرياض ١٩٧٤ ٠

الواقــدى ، كتاب المغازى جـ ١ ، بيروت ١٩٨٤ ٠

ايتين دينية وسليمان ابراهيم ، محمد رسول الله ـ القاهرة ١٩٥٨ ٠

جمال حمدان ، اليهود انثروبولوجيا ـ القاهرة ١٩٦٧ ٠

جمال حمدان ، انماط من البيئات ـ القاهرة ٠

جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام (عشرة أجزاء) بيروت ١٩٦٨ ـ ١٩٧١ ٠

جورجى زيدان ، العرب قبل الاسلام ـ بيروت ١٩٦٨ ٠

حبيب سعيد ، ابراهيم فى اليهودية والمسيحية والاسلام ، القاهرة ٠

حسن ابراهيم ، تاريخ الاسلام السياسى ـ الجزء الاول ـ القاهرة ١٩٦٤ ٠

حسن ظاظا ، الساميون ولغاتهم ـ الاسكندرية ١٩٧١ ٠

حمزة الاصفهانى ، تاريخ سنى ملوك الارض والانبياء ، برلين ١٣٤٠ هـ ٠

رشيد الناضورى ، المدخل الى الفكر الدينى ، بيروت ١٩٦٩ ٠

سعد زغلول عبد الحميد ، فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٧٥ ٠

سيد قطب ، فى ظلال القرآن ـ بيروت ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠ ٠

صبرى جرجس ، التراث اليهودى الصهيونى ـ القاهرة ١٩٧٠ ٠

صلاح الشامى ، الموانى السودانية ـ القاهرة ١٩٦١ ٠

عباس محمود العقاد ، مطلع النور ـ دار الهلال ـ القاهرة ١٩٦٨ ٠

عباس محمود العقاد ، المرأة فى القرآن ، بيروت ١٩٦٩ ٠

عباس محمود العقاد ، الاسلام دعوة عالمية ، القاهرة ١٩٧٠ ٠

عباس محمود العقاد ، ابراهيم أبو الانبياء ، القاهرة (بدون) ٠

عبد الحميد زايد ، الشرق الخالد ، القاهرة ١٩٦٦ ٠

عبد الرحمن الانصارى ، لمحات عن بعض المدن القديمة فى شمال غربى الجزيرة العربية ـ مجلة الدارة ـ العــدد الاول ـ الرياض ١٩٧٥ ٠

عبد العزيز سالم ، دراسات فى تاريخ العرب ـ الجزء الاول ـ عصر ماقبل الاسلام ، الاسكندرية ١٩٦٨ ٠

عبد العزيز صالح ، الشرق الادنى القديم ، الجزء الاول ، مصر والعراق ، القاهرة ١٩٦٧ ٠

عبد العزيز صالح ، المرأة فى النصوص والاثار العربية القديمة ، الكويت ١٩٨٥ ·

عبد المجيد عابدين ، بين الحبشة والعرب ، القاهرة ١٩٤٧ ·

عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى للدولة العربية ـ الجزء الاول ، القاهرة ١٩٦٧ ·

عطية صقر ، الذين العالمى ومنهج الدعوة اليه القاهرة ١٩٧٠ ·

على عبد الواحد وافى ، الاسرة والمجتمع ـ القاهرة ١٩٤٥ ·

عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية ـ بيروت ١٩٦٤ ·

فؤاد حمزه ، فى بلاد عسير ـ القاهرة ١٩٥١ ·

لويس شيخو ، شعراء النصرانية ، الجزء الاول بيروت ١٨٩٠ ·

محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين ـ الجزء الاول ـ القاهرة ١٩٧٩ ·

محمد احمد جاد المولى وآخرون ، أيام العرب فى الجاهلية ، القاهرة ١٩٤٢ ·

محمد الصادق عرجون ، محمد ﷺ من نبعته الى بعثته ـ القاهرة ١٩٦٩ ·

محمد الغزالى ، فقه السيرة ـ القاهرة ١٩٧٦ ·

محمد بيومى مهران ، مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ، الاسكندرية ١٩٦٩ ·

محمد بيومى مهران ، الساميون والاراء التى دارت حول موطنهم الاصلى ـ الرياض ١٩٧٤ ·

محمد بيومى مهران ، العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة ، الرياض ١٩٧٦ ·

محمد بيومى مهران ، دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم ، الجزء الثانى ـ اسرائيل ـ الاسكندرية ١٩٧٨ ·

محمد بيومى مهران ، الديانة العربية القديمة ـ الاسكندرية ١٩٧٨ ·

محمد بيومى مهران ، اسرائيل ـ الكتاب الرابع ، الاسكندرية ١٩٧٩ ·

محمد بيومى مهران ، الحضارة المصرية القديمة ـ الاسكندرية ١٩٨٤ ·

محمد بيومى مهران ، تاريخ العرب القديم ، الإسكندرية ١٩٨٨ ·

محمد حسين هيكل ، حياة محمد ﷺ ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ ·

محمد عبد الله دراز ، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الاديان ، القاهرة ١٩٦٩ ·

محمد عبد الله دراز ، مدخل الى القرآن الكريم ، الكويت ١٩٧٤ ·

محمد عبد المعيد خان ، الاساطير العربية قبل الاسلام ـ القاهرة ١٩٣٦ ٠
محمد عوض محمد ، الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، القاهرة ١٩٥٧ ٠
محمد مبروك نافع ، عصر ما قبل الاسلام ـ القاهرة ١٩٥٢ ٠
محمد محمود جمعه ، النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والامم السامية ـ القاهرة ١٩٤٩ ٠
محمد أبو زية ، دين الله واحد على السنة جميع الرسل ، القاهرة ١٩٧٠ ٠
محمود الشرقاوى ، الانبياء فى القرآن الكريم ، القاهرة ١٩٧٠ ٠
محمود شاكر ، شبه جزيرة العرب ـ الجزء الاول ـ عسير ـ بيروت ١٩٧٦ ٠
محمود طه أبو العلا ، جغرافية شبه جزيرة العرب ـ الجزءان الثالث والرابع ، القاهرة ١٩٧٢ ٠
مصطفى الشريف ، عروبة مصر من قبائلها ـ القاهرة ١٩٦٥ ٠
مصطفى مسعد ، الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٦٠ ٠
مظهر على الاريانى ، فى تاريخ اليمن ـ القاهرة ١٩٧٣ ٠
منيس عبد النور ، ابراهيم السائح الروحى ، القاهرة ٠
مولانا محمد على ، حياة محمد ورسالته ، بيروت ١٩٦٧ ٠
نجيب ميخائيل ، مصر والشرق الادنى القديم ، جـ٣ ، الاسكندرية ١٩٦٦ ٠
نجيب ميخائيل ، مصر والشرق الادنى القديم جـ ٣ ، الاسكندرية ١٩٦٦ ٠
نجيب ميخائيل ، مصر والشرق الادنى القديم ، حـ٦ ، الاسكندرية ١٩٦٧ ٠
نزيه العظم ، رحلة فى بلاد العرب السعيدة ، القاهرة ١٩٣٨ ٠

ثانيا : المراجع المترجمة :

ادولف ارمان : ديانة مصر القديمة ، ترجمة عبد المنعم ابو بكر ومحمد أنور شكرى ، القاهرة ١٩٥٤ ٠
ارثر كريستنس : ايران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة يحيى الخشاب ـ القاهرة ١٩٥٧ ٠
الويس موسل : شمال الحجاز ـ ترجمة عبد المحسن الحسينى ـ الاسكندرية ١٩٥٢ ٠
اليزابيث مونر : الجزيرة العربية بين البخور والبترول ، ترجمة محمود محمود ، مجلة الدارة ، العدد الاول ، الرياض ، ١٩٧٦ ٠

بيتر بروس كورنول : البحث عن ماضى جزيرة العرب ، ترجمة محمود محمد الشهاوى ـ القاهرة ـ ١٩٥٣ ٠

تيودور نولدكه : أمراء غسان من آل جفنة ، ترجمة قسطنطين رزيق ويندلى خورى ـ بيروت ١٩٣٣ ٠

جورج فضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ـ ترجمه وزاد عليه السيد يعقوب بكر ـ القاهرة ١٩٥٨ ٠

جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٤٨٠

جون ويلسون : الحضارة المصرية ، ترجمة الدكتور احمد فخرى ، القاهرة ١٩٥٥ ٠

جيمس فريزر : الفلكلور فى العهد القديم ـ جزءان ـ ترجمة الدكتورة نبيلة ابراهيم ومراجعة الدكتور حسن ظاظا ، القاهرة ١٩٧٣/٧٢٠

ديتلف نلسن وآخرون : التاريخ العربى القديم ـ ترجمه وازد عليه الدكتور فؤاد حسنين ـ القاهرة ١٩٥٨ ٠

ول ديورانت : قصة الحضارة ـ الجـزء الثانى ـ ترجمة محمد بدران ، القاهرة ١٩٦١ ٠

ريجيس بلاشير : تاريخ الادب العربى ـ العصر الجاهلى ـ ترجمة ابراهيم كيلانى ـ بيروت ١٩٥٦ ٠

رينيه ديسو : العرب فى سورية قبل الاسلام ، ترجمة عبد الحميد الدواخلى القاهرة ١٩٥٩ ٠

سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ، ترجمه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٨ ٠

سير الن جاردنر : مصر الفراعنة ، ترجمة الدكتور نجيب ميخائيل ، ومراجعة الدكتور عبد المنعم ابو بكر ، القاهرة ١٩٧٣ ٠

فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، الجزء الاول ، ترجمة جورج حداد ، وعبد الكريم رافق ، بيروت ١٩٥٨ ٠

فيليب حتى : تاريخ العرب ، الجـزء الاول ، ترجمة ادوارد جرجى ، جبرائيل جبور ، بيروت ١٩٦٥ ٠

كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ، منير البعلبكى ، بيروت ١٩٦٥ ٠

كريستيان نوبلكور : توت عنخ آمون ، ترجمة أحمد رضا ، ومحمود خليل

النحاس ، ومراجعة الدكتور احمد عبد الحميد يوسف ، القاهرة ١٩٧٤ ٠

ج٠ كونتنو : الحضارة الفينيقية ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة ومراجعة الدكتور طه حسين ، القاهرة ٠

محمد اقبال : تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، ترجمة عباس محمود العقاد ، القاهرة ، ١٩٥٥ ٠

ثالثا : المراجع الاجنبية :

N. Abbot, Pre-Islamic Arab Queens, in AJSL, 58. 1941.

W. F. Albright, From the Stone Age to Christianity, Baltimare, 1946.

F. Altheim und R. Stiehl, Die Araber in der Alten Welt, Berlin, 1964.

A. Amer, The Ancient Trans-Peninsular Routes of Arabia, Cairo, 1925.

A.F.L. Beeston, Problems of Sabaean Chrondgy, in BASOR 16, 1954.

R. Bell, The Origin of Islam in its Christian Environment, London, 1926.

G. Bibby, Looking for Dilmun, London, 1970.

Bent - Maury, L'Islamisme et le Christionisme en Afrique, Paris, 1906.

R. L. Bowen and F. Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, Baltimore, 1958.

J. H., Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., 1939.

J. H. Breasted, A History of Egypt, From the Earliest Times to Persian Conquest, N. Y. 1946.

J. B. Bury, A History of the Eastern Roman Empire, London, 1912.

L. Caetani, Annali dell'Islam, Milano 1905.

W. M. Callichan, The Psychology of Marriage,

W. Caskel, Lihyan und Lihansch, Koln, 1954.

Caussin-de Perceval, Essai sur L'Histoire des Arabes avant L'Islamisme. I-II, Paris, 1847.

P. Dhorme, Langues et Ecritures Semitiques, Paris, 1930.

R. P. Dougherty, Nabonidus and Belshazzar, New-Haven, 1929.

A. J. Drewes, Inscriptions de L'Ethiopie Antique, 1961.

Dupont-Sommer, Les Arameens, Paris, 1949.

R. Dussaud, La Penetration des Arabes en Syrie avant L'Islam, Paris 1955.

A. Erman, The Literature of the Ancient Egyptian, London, 1927.

J. Finegan, Light From the Ancient Past, the Archaeological Background of Judaism and Christanity, I. Princeton, 1969.

C. J. Gadd, The Harran Inscriptions of Nabonidus, AS, 8, 1958.

A. Gardiner, Egypt of the Pharahos, Oxford, 1964.

A. Gardiner, Egyptian, Grammar, Oxford, 1966.

E. Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1950.

E. Glaser, Die Abessinier in Arabien und Africa, 1895.

E. Glaser, Zweilnschriften uber den Dammbruch von Marib, MVG, II, 1897.

A. Goetze, in Ancient Near Eastern Textes, 1966.

G. Goldziher, History of Classical Arabic Literatue, 1966.

H. Graetz, History of The Jews, II, Philadelphia, 1956.

F. W. Green, Notes on Some Inscripitions in The Ethai Deserict, in, PSBA, 26, 1959.

A. Grohmann, Arabien, Munchen, 1963.

A. Guillaume, Islam, (Penguin Books), 1964.

R. Hamilton, Archaeological Sites in the Western Aden Protectorate, in GJ, 101, 1943.

J. Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, Edinburgh, 1908-1921.

J. Hastings, A Dictionary of The Bible, Edinburgh, 1936.

E. W. Heaton, The Old Testment Prophets, (Penguin Books), 1969.

P. K. Hitti, History of the Arabs, London, 1960.

G. Hourani, Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times, Beirut.

S. A. Huzayyin, Arabia and the Far East, Cairo, 1942.

K. S. Hwitchell, Saudi Arabia With an Account of Development of its Natural Resources, Princeton, 1943.

A. J. Jaussen et R. Savignac, Mission Archeologique en Arabie II, Paris, 1911.

H. Joseph Hell, The Arab Civilization, Beirut, 1973.

A. Kammerer, Petra et la Nabatene, Paris, 1929.

W. Keller, The Bible As History (Hodder and Stougton), 1967.

De Lacy. D. D. O'Leary, Arabia Before Muhummad, London, 1927.

H. Lammence, La Mecque a la Veille de L'Hegire, Beyrouth, 1924.

E. Litmann, Thamud und Safa, Lepizig, 1940.

A. Lods, Israel From its Beginnings to the Middle of the Eight Century, London, 1962.

D. D. Luckenbill, in ARAB, II, Chicago 1927.

T. J. Meek, The Code of Hammurabi, in ANET.

S. Mercer, The Tell el-Amarna Tablets, I, Toronto, 1939.

S. Mercer, Hours Royal God of Egypt, Massachisetts, 1942.

E. Monroe, Arabia, From Incense to Oil, Addarah, I, Riyadh, 1976.

J. Montgomery, Arabia and The Bible, Philadelphia, 1934.

A. Musil, The Northern Hegas, New York, 1926.

A. Musil, Palmyrena, New York, 1928.

A. Musil, In The Arabia Deserta N. Y. 1930.

R. A. Nicholson, A Literary History of the Arabs, Cambridge, 1962.

M. Noth, The History of Israel, London, 1965.

W. Oesterley, Egypt and Israel, in The Legacy of Egypt, Oxford, 1947.

G. Olinder, The Kings of Kindah, of the Family of Akil al Mirar, Lund, 1927.

AL. Oppenheim, in ANET, 1966.

J. B. Philly, Sheba's Daughters, London, 1939.

J. B. Philly, The Background of Islam, Alexandria, 1947.

J. Pirenne, Le Royaume, Sud-Arabe de Qataban et sa Datalion, Louvain, 1961.

F. Praotorius, Bemerkungen Zur den bedien Grossen Inschriften Von Dammbruch Zu Marib, in ZDMG, 1899.

G. A. Reiner, C. S. Fisher, and D. G. Lyon, Harvard Excavations at Samaria 1908-1910, 2 Vols. 1924.

N. Rhodokanakis, Katabanische Texte Zur Bedenwirtschaft, Wien, 1922.

I. Roth, A Short History of The Jewish People, London, 1969.

G. Rothstein, Die Dynastie der Lackmiden, in la Aira, Berlin, 1899.

J. Rychmans, L'Institution Monarchique en Arabie Meridionale avant L'Islam, Louvain, 1951.

G. Ryckmans, Publication of the Inscriptions, III 1951.

G. Ryckmans, Les Religions Arabs Pre-Islamiques, Lauvain, 1961.

W. R. Smith, Kingship and Marriage in Early Arabia, London, 1907.

A. Sprenger, Das Leben und die Lehre des Mohammad, Berlin, 1861.

A. Sprenger, The Campaign of Aelius Gallus, JRAS, 1873.

A Sprenger, Die Alte Geographie Arabiens, Berlin, 1875.

J. Starcky, Palmyreniens, Nabateens of Arabes du Nord avant L'Islam, dans Histoire des Religions, IV, Tourni, 1956.

F. Steele. The Code of Libit Ishtar, AJA, LII, 1948.

B. Thomas, Arabia Felix, Across The Empty Quatur of Arabia, New York, 1932.

M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970.

W. Warrell, A Study of Races in Ancient Near East. Cambridge, 1927.

W. M. Watt, Muhammad at Mecca, Oxford, 1953.

A. E. Weigall, Travels in th Upper Egypt, I, London, 1934.

J. Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927.

Westermark, History of Human Marriage, III, 1921.

J. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963.

H. Von Wissmann und M. Hofner, Beitrage Zur Historischen Geographie des Vorislamischen Sudarabien, Wiesbaden, 1953.

L. Wolley, Excavations at Ur, London, 1963.

فهرست الموضوعات

الباب الثالث

الحيـاة الدينيـة

مؤلفـــــات

الاستاذ الدكتور محمد بيومى مهران
أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والاسلامية
بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

لولا : فى التاريخ المصرى القديم :

١ ـ الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة — الاسكندرية ١٩٦٦

٢ ـ مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث — الاسكندرية ١٩٦٦

٣ ـ حركات التحرير فى مصر القديمة ـ دار المعارف — القاهرة ١٩٧٦
(وهو الجزء الثالث من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم)

٤ ـ اخناتون : عصره ودعوته — الاسكندرية ١٩٧٩
(وهو الجزء الرابع من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم)

٥ ـ مصر الكتاب الاول ـ التاريخ — الاسكندرية ١٩٨٢

٦ ـ مصر الكتاب الثانى ـ التاريخ — الاسكندرية ١٩٨٤
وهما الجزءان الاول والثانى من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم .

٧ ـ الحضارة المصرية القديمة — الاسكندرية ١٩٨٤
(وهو الجزء الخامس من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم)

ثانيا : فى تاريخ اليهود القديم :

٨ ـ دراسات فى تاريخ اليهود القديم ـ التوراة (١) ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٣ — الاسكندرية ١٩٧٠

٩ ـ دراسات فى تاريخ اليهود القديم ـ التوراة (٢) ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٤ — الاسكندرية ١٩٧٠

١٠ ـ دراسات فى تاريخ اليهود القديم ـ التوراة (٣) ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٥ الاسكندرية ١٩٧٠

١١ ـ قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والاسطورة (١) ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٦ الاسكندرية ١٩٧١

١٢ ـ قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والاسطورة (٢) ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٧ الاسكندرية ١٩٧١

١٣ ـ النقاوة الجنسية عند اليهود ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٨ الاسكندرية ١٩٧١

١٤ ـ أخلاقيات الحرب عند اليهود ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٩ . الاسكندرية ١٩٧١

١٥ ـ التلمود ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٧٠ الاسكندرية ١٩٧٢

١٦ ـ اسرائيل : الكتاب الاول ـ التاريخ الاسكندرية ١٩٧٨
(وهو الجزء السابع من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم)

١٧ ـ اسرائيل ـ الكتاب الثانى ـ التاريخ الاسكندرية ١٩٧٨
(وهو الجزء الثامن من دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم)

١٨ ـ اسرائيل ـ الكتاب الثالث ـ الحضارة الاسكندرية ١٩٧٩
(وهو الجزء التاسع من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم)

١٩ ـ اسرائيل ـ الكتاب الرابع ـ الحضارة
(وهو الكتاب العاشر من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم)

٢٠ ـ النبوة والانبياء عند بنى اسرائيل الاسكندرية ١٩٧١

ثالثا : فى تاريخ العرب القديم :

٢١ ـ الساميون والاراء التى دارت حول موطنهم الاصلى
مجلة كلية اللغة العربية ـ العدد الرابع الرياض ١٩٧٤

٢٢ ـ العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة
مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ العدد السادس الرياض ١٩٧٦

٢٣ ـ مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة
مجلة كلية العلوم ـ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ العدد الاول الرياض ١٩٧٧

٢٤ ـ دراسات فى تاريخ العرب القديم
(وهو الجزء السادس من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم. وقد أصدرته جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، تحت رقم (١) من المكتبة التاريخية) الرياض ١٩٧٧

٢٥ ـ دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الجزء الاول فى بلاد العرب (أصدرته جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ تحت رقم (٢) من المكتبة التاريخية) الرياض ١٩٨١

٢٦ ـ دراسة حول الديانة العربية القديمة الاسكندرية ١٩٧٨

٢٧ ـ العرب والفرس فى العصور القديمة الاسكندرية ١٩٧٨

٢٨ ـ دراسات فى الحضارة العربية القديمة تحت الطبـع

٢٩ ـ الفكر الجاهلى، المجلس الاعلى للثقافة القـاهرة ١٩٨٢
(بحث فى كتاب الحضارة الاسلامية على مدى أربعة عشر قرنا)

رابعا : فى تاريخ العراق القديم :

٣٠ ـ قصة الطوفان بين الاثار والكتب المقدسة
مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ العدد الخامس
الرياض ١٩٧٥

٣١ ـ قانون حمورابى واثره فى تشريعات التوراة. الاسكندرية ١٩٧٩

٣٢ ـ المدخل فى تاريخ الشرق الادنى القديم ـ (بالاشتراك مع الاستاذ الدكتور رشيد الناضورى)، (جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية).

خامسا : دراسات تاريخية من القرآن الكريم :

الجزء الاول : فى بلاد العرب بيروت ١٩٨٨

الجزء الثانى : فى مصر بيروت ١٩٨٨

الجزء الثالث : فى بلاد الشام بيروت ١٩٨٨

الجزء الرابع : فى العراق بيروت ١٩٨٨

سادسا : فى رحاب النبى وآل بيته الطاهرين :

الجزء الاول : السيرة النبوية الشريفة	تحت الطبع
الجزء الثانى : السيرة النبوية الشريفة	تحت الطبع
الجزء الثالث : السيدة فاطمة الزهراء	تحت الطبع
الجزء الرابع : الامام على بن أبى طالب	تحت الطبع
الجزء الخامس : الامام الحسن بن على	تحت الطبع
الجزء السادس : الامام الحسين بن على	تحت الطبع